

معالم الفتن

الجزء: ١

سعيد أيوب

الكتاب: معالم الفتن

المؤلف: سعيد أيوب

الجزء: ١

الوفاة: معاصر

المجموعة: من مؤلفات المستبصرين

تحقيق:

الطبعة: الأولى

سنة الطبع: ١٤١٦

المطبعة: سپهر

الناشر: مجمع إحياء الثقافة الإسلامية

ردمك:

المصدر: مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث شبكة رافد للتنمية

الثقافية rafed.net مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث . بيروت - al-

albayt.com

ملاحظات: التوزيع : انتشارات سعيد بن جبير - قم

الفهرست

الصفحة	العنوان
٥	تصدير بقلم الدكتور عاطف سلام
٩	الاهداء
١١	المقدمة
١٧	النور الذي أضاء أولا - نور في أعماق الوجود ١ - المنابع
٢٠	٢ - نظرات على طريق الابتلاء
٢٣	٣ - برنامج الشيطان
٢٥	أولا - قطع الطريق على الأنبياء والرسل عليهم السلام
٢٦	ثانيا - قطع الطريق على الفطرة
٣٠	ثالثا - قطع الطريق على الدعوة
٣٥	٤ - حصار برنامج الشيطان
٣٩	ثانيا - النور والسحب الداكنة
٤١	١ - من مداخل الدعوة الخاتمة
٤٣	٢ - عواصف الصد عن سبيل الله
٤٤	أولا - دائرة النجس
٤٨	حصار دائرة النجس
٥١	ثانيا - دائرة الرجس
٥٧	ثالثا - تيار الذين في قلوبهم مرض
٦٦	رابعا - جهاز الرجس التخريبي
٦٦	١ - استهداف النبي صلى الله عليه وسلم
٦٨	٢ - استهداف الدعوة
٧١	٣ - استهداف القوة العسكرية
٧٧	٤ - جهاد الرسول صلى الله عليه وسلم لتيارات الصد الداخلية
٨٥	ثالثا - النور وحصار دائرة الجرس ١ - من الذي يدعو ويختار؟
٩٢	٢ - دائرة الطهر
٩٥	أولا من هم المطهرون
٩٦	ثانيا - إعلان الناس بمن هم المطهرون
١٠٢	ثالثا - القرآن والمطهرون والحوض
١٠٦	رابعا - من حقوق المطهرين
١١٨	خامسا - من مناقب أهل البيت
١١٨	من مناقب علي بن أبي طالب
١١٩	من مناقب فاطمة
١٢١	من مناقب الحسن والحسين
١٢٧	رابعا - النور والولاية

١٣١	١ - تعريف من هو الصحابي
١٣٨	٢ - ولاية الله عز وجل
١٤١	٣ - ولاية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
١٤٦	٤ - ولاية علي بن أبي طالب
١٤٧	أولا - علي بن أ طالب والعلم
١٥٠	ثانيا - أضواء علي اختيار الله لعلي
١٥٥	ثالثا - أضواء على قيادة علي
١٦٨	٥ - حجة الوداع وإعلان الولاية
١٧١	أولا - حجة الوداع
١٧٥	ثانيا - يوم غدیر خم
١٨٦	ثالثا - الحجة على من لم يشهد الغدير
١٩٥	خامسا - النور بين التحذير والتبشير
١٩٧	١ - النبي يحذر من أصول الفتن
٢٠١	٢ - الرسول ونظرات على واقع بعيد
٢٠٥	٣ - النبي يحذر من رموز الفتن
٢١٨	٤ - الرسول وإقامة الحجة على القريب والبعيد
٢٢٧	٥ - خاتمة المطاف عند الحوض يوم القيامة
٢٣٥	سادسا - غروب الشمس والقمر
٢٤٠	١ - من معالم الغروب
٢٥٠	٢ - زعر على أعتاب الغروب
٢٥٨	٣ - القرارات الأخيرة للنبي صلى الله عليه وسلم
٢٥٩	أولا - الأمر الواقعي من الضلال
٢٦٧	ثانيا - الأمر العسكري الأخير
٢٧٠	ثالثا - الأمر الطبي الأخير
٢٧١	رابعا - الوصايا
٢٧٧	الطريق إلى الفتن أولا - الاختيار أضواء على سقيفة بني ساعدة
٢٧٩	١ - الطريق إلى السقيفة
٢٨٤	٢ - أضواء على الأنصار
٢٨٧	٣ - صراع داخل السقيفة
٢٩٠	٤ - صراع خارج السقيفة
٢٩٣	٥ - هتاف الأنصار
٣٠٠	٦ - الخلافة في قریش
٣١٠	ثانيا - دائرة الرأي
٣١٠	١ - من معالم الرأي
٣١٤	٢ - نظرات على فدك
٣٢٢	٣ - تساؤلات على الطريق
٣٢٥	ثالثا - التعقيم والظهور

٣٣٣	١ - التضيق على رواية الحديث الشريف
٣٣٣	٢ - من آثار عدم رواية الحديث
٣٣٣	أ - القص في المساجد
٣٤١	ب - الاقتحام بالشعر
٣٤٨	٣ - إلغاء سهم المؤلفة قلوبهم
٣٥١	نظرات على الطريق
٣٥٧	رابعاً - الامراء و الفتن
٣٥٨	١ - امراء على الطريق
٣٧٢	٢ - الامراء والفتوحات
٣٧٤	٣ - رحلة الخراج
٣٨٢	٤ - نهاية الطريق
٣٨٧	٥ - مشهود في أول الطريق
٣٩٣	خامساً - وجاء بنو أمية
٣٩٥	١ - يوم الشورى
٤٠٢	٢ - رياح بني أمية
٤٠٥	٣ - ظهور النفاق
٤٠٨	٤ - الاحتجاج السلمي
٤١٥	الرد على الاحتجاج السلمي
٤٢٠	٦ - البطانة السوء
٤٢٤	٧ - العاصفة والبحث عن الذات
٤٣١	٨ - من الذي قتل عثمان
٤٤٩	وظهر القمر أولاً - من معالم الحكومة الدينية
٤٥٦	النداء الحق
٤٥٩	١ - الظهور
٤٦٢	٢ - اصلاحات علوية
٤٦٢	قرار عزل أمراء الفتن
٤٦٤	قرار التسوية في الأموال
٤٧٠	قرارات قيادية
٤٨٣	قرار رواية العلم ومنع القص
٤٩١	٣ - العالم العامل الزاهد
٤٩٧	ثانياً - البغاة والقمر
٥٠٣	١ - ضجيج في أعماق الحجة
٥٠٨	٢ - الناكثون في أعماق الحجة
٥١٣	٣ - لقاء في مكة
٥١٧	٤ - نظرات على طريق البغي
٥٢٢	٥ - إصداء يوم غدیر خم
٥٢٨	٦ - على هامش أصداء يوم خم

معالم الفتن
نظرات في حركة الإسلام وتاريخ المسلمين

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(٢)

معالم الفتن
نظرات في حركة الإسلام وتاريخ المسلمين
سعيد أيوب
الجزء الأول

(٣)

الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ * ١٩٩٣ م
حقوق الطبع محفوظة

(٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم الدكتور عاطف سلام

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الأطهار الطيبين، وصحابته المنتجبين. أما بعد فإن الكتاب الذي بين أيدينا يتناول تلك الحقبة التاريخية التي تلت وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وامتدت بعد ذلك إلى عدة عقود، وعلى الرغم من الأهمية البالغة التي تتميز بها تلك الحقبة الحساسة، حيث قد تشكلت فيها الجذور السياسية والاجتماعية والثقافية للمسلمين إلا أنها لم تحظ بالاهتمام المرجو من قبل الباحثين والمفكرين، وأصبح الكثير من المثقفين لا يعرف سوى النزر اليسير عنها، وبالنسبة لبعض الدراسات القليلة المتناثرة التي دارت حولها فإن أساليب تناول تلك الحقبة قد تعددت واختلفت على نحو لا يروي ظمأ طلاب العلم والحقيقة، ولا يعينهم على استيعابها وإدراك أثارها، فهناك الاتجاه الأدبي الذي تناول تلك الحقبة بشكل ضيق محدود، وسار على منهج مميح لا يفضي إلى نتائج محددة أو مفاهيم واضحة عنها، وكان يفتقر إلى ميزان ثابت منبثق عن الدعوة الإسلامية ذاتها يمكن أن يقاس عليه وقائع تلك الحقبة، ولعل هذا الاتجاه كان

يرمي إلى الناحية الأدبية اللغوية فحسب بعيدا عن الرؤى العقائدية، وهناك الاتجاه الصامت المنغلق الذي يرى عدم تناول تلك الحقبة بالبحث والدراسة مطلقا، بل وصل الأمر إلى حد التحذير من محاولة فحص وقائعها وأحداثها بحجة أن ذلك قد يقود إلى إساءة الظن ببعض الشخصيات والتجمعات البارزة التي تنتمي إليها، وهناك الاتجاه الممالي المتملق الذي دأب على مجرد المدح والإطراء، ولم يدخر وسعا في قلب الأمور رأسا على عقب وبتر الحقائق من أجل تصويب وقائع تلك الحقبة ومواقف أصحابها على نحو يصعب تصديقه أو التسليم به بالنسبة للقارئ العادي... إلى غير ذلك من الأساليب والاتجاهات التي كانت غالبا ما تقصر عن الوفاء بأمانة البحث العلمي المحض الذي يؤدي في النهاية إلى توعية القارئ بطبيعة تلك الحقبة، وتوضيح الرؤية حولها، والخلوص بتقييم موضوعي لها، وتحديد علاقتها - ولو إجمالا - بالواقع الحالي.

إن تناول تلك الحقبة بالبحث والدراسة يقودنا - لا محالة - إلى طرح التساؤل الآتي: هل كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يفكر جديا بمستقبل الأمة من بعده، وما الإجراءات التي اتخذها في هذه السبيل؟

إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يمثل القلب النابض والعقل المفكر لتلك الدولة الناهضة، فهل أعد منهاجا واضحا لتشكيل القيادة من بعده، بحيث يكفل ذلك الاستمرارية والاستقرار على النحو الذي ينشده للمسيرة التي بدأها؟ وعلى فرض وجود منهج واضح حول القيادة قد حدده الرسول (صلى الله عليه وسلم) فهل قام بتوعية الأمة به؟

وعلى فرض قيامه بذلك، فهل خرج هذا المنهج من بعده إلى حيز التنفيذ بشكل كامل، أم خرج بشكل جزئي، أم لم يخرج قط نتيجة الظروف والمتغيرات التي طرأت على واقع الأمة إبان وفاته؟

من ناحية أخرى فإن أهمية البحث في تلك الجذور التاريخية وفحص وقائعها البارزة تمكن في انعكاسها بشكل أو بآخر على الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي الذي امتد من خلالها عبر القرون التالية إلى اليوم.

إن الدعوة القائلة بأن نغض الطرف عن وقائع تلك الحقبة الهامة، وأن نجعل بيننا وبينها حجاباً مستوراً لا تخدم الحقيقة، بل لا تخدم الإسلام ذاته، حيث إن تراكمات الماضي وتدايعاته لا يمكن أن تنفصل عن الواقع الحالي، إن لم تكن قد ساهمت في صياغته إلى حد بعيد.

إننا بحاجة ماسة إلى إلقاء الضوء على تلك الجذور التاريخية من أجل التوصل إلى فهم سليم وموضوعي مبني على أساس علمي لها، واستخلاص العبر والدروس منها، وتحديد نقاط الضعف والقوة فيها بالقدر الذي يعيننا على فهم الحاضر المحيط بنا، ويجعلنا قادرين على رؤية المستقبل بوعي وواقعية، وتحديد ملامحه بعين باصرة غير قاصرة.

إن الكتاب الذي بين أيدينا هو محاولة جادة من المؤلف لتسليط الضوء على تلك الحقبة التاريخية الهامة، ملتزماً بقواعد البحث العلمي المتفق عليها، ومتوخياً ذات المقاصد التي أومأنا إليها آنفاً، والذي لفت نظري في منهجه أنه اعتمد في دراسته على مصادر الحديث والتاريخ والتراجم المعتبرة التي تحظى بثقة أهل العلم والمعرفة قاطبة، كما أنه قام بالربط بين الأحاديث النبوية من جهة والأحداث التاريخية من جهة أخرى، بحيث يصدق بعضها بعضاً، وكأن الكتاب قد جاء يحمل بين دفتيه تفسيراً نبوياً للتاريخ، ولا جرم أن الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم) قد تركنا على المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها، والتي لا يضل عنها إلا هالك، وفي اعتقادي أن ذلك لا يتحقق بوجه كامل إلا من خلال الأحاديث التي تكشف المستقبل، وترصد حركته بعين الوحي فضلاً عن الوعي.

ومما يستلفت النظر - أيضاً - قيام المؤلف بالفصل بين " تاريخ الإسلام " و " تاريخ المسلمين "، حيث يرى أن " تاريخ الإسلام " هو تاريخ الفطرة الأزلية التي تمثل إرادة الله في الكون، وبالنسبة للبشر فقد بدأ مطلعاً بقوله تعالى: (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا...).

وفوق الأرض قام بصنعه الأنبياء والمرسلون من لدن آدم إلى الخاتم،

والمقصود من ذلك هو أن " التاريخ الإسلامي " يقتصر على مجموعة الأقوال والأفعال والمواقف والأحداث التي يمكن أن تحسب على الإسلام ذاته لكونها تمثل واقعه وحقيقته، ولا يقوم بصنعه سوى الرسول (صلى الله عليه وسلم) أو من ينوب عنه بتفويض مباشر عنه.

أما بالنسبة لـ " تاريخ المسلمين " فهو تدوين لمجموعة الأقوال والأفعال والمواقف والأحداث التي قام بصنعها أولئك الأفراد والتجمعات التي أعلنت انتماءها لهذا الدين تعبيراً عن أنفسهم وواقع حالهم فحسب، ولا يمكن أن تحسب على الإسلام ذاته كمقياس له.

هذه رؤية المؤلف، وهي وجهة نظر جديدة بالبحث والملاحظة، وتدعونا إلى التأمل وإعادة النظر في مدلول كلمة " التاريخ " الذي بين أيدينا، فهل هو " تاريخ إسلامي " يعبر عن واقع الإسلام وحقيقته وأهدافه، أم هو " تاريخ المسلمين " الذي يمثل نوازعهم الذاتية ومواقفهم وأهدافهم الخاصة بهم؟ هذا وبالله التوفيق.

د. عاطف سلام

الاهداء

.. إلى مصاييح الهدى الذين يقودون الناس إلى صراط العزيز الحميد
إلى الذين صبروا صبر الأحرار وينتظرون يوم العدل على الظالم
إلى هؤلاء أهدي هذا الكتاب
.... أيوب

(٩)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على النبي الأكرم المبعوث بالشرعية الخاتمة وعلى آله ومن تبع هداة إلى يوم الدين وبعد: على امتداد المسيرة البشرية دار الصراع بين الخير الذي تمثله أعلام ومشاعل المثل الأعلى المرتفع وبين الشر الذي يمثله الدخان الكثيف للمثل الأعلى المنخفض. وعلى امتداد هذه المسيرة كانت أعلام الأنبياء والرسل عليهم السلام تقيم الحجة على الجميع، وتدون تاريخ الإسلام الذي لم يحمل هزيمة واحدة منذ ذرأ الله ذرية آدم عليه السلام. وكان هذه التاريخ زاد للفطرة في كل زمان ومكان ففيه ترى العلم والهدى والرحمة والسعادة وبه تعبر الحياة الدنيا بسلام إلى الآخرة فتاريخ الإسلام هو تاريخ الحجة ودعوة الناس إلى صراط العزيز الحميد. وهذا التاريخ يمكن أن نرصد بدايته عندما أخذ الله الميثاق من ذرية آدم وأشهدهم على أنفسهم* (ألست بربكم قالوا بلى) * ويمكن أن نرى امتداده وشواهد من خلال مسيرة الأنبياء.

وعلى امتداد المسيرة البشرية أيضا كان الناس يدونون تاريخهم، وهذا التاريخ يمكن أن ترى امتداده وشواهد من خلال حركة الناس على امتداد تاريخهم. فمن توافقت حركته مع حركة الوجود فهو عضو في تاريخ الإسلام الذي تمثله أعلام المثل الأعلى المرتفع. أما من توافقت حركته مع حركة فقه الاغواء والتزيين والاحتناك والفحشاء والمنكر إلى آخر هذا الشوط الذي تأنف منه الفطرة فلا يمكن بحال أن يكون عضوا في تاريخ الإسلام وإنما هو عضو في تاريخ الناس

الذي يدثره هذا الدخان الكثيف للمثل الأعلى المنخفض. ولا يمكن بحال أن ترى بصمات كفار قوم نوح وهود وصالح ولوط وأصحاب الأيكة على تاريخ السلام وإنما تراها على صفحات تاريخ الناس. ويمكن أن ترى هذه البصمات بوضوح عندما يحدثك تاريخ الإسلام بما حدث لأتباع المثل الأعلى المنخفض على امتداد تاريخهم الأسود وكيف ضربهم الطوفان والصيحة وكيف نالوا جزاءهم في الدنيا تحت ضربات الماء والهواء والحجارة، ولعذاب الآخرة أشد. وعلى هذا فالحجة والدعوة أعلام ظاهرة في تاريخ الإسلام، والتدمير أثر ظاهر في تاريخ الناس، وفي هذا وذاك زاد للفطرة على امتداد المسيرة. فأصحاب الفطرة السليمة إذا نظروا إلى حركة المسيرة البشرية وشاهدوا علامات التاريخ المهزوم كانت هذه المشاهدة حجة بذاتها ودعوة في الوقت نفسه إلى ترتيب الأوراق في اتجاه تاريخ السلام الذي تظهر عليه معالم الطهر والنقاء، وهذه المعالم حجة بذاتها على كل إنسان. وسيتبين كل إنسان حقيقة هذا عندما يقف عاري المشاعر وعاري التاريخ أمام الله الواحد الحق يوم القيامة. وعلى امتداد التاريخ الإنساني عمل الشيطان من أجل أن يعلم الخلق أن تاريخ الإسلام وتاريخ الناس تاريخ واحد. لأنه تحت هذا القالب تختلط الأمور وعلى امتداده يحقق الشيطان أهداف خطته لإضلال أكثر الناس. وما فقه الاغواء والتزيين إلا خلط على امتداده يكون الضلال والارتباب والحيرة. وفي عصرنا الحديث تعالت الأصوات التي ترفع إعلام " لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة " وقامت أجهزة ومؤسسات الصد عن سبيل الله بترقيع التاريخ ليعطي في النهاية صورة أن الناس أدرى بمصالحهم. وهذا القول في حد ذاته مصادرة لتاريخ الإسلام لحساب تاريخ الناس. وفي عصرنا الحديث أيضا تعالت أصوات ناس من المسلمين وقالوا: إن الدين منفصل عن الدولة بالفعل على امتداد التاريخ الإسلامي. وهنا خلط واضح وتحميل تاريخ السلام ما ليس منه. وتعاليت أصواتهم أكثر فأكثر وقالوا: إن الخلافة على امتداد التاريخ الإسلامي لم تكن أصلا إسلاميا.

وإنما مجرد اجتهاد وتطبيق ارتضاه المسلمون الأوائل.
وهذا أيضا خلط يهدف إلى إعلاء كلمة المثل الأعلى المنخفض. والذي
يدقق النظر في تاريخ السلام عند اللبنة الأولى يرى أن الخالفة أصل أصيل في
البناء الفطري، قال تعالى: * (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض
خليفة) * (١).

وعلى امتداد تاريخ الإسلام خاطب الله تعالى أنبياءه ورسله فقال لإبراهيم
عليه السلام: * (إني جاعلك للناس إماما) * (٢).

بل إن نظام الخلافة يرى أيضا على المساحات الواسعة، يرى على وجه
الماضي والحاضر. قال تعالى: * (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم
نوح) * (٣).

وقال: * (وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) * (٤).

وقال * (هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره) * (٥).

فالخلافة في البناء الفطري ترى عند القمة وعند القاعدة. وعلى هذا فإن
القول بأن الخلافة ليست أصلا إسلاميا قول فيه نظر. وهذا القول روج له أعداء
الفطرة في عصرنا الحديث عندما بدأت الروح الإسلامية تدب وترج أجساد وعقول
المسلمين وتدعوهم إلى أعلام المثل الأعلى المرتفع. وأشعل أعداء الفطرة النار
في كل طيب، وزينوا كل خبيث ليصدوا عن سبيل الله. وتوج الوغد الهندي سلمان
رشدي وغيره هذه الأعمال بروايات وأقوال الهدف منها النيل من أعلام تاريخ
الإسلام لحساب الأطروحة الغربية التي تعمل من أجل توثيق الفطرة.

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٦٩.

(٤) سورة يونس: الآية ٧٣.

(٥) سورة فاطر: الآية ٣٩.

ونحن في كتابنا هذا سنعرض أطروحات الإسلام التي جاء بها النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم في ما يتعلق بمستقبل الأمة ودورها الرسالي الذي عهد به إليها وموقف الأمة من تلك الأطروحات النبوية. وسنعرض تجربة الأمة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وما تمخض عنها من نتائج امتدت عبر القرون إلى اليوم. وسنبين مدى ملائمة ذلك مع أطروحات الرسول صلى الله عليه وسلم التي تمثل المنهج الإسلامي الأصيل. وسنقيم تلك التجربة التي تحرك فيها لا مسلمون بشكل موضوعي للخروج منا بالعبر والدروس التي تعيننا على تمييز الحق من الباطل والعودة تارة أخرى إلى ذات المنهج الإسلامي الذي رسمه النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم.

ومنهجنا في البحث يقوم على تحديد المشكلات واستبعاد الزائف منها بعد قراءة نقدية ومتفحصة وتقييمية. مع الوضع في الاعتبار أن جانب كبير من التراث صنعته أفراد، وهذا الجانب تداخل مع تاريخ السلام كما ذكرنا. وعلى هذا فتاريخ المسلمين عندي قابل للنقد كما أنه معرض أحيانا للرفض إذا تعارض مع القرآن والسنة الصحيحة. وقراءتي للأحداث كان الهدف منها تقديم تاريخ شامل. بمعنى تاريخ تجتمع فيه جميع الخيوط، وهذه القراءة التي تمارس النقد وفقا للكتاب والسنة تنظر إلى التراث على أنه نقطة بداية. فالبدايات دائما ترى عليه وجه النهايات. وعلى هذا فإن الأمور إذا اشتبهت اعتبر بآخرها أولها. أي يقاس آخرها على أولها فحسب البدايات تكون النهايات. هذا ولقد آثرت في هذا البحث الطريقة السردية التي تعتمد على آيات القرآن الكريم والحديث الشريف والرواية التاريخية. هذا وبالله التوفيق.

أولاً - نور في أعماق الوجود

١ - المنابع:

إن جميع موجودات العالم ما نر وما لا نرى ما نعلم وما لا نعلم، تنتهي في وجودها وآثارها إلى الله الواحد الأحد عز وجل، ولأنها منها وإليه، فلا يمكن لأي موجود في الوجود من الأفراد من ملكه جل أنه، ولأن جميع الموجودات في هذا العالم حياتها وقدرتها وعلمها متصل بالله تعالى، فلا يمكن لموجود مهما كان قدره وعلمه من الفرار من الله الذي يملك كل شيء، فقد خلق سبحانه الخلق لهدف من وراءه حكمة، وأوجب سبحانه على نفسه فتح الطريق لعبادة وهداية عباده إليه قبل أن يخطوا فيه خطوة واحدة.

فكما أن حبة القمح توضع في الأرض فتنشق للنمو قاصدة في نموها اتجاهها واحدة لتكون شجرة كاملة عليها سنابلها، وكما أن نطفة الحيوان تعرف طريقها فتتوجه إلى اتجاه واحد ينتهي بها إلى إيجاد النوع، فكذلك الإنسان من أول بداية التكوين يتجه في طريق نحو غاية واحدة على امتدادها يكدح حتى يلاقي ربه، والعبودية هي الغرض الإلهي من خلق الإنسان، وحقيقة العبادة أن يضع الإنسان نفسه في مقام الذلة والعبودية، ويوجه وجهه إلى مقام ربه، طاهر النفس عن الكفر بمراتبه، وعن الاتصاف بالفسق كما قال تعالى: (ولا يرضى لعباده الكفر) (١). وقوله تعالى: (فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) (٢).

(١) سورة الزمر: الآية ٧.

(٢) سورة التوبة: الآية ٩٨.

والعبودية إذا تمكنت من نفس العبد رأى ما يقع عليه بصره وتبلغه بصيرته مملوكا لله، خاضعا لأمره، ووجد أن كل ما آتاه الله فهو من فضله سبحانه، وما منعه فإنما منعه عن حكمة، وعلم أن هناك غاية مقصودة من خلق العالم ستظهر بعد فناء العالم.

وطريق العبودية فتحه الله وهدى عباده إليه، واللبنة الأولى في هذا الطريق هي الفطرة، أودع فيها سبحانه ميثاق الربوبية الذي شهد به الإنسان عند العتبة الأولى في طريق العبودية، قال تعالى: (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) (١).

لقد أخذ جل شأنه الميثاق - ف موطن قبل الدنيا - من عباده في عالم الذر (ألست بربكم؟) خطاب حقيقي وتكليم إلهي، (قالوا بلى شهدنا) إنهم يفهمون مما يشاهدون، إن الله سبحانه يريد منهم الاعتراف وإعطاء الموثق، فشهد كل إنسان على نفسه، ولم يعد لأحد منهم حجة على الله يوم القيامة، ليقول أنه كان غافلا في الدنيا عن ربوبيته تعالى، ولا تكليف على غافل ولا مؤاخذه. وكما هدى الفطرة إلى معرفته تعالى، ألهم النفس الإنسانية التجنب عن الفجور والورع عن محارم الله، فجعل نهيه سبحانه عن فعل حجاب مضروب، فإذا اقترب الإنسان المنهي عنه يكون قد شق الستر المضروب وخرق الحجاب. قال تعالى: (ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها) (٢).

إن النفس ملهمة كي تميز بين الفجور والتقوى. ووضع لبنة التقوى فيها. تزكية وإنماء وتزويد لها بما يمدّها في بقائها على طريق غايتها، قال تعالى (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

(٢) سورة الشمس: الآية ٧ - ١٠.

أولي الألباب) (١).

وكما أقام سبحانه الحجة على الإنسان في عجيبته الداخلية أقام عليه الحجة في عالم الحياة الدنيا، عالم المشاهدة المنظور، فجهز بدن الإنسان بما يبصر به، وما يستعين به على الكلام. فإذا نظر، أو تكلم واستقام نظره وكلامه مع المخزون الفطري، ومخزون التقوى، تقدم في طريق الخير. قال تعالى: (ألم نجعل له عينين* ولسانا وشفقتين* وهديناه النجدين) (٢).

والمراد بالنجدين طريقا الخير والشر. أي علمناه طريق الخير وطريق الشر بإلهام منا. فهو يعرف الخير من الشر. والإنسان مخير في أي الطريقين يسلك. قال تعالى: (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا* إنا اعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا) (٣).

لقد زود تعالى الإنسان داخليا وخارجيا بالوقود الذي يؤدي إلى الفوز. وأراه السبيل المؤدي إلى الغاية المطلوبة. وعلمه بواسطة الأنبياء والرسل عليهم السلام أن سلوك هذا السبيل ينتهي بالإنسان إلى سعادته في الدنيا والآخرة. وأخبره أن الشكر لهذه الهداية الإلهية إنما يكون بوضع النعمة في محلها، واستعمال هذه النعمة على أساس أنها من المنعم الحق.

لقد أقام سبحانه الحجة على جميع خلقه، وقد قضى الله أن الإنسان راجع إليه. وسيسأل الإنسان عن عمله، أشكر النعمة أم كفر بها؟ والنعم تبدأ من الفطرة ولا تنتهي لأنها لا تحصى ولا تعد. وأمام الله قاصم الجبارين سيق الإنسان عاريا من كل شيء. عاري النفس، عاري المشاعر، عاري التاريخ (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى* وأن سعيه

(١) سورة البقرة: الآية ١٩٧.

(٢) سورة البلد: الآية ٨ - ١٠.

(٣) سورة الإنسان: الآية ٣ - ٤.

سوف يرى) * (١)

وأمام الله قاصم المستكبرين سيقف الإنسان المحاصر بحجج الله، لتشهد كل حجة عليه، فلا يجد ملجأ يذهب إليه * (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون) * (٢).
إن ينبوع دين الله فطرة الإنسان نفسه. والفطرة تصرح أن الإنسان لم يكن له إلا أن يخضع لله تعالى خضوع عبادة، خضوع الضعيف للقوي، ومطاوعة العاجز للقادر، وتسليم الصغير للحقير للعظيم الكبير الذي لا يماثله شيء في وجوده، العزيز الذي لا يغلبه شيء وغيره ذليل.

٢ - نظرات على طريق الابتلاء:

إن عبور الحياة الدنيا إلى الآخرة تعلو جسوره مظلات الابتلاء والفتن.
فالامتحان ناموس إلهي على امتداد هذه الجسور، وهذا الامتحان لا يستثنى منه المؤمن والكافر والمحسن والمسيء. وامتحان الله يكون لإظهار صلاحية الإنسان الباطنية من حيث استحقاق الثواب والعقاب. ويكشف به تعالى للمؤمنين حال المنافقين وهم يعبرون جسر الحياة إلى الآخرة. كما إنه يقوي الإنسان المؤمن لاجتياز هذا الجسر. وكما يمتحن الله الفرد يمتحن سبحانه الأمة قال تعالى (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم في ما آتاكم) (٣).
إن الله لو شاء لجعل الناس أمة واحدة لها شريعة واحدة. ولكنه تعالى جعل للناس شرائع مختلفة، ليمتحنهم فيما آتاه من النعم المختلفة التي لا تحصى ولا تعد. فاختلاف النعم يستدعي اختلاف الامتحان (٤). وعلى امتداد هذا الامتحان الذي هو في الوقت نفسه امتداد الحياة الدنيا، يموت الفرد ويأتي الآخر، وتموت

(١) سورة النجم: الآية ٣٩ و ٤٠.

(٢) سورة فصلت: الآية ٢١.

(٣) سورة المائدة: الآية ٤٨.

ب (٤) الميزان: ٣٥٣ / ٥.

الأمة وتأتي الأخرى قال تعالى: (لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) (١).

إن الأجل في هذه الآية أضيف إلى الأمة، إلى الوجود المجموعي للناس، لا إلى هذا الفرد بالذات. إن هناك أجل آخر وميقات آخر للوجود الاجتماعي لهؤلاء الأفراد، للأمة بوصفها مجتمعا ينشئ ما بين أفرادها العلاقات والصلات القائمة على أساس مجموعة من الأفكار والمبادئ. هذا المجتمع الذي يعبر عنه القرآن بالأمة له أجل، وله موت، له حياة، له حركة، وكما أن الفرد يتحرك فيكون حيا ثم يموت، كذلك الأمة تكون حية ثم تموت. وكما أن موت الفرد يخضع لأجل ولقانون ولناموس كذلك الأمم أيضا، لها آجالها المضبوطة (٢) (وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم * ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) (٣).

إن الأمم تموت، وتأتي أمم أخرى. أعلام تسقط وأعلام ترفع. وعلى امتداد الرحلة يكون في السلف عبرة للخلف، ويكون في الماضي زاد للحاضر يبصر به الطريق الواضح إلى المستقبل. والقرآن الكريم حث الإنسان كي ينظر إلى الخلف حيث ساحة الاعتبار. ليكون الاعتبار له زاد، قال تعالى: (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) * (٤).

لقد أهلكوا وسبب الهلاك الذنوب، وفي هذا دلالة على أن للسيئات والذنوب دخلا في البلايا والمحن العامة، كما أن الحسنات والطاعات لها دخل في إفاضة النعم ونزول البركات. وقال تعالى: (وكم أهلكنا من قرية بطرت

(١) سورة يونس: الآية ٤٩.

(٢) المدرسة القرآنية / باقر الصدر: ٥٦.

(٣) سورة الحجر: الآية ٤ - ٥.

(٤) سورة الأنعام: الآية ٦.

معيشتها) * (١) أي طغت في معيشتها
وقال تعالى: * (وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) * (٢).
إن الماضي حجة على الحاضر والحاضر حجة على المستقبل. ولا يسمع
الصم الدعاء. إن الأمة تأتي لينظر إليهم كيف يعملون. ورسّل الله عليهم السلام
حثوا أقوامهم وذكروهم بمن سبق كي يبصروا وقع أقدامهم وهم يعبرون الجسر إلى
الآخرة.

فهذا هود عليه السلام يقول لقومه: (واذكروا إذا جعلكم خلفاء من بعد قوم
نوح) (٣).

وهذا صالح عليه السلام يقول لقومه: (واذكروا إذا جعلكم خلفاء من بعد
عاد) (٤).

والنظر إلى الخلف لا يعني التغني بوثنية من سبقونا، إنما البحث في عوامل
انهيارهم كي يتجنب الحاضر ما وقع فيه الماضي. فلعل الماضي يكون قد أركس
في فتنة. فإذا لم يتبين الحاضر خيوطها وسار على منوالهم، كان في حقيقة الأمر
امتدادا للفتنة وإن لم يشارك فيها. وكما أن في الماضي زادا للحاضر يعبر به جسور
الحياة. فإن الحاضر وهو تحت الامتحان عبرة للمستقبل. فهذا موسى عليه السلام
يقول لقومه: (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف
تعملون) (٥). لقد ذهبت أمة، وجاءت أخرى ليجري عليها الاختبار الذي يكون
زادا للمستقبل. وأمة محمد صلى الله عليه وسلم آخر الأمم. يخاطبها سبحانه
فيقول: (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءت رسلهم بالبينات وما
كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين) * ثم جعلناكم خلائف في الأرض من

(١) سورة القصص: الآية ٥٨.

(٢) سورة القصص: الآية ٥٩.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٦٩.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٧٤.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٢٩.

بعدهم لننظر كيف تعملون (١).
إن المسيرة سائرة، تدثرها الحجة من كل مكان. وكل خطوة وكل همسة
محسوبة ومكتوبة. يقول تعالى: (إنا نحن نحیی الموتی ونكتب ما قدموا وآثارهم
وكل شئ أحصيناه في إمام مبين) (٢).

٣ - برنامج الشيطان:

ذكرنا أن الامتحان سنة إلهي. ولقد سمى الله تعالى هذا الامتحان في كتابه:
بلاء وابتلاء وفتنة. فقال جل شأنه: (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم
أيهم أحسن عملاً) (٣)، وقال: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) (٤)، وقال:
(ونبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم) (٥)، وقال:
(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم
الصابرين) (٦). إن الأرض مساحة للامتحان. والإنسان عليها يمتحن بكل جزء من
أجزاء العالم، وكل حالة من حالاته التي لها صلة به.
والشيطان الرجيم، لما لعنه الله وطرده نظير معصيته. أخذ على عاتقه إغواء
أكثر الناس، فتسلل بإغوائه إلى كل مجال يختبر فيه الإنسان من الله، فإذا كان
سبحانه قد جعل ما على الأرض زينة، فإن الشيطان التف حول هذه الزينة بزينة
أخرى كاذبة. وإذا كان الله تعالى قد ابتلى عباده بالشر والخير، فإن الشيطان التف
حول الشر ليزينه، وحول الخير ليزهد الناس فيه، وإذا كان مجال الاختبار ليعلم
سبحانه المجاهدين والصابرين، تسلل الشيطان إلى هذه المساحة، ليكون أكثر

(١) سورة يونس: الآية ١٣ - ١٤.

(٢) سورة ياسين: الآية ١٢.

(٣) سورة الكهف: الآية ٧.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٣٥.

(٥) سورة محمد: الآية ٣١.

(٦) سورة آل عمران: الآية ١٤٢.

الناس في ضلال مبين. وهكذا تسلك الطريق إلى مائدة الامتحان. مهمته أن يدعو فقط إلى الضلال وقد زينه، وهو يدعو فقط لأنه لا يستطيع أن يجبر الناس على معصيته، ولما كانت حركة الشيطان على الأرض هكذا، فإن تسليط بعض من الضوء على البداية، قد يفيد لمعرفة منهجه في الاغواء والتزيين.

خلق الله تعالى آدم عليه السلام، وأمر بالسجود له، فسجد الملائكة، وكان إبليس من الجن وداخل فيهم، فأبى أن يسجد فخاطبه تعالى: (قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من العالين) (١) فجاء الرد الذي تحتوي كلماته على منهج الشيطان الكامل (قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) (٢)، لقد أكله الحسد وهو الذي شاهد المقدمة حيث التراب والطين والصلصال. وعندما عاين العلم والحركة والحياة كنتيجة للمقدمة، دفعه الحسد إلى المقدمة حيث الحمأ المسنون متعاميا عن النتيجة استكبارا عليها. إنه الصغار والجمود بعينه، ودعوة أولى لرفض النظر في آيات الله. وفي اعتراض الشيطان تلويح، بأن الأمر الإلهي إنما يطاع إذا كان حقا والأمر بالسجود لآدم ليس حقا.

والمتدبر في آيات الله، يجد أن الشيطان قبل رفضه السجود لآدم، كانت حجة الله قد دثرت. وهذه الحجة أن الله تعالى أمره فيمن أمر بالسجود، فالأمر حجة بذاته. وخروج الشيطان عنه هو خروج باختيار وليس عن جبر. كما يجد المتدبر أيضا أن في ردود الشيطان على الله تعالى، لم تكن ردودا جوفاء، وإنما تحمل منهجا كاملا في الضلال وهذا المنهج له مهمة واحدة، هي الصد عن العبادة الحق. ومن أجل هذا اعتمد المنهج على عمود يفصل أنبياء الله ورسله عليهم السلام عن أبناء آدم فلا يصل إليهم الهدى. وعمود يعمل على الصراط المستقيم من أجل إعاقه الطريق أمام الفطرة حتى لا تصل إلى غايتها الحق. وعمود يعمل على إرساء قواعد الشذوذ ومهمته تصفية كل ما هو طاهر على امتداد المسيرة البشرية بعد رحيل

(١) سورة ص: الآية ٧٥.

(٢) سورة ص: الآية ٧٦.

الأنبياء والرسل. ودق أوتاد الشذوذ واعتبار الخارج عنها خارج على القانون. باختصار يعتبر برنامج الشيطان قاعدة أساسية ينطلق منها قطاع الطرق على امتداد التاريخ.

أولا - قطع الطريق على الأنبياء والرسل عليهم السلام: أخبر الله تعالى بأنه عندما أمر الملائكة بالسجود قال إبليس (أنا خير منه) (١) وقال (لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال..) (٢) فالرفض يحمل في أعماقه الحسد والكبر. وفي نفس الوقت يحتوي على أطروحة كاملة لتحقير الجنس البشري. وهذا الرفض وهذه الأطروحة، شكلا في الحقيقة فقها كاملا للشيطان نسميه "فقه التحقير" وهذا الفقه مارس عمله ضد الأنبياء والرسل من آدم إلى محمد عليهما السلام. وإذا كان مؤسس الفقه، رفض أمر الله بالسجود لآدم في بداية الخلق، فإنه على امتداد المسيرة البشرية وضع العقبات أمام أمر الله الذي يحمله الأنبياء والرسل للسجود لله تعالى. والعقبات التي وضعها الشيطان من أجل الوصول إلى هدفه، كان عمودها الفقري تحقير الأنبياء والرسل، على اعتبار أنهم بشر وليسوا ملائكة. وإذا كان الشيطان في البداية قد قال: (لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال) (٣) فإن حملة فقهاء على امتداد التاريخ الإنساني وقفوا من دعوة الأنبياء في خنادق الحسد والكبر، رافعين راية التحقير للبشر الذي خلقه الله من طين، نسوا الله فأنساهم أنفسهم. * (قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) * (٤). فماذا كان رد جحافل الظلام على امتداد التاريخ الإنساني. يقول تعالى: * (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) * (٥) وقال تعالى: (قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن

(١) سورة الأعراف: الآية ١٢.

(٢) سورة الحجر: الآية ٣٣.

(٣) سورة الحجر: الآية ٣٣.

(٤) سورة إبراهيم: الآية ١١.

(٥) سورة الأنعام: ٩١.

من شيء) * (١)، وقال تعالى: (فقالوا أبشر يهدونا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد) (٢)، وقالوا: (ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون) (٣)، ولأنهم يرفعون لافتة التحقير الشيطانية التي ينفذون بنودها بدون تعقل قالوا: (لو شاء ربنا لأنزل ملائكة) (٤). وقالوا: (لولا أنزل عليه ملك) (٥)، لقد رفضوا البشر الذي خلقه الله من طين. وكان هذا الرفض مقدمة كبرى للصد عن سبيل الله، قال تعالى: * (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا ابعث الله بشرا رسولا) * (٦). وعلى هذا الرفض دق الشيطان وتدا شع ثقافة جاء عليها الفراعنة والقياطرة والأباطرة، الذين ادعوا أن دماء الآلهة تجري في عروقهم. ووفقا لهذا الادعاء الذي ساندته كهنة الاغواء والتزيين، هرول الناس إلى عبادتهم من دون الله، وعلى هذه العبادة شيدت الأصنام، وهتكت الأعراض، وجلدت الشعوب، ورفعت رايات الجبرية والطاغوت واعتبر الخارج عنها خارج على القانون. ولم يقف فقه التحقير عند الأنبياء والرسل عليهم السلام، وإنما مارس هذا الفقه عمله على امتداد المسيرة بعد رحيل كل نبي وكل رسول. فلقد اعتمد الجبابة على حملات التشكيك والتشويش المنظم لوقف مسيرة الذين يأمرسون بالقسط من الناس. فإذا لم تأت الحملات بالثمار المطلوبة، اعتمدوا لهم أسلوب اليد الغليظة بالحجر تارة وبالسيف تارة وبقطع الرؤوس والطواف بها تارة أخرى.

ثانيا - قطع الطريق على الفطرة:

عندما قال الشيطان أنا خير منه، شمله عقاب الله تعالى: قال تعالى: * (فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين) * (٧). لقد نزل إلى منزلة

-
- (١) سورة يس: الآية ١٥.
(٢) سورة التغابن: الآية ٦.
(٣) سورة المؤمنون: الآية ٣٤.
(٤) سورة فصلت: الآية ١٤.
(٥) سورة الأنعام: الآية ٨.
(٦) سورة الإسراء: الآية ٩٤.
(٧) سورة الأعراف: الآية ١٣.

الهبوط، ليكون من الصاغرين أهل الهوان. ولم يترك الشيطان منزلة الهبوط دون استغلالها فقال: * (رب فأنظرني إلى يوم يبعثون) (١) لم يقل: رب انظرني إلى يوم يموت آدم، بل ذكر آدم وبنيه. فقال له سبحانه: * (إنك من المنظرين) * (٢). وفي هذا النص دلالة على أن هناك منظرين غيره، منهم ملائكة ومنهم بشر، أخبرت عنهم السنة النبوية الشريفة (٣).

وفي منزلة الهبوط صاغ الشيطان فقه الاغواء والتزيين، الذي به يخترق الكيان الإنساني وعليه تتعدد الأهواء * (قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين. * إلا عبادك منهم المخلصين) (٤)، لقد اختار مساحة الزينة والزينة الحق جعلها الله لعباده كي يسوقهم التفكير فيها إلى العبادة الحق. قال تعالى: * (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) * (٥)، فأقام الشيطان له خيمة في اتجاه هذه الزينة، وهذه الخيمة بثت ثقافة ألوهية الكواكب والنجوم. تلك الألوهية التي اعترض عليها هد هدا كان يحتفظ بفطرته التي فطره الله عليها. فعند ما ذهب هذا الطائر إلى مملكة سبأ، وجدهم يعبدون الشمس من دون الله، فعلم وهو الطائر أن هناك زينة أخرى غريبة، قد أدخلت على الزينة الحق التي تدعو إلى العبادة الحق. فقال سليمان عليه السلام وهو يتحدث عن ملكة سبأ * (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون) (٦) لقد وقعوا على الزينة المحرمة، وهم المجهزون بالفطرة، والفطرة نعمة والاختيار الخطأ يترتب على امتداده كفران النعمة. والسنة الإلهية عند كفران النعمة، تسلب نعمة الهداية. وفي عالم اللاهادية تعشق الأسماع والأبصار

(١) سورة الحجر: الآية ٣٦.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥.

(٣) أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم. بظهور المهدي ونزول عيسى عليهما السلام. وبخروج الدجال والسفنياني آخر الزمان ومن أراد المزيد فعليه ببحوثنا في المسيح الدجال.

(٤) سورة الحجر: الآية ٣٩ - ٤٠.

(٥) سورة الصافات: الآية ٦.

(٦) سورة النمل: الآية ٢٤.

والقلوب كل زينة تنتهي بصاحبها إلى الهلاك. تعشق زينة الشهوات والأموال والبنين والمكر والصد عن السبيل. ومع هذا العشق تتحرك جحافل الليل أصحاب فقه الشيطان، ليدافعوا عن زينتهم أمام الذين يتعاملون مع الزينة الحق. على أنها للتفكر وللابتلاء في عالم الإنسان.

وفي الزينة الحق قال تعالى: * (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) * (١). قال المفسرون: إن المال والبنين وإن تعلقت بها القلوب، وتاقت إليها النفوس تتوقع منها الانتفاع وتحقق بها الآمال. إلا أنها زينة سريعة الزوال، لا تنفع الإنسان في كل ما أرادته وما يأمله وما يتمناه منها. ولأنها كذلك فلا بد للتعامل معها وفقا لما شرعه الله تعالى، وإذا كانت هذه الزينة زائلة، فإن الأعمال الصالحة هي الباقية. وهي عند الله خيرا ثوابا، لأن الله يجازي الإنسان الذي جاء بها خير الجزاء، وخيرا أملا. لأن ما يؤمل بها من رحمة الله وكرامته ميسور للإنسان، فهي أصدق أملا من زينات الدنيا وزخارفها التي لا تفي للإنسان في أكثر ما تعدده.

وكما أقام الشيطان له خيمة في اتجاه زينة الكواكب، أقام خيمة في اتجاه زينة الأموال والأولاد، وعلى هذه الزينة قسمت القلوب ووجه أصحابها سهامهم في اتجاه طائفة الأعمال الصالحة التي تدعو إلى الخير والثواب. وجاء طابور طويل يصد بالمال عن سبيل الله كما فعل قارون * (فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم) * (٢)، واستمر هذا الطابور يتدفق على صفحة الوجه الإنساني آخذا صورا عديدة في عالم الرشوة وبيوت المال للصد عن سبيل الله. وفي عالم زينة الأولاد قالوا فيما أخبر سبحانه * (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذيين) * (٣). وعلى قاعدة الأبناء، جاء الآباء بالأبناء ليركبوا على رقبة الشعوب، ليصبح بذلك المستقبل ابنا لشذوذ

(١) سورة الكهف: الآية ٤٦.

(٢) سورة القصص: الآية ٧٩.

(٣) سورة سبأ: الآية ٣٥.

الحاضر والحاضر ابنا لشذوذ الماضي، والجميع يحافظون على سنة الآباء القومية التي أقام الشيطان خيامها، ورفع عليها قانونه الخالد الشاذ الذي وقف حجر عثرة على امتداد دعوة الأنبياء والرسل. لقد قالوا كما أخبر الله تعالى: (قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا) * (١)، و * (قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) * (٢)، و * (قالوا أجبنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا) * (٣)، وقالوا: * (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون) * (٤).

إن زينة المال والأولاد التي أضفى عليها الشيطان زخرفه ليتلقفه الغاؤون، هذه الزينة المزخرفة أقامت جدرا من الأموال واللحوم للصد عن سبيل الله. وهذا الانحراف وغيره، ما زال حجر عثرة على طريق الدعوة الحق. فالفطرة التي تحمل كليات الدين، زخرف لصاحبها طريق الانجراف، وزين لهم الباطل والمعاصي، فنسوا الله. ومن ينسى الله ينسيه الله نفسه وتنتهي به خطاه إلى الهلاك. إن حامل الفطرة هداه الله إلى السبيل الحق، وعرفه طريق الحق وطريق الباطل، وله أن يختار. فمن اختار طريق الباطل، أضله الله. ومعنى إضلال الله له، إن الله يقطع عنه الرحمة لانحرافه في الاختيار. ولا يدخل في الرحمة إلا إذا أخذ الخطوة الأولى في اتجاه الاختيار الحق. وجحافل فقه الشيطان، لا ييأسوا من طرح ثقافات وعقائد من شأنها أن تفسد الدين الفطري، لأنه على فساد الدين الفطري يترتب عليه فساد القوة الحسية الداخلية للإنسان، ولا تتعادل فيما بينها. وعلى فساد القوى الحسية، يكون الإنسان مستعدا لتلقي أي إغواء أو تزيين، يشبع أي ملكة من ملكات النفس الجائعة. وعلى أعتاب الكثرة من الذئاب الآدمية، يأتي طغيان هذه الكثرة التي لا تتعظ بموقف، ولا تتفاعل مع وجدان. ويترتب على طغيانهم ضعف القوة المخالفة، لذلك كان طريق الدعوة طريقا شاقا على امتداد المسيرة البشرية.

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٠.

(٢) سورة المائدة: الآية ١٠٤.

(٣) سورة يونس: الآية ٧٨.

(٤) سورة الزخرف: الآية ٢٢.

ثالثاً - قطع الطريق على الدعوة:

بعد أن مارس قطاع الطرق عملهم للصد عن سبيل الله. انقطع الطريق على الرسل والأنبياء والفطرة وفقاً لمنهج الشيطان. نرى أن هذا المنهج قد قطع الطريق على الدعوة، بمعنى إنه استعمل أدوات يستطيع أن يعرقل بها الطريق أمام السائرين في اتجاه العبادة الحق إلى يوم الوقت المعلوم. وأدوات الشيطان التي استعملها في هذا المجال قام بها المنافقون والذين في قلوبهم مرض وغيرهم من الذين يلبسون ملابس الأديان. أي أنه عمل على ضرب الدعوة من داخلها حتى تسير في اتجاه غير اتجاه العبادة الحق. وهذا المخطط أخبرنا الله تعالى به، فبعد أن أنظره الله ليوم يبعثون قال لله جل شأنه * (فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين) * (١)، قال المفسرون: لما أنظر إبليس واستوثق بذلك أخذ في المعاندة والتمرد. قال: لأقعدن لعبادك الذين تخلفهم من ذرية هذا على طريق الحق وسبيل النجاة ولأضلنهم عنها لئلا يعبدون ولا يوحدوك (٢) وقعود الشيطان على الصراط المستقيم، كناية عن التزامه والترصد لعابريه ليخرجهم منه. والجلوس على الصراط المستقيم لا يتحقق الغرض منه إلا برمز من رموز هذا الصراط، بمعنى أنه لكي يصد عن سبيل الله فلا بد من ثقافة يصيد بها الذين يسировن على الصراط المستقيم.

وهذه الثقافة لكي يتحقق الغرض منها لا بد أن يحملها طائفة من السائرين على الصراط المستقيم، فمعهم يكون الضلال أشد. ويسيرون في الحياة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، بينما هم في الواقع يغوصون في أحوال الذين من قبلهم من الذين غضب الله عليهم ولعنهم. إن قطع الطريق على الدعوة، يتحقق إذا حملها أصحاب اللا دعوة واللا هدف، بشرط أن يكون على أصحاب اللا دعوة

(١) سورة الأعراف: الآية ١٦ - ١٧.

(٢) تفسير ابن كثير: ٢٠٤ / ٢.

واللا هدف ملابس الدعوة والهدف.

وبعد أن أعلن الشيطان الخط العريض، بأنه سيجلس على الصراط المستقيم. ذلك الصراط الذي يوصل الناس إلى ربهم الحق وينتهي بهم إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة، أخبر سبحانه بأنه قال: * (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم) * وفي هذا إيضاح للخط العريض. قال المفسرون: عن مجاهد قال * (من بين أيديهم) * يعني من حيث يبصرون، وقيل: من بين أيديهم أي الدنيا (١). وقيل: أي ما يستقبلهم من الحوادث أيام حياتهم، من الأمور التي تهواها النفوس، وتستلذه الطباع. وكل ما يتعلق بالآمال والأمان. فيأتيهم ليخوفهم من الفقر إذا هموا لينفقوا في سبيل الله. أو يخوفهم من ذم الناس أو لومهم إذا أمروا بمعروف أو إذا سلكوا سبيل من سبل الخير وعلى هذا جاء فقه التوقع والترقيع والانسحاب، غلافه غلاف الدين ومحتواه لا علاقة له بالدين.

والمراد من خلفهم، قال المفسرون: أي أرغبهم في دنياهم (٢)، وقيل: أي آتيهم من ناحية الأولاد والأعقاب وذلك لأن الإنسان له فيمن يخلفه من أولاد، آمال وأمان ومخاوف ومكاره. ويخيل للمرء أنه يبقى ببقاء أولاده، ويسره ما يسرههم ويسوءه ما يسوءهم، فيجمع لهم المال من حلاله وحرامه، ويفسح لهم الطريق إذا كان ذا جاه وملك ليكونوا امتدادا له بعد وفاته.. وعلى قاعدة الأبناء جاء فقه السلطة الذي يمدح المستقبل لأنه ينتمي إلى حاضر القاضي والجلاد ويمدح الحاضر لأنه ينتمي إلى ماضي القاضي والجلاد إنه عالم * (إننا وجدنا آباءنا على أمة وإننا على آثارهم مهتدون) * (٣)، عالم ينظر إلى المستقبل بعيون الماضي وإن كان آباؤهم في الماضي لا يعقلون شيئا، إنه عالم غلاف فقهه غلاف ديني أما محتواه فهو أقرب إلى المحافظة على الشذوذ.

(١) تفسير ابن كثير: ٢٠٤ / ٢.

(٢) تفسير ابن كثير: ٢٠٤ / ٢.

(٣) سورة الزخرف: الآية ٢٢.

والمراد بعن أيمانهم وعن شمائلهم، قال المفسرون: عن أيمانهم: أي أشبه عليهم أمر دينهم (١). وقيل: اليمين هو الجانب القوي الميمون من الإنسان، أي الدين. وإتيانه من جانب الدين، أن يزين لهم المبالغة في بعض الأمور الدينية والتكاليف بما لم يأمرهم الله.. وعلى هذا جاء فقه المبالغة والتنطع والمنفرين، الذين يدعون أنهم يعلمون كل شيء وهم لا يعلمون أي شيء. وعلى أكتافهم تتأكل الشرائع ويتراجع الدين، إن غلاف فقه المنفرين والمتنطعين والذين يتخذون الزهد والرهبنة طريقاً ليأكلوا به أموال الناس بالباطل، غلاف يحمل ملامح دينية. أما محتواه فقد خطه أصحاب القضايا الرديئة، التي لا تصلح إلا لعالم اللا دعوة واللا هدف * (وعن شمائلهم)، قال المفسرون: اشتهى لهم السيئات والمعاصي. وقيل: عن شمائلهم أي تأصيل الفحشاء والمنكر والدفاع عن اقتراف الذنوب بجعل الأهواء قانوناً لهم.. وأمام هذا الفقه تقهقر اليمين وتقدم الشمال تحت لافتة تنادي بحقوق الإنسان، فالعنوان له ملامح طيبة " حقوق الإنسان " أما المحتوى فلا وجود فيه لإنسان الفطرة، إلا من رحم الله.

والمنهج الشيطاني لم يكتف بمحاصرة الإنسان من جهاته الأربع، وإنما خطط من أجل أن يجمع أتباعه تحت ثقافة واحدة، هي ثقافة الأهواء رغم تفرق سبلهم، وهذه الثقافة يعزفها الشيطان الرجيم على الجميع. أخبر الله تعالى بأنه قال: * (أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً) * (٢). قال المفسرون: يقال، حنك الدابة بحبلها، إذا جعل في حنكها الأسفل حبلاً يقودها به. والمعنى: أقسم لئن أخرتني إلى يوم القيامة، وهو مدة مكث بني آدم في الأرض، لألجمن ذريته إلا قليلاً، أتسلط عليهم تسلط ركب الدابة الملحم لها عليها، يطيعونني فيما أمرهم، ويتوجهون إلى حيث أشير لهم، من غير أي عصيان وجماح. إن الاحتناك فقه لتلجيم العقول وتكميم الأفواه

(١) تفسير ابن كثير: ٢٠٤ / ٢.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٦٢.

وتعصيب العيون، عن كل حق أو حقيقة. إن الاحتناك قانون يضرب بسياطه الغوغاء والرعا ع والديهما.

وفي عالم الاحتناك تتلقى الدواب أوامر الضلال والأمانى وتغيير خلق الله، بدون اعتراض وبلا أدنى تفكير. قال تعالى وهو يخبر في كتابه عن خطة الشيطان * (وقال لاتخذن من عبادك نصيبا مفروضا * ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله) * (١). قال المفسرون: * (ولأضلنهم) * أي عن طريق الحق، * (ولأمنينهم) * أي أزين لهم ترك التوبة * (ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام) * يعني بشق آذانها، * (ولأمرنهم فليغيرن خلق الله) * يعني دين الله (٢). والمعنى: أي لأضلنهم بالاشتغال بعبادة غير الله، واقتراف المعاصي، ولأغرینهم بالأمانى التي تصرفهم عن الاشتغال بواجب شأنهم وما يهمهم من أمرهم، ولأمرنهم بشق آذان الأنعام وتحريم ما أحل الله، ولأمرنهم بتغيير خلق الله. وينطبق على مثل الإخصاء وأنواع المثلة واللواط والسحاق. وقيل: المراد بتغيير خلق الله، الخروج عن حكم الفطرة، وترك الدين الحنيف. قال تعالى: * (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) * (٣). والخروج على حكم الفطرة، غير تبديل الفطرة. فالفطرة لا تبدل لأنها حجة بذاتها على الإنسان.

وهكذا قطع البرنامج الشيطاني الطريق على الرسل والفطرة والدعوة، والله غالب على أمره. لقد طلب الشيطان الامهال إلى يوم الوقت المعلوم، فأعطاه الله ذلك، وتوعد ذرية آدم بالإغواء والتزيين والاحتناك وغير ذلك. ولأن برنامجه لا يقصده إلا شر الدواب عنه الله، زاده الله فقال له تعالى: * (اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا * واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان

(١) سورة النساء: الآية ١١٨ - ١١٩.

(٢) تفسير ابن كثير: ٥٥٦ / ١.

(٣) سورة الروم: الآية ٣٠.

إلا غرورا * إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا (١). قال المفسرون: أي استنهض للمعصية من استطعت أن تستنهضه من ذرية آدم بصوتك، وصح عليهم لتسوقهم إلى المعصية بأعوانك وجيوشك، فرسانهم ورجالتهم. وشاركهم في الأموال فيجمعونها من خبيث وينفقونها في حرام، وشاركهم في الأولاد أي يمجسونهم ويهودونهم وينصرونهم ويصبغونهم غير صبغة الإسلام. (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) أخبر سبحانه، بتأييده تعالى عباده المؤمنين وحفظه إياهم وحراسته لهم من الشيطان الرجيم، ولهذا قال (وكفى بربك وكيلا) أي حافظا ومؤيدا ونصيرا (٢).

إن برنامج الشيطان تنسفه العبادة الحق نسفا. فالشيطان لا يستطيع أن يجبر إنسان على معصية، إنه يزين ويغوي وينادي فقط، والذي يلبي ندائه يكون في الحقيقة قد اختار، ومن اختار طريق الشيطان فهو بعيد عن الله، وبرنامج الشيطان يسير اتباعه عكس اتجاه الفطرة، ولا يقصدوا إلا ما خلفوه وراء ظهورهم. والإنسان الذي يسير في غير اتجاه الفطرة، كلما توجه إلى ما يراه خيرا لنفسه وصالحا لدينه أو لدنياه، لم ينل إلا شرا أو فسادا، وكلما بالغ في التقدم زاد في التأخر، وليس بفالح أبدا. وذلك لأنه مطارد من الله ولا بقاء لشيء يطارده الله إن أتباع برنامج الشيطان لن يهديهم الله، ما داموا يتزودون من زاد برنامج الضلال. (والله لا يهدي القوم الظالمين) (٣) (والله لا يهدي القوم الفاسقين) (٤) (والله لا يهدي القوم الكافرين) (٥) (إن الله لا يهدي من يضل) (٦) (إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب) (٧) (إن الله لا يهدي من هو

(١) سورة الإسراء: الآية ٦٣ - ٦٤ - ٦٥.

(٢) تفسير ابن كثير: ٥٠ / ٣.

(٣) سورة التوبة: الآية ١٩.

(٤) سورة المائدة: الآية ١٠٨.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٦٤.

(٦) سورة النحل: الآية ٣٧.

(٧) سورة غافر: الآية ٢٨.

كاذب كفار) * (١) فهؤلاء جميعا دخلوا باختيارهم إلى دائرة مقفولة على الغاؤون. فمن لم يأخذ بالأسباب وخرج من هذه الدائرة، هلك وخسر الدنيا والآخرة، إن العودة إلى سبيل الفطرة، لا يكون إلا بالاتجاه أولا نحو الفطرة، ثم السير على سبيلها وفقا لما جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله وسلم. وعلى الخطوة الأولى يأتي مدد الله العزيز الحكيم، قال تعالى: * (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) * (٢).

٤ - حصار برنامج الشيطان:

لقد عمل الشيطان وقطاع الطرق على امتداد التاريخ الإنساني، من أجل التشكيك في كل رسول ونبي، رافعين في وجوههم أعلام الاستكبار والتحقير. وعلى امتداد التاريخ لم ينقل إلينا أن هناك نبيا أو رسولا قد هزم وإنما نقل إلينا أن الاستكبار هزم في كل مكان وكل زمان، هزم تحت طين الطوفان أيام نوح عليه السلام. وهزم تحت الرياح العاصفة أيام هود عليه السلام. وهزم تحت صاعقة من السماء أيام صالح عليه السلام وهزم تحت قصف الحجارة من السماء أيام لوط عليه السلام. وهزم تحت أمواج البحر المتلاطمة أيام موسى عليه السلام. وما زال يهزم حتى يومنا هذا تحت شهادة الدعوة الخاتمة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم. * (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) * (٣).

إن الباطل هو الذي يهزم وفي هزيمته آية لكل من له سمع وبصر وعبرة لمن أراد الاعتبار * (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) * (٤). ولقد عمل الشيطان وقطاع الطرق من أجل تدمير الدعوة، ولكن هيهات،

(١) سورة الزمر: الآية ٣.

(٢) سورة محمد: الآية ٧.

(٣) سورة غافر: الآية ٥١.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ١٨.

منذ آدم عليه السلام وحتى محمد صلى الله عليه وسلم والتوحيد يسري في الوجود. لقد ذهب الجبابرة وأبناء الجبابرة الذين ادعوا أن دماء الآلهة تجري في عروقهم، ذهبوا، وذهب من بعدهم الجلادون الذين أرادوا أن تكون للشذوذ قداسة. ذهبوا وما زالوا يذهبون، ودعوة الحق راسخة في النفوس رسوخ الجبال * (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) * (١).

ولقد عمل الشيطان وقطاع الطرق من أجل تدمير الفطرة. والفطرة التي استهدفوها يقدرها على تبديلها وفي هذا انتكاس لهم. أما تغيير الطريق الفطري، فإن الشيطان لم يمكن من إجبار الناس على المعاصي، هو يدعو إليها فقط. وهذا الباب أغلقته حجج الله على عباده في عالم الذر والخلق، وفي عالم المشاهدة المنظور. ولقد جاء رسل الله عليهم السلام بالدين الحق، وللدين طريقة خاصة في الحياة، وبه يميز الناس أي الطرق يسلكون إلى حياة طيبة في الدنيا والآخرة، والدين الصحيح لا يكون إلا بحفظ الصلة بالله تعالى وإخلاص العبادة له. فمن أخلص العبادة لله تكون له حياة طيبة والله تعالى يحيي في الدنيا الذين آمنوا حياة غير الحياة التي يعطيها للآخرين، فحياة المؤمنين والمجرمين وموتهم لا يتساويان. قال تعالى: * (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) * (٢). ومن أعظم الحجج على الإنسان، أن الله ما ترك دعوة جاء بها رسول من رسله، إلا وأخبر فيها عن مكائد الشيطان، كي يحذر الجنس البشري من عمليات الاغواء والتزيين وغير ذلك. أليس في هذا تعرية لبرنامج الشيطان، والرسالة الخاتمة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، أفاض فيها سبحانه في هذا الجانب، وكشف كل مكر يقوم به الشيطان وأتباعه حتى يوم الوقت المعلوم.

(١) سورة الصف: الآية ٨ - ٩.

(٢) سورة الجاثية: الآية ٢١.

أليس في هذا حجة إضافية على ما عند الإنسان من حجج. إن الأخبار بما مضى حجة دامغة * (ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم) * (١).
لقد أخبر سبحانه عن أمره ونهيه تعالى فقال: * (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) * (٢)، وبين سبحانه أن الشيطان سيعمل على طريق ما نهى الله عنه، فقال إنه (يأمر بالفحشاء والمنكر) * (٣) ولأنه كذلك جاء التحذير من الحركة الشيطانية فقال سبحانه للنبي صلى الله عليه وسلم * (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق) * (٤) وقال: * (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) * (٥). إنه الحصار المضروب على برنامج الشيطان، حصار هدفه تحرير الإنسان ووضعه على طريق الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة. والحياة الدنيا لا تساوي ساعة واحدة أمام الحياة الآخرة. وكما حاصر كتاب الله أعمدة البرنامج الشيطاني، الفحشاء والمنكر، حاصر قطاع الطرق الذين وجدوا في الطاغوت ضالتهم. فقال تعالى: * (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت) * (٦) وفي مقابل هذه الولاية قال سبحانه: * (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأناثوا إلى الله لهم البشري) * (٧). وقال تعالى: * (إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) (٨)، ثم حذر سبحانه فقال: * (ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا

(١) سورة يس: الآية ٦٠ - ٦١.

(٢) سورة النحل: الآية ٩٠.

(٣) سورة النور: الآية ٢١.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٣٣.

(٥) سورة الأنعام: الآية ١٥١.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٥٧.

(٧) سورة الزمر: الآية ١٧.

(٨) سورة الأعراف: الآية ٢٧.

مبيناً) * (١)، وقال * (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) (٢).

وآيات القرآن التي تحاصر الشيطان وحزبه، وتبشر المؤمنين بالفوز، آيات كثيرة. أما من ناحية تمكين الشيطان كي يزين للناس المعاصي، فإن الله تعالى زين الإيمان في قلوب الذين آمنوا. قال تعالى: * (ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم) * (٣) وجعل سبحانه لمن آمن نورا يمشي به في الناس، قال تعالى: * (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس) (٤). وإذا كان الشيطان قد أمهل حتى يوم الوقت المعلوم، فإن الله أيد الإنسان بتتابع الأنبياء والرسل والأئمة المهديين والملائكة الباقين ببقاء الدنيا. وهكذا، زينة في مواجهة زينة، وحياة في مواجهة حياة، ومنهج في مواجهة منهج. منهج الله حيث التوحيد، وإعانة الله لعباده، والتسبيح، والتطهير، والحرية، والحلال، والحكمة، والخشوع، والعبادة الحق، والشكر، والشهادة، والخلود. ومنهج الشيطان حيث الاختلاف، والأزلام، والاستبداد، والاستعباد، والتفاخر، والتكذيب، والجهل، والجريمة، والفحشاء والمنكر، والخرافات، والطاغوت، والضلال، والفسق، والظلم والكفر، والنار.

(١) سورة النساء: الآية ١١٩.

(٢) سورة النحل: الآية ٩٩.

(٣) سورة الحجرات: الآية ٧.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٢٢.

ثانيا: النور والسحب الداكنة

على امتداد المسيرة الإنسانية، أقام الله تعالى حجته على خلقه بإرسال الأنبياء والرسل ومعهم الهدى. وعلى امتداد نفس المسيرة والشيطان وأوليائه يعملون من أجل الضلال والنار، وبعد رحيل النبي المؤيد بالوحي، ينشط الشيطان وتلاميذه في العمل على أرضية الصدر الأول في كل رسالة، وذلك لأن هذه التربة تعتبر مخزنا هاما تستمد منه الأجيال وقودها الذي تنطلق به إلى المستقبل، فالشيطان إذا دق شذوذا في الأرضية الأولى، ضمن لهذا الشذوذ قداسة على امتداد المسيرة البشرية. ومن أجل هذا تنشط حركته على امتداد هذه المساحة، وبالرغم من أن هذه المساحة تكون مشبعة بالعلم، إلا أن الشيطان يواجه هذا العلم دائما بالبغي، وما يلبث الذين يفي قلوبهم مرض أن يهيمنوا ببيغهم الذي يغذيه الزخرف والتزيين والإغواء، فبهذه التغذية يتراجع العلم ويعبر البغي إلى عالم الفتن. ولقد أخبرنا الله في كتابه أن الاختلاف بعد الرسل ما جاء إلا بعد أن أقيمت عليهم الحجة بالعلم، وهذا الاختلاف ما ترعرع إلا على تربة البغي التي يترتب عليها العقاب * (وما اختلف أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب) * (١). قال المفسرون: أي بغي بعضهم مع بعض، فاختلفوا في الحق لتحاسدهم

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩.

وتباغضهم وتدابروهم. فحمل بعضهم بغض البعض الآخر، على مخالفته في جميع أقواله وأفعاله وإن كانت حقا (١). وقيل: اختلاف أهل الكتاب في الدين مع نزول الكتاب الإلهي عليهم، لم يكن عن جهل منهم بحقيقة الأمر، بل كانوا عالمين بذلك. وإنما حملهم على ذلك بغيتهم وظلمهم من غير عذر، وذلك كفر منهم بآيات الله المبينة لهم حق الأمر وحقيقته. لا بالله، فإنهم يعترفون به، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب، يحاسبه سريعا في دنياه وآخرته أما في الدنيا فبالخزي وسلب سعادة الحياة عنه. وأما في الآخرة فبالإليم عذاب النار، والدليل على عموم سرعة الحساب للدنيا والآخرة قوله تعالى بعد آيتين: (أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين) (٢). وإذا كان البغي قد أثمر شجرة الاختلاف. فإنه أثمر أيضا شجرة الافتراق، قال تعالى: (وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) (٣). قال المفسرون: أي وما تفرق الناس الذين شرعت لهم الشريعة باختلافهم وتركهم الاتفاق، إلا حال كون تفرقهم آخذا أو ناشئا من بعد ما جاءهم العلم بما هو الحق ظلما أو حسدا تداولوه بينهم (٤). وقال ابن كثير: أي إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم وقيام الحجة عليهم. وما حملهم على ذلك إلا البغي والعناد (٥).

إن الشيطان ينشط في تربة العلم، حيث القافلة الأولى. فإن استطاع أن يدق له وتدا أو ينصب له خيمة، ضمن البغي والاختلاف والفرقة. ومن هذه الأشجار سيأكل كل قادم ملجم العقل من بني الإنسان تحت لافتات عدة تزينها سنة الآباء الأوائل، التي يدافعون عنها حتى ولو خرجت منها رائحة الفواحش.

(١) تفسير ابن كثير: ٣٥٤ \ ١.

(٢) تفسير الميزان: ١٢١ \ ٣.

(٣) سورة الشورى: الآية ١٤.

(٤) الميزان: ٣١ \ ١٨.

(٥) تفسير ابن كثير: ١٠٩ \ ٤.

والنبي الخاتم صلى الله عليه وسلم، عندما بعث كانت سنة الآباء الضالين لها أعلام في كل مكان من عالم الفرقة والاختلاف. لقد دعاهم إلى الحق، فواجهوه بالباطل (قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) (١) (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء) (٢). جاء الرسول الخاتم ليواجه شريحة من الكفار في رسالته الخاتمة تحمل نفس الملامح التي حملها كفار قوم نوح عليه السلام في صدر الإنسانية، فقديمًا شكّا نوح عليه السلام قومه لله تعالى وقال: (وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً) (٣) في الرسالة الخاتمة قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم: (قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون) (٤) (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا) (٥).
لقد جاء النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم في وقت كانت سياسة الاغواء والتزيين والاحتناك قد وصلت بأصحابها إلى دركات هوة عميقة.

١ - من مداخل الدعوة الخاتمة:

إن الداعي إلى الله تعالى صلى الله عليه وسلم، جاء ليذكر ويغذي الإرادة. ويعمق الإخلاص ويشيع الأخلاق الفاضلة، ويشر بما عند الله للذين آمنوا في الحياة الدنيا والآخرة. ويحذر دوائر الانحراف والاختلاف والفرقة والضلال من عذاب يوم عظيم. وكانت أصول دعوته تستند إلى أهم الأمور الفطرية، ألا وهو لا إكراه في الدين. فنوح عليه السلام قال في صدر البشرية

(١) سورة المائدة: الآية ١٠٤.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٢٨.

(٣) سورة نوح: الآية ٧.

(٤) سورة فصلت: الآية ٥.

(٥) سورة الفرقان: الآية ٦٠.

لقومه (أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) (١). قال المفسرون: أي إذا كنت على بينة من ربي، على يقين ونبوة صادقة، وخفيت عليكم فلم تهدوا إليها ولا عرفتم قدرها بل بادرتم إلى تكذيبها وردّها (أنلزمكموها) أي: أنغصبكم بقبولها وأنتم لها كارهون (٢). وقال في الميزان: معناه عندي ما يحتاج إليه رسول الله في رسالته، وقد أوقفتمكم عليه، لكنكم لا تؤمنون به طغيانا واستكبارا، وليس علي أن أجبركم عليها، إذ لا إيجاب في دين الله سبحانه. والآية من جملة الآيات النافية للإكراه في الدين، وتدل على أن ذلك من الأحكام الدينية المشرعة في أقدم الشرائع، وهي شريعة نوح عليه السلام. وهذا الحكم باق على اعتباره حتى اليوم من غير نسخ (٣).

كان هذا في شريعة صدر البشرية الأول، وفي عصر الرسالة الخاتمة. قال تعالى: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) (٤). قال المفسرون: نفي الدين الإجباري.. فالاعتقاد والإيمان من الأمور القلبية التي لا يحكم فيها الإكراه والإيجاب. فإن الإكراه إنما يؤثر في الأعمال الظاهرية والأفعال والحركات البدنية، أما الاعتقاد القلبي فله علل وأسباب أخرى قلبية (٥). فالدعوة تقف على أرضية لا إكراه في الدين، والداعية يقف على أرضية الخلق العظيم، قال تعالى لرسوله (وإنك لعلی خلق عظیم) (٦) ومحاورة صاحب الخلق العظيم لخصومه تشع بالحكمة والموعظة الحسنة قال تعالى: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) (٧).

-
- (١) سورة هود: الآية ٢٨.
(٢) تفسير ابن كثير ٤٣ \ ٢.
(٣) الميزان ٢٠٧ \ ١٠.
(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.
(٥) الميزان: ٣٤٥ \ ٢.
(٦) سورة القلم: الآية ٤.
(٧) سورة النحل: الآية ١٢٥.

ومن أرضية لا إكراه في الدين حاور صاحب الخلق العظيم خصومه وأخبرهم بما أمر به الله. (قل إنني هدايتي ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) (١). قال المفسرون: أمره تعالى أن يخبرهم بأن ربه الذي يدعو إليه، هداية إلهية إلى صراط مستقيم، وسبيل واضح لا تخلف فيه ولا اختلاف. ديناً قائماً على مصالح الدنيا والآخرة أحسن القيام. لكونه مبنيًا على الفطرة ملة إبراهيم حنيفاً، مائلاً عن التطرف بالشرك. إلى اعتدال التوحيد (٢)، وأمره الله تعالى أن يخبرهم بأن طريقه هو طريق العبادة الحق. (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين* لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) (٣). قال المفسرون: أمره تعالى أن يخبرهم بأنه عامل بما هداه الله إليه، وسائر به. كما أنه مأمور بذلك، وأمره أن يقول لهم: إنني جعلت صلاتي ومطلق عبادتي ومحياي بجميع ما له من الشؤون.. ومماتي بجميع ما يعود إلي من أموره، جعلتها كلها لله رب العالمين. من غير أن أشرك به فيها أحد، فأنا في جميع شئوني في حياتي ومماتي لله وحده. وجهت وجهي إليه، لا أقصد شيئاً ولا أتركه إلا له ولا أسير في سير حياتي ولا أرد مماتي إلا له. فإنه رب العالمين، يملك الكل ويدبر أمرهم، وقد أمرت بهذا النحو من العبودية، وأنا أول المسلمين لله فيما أراده من العبودية التامة في كل باب وجهة (٤). كان هذا مدخل من مداخل دعوة الإسلام العظيم، ولكن جحافل الليل وخفافيش الظلام خرجوا من عالم الاحتناك حيث خيام تلجيم العقول وتعصيب العيون للصد عن سبيل الله بفرسانهم ورجالاتهم وأموالهم.

٢ - عواصف الصد عن سبيل الله:

وقفت الدعوة الإسلامية في مواجهة أصحاب السبيل والاختلاف، رافعة

(١) سورة الأنعام: الآية ١٦١.

(٢) الميزان: ٣٩٤ \ ٧.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٦٢ - ١٦٣.

(٤) الميزان: ٣٩٤ \ ٧.

هامتها. وقام النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم بإنذار خصوم العبادة الحق وإخبارهم أن عبادتهم اتباع للهوى، واتباع الهوى ينافي صفة الاهتداء في نفس الإنسان، ويمانع إشراق نور التوحيد على قلبه إشراقاً ثابتاً ينتفع به. (قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم) (١) وذكرهم بما حرم الله عليهم ووصاهم به. ومما وصاهم به، أن لا يتبعوا السبل التي دون هذا الصراط المستقيم الذي لا يقبل التخلف والاختلاف، فإن اتباع السبل يفرقهم عن سبيل الله. فيتخلفون فيه فيخرجون من الصراط المستقيم. والصراط المستقيم، لا اختلاف بين أجزائه ولا بين سالكيه. (وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلك وصاكم به لعلكم تتقون) (٢).

ووجد الساهرين على برنامج الشيطان أن برنامجهم في مهب الريح، فكان لا بد من توجيه ضربات إلى الداعي إلى الله وإلى منهج الدعوة وإلى الذين آمنوا. فهذه المحطات الثلاث اتخذها الشيطان هدفاً له منذ أن طرده الله ولعنه، ودوائر الصد عن سبيل الله التي سنسلط عليها الضوء في بحثنا هذا هي (دائرة النجس) و (دائرة الرجس) وبالإضافة إلى هاتين الدائرتين يوجد تيار كان من نسيج الذين آمنوا. لكنه نسيج عبئ عليهم، وهذا الصنف وضعته تحت عنوان (تيار الذين في قلوبهم مرض).

أولاً - دائرة النجس:

وفي هذه الدائرة يجلس طابور الشرك كله، قال تعالى: (إنما المشركون نجس) (٣). قال في المجمع: كل مستقذر نجس. يقال: رجل نجس وامرأة

(١) سورة الأنعام: الآية ٥٦.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

(٣) سورة التوبة: الآية ٢٨.

نجس وقوم نجس لأنه مصدر. وأدخلت في دائرة النجس الكفار نظرا لأنهم جميعا حزمة واحدة لها هدف واحد حدده برنامج واحد. وإذا كان القرآن قد ضرب على المشركين بالنجس فإنه شبه الكفار بالأنعام لأنهم لم يكونوا أهلا لسماع الحق وتعقله. وأهل هذه الحزمة الواحدة استهدفوا الرسل فرموه بالسحر (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب) (١) ورموه بالجنون (وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون) (٢)، ورفضوا بشرية الرسول فقالوا (لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا) (٣).

ووفقا لبرنامج الشيطان استهدفوا الدعوة فقالوا عن القرآن الكريم: (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا) (٤). وخرج الذين تقلبوا في نعيم الترف والزينة وتعلقت قلوبهم بحب الدنيا فرأوا السعادة فيها والعذاب في فقدتها. خرجوا ليجلدوا الذين آمنوا، على اعتبار أنهم خرجوا عن سنة الآباء القومية التي تحمل شذوذ المسيرة الإنسانية من عهد نوح عليه السلام. وتحت السياط واللهيب سارت الدعوة الحق تضرب بحججها وجوه الجاحدين والظالمين أعداء العبادة الحق. ولم يجد هؤلاء في جعبتهم من الحجج إلا ما تلقاه الشياطين على عقولهم الفارغة. قال تعالى: (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم سنكتب شهادتهم ويسألون)* وقالوا له شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون* أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون* بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون) (٥). إن سلتهم قد طفحت بأشواك زينت بلون الورود، لقد جاءهم الشيطان من جهاتهم الأربعة ونصب خيامه على دروب الآمال والأمان وتغيير خلق الله، وزين لهم الفواحش، قال تعالى: (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا

(١) سورة ص: الآية ٤.

(٢) سورة الحجر: الآية ٦.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٧.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٥.

(٥) سورة الزخرف: الآية ١٩ - ٢٢.

عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون (١).

لقد عبدوا الملائكة، وساروا بلجام الاحتناك وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم. إنه فقه الصم البكم العمي، لأن عبادتهم للملائكة لو كانت بمشيئة الله وبرضاه، ما جاءهم رسول من الله يدعوهم إلى عبادة الله وحده وأن يوحده ولا يعبدوا الشركاء. ثم إنهم لا حجة لهم على عبادة الملائكة، لا من طريق العقل ولا من طريق النقل فلم يأذن الله فيها. ولا دليل لهم على حقية عبادتهم سوى أنهم متشبثون بتقليد آبائهم وفي درب آخر من دروبهم فعلوا الفواحش وقالوا وجدنا عليها الآباء والله أمرنا بها. وذلك افتراء على الله وقول بغير علم لعدم انتهائه إلى وحي.

إن الله تعالى أعدل من أن يجبر عبدا على فعل ثم يعذبه عليه، والله جل شأنه لو كان مجبرا لعبده على فعل ما برأ من أفعال المشركين قال سبحانه: (أن الله برئ من المشركين) (٢). فهو سبحانه لم يتبرأ من خلق أبدانهم وإنما تبرأ من شركهم وقبائحهم. قال تعالى: (فإن عصوك فقل إني برئ مما تعملون) (٣)، وقال: (قال إني أشهد الله واشهدوا أني برئ مما تشركون) (٤). إن طابور الشرك والكفر والاحتناك لا علم عنده، لأن المعارف الحقة والعلوم المفيدة لا تكون في متناول البشر إلا عندما يصلح أخلاقه. والطريق الوحيد لإصلاح الأخلاق والحصول على الملكات الفاضلة هو التوحيد الحق في العبادة الحق.

وإذا كان للمشركين والكفار في مكة عمود في دائرة النجس. فإن للمشركين والكفار من أهل الكتاب عمود عتيق في هذه الدائرة. لأنهم حملوا

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٨.

(٢) سورة التوبة: الآية ٣.

(٣) سورة الشعراء: الآية ٢١٦.

(٤) سورة هود: الآية ٥٤.

برنامج الشيطان وصدوا به عن سبيل الله. ولكن على طريقتهم، فاستهدفوا الرسول والدعوة والذين آمنوا، قال تعالى: (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة) (١)، فسؤالهم تنزيل الكتاب من السماء بعدما كانوا يشاهدونه من أمر القرآن. لم يكن إلا سؤالاً جزافياً لا يصدر إلا ممن لا يخضع للحق ولا ينقاد للحقيقة. وإنما يلغوا ويهدوا بما قدمت له أيدي الأهواء من غير أن يتقيد أو يثبت على أساس (٢). إن هدفه الصد عن السبيل بالتشكيك في الرسول، أما الدعوة فقد استهدفوها من جذورها. فالنبي صلى الله عليه وسلم أعلن على أسماع الجميع أن دعوته مبنية على الفطرة ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين، فقام المشركين من أهل الكتاب بالمتاجرة على حساب أنهم أولى الناس بإبراهيم. يريدون من وراء ذلك إبعاد الناس عن الدعوة، فنزل قول الله تعالى: (يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون) (٣). قال المفسرون: ضمت كل طائفة منهم إبراهيم إلى نفسها، فتدعي اليهود أنه كان يهودياً، وتدعي النصارى أن كان نصرانياً. ومن المعلوم أن اليهودية والنصرانية، إنما نشأتا جميعاً بعد نزول التوراة والإنجيل، وقد نزلا جميعاً بعد إبراهيم عليه السلام. فكيف يمكن أن يكون عليه السلام يهودياً أو نصرانياً. فلو قيل في إبراهيم شيء لوجب أن يقال: إنه كان على الحق حنيفاً من الباطل إلى الحق مسلماً لله سبحانه. والإسلام الذي وصف به إبراهيم، هو أصل التسليم لله سبحانه والخضوع لمقام ربوبيته (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين)* إنه أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين (٤). وكما استهدفوا الرسول والدعوة استهدفوا أيضاً القوة الإسلامية بعد

(١) سورة النساء: الآية ١٥٣.

(٢) الميزان: ١٣٠ \ ٥.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٦٥.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٦٧ - ٦٨.

الهجرة، فقام اليهود بتغذية الساحة بالمكائد وإشعال الحرب وكان الغرض من هذه الحروب كسر شوكة المسلمين وتجريدهم من قوتهم لحساب المنافقين ولحساب أهل مكة ومن حولهم الذين أخبر تعالى أنهم لا يهتدون ويستوي عليهم الانذار أو عدم الانذار (١).

* حصار دائرة النجس:

لقد استهدف الكفار والمشركين الداعي إلى الله صلى الله عليه وسلم ودعوته والمؤمنين بها. فأما الداعي إلى الله فلم يصل كيدهم إليه لأن الله ينصر رسله ولو كره الكافرون. وأما كتاب الدعوة وهو القرآن الكريم فقد تولى الله حفظه فقال جل شأنه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له حافظون) (٢). وأما أتباع الدين فإن حفظهم يكون بمقدار اقترابهم من الداعي إلى الله صلى الله عليه وسلم وكتابه. فكلما كانوا أقرب عمهم البغي والاختلاف والافتراق، ودخلوا في خيام برنامج الشيطان. وآيات الكتاب الحكيم التي تحفظ أتباع الدين الحق، آيات كثيرة تحفظهم من وساوس الشيطان وخطواته وتحفظهم من حركة أتباع منهج الشيطان ودسائسهم.

لقد حشتهم آيات الله على الاتحاد والأمانة والتقوى والجهد والدعاء والذكر والصدقة والعلم والفكر والفهم. إلى غير ذلك من الأمور التي تجعل منهم قوة لا تنفذ إليها سهام دائرة النجس. والأكثر من هذا أن آيات الكتاب الحكيم كشفت برنامج الكفار والمشركين الذي يستمد قوته من برنامج الشيطان. وكشف هذا البرنامج للمؤمنين هو في نفس الوقت حجة عليهم يوم القيامة. وأهم الأعمدة التي يقوم عليها برنامج المشركين من أهل الكتاب قوله تعالى: (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا

(١) راجع سورة ياسين: الآية ١٠.

(٢) سورة الحجر: الآية ٩.

نصير (١). قال المفسرون: إن هؤلاء ليسوا براضين عنك، حتى تتبع ملتهم التي ابتدعوها بأهوائهم، ونظموها بأرائهم. ثم أمره تعالى بالرد عليهم بقوله: قل إن هدى الله هو الهدى. أي إن الاتباع إنما هو لغرض الهدى. ولا هدى إلا هدى الله. وهو الحق الذي يجب أن يتبع وغيره - وهو ملتكم - ليس بالهدى. فهي أهوائكم، ألبيستموها لباس الدين. وسميتموها باسم الملة. ففي قوله (قل إن هدى الله).. جعل الهدى كناية عن القرآن، ثم أضيف إلى الله، فأفاد صحة الحصر في قوله (إن هدى الله هو الهدى)، وأفاد ذلك خلو ملتهم عن الهدى. وأفاد ذلك كونها أهواء لهم. واستلزم ذلك كون ما عند النبي علما، وكون ما عندهم جهلا. واتسع المكان لتعقيب الكلام بقوله: (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم* ما لك من الله من ولي ولا نصير) فانظر إلى ما في هذا الكلام من أصول البرهان العريقة ووجود البلاغة على إيجازه. وسلسلة البيان وصفائه (٢).

إن الدخول في مساحة هؤلاء يترتب عليها أمور على رأسها (ما لك من الله من ولي ولا نصير) إن مساحتهم بها الزخرف والإغواء والأهواء. والآخذ منهم شيئا لن يأخذه إلا إذا كان حذاؤه قد حمل غبار طريقهم وعقله قد حمل بصمة احتناكهم. وإذا كان القرآن الكريم قد حذر من هذه المساحة العريضة التي يترتب فيها المشركين من أهل الكتاب. إلا أنه في الوقت نفسه حذر من مساحة أخرى يترتب فيها المتخصصون من هؤلاء. يقول تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين* وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم) (٣). إنه الفريق الناعم الذي يجيد الاختراق، ويمهد الطريق لمساحته الواسعة كي تفرض سياسات التخويف والتجويع على الأمة، من أجل تنفيذ

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٠.

(٢) الميزان: ٢٦٥ \ ١.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٠٠ - ١٠١.

برنامج النجس والعار.

وكتاب الله وهو يكشف هذه الأهداف بين أن مخططات هؤلاء ستتحطم إذا اعتصمت الأمة بكتاب الله (وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله) قال المفسرون: أمر سبحانه بالاعتصام بالحق والإنصات إلى آيات الله، والتدبر فيها وإرجاع ما خفي منها إلى الرسول وسنته. فالآيات وبخت طريق الكفر وسالكه. وأثبتت أن الكتاب والسنة كافيان في الدلالة على كل حق يمكن أن يضل فيه.. فقلوه تعالى: (وفيكم رسوله) يشمل أيضا وفيكم سنته التي بين لكم ما خفي عنكم من تأويل آيات الكتاب.

وكما حذر كتاب الله من المخططات الكبرى لأهل الكتاب، حث المؤمنين على حفظ ثقافتهم الإسلامية في أي مكان تواجدوا فيه. فحذر من ثقافة الآباء والأقارب إن استحبوا الكفر. ونهى عن مادة من حاد الله ورسوله ولو قارن أي سبب من أسباب المودة كالأبوة والنبوة والأخوة وسائر أقسام القرابة، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هو الظالمون) (١)، وقال تعالى: (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) (٢). إن حفظ الثقافة والعقيدة في الدائرة الأضيق مطلب إسلامي. كما أن حفظها في الدائرة الأوسع فيه دفاع عن الفطرة أمام الشهوات والأهواء المتعددة. يقول تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض. ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين) (٣). قال المفسرون: المراد هو النهي عن موادتهم الموجبة لتجاذب الأرواح والنفوس. فإن ذلك يقلب حال المجتمع من السيرة الدينية المبنية على اتباع الحق. إلى سيرة الكفر المبنية على اتباع الهوى وعبادة

(١) سورة التوبة: الآية ٢٣.

(٢) سورة المجادلة: الآية ٢٢.

(٣) سورة المائدة: الآية ٥١.

الشیطان، والخروج عن صراط الحياة الفطرة (١).
لقد أقام الله حجته على حركة المسلمين على امتداد التاريخ، وقام القرآن
الکریم بإظهار الداء وتشخیص الدواء. کي لا تختلط الثقافات وتنتج في النهاية
صنفا لا علاقة له بالإسلام أو بأهل الكتاب. صنفا لا من هؤلاء ولا من هؤلاء
مهمته الوحيدة الوقوف في دائرة الاحتناک يقدم خدماته لمن يلقف رغيفا أو شهوة
تافهة.

ثانيا - دائرة الرجس:

قال تعالى وهو يذم المنافقين (فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم
جهنم) (٢)، وقال سبحانه: (وأما الذين في قلوبهم مرض فزادهم رجسا إلى
رجسهم وماتوا وهم كافرون) (٣). والرجس هو كل قدر وقد يعبر به عن الحرام
والفعل القبيح واللعنة والكفر. قال الزجاج: الرجس في اللغة اسم لكل ما
استقذر من عمل (٤) والقرآن الکریم اهتم بالمنافقين، فذكرهم نظرا لخطورة
العمل الذي عزموا عليه. فذكر مساوئ أخلاقهم، وأكاذيبهم وخدائعهم
ودسائسهم. والفتن التي أقاموها على النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وعلى
المسلمين وقد تكرر ذكرهم في السور القرآنية كسورة البقرة وآل عمران والنساء
والمائدة والأنفال والتوبة والعنكبوت والأحزاب والفتح والحديد والحشر
والمنافقون والتحريم وقد وعدهم الله أشد الوعيد. ففي الدنيا بالطبع على قلوبهم
وجعل الغشاوة على سمعهم وعلى أبصارهم وإذهب نورهم وتركهم في ظلمات
لا يبصرون. وفي الآخرة يجعلهم في الدرك الأسفل من النار. وليس ذلك إلا
لشدة المصائب التي أصابت الإسلام والمسلمين من كيدهم ومكرهم وأنواع
دسائسهم. فلم ينل المشركون واليهود والنصارى من دين الله ما نالوه. ويكفيك

(١) الميزان: ٣٧٣ \ ٥.

(٢) سورة التوبة: الآية ٩٥.

(٣) سورة التوبة: الآية ١٢٥.

(٤) لسان العرب: ١٥٩ \ ١٨.

فيهم قول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله (هم العدو فاحذرهم) (١).
والنفاق له مدرسة على مساحة أهل الكتاب قال تعالى عن المنافقين
منهم: (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا
أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون) (٢). وقال
تعالى: (وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) (٣).
فالنفاق تمتد عروقه إلى الماضي السحيق. وهو أول تيار سري على صفحة
الجنس البشري. عمل من أجل إعاقاة الطريق أمام العبادة الحق لحساب الأهواء
المتعددة، وهذا التيار يحتوي بين دفتيه على جميع الأنماط البشرية من الذين
استذلهم الشيطان. يحتوي على الرعاع والغوغاء والدهيماء. وفي نفس الوقت
يضم أصحاب الملابس النظيفة والياقات البيضاء، أصحاب الأموال والأولاد
وفصاحة اللسان. يقول تعالى: (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع
لقولهم كأنهم خشب مسندة) (٤). فهم أصحاب أزياء حسنة، وصباحة في
المنظر، وتناسب في الأعضاء. إذا رآهم الرائي أعجبه أجسامهم، وإذا سمع
السامع كلامهم مال إلى الأصغاء إلى قولهم. لحلاوة ظاهره وحسن نظمه، ورغم
كل هذا إلا أن الحقيقة، أن هؤلاء كالخشب المسندة. أشباح بلا أرواح، لا خير
فيها ولا فائدة، لأنهم لا يفقهون. وكيف يفقه من صد عن سبيل الله بكل ما
يملك من الأموال وأولاد. قال تعالى: (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم * إنما
يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) (٥). أخبر
سبحانه بأن أموالهم وأولادهم ليس من النعمة التي تهتف لهم بالسعادة، بل من
النقمة التي تجرهم إلى الشقاء. وأبواب الشقاء مفتوحة لجميع من أعرض عن
ذكر الله، قال تعالى: (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم

(١) سورة المنافقون: الآية ٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ٧٦.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١١٩.

(٤) سورة المنافقون: الآية ٤.

(٥) سورة التوبة: الآية ٥٥.

القيامة أعمى * قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك آتتكم آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى (١).

والمنافقين هرولوا في اتجاه الإسلام لإنجاز برنامج لا علاقة له بالإسلام. قال تعالى: (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون * اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون) (٢) لقد هرولوا إلى الإسلام وهم معرضين عن سبيل الله!! أظهروا الإيمان ليقتربوا من المؤمنين ويحضرون في محاضرتهم ومشاهدتهم. فيسهل عليهم وضع العراقيل المناسبة في طريق كل حركة للدعوة. ولأن مساحة النفاق تحتوي على الأصناف العديدة من أصحاب العقد النفسية الذين فسدت فطرتهم وعلى أصحاب المصالح والمطامع. فإن القرآن الكريم فضح هذه المساحة التي ظهر أصحابها في صدر العهد النبوي. فمنهم من لا يعرفه إلا الله وحده، قال تعالى: (ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم) (٣). قال المفسرون: ومنهم في حولكم، أو حول المدينة من الأعراب الساكنين في البوادي. منافقون مردوا على النفاق، ومن أهل المدينة أيضا منافقون معتادون على النفاق. لا تعلمه أنت يا محمد نحن نعلمهم (٤).

ومنهم من كان الله تعالى يكشفه للنبي، ومنهم من كان النبي لا يكشفه إلا لخاصة أصحابه. ومن الخاصة حذيفة وعمار رضي الله عنهما. وعن حذيفة قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن في أصحابي اثني عشر منافقا منهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط" (٥). وهؤلاء الاثني

(١) سورة طه: الآية ١٢٤ - ١٢٥ - ١٢٦.

(٢) سورة المنافقون: الآية ١ - ٢.

(٣) سورة التوبة: الآية ١٠١.

(٤) الميزان ٣٧٦ \ ٩.

(٥) رواه الإمامان أحمد ومسلم (كنز العمال ١٦٩ \ ١).

عشر ليسوا من العامة والغوغاء. فأمثال هؤلاء كان النبي يكشفهم للخاص والعام. أما حزمة الاثني عشر الذين لا يدخلون الجنة، فهم من أصحاب برامج الخشب المسندة. برامج الأشباح التي بلا أرواح والتي لا خير فيها ولا فائدة. لذا يقول حذيفة: "وأشهد الله أن الاثني عشر حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد" (١). واثنى عشر فيهم كفاية لتدمير أمة. كما أن اثني عشر فيهم كفاية لنجاة الأمة (٢) ألم ترى أن بني إسرائيل كان يكفيهم عشرة فقط من الأبحار يؤمنون برسالة النبي وعلى إيمانهم يدخلون دائرة الأمن. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود" (٣). أما الذين كشفهم النبي صلى الله عليه وسلم للخاصة والعامة. فعن جبير بن مطعم قال: أصغى إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم - أي مال رأسه إلي - وقال: "إن في أصحابي منافقين" (٤). وعن إياس عن أبيه أنهم عادوا مريضا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان المريض مرتفع الحرارة. وعندما قالوا أمام النبي أن المريض أشد حرا، قال لهم: "ألا أخبركم بأشد حرا منه يوم القيامة - وأشار لرجلين من أصحابه مولين أفقيتهما منصرفين - هذينك الراكبين المقفيين" (٥). قال النووي: سماهما من أصحابه لإظهارهما الإسلام والصحة. وأخرج البيهقي عن ابن مسعود قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أيها الناس إن فيكم منافقين. فمن سميت فليقم، قم يا فلن، ثم يا فلان. حتى عد ستا وثلاثين (٦). وعن ابن عباس قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا يوم الجمعة، فقال: "أخرج يا فلان إنك منافق. وأخرج يا فلان فإنك منافق، فأخرج ناسا منهم فضحهم. فجاء عمر بن الخطاب وهم

(١) رواه الإمام مسلم كتاب صفات المنافقين (صحيح مسلم: ١٢٥ \ ١٧).

(٢) حديث الاثني عشر الذين من قريش سيأتي في موضعه.

(٣) رواه الإمام البخاري كتاب الهجرة (صحيح البخاري: ٣٤١ \ ٢).

(٤) رواه الإمام أحمد (الفخ الرباني: ٢٣٢ \ ١٩).

(٥) رواه الإمام مسلم (صحيح مسلم: ١٢٨ \ ١٧) كتاب صفات المنافقين.

(٦) السيوطي (الخصائص الكبرى: ١٧٤ \ ٢).

يخرجون من المسجد. فاختبأ منهم حياء أنه لم يشهد الجمعة فظن أن الناس قد انصرفوا. واختبئوا هم من عمر ظنوا أنه قد علم بأمرهم... الحديث (١) فكشف تيارات النفاق على امتداد العهد النبوي كان يخضع لوعي الله تعالى. فالوحي كان يخبر البعض، ويخبر البعض الآخر ضمن خط عريض وهو يتحدث عن النفاق، نظرا لأن الأمة ممتحنة ومبتلية شأنها كشأن الأمم السابقة ليعلم الله كيف تعمل وكيف تختار ويعلم سبحانه الصابرين. إن الله تعالى أخبر عباده عن الشيطان وأهدافه، وكثير من العباد لم يروا الشيطان، وأخبر سبحانه عن المنافقين وصفاتهم وبرامجهم وكثير من الناس لم يعرفوا أسماء المنافقين. والحجة ليست في الملابس والأموال والأولاد. وإنما هي في الحركة والبرامج التي بينها الله تعالى في كتابه. يقول تعالى: (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام)* وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد* وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهادر (٢). وقد يقول قائل فيمن أنزلت هذه الآية؟ والجواب عن ابن كثير يقول: إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامة بعد ذلك (٣). ومعنى الآية: إنه يتكلم بما يعجبك كلامه، مما يشير به إلى رعايته جانب الحق. والعناية بصلاح الخلق وتقدم الدين والأمة. وهو أشد الخصماء للحق خصومة (وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها.. الآية) التولي هو القيادة والسلطان ويؤيد هذا قوله تعالى في الآية التالية: (أخذته العزة بالإثم)... وهذا يدل على أن له عزة مكتسبة بالإثم الذي يأثم به قلبه غير الموافق للسانه. والسعي هو العمل والإسراع في المشي، فالمعنى: وإذا تمكن هذا المنافق الشديد الخصومة من العمل، وأوتي سلطانا وتولى أمر الناس. سعي في الأرض ليفسد فيها - ويمكن أن يكون التولي - بمعنى الإعراض عن المخاطبة والمواجهة، أي: إذا خرج من عندك كانت غيبته مخالفة لحضوره. وتبدل ما كان يظهره من

(١) أورده ابن كثير عن السدي عن أبي مالك (التفسير: ٣٨٤ \ ٢).

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٣) تفسير ابن كثير: ٢٤٦ \ ١.

طلب الصلاح والخير إلى السعي في الأرض لأجل الفساد والإفساد (١)..
فهذا الذي يخالف ظاهر قوله، باطن قلبه. إذا سعى في الأرض بالفساد،
فإنما يفسد بما ظاهره الاصلاح بتحريف الكلمة عن موضعها، وتغيير حكم الله
عما هو عليه، والتصرف في التعاليم الدينية. بما يؤدي إلى فساد الأخلاق
واختلاف الكلمة. وفي ذلك موت الدين وفساد الدنيا. وقد صدق هذه الآيات ما
جرى عليه التاريخ من ولاية رجال وركوبهم أكتاف هذه الأمة الإسلامية.
وتصرفهم في أمر الدين والدنيا بما لم يستعقب للدين إلا وبالا. وللمسلمين إلا
انحطاطا. وللأمة إلا اختلافا فلم يلبث الدين حتى صار لعبة لكل لاعب. ولا
الإنسانية إلا خطفة لكل خاطف.

وقيل: (وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد..) السعي هنا هو القصد كما
قال أخبارا عن فرعون (ثم أدبر يسعي فحشر فنادى أنا ربكم الأعلى).. فهذا
المنافق ليس له همه إلا الفساد في الأرض وإهلاك الحرث.. (وإذا قيل له اتق
الله أخذته العزة بالإثم) أي إذا وعظ هذا الفاجر، وقيل له اتق الله، امتنع وأبى
وأخذته الحمية والغضب بالإثم. وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: (وإذا تتلى
عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر، يكادون يسطون بالذين
يتلون عليهم آياتنا، قل أفأنبئكم بشر من ذلكم. النار وعدّها الله الذين كفروا
وبئس المصير". ولهذا قال في هذه الآية: (فحسبه جهنم ولبئس المهاد) أي هي
كافيته عقوبة هي ذلك (٢).

إن أطروحة النفاق ترى بوضوح إذا سقطت عليها أشعة منهج العبادة الحق.
لأن المنافقين على امتداد التاريخ الإنساني بعضهم من بعض، يحكم عليهم نوح
من الوحدة النفسية. وهذه الوحدة تضعهم في قالب ذي أوصاف واحدة. ومهمة
هذه الطروحات على امتداد التاريخ وضع البشرية على أعتاب الكوارث، لأن
بنيانها أسس من ماء الكذب ووضع على شفا جرف هار. لا خير فيه ولا فائدة.

(١) الميزان: ٩٦ \ ٢.

(٢) تفسير ابن كثير: ٢٤٧ \ ١.

ثالثاً - تيار الذين في قلوبهم مرض: لقد خلطوا بين هذا التيار وبين المنافقين. وقالوا إنهما نوع واحد من الأنماط الإنسانية. والحقيقة غير هذا ولا تلائم سياق بعض الآيات التي ذكر فيها الذين في قلوبهم مرض. وذلك لأن المنافقين يشاركونهم في آيات أخرى، والعديد من المفسرين قالوا: المنافقون هم الذين آمنوا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم والذين في قلوبهم مرض هم ضعاف الإيمان. ومرض القلب في عرف القرآن، هو الشك والريب على إدراك الإنسان، فيما يتعلق بالله وآياته. وعدم تمكن القلب من العقد على عقيدة دينية، نظراً لخلط الإيمان بالشرك عند مرض القلوب. ومن الآيات التي ذكرت الذين في قلوبهم مرض قوله تعالى: (إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم..) (١). ولا معنى للقول بأن الذين في قلوبهم مرض في هذه الآية هم من المشركين، لأن القرآن لم يطلق على المشركين اسم الذين في قلوبهم مرض ولم يطلق عليهم اسم المنافقين. ولا معنى للقول بأنهم هم الكفار، لأن الكفر هو موت للقلب لا مرض فيه، قال تعالى: (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) (٢). والذي يستحق التسجيل هنا أن هذه الآية نزلت في غزوة بدر. وفيها دليل على حضور جمع من المنافقين وضعفاء الإيمان ببدر حين تلاقي الفئتين. وذكر أن ضعاف الإيمان كانوا فئة من قریش أسلموا بمكة، واحتبسهم آبائهم. واضطروا إلى الخروج مع المشركين إلى بدر، حتى إذا حضروها وشاهدوا ما عليه المسلمون من القلة قالوا: مساكين غر هؤلاء دينهم حين قدموا على ما قدموا عليه من قلة عددهم وكثرة عدوهم (٣). فإذا كان تعريف المنافقين بأنهم الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، فإن ذلك لا ينطبق على الفئة التي اضطرت إلى

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٩.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٢٢.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣١٩ \ ٢.

الخروج مع المشركين. لأن هذه الفئة لم يظهروا الإسلام، لأنهم لو كانوا قد أظهروه ما كانوا خرجوا من مكة أصلاً. ومن الدليل على أن المنافق غير الذي في قلبه مرض قوله تعالى في موطن آخر من موطن القتال: (هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً* وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) (١). قال ابن كثير: حين نزلت الأحزاب حول المدينة والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضيق، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم.. فحينئذ ظهر النفاق. وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في أنفسهم. (وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض... الآية) أما المنافق فنجم نفاقه، والذي في قلبه شبهة أو حسكة لضعف حاله فتتنفس بما يجده من الوسواس في نفسه لضعف إيمانه وشدة ما هو فيه من ضيق الحال (٢) وقال في الميزان: الذين في قلوبهم مرض هم ضعاف الإيمان من المؤمنين. وهم غير المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر (٣). وفي موطن آخر يقول تعالى: (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت) (٤). إن هذه الآية صريحة في أن الذين أظهروا الرغبة في نزولها هم الذين آمنوا. ومن يقول إن المنافقين داخلون فيهم. فهو بقوله هذا يتساهل تساهل غير لائق بكلام الله عزول. فالآية في مثل قوله تعالى في فريق من المؤمنين (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) (٥). فالمؤمنين هم الذين سألوا رسول الله: هلا أنزلت سورة. فإذا أنزلت سورة محكمة لا تشابه فيها. وأمروا فيها بالقتال. رأيت الضعفاء الإيمان

(١) سورة الأحزاب: الآية ١١ - ١٢.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤٧٣ \ ٣.

(٣) الميزان: ٢٨٦ \ ١٦.

(٤) سورة محمد: الآية ٢٠.

(٥) سورة النساء: الآية ٧٧.

ينظرون إليك من شدة الخشية نظر المحتضر (١). وقال ابن كثير في تفسير الآية: يقول تعالى مخبرا عن المؤمنين. إنهم تمنوا شرعية الجهاد. فلما فرضه الله عز وجل. وأمر به، نكل عنه كثير من الناس.. ولهذا قال: (فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض... الآية) أي من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء العدو (٢).

فالمنافق لا يمكن أن يطلب آية كي يقاتل ويقتل. وإنما الذي طلب هم المؤمنون. وعندما نزلت الآية ظهر ضعف الإيمان منهم. ومن الدليل أيضا على أن تيار الذين في قلوبهم مرض، تيار منفصل وإن كان يعمل بطريقته الخاصة لعرقلة الطريق سواء كان يدري أو لا يدري. قوله تعالى: (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا * ملعونين أينما ثقفوا..) (٣).

فالآية الكريمة ذكرت فئات ثلاث. المنافقون، والذين في قلوبهم مرض، والمرجفون. وعلى رؤوسهم لعنة من الله تعالى إذا استمروا على ما هم عليه. فالمنافق هو الذي أظهر الإيمان وأبطن الكفر، والذي في قلبه مرض هو الضعيف الإيمان، والمرجفون هم الذين يعملون على إشاعة الباطل لإلقاء الاضطراب والمعنى: أقسم لئن لم يكف المنافقون والذين في قلوبهم مرض عن الفساد. والمرجفون الذين يشيعون الأخبار الكاذبة في المدينة لإلقاء الاضطراب بين المسلمين، لنحرضنك عليهم، ثم لا يجاورونك في المدينة. بسبب نفيهم عنها (سنة الله في الذين خلوا من قبل. ولن تجد لسنة الله تبديلا) (٤) فهذه العقوبة، من النفي أو القتل سنة الله التي جرت في الماضين. فكلما بالغ قوم في الفساد وإلقاء الاضطراب بين الناس، وتمادوا وطغوا في ذلك، أخذهم الله كذلك. ولن تجد لسنة الله تبديلا، فتجري فيكم كما جرت في الأمم من

(١) الميزان: ٢٣٩ \ ١٨.

(٢) تفسير ابن كثير: ١٧٨ \ ٤.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٦٠ - ٦١.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٦٢.

قبلكم (١).

وإذا سبقنا الأحداث فإنني أسجل هنا أن قرار النفي واللعن نفذه النبي صلى الله عليه وسلم وفقاً لما جاء في هذه الآية الكريمة، على الحكم بن العاص (٢). وظل الحكم في المنفى حتى رده عثمان بن عفان وكانت عودته عمود أصيل فيما جرى من أحداث سنينها في حينه.

وتيار الذين في قلوبهم مرض، نواته الأولى كانت بمكة قبل الهجرة. وجاء ذكرهم في سورة المدثر وهي سورة مكية، تعالى: (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً..). (٣). فإذا كان النفاق قد ظهر في المدنية وهو رأي الغالب الأعم من المفسرين. فإنه لا معنى للقول إن الذين في قلوبهم مرض في هذه الآية هم المنافقون، وذلك لأن السورة مكية. وقال المفسرون في معنى الآيات: أي ما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة، يقدر على ما أمروا به. فليسوا من البشر حتى يرجوا المجرمون أن يقاوموهم، وما ذكرنا عددهم وهو قوله تعالى (عليها تسعة عشر) إلا فتنة للذين كفروا، ليقن أهل الكتاب، بأن القرآن النازل عليك حق. حيث يجدون ما أخبرنا به من عدة أصحاب النار موافقاً لما ذكر فيما عندهم من الكتاب، ويزداد الذين آمنوا إيماناً بسبب ما يجدون من تصديق أهل الكتاب ذلك (وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون. ماذا أراد الله بهذا مثلاً) أي ما الذي يعنيه من وصف الخزنة بأنهم تسعة عشر. فهذه العدة القليلة، كيف تقوى على تعذيب أكثر الثقيلين من

(١) الميزان: ٣٤٠ \ ١٦.

(٢) ذكر ابن كثير في البداية والنهاية ١٨٢ \ ٦ أن الحكم كان من أعداء النبي صلى الله عليه وسلم.

(٣) سورة المدثر: الآية ٣١.

الجن والإنس (١). وقال ابن كثير قولهم (ماذا أراد بهذا مثلاً) أي يقولون ما الحكمة في ذكر هذا ههنا؟ قال تعالى: (كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) أي من مثل هذا - القول - وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام ويتزلزل عند آخرين. وله الحكمة البالغة والحجة الدافعة، وقوله تعالى: (وما يعلم جنود ربك إلا هو) أي ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى لئلا يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط (٢).

ومن المعروف أن أهل الكتاب قبل البعثة كانوا يضعون أعينهم على مكة، لعلمهم من كتبهم أن النبي سيبعث من هناك. وبعد نزول الوحي في مكة كان لصفات النبي صلى الله عليه وآله عند أهل الكتاب أثر كبير عند المسلمين. وكذلك الإخبار بعدد ملائكة النار، وهذا الإخبار وإن كان زاد الذين آمنوا إيماناً. إلا أن حكمة الله البالغة كشفت من خلاله تياراً كان الارتباب مادته في مكة. والمتدبر في حركة الواقع المكي عند مبعث النبي صلى الله عليه وآله يجد أنه مجتمع إنساني. والمجتمع الإنساني لا يخلو من أصحاب المصالح، وقد يكون النفاق جلباباً مهماً لهؤلاء. وحلل النفاق لا تنحصر في المخافة والالتقاء، أو الطمع من خير معجل، فإن من علله أيضاً الطمع ولو في نفع مؤجل. ومنها أيضاً العصبية والحمية، ولا دليل على انتفاء جميع هذه العلل عن أهل مكة أو عن الذين آمنوا بالدعوة قبل الهجرة. فما بين أيدينا من كتب التاريخ والتراجم يذكر فيها أن فيهم من آمن ثم رجع، أو ارتاب ثم صلح. ومن الممكن أن يكون هناك من يرتاب في دينه فيرتد ويكتم ارتداده، كما في قول الله تعالى: (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون) (٣). فلا يبعد أن يكون في هؤلاء من آمن حقيقة ثم ارتد وكتم ارتداده، فطبع الله على قلبه بحيث لا يقبل الحق ولا يتبعه ويتبع هواه وفقاً لبرنامج الشيطان. ويكون بنخاتم الطبع قد

(١) الميزان: ٩٠ \ ٢٠.

(٢) الميزان: ٩١ \ ٢٠، ابن كثير: ٤٤٤ \ ٤.

(٣) سورة المنافقون: الآية ٣.

دخل تحت الآية الكريمة التي نزلت في مكة وفي المدينة (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم * ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) (١). ومن الممكن أيضا أن يكون بعض من آمن في مكة، قد آمن طمعا في بلوغ أمنيته التي قد تكون التقدم والاستعلاء. وخصوصا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يذكر في دعوته لقومه أنهم لو آمنوا به واتبعوه كانوا قادة الأرض. وكان الرهبان يخبرون بذلك وفقا لما بين أيديهم من أوصاف الدعوة الخاتمة، فوفقا لهذا الاعلان أن يكون هناك من آمن غير عابثا بقوة المشركين الطاحنة ويعيش على خطر، رجاء أن يوفق يوما لإدارة رحي المجتمع والعلو في الأرض. ومن الممكن أن يكون في المجتمع بعض المغمورين الطموحين إلى سعة الصيت وجذب الأنظار إليهم. فآمنوا بالدعوة التي وجدوا فيها اتجاها جديدا يضيق الفوارق بين الطبقات يمكن لهم أن يعالجوا مشاعر النقص التي يعانونها ويحقق لهم البروز وسعة الصيت والمكانة عن طريق تحدي مواقع النفوذ والسيطرة داخل المجتمع. ومن الممكن أن يكون هؤلاء المغمورين ضمن الذين لم يتعرضوا إلى أي أذى نتيجة معرفة قريش بهم في جاهليتهم، وفهمها لنواياهم الحقيقية في الانضمام للدعوة. بحيث أن الصدق والإخلاص والتفاني أمور مستبعدة بالنسبة لهؤلاء لذلك لم يتعرضوا لهم.

وقد يكون ضعاف الإيمان قد هاجروا بعد ذلك من مكة إلى المدينة. ولكن الهجرة لها شروط، ومن أهم شروطها أن تكون في سبيل الله وليس في سبيل هدف آخر، قال تعالى: (فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم) (٢) وقال جل شأنه (والذين هاجروا في

(١) سورة البقرة: الآية ٦ - ١٠، سورة يس: الآية ١٠.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٩٥.

الله من بعد ما ظلموا لنبوئتهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر (١). فالهجرة الصحيحة هي ما عقد عليه القلب لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات. وإنما لكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله. فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه" (٢). وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغي به وجهه" (٣)، والقرآن الكريم لم يضع الذين هاجروا مع الأنبياء في دائرة الحصانة، لأنهم بشر جاءوا ليختبرهم الله في الحياة الدنيا من يومهم الأول إلى يومهم الأخير. ألم يهاجر السامري من مصر مع موسى عليه السلام؟ ألم يكن على مقدمة موسى عند عبور البحر وأمامه ملك يرشدهم. فماذا فعل السامري ذلك المهاجر؟ ألم يأخذ قبضة من أثر هذا الملك. وكانت هذه القبضة وبالا على بني إسرائيل. لقد ساهم السامري بهذه القبضة في صناعة عجل من ذهب عبده المنحرفين من بني إسرائيل وأشربوا في قلوبهم حب هذا العجل. وكان هذا الحب وبالا فيما بعد على الجنس البشري.

إن السامري هاجر وبعد الهجرة ظهر ما في نفسه. قال تعالى لموسى عليه السلام عندما ذهب للقاء (إنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري) (٤)، والفتنة هي الامتحان والاختبار. وعندما عاد موسى عليه السلام وعلم بما حدث. أخبر عنه الله تعالى: (قال فما خطبك يا سامري)* قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي) (٥). أنظر إلى قوله (سولت لي نفسي) فالنفس طريق الإنسان إلى ربه. ولقد أقام الله على الإنسان الحجة فيها، فآلهمه طريق الفجور وطريق التقوى. فمن انغمس في

(١) سورة النحل: الآية ٤١.

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي (الترغيب والترهيب: ١٨١ \ ٢).

(٣) رواه أبو داود والنسائي (الترغيب: ١٨١ \ ٢).

(٤) سورة طه: الآية ٨٥.

(٥) سورة طه: الآية ٩٥ - ٩٦.

الشهوات غشى عمله على قوة النفس الهائلة، فيفتح العمل طريق الفجور على اتساعه. أما من التزم في عمله بما أمر به الله وما نهى عنه، تكون نفسه حظاً سعيداً ينتهي إلى ثواب الله، والإنسان لا يظاً موطأ في سيره إلا بأعمال قلبية، هي الاعتقادات ونحوها. وأعمال جوارحية صالحة أو طالحة. وما أنتجه عمله يوماً، كان هو زاده غداً. والسامري سولت له نفسه، فما أغنت عنه هجرته (قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه..) (١). إن الذي في قلبه مرض، في قلبه شهوة. في سبيلها يركب الصعب كما ركب السامري الصعب وأسس في نهاية الأمر عقيدة شاذة. وكما ذكر القرآن قصة السامري، لم يستبعد الفكر الحكيم أن يطمع الذي في قلبه مرض في أي أثر محرم عليه حتى ولو كان ضد الأثر زوجات النبي صلى الله عليه وسلم. على الرغم من أنه يعلم بنص القرآن إنهن أمهات المؤمنين، فمقتضى هذا النص لا يجوز لصاحب قلب سليم أن يقترب نحو مطمع في أمهات المؤمنين. ولكن عالم مرضى القلوب، عالم متخصص في نهش أي قبضة من أثر أي رسول. ليتاجر بها لحساب عالمه الخاص (٢). قال تعالى: (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفاً) (٣)، قال المفسرون: نهاهن عن الخضوع في القول وهو ترقيق الكلام مع الرجال. بحيث يدعو إلى الريبة. ويشير الشهوة فيطمع الذي في قلبه مرض. وهو فقدانه قوة الإيمان التي تردعه عن الميل إلى الفحشاء (٤)، وقال ابن كثير: في قلبه مرض. أي دغل (٥). والدغل بالتحريك: الفساد. والدغل هو أيضاً: دخل في

(١) سورة طه: الآية ٩٧.

(٢) كان بعضهم يريد هذا ويفهم من قوله تعالى: (ما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً) * إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن

الله بكل شيء عليم). الأحزاب ٥٣ - ٥٤

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٣٢.

(٤) الميزان: ٣٠٩ \ ١٦.

(٥) تفسير ابن كثير: ٤٨٢ \ ٣.

الأمر مفسد. وأدغل في الأمر أي: أدخل فيه ما يفسده ويخالفه، ورجل مدغل أي: مخاب مفسد (١).

وبالجملة نقول: إن الذي في قلبه مرض، لا يدخل في دائرة النفاق، لأنه محسوب على دائرة الذين آمنوا. وكل منافق في قلبه مرض، بمعنى في قلبه هدف لا علاقة له بأي هدف من أهداف الذين آمنوا. لأن الإيمان لم يدخل قلبه بصورة من الصورة. وما في قلبه فهو للصد عن سبيل الله ولا غير ذلك، لذلك نقول والله تعالى أعلم إن حديث الارتداد الذي رواه أصحاب الصحاح ينطبق على من كان يجلس في دائرة الذين آمنوا ثم ارتد عنها. ولا ينطبق على المنافق الذي لم يؤمن أصلاً حتى يرتد. وفي الحديث عن أبي هريرة قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يرد علي يوم القيامة، رهط من أصحابي، فيحولون عن الحوض. فأقول: يا رب أصحابي، فيقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقهري" (٢) فالمنافق لم يؤمن حتى يرتد. إلا إذا كان قد آمن بعد ذلك ثم ارتد. ومن الدليل على بطلان قول من قولوا، إن الحديث يختص بالمنافقين. الحديث الذي رواه ابن عساكر وابن النجار عن أبي الدرداء أنه لما بلغه الحديث قال: قلت يا رسول بلغني أنك قلت ليكفرن أقوام بعد إيمانهم. قال: نعم ولست منهم (٣) وفي رواية عند البيهقي قال: فأتيت رسول الله فذكرت له ذلك فقال: إنك لست منهم (٤).

إن دائرة النفاق وتيار الذين في قلوبهم مرض. بذرتان في تربة واحدة يسقيان من ماء واحد، ولكل شجرة منهما ثمار وأزهار، لا طعم فيهما ولا رائحة. أنبتهما الله من الأرض لحكمة ومن وراء الحكمة هدفاً. (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون* ولقد فتنا الذين من قبلهم* فليعلمن

(١) لسان العرب.

(٢) رواه البخاري كتاب الدعوات (الصحيح: ١٤٢ \ ٤).

(٣) كنز العمال (٢٦١ \ ١١).

(٤) رواه البيهقي قاله ابن كثير في البداية: ٢٠٨ \ ٦.

الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين * أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا * ساء ما يحكمون (١).

رابعا - جهاز الرجس التخريبي:

إذا كان الشيطان في برنامجه قد استهدف أنبياء الله ورسله والدعوة إلى الله والناس. وإذا كان الكفار والمشركون والمنحرفون من أهل الكتاب قد استهدفوا ببرنامجهم النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم ودعوته. فإن دائرة الرجس سارت في نفس الاتجاه. فلقد استهدفوا الرسول فحاولوا اغتياله مرات عديدة واستهدفوا الدعوة بالتشكيك فيها وفي الداعي إليها واستهدفوا القوة الإسلامية المسلحة بتعريضها للهزيمة حتى تتأكل.

* ١ - استهداف النبي صلى الله عليه وآله:

محاولات أصحاب برنامج الشيطان، استهدفوا النبي صلى الله عليه وسلم منذ بداية الدعوة. لقد شككوا فيه واتهموه اتهامات شتى وتصدى لهم القرآن ورد كيدهم إلى نحورهم. ثم حاولوا استعمال سياسة القبضة الغليظة، فاستهدفوا الرسول بإلقاء حجارته عليه، ثم محاولة قتله أكثر من مرة في مكة. وبعد هجرته صلى الله عليه وسلم تكررت محاولات قتله بواسطة اليهود ثم بالتركيز عليه أثناء المعارك الحربية كي ينالوا منه صلى الله عليه وسلم ولكن رد الله كيدهم في كل مرة. وبلغت الذروة عندما همت مجموعة تخريبية من المنافقين بمحاولة اغتياله في أيامه الأخيرة. وهذه المحاولة لاغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم، مدونة في كتب التاريخ والتفسير والصحاح والمسانيد (٢). وطابور النفاق والذين في قلوبهم مرض، هم الذين قاموا بهذه المحاولة، وكانوا اثني عشر رجلا (٣). وكانت خطتهم أن يقطعوا أوسع راحلته،

(١) سورة العنكبوت: الآية ٢ - ٣ - ٤.

(٢) الميزان: ٢٧٨ \ ٩.

(٣) وفي رواية كانوا خمسة عشر. منهم ثلاثة لم يعرفوا بالخطوة.

ثم يلقوا تحت أرجلها بالحجارة كي تقفز به، ثم ينخسوها لتندفع إلى الأمام نحو المنزل فتلقى رسول صلى الله عليه وسلم من المرتفع إلى المنخفض. فيجهزوا عليه، واختاروا لجريمتهم وقتا قصيرا قبل الظلام. فإذا تمت الجريمة طواهم الليل ولا يراهم أحد. ثم يعودون ليتوضئوا وليصلوا صلاة المغرب ويصلون فيها على محمد وآل محمد، وروي أن عمار بن ياسر وحذيفة رضي الله عنهما كانا مع النبي أحدهما يقود الناقة والآخر يسوقها. وبينما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في اتجاه العقبة، وهو المكان المخطط له أن تقع الجريمة فيه، أخبر جبرائيل عليه السلام النبي بما يدبر له. وفي المكان المحدد، ثم الهجوم وألقيت الحجارة تحت أرجل الناقة، ولكن الناقة لم تتحرك وثبتت على الأرض ثبوت الجبال. فقال النبي صلى الله عليه وسلم لحذيفة: اضرب وجوه رواحلهم، فضربها حتى نحاهم. فلما نزل النبي من المرتفع، قال لحذيفة: من عرفت من القوم؟ قال: لم أعرف منهم أحدا، إن ظلمة الليل غشيتهم وهم متلثمون. فقال النبي: هل عرفت ما شأنهم وما يريدون؟ قال حذيفة: لا يا رسول الله. قال النبي: فإنهم فكروا أن يسيروا معي حتى إذا صرت في العقبة طرحوني فيها. فقال حذيفة: ألا تبعث إليهم فتقتلهم؟ فقال النبي: أكره أن يتحدث الناس ويقولون: إن محمدا يقتل أصحابه، وسماهم واحدا واحدا (١) وهذه المجموعة التخريبية التي أقدمت على تنفيذ برنامجها الذي يستمد قوته من برنامج الشيطان أشار إليها الإمام مسلم في صحيحه. فعن حذيفة قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن في أصحابي اثني عشر منافقا، منهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط " (٢) وروي أن حذيفة قال: أشهد أن الاثني عشر حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد " (٣) وروي عن عمار بن ياسر قال: أشهد أن الاثني عشر حربا لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم

(١) قصة تبوك في صحيح مسلم كتاب المنافقين: ٨ / ١٢٣، وسند أحمد ٥ / ٣٩٠.

(٢) رواه الإمام أحمد والإمام مسلم (كنز العمال: ١٦٩ / ١).

(٣) رواه الإمام مسلم في صفات المنافقين (صحيح مسلم: ١٢٥ / ١٧).

الأشهاد " (١). إنها شهادة واحدة، لصحابي قاذ الناقة وآخر ساقها. شهادة مسطورة في الصحاح والمسانيد. تقول إن من الصحابة من لا يدخل الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط. وإذا أردنا أن نعرف دوافع الجريمة عند المجموعة التخريبية، فلنقف عند العقوبة ونسلط عليها الضوء القرآني. قال تعالى: * (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين) * (٢). إن المجموعة التخريبية كذبت بآيات الله، واستكبروا عنها، فضربتهم العقوبة التي شهد بها عمار وحذيفة رضي الله عنهما، في كتب الصحاح. وهذه العقوبة ستصيب كل من كذب بآيات الله واستكبر عنها حتى يرث الله تعالى الأرض لقوله جل وعلا: * (وكذلك نجزي المجرمين) * إن التكذيب بآيات الله جريمة تخترق المستقبل من الماضي. * (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا قل انتظروا إنا منتظرون) * (٣)، والاستكبار جريمة ترى آثارها على امتداد الليل. والاستكبار والتكبر من الإنسان، أن يعد نفسه كبيرا ويضع نفسه موضع الكبر وليس به ولذلك يعد في الرذائل. وفي لسان العرب: الاستكبار، الامتناع عن قبول الحق معاندة وتكبرا (٤).

* ٢ - استهداف الدعوة:

استهدف كتاب الدعوة منذ يوم الانذار الأول، فقالوا أساطير الأولين. وغير ذلك من أقوالهم التي تصدى لها القرآن ونسفها نسفا ورد كيدهم إلى نحورهم. وعندما لم يستطيعوا النيل من كتاب الله، استهدفوا الدعوة من خلال

(١) رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني: ٢٠٢ / ٢١).

(٢) سورة الأعراف: الآية ٤٠.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٥٨.

(٤) لسان العرب: ص ٣٨٠٨.

حركتها وشعائرها بواسطة المنافقين، لضربها وضرب قوتها في وقت واحد. كان الجهاز التخريبي يدخل للصلاة وهدفه لا يعرف طريق الاهتداء، وبلغت ذروة الاستهداف للدعوة في آخر أيام النبي صلى الله عليه وسلم. وذلك عندما قاموا ببناء مسجد مهمته تخريب الصف الإسلامي وبث ثقافة معادية للدعوة، ووضع بذور بواسطتها تظهر الأحزاب والمذاهب بين المؤمنين.. فكل هذا تحت سقف مسجد يرفع عليه الآذان، وهذا العمل اشترك فيه جميع أتباع برنامج الشيطان، من مشركين وأهل كتاب وعلى رأس الجميع قيصر الروم. وقد كان مقدرا أن يعمل مسجدهم هذا في الفترة الزمنية التي حدثت فيها غزوة تبوك. لقد فرغوا من البناء قبل الغزوة، ثم وجهوا الدعوة إلى النبي صلى الله عليه وسلم كي يفتح المسجد بالصلاة فيه. لكن الله عصمه، وبعد العودة من تبوك حدثت محاولة الاغتيال. باختصار كانت هذه الفترة الزمنية، فترة عصبية لا يرى حجم الخطورة فيها إلا بتجميع أحداثها.

لقد أقاموا مسجدا، وهم الذين قال فيهم الله تعالى: * (قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين) * (١). فالإنفاق منهم لغو لا يترتب عليه أثر. وهم فاسقون والله لا يقبل عمل الفاسقين، قال تعالى: * (إنما يتقبل الله من المتقين) (٢)، والتقبل أبلغ من القبول. وقال فيهم أيضا: * (يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) * (٣). وقال تعالى: * (يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين) * (٤). لقد كانوا يحاربون معركة سرية غايتها أن ينالوا رضى المؤمنين، وتحت هذه اللافطة يتم المخطط الإجرامي. ولكن آيات الله وقفت لهم بالمرصاد، وأخبرت أن الواجب على كل مؤمن أن يرضي الله ورسوله. ولا يحاد الله ورسوله، لأن في هذا خزيا عظيما. وأخبر سبحانه أن حلفهم هذا كان من أجل

(١) سورة التوبة: الآية ٥٣.

(٢) سورة المائدة: الآية ٢٧.

(٣) سورة التوبة: الآية ٩٦.

(٤) سورة التوبة: الآية ٦٢.

صرف المؤمنين عنهم ليأمنوا الدم، فأمر جل شأنه بالإعراض عنهم لأنهم رجس ولا ينبغي لنزاهة الإيمان وطهارته، أن يتعرض لرجس النفاق والكذب، وقذارة الكفر والفسق. وأخبر تعالى، إنكم إن رضيتم عنهم، فقد رضيتم عمن لم يرض الله عنه. أي رضيتم بخلاف رضا الله، ولا ينبغي لمؤمن أن يرضى عما يسخط ربه.

فهؤلاء الذين لم يرض عنهم الله بنوا مسجدا لهدف، قال تعالى: * (والذين اتخذوا مسجدا ضارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد أنهم لكاذبون) * (١). قال المفسرون: بين الله تعالى أهداف هذه الطائفة من المنافقين في اتخاذ هذا المسجد وهو:

* الإضرار بغيرهم * والكفر * والتفريق بين المؤمنين * والإرصاد لمن حارب الله ورسوله. والقصة التي اتفق عليها أهل النقل: إن رجلا يقال له أبو عامر الراهب كان يعيش بالمدينة. وبعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم خرج من المدينة فارا إلى كفار مكة، يمالئهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان ذلك بعد غزوة بدر، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا يوم أحد. وقام أبو عامر بحفر حفر بين الصفين، وقع في إحداهن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأصيب ذلك اليوم. فجرح وجهه الشريف. وشج رأسه صلى الله عليه وسلم. ولما فرغ الناس من أحد، ولم ينل المجرمون من النبي ودعوته شيئا، ذهب أبو عامر إلى هرقل ملك الروم، يستنصره على النبي صلى الله عليه وسلم. فوعده ومناه، فكتب إلى جماعة من أهل النفاق والريب يعدمهم ويمنيهم إنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ويغلبه ويرده عما هو فيه. وأمرهم أن يبنوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده، ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم بعد ذلك. فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٧.

تبوك. وجاءوا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته. فعصم الله رسوله من الصلاة فيه فقال لهم " إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله " فلما قفل عليه السلام راجعا إلى المدينة من تبوك نزل عليه جبريل يخبر بالمسجد الضرار (١) كما أخبره بمحاولة الاغتيال. فأمر النبي بهدم المسجد وحرقه، وحرق الرمز كي يتدبر المتدبرون في أحداثه ورماده ودخانه. ويبقى سؤال، هل انتهى المسجد؟ والإجابة في كتاب الله. قال تعالى: * (لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) * (٢). قال المفسرون: روي أن مكان المسجد الضرار كانت توجد حفرة بها حجر يخرج منه دخان (٣). والمسجد اليوم مزبلة. وقال ابن كثير في تفسير الآية: * (لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم) * أي شكاً ونفاقاً بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع، أورثهم نفاقاً في قلوبهم. كما أشرب عابدين العجل حبه. وقوله * (إلا أن تقطع قلوبهم) * أي بموتهم (٤). وقال البيضاوي في تفسير: رسخ ذلك في قلوبهم وازداد بحيث لا يزول وسمه من قلوبهم.

فأتباع السامري قال فيهم تعالى: * (واشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم) * (٥) وأتباع المسجد الضرار قال فيهم الله * (لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم) * إن البصمة هنا وهناك على القلوب.

٣ - استهداف القوة العسكرية:

القتال في الإسلام، عموده الفقري الدفاع عن الفطرة. ولأنه على طريق

(١) تفسير ابن كثير: ٣٨٧ / ٢.

(٢) سورة التوبة: الآية ١١٠.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣٩١ / ٢.

(٤) المصدر السابق: ٣٩١ / ٢.

(٥) سورة البقرة: ٩٣.

الفطرة فإنه يكره الاعتداء، قال تعالى: * (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) * (١). وقال: * (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) * (٢). القتال في الإسلام له قانون، وهذا القانون للفطرة ومن أجلها. ولقد دأب أعداء الفطرة في وضع العراقيل أمام القوة الإسلامية حتى لا يشتد ساعدها. في مكة استهدفوا الأجساد التي لم يكتب عليها القتال بعد، أرادوا لها أن تخاف وأن تتفوق. وفي المدينة حشدوا الحشود وتعاونوا مع أعداء الدعوة في كل مكان للقضاء على القوة العسكرية الناهضة، ورد الله كيدهم. وبدأ أصحاب برنامج الشيطان، يعتمدون على ورقة النفاق تلك الورقة التي اخترق أصحابها الصف الإسلامي. واستطاعوا أن يبشوا ثقافتهم بين المسلمين. وكان في الصف الإسلامي سماعون لهم، وهؤلاء السماعون استطاعوا أن يجعلوا من القوة الواحدة فئتين فئة تعطي أصواتها للمنافقين والأخرى ترفض الانصات وتطالب بقتال المنافقين الذين انسحبوا من أرض المعركة. باختصار كان للمنافقين أثرا بالغا في تعريض القوة المسلحة الإسلامية للعديد من الضربات. وبإلقاء نظرات على عمليات التخريب الكبرى التي قام بها المنافقون، نجد أنهم كانوا أسرع الناس في التخلف والقعود عن الجهاد، واستئذان الجنود في التخلف والقعود من غير عذر، جريمة في حق الفطرة. يقول تعالى: * (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين) * (٣)، فالمؤمن يقف على أرضية العبادة الحق، التي تجعله على بصيرة من وجوب الجهاد في سبيل الله بماله ونفسه. ولما كانت معارك الإسلام يتقدمها عمليات للاستطلاع وعليها يتم تقدير الموقف وعليه يتم تنظيم التعاون بين القوات المشتركة. فإن الاستئذان بعد هذه الإجراءات أو أثناء المعركة نفسها، يترتب عليه إعادة التنظيم وبهذا يكون ضياع الوقت في صالح العدو. أو إتاحة

(١) سورة البقرة: الآية ١٩٠.

(٢) سورة المائدة: الآية ٢.

(٣) سورة التوبة: الآية ٤٤.

الفرصة للقوات المعادية للتقدم وإجراء عمليات الالتفاف والتطويق في المناطق التي أخليت عن طريق الذين استأذنوا أو انسحبوا. وحركة النفاق كان الاستئذان والانسحاب أصل أصيل فيهم، قال تعالى: * (إنما تستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون) * (١). فالمنافق لعدم إيمانه بالله واليوم الآخر يكون فاقدا لصفة التقوى، فخروجه مع المؤمنين يكون من باب النفاق. وعلى امتداد خروجه يتردد في دائرة عريضة مادتها التذبذب والارتياب. فهو يريد مغنما ما، وفي نفس الوقت لا يريد أن يموت، ثم يأخذ القرار المناسب في الوقت المناسب بما يحقق أمن الفرد وأمن الدائرة.

وفي غزوة أحد، كان مؤسس المسجد الضرار يطوف على جبابرة قريش في مكة لتعبئتهم ضد النبي صلى الله عليه وسلم. وعندما تم حشد القوة الإسلامية وبدأ التوجه إلى أحد، انسحب المنافقون وكانت قواتهم تقدر بثلاث الجيش (٢) ولم يؤثر فيهم أي موعظة وإلحاح. ويقول تعالى في اعتذارهم يومئذ: * (وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان) * (٣). قال المفسرون: رجع المنافقون أثناء توجه المسلمون إلى أرض المعركة فاتبعهم رجال من المؤمنين يحرضونهم على الإتيان والقتال والمساعدة. فإن لم يكن في سبيل الله فليدفعوا عن أولادهم وحريمهم وأنفسهم. فتعللوا قائلين: لو نعلم أنكم تلقون حربا لجئناكم. ولكن لا تقاتلون قتالا. وقولهم هذا جعلهم من الكفر الصريح أقرب (٤). وهذا العمل الذي يلتقي مع عمليات حشد مؤسسي المسجد الضرار في نقطة واحدة، كان أحد الأسباب العاملة لانهازم المسلمين يومئذ. وإذا كانت دائرة النجس قد نسقت بصورة أو بأخرى مع الأطراف في مكة يوم أحد فإنهم نسقوا أيضا مع يهود بني النضير بالمدينة. روي أن بني النضير تأمروا على قتل

(١) سورة التوبة: الآية ٤٥.

(٢) تفسير ابن كثير: ٥٣٢ / ١.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٦٧.

(٤) الميزان: ٦٠ / ٤.

النبي صلى الله عليه وسلم. فأخبر الوحي النبي ما هم به يهود بني النضير. فبعث إليهم النبي أن أخرجوا من المدينة ولا تسكنوني بها. فبدأوا يتجهزون للخروج، فأرسل إليهم عبد الله بن أبي زعيم المنافقين، أن لا تخرجوا فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم ويموتون دونكم، وسينصركم بنو قريظة وحلفاؤكم من غطفان. ولم يتركهم حتى أقنعهم وأرضاهم فبعث اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك. فكبر النبي صلى الله عليه وسلم وكبر أصحابه. وساروا إليهم وأحاطوا بديارهم (١). قال تعالى: " ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتهم لنصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون) * (٢).

لقد ربط القرآن بينهم بأخوة واحدة لا اشتراكهم في اعتقاد أو صداقة. ولم يف المنافقون بما وعدوا به إخوانهم من أهل الكتاب، لقد ساندوهم فقط بالقول نظرا لأن عدوهم واحد. وكل منهما وقف خلف جدار الآخر، كل طرف يتمنى أن يبادر صاحبه بإتمام المهمة التي عليه بصمات الشيطان. ولما كانت حركة النفاق مهمتها التخريب والتأليب وتعرض الصف الإسلامي القتالي للخطر. فإن الله تعالى زهدهم في الخروج، يقول تعالى: * (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين) * (٣). قال المفسرون: لو أرادوا الخروج لأعدوا له العدة. ومن الإعداد الاعتقاد الصحيح والإيمان الحق. ولأنهم لم يعدوا العدة ولم يتأهبوا لها، كره الله خروجهم فزهدهم فيه لئلا يفسدوا جمع المؤمنين (٤).
لقد زهدهم الله في الخروج لأن في خروجهم كارثة، ولم يقتصر خروجهم

(١) الميزان: ٢٠٨ / ١٩.

(٢) سورة الحشر: الآية ١١.

(٣) سورة التوبة: الآية ٤٦.

(٤) الميزان: ٢٩٠ / ٩.

على الانسحاب والاستئذان. وإنما كانوا يلقون بالفتن ليفرقوا كلمة المسلمين. وذلك عن طريق الذين كانوا يسمعون لهم، قال تعالى: * (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين) * (١). قال المفسرون: وفيكم سماعون لهم: أي مطيعون لهم ومستجيبون لحديثهم وكلامهم، يستنصحنهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم. فيؤدي إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير (٢). وقيل: * (وفيكم سماعون لهم) * السماع: أي السريع الإجابة والقبول (٣). وإذا كان القرآن قد أشار إلى جماعة أو أفراد يسمعون للمنافقين. فإنه في موضع آخر يبين أن المؤمنين في وقت ما انقسموا إلى فئتين لكل فئة رأي في المنافقين، قال تعالى مخاطبا المؤمنين: * (فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا تريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سيلا) * (٤). قال المفسرين: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه. فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم فرقتين. فرقة تقول: نقتلهم. وفرقة تقول: لا. وهم المؤمنون فأنزل الله * (فما لكم في المنافقين فئتين) * (٥). وقال تعالى منكرًا على المؤمنين في اختلافهم في المنافقين، أنه سبحانه أركسهم بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول واتباعهم الباطل. أتريدون أن تهدوا من لا طريق له إلى الهدى، وهم يودون لكم الضلالة لتستووا أنتم وإياهم، وما ذاك إلا لشدة عداوتهم وبغضهم لكم (٦). فالمنافقون وضعوا العراقيل العديدة، ولكن الذين آمنوا استطاعوا بإيمانهم الراسخ أن يعبروا هذه العقبات نظرا لتمسكهم بتعليمات النبي صلى الله عليه

(١) سورة التوبة: الآية ٤٧.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣٦١ / ٢.

(٣) الميزان: ٢٩٠ / ٩.

(٤) سورة النساء: الآية ٨٨.

(٥) تفسير ابن كثير: ٥٣٢ / ١.

(٦) تفسير ابن كثير: ٥٣٣ / ١.

وسلم. ولم يؤثر كيد النفاق، كما لو يؤثر كيد المشركين من قبل. ولقد حاول النفاق أن ييث ثقافة القعود عن الجهاد، بعد أن نال المسلمين من أعدائهم كل نيل ولكن هذه المحاولة هي الأخرى باءت بالفشل. وبث ثقافة القعود وصلت إلى ذروتها عند التحضير لغزوة تبوك. تلك الغزوة التي حاولوا فيها قتل النبي صلى الله عليه وآله وانتهوا قبلها من تشييد المسجد الضرار. ولقد هدد القرآن الكريم الذين تناقلوا عن الجهاد وقتئذ بالعذاب الأليم إذ لم ينفروا إلى الله. قال تعالى: * (يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أراضيتكم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) * ألا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا) * (١). قال المفسرون: هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وآله في غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر (٢). ومعنى الآية: يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم - لم يصرح باسمه صونا وتعظيما - اخرجوا إلى الجهاد أبطأتم. كأنكم لا تريدون الخروج، أقنعتم بالحياة الدنيا راضين بها من الآخرة. فما متاع الحياة الدنيا بالنسبة إلى الحياة الآخرة إلا قليل (٣). ثم هددهم الله تعالى بالعذاب والاستبدال. ولا يضروه شيئا بتوليهم عن الجهاد. وإذا كانت ملامح النفاق تبدو واضحة على طريق أحد وتبوك، فإن آخر جولاتهم كانت والنبي صلى الله عليه وسلم على فراش المرض. فلقد أمر عليه الصلاة والسلام بأن ينتظم الجيش تحت قيادة أسامة لإنجاز مهمة قتالية، ووضع النبي أكابر الصحابة تحت قيادة أسامة، وأمرهم بالخروج (٤). ولكن النفاق مارس مهمته المعتادة يقول ابن حجر في فتح الباري (٥): طعن المنافقون

(١) سورة التوبة: الآية ٣٨ - ٣٩.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣٥٧ / ٢.

(٣) الميزان: ٢٧٨ / ٩.

(٤) بعث أسامة في البخاري (٣٠٣ / ٢)، ومسند أحمد (الفتح الرباني: ٢٢٢ / ٢١).

(٥) فتح الباري: ١٨٠ / ١٣.

في إمارة أسامة. وعندما علم النبي صلى الله عليه وسلم بما قالوا، جلس على المنبر وقال: " إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه في قبل.. وحثهم على الخروج. ولم يخرج البعث إلا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.

٤ - جهاد الرسول صلى الله عليه وسلم لتيارات الصد الداخلية:
بعد أن هروا أعداء الدعوة إلى أرض الدعوة، ينطقون بألسنتهم شعارات الدعوة وتختزن قلوبهم أوجال الصد عن سبيل الله. بعد أن تدثروا بجلباب الإسلام سواء كان مصنوعاً من قماش الخوف أو قماش المنفعة، بعد هذا أصبح التصدي لما يرتكبه من جرائم غرض يتخذونه لتشويه الدعوة، تحت شعار أن محمداً يقتل أصحابه. فشعار مثل هذا وسط قبائل وعصبيات ودوائر عديدة للصد داخلية وخارجية، سيضع بلا أدنى شك عقبات أمام الدعوة يجد فيها برنامج الشيطان متسعاً للانطلاق. ولهذه الأسباب وغيرها كان النبي صلى الله عليه وسلم يسير بالدعوة بين نفوس من صخر وبين نفوس نقية تقية. والدعوة في الأساس أخروية الثواب، ويقف تحت سقفها كل من قبلها وأدى شعائرها. والدعوة تتحرك وفقاً لوعي يحركها. وإذا نظرنا إلى حركة الدعوة في مواجهة المنافقين والذين في قلوبهم مرض وغيرهم. نجد أن القرآن الكريم قد حدد هذه الحركة بما يتلائم مع النفس الإنسانية عموماً ليصل بها في النهاية إلى المخزون الفطري. قال تعالى: * (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمنا فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين) * (١).
فالدعوة تحركت على محاور فيها الرحمة والعفو والاستغفار والمشورة التي تنتهي في نهاية الأمر إلى قرار رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال في الميزان: * (فبما رحمة من الله لنت لهم) *، أصل المعنى: فقد لان لكم رسولنا

(١) سورة آل عمران: الآية: ١٥٩.

برحمة منا. لذلك أمرناه أن يعفو عنكم ويستغفر لكم ويشاوركم في الأمر. وأن يتوكل علينا إذا عزم (١).

وعلى هذا الأساس شقت الدعوة طريقها وسط الصخور، فقد كان صلى الله عليه وسلم يعفو عن بعض أفعالهم غير أن هذا العفو لا يشمل موارد الحدود الشرعية وما يناظرها وإلا لغي التشريع. وكان يشاورهم في الأمر، قال ابن كثير: كان يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث، تطيباً لقلوبهم، ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه (٢). ولقد شاورهم يوم بدر وفي مواطن كثيرة على امتداد سيرته صلى الله عليه وسلم. ولا يجب أن يفهم من مشاورتهم في الأمر أن هذه المشاورة في أمور عقائدية أو أمور حسمها الوحي. وإنما المشاورة كما نصت الآية * (في الأمر) * أي الأمر الذي يعزمون عليه. والذي يدخل في إطار الأمور العامة التي تجوز فيها المشاورة. وبعد المشاورة إذا عزم الرسول صلى الله عليه وسلم. فإن من أحبه كان ولياً وناصرًا له غير خاذله. وكان صلى الله عليه وسلم يشعرهم على امتداد المسيرة، بأنه إنما يفعل ما يؤمر. والله سبحانه عن فعله راض، وهو متوكل على الله. وعليهم أن يتوكلوا عليه لأن الله يحب المتوكلين. وهكذا ضربت الدعوة وجهة الجحود بالرحمة، وحاصرت جميع الدوائر بالمشاورة. وسأقت الجميع إلى التوكل على الله. وأمام هذا العطاء كان أصحاب الرقاب الغليظة يعضون على أناملهم من الغيظ لأنهم عجزوا عن اختراق حاجز الرحمة وحاجز المشاورة اللذين ينتهيان إلى الله قاصم الجبارين. كانت دوائر الصد تموج بأصحاب المخالب ويرتد فيها صدى قرعة أنياب الحيتان. وأمام العوائق والمخالب أمر الله تعالى بجهادهم. قال تعالى: * (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم) * (٣). أما جهاد الكفار الذين تجاهروا بالكفر وخرجوا للصد عن سبيل الله، ففي قتالهم آيات كثيرة ولهذه الآيات تفسير

(١) الميزان: ٥٦ / ٤.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤٢٠ / ١.

(٣) سورة التوبة: ٧٣.

يبين لماذا ومتى وكيف. فمن أراد فليراجعها في مواضعها، أما قتال المنافقين الذين يرتدون جلاباب الإسلام ويدخلون مساجده ويرتلون كتابه، فله شأن آخر. قال ابن كثير في جهاد المنافقين: عن ابن مسعود قال: بيده فإن لم يستطع فليكنفه في وجهه. وعن ابن عباس قال: باللسان. وعن الحسن وقتادة ومجاهد: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم (١). وقال في الميزان عن جهادهم: المجاهدة بذل غاية الجهد في مقاومتهم، والجهاد يكون باللسان وباليد حتى ينتهي إلى القتال. وشاع استعمال الجهاد في القرآن في قتال الكفار، لكونهم متجاهرين بالخلاف والشقاق. فأما المنافقون، فهم الذين لا يتظاهرون بكفر ولا يتجاهرون بخلاف. وإنما يطنون الكفر ويقلبون الأمور كيذا ومكرا. ولا معنى للجهاد معهم بمعنى قتالهم ومحاربتهم.. والمراد بجهادهم - في الآية - مطلق ما تقتضيه المصلحة من بذل الجهد في مقاومتهم. فإن اقتضت المصلحة هجروا ولم يخالطوا ولم يعاشروا وإن اقتضت وعظوا باللسان. وإن اقتضت أخرجوا وشردوا أو قتلوا إذا أخذ عليهم الردة أو غير ذلك. ويشهد لهذا المعنى عن كون المراد بالجهاد في الآية هو: مطلق بذل الجهد. تعقيب قوله تعالى: * (جاهد الكفار والمنافقين) * بقوله: * (واغلظ عليهم) * أي شدد عليهم وعاملهم بالخشونة (٢). وقد تعامل النبي صلى الله عليه وسلم على امتداد مسيرته بين دوائر الصد في الداخل، وفقا لمصلحة الدعوة. وقول الله تعالى لرسوله في شأن المنافقين: * (لا تصلي على أحد منهم مات أبدا) * (٣) يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يعرفهم بأعيانهم وأنه كان يتصرف التصرف الذي يمنع المنافقين من قطع الشوط الكبير في إفساد الأمر. فكان صلى الله عليه وسلم يخرج بعض المنافقين من المسجد على سمع ومرأى من الجميع تارة، وكان يسر بأسماء بعضهم إلى أصحابه تارة. وكان يسر بأسماء البعض الآخر إلى خاصة

(١) ابن كثير في التفسير: ٣٧١ / ٢.

(٢) الميزان: ٣٢٩ / ٩.

(٣) سورة التوبة: الآية ٨٤.

الخاصة من أصحابه تارة أخرى. كل ذلك وفقا لحركة الدعوة وحركة القبائل وثقافتها. وكان في موضع آخر يقول في بعضهم وقد جاءوا به * (دعه. لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه) * (١). ويقول: * (معاذ الله. أتتسامع الأمم أن محمدا يقتل أصحابه) * (٢). لقد كان صلى الله عليه وآله يصفح إذا اقتضت المصلحة ذلك أو كما ذكر البخاري، كان يترك قتال المعارضين للتآلف وألا ينفر الناس عنه (٣).

وإذا كانت الغلظة أي معاملتهم بخشونة تقتضيه مصلحة الدعوة في صدرها الأول. فإنهم إذا أظهروا النفاق، بمعنى إذا حشدوا حشودهم للدفاع عن ثقافتهم التي يعبرون عنها بألسنتهم، ووقودها في قلوبهم، فإذا كانت المصلحة في قتالهم قوتلوا. ولكن، تحت راية إمام حق، عالم بالتأويل. لأن قتال المسلمين يختلف عن قتال غيرهم، فالقتال أي قتال، فيه دماء، وسبي، وجرحى، وأرامل، إلى غير ذلك. وهذا كله إذا دار تحت سقف واحد احتاج إلى فقه طويل عريض عال. يقول الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيما ذكر ابن كثير: بعث النبي صلى الله عليه وسلم بأربعة أسياف. سيف للمشركين * (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فقاتلوا المشركين) * وسيف للكفار من أهل الكتاب * (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) *، وسيف للمنافقين * (جاهدوا الكفار والمنافقين) *، وسيف للبغاة * (فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله) *. قال ابن كثير: وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق، قال بذلك ابن جرير (٤). وكما سارت حركة الدعوة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم بالرحمة والمشاورة في الأمر، وجهاد المشركين بما تقتضيه المصلحة ضرب الوحي سورا من الرحمة يحدد كيف يتعامل

(١) رواه البخاري ومسلم عن جابر (كنز العمال: ٢٠٠ / ١١).

(٢) رواه أحمد وحسنه الهيثمي (مجمع الزوائد: ٢٣١ / ٦).

(٣) البخاري (الصحيح: ٣١٢ / ٤).

(٤) ابن كثير في التفسير: ٣٧١ / ٢.

المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف يخاطبونه فليس معنى أنه بينهم أو يشاورهم في الأمر اختلاط الأمور وانصهار المكانة. فأرض الدعوة عليها من هو في دائرة الإيمان والإسلام وغير ذلك من دوائر الرجس والقلوب المريضة. وجميع هؤلاء يتحدثون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولأن الحديث مع الأنبياء والرسل يترتب عليه إما الجنة وإما النار أقامت الدعوة جداراً من الرحمة، حتى لا تزل الأقدام وتحبط الأعمال. قال تعالى: * (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم) * (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) * إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله صلى أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) * (١). قال ابن كثير: أي لا تسرعوا في الأشياء بين يديه، أي قبله. بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور.. وقال سفيان: لا تقدموا بقول ولا بفعل. وقال الضحاك: لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم. وقوله * (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) * قال ابن كثير: هذا أدب ثان أدب الله تعالى به المؤمنين أن لا يرفعوا أصواتهم بين النبي صلى الله عليه وسلم فوق صوته. وروي أنها نزلت في الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، روى البخاري عن أبي مليكة قال: كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، رفعاً أصواتهما عند النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم ركب بني تميم. فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس، أخي بني مجاشع. وأشار الآخر برجل آخر. فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي. وقال عمر: ما أردت خلافاً. فارتفعت أصواتهما في ذلك فأنزل الله تعالى: * (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم... الآية) * (٢) وقوله تعالى: * (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) *

(١) سورة الحجرات: الآية ١ - ٣.

(٢) رواه البخاري (الصحيح: ١٩٠ / ٣) والترمذي وقال حسن غريب (الجامع: ٣٨٧ / ٥)

وذكره ابن كثير في التفسير: ٢٠٦ / ٤.

أي نهاكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله لغضبه فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري. ثم ندب الله تعالى إلى خفض الصوت عنده وحث على ذلك وأرشد إليه ورغب فيه فقال: * (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) * أي أخلصها لها وجعلها أهلاً ومحلاً (١). وقال في الميزان: * (لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) * بين يدي الشيء: أمامه. وهو استعمال شائع مجازي أو استعاري. وإضافته إلى الله ورسوله معاً، لا إلى الرسول. دليل على أنه أمر مشترك بينه تعالى وبين رسوله. وهو مقام الحكم الذي يختص بالله سبحانه ورسوله بإذنه كما قال تعالى: * (إن الحكم إلا لله) * (٢). وقال: * (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) * (٣). وقوله: * (لا تقدموا) * أي تقديم شيء ما من الحكم. قبال حكم الله ورسوله. إما بالاستباق إلى قول قبل أن يأخذوا القول فيه من الله ورسوله. أو إلى فعل قبل أن يتلقوا الأمر من الله ورسوله.. والمعنى: أن لا تحكموا فيما لله ولرسوله فيه حكم. إلا بعد حكم الله ورسوله، أي لا تحكموا إلا لحكم الله ورسوله. ولتكن عليكم سمة الاتباع والاقتفاء. وقوله لا ترفعوا أصواتكم.. " وذلك بأن تكون أصواتهم عند مخاطبته وتكليمه صلى الله عليه وسلم أرفع من صوته وأجهر لأن في ذلك كما قيل شيئين: إما نوع استخفاف به وهو الكفر. وإما إساءة الأدب بالنسبة إلى مقامه. وهو خلال التعظيم والتوقير المأمور به. وقوله: * (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) * فإن من التعظيم عند التخاطب أن يكون صوت المتكلم أخفض من صوت مخاطبه. فمطلق الجهر بالخطاب فاقد لمعنى التعظيم. فخطاب العظماء بالجهر فيه، كخطاب عامة الناس لا يخلو من إساءة الأدب وقوله * (أن تحبط أعمالكم..) * أي لئلا تحبط أو كراهة أن تحبط أعمالكم. فظاهر الآية أن رفع الصوت فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم والجهر له بالقول معصيتان موجبتان للحبط. فيكون من المعاصي غير

(١) تفسير ابن كثير: ٢٠٧ / ٤.

(٢) سورة يوسف: الآية ٤٠.

(٣) سورة النساء: الآية ٦٤.

الكفر ما يوجب الحبط (١).

... والخلاصة: تعددت الدوائر، ولم تجد الدعوة غضاضة في التعامل مع جميع الخصوم الذين يقفوا تحت سقفها، كانت تحاور جميع الأطراف دون أن تسمح لأي طرف من السيطرة عليها. وتعامل الدعوة مع القوى المختلفة ومع الأضداد، كان تعاملها يستخلص مصلحة الفطرة في النهاية. وإذا كانت الدعوة قد أحاطت بجميع بآيات تحدد كيفية مخاطبة النبي وكيفية دخول بيوته، فإنها حاصرت دائرة الرجس الحصار الذي يقوقع المنافقين ولا يجعل حركتهم قابلة للتمدد على المستوى الأفقي أو الرأسي. وذلك بفرض نظام يرفض اتخاذ بطانة من غير الذين آمنوا. كما حددت الدعوة دائرة الطهر، وهذه الدائرة قضى الله وقضاؤه حق. إن عزة الإسلام مع هذه الدائرة وإن في هذه الدائرة طائفة لا يضرهم من نأوهم أو من خذلهم أو من عاداهم حتى يأتي أمر الله.

(١) الميزان: ٣٠٨ / ١٨.

ثالثا - النور وحصار دائرة الرجس

١ - من الذي يدعو ويختار؟:

لا جدال في أن الشيطان ما زال يعمل منذ طرده الله من الجنة وأن مجال عمله هم ذرية آدم وإن عمله مستمر بعد الرسالة الخاتمة وحتى يوم الوقت المعلوم. ولا جدال في أنه استهدف في برنامجه رسل الله عليهم السلام ودعوتهم قال تعالى: (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن) (١). ولا جدال في أن حزب الشيطان من المنافقين قد تدثروا في رداء الإسلام وحاولوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم. وحاولوا بث ثقافة العدوان من تحت مئذنة مسجدهم الضرار. وساروا بين المؤمنين يثنون الفتن في الوقت المناسب. ولا جدال في أن الكتاب الذي يقرأه كل من يقف تحت سقف الدعوة الإسلامية هو القرآن الكريم. ولا جدال في هذا وغيره. فإذا كان الأمر على هذه الصورة. فكيف حصنت برسالة خط القيادة فيها؟ بمعنى أنها لو تركت الأمر لاختيار الأمة فإن بين صفوف الأمة من يقول فيهم الله جل شأنه: (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون) (٢) بالله عليك إذا قام واحد من هؤلاء لترشيح نفسه للرئاسة في أي مكان. ألا تراه

(١) سورة الأنعام: الآية ١١٢.

(٢) سورة المنافقون: الآية ٤.

يستحوذ على أغلب أصوات النخبين. فهو في صباحة من المنظر. وتناسب في الأعضاء. وإذا سمعه السامع مال إلى الاصغاء إلى قوله: فماذا فعلت الدعوة الخاتمة لسد الطريق أمام أعداء الفطرة الذين يأكلون بأجسامهم وألستهم؟ وأيضا يعين صفوف الأمة أولئك الذين غمسوا في الترف بما لديهم من أموال وأولاد. يقول تعالى: (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) (١). فماذا فعلت الرسالة الخاتمة لسد الطريق أمام التجار الكبار الذين احترفوا التجارة في كل شئ. وأمام أبنائهم الذين ورثوا منهم الشذوذ والدنس والعار، أقول والله أعلم. إن القول بأن الدعوة لم تقم بتحسين هذا الجانب، هو قول فيه تساهل غير لائق بكلام الله وسنة نبيه وحركة التاريخ. ولو قلت أن الأمة تختار قيادتها وفقا لشروط دقيقة. فإن قولي هذا يصطدم بحقيقة لا تقبل الجدل تقول: إن سر المنافق في قلبه. ومعنى هذا إن أي شروط في حقيقة أمرها لله تتعدى الأمور الظاهرة، ولأن جسم هذا الأمر لا يبدأ إلا من القلب. فإن الاختيار لا يكون للأمة. وإنما يكون للذي يعلم ما تخفيه الصدور. إلى الله.

إن المسيرة لم تأت لتأكل. إنها لم تأت لتحقيق أهواء فرد ما أو قبيلة ما أو حزب ما. (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين...) (٢)، إن المسيرة جاءت لهدف ومن ورائه حكمة (إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء) (٣).

إنه صراع دائم بين الحق وبين الباطل. بين برنامج الشيطان وبين برنامج الفطرة، بين برنامج يقوض الصراط المستقيم وبين برنامج يحدد الصراط المستقيم. ويسوق الناس إلى ربهم. فإذا قرأنا قوله تعالى: (إهدنا الصراط المستقيم) (٤) فهذا إقرار منا بأن هداية الطريق له وحده. وإذا قرأنا قوله تعالى

(١) سورة التوبة: الآية ٨٥.

(٢) سورة النساء: الآية ١٣٣.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٣٣.

(٤) سورة الفاتحة: الآية ٦.

لرسوله: (إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم) (١) علمنا أن الدعوة طريقها واضح مستقيم والطريق هو الذي يوصل عابريه إلى الله تعالى. أي إلى السعادة الإنسانية التي فيها كمال العبودية لله والقرب. وإذا قرأنا قوله تعالى لرسوله: (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) (٢) علمنا أن الذي يهدي إليه النبي صلى الله عليه وسلم صراط مستقيم، وإن الذي يهديه النبي من الناس. هو هداية من الله سبحانه وتعالى. فهداية النبي هداية الله. وإذا قرأنا قوله تعالى لرسوله: (وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم) (٣) علمنا أن النبي الذي يهدي بهداية الله، هو الذي يدعوا إلى هداية الله. إلى الطريق الواضح الذي لا يختلف ولا يتخلف في حكمة. ويصل بسالكه إلى الغاية المقصودة. وصفة الطريق هي نفسها صفة الحق. فإن الحق واحد لا يختلف أجزأؤه بالتناقض والتدافع. ولا يتخلف في مطلوبه الذي يهدي إليه. فالحق صراط مستقيم، فبعد هذا كله، أقول والله أعلم: إن الاختيار القيادة وسط هذا الطريق الذي احتوى على جميع الأنماط البشرية. لا يكون إلا لله ورسوله. لأن الاختيار إذا ترك للأمة فسيترتب عليه ما لم تحمد عقباه. ونحن بين أيدينا نصوصا عديدة تحذر من الأخذ بالصورة، وتبين نهاية الطريق إذا ضرب بالتحذير عرض الحائط ومنها حديث: "إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم" (٤) ولا يخفي على أحد أن طريق الشكل والصورة انتهى إلى كارثة. كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر بها بعد أن حذر منها، فعن حذيفة قال. قلت يا رسول الله: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم. دعاة على أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله صفهم لنا. قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا... " (٥).

إن الأمة تدعوا إلى عبادة الله. نعم. ولكن داخل سور الأمة من لا يريد

(١) سورة يس: الآية ٣ - ٤.

(٢) سورة الشورى: الآية ٥٢.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ٧٣.

(٤) رواه مسلم وابن ماجه (كشف الخفاء ٢٨٢ \ ١).

(٥) البخاري (الصحيح ٢٨٠ \ ٢) ك بدء الخلق ب علامات النبوة.

ذلك. فإذا اختارت الأمة فلا يستبعد أن يقع اختيارها على إمام ضلالة من الأئمة الذين خاف النبي على أمته منهم. فقد قال صلى الله عليه وسلم: "إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين" (١)، إن لفظ "إمام" في الحديث يدل أن شروطاً عدة قد انطبقت عليه في قبيلة أو حزب أو غير ذلك... أو يقع اختيارها على منافق عليم خاف النبي على أمته منه، قال صلى الله عليه وسلم: "أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان" (٢). وتحذيرات النبي هذه جاءت بعد أن بين صلى الله عليه وسلم جانب الصواب أولاً. ولعلمه بأن الاختلاف واقع كما أخبره ربه. حذر من هذه الجوانب وكأنه يدعو إلى الالتزام بما بين - كما سيأتي.

إن الأمة تدعوا إلى صراط الله المستقيم. نعم. ولكن والله أعلم أن أقرب الطرق إلى غايات الصراط المستقيم. لا يكون فيمن تزكيه الأمة. بل فيمن يزكيه الله. قال تعالى: (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) (٣)، فهو سبحانه أعلم بعباده وهم أجنة في بطون أمهاتهم، ويعلم ما هي حقيقة عباده وما هم عليه وما في سرهم وإلى ماذا ينتهي أمرهم. فإذا كان الله أعلم من أول أمر. فلا يحق أن يزكى أحد نفسه فينسبها إلى الطهارة. فالله وحده أعلم بمن اتقى. ولا يخفى أن تجارة التزكية وجمع المناقب. في كثير منها مدخل للشيطان، فعلى بعض التزكيات والمناقب زين الشيطان لكثير من الناس حركة أصحاب هذه المناقب فعبدهم، والدليل على ذلك ما قاله اليهود في عزيز وما قاله النصاري في عيسى ابن مريم عليه السلام وغير ذلك من الأمثلة لأجل ذلك سدت الرسالة الخاتمة هذا الباب. فلا تزكية إلا لمن زكاه الله ورسوله. إن الأمة مدعوة من الله ورسوله إلى الصراط المستقيم، فإذا دعت نفسها

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وقال الترمذي حسن صحيح (الفتح الرباني ٢٣ \ ٢١).

(٢) رواه ابن عدي (كشف الخفاء ١٦ \ ١).

(٣) سورة النجم: الآية ٣٢.

فيجب أن يكون في الحساب، إن طاعة النبي وتقديمه على الأنفس هو العمل الذي لا يبور. وغيره يجعله الله هباءً منثوراً. والذي يدعو نفسه ويعين قافلته التي تقوده. ربما يتعثر في فهم العمود الفقري الذي تقوم عليه الدعوة. إلا وهو القرآن الكريم. والقرآن الكريم به آية ربما تكون والله تعالى أعلم. آية التعجيز لمن رأى أن يختار الطريق لنفسه. قال تعالى: (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) (١).

فهذه دائرة أخرى [الذين في قلوبهم زيغ] والزيغ. الميل عن الاستقامة. والآية تكشف حال الناس بالنسبة إلى تلقي القرآن بمحكمه ومتشابهه. وإن منهم من هو زائغ القلب يتبع المتشابه لهدف هو ابتغاء الفتنة والتأويل. ومنهم من هو راسخ العلم مستقر القلب. يأخذ المحكم ويؤمن بالمتشابه. واشتغال القرآن الكريم على المتشابه هو تمحيص القلوب في التصديق به. والكتاب كما يشتمل على المتشابهات. كذلك يشتمل على المحكمات التي تبين المتشابهات بالرجوع إليها. وقال ابن كثير في معنى الآية: فأما الذين في قلوبهم زيغ أي ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل إنما يأخذون منه المتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة. ابتغاء الفتنة أي الاضلال وابتغاء تأويله أي تحريفه على ما يريدونه (٢) وقال صاحب الميزان: ومعنى الآية. يريدون باتباع المتشابه إضلال الناس في آيات الله. وهو الحصول والوقوف على تأويل القرآن. وما أخذ أحكام الحلال والحرام. حتى يستغنوا عن اتباع محكمات الدين. فينتسخ بذلك دين الله من أصله (٣).

وكما ذكرنا أن هذه الآية عموداً فقرياً يتحطم عليه كل رأي اختار طريقه

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٣٤٥ \ ١.

(٣) الميزان ٢٣ \ ٣.

بنفسه. فكتاب الدعوة لا يمسه أي عقل. فيما أنه كتاب الله. فلا بد أن يختار الله العقل الذي يمسه لينال منه العلم النافع. فالقرآن الكريم حجة الله على خلقه. وهو يحتوي على برنامج الفطرة والثواب والعقاب في الدنيا والآخرة. فيه بيان لكل شيء. وجميع الحقائق الموجودة فيه تستند إلى التوحيد. وبما أنه لا يأتيه الباطل ولا يجد إليه طريقا. وبما أنه لا بد أن ينتهي إليه كل رأي ديني. فلا بد أن يكون له عالما يسوق الناس به إلى ربهم. فهو سبحانه مصدر جميع السلطان. وإليه تنتهي جميع القرارات. وهو مصدر الخلق والتكوين وواهب الحياة ومقوماتها. فكما أن له سبحانه الخلق ولا بداع. كذلك له الأمر والنهي. وعالم الزيغ هو نفسه عالم الرأي. أو ابنا شرعيا للذين اختاروا أن يكون الكشاف الذي يكشفون به الطريق من صنعهم وبأيديهم. وأنت إذا تتبععت البدع والأهواء والمذاهب الفاسدة. التي انحرف فيها الفرق الإسلامية، عن الحق القويم بعد زمن النبي صلى الله عليه وآله. سواء كان في المعارف أو في الأحكام. وجدت أكثر مواردها من اتباع المتشابه والتأويل في الآيات. بما لا يرتضيه الله سبحانه. ففرقة تتمسك من القرآن بآيات التجسيم. وأخرى للجبر. وأخرى للتفويض. وأخرى لعثرة الأنبياء. وأخرى للتنزيه المحصن بنفي الصفات، وأخرى للتشبيه الخالص وزيادة الصفات، إلى غير ذلك، كل ذلك للأخذ بالمتشابه من غير إرجاعه إلى المحكم الحاكم فيه. وعلى فروع المتشابه أيضا تسلق المتصوفة وعلماء الكلام. فطائفة ذكرت أن الأحكام الدينية إنما شرعت لتكون طريقا إلى الوصول. فلو كان هناك طريق أقرب منها. كان سلوكه متعينا لمن ركبه. لأن المطلوب هو الوصول بأي طريقة تيسرت. وأخرى قالت: إن التكاليف إنما هي لبلوغ الكمال. ولا معنى لبقائها بعد الكمال بتحقيق الوصول. فلا تكليف لكامل (١) وهكذا وغير ذلك كثير. إن الله تعالى الذي أنزل الكتاب هو وحده الذي يحدد من الذي يتعامل مع هذا الكتاب.

ولقد كانت الأحكام والفرائض والحدود والسياسات الإسلامية قائمة ومقامة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لا يشذ منها شاذ. ثم لم تزل بعد ارتحاله صلى الله عليه وسلم تنقص وتسقط حكما حكما - كما سنبين - يوما فيوم بيد الحكومات الإسلامية. ولم يطل حكم واحد. إلا واعتذروا قائلين: إن الدين إنما شرع لإصلاح الدنيا وإصلاح الناس، وما أحدثوه أصلح لحال الناس اليوم، حتى آل الأمر إلى أن يقال: إن الغرض الوحيد من شرائع الدين. إصلاح الدنيا. والدنيا اليوم لا تقبل السياسة الدينية ولا تهضمها. بل تستدعي وضع قوانين ترتضيها مدنية اليوم. وإذا تأملت في هذه وأمثالها. وهي لا تحصى كثرة. وتدبرت في قوله تعالى: (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) لم تشك في صحة ما ذكرنا. وقضية بأن هذه الفتن والمحن التي سقطت على المسلمين لم يستقر قرارها إلا من طريق اتباع المتشابه وابتغاء تأويل القرآن، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أكثر ما أتخوف على أمتي من بعدي رجل يتأول القرآن يضعه على غير مواضعه. ورجل يرى أنه أحق بهذا الأمر من غيره" (١).

إن الذي تخوف منه الرسول ما جاء إلا على أكتاف الذين ساروا في موضع غير الموضع. ورأوا أنهم أحق بتحديد العلامات على طريق طويل. ومن العجيب أن الذي يقف في أول الطريق لا يرى ما هي نتيجة مقدمته في نهاية الطريق. أما الذي يقف في نهاية الطريق. عند النتيجة. فإنه يرى المقدمة بمنتهى الوضوح.

إن الأمة إذا كانت هي الأولى بتحديد قافلتها التي تقودها إلى الصراط المستقيم، لا بد أولا أن تكون على علم بمن يقفون تحت سقفها. ولا بد ثانيا أن تعلم كتابها بالعلم الذي يستقيم معه. ومن آيات الله وأحاديث رسول الله الصحيحة تبين أن داخل الأمة دوائر متعددة لمؤسسات الصد عن سبيل الله.

(١) رواه الطبراني في الأوسط (كنز العمال ٢٠٠ \ ١٠).

وداخل هذه المؤسسات اثني عشر رجلا لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط. وشهد حذيفة وعمار رضي الله عنهما... أنهم حزب الله ورسوله في الحياة الدنيا. ومعنى في الحياة الدنيا يفيد أن لكل منهم ثقافة لا تصيب الذين ظلموا خاصة. بل تتعداهم إلى غيرهم إذا تعاملوا عن فحص المقدمات. فإذا كانت الأمة أولى بالاختيار فما هي الضمانات التي لا تجعل واحد من هؤلاء أو من غيرهم من أي دائرة كان أن ينفذ لإحداث الفتنة والتأويل. ثم ما هي الضمانات التي تضمن عدم بغي الأمة واختلافها وافتراقها عن كتاب الله - إن دائرة الرجس لا بد أن يقابلها دائرة طهر. بهذا تقضي الفطرة ويقضي العقل. لقد حاصر كتاب الله وأحاديث رسوله صلى الله عليه وآله برنامج الشيطان وبرامج المشركين والمنحرفين من أهل الكتاب. وكما حاصر هؤلاء حاصر دائرة الرجس.

٢ - دائرة الطهر:

إن المعارف الحقة والعلوم المفيدة التي تحقق سعادة الدنيا والآخرة. لا تكون في متناول الإنسان إلا إذا صلحت أخلاقه. وعن أصول الأخلاق: العفة والشجاعة والحكمة والعدالة. ولكل واحدة فروع ناشئة منها وراجعة بحسب التحليل إليها. والأخلاق على امتداد المسيرة الإنسانية. لا يمكن بحال أن تسير بمفردها. بل لا بد من عامل يحرسها ويحفظ دوامها وثباتها. وأن يكون هذا العامل مرتبطا ارتباطا وثيقا بالقرآن الكريم. بمعنى أن العامل إذا دار لا يدور إلا مع القرآن. ويظل في حركته وسكونه مع القرآن حتى يوم القيامة. وعندما يقف القرآن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الحوض يكون هذا العامل مع القرآن على الحوض. فالنفس واحدة والحركة واحدة من الابتداء إلى الانتهاء. إن حركة مثل هذه نطلق عليها هنا [دائرة الطهر].

ولكي نبحث عن هذه الدائرة وعن أصحابها يجب أن تكون البداية من القرآن الكريم ومن الحديث الشريف الصحيح الذي يفسر الآية ويرشد على العامل الذي نبحت عنه. ولتكن البداية من قوله تعالى: (إنه لقرآن كريم* في

كتاب مكنون* لا يمسه إلا المطهرون (١). إن المس المذكور في الآية الكريمة أوسع من أن يقال لا بد أن يكون من يمسه على طهارة من الخبث أو الحدث. فلو اقتصر التعريف على هذا. لاحتج به علينا الكفار والمشركون. الذين يشتركون المصاحف في كل مكان لأسباب عديدة. بل إن المصاحف تطبع في العديد من البلاد غير الإسلامية وتتأقلها الأيدي من هنا وهناك. كما أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أنه في زمن من الأزمنة سيقراً القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر (٢) فالمنافق كافر به. والفاجر يتأكل منه. والمؤمن يؤمن به (٣)، نعم الطهارة مطلوبة ولكن المس الأوسع هو مس العقول له لنيل الفهم والعلم. وفي معنى (لا يمسه إلا المطهرون) قال أبو العالية: ليس أنتم. أنتم أصحاب الذنوب (٤) والمطهرون هم الذين طهر الله تعالى نفوسهم من أرجاس المعاصي وقاذورات الذنوب. أو مما هو أعظم من ذلك وأدق. وهو تطهير قلوبهم من التعلق بغيره تعالى، وقال في الميزان: وهذا المعنى من التطهير هو المناسب للمس الذي هو العلم دون الطهارة من الخبث أو الحدث. فالمطهرون هم الذين أكرمهم الله تعالى بتطهير نفوسهم كالملائكة الكرام والذين طهرهم الله من البشر. قال تعالى: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) (٥) ولا وجه لتخصيص المطهرين بالملائكة كما ذكر بعض المفسرين لكونه تقييدا من غير مقيد (٦).

والله جل شأنه ذكر أصنافا من عبادہ. وخص كل صنف بنوع من العلم والمعرفة. لا توجد في الصنف الآخر. كالموقنين، وخص بهم مشاهدة ملكوت

(١) سورة الواقعة: الآية ٧٧ - ٧٩.

(٢) رواه أحمد، وقال الهيثمي رجاله ثقات مجمع الزوائد ٢٣١ \ ٦) ورواه الحاكم وأقره الذهبي (المستدرک ٥٠٧ \ ٤) وابن حبان والبيهقي (كنز العمال ١٩٥ \ ١١).

(٣) رواه الحاكم وأقره الذهبي (المستدرک ٥٠٧ \ ٤).

(٤) تفسير ابن كثير ٢٩٨ \ ٤.

(٥) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٦) الميزان ١٣٧ \ ١٩.

السموات والأرض"، قال تعالى: (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) (١) و كالمنيبين وخص بهم التذكر قال تعالى: (وما يتذكر إلا من ينيب) (٢)، و كالعالمين بهم الذي يعقل أمثال القرآن، قال تعالى: (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) (٣)، كالأولياء وهم أهل المحبة الذين لا يلتفتون إلى شيء إلا له سبحانه ولذلك لا يخافون شيئاً ولا يحزنون بشيء. قال تعالى: (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (٤) و كالمقربين. والمجتبين والصالحين والمؤمنين. ولكل منهم خواص من العلم والإدراك يختصون بها. ونظير هذه المقامات الحسنة. مقامات سوء في مقابلها. ولها خواص رديئة في باب العلم والمعرفة. ولها أصحاب كالكافرين والمنافقين والفاسقين وغيرهم. وهؤلاء لهم نصيب من سوء الفهم ورداءة الإدراك لآيات الله ومعارفه الحقة.

وعلاقة المطهرين بالقرآن هي علاقة الفاهم للقرآن. أي العالم بمتشابه القرآن ورده إلى محكمه. ودائرة الطهر تقابل الذين قال تعالى فيهم: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) (٥)، وقوله: (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) (٦)، فالمطهرين خصهم الله بعلم تأويل الكتاب. لينطلق طريق العلم في مواجهة أصحاب المقامات السوء والخواص الرديئة. ويجب أن يفهم. إن الطريق إلى فهم القرآن غير مسدود. فهو حجة على الناس بذاته. ولكن إذا كان للقرآن الدلالة على معانيه والكشف عن المعارف الإلهية فإن للمطهرين الدلالة على الطريق وهداية الناس إلى أغراض القرآن ومقاصده. فبهذا يحافظ العامل على المسيرة وعلى أخلاقها. بعيداً عن

(١) سورة الأنعام: الآية ٧٥.

(٢) سورة المؤمن: الآية ١٣.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٤٣.

(٤) سورة يونس: الآية ٦٢.

(٥) سورة محمد: الآية ٢٤.

(٦) سورة النساء: الآية ٨٢.

الأفهام التي امتنع عليها التأويل لأن أفهامها غير مطهرة.
أولا - من هم المطهرون؟

هل هم نساء النبي؟ أم بني هاشم كافة؟ أم أنهم جميع الأمة؟ إن الذي حدد دوائر الصد عن سبيل الله هو سبحانه الذي يحدد دائرة الطهر. قال تعالى: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) (١). لقد قال تعالى في المنافقين: (فأعرضوا عنهم إنهم رجس) (٢)، وقال تعالى (وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم) (٣). والرجس كل ما استقذر من عمل. ثم قال تعالى في أهل هذه الآية: (ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)، وهكذا دائرة أمام دائرة. وإذهاب الرجس. إزالة كل هيئة خبيثة في النفس. وقوله تعالى: (ويطهركم تطهيرا) أي تجهيزهم بإدراك الحق في الاعتقاد والعمل. أما من هم الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. فلقد روى الإمام مسلم عن أم المؤمنين عائشة قالت: خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود. فجاء الحسن بن علي فأدخله ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله. ثم قال: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا" (٤). وفي أسباب النزول. أن الآية نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وعلي وفاطمة والحسين رضي الله عنهم خاصة لا يشاركونهم فيها غيرهم. وليعلم طالب العلم أن هذا الحديث ثابت في كتب الأمة بجميع دروبها ومذاهبها. والروايات كثيرة تزيد على سبعين حديثا يربو ما ورد منها من طرق أهل السنة

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٢) سورة التوبة: الآية ٩٥.

(٣) سورة التوبة: الآية ١٢٥.

(٤) صحيح مسلم ك فضائل الصحابة ب فضائل الحسن والحسين (١٩٤ \ ١٥) ورواه الحاكم وقال هذا حديث صحيح على شرطهما (المستدرک ١٤٧ \ ٧).

على ما ورد من طرق الشيعة. فقد رواها أهل السنة بطرق كثيرة (١) عن أم سلمة وعائشة وأبي سعيد الخدري وسعد ووائل بن الأسقع وأبي الحمراء وابن عباس وثوبان وعبد الله بن جعفر وعلي والحسن بن علي رضي الله عنهم في قريب من أربعين طريقاً.

ثانياً - إعلان الناس بمن هم المطهرون:

علمنا من السيرة النبوية أنه صلى الله عليه وسلم كان يكرر جوابه على من يسأله أكثر من مرة وربما يكرر الجواب ثلاث (٢) أو سبع مرات (٣). وكان يتحدث بالحديث الواحد في أكثر من موطن. وكل ذلك ليحقق الاستماع والإنصات والفهم لمن حوله كي يبينوا لمن لم ير أو يسمع. وإعلانه صلى الله عليه وسلم بأن هؤلاء أهل بيته المطهرون تم في أكثر من موضع ليعلم الناس أن هؤلاء في عرف القرآن هم أهل البيت.

وآية التطهير نزلت في بيت أم سلمة: وإنما أوردنا حديث عائشة في أول حديثنا عنهم لكونه ورد في صحيح مسلم. ومن بيت أم سلمة روى الحديث أم سلمة وعمر بن أبي سلمة (٤) وزينب بنت أبي سلمة (٥) فعن أم سلمة قالت: "دعا النبي صلى الله عليه وسلم فاطمة وحسنا وحسينا وعلي خلف ظهره فجللهم بكساء ثم قال "اللهم هؤلاء هم أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا" فقالت أم سلمة: وأنا معهم يا نبي الله؟ قال: "أنت على مكانك

(١) ابن كثير في التفسير ٣٨٤ \ ٣، البغوي في تفسيره ٥٤٦ \ ٦، ابن جرير في تفسيره ٥ \ ٢٠ وغيرهم.

(٢) كنز العمال ٤٤٥ \ ٤.

(٣) سنن أبو داود.

(٤) روى الترمذي حديثه (الجامع ٣٥١ \ ٥).

(٥) روى ابن عساكر حديثها (كنز العمال ٦٤٣ \ ١٣).

وأنت على خير " (١)، وفي رواية عند أبي حاتم. فقلت: يا رسول الله وأنا من أهل بيتك؟ فقال: " تنحى فإنك على خير " (٢)، وفي رواية عند الإمام أحمد. فرفعت الكساء لأدخل معهم. فجذبه من يدي وقال: إنك على خير " (٣). وبعد بيت أم سلمة تكرر المشهد في أماكن أخرى، روى الإمام أحمد، عن شداد بن أبي عمار أنه قال: أتيت فاطمة أسألها عن علي. قالت: توجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه

حسن وحسين. أخذ كل واحد منهما بيده. حتى دخل فأتى عليا وفاطمة فأجلسهما بين يديه، وأجلس حسنا وحسينا كل واحد منهما على فخذه ثم لف عليهم ثوبه ثم تلا هذه الآية (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس...) الآية، وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وأهل بيتي أحق " (٤).

وعن إسماعيل بن عبد الله قال: لما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرحمة هابطة قال: ادعوا لي ادعوا لي فقالت صفية: من يا رسول الله؟ قال: أهل بيتي عليا وفاطمة والحسن والحسين. فجئ بهم. فألقى النبي صلى الله عليه وسلم كساء، ثم رفع يده وقال: اللهم هؤلاء آل محمد فصلي على محمد وآل محمد (٥).

وعن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم. كان يمر على بيت فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى الفجر فيقول: الصلاة يا أهل البيت " إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم

(١) رواه الترمذي (الجامع ٣٥١ \ ٥) وأحمد (الفتح الرباني ٢٣٧ \ ١٨) وأبي يعلى والطبراني بإسنادين. وذكره ابن تيمية في منهاج السنة (منهاج ٢٥٠ \ ٣) وذكره أيضا في الفتاوى الكبرى ٢٣٠ \ ١، ورواه ابن عبد البر في الاستيعاب ٢٧ \ ١.

(٢) تفسير ابن كثير ٤٨٤ \ ٣.

(٣) الفتح الرباني ٣٣٨ \ ١٨.

(٤) رواه الإمام أحمد، وقال في الفتح الرباني قال الهنشي، رواه أحمد وأبو يعلى (الفتح ١٠٣ \ ٢٢).

(٥) رواه الحاكم وقال حديث صحيح الإسناد (المستدرک ١٤٨ \ ٣).

تطهيراً" (١)، وقال في الفتح الرباني. قال جماعة من التابعين منهم مجاهد وقتادة أن أهل البيت هم علي وفاطمة والحسن والحسين. وتمسكوا بحديث الكساء وحديث أنس أن النبي كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر (٢) وقال في تحفة الأحوازي: قال أبو سعيد الخدري ومجاهد وقتادة والكلبي أن أهل البيت المذكورين في الآية هم: علي وفاطمة والحسن والحسين. والخطاب في الآية بما يصلح للذكور لا للإناث وهو قوله "عنكم" و "ليطهركم" ولو كان للنساء. لقال "عنكن" و "ليطهركن" (٣)، وقال في أسد الغابة أن هذا الحديث. رواه الأوزاعي. ولم يرو في الفضائل حديثاً غير هذا. وكذلك الزهري. لم يرو فيها إلا حديثاً واحداً. كانا يخافان بني أمية (٤).

فإذا كان الحديث قد تكرر أكثر من مرة في أكثر من مكان في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كي يتذكر من أراد أن يتذكر. وإذا كان قد روى في عالم الخوف. أيام بني أمية. فإنه روى أيضاً في أشد الأوقات حديث كانت الدماء تنزف في كل مكان. فلقد روى أن الحسن بن علي رضي الله عنهما عندما طالبه القوم بإبرام الصلح مع معاوية خطب في الناس وقال: "أيها الناس. إنما نحن أمراؤكم وضيغانكم. ونحن أهل بيت نبيكم الذي أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. وكرر ذلك. حتى ما بقي في المجلس إلا من بكى حتى سمع نشيجه" (٥). وإذا كان الحسن رضي الله عنه قد ذكرهم يوماً. فإن علي بن الحسين رضي الله عنهم قد ذكر أهل زمانه أيضاً. من أبي الديلم قال. قال

(١) أخرجه الإمام أحمد وقال في الفتح الرباني: أورده ابن كثير وعزاه للإمام أحمد وأورده الطيالسي في مسنده (الفتح ١٠٣ \ ٢٢)، ورواه الترمذي الجامع الصحيح ٣٥٢ \ ٥) وقال في تحفة الأحوازي: أخرجه أحمد وابن أبي شيبه وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه ابن مردويه (تحفة الأحوازي ٦٨ \ ٩) ورواه الحكم وصححه (المستدرک ١٥٨ \ ٣) ورواه صاحب الغابة (أسد الغابة ٢٢٣ \ ٧).

(٢) الفتح الرباني ٢٣٨ \ ١٨.

(٣) تحفة الأحوازي ٦٧ \ ٩.

(٤) أسد الغابة ٢١ \ ٢.

(٥) ابن الأثير ٢٠٤ \ ٣، تفسير ابن كثير ٤٨٦ \ ٣.

علي بن الحسين رضي الله عنهما لرجل من أهل الشام. أما قرأت في الأحزاب (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) قال: نعم ولأنتم هم؟ قال: نعم (١).

فهؤلاء أهل البيت. الذي أذهب الله عنهم الرجس: أي عمل الشيطان وما ليس لله فيه رضا. كما قال ابن عباس (٢) الذين قال فيهم النبي: "اللهم هؤلاء أهل بيتي وأهل بيتي أحق" (٣)، وقال فيهم: "اللهم أرض عنهم كما أنا عنهم راض" (٤)، وقال لهم: "رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد" (٥)، وقال: "اللهم هؤلاء أهل فصل علي محمد وآل محمد" (٦). هؤلاء قوم نزلت الطهارة في قلوبهم. ولم ينزلها إلا الله سبحانه. فإنه تعالى ذكرها منسوبة إلى نفسه "إنما يريد الله..." وليست الطهارة إلا زوال الرجس من القلب. وليس القلب من الإنسان إلا ما يدرك به ويريد به، فطهارة القلب طهارة نفس الإنسان في اعتقادها وإرادتها وزوال الرجس عن هاتين الجهتين. ويرجع إلى ثبات القلب فيما اعتقده من المعارف الحققة من غير ميلان إلى الشك. وثباته على لوازم ما علمه من الحق من غير تماثل إلى اتباع الهوى ونقض ميثاق العلم. وهذا هو الرسوخ في العلم. فإن الله تعالى ما وصف الراسخين في العلم إلا بأنهم مهديون ثابتون على ما علموا. غير زائغة قلوبهم إلى ابتغاء الفتنة.

إن دائرة الدين في قلوبهم زيغ. ما دخلوا دائرتهم إلا بعد أن ضلوا عن

(١) تفسير ابن كثير ٤٨٦ \ ٣.

(٢) الفتح الرباني ٢٣٨ \ ١٨.

(٣) رواه أحمد وأبو يعلى (الفتح الرباني ١٠٣ \ ٢٢).

(٤) قال الهيثمي رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير عبيد بن الطفيل وهو ثقة (معجم الزوائد ٩ \ ١٦٩)*.

(٥) رواه ابن عساكر (كنز العمال ٦٤٣ \ ١٣).

(٦) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد (المستدرک ١٤٨ \ ٣)، ورواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ١٠٣ \ ٢٢).

سبيل الله حيث نسوا هناك يوم الحساب قال تعالى: (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) (١)، أما الراسخون في العلم فإنهم في شوق إلى يوم الحساب. اليوم الذي يقف فيه التابع والمتبوع أمام جلال الله وعزته. يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. إن الراسخين في العلم يعشقون يوم الحساب ويقولون (ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد) (٢). وعلى امتداد الدعوة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم. كانت تجري أحداث يترتب عليها غرس مفهوم من هم أهل البيت في ذاكرة الذين عاصروا النبي على اعتبار أنهم الجيل الذي سيفتح الأبواب من بعده ووفقا لحركة هذا الجيل ستسير الحركة على امتداد المسيرة. ومن هذه الأحداث التي غرست مفهوم من هم أهل البيت. أحداث يوم المباهلة وملخص القصة التي وردت في كتب التفسير والحديث والتاريخ. إن نصارى نجران لما وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: إلى ما تدعوا؟ فقال صلى الله عليه وسلم: إلى شهادة أن لا إله إلا الله. وأني رسول الله. قالوا: وماذا تقول في عيسى: قال: إن عيسى عبدا مخلوقا. يأكل ويشرب ويحدث. قالوا: فمن أبوه؟ فنزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال. قل لهم: ما تقولون في آدم، أكان عبدا مخلوقا يأكل ويشرب ويحدث وينكح؟ فسألهم النبي. فقالوا: نعم. فقال لهم: فمن أبوه؟ فبهتوا. فأنزل الله: (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب... الآية). وقوله تعالى: (فمن حاجك فيه من بعدما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين) (٣) فقال رسول الله: فباهلوني فإن كنت صادقا أنزلت اللعنة عليهم. وإن كنت كاذبا أنزلت علي. فقالوا: أنصفت

(١) سورة ص: الآية ٢٦.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٩.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٦١.

فتواعدوا للمباهلة.

فهذا الحدث. لم يكن ليتم في الخفاء، ولأن هذا الاجتماع سيترتب عليه نتيجة حاسمة. فلا بد أن يشهده كل من سمع بموعده سواء أكان من المكذبين أو من المؤمنين أو غيرهم. وبين هؤلاء يوجد الحبشي والفارسي والرومي والنجراني إلى غير ذلك من الأجناس. باختصار كانت العالمية ممثلة بصورة أو بأخرى لمشاهدة هذا الحدث. ويروي أصحاب التفسير بالمأثور. إن رؤساء النصارى قالوا لبعضهم بعد أن اتفقوا على موعد المباهلة: إن باهلنا بقومه باهلناه. فإنه ليس نبيا. وإن باهلنا بأهل بيته خاصة لم نباهله. فإنه لا يقدم إلى أهل بيته إلا وهو صادق. فمن هم الذين جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ روى الإمام مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص قال: لما نزلت هذه الآية (فقل تعالوا ندع أبناءكم وأبناءكم) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وفاطمة وحسنا وحسينا. فقال: " اللهم هؤلاء أهلي " (١).

فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أهل بيته. قال النصارى: من هؤلاء؟ فقل لهم: هذا ابن عمه. وهذه ابنته فاطمة وهذان ابناه الحسن والحسين. ففرقوا. فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: نعطيك الرضا. فاعفنا من المباهلة فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجزية وانصرفوا.

قال صاحب تحفة الأحوازي: دعا عليا فنزله منزلة نفسه. وفاطمة لأنها أخص النساء. وحسنا وحسينا فمنزلهما بمنزلة ابنه صلى الله عليه وسلم (٢)، وسئل يحيى ابن معمر. هل كان الحسين من ذرية النبي صلى الله عليه وسلم. وإذا كانت الإجابة. نعم. فكيف والنبي لم يعقب. وإنما العقب

(١) صحيح مسلم ك، فضائل الصحابة ب، فضل علي، وأصل المباهلة في صحيح البخاري ٨٠ \ ٣. ورواه الترمذي عن سعد بن أبي وقاص، وقال حديث حسن ورواه الحاكم وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخان (المستدرک ١٥٠ \ ٣).
(٢) تحفة الأحوازي ٣٥٠ \ ٨.

لذكر لا للأئمة. والحسين ولد البنت: قال: قال تعالى: (ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى والياس) فأخبر عز وجل أن عيسى من ذرية آدم بأمه. والحسن بن علي من ذرية محمد بأمه (١).

إن حديث المباهلة روي من أحد وخمسين طريقا. وأثبتها أرباب الجوامع في جوامعهم. وأثبتها المفسرون في تفاسيرهم من غير اعتراض أو ارتياب. كالطبري وابن كثير والسيوطي وغيرهم، وروى القصة أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الدلائل وابن إسحاق وابن هشام في السيرة. وغيرهم. وعلى هذا نقول بأن مفهوم من هم أهل البيت قد غرس غرسا في ذاكرة العديد على زمن النبي صلى الله عليه وآله. وعلم الجميع أن قوله تعالى: (أبناءنا) تعني الحسن والحسين. وإن قوله تعالى: (وأنفسنا) تعني كما في حديث جابر: "رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب" (٢)، وإن قوله تعالى: (ونساءنا) يعني فاطمة.

ثالثا - القرآن والمطهرون والحوض:

وبعد تحديد من هم أهل البيت. ربط النبي بينهم وبين القرآن الكريم برابط وثيق. وهذا الرباط غرس غرسا في ذاكرة العديد في زمن النبي صلى الله عليه وسلم. روى الإمام مسلم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا خطيبا بماء يدعى خما بين مكة والمدينة. فحمد الله وأثنى عليه.

ووعظ وذكر ثم قال أما بعد: ألا أيها الناس. فإنما إنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب. وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله. فيه الهدى والنور. فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به. فحث على كتاب الله ورغب فيه. ثم قال: وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في

(١) الحاكم (المستدرک ١٦٢ \ ٣).

(٢) تفسير ابن كثير ٣٧١ \ ١.

أهل بيتي (١).

قال النووي: سمي ثقلين لعظمهما وكبير شأنهما. وقيل لثقل العمل بهما (٢). وهذا الحديث تحدث به النبي صلى الله عليه وسلم بعد حجة الوداع. عند غدِير خُم. مما يفيد بأن جمع كبير من صحابة النبي قد سمعوه. وسنبن ذلك في حينه. وروى أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بأن أهل بيته والقرآن لن يفترقا حتى يردا على حوضه يوم القيامة وهذا يفيد بأن أهل بيته على الصراط المستقيم. يسرون بالطهر إلى غاية عظمي. فمن أراد الوصول فعليه بالسبيل الذي لا يقيضه شيطان. لأنه سبيل القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وسبيل أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. فلا يستطيع الشيطان أن يأتيهم من بين أيديهم أو من خلفهم. وهو الذي أخذ على عاتقه أن يأتي الناس من بين أيديهم ومن خلفهم. إلا من عصم الله. وأحاديث أهل البيت والقرآن والحوض. رواها أصحاب السنن وأثبتها المفسرون في تفاسيرهم. فعن أبي سعيد الخدري. قال: قال صلى الله عليه وسلم: إني تارك فيكم الثقلين. أحدهما أكبر من الآخر. كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض (٣)، وفي رواية عن زيد بن ثابت قال

(١) صحيح مسلم ك، فضائل الصحابة ١٧٩ \ ١٥، وفي رواية: قلنا: من أهل بيته نساؤه؟ قال: لا وأيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها. أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده، صحيح مسلم ١٨١ \ ١٥. وقال النووي في رواية لمسلم: " نساؤه من أهل المدينة " أي الذين يسكنونه ويعلو لهم والمعروف في معظم الروايات في غير مسلم أنه قال: نساؤه لسن من أهل بيته (النووي شرح مسلم ١٨١ \ ١٥).

(٢) النووي شرح مسلم ١٧٩ \ ١٥ ك فضائل الصحابة ب فضائل على.
(٣) رواه الإمام أحمد والترمذي وقال حديث حسن. والطبراني وقال المناوي رجاله موثقون (الفتح الرباني ١٨٦ \ ١) ورواه ابن أبي عاصم (٦٤٤ \ ٢ كتاب السنة) ورواه ابن أبي شيبة وابن سعد وأبو يعلى. وفيه: وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهم لن يفترقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما (كنز العمال ١٨٦ \ ١).

صلى الله عليه وسلم: " إني تارك فيكم خليفتين. كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض

وعترتي أهل بيتي وإنهما لا يتفرقان حتى يردوا علي الحوض (١). وهكذا حبل من السماء إلى الأرض. سبيل واحد. له مقدمة ونتيجة. وفي رواية عن حبيب بن أبي ثابت وزيد بن أرقم معا قالا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني تارك فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا بعدي. أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض. وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما (٢). لقد أعلن الرسول هذا على الملأ في حجة الوداع وفي غدير خم وفي أكثر من موطن. إنه تارك في أمته من بعده. ثقلين أو خليفتين. من يتمسك بهما لن يضل ومن سار معهما وصل إلى الحوض سالما ولن يكون مع الذين سيقال فيهم إنهم ارتدوا على أعقابهم فيقول الرسول: سحقا سحقا. كما ورد في صحيح البخاري ومسلم. وفي تفسير الحديث قال صاحب تحفة الأحوازي: (كتاب الله حبل ممدود) أي هو حبل ممدود من السماء إلى الأرض. يوصل العبد إلى ربه ويتوسل به إلى قربه. (وعترتي أهل بيتي) بيان لعترته. فقلوه: إني تارك فيكم. إشارة إلى أنهما بمنزلة التوأمين الخليفتين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأنه يوصي الأمة

بحسن المخالفة معهما. وإيثار حقهما على أنفسهما، كما يوصي الأب المشفق الناس في حق أولاده. (ولن يفترقا) أي الكتاب والعتره في مواقف القيامة (حتى يردا علي الحوض) يعني فيشكرانكم صنيعكم عندي (فانظروا كيف تخلفوني) أي كيف تكونون بعدي خلفاء. أي، عاملين متمسكين بهما. ولعل السر في هذه التوصية. واقتران العتره بالقرآن. إن إيجاب محبتهم لائح في معنى قوله تعالى: (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى) فإنه تعالى جعل شكر أنعامه

(١) رواه الإمام أحمد وقال الهيثمي إسناده جيد (مجمع الزوائد ١٩٣ \ ٩) (الفتح الرباني

١٠٥ \ ٢٢) ورواه الطبراني وسعيد بن منصور (كنز العمال ١٨٦ \ ١٠).

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن (الجامع الصحيح ٦٦٣ \ ٥) وقال في تحفة الأحوازي،

رواه مسلم من وجه آخر (التحفة ١٠ \ ٢٩٠).

وإحسانه بالقرآن منوطاً بمحبتهم على سبيل الحصر، فكأنه صلى الله عليه وسلم يوصي الأمة بقيام الشكر... فمن أقام بالوصية وشكر تلك الصنيعة بحسن الخلافة فيهما. فلن يفارقهما يوم القيامة... ومن أضاع الوصية وكفر النعمة فحكمة على العكس. فقله: "فانظروا كيف تخلفوني فيهما" النظر بمعنى التأمل والتفكير. أي تأملوا واستعملوا الروية في استخلافي إياكم. هل تكونون خلف صدق أو خلف سوء" (١)، وقال صاحب الفتح الرباني في شرح الحديث: إن إثمتم بأوامر كتابه وانتهيتم بنواهيته واهتديتم بهدي عترته واقتديتم بسيرته. اهتديتم فلم تضلوا (٢)، وقال الزرقاني في شرح المواهب في شرح الحديث: أما الكتاب. فلأنه معد من العلوم الدينية والأسرار والحكم الشرعية. وكنوز الحقائق وخفايا الدقائق. وأما العترة. فلأن العنصر إذا طاب. أعان على فهم الدين. فطيب العنصر يؤدي إلى حسن الأخلاق ومحاسنها يؤدي إلى صفاء القلب ونزاهته وطهارته. لهذا أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم في عدة مواطن على لزوم اتباع أهل بيته. وإنهم أولى الناس برعاية شؤون الأمة. ولهذا جعل مثلهم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق (٣)، وقال صاحب التاج الجامع للأصول في شرح الحديث: يقول النبي صلى الله عليه وسلم أحسنوا خلافتي فيهما باحترامهما والعمل بكتاب الله. وما يراه أهل العلم من آل البيت أكثر من غيرهم (٤).

إن مقدمة هذا كله الاعلان الهام "يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما أن أخذتم به فلن تضلوا بعدي. كتاب الله وعترتي" (٥). وفي معنى العترة، قال في

(١) تحفة الأحوازي في شرح جامع الترمذي (٢٩٠ \ ١٠).

(٢) الفتح الرباني في ترتيب مسند أحمد (١٠٤ \ ٢٢).

(٣) شرح المواهب ٢ \ ٨.

(٤) التاج الجامع للأصول ٤٨ \ ١.

(٥) رواه أحمد والطبراني وسعيد بن منصور وابن أبي عاصم عن زيد بن ثابت (كنز العمال ١٧٢ \ ١، ١٨٦ \ ١٠) (كتاب السنة ٢ \ ٣٥١)، ورواه الترمذي والنسائي والحاكم عن زيد بن أرقم (كنز العمال ١٧٣ \ ١)، (البداية والنهاية ج ٢١ \ ٥)، ورواه أحمد وأبو يعلى وابن أبي عاصم عن أبي سعيد الخدري (الفتح الرباني ١١٥ \ ٢٢)، و (كتاب السنة ٦٤٤ \ ٢)، ورواه الترمذي والنسائي وابن أبي شيبه والخطيب عن جابر (كنز العمال ١٧٢، ١٨٧ \ ١) ورواه الطبراني وأبو نعيم عن حذيفة بن أسيد (كنز العمال ٤٣٥ \ ١٤).

لسان العرب: عترة الرجل أخص أقاربه. قال ابن الأعرابي: العترة ولد الرجل وذريته وعقبه من صلبه. وعترة النبي صلى الله عليه وسلم ولد فاطمة البتول عليها السلام (١)، وقال في مختار الصحاح: العترة ولد الرجل وذريته وعقبه من صلبه ولا يعرف العرف من العترة غير هذا، وقال في الفتح الرباني: عترة النبي هم أصحاب الكساء الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا (٢) وما ذكره أصحاب اللغة. ذكرناه فيما سبق من أن عيسى من ذرية آدم بأمه. وأولاد فاطمة من ذرية محمد بأمهم. وعلاوة على أنهم رضي الله عنهم عترة النبي فإنه أيضا وليهم وعصبتهم، فعن فاطمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل بني آدم ينتمون إلى عصبة إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم" (٣)، وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لكل بني أب عصبة ينتمون إليها إلا ولد فاطمة. فأنا وليهم وأنا عصبتهم وهم عترتي خلقوا من طينتي. ويل للمكذبين بفضلهم من أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله (٤).

رابعا - من حقوق المطهرين:

من الحقوق قوله تعالى: (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى) (٥)، لقد ذهبوا في هذه الآية كل مذهب. فقال البعض. إن الخطاب لقريش. والأجر المسؤول هو مودتهم للنبي لقربته منهم، وذلك لأنهم كانوا

(١) لسان العرب ص ٢٧٩٦.

(٢) الفتح الرباني ١٠٤ \ ٢٢.

(٣) رواه الطبراني (كنز العمال ١١٦ \ ١٢).

(٤) رواه الحاكم وابن عساكر (كنز العمال ٩٨ \ ١٢).

(٥) سورة الشورى: الآية ٢٣، السورة مكية والآية مدنية.

يكذبونه. فأمر الله تعالى رسوله. أن يسألهم. إن لم يؤمنوا به فليودوه!! فكيف تعطي قريش الأجر وهم مكذبين له؟ إنهم لم يأخذوا من القرآن شيئا - فالنص (لا أسألكم عليه) أي القرآن فإذا كانوا لم يأخذوا فكيف يعطوا؟ إن الأجر إنما يتم إذا قبل به عمل يمتلكه معطي الأجر. فسؤال الأجر من قريش وهم كانوا مكذبين له كافرين بدعوته. إنما يصح على تقدير إيمانهم به. وقيل أيضا: المعنى. لا أسألكم على دعائي أجرا إلا أن تودوا أقرباءكم. فكيف يكون هذا؟ ومودة الأقرباء على إطلاقهم ليست مما يندب إليه في الإسلام. قال تعالى: (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) (١)، وإن الذي يندب إليه الإسلام هو الحب في الله من غير أن تكون للقرابة خصوصية في ذلك. نعم هناك اهتمام شديد بأمر القرابة والرحم. لكنه بعنوان صلة الرحم وإيتاء المال على حبه ذوي القربى. لا بعنوان مودة القربى، فلا حب إلا لله عز وجل.

وروى أن المراد بالمودة في القربى. مودة قرابة النبي صلى الله عليه وسلم. وهم عترته. فعن ابن عباس رضي الله عنهما. في قوله (لا أسألكم عليه أجرا) قال. قالوا: يا رسول الله. من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم؟ قال: "علي وفاطمة وابناهما" (٢)، وروى ابن جرير عن أبي الديلم قال: لما جئ بعلي بن الحسين رضي الله عنه أسيرا فأقيم على درج دمشق. قام رجل من أهل الشام. فقال: الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم وقطع قرن الفتنة، فقال له علي بن الحسن رضي الله عنهما: "أقرأت القرآن؟"، قال: نعم، قال: "أقرأت آل حم؟" قال: قرأت القرآن ولم أقرأ آل حم. قال: ما قرأت: (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى) قال: وإنكم لأنتم هم؟ قال: نعم. وروى الإمام أحمد

(١) سورة المجادلة: الآية ٢٢.

(٢) رواه الطبراني وقال الهيثمي في موضع رواه الطبراني وثقوا جميعا وفي بعضهم ضعف (مجمع الزوائد ١٠٣ \ ٧) وقال في موضع آخر رواه الطبراني وفيه جماعة ضعفاء وقد وثقوا (الزوائد ١٦٨ \ ٩)، وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه (تحفة الأحوازي ١٢٧ \ ٩) (الفتح الرباني ٢٧٥ \ ١٨).

عن مجاهد عن ابن عباس قال: قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا أسألكم على ما أتيتكم من البينات والهدى أجزا إلا أن توادوا الله تعالى وأن تقربوا إليه بطاعته (١) وقال ابن كثير: كأنه يقول. إن تعملوا بالطاعة التي تقربكم عند الله زلفى. وفي رواية لسعيد بن جبير معناه: إن تودوني في قرابتي أي تحسنوا إليهم وتبروهم (٢).

وقال البعض. إن آية: (إلا المودة في القربى) منسوخة!!؟ ورد الحسن بن الفضل على الذين قالوا بذلك. فقال: القول بنسخ هذه الآية غير مرضي. لأن مودة النبي وكف الأذى عنه. ومودة أقاربه من فرائض الدين. وهو قول السلف. فلا يجوز القول بنسخ هذه الآية (٣).

وحدث النبي صلى الله عليه وسلم أمته وساقها نحو الصراط المستقيم في أكثر من موضع. فعن ابن عباس. قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: أحبوا الله لما يغذيكم (أي يرزقكم به) من نعمه. وأحبوني بحب الله. وأحبوا أهل بيتي لحبي (٤)، وقال: " النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتي أمان لأمتي " (٥)، وقال: " مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق " (٦). وبعد أن فرض مودتهم ومحبتهم وبين أنهم أمان للأمة من الظلام ومن الغرق. أمر بالصلاة عليهم. ليستقيم البدء مع الختام. فقد أمر الله تعالى بالصلاة على

(١) تفسير ابن كثير ١١٢ \ ٤، البغوي في تفسيره ٣٦٤ \ ٧.

(٢) تفسير ابن كثير ١١٢ \ ٤.

(٣) تحفة الأحوازي ١٢٧ \ ٩.

(٤) رواه الترمذي وحسنه (الجامع الصحيح ٦٦٤ \ ٥)، والحاكم وأقره الذهبي (المستدرک ١٥٠ \ ٣).

(٥) رواه الطبراني وأبو يعلى وابن عساكر وابن أبي شيبة ومسدد عن سلمة بن الأكوع (كنز العمال ٩٦، ١٠٢ \ ١٢)، ورواه أبو يعلى والبخاري والحاكم عن أبي ذر (الخصائص الكبرى للسيوطي ٤٦٦ \ ٢).

(٦) رواه البخاري عن ابن عباس والزيبر (كنز العمال ٩٥ \ ١٢)، ورواه الحاكم وابن جرير والبخاري والطبراني عن أبي ذر، وهذا الطريق فيه من قالوا فيه - متروك. رواه.

رسوله في قوله: (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً)* إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً) (١).

فصلاته تعالى. انعطافاً عليه بالرحمة انعطافاً مطلقاً. لم يقيد في الآية بشيء دون شيء. وكذلك صلاة الملائكة عليه انعطافاً عليه بالتركية والاستغفار. وقد ذكر تعالى صلاته وصلاة ملائكته عليه. قبل أن يقول: (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه) دلالة على أن في صلاة المؤمنين له. اتباعاً لله سبحانه وملائكته. وقد استفاضت الروايات أن طريق صلاة المؤمنين. أن يسألوا الله تعالى أن يصلي عليه وآله. كما سيأتي. وقوله تعالى: (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً)، من المعلوم أن الله تعالى منزّه من أن يناله الأذى وكل ما فيه وصمة النقص والهوان. فذكره مع الرسول وتشريكه في إيدائه. تشريف للرسول. وإشارة إلى أن من قصد رسوله بسوء. فقد قصده أيضاً بالسوء. فقد أوعدهم باللعن في الدنيا والآخرة. واللعن هو الإبعاد من الرحمة. والرحمة الخاصة بالمؤمنين هي الهداية إلى الاعتقاد الحق وحقيقة الإيمان. ويتبعه العمل الصالح. فالإبعاد من الرحمة في الدنيا. تحريمه عليه جزاء لعمله فيرجع إلى طبع القلوب كما في قوله تعالى: (ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً) (٢)، وقوله: (أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) (٣)، وأما اللعن في الآخرة فهو الإبعاد من رحمة القرب. وقد قال تعالى: (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) (٤). ثم أوعدهم بأنه أعد لهم - أي في الآخرة - عذاباً مهيناً ووصف العذاب بالمهين. لأنهم يقصدون باستكبارهم في الدنيا إهانة الله ورسوله. فقولوا في الآخرة بعذاب يهينهم (٥).

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥٦ - ٥٧.

(٢) سورة النساء: الآية ٤٦.

(٣) سورة محمد: الآية ٢٣.

(٤) سورة المطففين: الآية ١٥.

(٥) الميزان ٣٣٨ \ ١٦.

إن طريق الصلاة على النبي وآله. غير طريق إيذاء الله ورسوله وآله. وقد
أورد السيوطي في الدر المنثور ما يقرب من عشرين حديثاً تدل على تشريك آل
النبي معه في الصلاة. وروى مسلم عن بشير بن سعد. قال: أمرنا الله أن نصلي
عليك يا رسول الله. فكيف نصلي عليك؟. فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم
قال

صلى الله عليه وسلم: "قولوا اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما
صليت على آل إبراهيم. وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على
آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد (١). ولما كان النبي صلى الله عليه
وسلم قد حدد من هم أهل البيت. فإن البخاري روى حديثاً يأمر فيه النبي
بالصلاة على أهل البيت. كي لا يظن الناس أن الآل والأهل كل منهم في طريق.
وإنما هم واحد. فعن أبي ليلى قال: لقيني كعب بن عجرة. فقال: ألا أهدي لك
هدية سمعتها من النبي صلى الله عليه وآله. قال: قلت بلى فإهداها لي.
فقال: سألت رسول الله. فقلنا يا رسول الله كيف الصلاة عليكم أهل البيت.
فإن الله قد علمنا كيف نسلم. قال: "قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد
كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم بارك على
محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد
مجيد (٢).

وروى الحاكم هذا الحديث. قال: وقد روى هذا الحديث بإسناده وألفاظه
حرفاً بعد حرف الإمام محمد بن إسماعيل البخاري عن موسى بن إسماعيل في
الجامع الصحيح. وإنما أخرجه ليعلم المستفيد أن أهل البيت والآل جميعاً
هم (٣) وروى الديلمي عن واثلة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع
فاطمة وعلياً والحسن والحسين تحت ثوبه وقال: "اللهم قد جعلت صلواتك
ورحمتك ومغفرتك ورضوانك على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، اللهم إن هؤلاء

(١) تفسير ابن كثير تفسير سورة الأحزاب.

(٢) البخاري ك، بدء الخلق ب يزفون النسلان ٢٣٩ \ ٢.

(٣) المستدرک (١٤٨ \ ٣).

مني وأنا منهم فاجعل صلواتك ورحمتك ومغفرتك ورضوانك علي وعليهم (١)، وروى ابن عساكر وأبو يعلى عن أم سلمة. إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لفاطمة: اتيني بزوجه وابنيك. فجاءت بهم. ثم رفع يده فقال: اللهم إن هؤلاء آل محمد فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم إنك حميد مجيد (٢).

وقال في فتح الباري: قال أحد الهاشميين - من غير أهل البيت - للنبي صلى الله عليه وسلم: اتقصدني وأنت تصلي علي في كل صلاة في قولك اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد. فقال: إني أريد الطيبين الطاهرين ولست منهم (٣).

لقد استقام البدء مع الختام. والتقى عصر إبراهيم عليه السلام مع عصر محمد صلى الله عليه وسلم في صلاة المؤمنين. وكما جرت يد إبراهيم على أولاده إسماعيل وإسحاق عليهم السلام وهو يدعو لهما كذلك جرت يد محمد صلى الله عليه وسلم على الحسن والحسين وهو يعوذهما بمعوذة إبراهيم. روى البخاري عن ابن عباس. قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين. ويقول: إن أباكما إبراهيم كان يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق: " أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة " (٤)، إن المعوذة التي جرت على الشجرة الإسرائيلية من القديم هي نفسها التي جرت على الشجرة الإسماعيلية من قديم حتى استقرت في الرسالة عن الحسن والحسين. ويمكن على هذا الضوء أن نفهم معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: " حسين مني وأنا من حسين. أحب الله من أحب حسيناً. حسين سبط من

(١) رواه الديلمي والطبراني (كنز العمال ٦٠٣ \ ١٣، ١٠١ \ ١٢).

(٢) رواه أبو يعلى وابن عساكر (كنز ١٤٥ \ ١٣).

(٣) فتح الباري \ ابن حجر ١٦٠ \ ١١.

(٤) البخاري ك بدء الخلق (الصحيح ٢٣٩ \ ٢)، ورواه الحاكم (المستدرک ١٦٧ \ ٣).

الأسباط " (١).

قال في تحفة الأحوازي: " أحب الله من أحب حسينا " لأن محبته محبة الرسول ومحبة الرسول محبة الله. وقوله: " حسين سبط من الأسباط " أي أمة من الأمم في الخير والأسباط في أولاد إسحاق بن إبراهيم بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل. وأحدهم سبط. فهو واقع على الأمة. والأمة واقعة عليه (٢) وإذا كنا قد فهمنا مغزى المعوذة، ومغزى السبط. فإننا يمكن أن نفهم أيضا معنى الخلفاء فيما رواه أبو هريرة. قال: قال رسول الله صلى الله عليه: إن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء. كلما هلك نبي خلف نبي. وإنه لا نبي بعدي. إنه سيكون خلفاء. فتكثروا. قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فوا بيعة الأول فالأول. واعطوهم حقهم الذي جعل الله لهم. فإن الله سائلهم عما استرعاهم (٣) إن قوله: " أعطوهم حقهم الذي جعل الله لهم " فيه إن الله جعل الخلفاء الحق حقا. وإن هذا الحق عنوان على امتداد الصراط المستقيم. ولا يجوز أن يسقط هذا الحق على خلفاء الجور والملك العضوض. لأن هؤلاء ليس لهم عند الله حقا، فالحق يكون للأنبياء والرسول. ولأولى الناس بالأنبياء والرسول. وأولى الناس بهم. أعلمهم بما جاءوا به. وبعد هؤلاء للمؤمنين الذين اتبعوا الخط الرسالي للأنبياء والرسول. ثم لمن صالحوا أو عاهدوا إلى غير ذلك، فعلى هذا الطريق تكون الحقوق. أما على غيره فترتع الأهواء وتعوي الذئاب ويسير اللصوص بالليل والنهار فيزينون ويغوون ويحتنون بني الإنسان من أجل سرقة حقوقهم التي جعلها الله لهم كي يعيشوا الحياة السعيدة. وبعد أن أعلن التطهير، وبعد أن أعلن أن المطهرين مع القرآن الطاهر على

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن (الجامع ٦٥٨ \ ٥) وقال في تحفة الأحوازي أخرجه البخاري في الأدب المفرد وابن ماجة والحاكم ورواه أحمد (التحفة ٢٨٠ \ ١٠)، (الفتح الرباني ١٧٩ \ ٢٣)، وقال ابن كثير رواه أحمد والطبراني والترمذي عن يعلى بن مرة (البداية ٢٠٦ \ ٨)، ورواه الحاكم وقال صحيح الإسناد (المستدرک ١٧٧ \ ٣).

(٢) تحفة الأحوازي ٢٨٠ \ ١٠.

(٣) رواه الإمام أحمد وإسناده صحيح وقال في الفتح رواه الإمام مسلم (الفتح ٥٢ \ ٢٣).

صراط واحد حتى يردا على الحوض. وبعد أن حث الأمة على مودتهم وفيه دليل على أن عبادتهم حتى قيام الساعة هي عبادة الحق لأن الله لم يفرض مودتهم إلا وقد علم أنهم لا يرتدون عن الدين أبدا ولا يرجعون إلى ضلال أبدا. وبعد أن أمر تعالى بالصلاة عليهم. لتستقيم الصلاة عليهم مع المودة على طريق واحد وبالصلاة والمودة تغرس في النفوس تعظيم شأنهم. بعد كل هذا طهرهم الله من الصدقة وفرض لهم في الأموال فرضا. لتكون دائرة الطهر بذلك دائرة كاملة ناصعة في بياضها قوية في محبتها.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد إنما هي أوساخ الناس" (١) وعن أبي هريرة قال: أخذ الحسين بن علي من تمر الصدقة فجعلها في فيه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كخ كخ إرم بها أما علمت أنا لا نأكل الصدقة" رواه مسلم (٢)، وقال النووي: معنى أوساخ الناس إنها تطهير لأموالهم ونفوسهم. كما قال تعالى: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) فهي كغسالة الأوساخ (٣).
لقد حرم الله تعالى الصدقة على النبي وآله "إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة" رواه مسلم (٤). وعوضه سبحانه سهما من الخمس عوضا بما حرم عليه. وضرب لآله معه سهما عوضا مما حرم عليهم. قال تعالى في صدر سورة الأنفال: (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين) (٥).
والأنفال جمع نفل. وهو الزيادة على الشيء. ولذا يطلق النفل على التطوع

(١) شرح النووي ١٧٩ \ ٧ مسلم باب تحريم الزكاة.

(٢) صحيح مسلم ٥، ١ \ ٧ باب تحريم الزكاة.

(٣) النووي شرح مسلم ١٧٩ \ ٧.

(٤) قال في كشف الخفاء رواه أحمد وابن حبان وأبو داود والحاكم (كشف ٢٣٩ \ ١) ورواه

مسلم بلفظ "إنا لا تحل لنا الصدقة"، (صحيح مسلم ١٧٦ \ ٧).

(٥) سورة الأنفال: الآية ١.

لزيادته على الفريضة. وتطلق على ما يسمى فيئا وهي الأشياء من الأموال التي لا مالك لها من الناس. كرؤوس الجبال وبطون الأودية والديار الخربة والقرى التي باد أهلها. وتركاة من لا وارث له. وغير ذلك كأنها زيادة على ما ملكه الناس فلم يملكها أحد. وهي لله ولرسوله. وتطلق على غنائم الحرب. كأنها زيادة على ما قصد منها. فإن المقصود بالحرب والغزو. الظفر على الأعداء. فإذا غلبوا وظفر بهم فقد حصل المطلوب والأموال التي غنمها المقاتلون زيادة على أصل الغرض.

فقوله: (يسألونك عن الأنفال) يفيد أنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن حكم غنائم الحرب. بعدما زعموا أنهم يملكون الغنيمة واختلفوا فيمن يملكها أو في كيفية ملكها وقسمتها بينهم أو فيهما معا. وتخاصموا في ذلك. وقوله: (قل الأنفال لله والرسول) جواب على مسألتهم. وفيه بيان أنهم لا يملكونها وإنما هي أنفال يملكها الله ورسوله فتوضع حيثما أراد الله ورسوله. وذكرنا في تفسير الآية: أي يسألك أصحابك يا محمد عن هذه الغنائم التي غنمتمها. وما حكمها وكيف تقسم فقل لهم. هي لله ولرسول يحكم فيها الله عز وجل بحكمه. ويقسمها الرسول صلى الله عليه وسلم على حسب تشريع الله عز وجل. فاتقوا الله ولا تختلفوا ولا تنازعوا في شأنها لأن ذلك يوجب سخط الله وغضبه عليكم (١) وبعد أن حدد الشرع الحنيف حكم الأنفال. قال تعالى: (واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن الله خمس له ولرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله...) (٢).

والغنم والغنيمة: إصابة الفائدة من جهة تجارة أو عمل أو حرب. وفي الآية ينطبق على غنيمة الحرب. وذو القربى، قرابة النبي أو خصوص أشخاص منهم على ما تفسره الآثار القطعية. ومعنى الآية والله أعلم: واعلموا أن خمس ما غنمتم أي شيء كان. هو لله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن

(١) تفسير آيات الأحكام \ الصابوني ص ٥٨٩ \ ١.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٤١.

السييل. فردوه إلى أهله إن كنتم آمنتم بالله وما أنزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم يوم بدر. وهو أن الأنفال وغنائم الحرب لله ولرسوله. لا يشارك الله ورسوله فيها أحد. وقد أجاز الله لكم أن تأكلوا منها وأباح لكم التصرف فيها. فالذي أباح لكم التصرف فيها. ويأمركم أن تؤدوا خمسها إلى أهله. والنبي صلى الله عليه وسلم كان يأمر من يأتيه مسلماً أن يؤدي خمس ما غنم. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس: "أمركم أن تؤدوا خمس ما غنمتم" (١)، وروى الشيخان عن ابن عباس: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لوفد عبد القيس لما أمرهم بالإيمان بالله وحده. أتدرون ما الإيمان بالله وحده. قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس"، ومعنى هذا أن الخمس حق شرعي لأربابه المذكورين في الآية يجب صرفه إليهم. وقد أجمع أهل القبلة كافة. على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يختص بسهم من الخمس ويخص أقاربه بسهم آخر منه. وإنه لم يعهد بتغيير ذلك إلى أحد حتى دعاه الله إليه. واختاره إلى الرفيق الأعلى (٢).

وسهم ذي القربى كان رباطاً وثيقاً لهم على امتداد الصراط المستقيم. فالله تعالى كما حصنهم الطهر. جعل سهمهم امتداداً لحصن الطهر. فالمال على مختلف العصور فتنة سقط فيها الأحرار والرهبان من قبل. وعندما سقطوا فسدت قيادتهم. قال تعالى: (إن كثيراً من الأحرار والرهبان ليأكلون أموال الناس

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح (الجامع ١٥٣ \ ٤).
(٢) الرسول وسهم ذي القربى في تفسير القرطبي ٨ \ ١٠، تفسير الطبري ١٠ \ ٤، الكشف للزمخشري ٢ \ ١٥٨، تفسير المنار ١٠ \ ١٥، الأموال أبي عبيد ٣٢٥، أحكام القرآن للجصاص ٣ \ ٦٠، فتح القدير للشوكاني ٢ \ ٢٩٥، سنن النسائي الفئ ٧ \ ١٢٠، ١٢٢، شرح مسلم النووي باب حكم الفئ ١٢ \ ٨٢.

بالباطل " (١). قال المفسرون: إن أهم ما يقوم به المجتمع الإنساني على أساسه. هو الجهة المالية التي جعل الله لهم قياما. فجميع المآثم والمساوئ والجنايات والتعديات والمظالم تنتهي بالتحليل إما إلى فقر مفرط يدعو إلى اختلاس أموال الناس بالسرقة وقطع الطرق وقتل النفوس والبخس في الكيل والوزن والغصب وسائر التعديات المالية. وإما إلى غنى مفرط يدعو إلى الإتراف والإسراف في المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك وينتهي إلى الاسترسال في الشهوات وهتك الحرمات وبسط التسلط على أموال الناس وأعراضهم ونفوسهم. وتنتهي جميع هذه المفاسد التي ذكرناها. بالتحليل إلى ما يعرض من الاختلال على النظام الحاكم في حيازة الأموال واقتناء الثروة والأحكام المشرعة لتعديل الجهات المملكة المميزة لأخذ المال بالحق من أكله بالباطل فإذا اختل ذلك، وأذعن النفوس بإمكان القبض على ما تحتها من المال. فشئ الفساد وشاع الانحطاط الأخلاقي في المجتمع وانقلب المحيط الإنساني إلى محيط حيواني لا هم له إلا بطنه وما دونها. ولا يملك فيه إرادة أحد بسياسة أو تربية. ولا تفقه فيه محكمة ولا إصغاء إلى موعظة.

والأخبار والرهبان الذين تعود إليهم تربية الأمة وإصلاح المجتمع. كان أكثرهم يأكل أموال الناس بالباطل. لتظاهروهم بالزهد والتنسك. وعلى ظلام الباطن وزخرف الظاهر توغلوا في سبيل الباطل ومنعوا الناس عن سبيل الله. وسدوا الطريق على الحكومة الدينية العادلة التي غرضها إصلاح الناس. وتكوين مجتمع حي فعال يليق بالإنسان الفطري المتوجه إلى سعادته الفطرية. ولسد الطريق أمام هذه العقبة التي نفذ منها الشيطان. فرض الله تعالى لرسوله وأهل بيته المال الحق الطاهر، ليواجه خط المال الباطل الدنس للذين يصدون عن سبيل الله، ودائرة القربى الخاصة بسهم ذي القربى. دائرة واسعة بعض الشيء. فهي تشمل القيادة ومن حولها من بني هاشم ومن بني المطلب الذين كانوا

(١) سورة التوبة: الآية ٣٤.

ينصرون منهج الفطرة كتفا بكتف مع بني هاشم. وهذه الدائرة التي تحدد الخط الأول فيها ثم الخط الثاني لم يقم بتعيين من فيها إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولقد رفض النبي أن يدخل فيها عثمان بن عفان أو غيره ممن لا ينطبق على شروطها. روى الإمام البخاري عن جبير بن مطعم قال: مشيت أنا وعثمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقلنا يا رسول الله. أعطيت بني المطلب وتركتنا ونحن وهم

منك بمنزلة واحدة. فقال: إنما بنو المطلب وبنو هاشم واحد (١)، وروى أبو داود عن جبير بن مطعم قال: لما كان يوم خبير وضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سهم القربى في بني هاشم وبني المطلب. وترك بني نوفل وبني عبد شمس. فانطلقت أنا وعثمان بن عفان حتى أتينا النبي صلى الله عليه وسلم. فقلنا: يا رسول الله. هؤلاء بنو هاشم لا ننكر فضلهم للموضع الذي وضعك الله به منهم. فما بال إخواننا بني المطلب أعطيتهم وتركتنا وقرابتنا واحدة. فقال صلى الله عليه وسلم: إنا وبنو المطلب لا نفرق في جاهلية ولا إسلام وإنا نحن وهم شئ واحد وشبك بين أصابعه (٢). قال ابن قدامة في المغني: شارك بني المطلب بني هاشم بالنصرة (٣).

إنه حكم الله وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إنما أنا قاسم وخازن الله يعطى" (٤)، وكان يقول: "ما أعطيتكم ولا أمنعكم. أنا قاسم أضع حيث أمرت" (٥)، ولأن الطريق طريق حق يواجهه طريق باطل. ولأن هناك من يعمل لمنع الناس عن سبيل الله ويأكل أموالهم بالباطل. حذر النبي صلى الله عليه وسلم من عثرات الطريق وقال: "إن رجالا يتخوضون في مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة" (٦).

(١) صحيح البخاري (١٩٦ \ ٢) ك الجهاد والسير.

(٢) أبو داود حديث رقم ٢٩٨٠.

(٣) المغني ٦٥٧ \ ٢.

(٤) رواه البخاري (الصحيح ١٩٠ \ ٢) ك الجهاد والسير.

(٥) رواه البخاري (الصحيح ١٩٢ \ ٢) ك الجهاد والسير.

(٦) رواه البخاري (الصحيح ١٩٢ \ ٢) ك الجهاد والسير.

إن الدعوة التي يستمد رجالها المال من الناس لا تدوم. وإنما تدوم الدعوة التي يعطينها الله ويقسم لها رسول الله. والدعوة التي تستمد وقودها من الناس الذين تعصف بهم الأهواء كثيرا ما يحتنك الشيطان قيادتها. أما الدعوة التي يفرض فيها الله على أتباعها فروضا يترتب عليها إما ثواب وإما عقاب. هي دعوة يصل من أخذ بحبلها وسار على صراطها إلى حوض الذي قسم ما أمر الله به صلى الله عليه وسلم، لهذا لم يكن المال في الإسلام وجاهه وإنما هو من أجل رسالة. لم يكن المال في الإسلام وقودا يوضع في بيت المال. لينال منه هذا ليشعل النار على ذاك ولم يكن زادا يتزود به كل راشي وكل مرتشي في الحكم. إنما المال في الإسلام سدا لطريق الفتن. لهذا وضع في أيدي أمينة حرمت عليها الصدقة. لتفتح طريقا للفطرة في عالم مملوء بالرجس والبخس. خامسا - من مناقب أهل البيت:

لما كان أهل البيت هم ذروة الأمة الخاتمة. فإن الله تعالى وضعهم في دائرة خاصة بهم. لهم فيها ما ليس لغيرهم ليكون في ذلك لفتا لأنظار الأمة إليهم. ونحن سنقتبس من نورهم بعضا من مناقبهم التي يحتاجها هذا الموضوع. * من مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أول من صلى مع النبي بعد خديجة علي بن أبي طالب (١)، وعن زيد بن أرقم قال: أول من أسلم علي (٢)، وعن سلمان قال: أول هذه الأمة ورودا على نبيها. أولها إسلاما علي بن أبي

(١) رواه أحمد. وقال في الفتح الرباني: أورده الطيالسي في سنده والهيتمي عن علي وقال رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير حية العرض وقد وثق (الفتح ١٢٢ \ ٢٣)، ورواه الترمذي وقال حديث غريب (تحفة الأحوازي ٢٣٩ \ ١٠).

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح (الجامع ٦٤٢ \ ٥) ورواه أحمد بسند صحيح (الفتح الرباني ١٢٢ \ ٢٣) ورواه الحاكم وأقره الذهبي (المستدرک ١٣٦ \ ٣).

طالب (١)، وعن علي قال: كنت إذا سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاني وإذا سكت - أي عن السؤال ابتدأني (٢)، وعن عبد الله بن جعفر قال: قال صلى الله عليه وسلم: " علي أصلي وجعفر فرعي " (٣)، وعن عمر بن عبد الله عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم. آخى بين الناس وترك عليا حتى بقي آخرهم لا يرى له أخا. فقال يا رسول الله: آخيت بين الناس وتركتني. قال: ولم تراني تركتك. تركتك لنفسك أنت أخي وأنا أخوك. فإن ذكرك أحد فقل أنا عبد الله وأخو رسوله لا يدعيها بعد إلا كذاب (٤). عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: " أنت أخي في الدنيا والآخرة (٥)، وقال ابن كثير

في هذا الحديث. كان المشايخ يعجبهم هذا الحديث لكونه من رواية أهل الشام (٦).

من مناقب فاطمة رضي الله عنها: خطب أبو بكر وعمر فاطمة. فقال النبي صلى الله عليه وسلم " هي لك يا علي " (٧)، وقال

صلى الله عليه وسلم: " إن الله أمرني أن أزوج فاطمة من علي " (٨)، وروى الإمام مسلم عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لفاطمة: يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين. أو سيدة نساء هذه

(١) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات (مجمع الزوائد ١٠٢ \ ٩)، ورواه ابن أبي شيبة (كنز العمال ١٤٤ \ ٣)، ورواه الحاكم والخطيب (كنز العمال ٦١٦ \ ١١).

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب (الجامع ٦٣٧ \ ٥) وقال في تحفة الأحوازي رواه النسائي وابن خزيمة في صحيحه والحاكم ورواه أبو نعيم في الحلية وسعيد بن منصور (تحفة الأحوازي ٢٢٥ \ ١٠) (كنز العمال ١٢٠ \ ١٣).

(٣) رواه الطبراني في الكبير. ورواه الضياء بسند صحيح (كنز العمال ٦٠٢ \ ١٣).

(٤) أخرجه الإمام أحمد وأبو يعلى عن علي (كنز العمال ١٤٠ \ ١٣) (تحفة الأحوازي ١٢٢ \ ١٠).

(٥) رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب (الجامع ٦٣٦ \ ٥).

(٦) البداية والنهاية ٣٣٦ \ ٧.

(٧) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٢٠٤ \ ٩).

(٨) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٩ \ ٢٠٤).

الأمة (١)، وعن أنس قال. قال النبي صلى الله عليه وسلم: حسبك من نساء العالمين - مريم ابنة

عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون (٢)، وروى الإمام مسلم عن المسور بن مخرمة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إنما فاطمة بضعة مني يؤذيها ما آذاها" (٣)، وروى البخاري: "فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني" (٤)، وروى الحاكم: "فاطمة شجنة مني يبسطني ما يبسطها ويقبضني ما يقبضها" (٥).

فإذا كان الذي يؤذي فاطمة يؤذي رسول الله. وإذا كان ما يغضبها يغضبه. وإذا كان ما يقبضها يقبضه. فعلى ذلك يمكن أن نفهم قول الله تعالى: (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة" (٦)، فمن المعلوم أن الله لا يناله الأذى ولكنه شارك الرسول في إيذائه تشريفا للرسول. وإشارة إلى أن من قصد رسول الله بسوء. فقد قصده أيضا بالسوء. لهذا قال لفاطمة ما قال. وقال لعلي بن أبي طالب: "إن الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك" (٧)، وقال: "يا علي من فارقني فارق الله ومن فارقك يا علي فارقني" (٨)، وقال: "من آذى عليا

(١) صحيح مسلم في فضل فاطمة (٦ \ ١٦)، ورواه البخاري بلفظ "أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين (الصحيح ٢٨٤ \ ٢)، ورواه الحاكم بلفظ مسلم بزيادة "ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين" وقال هذا إسناد صحيح ووافقه الذهبي (المستدرک ١٥٦ \ ٣).

(٢) رواه الترمذي وقال حديث صحيح (الجامع ٧٠٣ \ ٥) ورواه الحاكم وقال هذا الحديث في المسند لأبي عبد الله أحمد بن حنبل (المستدرک ١٥٧ \ ٣).

(٣) صحيح مسلم ٣ \ ١٦، باب فضل فاطمة.

(٤) صحيح البخاري ك بدء الخلق ب مناقب قرابة النبي ٣٠٢ \ ٢.

(٥) الحاكم وأقره الذهبي (المستدرک ٣ \ ١٥٤).

(٦) سورة الأحزاب: الآية ٥٧.

(٧) رواه الطبراني وقال الهيثمي إسناده حسن (الزوائد ٢٠٣ \ ٩).

(٨) رواه البزار (كشف الأستار ٢٠١ \ ٣) وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ١٣٥ \ ٩)، ورواه الحاكم وصححه (المستدرک ١٢١ \ ٣).

فقد آذاني " (١)، وقال للحسن والحسين: " من أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني (٢).

إنه خط واحد، لا مجاملة فيه لأحد. فالذين يؤذون الرسول يؤذون الله. والرسول قام بتحديد دائرة. فمن تقدم إليه بأذى. فإنه يكون في حقيقة الأمر قد خالف الطريق كله. وحمل الفطرة على ما لا يجب أن تحمله.

* من مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما:

عن ابن عمر قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " هما ريحائتا من الدنيا " (٣)، وعن أسامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " هذان ابناي وابنا ابنتي.

اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما " (٤)، وفي هذا الحديث أطلق عليهما لفظ النبوة التي أطلقها القرآن في قوله تعالى: (تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم)، وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الحسن والحسين سيदा شباب أهل الجنة " (٥)، وعن حذيفة: قال النبي

(١) رواه أحمد وقال الهيثمي رجال أحمد ثقات ورواه ابن حبان في صحيحه (الزوائد ١٢٩ \ ٩).

(٢) رواه ابن ماجة وقال البوصيري في الزوائد إسناده صحيح ورجاله ثقات (١٤٠٦ \ ٣) (كنز العمال ١١٦ \ ١٢) ورواه الحاكم وأقره الذهبي (١٦٦ \ ٣ المستدرک) وقال الهيثمي رواه أحمد والبخاري (الزوائد ١٧٩ \ ٩).

(٣) رواه البخاري ك بدء الخلق ب مناقب الحسن والحسين (٣٠٦ \ ٢) وأحمد والترمذي عن ابن عمر. وابن عساكر وابن عدي عن أبي بكر. والنسائي عن أنس (كنز العمال ١١٣)، (١١٤ \ ١٢) ورواه البخاري عن سعد وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الزوائد ١٨١ \ ٩).

(٤) رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب (الجامع ٦٥٦ \ ٥)، وقال في تحفة الأحوازي رواه الحاكم وصححه وابن حبان في صحيحه (التحفة ٢٧٤ \ ١٠) ورواه البخاري ك بدء الخلق ب مناقب المهاجرين ٣٠٦ \ ٢ الصحيح.

(٥) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح (الجامع ٦٥٦ \ ٥) وقال في كشف الخفاء أخرجه أحمد وصححه ابن حبان والحاكم (كشف الخفاء ٤٢٩ \ ١) وقال في تحفة الأحوازي هذا الحديث مروي عن عدة من الصحابة من طرق كثيرة ولذا عده السيوطي من المتواترات (تحفة ٢٧٢ \ ٣) وقال الهيثمي رواه أحمد وأبو يعلى ورجاله رجال الصحيح (الزوائد ٢٠١ \ ٩).

صلى الله عليه: " جاءني جبريل بشرني أن الحسن والحسين سيذا شباب أهل الجنة " (١)، وبما أنهما في الجنة فلا يمكن أن يكون من قتلتهما في الجنة أيضا. لأن الجنة لا يدخلها القاتل الذي ساعد وساهم في تقييض الصراط المستقيم. بدليل أن الشيطان الذي أخذ على عاتقه تقييض الصراط المستقيم. لعنه الله وأخرجه من الجنة.

سابعا - تحذيرات:

بعد اكتمال الدائرة التي ستقف في مواجهة دوائر الصد عن سبيل الله. وبعد أن بين الله تعالى العترة الطاهرة الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. وأن ذروة ذي القربى هم من حرم الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم نكاحه. وبعد أن فرض مودتهم من البداية إلى النهاية. ولم يفرض الله مودتهم إلا لعلمه المطلق بأنهم لا يرتدون عن الدين أبدا ولا يرجعون إلى ضلال أبدا. ومودتهم لا يأتي بها أحد مؤمنا مخلصا إلا استوجب الجنة لقوله عز وجل: (الذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات. قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى) (٢).

وبعد أن فرض سبحانه الصلاة على رسوله والحق رسوله آله به. وفي بعض الروايات أن قوله تعالى: (يس والقرآن الحكيم) (٣)، روى أن يس اسم من أسماء النبي (٤). وروى في قوله تعالى: (سلام على آل

(١) رواه البخاري والضياء في المختارة بسند صحيح (كنز ١٢٠ \ ١٢) وابن سعد والحاكم (كنز ١١٣ \ ١٢) وأحمد والترمذي وقال حديث حسن والنسائي وابن حبان في صحيحه (كنز ١١٣ \ ١٢).

(٢) سورة الشورى: الآية ٢٢ - ٢٣.

(٣) سورة يس: الآية ١.

(٤) جلاء الأفهام \ ابن القيم ط دار الكتب العلمية بيروت.

يس (١)، أن آل يس هم آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم (٢)، وقيل: إن الله تعالى لم يقل سلام على آل نوح ولم يقل سلام على آل إبراهيم ولا قال سلام على آل موسى وهارون وقال: "سلام على إل ياسين" يعني آل محمد لأنهم حراس العقيدة الخاتمة التي ترتبط بالقرآن وتلتقي معه عند حوض النبي يوم القيامة. وقيل أيضا إن الله تعالى ذكر الرجوع إليهم فيما خفي على الناس في قوله تعالى: (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) (٣). إن القول بأهل الذكر في هذه الآية ليس اليهود والنصارى كما يزعم البعض. لأن هذا القول أن يدعونا إلى دينهم للاحتكام إليه، وإن المعنى: إن الذكر هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وذلك مبين في كتاب الله عز وجل. قال تعالى: (فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا * رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبينات) (٤)، وقال البعض: المراد بالذكر بالذي أنزله هو الرسول. سمي به لأنه وسيلة التذكرة بالله وآياته وسبيل الدعوة إلى دين الحق. وعلى هذا فالمراد بإنزال الرسول. بعثه من عالم الغيب. وإظهاره لهم رسولا من عنده. بعدما لم يكونوا يحتسبون كما في قوله تعالى: (وأنزلنا الحديد) (٥). وقال البعض: يحتمل أن يكون "رسولا" منصوبا بفعل محذوف والتقدير أرسل رسولا يتلو عليكم"، ويكون المراد بالذكر المنزل إليهم القرآن، وقال البعض: إن "رسولا" هو جبريل. ولكن ظاهر قوله "يتلو عليكم..." يخالف ذلك. والخلاصة: إن الروايات التي فسرت الآية بينت أن الذكر رسول الله وإن عترته أهله. وروى في قوله عز وجل: (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها) (٦)، إن الآية مكية وعلى هذا فالمراد بقوله: "أهلك" بحسب وقت النزول خديجة زوج

(١) سورة الصافات: الآية ١٣٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٢٠ \ ٤، البغوي في تفسيره معالم التنزيل ١٦٤ \ ٧ ط المنار ١٣٤٧ هـ.

(٣) سورة النحل: الآية ٤٣.

(٤) سورة الطلاق: الآية ١٠ - ١١.

(٥) سورة الحديد: الآية ٢٥.

(٦) سورة طه: الآية ١٣٢.

النبي صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب، وكان من أهله وفي بيته أو هما وبعض بنات النبي صلى الله عليه وسلم. وعلى هذا فإن القول بأن أهله جميع متبعيه من أمته غير سديد. وروى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ظل يأمر أهله بالصلاة في مكة والمدينة حتى فارق الدنيا. وفي الدر المنثور أخرج الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح عن عبد الله بن سلام قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق

أمرهم بالصلاة وتلا (وأمر أهلك بالصلاة) وروى أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يجرى إلى باب علي وفاطمة ثمانية أشهر، وفي رواية تسعة أشهر ويقول: " الصلاة رحمكم الله. إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا " (١)... وبعد أن فرض سبحانه لذي القربى نصيبهم من المال. فقرن سهمهم مع سهمه وسهم رسوله. فجعلهم بذلك في خير. وجعل الناس في خير دون ذلك. ورضي لهم ما رضي لنفسه. واصطفاهم فيه فبدأ بنفسه ثم ثنى برسوله ثم بذي القربى. (واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمسته وللرسول ولذي القربى). (٢) فهذا النصيب من الفئ والغنيمة حقا لهم إلى يوم القيامة في كتاب الله الناطق. بخلاف اليتامى والمساكين الذين ورد ذكرهم في الآية. فإن اليتيم إذا انقطع يتمه خرج من الغنائم ولم يكن له فيها نصيب. وكذلك المسكين إذا انقطعت مسكنته لم يكن له نصيب من المغنم ولا يحل له أخذه. ولكن سهم ذي القربى إلى يوم القيامة. قائم فيهم للغني والفقير منهم. لأنه لا أحد أغنى من الله عز وجل. فجعل لنفسه منها سهمها ولرسوله سهمها. فما رضيته لنفسه ولرسوله رضيته لهم. وكذلك الغني ما رضيته منه لنفسه ولرسوله صلى الله عليه وآله رضيته لذي القربى. وكذلك الصدقة. فكما نزه سبحانه نفسه ونزه رسوله. نزه أهل بيت النبي عنها. فقال: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من

(١) أخرجه ابن مردويه وابن عساكر وابن النجار عن أبي سعيد الخدري.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٤١.

الله (١)، فلا يوجد في شيء من ذلك أنه عز وجل سمى لنفسه أو لرسوله أو لذي القربى. لأنه لما نزه نفسه من الصدقة ونزه رسوله نزه أهل بيته. بل حرمها عليهم لأن الصدقة محرمة على محمد وآله. وهي أوساخ أيدي الناس. لا تحل لهم. لأنهم طهروا من كل دنس ووسخ. فلما طهرهم الله عز وجل. رضي لهم ما رضي لنفسه وكره لهم ما كره لنفسه.

بعد كل هذا التطهير. وبعد رباط القرآن الذي لا ينفك عنهم حتى يوم القيامة. بعد كل هذا حذر ثم حذر وحذر. فقال: "سبعة لعنتهم ولعنهم الله" ومنهم: "المتسلط على أمتي كالجبروت ليزل من أعز الله، ويعز من أذل الله عز وجل. والمستحل من عترتي ما حرم الله عز وجل" (٢)، وعن زيد بن أرقم. أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي وفاطمة والحسن والحسين. أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم (٣).

قال في تحفة الأحوازي: أي أنا محارب لمن حاربتم. جعل النبي صلى الله عليه وسلم نفسه نفس الحرب مبالغة كرجل عدل (٤)، وعن أبي

(١) سورة التوبة: الآية ٦٠.

(٢) رواه ابن أبي عاصم وقال الألباني له طريق عن عائشة إسناد حسن (كتاب السنة ٢٤ \ ١).

(٣) رواه الترمذي وقال حديث غريب. وقال في تحفة الأحوازي. قول الترمذي صحيح مولى

أم سلمة ليس عوف ذكره ابن حبان في الثقات. ورواه أحمد والطبراني عن أبي هريرة وفيه تليد بن سليمان وفيه خلاف (التحفة ٣٧٢ \ ١٠) (الفتح الرباني ١٠٦ \ ٢٢) (كنز العمال ٩٦، ٩٧ \ ١٢)، (مجمع الزوائد ١٦٩ \ ٩)، ورواه الحاكم وقال هذا حديث حسن من أحاديث أبي عبد الله أحمد بن حنبل، ورواه الحاكم أيضا عن طريق زيد بن أرقم (المستدرک ١٤٩ \ ٣)، وقال في كنز العمال، رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم عن زيد بن أرقم وأحمد والطبراني والحاكم عن أبي هريرة (كنز العمال ٩٦ \ ٩٧ \ ١٢)، ورواه الضياء بسند صحيح عن زيد بن أرقم، ورواه عنه ابن أبي شيبه وابن حبان في صحيحه (كنز العمال ٦٤٠ \ ١٣)، وذكره ابن كثير في البداية، وقال رواه أحمد (البداية ٣٨ \ ٥).

(٤) تحفة الأحوازي ٣٧٢ \ ١٠.

سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا ييغضنا أهل البيت أحد إلا أدخله الله النار " (١).

وعلى ذلك تكون الحجة قد أقيمت. فالله سبحانه هو الذي حذر من خطوات الشيطان. وهو سبحانه الذي بين أهداف المشركين في دائرة البخس. وهو سبحانه الذي بين أهداف المنافقين في دائرة الرجس. كما بين أهداف تيار الذين في قلوبهم مرض. وتيار الذين في قلوبهم زيغ. ولما كانت الأمة ستجد مشاكل على الطريق يضعها أناس من جلدتهم يتكلمون بألسنتهم ويدعون إلى النار من أجابهم قذفوه فيها. ولما كان عدم وجود دليل للأمة يرشدها مع كتاب الله إلى الطريق الحق. يعتبر حجة لهم يوم القيامة. أقام الله حجته حتى لا يكون للناس عليه حجة يوم القيامة، ولا إكراه في الدين. فالحق حق وإن تركه الناس. والباطل باطل وإن التزموا به.

(١) رواه الحاكم وقال حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه (المستدرک ١٥٠ \ ٣).

رابعاً - النور والولاية

بعد تحديد دائرة الطهر. هل كان لهذه الدائرة ذروة بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؟ بمعنى هل كان فيها الرجل الذي يبلغ عن الرسول من بعده أم أن الدائرة وجدت ليتبارك بها الناس فيحمل أحدهم الحسن ويقبل الآخر الحسين ويتسم الجميع في وجه فاطمة وعلي رضي الله عنهما؟ فإذا كانت الإجابة. أن الدائرة بركة. ولا يوجد ما يسمى بالخلافة. ولم يقوم الرسول بتعيين من يبلغ من بعده. فإن من خالف يقول: فهل من المعقول أن يجعل النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه دون استثناء قدوة للبشر وفي أصحابه دائرة المنافقين وتيار الذين في قلوبهم مرض؟ كيف وقد أظهرت حركة التاريخ أن الصحابة اختلقوا في الرواية والقيادة والسيره والأخلاق، وفي طريق الهداية والإرشاد وفي كل شيء. وسبب هذا الاختلاف أن المحتاج إلى التعليم والإرشاد. أصبح قريناً للقرآن الذي لا يستغني عن المفسر العالم به. ولو كان القرآن لا يحتاج إلى تأويل لأجمع الناس على مدلوله ولم تفترق الأمة. وإذا كانت الخلافة ليست أصلاً إسلامياً. ولم يأمر الرسول بها. فلماذا قامت بعده؟ بمعنى لماذا أوصى الذين جاءوا من بعده وحتى يومنا هذا بمن يخلفهم. هل كان معاوية بن أبي سفيان أحرص على الدعوة من رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلها لابنه من بعده وسار بها بعد ذلك لتستقر في إناء الكسروية والقيصرية؟ لماذا حرصوا على الخلافة ولم يتركوا الأمر اقتداء بسنة رسول الله إذا اعتبرنا أنه ترك أمته كهباء ضائع في خلاء. وحاشاه أن

يفعل ذلك فإذا قيل: إن الخلافة مجرد اجتهاد وتطبيق ارتضاه المسلمون الأوائل. وإنها تقوم على الاجماع أو الانتخاب. فإن من خالف يقول: إذا كانت الخلافة بالاجماع فما معنى عقد أبي بكر لعمر رضي الله عنهما. وما معنى وصية عمر وجعلها شورى، وما معنى جعل الخلفاء إياها كسروية. إن كل حلقة تختلف عن الأخرى. وانتهت الحلقات إلى الجبرية حيث الاجماع الذي على رأسه السيف. وكل حلقة لم تحقق الاجماع الكامل ويوم السقيفة شاهد بخروج سعد بن عباد ومن معه على هذا الاجماع وعلى امتداد التاريخ تشهد الأحداث أن الاجماع لم يتحقق يوما وأن المعارك بين المسلمين وبين أنفسهم كان عمودها الفقري الخروج على الحكم وطلب الكرسي. فأين الاجماع في هذه الأحداث؟ وإذا كانت الخلافة بالانتخاب. فمن المعلوم أن الأمة ليست متفقة في الرأي وأن لكل فرد فيها رأي يخالف الباقيين. فأى انتخاب؟ وهل المرشح الذي تخرج دنانيره من بيت المال لتلمع في عيون الناخبين. هل يكون هذا مرشحا، مهمته السير بالدعوة الحق على الصراط الحق. هل اللائحة التي تحافظ على الأهواء وتزين وتغوي الناخبين بأحقية حزب ما أو قبيلة ما. وما يقابلها من لوائح تزين وتغوي بالأموال والقرب والجاه. هل هذه اللوائح. لوائح حق تسير بالدعوة الحق على الصراط الحق. أن الخليفة بحكم العقل والنقل مطلوب منه المحافظة على كيان الإسلام. وإزاحة الشبهات وقطع دابر الكفار والمنافقين ونشر الأحكام الإلهية. فهل يا ترى يمكن للناس الوصول إلى من يتصف بهذه الصفات المذكورة وهل في وسعهم الاتجاه والاتفاق على اختياره. مع الوضع في الاعتبار أن في الأمة دوائر عديدة هدفها الصد عن سبيل الله. وأن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر أن في أئمة أئمة مضلون ومنافق عليم اللسان إلى غير ذلك. فهل يمكن للناس تفادي كل هذا؟

فإن قيل: إن الخلافة في عصورها المتأخرة تختلف عنها في عصورها الأولى حيث كان الصحابة يتحرون الدقة. وهم بالاجماع أهل عدل وصلاح. وبموت الرسول صلى الله عليه وسلم. لم يعد هناك منافقون ولم يعد لتيار الذين في قلوبهم مرض وجود. فإن المخالف يقول: إذا كانوا جميعا عدو. فبمن

نقتدي. بأبي بكر رضي الله عنه. أم بالصحابة الذين تخلفوا عنه وعلى رأسهم سعد بن عبادَة الذي قال يوم السقيفة: " لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربي " (١)، وكان سعد لا يصلي معهم (٢) ألم يكن سعد يعلم أن من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية؟. هل نقتدي بسعد بن عبادَة أم بعمر بن الخطاب رضي الله عنهما. وعمر أمر يوم السقيفة بقتل سعد وقال: " اقتلوه اقتلوه. ثم قام على رأسه وقال: لقد هممت أن أطأك حتى تندر عضوك (٣)، وعندما تكاتفوا على سعد. قال قائل فيما روى البخاري: " قتلتم سعد بن عبادَة. فقال عمر: قتله الله (٤)، وبعد ذلك قال سعد لعمر في خلافته بعد وفاة أبو بكر " والله لقد كرهت جوارك " (٥)، وخرج سعد مهاجرا إلى الشام ولم يلبث إلا قليلا. حتى قتل. وقيل: إن الجن هم الذين قتلوه!! (٦). وبمن نقتدي بخلافة أبي بكر رضي الله عنه. أم بقول علي بن أبي طالب له: " أفسدت علينا أمورنا ولم تستشر ولم ترع لنا حقا " (٧)، وفي رواية عند البخاري قال: " ولكنك استبدت علينا بالأمر. وكنا نرى لقرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم نصيبا " (٨)، أم بوصف عمر فيما بعد لخلافة أبي بكر بأنها فلتة ومن عاد إليها فيجب قتله (٩)، وبمن نقتدي يوم جعلها عمر بعد إصابته شوري بين ستة روى أنهم من أهل الجنة. فقد قال: " إن خالف اثنان لأربعة فاقتلوا الاثنين. وإن خالف ثلاثة ثلاثة فاقتلوا الثلاثة الذين ليس فيهم

-
- (١) الطبري ٢١٠ \ ٣.
(٢) الطبري ٢١٠ \ ٣.
(٣) الطبري ٢١٠ \ ٣.
(٤) البخاري (الصحيح ٢٩١ \ ٢) لبدء الخلق.
(٥) ابن سعد في الطبقات (كنز العمال ٦٢٨ \ ٥).
(٦) راجع ابن كثير وابن الأثير في أحداث السقيفة.
(٧) مروج الذهب \ المسعودي (١ \ ٤١٤).
(٨) البخاري (الصحيح ٥٦ \ ٣) ك المغازي.
(٩) رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ٥٩ \ ٢٣) وابن أبي شيبَة (كنز العمال ٦٤٩ \ ٥)، الطبري (٢٠٠ \ ٣).

عبد الرحمن بن عوف (١). بمن نقتدي بمن يأمر بقتل أهل الجنة أم بمن بقي من أهل الجنة. وما رأي المسلمين لو سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر يقول: اقتلوا أهل الشورى الذين روى بأنهم من أهل الجنة. فأبي رضا وأي إجماع في الشورى، وكيف يكون مختاراً من تهدد بالقتل؟ وبمن نقتدي بعثمان بن عفان أم بالذين خرجوا عليه وهم صحابة. وفيهم من ألب عليه. وفيهم من قال: "اقتلوا نعثلاً فقد كفر" وفيهم من كان يلعنه كما سنبين ذلك في حينه... بمن نقتدي بأمر المؤمنين عائشة رضي الله عنها أم بالناكثين وفيهم صحابة. أم بالقاسطين وفيهم صحابة. أم بالمارقين وفيهم صحابة. أم بعلي بن أبي طالب ومن معه وهم صحابة. بمن نقتدي. بمعاوية ابن أبي سفيان أم بعمر بن العاص وهما من الصحابة؟ من المسؤول عن الدماء التي أريقت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بمدة قليلة. والذين كانوا في صدر المسؤولية جميعاً من الصحابة، ويبقى السؤال قائماً. هل أوصى الرسول الأكرم لأحد أصحابه بأن يبلغ من بعده. أم ترك الأمة كهباء ضائع في خلاء بعد جهاد طويل في عالم الحرب والسياسة والنفس. هل تركها لتستقر بعد ذلك عند أقدام يزيد بن معاوية ومن على شاكلته. حيث تقطع رؤوس الذين آمنوا وتجلد ظهورهم بكل قسوة وبلا أدنى رحمة. وينتهي الأمر بأن تدخل الأمة في دوائر الذين سبقوها وتتبع سننهم شبرا بشبر وذراعاً بذراع؟ إن الذي يقول بذلك. يكون قد تساهل تساهلاً كبيراً في حق الله وحق كتابه وحق رسوله.

نحن لا نقلل من شأن الصحابة رضي الله عنهم. ولكن هناك حقيقة لا يجب أن نتعامى عنها: هي إن النبي صلى الله عليه وسلم أوجب محبة أصحابه لطاعتهم لله. فإذا عصوا الله وتركوا ما أوجب محبتهم. فإن النبي لا يجامل أحداً. لقد قيل. أنه صلى الله عليه وسلم أشاد بالصحابة وأنهم كالنجوم وعلى الهدى. وليس معنى ذلك أن أهل الشام على هدى. وإنهم بهداهم حاربوا علي بن أبي طالب وأن قاتل عمار بن ياسر على هدى، والصحيح

(١) قصة الشورى الطبري (٣٣ / ٥).

في عمار أن الفئة الباغية تقتله. وقال القرآن: (فقاتلوا التي تبغي حتى تفيئ إلى أمر الله (١)، وهذا يدل على أنها ما دامت موصوفة بالمقام على البغي. فهي مفارقة لأمر الله. ومن فارق أمر الله لا يكون مهتديا. فكيف يكون كل واحد من الصحابة على هدى ولا يخطئون والله تعالى يقول لرسوله: (قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) (٢)، وقال: (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) (٣)، فكيف يقول الرسول هذا ونحن نقول الصحابة لا يخطئون؟! إن خير القرون التي جاء ذكرها في الحديث. تصدرها القرن الذي دارت أحداثه بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذه الأحداث هي شر الأحداث. ففي هذا القرن قتل الحسين. واجتاحت خيول يزيد المدينة. وحوصرت مكة. وشرب الخلفاء الخمر وارتكبوا الفجور وأريقوا الدماء. وقتل المسلمون وسبي الحريم. واستبعد أبناء المهاجرين والأنصار. وما كان هذا إلا بسياسة من بعض الصحابة وما جرى إلا تحت أعينهم. ولكي لا تختلط الأمور فنحن نعرف هنا ما هي الصحبة.

١ - تعريف من هو الصحابي:

الصحبة لغة. هي المعاشرة، وتطلق على المعاشرة في الزمن القليل والكثير. ولذلك يقال صحبت فلانا حولا وشهرا ويوما وساعة. وتقع الصحبة بين المؤمن والكافر. كما تقع بين المؤمن والمؤمن. قال تعالى في محاوراة بين مؤمن وكافر: (قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت الذي خلقتك) (٤)، وقال تعالى لكفار المشركين (ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى) (٥)، وقال سبحانه لهم: (ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير

(١) سورة الحجرات: من الآية ٥١.

(٢) سورة الزمر: الآية ١٣.

(٣) سورة الزمر: الآية ٦٥.

(٤) سورة الكهف: الآية ٣٧.

(٥) سورة النجم: الآية ٢ - ٣.

لكم) (١)، واسم الصحبة يطلب أيضا بين العاقل وبين البهيمة. فالعرب سموا الحمار صاحبا فقالوا:

إن الحمار مع الحمار مطية* فإذا خلوت به فبئس صاحب وسموا الجماد مع الحي صاحبا فقالوا في السيف:
زرت هنداً وذاك غير اختيان* ومعني صاحب كتوم اللسان وأطلقت كلمة الصحابي على كل من أسلم في حياة النبي ولقيه مسلماً. ومن هؤلاء المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون الذين كانوا يعملون على إحداث الاضطراب في المدينة. ومنهم الذين قال فيهم تعالى: (ومنهم الذين يؤذون النبي) (٢)، وقوله: (ومنهم من يلزمك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون) (٣)، وقوله: (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم) (٤). فإذا كان في الصحابة من ييطن الكفر ويظهر الإيمان بنص الكتاب. فكيف يجوز الاقتداء بكل فرد منهم دون أن يوثق بإيمانه ويعرف صحة إسلامه ورسوخ عقيدته.

لقد قال تعالى في صحابة النبي صلى الله عليه وسلم: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار) إلى قوله تعالى: (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجر عظيم) (٥)، فقوله تعالى: "منهم" أي لو كان منهم من لم يؤمن أصلاً كالمنافقين والذين في قلوبهم مرض. أو منهم الذي آمن أولاً ثم أشرك وكفر كما في قوله تعالى: (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعدما تبين لهم الهدى) إلى قوله تعالى: (ولو نشاء لأريناكنهم فلعرفتهم

(١) سورة سبأ: الآية ٤٦.

(٢) سورة التوبة: الآية ٦١.

(٣) سورة التوبة: الآية ٥٨.

(٤) سورة التوبة: الآية ٦٤.

(٥) سورة الفتح: الآية ٢٩.

بسيماهم) (١)، أو منهم الذي آمن ولم يعمل الصالحات كما يستفاد من آيات الإفك. ومن أهل الإفك من هو صحابي بدري. وقد قال تعالى: (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم) (٢)، فأمثال هؤلاء لا يشملهم وعد المغفرة والأجر العظيم الذي وعد الله به في صدر الآية.

وقال تعالى: (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) (٣)، فمن ينكث لا معنى للقول بأن له عند الله أجرا عظيما. ولقد دلت الحوادث أن هناك من نكث بيعته. وبالجملة الصحابة ناس كغيرهم - مع فضل الصحبة - فيهم العدول الثقة والقادة الهداة. وشهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام مالك. إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لشهداء أحد: " هؤلاء أشهد عليهم " فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ألسنا يا رسول الله إخوانهم. أسلمنا كما أسلموا. وجاهدنا كما جاهدوا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " بلى ولكن لا أدري ما تحدثون بعدي " فبكى أبو بكر ثم بكى ثم قال: ائنا لكائنون بعدك! (٤). لقد كان في الصحابة أعظم الرجال في تاريخ البعثة إذ لم يكن في تاريخ الإنسانية منهم عبدة بن الحارث. وعمير بن أبي وقاص. وعادل بن أبي البكير. ومهجع مولى عمر بن الخطاب. وصفوان بن بيضاء. ومبشر بن عبد المنذر. وسعد بن خيثمة. وحارثة بن سراقة. وعمير بن الحمام بن الجموع. ورافع بن المعلي. ويزيد بن الحارث. وغير هؤلاء من أبطال بدر. وحمزة بن عبد المطلب. وعبد الله بن جحش. ومصعب بن عمير. وشماس بن عمر. والحارث بن أنس وعمر بن معاذ. وعمار بن زياد بن السكين، وعمرو بن

(١) سورة محمد: الآية ٣٠.

(٢) سورة النور: الآية ٢٣.

(٣) سورة الفتح: الآية ١٠.

(٤) موطأ مالك كتاب الجهاد ص ٣٧١.

الجموح، وخلاد بن عمر بن الجموح، وعتبة بن الربيع، ومالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري. وسعد بن الربيع، وأنس بن النضر. وأويس بن ثابت، وغير هؤلاء من شهداء أحد. وأبو ذر الغفاري. وعمار بن ياسر. وأبو أيوب الأنصاري. وخزيمة بن ثابت. وسلمان الفارسي. وأبو سعيد الخدري. وزيد بن أرقم، وبريدة الأسلمي، وأبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، والمقداد وأبو الهيثم التيهان، وسهل وعثمان ابنا حنيف، والبراء بن عازب. وزيد بن صوحان، وحذيفة بن اليمان، وعمران بن حصين، وأبو رافع مولى رسول الله.

وغير هؤلاء من الصحابة العظام، وفي الصحابة من نكث ومن مرق ومن بغى. وفيهم من لعبت به الأهواء، وفيهم من خرج عن الحق، وفيهم من رجع إليه. والنفاق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله. لم ينتهي بموته. ولم ينقطع بمجرد انقطاع الوحي. ومن قال بأن النفاق قد انتهى بعد موت الرسول. فعليه أن يقول لنا. هل كانت حياة الرسول سببا في نفاق المنافقين. وموته سببا في إيمانهم وعدالتهم، وحتى صاروا أفضل الخلائق بعد الأنبياء. كيف انقلبت دوائرهم وحقائقهم بعد وفاته. وأصبحوا ثقلا مع القرآن كما قال البعض. إن في الكتاب العزيز وسنة النبي المطهرة ما يثبت بقاء المنافقين على نفاقهم بشهادة حذيفة رضي الله عنه وسنين ذلك في موضعه. لقد كان النبي وهو بين أصحابه يود أن يلقي إخوانه كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وددت أني رأيت إخواني - قالوا: أو لسنا إخوانك يا

رسول الله؟ قال: بل أنتم أصحابي وإخواني الذين لم يأتوا بعد" (١)، وفي رواية: " وإخواني الذين آمنوا بي ولم يروني أنا إليهم بالأشواق" (٢)، وكان صلى الله عليه وسلم يقول: " مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم

(١) رواه مسلم (الخصائص الكبرى للسيوطي ٢٦٠ \ ٢).
(٢) رواه أبو يعلى وأبو الشيخ عن أنس. وابن عساكر عن البراء (كنز العمال ١٨٤ \ ١٢) رواه أحمد بلفظ "وددت أني لقيت إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني (كنز العمال ١٦٤ \ ١٢).

آخره " (١)، إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحصر الخبر في جهة. لقد أقام الحجة وبلغ عن ربه وهو في شوق إلى إخوانه وربما يكون عندهم الخير كما كان في عهده صلى الله عليه وسلم. فالمقياس الحقيقي لا يكون أبداً بالمتاجرة بالشعارات. وإنما باقتفاء أثره صلى الله عليه وسلم على الصراط المستقيم. فهنا وهنا فقط يكون الخير. ففي الحديث الذي رواه أبو هريرة. قال: قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: أي الناس خير؟ قال: أنا ومن معي. فقليل له: ثم من؟ قال: الذي على الأثر. قيل له: ثم من يا رسول الله؟ قال أبو هريرة: فرفضهم رسول الله (٢).

إن الذين مع النبي هم الذين لن يقال لهم عند الحوض سحقا سحقا. لأنهم بدلوا وغيروا وارتدوا بعده كما في الأحاديث الصحيحة. روى البخاري ومسلم: "أنا فرطكم على الحوض من ورد شرب ومن شرب لم يظمأ أبداً وليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفونني. ثم يحال بيني وبينهم" (٣)، وفي رواية "ليردن علي الحوض رجال ممن صحبني ورآني فأقول أي رب أصحابي أصحابي. فليقلن إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك" (٤)، وفي رواية: "فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول سحقا" (٥). وقوله صلى الله عليه وسلم: "سحقا" أي بعد بعدا ومكان سحيق

-
- (١) رواه الإمام أحمد عن أنس ورواه الترمذي وقال: حسن غريب. وقال في كشف الخفاء: رواه الترمذي وأبو يعلى والدارقطني والخطيب وابن حبان في صحيحه وقال ابن حجر: حديث حسن له طرق (الفتح الرباني ٢٠٣ \ ٢٣، كشف الخفاء ٢٥٨ \ ٢).
(٢) رواه أحمد وقال في الفتح الرباني الحديث صحيح الإسناد (الفتح ٢١٩ \ ٢٣) وقال في الفتح رواه مسلم بإسنادين.
(٣) البخاري (الصحيح ك. الدعوات باب الصراط ١٤١ \ ٤) مسلم (الصحيح ٥٣ \ ١٥) له الفضائل ب حوض نبينا صلى الله عليه وآله.
(٤) رواه أحمد (١٩٥ \ ١ الفتح الرباني) ومسلم (الصحيح ٦٥ \ ١٥) ك الفضائل ب حوض نبينا صلى الله عليه وآله.
(٥) رواه مسلم (الصحيح ٥٦ \ ١٥) ك الفضائل ب حوض نبينا صلى الله عليه وآله.

بعيد. فيه دليل على أنهم ليسوا عصاة. لأن العصاة يشفع لهم. وفي هؤلاء وغيرهم قال النبي صلى الله عليه وسلم: " مثلي كمثلي رجل استوقد ناراً. فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي يقمن في النار يقعن فيها. وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها. فذلك مثلي ومثلكم. أنا آخذ بحجزكم عن النار. هلم عن النار! هلم عن النار! فتغلبوني فتقتحمون فيها (١). إن الدعوة الخاتمة جاءت لتقيم حجتها وتذكر الناس بمخزون الفطرة وتدعوهم للتفكير في الآيات من حولهم وتسوقهم إلى الصراط المستقيم كي يتفادوا العقبات التي وضعها الشيطان ومؤسساته على الأرض وفي الأهواء. إن الشيطان دق أوتاد خيمة مهمتها عبادة السلف الصالح. ولقد سقط العديد داخل هذه الخيمة منذ فجر التاريخ وعلى هذه العبادة نشأت عبادة الأوثان. وعبادة السلف كانت سبباً أساسياً في منع الباحثين والدارسين عن سلوك طريق العلم. لقد وجد الباحثون أن السلف كان ينتقد بعضه بعضاً. بل يقتل من خالفه في الرأي من معاصريه. فلما جاء الخلف رفع راية تحرم النقد ولو كان للنقد جذور في كتاب الله. وعندئذ أغلق الباحثون والدارسون على أنفسهم الأبواب. وطويت صفحات العلم والمعرفة. وجرت الفتنة فلم تصب الذين ظلموا خاصة. بل تعدتهم إلى الحاضر والمستقبل. تلقى بالتعصب الذميمة وتهلك ضحاياها في كل عصر. وتشد في كل وادي آلهة جدد.

وما زال السؤال يجري: هل أوصى النبي صلى الله عليه وسلم لأحد أصحابه بأن يبلغ من بعده ويسوق الناس إلى صراط الله المستقيم. هل صرح الرسول باسم الخليفة من بعده؟ أم كانت هناك رموز وإيماء وكناية وتعريض. وكان للرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك عذر لا نعلمه نحن. خشية من فساد الأمر أو إرجاف المنافقين. أم أن الرسول لم يوص ولم يصرح ولم تكن هناك رموز وإيماء. وترك أمته كي يسوقها معاوية وعمر بن العاص وبسر بن

(١) رواه البخاري كتاب الدعوات (الصحيح ١٢٧ / ٤) وأحمد والبيهقي والترمذي عن أبي هريرة. واللفظ لأحمد (الفتح الرباني ٢٨٤ / ٢١، وكنز العمال ١٧٧ / ١).

أرطاة وأبو الأعور السلمي ومروان بن الحكم والجماح بن يوسف؟ وإذا كانت الإجابة: نعم تركها لهؤلاء الصحابة العدول الذين إذا أصابوا لهم أجران وإذا أخطأوا فلهم أجر واحد. فنقول: وهل تستقيم مقدمات بدر وأحد مع هذه النتيجة؟ أي تفسير هذا الذي سيقدمه ابن أبي سفيان وهو يتحدث عن آيات القتال في بدر وفي أحد؟ وأي تفسير سيقدمه للمسجد الضرار ومحاولة اغتيال الرسول. إن الحقيقة مرة. والمقدمات لا تستقيم مع النتائج. ويبدو أمام الباحث أن أموراً قد جرت. وللحقيقة نقول: إن الأمور الماضية يتعذر الوقوف على عللها وأسبابها ولا يعلم حقائقها إلا من شاهدها ولا بسها. وللحقيقة أيضاً نقول إن الأمور إذا اشتبهت. اعتبر آخرها أولها. أي يقاس آخرها على أولها. فحسب البدايات تكون النهايات. والقرآن الكريم يهدي العقول إلى استعمال ما فطرت على استعماله. وسلوك ما تألفه وتعرفه بحسب طبعها. وهو ترتيب المعلومات لاستنتاج المجهولات. والذي فطرت العقول عليه هو. أن تستعمل مقدمات حقيقية يقينية لاستنتاج المعلومات التصديقية الواقعية. وهو البرهان. إننا إذا وضعنا أيدينا على الحقيقة الأولى عند المقدمة. ظهر لنا سلوك الحقيقة عند الخاتمة. وعلى السلوك نعرف الزائف والمزخرف الذي تاجر بالحقيقة ولم يسلك سلوكها. ويتم استبعاده. وإذا كان قد قيل: بأن العاقل هو الذي يضع الشيء في موضعه. فإن القرآن الكريم اشترط التقوى في التفكير والتذكر والتعقل. وقارن العلم العمل للحصول على استقامة الفكر وإصابة العلم وخلوصه من شوائب الأوهام الحيوانية والإلقاءات الشيطانية، ونحن في بحثنا هذا لا ندعي كمال البحث ولا ندعي أننا حسمنا موقفاً. إن الذي أقدمنا عليه هنا. يخضع في المقام الأول. للبحث العلمي المجرد الذي يتناول الأفكار والمبادئ. ولا شأن له بالمناسبات التي صدر فيها هذا الحكم أو ذاك، نحن هنا نقوم بالقراءة المنصتة للمصادر. قراءة نقدية متفحصة تقييمية تعتمد على الطريقة السردية التي تقوم على القرآن والحديث والرواية التاريخية. وتمنح القراء خيطاً يقودهم إلى البحث عن الحقيقة. ونحن وراء قراءتنا هذه مصممون على تقديم تاريخ يجتمع فيه جميع الخيوط السياسية ودينية واجتماعية واقتصادية. وبناءً على

هذا فإن البحث عن الرجل الذي قدر له أن يقود الأمة بعد الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم. يجعلنا في البداية أن نجمع مواد البناء أولاً، على أن تكون مواد البناء لا خلاف على صحتها عند أهل القبلة. والتقاط مواد البناء هذه من وسط ركام طويل عريض مارس أصحابه سياسات التعقيم والتشهير والقتل. ليس بالأمر السهل. ورغم صعوبته إلا أن اليسر في خاتمته. وذلك أن مواد البناء لن تكون في حاجة إلى الخطوة التالية التي هي عملية البناء. لأن المواد في حد ذاتها بناء. ولتكن البداية من عند ولاية الله.

٢ - ولاية الله عز وجل:

لقد أقام الله تعالى حجته على الخلق في عالم الغيب بميثاق الفطرة المغروس في داخل الكيان الإنساني بأنه تعالى رب كل شئ. وأقام حجته في عالم الاحساس الإنساني بأن زود الإنسان بما يهديه إلى طريق التقوى ويتعد به عن طريق الفجور. وزوده في عالم المشاهدة المنظور بما يقربه إليه حيث الوجود كله من حوله يهتف بأنه لا إله إلا الله. وفي النهاية جعله مختاراً. له أن يختار أي طريق يسلك. وعلى سلوكه سيترتب الثواب والعقاب يوم القيامة. فالفائز هو فقط من احترم المخزون الفطري وما زوده الله به واتبع الهدى الذي جاء به الأنبياء والرسل عليهم السلام، فهذا الهدى الذي جاء به الأنبياء يرشده ويسوقه إلى الصراط المستقيم الذي يتفنن الشيطان في كل عصر ومكان في وضع العراقيل عليه. فالهدى يتعامل مع كل حالة وفقاً للزمان والمكان. ولهذا تتابع الرسل عليهم السلام في كل زمان ومكان من أجل أن يسدوا منافذ الشيطان الذي أمهله الله حتى يوم الوقت المعلوم. ومن أجل هذا تحتم على من أراد الفوز بالنجاة والثواب أن يقف تحت ولاية الله ورسوله. لأنها الولاية الوحيدة التي في ظاهرها وباطنها الرحمة وتقود من استظل بها إلى ساحة القرب يوم القيامة، ومن فضله سبحانه على خلقه أنه حذر من اتخاذ الشيطان ولياً. ونهى عن مودة اليهود والنصارى - يعني نهى المحبة والاتحاد معهم - لأن هذا الطريق بكل ما عليه من رموز يصب في النهاية في ساحة الخاسرين.

والقرآن الكريم أخبر بولاية الله وأن الأمر كله إليه سبحانه في أكثر من موضع منه قوله تعالى: (أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير * وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب * فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذروكم فيه ليس كمثلته شيء وهو السميع البصير) (١)، قال المفسرون: إنه تعالى ولي تنحصر فيه الولاية. فمن الواجب على من يتخذه وليا. أن لا يتعداه إلى غيره. إذ لا ولي غيره. وقوله: (وهو يحيي ويميت) حجة على وجوب اتخاذه تعالى وحده وليا. لأن الغرض من اتخاذ الولي والتدين له. هو التخلص من عذاب السعير والفوز بالجنة يوم القيامة. ولما كان ذلك كذلك فإن المشيب والمعاقب يوم القيامة هو الله. فهو وحده الذي يحيي الموتى فيجمعهم فيجازيهم بأعمالهم. وعلى هذا فهو الذي يجب أن يتخذ وليا. وأن لا يلتفت الناس إلى أولياء من دونه لأنهم أموات غير أحياء ولا يشعرون أيا يبعثون.

وقوله تعالى: (وهو على كل شيء قدير) حجة أخرى، على وجوب اتخاذه تعالى وليا دون غيره، لأنه من الواجب في باب الولاية. أن يكون للولي قدرة على ما يتولاه من شؤون من يتولاه وأموره. والله تعالى على كل شيء قدير ولا قدرة لغيره إلا مقدار ما أقدره الله عليه. فهو المالك والقادر على ما ملكه وأقدره عليه. فهو سبحانه الولي لا ولي غيره تعالى، وقوله سبحانه: (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله)، حجة أخرى على كونه تعالى وليا لا ولي غيره، فالاختلاف ربما كان في عقيدة في أن الإله واحد أو كثير، أو كان في نبوة أو إمامة. وربما كان في عمل أو ما يرجع إليه كالاختلاف في أمور المعيشة. أمور المعيشة. فاختلافات الناس في عقائدهم وأعمالهم اختلاف تشريعي لا يرفعه إلا الأحكام والقوانين التشريعية ولولا الاختلاف لم يوجد قانون.

(١) سورة الشورى: الآية ٩ - ١١.

والله تعالى هو المالك لكل شيء. لا مالك سواه. فكل شيء بوجوده وآثار وجوده قائما به تعالى. فله سبحانه الحكم والقضاء بالحق قال تعالى: (كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون) (١)، وقال (والله يحكم ما يريد) (٢)، فالولي الذي يعبد يجب أن يكون رافعا لاختلافات من يتولونه، مصلحا لما فسد من شؤون مجتمعهم، سائقا لهم إلى سعادة الحياة الدائمة بما يضعه عليهم من الحكم وهو الدين. والحكم في ذلك كله إلى الله عز وجل. فهو الولي الذي يجب أن يتخذ وليا لا غير.

وبعد أن أقام الله الحجج في الآية أمر النبي أن يقول لهم: (ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب) إعلاما لهم بأنه تعالى هو الولي معترفا له بالربوبية التي هي ملك التدبير راجع إلى حكمه في كل واقعة تستقبل الإنسان في مسير حياته ففي هذا كله تكمن الإنابة وتظهر (عليه توكلت وإليه أنيب أنيب) أي أرجع في جميع أموري إليه. تكويننا وتشريعنا. (فاطر السماوات والأرض. جعل لكم من أنفسكم أزواجا...)، أي أنه تعالى موجب الأشياء وفاطرها من كتم العدم إلى الوجود. وقد جعلكم أزواجا فكثركم بذلك وجعل من الأنعام أزواجا فكثرها بذلك لتتفعوا بها. وهذا خلق وتدبير. وهو سميع لما يسأله خلقه من الحوائج، وبصير لما يعمل به خلقه من الأعمال. وهو الذي يملك مفاتيح خزائن السماوات والأرض! وهو الذي يرزق المرزوقين فيوسع في رزقهم ويضيق ممن علم منه بذلك. وهذا كله من التدبير. فهو الرب المدبر للأمور ليس مثله شيء. إن الله هو الولي. (ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون) (٣)، إن الله هو الولي: (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) (٤)، إن الله هو الولي: (وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي

(١) سورة القصص: الآية ٨٨.

(٢) سورة المائدة: الآية ١.

(٣) سورة السجدة: الآية ٤.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٧.

المتقين) (١)، (ومن يضل فلن تجد له وليا مرشدا) (٢)، إنه سبحانه مصدر جميع السلطات وإليه تنتهي جميع القرارات. وهو مصدر الخلق والتكوين وواهب الحياة ومقوماتها فكما أن له سبحانه الخلق والإبداع، كذلك له الأمر والنهي.

٣ - ولاية رسول الله صلى الله عليه وسلم:

لقد شرع الله ولاية رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل ولاية الرسول على المؤمنين شرط في الإيمان بالله. قال تعالى: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) (٣)، فالإخلاص لله في دينه خطواته الأولى لا تكون إلا بحبه تعالى. ومن أراد أن يخلص في عبوديته على الحب فعليه أن يتبع هذه الشريعة التي هي مبنية على الحب، ولا حب حقيقي إلا في اتباع سبيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالأخذ عنه والتأسي به. فمقدمة ولاية الرسول هي الحب الذي هو في الحقيقة الوسيلة الوحيدة لارتباط كل طالب بمطلوبه وكل مرید بمراده. فالواجب على من يدعي ولاية الله بحبه. أن يتبع الرسول حتى ينتهي ذلك إلى ولاية الله له بحبه. والآية ذكرت حب الله دون ولايته. لأنه الأساس الذي تبني عليه الولاية. وإنما ذكر حب الله تعالى فحسب لأن ولاية النبي والمؤمنين تؤول بالحقيقة إلى ولاية الله.

وباب الحب هنا إعجاز بغلق الباب أمام المتاجرين في دوائر الرجس والبخس ويشرهم بالعذاب الأليم إذ لم تخضع قلوبهم وتخضع وولاية الرسول صلى الله عليه وسلم إذا كان خيطها الأول يبدأ من القلوب. فإن هذا الخيط يمر في عالم المشاهدة حيث العلم وبيان المعارف الإلهية التي أنزلها الله للناس. لتدخل الولاية من باب الحجة. قال تعالى: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما

(١) سورة الجاثية: الآية ١٩.

(٢) سورة الكهف: الآية ١٧.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٣١.

نزل إليهم ولعلمهم يتفكرون) (١)، قال المفسرون: إن القصد بنزول هذا الذكر إلى عامة البشر. وإنك والناس في سواء. ولقد اخترناك من بين الناس لتوجيه الخطاب وإلقاء القول. ولا نحمالك بهذا قدرة غيبية أو إرادة تكوينية إلهية. بل لأمرين:

أحدهما: أن تبين للناس ما نزل تدريجيا إليهم. لأن المعارف الإلهية لا ينالها الناس بلا واسطة فلا بد من بعث واحد منهم للتبيين والتعليم. وهذا هو غرض الرسالة. ينزل الوحي فيحمله الرسول. ثم يؤمر بتبليغه وتعليمه وتبيينه. والثاني: رجاء أن يتفكروا فيك فيتبصروا إن ما جئت به حق من عند الله. فالأوضاع المحيطة بك والحوادث والأحوال الواردة عليك على مدى حياتك من اليتيم وخمود الذكر والحرمان من التعلم والكتابة، وغير ذلك كانت جميعا أسباب قاطعة أن لا تذوق من عين الكمال قطرة. لكن الله أنزل إليك ذكرا تتحدى به على الجن والإنس. مهيمنا على سائر الكتب السماوية. والتفكر فيك نعم الدليل الهادي. على أنه ليس لك فيما جئت به صنع، ولا لك من الأمر شيء. وإن الله أنزله بعلمه وأيدك لذلك بقدرته.

فالرسول الله صلى الله عليه وسلم له الولاية في أن يبين للناس ويربي الأمة ويحكم فيهم ويقضي في أمرهم. لأن الله الذي أنزل الكتاب. علمه أحكامه وشرائعه. والرسول بهذه الولاية يث الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة لتكتمل البشرية ويستقيم حالهم في دنياهم وأخراهم. فيعيشون سعداء ويموتون سعداء. ولأنه صلى الله عليه وسلم كذلك أوجب الله الأخذ عنه والتأسي به وفرض طاعته طاعة مطلقة. لأن طاعته طاعة لله. قال تعالى: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) (٢)، ومن اتخذ الرسول مولى له. له يصل إلى الكمال في الحب والطاعة إلا إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم أحب إليه من نفسه قال تعالى: (النبى أولى بالمؤمنين من

(١) سورة النحل: الآية ٤٤.

(٢) سورة النساء: الآية ٥٩.

أنفسهم) (١)، روى البخاري عن أبي هريرة. قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة اقرءوا إن شئتم " النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم " (٢)، وقال المفسرون: إنه أولى بهم منهم. ومعنى الأولوية. هو رجحان الجانب إذا دار الأمر بينه وبين ما هو أدنى منه. فالمحصل: إن ما يراه المؤمن لنفسه من الحفظ والمحبة والكرامة واستجابة الدعوة. فالنبي أولى بذلك من نفسه. ولو دار الأمر بين النبي وبين نفسه في شئ من ذلك. كان جانب النبي أرجح من جانب نفسه. وعلى هذا فإذا توجه شئ من المخاطر إلى نفس النبي. فليلقه المؤمن بنفسه ويفده نفسه. وليكن النبي أحب إليه من نفسه. وأكرم عنده من نفسه. ولو دعت نفسه إلى شئ والنبي إلى خلافه. أو أرادت نفسه منه شيئاً وأراد النبي خلافه. كان المتعين استجابة النبي صلى الله عليه وسلم وطاعته وتقديمه على نفسه.

فمن قدم نفسه على النبي فهو في الحقيقة غير مؤمن حتى يقدم النبي على نفسه ويحسب إيمانه فقط من وقت تأخره وتقدم النبي. وعمر بن الخطاب رضي الله عنه خاض هذه التجربة. فيما رواه البخاري عن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر. فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شئ إلا من نفسي. فقال النبي: لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك. فقال عمر: فإنه الآن لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي: " الآن يا عمر " (٣)، فتقديم النبي على النفس والولد والوالد والقبيلة والحزب وأي مصلحة هو مفتاح الإيمان الحقيقي. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين " (٤)، ولأن النبي جعل نفسه هي نفس علي ابن أبي طالب رضي عنه في قوله تعالى: (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا

(١) سورة الأحزاب: الآية ٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٤٦٨ / ٤.

(٣) البخاري ك الإيمان والنذور (الصحيح ١٤٩ / ٤) وتفسير ابن كثير ٤٦٧ / ٤.

(٤) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه عن أنس (كنز العمال ٣٧ / ١).

ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) (١)، روي عن جابر قال: "أنفسنا وأنفسكم" رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب (٢) تقديم خط دائرة الطهر أي أصحاب الكساء والمباهلة الذين فرض الله مودتهم والصلاة عليهم وجعل لهم سهما مع سهمه وسهم رسوله في مال الله، فتقديم هؤلاء، هو في حقيقة الأمر تقديم للرسول. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهلي أحب إليه من أهله. وعترتي أحب إليه من عترته وذريتي أحب إليه من ذريته" (٣).

وولاية الله ورسوله. إذا كانت في أعمال المؤمنين. لا يحق للمؤمنين أن يعتبروا أنفسهم أصحاب الاختيار. وكيف يكون المؤمن صاحب اختيار في دائرة وليها الله ورسوله. إن الله ولي عبده المؤمن. لأنه يلي أمره ويدبر شأنه. فيهديه إلى صراطه المستقيم. ويأمره وينهاه فيما ينبغي له أو لا ينبغي. وينصره في الحياة الدنيا وفي الآخرة. المؤمن في دائرة ولاية الله ورسوله. لا يرى لغير الله استقلالاً في التأثير. ويقصر الملك والحكم فيه تعالى. فلا يخاف إلا إياه أو ما يحب الله ويريد أن يحذر منه أو يحزن عليه... قال تعالى: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعصي الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً) (٤).

والخلاصة: ذكر سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم من الولاية التي تخصه الولاية التشريعية. وهي القيام بالتشريع والدعوة وتربية الأمة والحكم فيهم والقضاء في أمرهم، قال تعالى: (إننا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) (٥)، وقال تعالى: (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) (٦)،

(١) سورة آل عمران: الآية ٦١.

(٢) تفسير ابن كثير ٣٧١ / ١.

(٣) رواه الطبراني والبيهقي عن عبد الرحمن بن أبي يعلى عن أبيه (كنز ٤١ / ١).

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

(٥) سورة النساء: الآية ١٠٥.

(٦) سورة الشورى: الآية ٥٢.

وللنبي صلى الله عليه وسلم الولاية على الأمة في سوقهم إلى الله والحكم فيهم والقضاء عليهم في جميع شؤونهم وله عليهم الإطاعة المطلقة. فترجع ولايته إلى ولاية الله سبحانه بالولاية التشريعية. ونعني بذلك أن له صلى الله عليه وسلم التقدم عليهم. بافتراض الطاعة. لأن طاعته طاعة لله. فولايته ولاية لله كما يدل عليه بعض الآيات السابقة كقوله... (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول)، الآية. وقوله: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً) الآية. وهذا المعنى من الولاية لله ورسوله هو الذي تذكره الآية للذين آمنوا بعطفه على الله ورسوله في قوله تعالى: (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) (١)، فالولاية في هذه الآية واحدة. هي لله سبحانه بالأصالة. ولرسوله صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا بالتبع وبإذن منه تعالى.

ولما كان الذين آمنوا لهم الولاية بالتبع لرسول الله وبإذن من الله. فإن للذين آمنوا الذين يحملون الولاية شروط أهمها أن يكون فيه نص إن الرجس لا يعرف له طريقاً وإن الطهارة له رداء إلا أنه سيتعامل مع كتاب الله الذي لا يمسه إلا المطهرون والذي يكون فيه نصوص بأنه على علم بأحكام القرآن وشرائعه. ولأنه بعلمه سيرفع الاختلاف بين الناس. وأن يكون هذا العلم قد أخذ من رسول الله، فعن علي بن أبي طالب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أولى الناس بالأنبياء أعلمهم بما جاؤوا به. ثم تلى قوله تعالى: (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي) (٢)، وقال صلى الله عليه وسلم: "إن للقرآن منارا كمنار الطريق فما عرفتم فخذوه وما أنكرتم فردوه إلى عالمه" (٣)، وأن تكون فيه نصوص تثبت بأن يتمتع بقوة العفة والشجاعة والحكمة. لأن من يمتلك هذا تكون لديه ملكة العدالة.

(١) سورة المائدة: الآية ٥٥.

(٢) اللالكائي (كنز العمال ٣٧٩ / ١).

(٣) رواه الطبراني (مجمع الزوائد ١٨٧ / ١).

ومن أهم الشروط أيضا أن تكون حرمة جزءا لا يتجزء من الدعوة. بمعنى أن أخطر أعداء الدعوة هم المنافقون. فيجب أن يكون على علم بحركتهم. ولا يتحقق هذا العلم إلا بنص قاطع بأنه لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق. فالإخبار بأن المنافق يبغضه فيه أن النص من عند الله العليم بذات الصدور. وفيه أن سياسته تحت ضوئها ستظهر جحافل النفاق. فإذا قطع الطريق على سياسته فحدث ولا حرج. لأن النفاق عاجلا أو آجلا سيشق طريقه إلى سنن الأولين. فيأخذ بذيلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع. فالإخبار بأن حبه رداء على المؤمن حجة على المنافق في نهاية الطريق. وإن عذاب الله أليم شديد.

باختصار يجب أن تكون فيه نصوص صريحة صحيحة متفق عليها عند أهل القبلة. تبين أن الله اختاره في مواطن وأن الرسول أعطاه الولاية. وأن تكون حركته تسير مع أخبار الرسول بالغيب عن ربه سيرا واحدا. بمعنى أن الرسول قد أخبر بأن أمته ستفترق وأنها ستتبع سنن اليهود والنصارى شبرا بشبر وذراعا بذراع. وأمة اليهود وضعت أول بذور الافتراق يوم اتخذوا العجل وكادوا أن يقتلوا نبي الله هارون. وظل خط العجل يعمل من بعد موسى وهارون عليهما السلام. فإذا كان هذا الشذوذ سينتقل إلى الأمة بصورة أو بأخرى. فلا بد أن تكون هناك نصوص قاطعة. بأن حركة ولي رسول الله في أول الطريق هي نفسها حركة هارون في أول الطريق. وعلى هذا يتم التطابق بين أمم استخلفها الله لينظر كيف يعملون. يتم التطابق بين فعل ولي الله وهارون وبين حركة أمة فتية أخبر رسولها بالغيب عن ربه أنها على أثر الماضين سائرة إلا من رحم الله. وعلى هذا النص إذا وقفنا في آخر الطريق. ونظرنا إلى أول الطريق. سنعلم أن النص حق وسرى شعاع النور رغم السحب الداكنة.

٤ - ولاية علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

هذا العنوان وضعته عندما لم أجد أحدا غير علي بن أبي طالب ينطبق عليه ما ذكرت سابقا. فعلي رضي الله عنه فيه نصوص قاطعة. قرآن يفسره حديث. وحديث يشهد للحديث الذي فسر القرآن. وحركة تاريخ تشهد للحديث وللنص

القرآني. وأمام القرآن والحديث والتاريخ والواقع لم يجد الباحث إلا أن يكتب هذه الحقيقة. وما وجدناه من نصوص سنقدمه على امتداد هذا البحث. كل في موضعه.

أولا - علي بن أبي طالب والعلم:
قدمنا فيما مضى كيف أنه من أهل الكساء. ومن الذين باهل بهم النبي صلى الله عليه وسلم نصارى نجران وأنه كنفس النبي وأول من أسلم وأول من صلى معه صلى الله عليه وسلم. أما ما ورد في علمه فإن البداية عندنا من قوله تعالى: (إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية * لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) (١)، فهذه الآية إشارة إلى طوفان نوح. والجارية هي السفينة. والمحمول في الحقيقة أسلاف الدين في السفينة. لكون الجميع نوعا واحدا ينسب حال البعض منه إلى الكل. وضمير (لنجعلها) للحمل باعتبار أنه فعله. والمعنى: أي فعلنا بكم تلك الفعلة لنجعلها لكم أمرا تتذكرون به. وعبرة تعتبرون بها وموعظة تتعظون بها: وقوله تعالى: (وتعيها أذن واعية) المراد بوعي الأذن لها. تقريرها في النفس وحفظها فيها. لتترتب عليها فائدتها وهي التذكر والاتعاظ. وفي الآية إشارة إلى الهداية الربوبية.

وروى الضياء بسند صحيح وابن مردويه وأبو نعيم عن علي بن أبي طالب (٢)، وفي الدر المنثور أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مكحول قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سألت ربي أن يجعلها أذن علي. قال مكحول: فكان علي يقول: ما سمعت عن رسول الله شيئا فنسيته (٣).

وانظروا الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والواحدي وابن مردويه وابن عساكر وابن النجار عن بردة قال: قال رسول الله صلى الله عليه

(١) سورة الحاقة: الآية ١٢.

(٢) (كنز العمال ١٧٧ / ١٣).

(٣) تفسير ابن كثير ٤١٣ / ٤.

وسلم لعلّي: إن الله أمرني أن أدنيك ولا أقصيك وأن أعلمك. وأن تعي وحق لك أن تعي. فنزلت هذه الآية: (وتعيها إذن واعية).

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن علي. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. يا علي. إن الله أمرني أن أدنيك وأعلمك لتعي. فأنزلت هذه الآية: (وتعيها إذن واعية) فأنت إذن واعية لعلمي.

وهذا الحديث روي من عدة طرق. بلغت ستة عشر حديثا. فإذا كانت البداية مع آية تدل على أن ما سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم لا ينساه. فإن دخوله على النبي لأخذ العلم أمر لا جدال فيه، روى الإمام النسائي عن علي بن أبي طالب. قال: كان لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة آتية فيها، فإذا أتيته استأذنت إن وجدته يصلي فتتحنج دخلت. وإن وجدته فارغا أذن لي... وفي رواية - كان لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم مدخلان مدخل بالليل ومدخل بالنهار (١).

وعلي رضي الله عنه، تربى في بيت النبوة. فالذي سهر على تربيته هو النبي صلى الله عليه وسلم. وأصح ما ورد من الأخبار. إن النبي أخذ عليا من أبيه وهو صغير. وأخذ العباس طالبا. لينخفا عن أبي طالب ثقلهم. ومن بيت النبوة شق علي بن أبي طالب طريق العلم حتى قيل فيه في رواية صحيحة "أفضلنا علي" (٢)، وشهد أكثر من واحد أن عليا كان أدرى الناس بعد رسول الله بالقرآن. عن أبي الطفيل قال: قال علي: "سلوني عن كتاب الله فإنه ليس فيه آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم بنهار في سهل أم في جبل" (٣)، وعن سليمان الأحمسي.

(١) النسائي باب السهو ٢ / ١٢.

(٢) قال في كشف الخفاء رواه البخاري في التفسير وأبو نعيم عن ابن عباس. والحاكم عن ابن مسعود: ورواه البغوي في شرح السنة عن أنس، ورواه عبد الله بن أحمد بن حنبل عن ابن عباس وعبد الرزاق عن قتادة، وروى البخاري، وأبو نعيم عن عباس قال عمر: علي أقضانا (كشف الخفاء ١٨٤ / ١).

(٣) الطبقات الكبرى ٣٣٨ / ٢.

قال علي: "إن ربي وهب لي قلبا عقولا ولسانا صادقا" (١)، وفي رواية: "والله ما تركت آية إلا وقد علمت فيم نزلت وأين نزلت وعلى من نزلت إن ربي وهب لي قلبا عقولا ولسانا صادقا" (٢)، وفي خلافته كان رضي الله عنه يقول: "اسألوني قبل أن تفقدوني" (٣). قال ابن أبي الحديد في شرح النهج: قد أجمع الناس كلهم أنه لم يقل أحد من الصحابة ولا أحد من العلماء هذا غير علي بن أبي طالب عليه السلام.

وشهادة النبي لعلي بأنه أكثر أئمة علما وردت في أحاديث كثيرة ومنها حديث "أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأت الباب"، الذي رواه ابن عدي عن ابن عباس وابن عساكر عن جابر، والذي تعددت طرقه، فإن القوم ضعفوه ولهم أسبابهم في تضعيف الأحاديث الواردة في علي بن أبي طالب، وكذلك حديث "أنا دار الحكمة وعلي بابها" الذي رواه الترمذي عن علي ورواه بعضهم عن ابن عباس. فلقد قالوا فيه ما قالوا (٤). ونحن هنا نقدم حديثا لا خلاف عليه يشهد لعلي بالعلم والحلم وهذا الحديث.

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: وجدت في كتاب أبي بخط يده هذا الحديث: عن معقل بن يسار. قال النبي صلى الله عليه وسلم لفاطمة رضي الله عنها: "أوما ترضين أني زوجتك أقدم أمتي سلما وأكثرهم علما وأعظمهم حلما" (٥)، فهذا الحديث أثبت سبقه إلى الإسلام. وأثبت له العلم والحلم. وكفى بهما لإثبات ملكة العدالة.

(١) الطبقات الكبرى ٣٣٨ / ٢.

(٢) تاريخ الخلفاء، السيوطي ١٧٣.

(٣) راجع ابن كثير في البداية والنهاية ٣٥٨ / ٧.

(٤) الحاكم (المستدرک ٤٦٦ / ٢)، ابن حجر في الإصابة (٥٠٩ / ٢)، فالسيوطي في تاريخ

الخلفاء ص ١٢٤.

(٥) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الفتح الرباني ١٣٣ / ٢٣) (مجمع الزوائد

١٠١ / ٩) ورواه ابن جرير عن علي بسند صحيح (١١٤ / ١٣ كنز العمال)، ورواه

الخطيب في المتفق عن بريدة (كنز العمال ١٣٥ / ١٣).

ثانيا - أضواء على اختيار الله لـعلي:
لقد كان للصحابة مناقب، ولكن مناقب علي بن أبي طالب فاقت جميع المناقب. لأن طرفها الآخر كان الله ورسوله. وكان وراء المناقب هدف من وراءه حكمة سنتركها لفطنة القارئ.

روى الطبراني عن جابر. لما سأل أهل قباء النبي صلى الله عليه وسلم أن يني لهم مسجدا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ليقم بعضكم فيركب فحركها فلم تنبعث. فرجع فقعده. فقام علي. فلما وضع رجله في غرز الركاب وثبت به. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا علي ارخ زمامها وأبنوا على مدارها فإنها مأمورة (١).

والذي نشير إليه في هذا الحديث أن الناقة مأمورة. وأن الذي أمرها هو خالقها. وعن زيد بن أرقم قال: كان لنفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أبواب شارعة في المسجد. فقال يوما: سدوا هذه الأبواب إلا باب علي. فتكلم في ذلك الناس. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإنني أمرت بسد هذه الأبواب إلا باب علي. وقال فيه قائلكم وأناي والله ما سددت شيئا ولا فتحته. ولكني أمرت بشئ فاتبعته (٢). وفي رواية عن ابن عباس قال صلى الله عليه وسلم: " ما أخرجتكم من قبل نفسي. ولا أنا تركته. ولكن الله أخرجكم وتركه إنما أنا عبد مأمور. ما أمرت به فعلت. إن اتبع إلا ما يوحى إلي " (٣).

(١) رواه الطبراني في الكبير (كنز العمال ١٣٩ / ١٣).

(٢) رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ١١٨ / ٢٣)، وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ١١٤ / ٩) ورواه الضياء في المختارة بسند صحيح (كنز العمال ٥٩٨ / ١١) ورواه الحاكم وأقره الذهبي (المستدرک ١٢٥ / ٣).

(٣) رواه الطبراني (كنز العمال ٦٠٠ / ١١).

وهذا الحديث رواه تسعة من الصحابة (١)، ورغم صحته حكم عليه ابن الجوزي بأنه لا يصح لأنه يعارض حديث ورد في أبي بكر. ولقد تصدى غير واحد من الأئمة لابن الجوزي لتساهله والحكم على الأحاديث الصحيحة بالوضع. وقال ابن كثير: هذا الحديث لا ينافي ما ثبت في البخاري في حق أبو بكر (٢).

والذي نحب أن نشير إليه في هذا الحديث إن الله هو الذي سعى وهو الذي فتح، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان قوم عند النبي. فجاء علي. فلما دخل علي بن أبي طالب خرجوا. فلما خرجوا تلاوموا، فقال بعضهم لبعض: والله ما أخرجنا فارجعوا. فلما رجعوا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "والله ما أدخلته وأخرجتكم ولكن الله أدخله وأخرجكم" (٣).

في هذا الحديث. الله هو الذي أخرج وأدخل. وعن جابر قال: دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا يوم الطائف، فانتجاه. فقال الناس: لقد طالت نجواه مع ابن عمه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما انتجيته ولكن الله انتجاه" (٤)،

قال في تحفة الأحوازي: ناجاه سارة وخصه بمناجاته. وقوله: "ما انتجيته" أي ما خصصته بالنجوى. ولكن الله انتجاه: أي. إني بلغت عن الله ما أمرني أن أبلغه إياه. على سبيل النجوى. فحينئذ انتجاه الله ولا انتجيته، وقال الطيبي: كان ذلك أسرار إلهية وأمور غيبية جعله من

-
- (١) نظم المتواتر في الحديث المتواتر / الكتاني ص ١٩٢.
(٢) قال في تحفة الأحوازي. حكم ابن الجوزي على هذا الحديث بالوضع. لأنه يعارض حديث أن النبي أمر بسد الأبواب إلا باب أبي بكر. ورد ابن حجر عليه وقال: لحديث علي طرق كثيرة بلغت بعضها حد الصحة وبعضها مرتبة الحسن (التحفة ٢٣٧ / ١٠). وعاب على ابن الجوزي لتساهله في وصف بعض الأحاديث بالوضع الشيخ ابن الصلاح وقال: لا يعاب بما قاله ابن الجوزي. كما عقب عليه الحافظ السيوطي بكتاب أسماه النكت البديعات في الرد علي الموضوعات. (البداية والنهاية ٣٤٢ / ٧).
(٣) رواه البزار وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ١١٥ / ٩).
(٤) رواه الترمذي وحسنه (الجامع ٦٣٩ / ٥) وأورده ابن كثير في البداية (البداية ٣٥٧ / ٧).

خزانها (١)، وفي رواية عند الطبراني أن الذي قال: طالت نجواه مع ابن عمه. أبو بكر رضي الله عنه. فعن جندب بن ناجية. قال أبو بكر: يا رسول الله. قد طالت مناجاتك عليا منذ اليوم. فقال رسول الله: ما انتجيته ولكن الله انتجاه " (٢).

وفي هذا الحديث أيضا الله هو الذي انتجاه، وعن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر: لأعطين هذه الراية رجلا يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه. قال عمر بن الخطاب ما أحببت الإمارة إلا يومئذ. قال: فتساورت لها رجاء أن أدعى لها. فدعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم وقف ولم يلتفت. فصرخ. يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ قال: قاتلهم حتى يشهدوا لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. فإن فعلوا ذلك. فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم لا يحقها على الله (٣). وروى ابن جرير بسند صحيح والضياء عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن علي. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر فसार بالناس فانهزم حتى رجع إليه. وبعث عمر فانهزم بالناس حتى رجع إليه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله

يفتح الله له ليس بفرار الحديث (٤)، وروى ابن كثير في البداية: " بعث النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر فلم يكن فتح. ثم بعث عمر فلم يكن فتح... الحديث "، وقال رواه ابن إسحاق والبيهقي (٥)، ومن بعض الروايات يستفاد أنه بعد هزيمة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. وعندما سمع قول الرسول

(١) تحفة الأحوازي (٢٣١ / ١).

(٢) رواه الطبراني (كنز العمال ١٣٩ / ١٣).

(٣) رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ١٣٢ / ٢٣) ورواه الإمام مسلم بلفظ " رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله (الصحيح ١٧٦ / ١٥)، ورواه الترمذي مختصرا عن سعد وحسنه (تحفة الأحوازي ٢٢٩ / ١٠).

(٤) ابن جرير والضياء بسند صحيح ورواه ابن أبي شيبة وأحمد وابن ماجه والبخاري والطبراني في الأوسط والحاكم والبيهقي في الدلائل (كنز العمال ١١٢ / ٣) (البداية والنهاية ٣٣٧ / ٧).

(٥) البداية والنهاية ١٨٦ / ٤.

صلى الله عليه وسلم بعد ذلك: " لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله "، أراد أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أن ينال كل واحد منهما هذه المرتبة، وهذا أمر طبيعي فالجميع يريدون إرضاء ربهم ونيل رضاه، ولكن الرسول أعطاها لعلي. ورغم هذا فإن فضل الذين لم يأخذوا الراية لا يستطيع أن ينكره أحد.

ومن الروايات التي تثبت أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما قد كررا المحاولة لأخذ الراية ما ثبت في إصحاح كما ذكر ابن كثير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر: " لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله بفرار يفتح الله على يديه "، فبات الناس يدركون أيهم يعطاها حتى قال عمر: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ. فلما أصبح أعطاها عليا ففتح الله على يديه (١). فهذه الرواية تثبت أن عمر قد أراد أن يقوم بالمحاولة مرة أخرى. بعد المحاولة الأولى التي وردت في الإصحاح عن بريدة بن الحصيب قال: حاصرنا خيبر. فأخذ اللواء أبو بكر فانصرف ولم يفتح له. ثم أخذه من الغد عمر فخرج ولم يفتح له. وأصاب الناس يومئذ شدة وجه فقل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " إني دافع اللواء غدا إلى رجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله. لا يرجع حتى يفتح له... " الحديث (٢).
فالحديث يبشر بأمرين:

الأول: إن الراية غدا سيأخذها رجل يحبه الله ورسوله. ولهذا ود كل فرد أن يكون هذا الرجل. حتى أنهم تسارعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ورد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ الراية فهزها. ثم قال: " من يأخذها بحقها. فجاء فلان!! فقال: أنا، فقال النبي: امض. ثم جاء رجل آخر! فقال: أنا. فقال: امض. ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: والذي كرم وجه محمد لأعطينها رجلا لا يقر. فجاء

(١) أخرجه مسلم (البداية والنهاية ٣٣٧ / ٧).

(٢) أخرجه أحمد والنسائي (البداية والنهاية ٣٣٨ / ٧).

علي فانطلق حتى فتح الله عليه (١).
والثاني: فإن الحديث بشر بالنصر وكان لهذا التبشير أثره على الصحابة،
فعن أبي بريدة بن الخطيب قال: فبتنا طيبة أنفسنا أن الفتح غدا (٢)، فالبشارة
الأولى والثانية كانت لهدف من ورائه حكمة وفيهما إعجاز حيث أخبر النبي بفتح
كان ما زال في عالم الغيب.

وعلى الرغم من أن الحديث الماضي يخبر صراحة أن الله تعالى يحب
عليا. إلا أن بعض علماء الحديث ضعف حديث الطير، فعن أنس قال: أهدى
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم طائر. فقال النبي: اللهم ائمني بأحب
الخلق إليك وإلي يأكل معي من هذا الطير. فدخل علي بن أبي طالب. فقال:
اللهم والي (٣). فهذا الحديث كما قال ابن كثير: صنف الناس فيه وله طرق
متعددة. ورواه عن أنس أكثر من ثلاثين نفسا. وقد جمع الناس في هذا الحديث
مصنفات منهم أبو بكر بن مردويه والحافظ أبو الطاهر محمد بن أحمد ورأيت فيه
مجلدا في جميع طرقه وألفاظه لابن جرير الطبري (٤)، فعلى الرغم من كل هذا
وضعه ابن الجوزي في الموضوعات ورفضه ابن كثير. لسبب واحد يكمن في
القلب ولا يستند على أي أساس علمي قال ابن كثير في هذا السبب: وبالجمل
ففي القلب من صحة هذا الحديث وإن كثرت طرقه (٥)، وفي هذا الحديث قال

(١) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ١٥١ / ٦)، وقال ابن كثير رواه أحمد وأبو
يعلى (البداية ٣٣٩ / ٧).

(٢) رواه أحمد (البداية ٢٣٨ / ٧).

(٣) رواه الترمذي وقال حديث غريب وقال: وقد روى من غير وجه عن أنس وعيسى بن
معمر والسدي إسماعيل بن عبد الرحمن وسمع عن أنس بن مالك، ورأى الحسين بن
علي. وثقه شعبة وسفيان الثوري وزائده ووثقه يحيى بن سعيد القطان (الجامع ٦٣٦ / ٥)
وقال الهيثمي رواه البزار والطبراني ورجال الطبراني رجال الصحيح غير فطر بن خليفة
وهو ثقة (الزوائد ١٢٦ / ٩) ورواه ابن عساكر عن ابن عباس وعن أنس بطرق مختلفة
ورواه ابن النجار (كنز العمال ١٦٧ / ١٣).

(٤) البداية والنهاية ٣٥١ / ٧.

(٥) البداية والنهاية ٣٥١ / ٧.

صاحب تحفة الأحوازي: الحديث له طرق كثيرة كلها ضعيفة. وقد ذكره ابن الجوزي في الموضوعات. وأما الحاكم فأخرجه في المستدرک وصححه، وحديث الطير له طرق كثيرة جدا أفردتها بمصنف ومجموعها يوجب أن يكون للحديث أهل (١).

ثالثا - أضواء على قيادة علي:

مما سبق علمنا أن اختيار الله تعالى لشخص علي بن أبي طالب قد حدث في أماكن عديدة على امتداد الرسالة المحمدية. ففي المسجد سد النبي جميع الأبواب إلا باب علي. وعند بناء قباء لم تسر الناقة إلا بعلي. وفي ميدان من ميدان الحرب ناجى رسول الله عليا. وفي منزل الرسول أخرج الله أناس وأدخل عليا. وفي خيبر أخذ الراية عليا. فهذه الأحداث تدل حركتها على أن هناك ضوءا محددا على شخص محدد وهذا الضوء يبتغي ثقافة محددة للناس. وعلى امتداد هذا الطريق كان هناك طريق آخر يسير بجانبه. هدفه أيضا الوصول إلى هذه بثقافة التي ينبغي في النهاية تكوين رأي عام. ومن أحاديث هذا الطريق. الحديث الصحيح عن علي قال: لما نزلت هذه الآية: (وأندر عشيرتك الأقربين) (٢)، جمع النبي عشيرته. فاجتمع ثلاثون. فأكلوا وشربوا. فقال لهم النبي: من يضمن عني ديني ومواعيدي ويكون معي في الجنة، ويكون خليفتي في أهلي. فقال رجل: يا رسول الله أنت كنت بحرا. من يقوم بهذا. فعرض الرسول هذا عليهم واحدا واحدا. فقال علي: أنا (٣)، وفي رواية: أيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ووارثي. فلم يبق إليه أحد فقامت إليه وكنت أصغر

(١) تحفة الأحوازي ١٢٤ / ١٠.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

(٣) رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ١٢٢ / ٢٣) وقال الهيثمي رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير حبة العرفي وقد وثقه. ورواه ابن جرير وصححه والضياء وصححه، ورواه الطحاوي (كنز العمال ١٢٩ / ١٣) وذكره ابن كثير في التفسير (٣٥٠ / ٣).

القوم (١)، وفي رواية: " قال النبي: من يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ووليكم من بعدي. فمددت وقلت: أنا أبايعك. وأنا يومئذ أصغر القوم. فبايعني على ذلك (٢)، وفي رواية عند ابن إسحاق وابن جرير وابن حاتم وابن مردويه وأبو نعيم أن النبي قال عندما بايعه علي: " إن هذا أخي ووصي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا فقام يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن نسمع ونطيع لعلي " (٣).

فالآية تصرح بإنذار العشيرة الأقربين. ولم تصرح بإنذار قريش. والعشيرة الأقربين إما بنو عبد المطلب أو بنو هاشم، وفي مجمع البيان " عشيرة الرجل. قرابته سموا بذلك لأنه يعاشرهم وهم يعاشره "، وخص عشيرته وقرابته الأقربين بالذكر. تنبيهها على أنه لا استثناء في الدعوة الدينية. ولا مهادنة ولا مساهلة. فلا فرق في تعلق الانذار بين النبي وأمته. ولا بين الأقارب والأجانب. فالجميع عبيد الله والله مولاهم.

وإنذار العشيرة الأقربين. كان هو المقدمة الأولى لإلقاء الضوء على علي بن أبي طالب - ضوء في مركز الدائرة التي قدر لها أن تتسع شيئاً فشيئاً. اتساع يواكب حركة الدعوة ويضع في اعتباره النفس القبائلية العشائرية التي ترفض فرض أي قيادة عليها وفقاً للتصور الجاهلي. وإذا كان علي بن أبي طالب قد أصبح بعد مبايعته الرسول رأس القوم رغم صغر سنه (٤). فإنه بنص آية أخرى ارتقى إلى مرتبة أعلى، قال تعالى لرسوله: (إنما أنت منذر ولكل قوم

(١) رواه أحمد وابن جرير والضياء بسند صحيح (كنز العمال ١٧٤ / ١٣) (الفتح الرباني وقال إسناده (٢٢٤ / ٢٠).

(٢) رواه أحمد وابن جرير والضياء بسند صحيح (كنز ١٧٥ / ١٣) وذكره ابن كثير في التفسير (٣٠٠ / ٣).

(٣) (كنز العمال ١٣٣ / ١٣) تفسير ابن كثير (٣٥٠ / ٣).

(٤) من العجيب أن هناك العديد يرفضون كون علياً رغم صغر سنه هو رأس القوم. في حين أن هؤلاء الرافضين يخضعون لفته يجيز ولاية الفاسق. بل وعلى امتداد التاريخ الإسلامي كانوا يبايعون لابن الخليفة وهو في بطن أمه.

هاد (١)، قال المفسرون: إنما أنا وأنت يا محمد هاد تهديهم من طريق الانذار. وقد جرت سنة الله في عباده أن يبعث في كل قوم هاديا يهديهم. والآية تدل على أن الأرض لا تخلو من هاد يهدي الناس إلى الحق. إما نبي منذر وإما هاد غيره يهدي بأمر الله. وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة والديلمي وابن عساكر وابن النجار. قال: لما نزلت: (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد)، وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره فقال: أنا المنذر. وأومأ بيده إلى منكب علي فقال: "أنت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي" (٢)، وروى الحاكم عن بريدة الأسلمي قال: "دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهور وعنده علي بن أبي طالب فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد علي بعدما تطهر. فألصقها بصدره ثم قال: "إنما أنت تنذر" ويعني نفسه. ثم ردها إلى صدر علي ثم قال: "ولكل قوم هاد" ثم قال له: أنت منار الأنام وغاية الهدى وأمير القراء وأشهد على ذلك إنك كذلك. وفي تفسير ابن كثير عن علي قال: "ولكل قوم هاد" الهادي رجل من بني هاشم. قال الجنيد: هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٣).

لقد كان الضوء يتسع شيئاً فشيئاً. اتسع بيوم المباهلة ويوم الكساء ويوم سد الأبواب إلا باب علي. ويوم إن دعا الكتاب إلى مودة ذو القربى وسهم ذي القربى. إلى غير ذلك. حتى جاء اليوم الذي وضع فيه حول علي منقبه من أعظم المناقب لأن عليها تدور الحركة الواسعة للدعوة الإسلامية. روى الإمام مسلم عن علي قال: "والذي فلق الحبة وبرأ النسمة أنه لعهد النبي الأمي إلي. أن لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق" (٤)، وعن أم سلمة قال: كان رسول الله

(١) سورة الرعد: الآية: الآية ٧.

(٢) راجع تفسير ابن كثير ٥٠٢ / ٢.

(٣) تفسير ابن كثير ٥٠٢ / ٢.

(٤) رواه مسلم ك الإيمان ب حب علي بن الإيمان (الصحيح ٦٤ / ٢)، وأحمد (الفتح الرباني ١٢٢ / ٢٣) وابن أبي شيبة والنسائي وابن ماجه وابن حبان وابن أبي عاصم (كنز العمال ٢٠ / ١٢) (كنز ٥٩٨ / ١١).

صلى الله عليه وسلم يقول: " لا يحب عليا منافق ولا يبغضه مؤمن " (١)، وعن أبي سعيد الخدري قال: " إنا كنا نعرف المنافقين نحن معشر الأنصار يبغضهم علي بن أبي طالب " (٢)، فهذه المنقبة هي عين المواجهة بين الدعوة وبين دائرة الرجس التي تسترت بجلباب الدين وما هي من الدين. وبدأت دائرة الضوء تتسع. حتى كان يوم تبوك. اليوم الذي عزم فيه التيار التخريبي لدائرة الرجس ودائرة البخس على اغتيال الرسول. وافتتاح المسجد الضرار. وفتح الأبواب لاستقبال الغزو الخارجي الذي تحمل أعلامه جيوش قيصر (٣). وما بين أيدينا من روايات. يؤكد أن المنافقين ما كانوا يريدون علي بن أبي طالب في المدينة. لقد استعملوا أسلوب الحرب النفسية ضد علي عندما علموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيخلفه على المدينة. ولكن النبي قطع عليهم حبل تفكيرهم ووضع حول علي منقبة ارتبطت بمنقبة لا يحب عليا منافق ولا يبغضه مؤمن برباط وثيق. قال له النبي كما وردت في صحيح مسلم " أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي " (٤)، وفي رواية عن ابن عباس: " أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنك لست مني أنه لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي " (٥)، وفي رواية: " إنه لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي في كل مؤمن بعدي " (٦). لقد أشاعوا أن النبي ترك عليا بين النساء والصبيان كما ورد في أحاديث

-
- (١) رواه الترمذي وحسنه (الجامع ٦٣٥ / ٥) ورواه أحمد (الفتح الرباني ١٢١ / ٢٣).
(٢) رواه الترمذي وقال حديث غريب (الجامع ٦٣٥ / ٥). ورواه الخطيب عن أبي ذر بلفظ.
ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله إلا بثلاث:
بتكذيبهم الله ورسوله. والتخلف عن الصلاة. وببغضهم علي بن أبي طالب (كنز العمال ١٠٦ / ١٣).
(٣) ذكرنا ذلك فيما سبق عند الحديث عن دائرة الرجس.
(٤) رواه مسلم (الصحيح ١٧٤ / ١٥).
(٥) رواه الإمام أحمد (الفتح ٢٠٤ / ٢١) والحاكم وأقره الذهبي (المستدرک ١٣٣ / ٣).
(٦) رواه ابن أبي عاصم وقال الألباني إسناده حسن ورجاله ثقات (كتاب السنة ٥٦٥ / ٢).

صحيحة وأشاعوا غير ذلك كما ورد في تاريخ الطبري، قال علي للنبي: " زعم المنافقون إنك إنما خلقتني إنك استثقلتني وتخففت مني "، فقال له النبي: كذبوا... أما ترضي يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي " (١). لقد كان عليا مقياسا لما يجري على طريق تبوك. به يظهر النفاق ويشع. ووجوده في المدينة في غياب الرسول صلى الله عليه وسلم يحدد الخنادق بدقة. فأى ثقافة تخرج من المسجد الضرار لا يرضى عنها علي فهي ثقافة نفاق. وأي حشد في اتجاه المدينة لا يرضى عنه علي فهو حشد نفاق. وأي معارض يعارض أمرا لعلي فهو في دائرة النفاق. كما ذكر أبو سعيد الخدري " كنا نعرف المنافقين نحن معشر الأنصار يبغضهم علي بن أبي طالب " (٢). " حديث المنزلة رواه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم. وقال ابن عساكر. وقد روى هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من الصحابة منهم عمر بن الخطاب وعلي وابن عباس وغيرهم. وقد تقصى ابن عساكر هذا الحديث في ترجمة علي في تاريخه فأجاد وأفاد وبرز مع النظراء والأشباه والأنداد (٣).

ولقد ناقش العديد من الأفاضل هذا الحديث على خلفية أن هارون (ع) مات قبل موسى (ع) وتركوا لفظ " منزلة " وهو الذي يدور عليه الحديث. ومنزلة هارون ينبغي أن تناقش في ضوء الآيات القرآنية وليس في ضوء التواريخ الإسرائيلية. فقد قال تعالى: (ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده) (٤)، فالآية تخبر أن موسى عليه السلام جاءهم بالبينات. واتخاذهم العجل من بعده، استمرارا لفعلمهم. فهم في الحقيقة اتخذوا العجل في حياة موسى. وهارون عليه السلام كان عليه شعاع من الضوء في حياة موسى عليه السلام.

(١) تاريخ الأمم والملوك ١٤٤ / ٣.

(٢) سبق التحريج.

(٣) البداية والنهاية ٣٤٢ / ٧.

(٤) سورة البقرة: الآية ٩٢.

فقبل ذهاب موسى لميقات ربه قال لأخبره كما أخبر تعالى: (قال موسى لأخيه هارون أخلفني في قومي وأصلح) (١)، فهارون عليه السلام نبي وخليفة (أخلفني في قومي) والشعاع الذي حول علي بن أبي طالب يطول منزلة الخلافة التي تقلدها هارون بنص الحديث الذي رواه الشيخان ولا يطول منزلة النبوة حيث لا نبوة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحاب المسجد الضرار في بني إسرائيل نصبوا العجل في دائرته. ولما حاول هارون الإصلاح استضعفوه. قال هارون عليه السلام كما أخبر تعالى: (إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني) (٢)، ولأن القاعدة الأساسية في دين الفطرة أنه لا إكراه في الدين، وأن الله غني عن العالمين. فإن هارون بعد أن أقام عليهم الحجة اعتزل هو ومن آمن معه. وبعد عودة موسى عليه السلام قال لأخيه كما أخبر تعالى: (قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا * ألا تتبعن أف عصيت أمري * قال يا بن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي) (٣)، لقد عمل هارون من أجل المحافظة على الرمز والشعار الإسلامي وكفى به في عالم المعابد الضرار.

أما موسى عليه السلام. فلقد كان له رأي فيهم بعد أن خرجوا عن خط الخلافة الذي حدده. قال لهم فيما أخبر الله: (قال بئسما خلقتُموني من بعدي) (٤). ثم دعا موسى ربه: (قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين) (٥). أما الذين اتخذوا العجل فضر بهم الجزاء العادل بعد أن أشربوا في قلوبهم حب العجل، قال تعالى: (إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين) (٦)،

(١) سورة الأعراف: الآية ١٤٢.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٠.

(٣) سورة طه: الآية ٩٢ - ٩٤.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٥٠.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٥١.

(٦) سورة الأعراف: الآية ١٥٢.

فهذه منزلة هارون أخو موسى عليهما السلام وعلى هذا يجب أن تقاس منزلة علي بن أبي طالب أخي رسول الله - كما جاء في الحديث الصحيح قول النبي صلى الله عليه وسلم

لعلي: " أنت أخي وأنا أخوك فإن ذكرك أحد فقل أنا عبد الله وأخو رسول الله لا يدعيها بعد إلا كذاب " (١).

فموسى عليه السلام في أول الأيام يتلقى كلمات ربه جل وعلا وخلف أخاه هارون بعده على قومه. ومحمد صلى الله عليه وسلم في البعثة الخاتمة ذهب ليضرب من أجل. كلمة ربه. وخلف أخاه عليا بعده على قومه. وبعد عودة موسى عليه السلام أبلغه هارون بالأحداث فحرق العجل ونسفه في اليم نسفا. وبعد عودة محمد صلى الله عليه وسلم حرق المسجد الضرار. وبعد موسى جرى حب العجل في الدماء، وبعد محمد صلى الله عليه وسلم جرت الرية في قلوب الذين اتخذوا المسجد الضرار. ولله في خلقه شؤون.

ومناقب علي بن أبي طالب ومنزلته لم تقف عند تدمير المسجد الضرار. فالأحاديث الصحيحة تبين أن دائرة النور حول علي بدأت تتسع على شكل لم يسبق له مثيل بعد تبوك. ويبدو والله أعلم أن هناك أحداثا جرت بعد فشل عملية اغتيال الرسول وثقافة المسجد الضرار، فمجموعة التخريب التي تتكون من اثني عشر رجلا والتي حملت على عاتقها عملية قتل الرسول. كان من بينهم رجال من قريش. والأحداث بعد ذلك تقول أن الأمور حول مكة لم تكن تجري على الوضع الطبيعي.

ومن المعروف أن فتح مكة كان في العام الثامن الهجري. وفي هذا العام دخل الإسلام مجموعة تسترت برداء الإسلام وكان لها الأثر البالغ في إيجاد الانحرافات التي حفرت في الجسد الإسلامي حفر نازفة سنتعرض لها في حينه، وبعد فتح مكة وفي العام التاسع كانت فورة النفاق. حيث دبرت حادثة اغتيال

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن بلفظ " أنت أخي في الدنيا والآخرة " (الجامع ٦٣٦ / ٥) ورواه أحمد عن عمر بن عبد الله عن أبيه عن جده (٢٢٢ / ١٠ تحفة الأحوازي) ورواه أبو يعلى عن علي (كنز العمال ١٤٠ / ١٣) ورواه الحاكم عن ابن عمر (٥٩٨ / ١١ كنز).

الرسول وبناء المسجد الضرار. وعلى إثر هذه التطورات كان للدعوة موقفها الجازم من خدمة النفاق والشرك. فقبل نزول سورة براءة كانت سيرة الرسول. أن لا يقاتل إلا من قاتله ولا يحارب إلا من حاربه وأراد. وقد كان أنزل عليه في ذلك: (فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً)، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله لا يقاتل أحداً قد تنحى عنه واعتزله. حتى نزلت عليه سورة براءة وأمره بقتل المشركين. من اعتزله ومن لم يعتزله إلا الذين قد عاهدكم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة إلى مدة. ومنهم: صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو. فقال تعالى: (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين* فسيحوا في الأرض أربعة أشهر) (١)، لقد جعلهم في مأمن من هذه البرهة من الزمان. وتركهم بحيث لا يتعرض لهم بشر حتى يختاروا ما يرونه أنفع بحالهم من البقاء أو الفناء. وأخبرهم أن الأصلح بحالهم رفض الشرك فإذا انتهت المدة ولم يستقروا على الأصلح. فالفناء (فإذا انسلكوا أشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) (٢)، فالبراءة بعد العهد لا بد أن يكون سببها التعدي من جانب المخلوق. وسورة براءة نزلت بعد عودة النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك سنة تسع من الهجرة. وكان الصحابة يسمونها السورة الفاضحة. نظراً لأنها كشفت المخططات ووضعت الجهاز التخريبي في مأزق كما يستفاد من رواية ابن عباس في صحيح مسلم. فعن سعيد بن جبير قال. قلت لابن عباس: سورة التوبة. قال: التوبة!! بل هي الفاضحة!! ما زالت تنزل. ومنهم ومنهم حتى ظنوا أن لا يبقى منا أحداً إلا ذكر فيها (٣).

فما هي الأحداث التي أدت إلى نزول الوحي بقوله تعالى: (كيف يكون

(١) سورة التوبة: الآية ١.

(٢) سورة التوبة: الآية ٥.

(٣) رواه مسلم (كنز العمال ٤٢٠ / ٢).

للمشركين عهد عند الله وعند رسوله - إلى قوله تعالى - قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم... (١)، ومن المعلوم أن أبا عامر مؤسس المسجد الضرار كان على علاقة وطيدة بمشركي المغرب والمنافقين في كل مكان. ولقد اتفق مع الجميع على أن يتوجه إلى قيصر الروم ويحثه على غزو المدينة، وعلى امتداد هذه المساحة تمت محاولة اغتيال الرسول وبناء المسجد الضرار ويبدو أن هناك مؤامرة اتفق عليها الحاقدون على الإسلام في مكة بعد فتحها وطائفة المشركين وتيارات النفاق - والدليل على ذلك فورة الصد عن سبيل الله التي تحدث القرآن والسنة عنها بعد فتحة مكة. تلك الفورة التي اختفت وراء جدار يرتدي ثياب الإسلام. ومن الدليل أيضا أن هذه الفورة استهدفت علي بن أبي طالب أيضا. وذلك حينما أشاعوا يوم أن تركه النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة يوم ذهابه إلى تبوك. إن النبي تركه مع النساء والصبيان وأنه قد استثقله وتخفف منه. وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر مشركي مكة بعد صلح الحديبية. أن لهم يوما من علي بن أبي طالب حيث سيقاتلهم على تأويل القرآن كما قاتلهم على تنزيله. وسنتحدث عن هذه الأخبار في حينه. فدائرة الحقد على الإسلام كانت تختزن في ذاكرتها ما تخبئه لهم الأيام. وظل اتباع هذه الدائرة يكيدون للدعوة في حياة الرسول وبعد مماته صلى الله عليه وسلم على هذا الأساس فضلا على كراهيتهم الأصلية للدعوة.

ومن الواضح أن دائرة الرجس ودائرة الدنس. اتفقتا على ثقافة يقتحمون بشذوذها المجتمع الإسلامي. ويتبين هذا من الحكم الذي بعث به النبي صلى الله عليه وسلم مع علي بن أبي طالب إلى المشركين. حيث قال: " لا يطوفن بالبيت عريان "، وكانت سنة العرب في الجاهلية عندما يقصدون البيت الحرام. إن من دخل مكة وطاف البيت في ثيابه. لم يحل له إمساكها. وكانوا يتصدقون بها ولا يلبسونها بعد الطواف. فكان من جاء إلى مكة يستعير ثوبا ويطوف فيه ثم يرده. ومن لم يجد من يعيره ولم يكن إلا ثوبا واحدا. طاف بالبيت عريانا.

(١) سورة التوبة: الآية ٧ - ١٤.

والأحاديث الصحيحة تخبر بأن الفترة الأخيرة - بعد تبوك - إن امرأة طافت بالبيت
عريانة وأشرف لها الناس. فوضعت إحدى يديها على قبلها والأخرى على
دبرها. وقالت شعرا:

اليوم يبدو بعضه أو كله * فما بدا منه فلا أحله

فلما فرغت من الطواف هرول إليها جماعة من الناس. ومن هذا يظهر والله
أعلم أن فروع التآمر كانت كثيرة، وعندما نزلت السورة على رسول الله صلى الله
عليه وسلم بعث بها مع أبي بكر إلى المشركين. فلما خرج أبو بكر نزل جبريل
على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد لا يؤدي عنك إلا رجل
منك. فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب في طلب أبي بكر. فلحقه
بالروحاء وأخذ منه الآيات - وفي رواية - قال أبو بكر يا رسول الله نزل في شيء؟
قال: لا ولكن جبريل جاءني فقال: لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك (١)،
وفي الدر المنثور أخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل وأبو الشيخ وابن مردويه عن
علي قال: لما نزلت عشر آيات من براءة على النبي صلى الله عليه وسلم. دعا أبا
بكر رضي الله عنه ليقرأها على أهل مكة. ثم دعا لي فقال لي: أدرك أبا بكر
فحينما لقيته فخذ الكتاب منه، ورجع أبو بكر إلى النبي فقال: يا رسول الله نزل
في شيء؟ قال: لا ولكن جبريل جاءني فقال: لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل
منك (٢).

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر رضي الله عنه ببراءة إلى أهل مكة ثم بعث

(١) رواه الإمام أحمد (البداية والنهاية ٣٥٨ / ٧، في تفسير ابن كثير ٣٣١ / ٢)، ورواه بلفظ
آخر الترمذي وحسنه، (الجامع ٢٧٥ / ٥)، وقال في الفتح الرباني، الحديث سنده
صحيح وله شواهد كثيرة تعضده منها عند البخاري والإمام أحمد أيضا من حديث
أبا هريرة ومنها حديث أنس عند الترمذي وحديث ابن عباس عنده أيضا (الفتح الرباني
١٥٧ / ١٨).

(٢) الفتح الرباني، وقال: وقال الهيثمي رجاله ثقات. وأورده ابن كثير في التفسير والحافظ
السيوطي في الدر المنثور وروى نحوه الترمذي وحسنه (١٥٨ / ٧).

علياً رضي الله عنه على أثره. فأخذها منه. فكان أباً بكر وجد في نفسه فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا أباً بكر إنه لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني. وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي رافع قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أباً بكر رضي الله براءة إلى الموسم. فأتى جبريل عليه السلام. فقال: إنه لا يؤديها إلا أنت أو رجل منك، فبعث علياً رضي الله عنه على أثره. حتى لحقه بين مكة والمدينة فأخذها فقرأها على الناس في الموسم.

فذهب علي بن أبي طالب، علاوة على أنه لا يؤدي عن النبي إلا هو كما ورد في الحديث الصحيح عن حبشي بن جنادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "علي مني وأنا من علي ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي" (١)، إلا أنه يستقيم مع الأحداث حيث فورة النفاق، وحيث إخبار النبي لقريش يوم الحديبية بأن لهم من علي بن أبي طالب يوماً فعن ربعي بن علي، أن النبي قال لهم يومئذ: يا معشر قريش لتنتهين أو ليعثن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين. قد امتحن الله قلبه على الإيمان. قالوا: من هو يا رسول الله؟ وقال أبو بكر: من هو يا رسول الله؟ وقال عمر: من هو يا رسول الله؟ قال: هو خاصف النعل. وكان قد أعطى علياً نعله يخصفها (٢).

لهذا نقول أن بعث علي بن أبي طالب بسورة براءة له أبعاد متعددة. فأبو بكر لم يثبت أن له قتيلاً في الإسلام. ولم يكن رضي الله عنه مشهوراً بالشجاعة ولقاء الحروب. وأيضاً لم يكن جباناً ولا خواراً. وإنما كان رجلاً عاقلاً ذا رأي وحسن تدبير، والآيات تحمل منهجاً لا مهادنة فيه ولا مساهلة. فإعطائها لأبي بكر أولاً ثم إعطاؤها لعلي بعد ذلك فيه تلويح بالعصا الغليظة.

وحول هذا الحديث أدلى كل منهم بدلو، فقال البعض: إن النبي بعث علياً بالسورة لأن من عادة العرب أن لا يحل ما عقده الرئيس منهم. إلا هو أو

(١) سبق التخريج.

(٢) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٦٣٤ / ٥) وابن جرير وصححه والضياء (كنز العمال ١٧٣ / ١٣).

المتقدم من رهطه. فإذا كان كذلك. فهل يجوز أن يجري النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سنته وأحكامه على عادات الجاهلية؟ ثم لو كانت سنة عربية جاهلية فما وزنها في الإسلام وما هي قيمتها عند النبي، وقد كان ينسج كل يوم سنة جاهلية وينقض كل حين عادة قومية. ثم إذا كانت سنة عربية ومعروفة للنبي قبل بعثه أبا بكر بسورة براءة. فما باله لم يعتمدها في الابتداء، ويبعث إليهم بمن يجوز أن يحل عقده من قومه؟ هل نسيها النبي حين سلم الآيات إلى أبي بكر. وعندما خرج أبو بكر ذكر النبي ما نسيه. هل يجوز ذلك وهو صلى الله عليه وآله وسلم المثل الأعلى في مكارم الأخلاق واعتبار ما يجب أن يعتبر من الحزم وحسن التدبير. ثم إذا كانت سنة عربية فلماذا لم يذكر النبي ذلك عندما رجع إليه أبو بكر ليسأله. وقال له: إنه أوحى إلي أن لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني". إن كلمة "أوحى إلي" أو "أخبرني جبريل" في الحديث. هي المحك في الحدث. والذي يمكن أن يقال عند الجمع بين الروايات. أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سلم إلى أبي بكر السورة. بإذن الله. إلا أنه لم يأمر بأدائها ولا كلف بقراءتها على أهل الموسم. سلمت إليه وأمر بالتوجه إلى أن يأذن الله فيها. وقد قال البعض: إن الفائدة في ذلك ظهور فضل علي بن أبي طالب ومرتبته. ولكني أميل أن ظهور الفضل في مساحة الأحداث كلها علاوة على المناقب التي وضعت حول علي على امتداد الرحلة أوقع من ظهوره في هذه المساحة الضيقة. فعلي لم يذهب ليبليغ براءة فقط وإنما ليبليغ أحكاما أيضا. فهو يبليغ كلمة الوحي وكلمة الرسول عن الوحي. فعن زيد بن شبيب قال سألتنا عليا بأي شيء بعثت في الحجة. قال: بعثت بأربع أن لا يطوف بالبيت عريان. ومن كان بينه وبين النبي صلى الله عليه وآله وسلم عهد فهو إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر. ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة. ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا (١).

(١) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٢٧٦ / ٥) وأحمد وابن جرير بسند صحيح (الفتح الرباني ١٥٩ / ١٨).

من هذا نعلم أن علي بن أبي طالب كان يتحرك في ساحة واسعة تجري عليها أحداث متعاقبة في العام التاسع الهجري، ترى ماذا يقول أصحاب الرأي القائل أن من عادة العرب أن لا يحل ما عقده الرئيس إلا المتقدم من رهطه. إذا قلنا لهم. إذا كان علي بن أبي طالب هو الذي أناب عن الرسول في حل عقدة من قومه. باعتبار أنه المتقدم في رهطه والذي يؤدي عنه. فمن غير علي بن أبي طالب بعد وفاة الرسول يحسم ما أعلنه علي على القوم في حياة الرسول. والسنة العربية تقول أن التفاوض لا يكون إلا مع الرئيس أو المتقدم من رهطه. وخصوصاً أن الآيات التي رفعت الأمان في سورة براءة عن المشركين لم تهمل أي طريق يرجى فيه الوصول إلى الهداية. قال تعالى: (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون) (١)، قال ابن كثير: وإن أحد من المشركين الذين أمرتك بقتالهم وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم استأمنك فأجبه إلى طلبه حتى يسمع القرآن فقرأه عليه وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم به عليه حجة الله. ثم اعطه الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره. وإنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي الأمان لمن جاء مسترشداً (٢).

إذا فهناك عقود أمان. فإذا كان علي بن أبي طالب حل عقد رسول الله من قومه - فحسب عادة العرب - من الذي ينظر في عقود الأمان الجديدة. فيتمها إلى مدتها أو يحلها؟ لهذا نقول أن القول بأن بعث علي بن أبي طالب بسورة براءة خرجت شجرته من عادات العرب. قول لا يلتفت إليه لما سيترتب عليه من إشكال.

(١) سورة التوبة: الآية ٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٣٣٧ / ٢.

٥ - حجة الوداع وإعلان الولاية:

في العام التاسع الهجري كانت فورة التفاور والشرك. فمن تحت جلباب الإسلام تحركت دائرة الرجس لتكيد للإسلام. ومن تحت لافتة المعاهدات تحركت دائرة البخس لتعرقل المسيرة. ولكن الله رد كيدهم في نحورهم بإنزال سورة براءة التي جعلت جميع دوائر الصد عن سبيل الله تقف لتحكم المخزون الفطري عند كل إنسان فيهم. وإلا فالسيف، ولا يتصور عاقل أن دوائر الصد بعد سورة براءة. قد ألقوا بسلاحهم وهروا في اتجاه الإسلام تائبين عابدين. فقد يكون هناك من أسلم وحسن إسلامه. وقد يكون هناك من أسلم إلي حين تأتية الفرصة. أو أسلم ثم ارتد وكنتم ارتداده أو لم يسلم أصلاً، وهرب حتى يشتد عوده. فهؤلاء وغيرهم لم ينتهوا بنزول سورة براءة أو برحيل النبي صلى الله عليه وسلم. لأن جذورهم في الأرض منذ أن طرد إبليس اللعين. وفي كل جيل تخرج الفروع وأوراق الفتنة من الجذور، ثم يستأصلها الله من عنده أو بأيدي الذين آمنوا، ثم تخرج لتستأصل ليكون استئصالها عنواناً لهزيمة الباطل على امتداد التاريخ الإنساني. وسورة براءة أشارت إلى أعلام هؤلاء، قال تعالى: (فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم) (١)، وكان حذيفة بعد وفاة الرسول يقول: " ما قاتل أهل هذه الآية بعد " (٢)، وقوله تعالى: (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) (٣)، وكما أن جذور هؤلاء ممتدة في طين الشذوذ. فكذلك جذور البغي. فالبغاة لم يقاتلوا النبي صلى الله عليه وسلم. لأن جذورهم في عهدهم لم تكن قد أخرجت فروعها العتية بعد. والقرآن أخبر بهم فقال تعالى: (فقاتلوا التي تبغي حتى تفيئ إلى أمر الله) (٤)، والرسول صلى الله عليه وسلم كان يعلم بمقتضى هذه الآية. إنه سيكون بغي. ولذا أخبر عن

(١) سورة التوبة: الآية ١٢.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (كنز العمال ٤٢٦ / ١) وسيأتي الكلام عنه في موضعه.

(٣) سورة التوبة: الآية ٣٦.

(٤) سورة الحجرات: الآية ٩.

أعلامه. وأقام الحجة على كل من له عينيّن ولسانا وشفّتين. ودثرت حجته التاريخ كله. كما أخبر عن ربه بكيفية قتال المشركين كافة. وحذر من اتباع سننهم التي تقود من ركبها إلى الوحل. فإذا كان امتداد المسيرة أمام الرسول في

عالم الغيب. امتدادا مكشوفاً. وعلى امتداده يرى الرسول العوائق والسحب الداكنة. إذا كان هذا ثابتاً فكيف يسوغ لمتوهم أن الدين لا يحتاج إلى حافظ يحفظه حق الحفظ. الدين الذي يحتوي على جميع ما يتعلق بالمعارف الأصلية والأصول الخلقية والأحكام الفرعية العامة بجميع حركات الإنسان وسكناته. ليس في حاجة إلى حفظ من الذين أخبر الله عنهم أنهم يقاتلون الإسلام كافة؟ هذا الدين ليس في حاجة إلى قيادة تأمر المسلمين كافة بقتال من يقاتلونهم كافة. هل الأمة الإسلامية والمجتمع الديني مستثنى من بين جميع المجتمعات الإنسانية ومستغنية عن وال يتولى أمرها ومدبر يدبرها ومجر يجريها... إن الحشرات فطرت على أمير. وفي عالم النحل والنمل وفي عالم الطيور والوحوش ألف ألف دليل. وبأي غرر يمكن أن يعتذر إلى الباحث في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم. حيث يرى أنه كان إذا خرج إلى غزوة. خلف مكانه رجلاً يدير رحي المجتمع. ألم تر أنه خلف علياً مكانه على المدينة عند مسيره إلى تبوك؟ ويؤمر رجلاً على السرايا والجيوش التي يبعثها إلى الأطراف. لقد كان في حياته يفعل ذلك. وأي فرق بين زمان حياته وما بعد مماته في حين أن إخباره صلى الله عليه وسلم بالغيب عن ربه. يفيد بأن تعيين حارس للدين بعد موته أشد والضرورة إليه أمس ثم أمس. والنبي صلى الله عليه وسلم هو القائل: "الإسلام والسلطان أخوان توأمان. لا يصلح واحد منهما إلا بصاحبه. فالإسلام أس (١) والسلطان حارث. وما لا أس له يهدم وما لا حارث له ضائع" (٢)، قد يقال: لقد كان الحفظ في أيدي أهل الحل والعقد. فنقول: ونحن لا نقلل من وزن أهل الحل والعقد ولا من هيبتهم. ولكن الأحاديث الصحيحة أشارت إلى وجود أئمة مضلين في بطن الزمان يتكلمون بألسنتنا ويدعون إلى النار. ونحن

(١) أس / أي أصل البناء.

(٢) رواه الديلمي (كنز العمال ١٠ / ٦).

ليست لدينا القدرة على تمييز الصالح من الطالح. إنما القادر هو الله. والناظر في التاريخ والمتدبر في الأحداث بعد رحلة النبي صلى الله عليه وسلم يرى كم من دائرة إسلامية اجتمع فيها أهل الحل والعقد من المسلمين على ما اجتمعوا عليه. ثم سلكوا طريقاً يهديهم إلى رأيهم. فلم يزيدوا إلا ضللاً. ولم يزد أسعادهم المسلمين إلا شقاء. ولم يمكث الاجتماع الديني بعد النبي صلى الله عليه وسلم. دون أن عاد إلى إمبراطورية ظالمة. إن التاريخ أمامنا والأحاديث التي تخبر بما في بطن التاريخ إذا انحرفت الأمة بين أيدينا. والقرآن شاهد على الحديث وعلى حركة التاريخ. فليبحث الناقد في الفتن الناشئة منذ قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم. وما استتبعته من دماء مسفوقة. وأعراض مهتوكة وأموال منهوبة. وأحكام عطلت. وحدود أبطلت. ثم ليبحث الناقد في منشئها وأصولها وأعراقها... وسيرى أن الأسباب العاملة فيها تنتهي إلى ما رآه أهل الحل والعقد من الأمة. ثم حملوا ما رأوه على أكتاف الناس. وقد يقال: إذا كان الطالح له أثر فإن هذا لا يعني أن الصالح في أهل الحل، والعقد ليس له أثر. ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يشاورهم في الأمر في قوله تعالى: (وشاورهم في الأمر. فإذا عزمت فتوكل على الله) (١)، فنقول: لقد كان في الصحابة عظماء أفذاذ قاتلوا وقتلوا في سبيل الله ومنهم من انتظر دوره ليفدي الدين بما عاهد الله عليه. ولكن من الذي كان يشاورهم؟ إنه الرسول الأعظم الذي لا ينطق عن الهوى. ويخطئ من يظن أن مشاورته كانت عن قلة في علم ما. فمعاذ الله أن يكون هذا في من وضع الله على عاتقه تعليم البشرية. لقد كانت المشاورة أحياناً فيما يتعلق بحركة الدعوة بين القبائل. وأحياناً لإرساء قاعدة التآلف بين القلوب. وفي الآية الكريمة. أشركهم الله بالنبي في المشاورة " وشاورهم في الأمر " ثم وحده في العزم " فإذا عزمت فتوكل على الله ". إن المشاورة حق فطري. والذي يسوق الناس إلى الصراط المستقيم أمر فطري. ودائرة العزم لا يجلس فيها إلا من كان على علم بكتاب الله. وإلا فالطريق إلى

(١) سورة آل عمران: آية ١٥٩.

اختلاف الأمة إلى أكثر من سبعين شعبة. طريق مفتوح. لهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: " لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه "، فإذا كان للطالح أثرا على امتداد التاريخ. فإن هذا يؤيد وجود الصالح. ولا شك في هذا. لأن وجود الصالح حجة على وجود الصالح. والصالح في دائرة العزم لا بد أن يشير إليه نص. فكم من إنسان، فرادى ومجتمعين. ظنوا أنهم يحسنون صنعا. وبصنيعهم تربعوا في دائرة الصلاح. وفي الحقيقة إنهم في دائرة الأخسرين أعمالا. والسبب أنهم ضلوا. والضلال لا يستقيم مع الصلاح. ولأن الله تعالى يقول: (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) (١)، فإنه تعالى أولى بتحديد من يسوق الناس إلى صراط الله بعد رحيل رسوله. وخاصة أن الدوائر في حياة رسوله قد تكاثفت على عرقلة المسيرة التي يختبر الله تعالى الناس فيها لينظر كيف يعملون. فالذي يختبر لا بد أن يحدد الطرق ويقيم الحجج. حتى لا يكون للناس على الله حجة. أما أن نقول إن الأمر كله في أيدي أهل الحقل والعقد. فإن هذا القول فيه تساهل كبير. ونحن هنا سنتتبع مكان القمة في موضعين: في حجة الوداع. وفي غدير خم. لنرى بماذا أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أولا - حجة الوداع:

في العام التاسع الهجري، كانت فورة الشرك والنفاق. وكان علي بن أبي طالب في المدينة وكان من الرسول بمنزلة هارون من موسى عدا النبوة. وفي هذا العام نزلت سورة براءة وقرأها علي بن أبي طالب وما معها من أحكام على أهل مكة وما حولها. وجاء العام العاشر الهجري وفيه بعث النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع وفي هذا العام نزلت سورة المائدة فكانت آخر ما نزل من القرآن. وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما خرج إلى حجة الوداع من المدينة. خرج إليها علي بن أبي طالب من اليمن وقال: لبيك يا هلالا كاهلال

(١) سورة القلم: الآية ٧.

النبي (١)، وحضر الحج في هذا العام نحو أربعين ألفا من المسلمين (٢)، وروي أن عليا أتى من اليمن بهدي بلغ مجموعها مع ما أتى مع النبي صلى الله عليه وسلم مائة. فنحر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ثلاثا وستين. ثم أعطى عليا فنحر ما تبقى. وأشركه في هديه. ثم أمر من كل بدنة ببضعة (قطعة من اللحم) فجعل في قدر. فأكل هو وعلي من لحمها وشربا من مرقها (٣)، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما هم بذبح الهدي قال: إدع لي أبا حسن. فدعى له علي. فقال: خذ بأسفل الحربة. وأخذ رسول الله بأعلاها ثم طعنا بها البدن. فلما فرغ ركب بغلته وأردف عليا (٤)، وعندما خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس. كان علي بن أبي طالب يعبر عنه (أي يبلغ حديثه) - عليهم السلام -، قال القارئ: وقف علي حيث يبلغه صوت النبي صلى الله عليه وسلم فيفهمه فيبلغه للناس ويفهمهم من غير زيادة ولا نقصان. كان علي بن أبي طالب يبلغ عنه والناس بين قائم وقاعد. والناس شاهدوا الرسول وعلي منذ بداية الشعائر ينحر معه، وتباركة في الهدى ويأكل معه. ويعبر عنه، ومن قبل سمعوا بقصة تبليغ براءة وبمنزلة هارون من موسى. وبغض المنافقين لعلي. وقبل ذلك سمعوا يوم خير أن عليا يحبه الله ورسوله. وشاهدوا يوم أن ناجاه رسول الله وطالت نجواه. وعانوا يوم أن سد النبي جميع الأبواب إلا باب علي. وعلموا وشاهدوا حديث الكساء وحديث المباهلة. وتأكدوا أن عليا أقدمهم سلما وأكثرهم علما وأوسعهم حلما. وأن سيفه لا تخشى في الله لومة لائم. كل هذا وغيره علموه وشاهدوه. فأى إشارة من النبي إلى علي يجب أن تفهم على بساط الفطرة. لأنها لن تفهم على طريق الحفائر والارتياح والجدل العقيم. فإذا وقف النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع وقال فيما رواه

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (البداية والنهاية ١٣٠ / ٥).

(٢) رواه أحمد ومسلم (الفتح الرباني ١٣٧ / ٥) (تفسير ابن كثير ٧٧ / ٢).

(٣) رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ٨١ / ١١)، ورواه ابن حبان (البداية ١١٨ / ٥).

(٤) رواه أبو داود (البداية ١٨٩ / ٥).

جابر بن عبد الله. رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب فسمعتة يقول: " يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي " (١)، إن هذا الاعلان لا يحتاج إلى جدل طويل على بساط الفطرة. حيث أن الساحة عليها دائرة رجس لا بد أن تجابهها دائرة تطهير. وإذا علمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حجة الوداع فيما روي عن يحيى بن آدم السلولي، وكان قد شهد يوم حجة الوداع. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " علي مني وأنا منه ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي " (٢)، فهذا الاعلان أيضا لا يحتاج إلى جدل طويل. لأنه من قماشة واحدة بدأت عندما نزل قوله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين)، لقد كانت البداية من هنا. ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم منذ البداية لعشيرته كما ورد في الحديث الصحيح " أيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ووارثي " (٣)، فلم يقم إليه أحد وقام علي بن أبي طالب وبايعه علي ذلك. وليس هذا من قماشه حديث: " أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي "، وذلك بعد أن اتسعت دائرة الضوء وفقا لحركة الدعوة. ثم ألا يتفق ذلك مع قماشة يوم تبليغ سورة براءة حيث قال النبي: " جاءني جبريل فقال لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك " فما الغرابة إذن في فهم الموقف يوم حجة الوداع. حيث قال النبي: " علي مني وأنا منه ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي "، وجميع ذلك من نسيج قوله تعالى يوم المباهلة. (وأنفسنا وأنفسكم). فإذا كان هذا البلاغ قد تم في حجة الوداع. وإذا كان في نفس الحجة قد نزل عشية يوم عرفة (٤)، قوله تعالى: (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا

-
- (١) رواه أبو داود والنسائي أحمد (البداية والنهاية ١٩٨، ١٩٩ / ٥).
(٢) رواه الترمذي وحسنه (الجامع ٦٦٢ / ٥) والنسائي (كنز العمال ١٧٢ / ١).
(٣) أخرجه أحمد (الفتح الرباني ١٢١ / ٢٣) والترمذي وقال حديث حسن (الجامع ٢٩٩ / ٢) وأورده ابن كثير في البداية والنهاية ٣٥٧ / ٥.
(٤) رواه أحمد وابن جرير والضياء بسند صحيح (كنز العمال ١٧٤ / ١٣) وقال في الفتح الرباني رواه أحمد وإسناده ص (الفتح ٢٢٤ / ٢٣).

تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً (١)، علمنا أن الكفار قد يأسوا في اليوم الذي أكمل الله فيه الدين وأتم فيه نعمته. فماذا كان يريد الكفار قبل أن يضربهم اليأس؟ لقد كان الدين هو المبعوض عند دوائر الصد من سبيل الله. فالشيطان منذ اليوم الأول وضع في برنامجه عرقلة الصراط المستقيم. وعلى امتداد التاريخ سارت جحافل الليل نحو هذه الغاية. فحاولوا في الرسالة الخاتمة هدم البنيان الرفيع من أسر بتغنين المؤمنين. وبث النفاق في جماعتهم وإلقاء الخرافات بينهم لإفساد دينهم. في بداية الأمر صدوا بالمال والجاه والجلد بالسياط والطرده من الأوطان. ثم طوروا الصد إلى محاولة قتل النبي. لقد كانوا يرون أنه ملك في صورة النبوة. وسلطنة في لباس الدعوة والرسالة. ولقد كان موته آخر ما يرجونه في زوال الدين وموت الدعوة. وذلك لأنه لا عقب له. ومن لا عقب له في قانونهم إذا مات أو قتل انقطع أثره ومات ذكره وذكر دينه. على ما هو المشهود عادة من حال السلاطين والجبابرة. فهؤلاء مما بلغ أمرهم. فإن ذكرهم يموت بموتهم وقوانينهم تدفن معهم في قبورهم. ولذلك كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "دعوه، فإنه رجل أبتّر لا عقب له فإذا هلك انقطع ذكره فأُنزل الله تعالى: (إن شئتُك هو الأبتّر) (٢).

فإذا كانت ثقافة الكفر تنطلق من هذا المفهوم. فكيف يكون الحال إذا بلغهم قول النبي "علي مني وأنا منه ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي"، أو تحديد النبي لدائرة الطهر التي لا تفارق القرآن ولا يفارقها. ألا يكون اليأس لهم عنواناً على امتداد التاريخ الإنساني. وذلك لأن الصراط المستقيم أصبح له من يسوق الناس إليه بعد وفاة الرسول. ثم أليس إغلاق الباب في وجوههم إكمالاً للدين وإتماماً للنعمة وإقامة للحجة. لينظر الله كيف تعمل الأمة الخاتمة تحت قانون سنة الابتلاء الجارية. فقله تعالى: (فلا تخشوهم واخشون)، يفيد هذا

(١) سورة المائدة الآية ٣، نزول الآية يوم عرفة رواه أحمد والشيخان والترمذي (الفتح الرباني ١٢٦ / ١٨).

(٢) سورة الكوثر: آية ٣.

المعنى. قال المفسرون: أي لا موجب للخشية بعد يأس الذين كنتم في معرض الخطر من قبلهم. فأنتم في مأمن من ناحية الكفار. ولا ينبغي لكم مع ذلك الخشية منهم على دينكم. فلا تخشوهم واخشوني. فالدين مصون من الخطر المتوجه من قبلهم. وإنه لا يتسرب إليه شئ من طوارق الفساد والهلاك إلا من قبل المسلمين أنفسهم. وإن ذلك إنما يكون بكفرهم بهذه النعمة التامة. ورفضهم هذا الدين الكامل المرضي. ويومئذ يسلبهم الله نعمته ويغيرها إلى النعمة ويذيقهم لباس الجوع والخوف.

ومن أراد الوقوف على مبلغ صدق هذه الآية من قوله: (فلا تخشوهم واخشون)، فعليه أن يتأمل فيما استقر عليه حال العالم الإسلامي اليوم. ثم يرجع القهقري بتحليل الحوادث التاريخية حتى يحصل على أصول القضايا وأعراقها. لقد يأس الكفار عندما أيقنوا أن الدين بعد النبي صلى الله عليه وسلم خرج عن مرحلة القيام بالحامل الشخصي. إلى مرحلة القيام بالحامل النوعي. والحامل الشخصي عمود فقري للحامل النوعي. ولقد ضربهم اليأس عندما علموا أن الدين خرج من صفة الظهور والحدوث. إلى صفة البقاء والدوام. وصفة الظهور والحدوث رحي تدور عليها صفة البقاء والدوام. وفي عالم اليأس قرقت أنياب الحيتان. وسرى صوتها ليلا في الوادي الواسع العريض.

ثانيا - يوم غدير خم:

بعد حجة الوداع عاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة هو ومن معه. وكان قد أحث يوم الحج على التمسك بالكتاب والعتره وحذر الأمة من الاختلاف والافتراق وقتل بعضهم بعضا. وفي هذا الحج أخذ الناس عنه صلى الله عليه وسلم مناسكهم. وما أعلنه الرسول وما حث الناس عليه، كان على مستوى المساحة الواسعة للأمة. وهذه المساحة تختلف عن المساحة الأم. بمعنى أن الأمور التي تتعلق بالقيادة لا تعلن إلا في دائرة مساحة القيادة. لذا نراه صلى الله عليه وسلم في بداية الدعوة عندما نزل قوله تعالى: (وأنذر عشيرتک الأقربين) لم يأت بأفراد المساحة الواسعة وإنما تحدث أمام ناس

بأعينهم. وقال كما في الحديث الصحيح: " أياكم يباعدني على أن يكون أخي وصاحبي ووارثي "، كما مر من قبل. والأمور التي تتعلق بالقيادة بعد حجة الوداع تقام الحجة فيها على ساحة القيادة أولا. وهذه المساحة هي رؤوس قريش بالمدينة. وذلك لأن قريشا هي النواة التي تدور حولها المساحة الواسعة، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " الناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم " (١)، وفي رواية: " صالحهم تبع لصالحهم وشرارهم تبع لشرارهم " (٢)، فقريش بذور منها شجر. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " المرء مع من أحب " (٣).

والنبي في طريقه من حجة الوداع. كان على علم تام من ربه. مما سيحدث لأمته من بعده. كان يعلم أن في أمته من سيستمتع كما استمتع الذين من قبلهم وسيخوض كما خاضوا. وسيترتب على ذلك الحبط والخسران والبغي والافتراق، وكان يعلم أن مقدمة هذا كله ستكون من دائرة قريش وليس من الدائرة الواسعة، لذا نراه صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع وجه إشاعات من الضوء على سبيل الخير ليهرع الناس إليه، فأوصى بالكتاب والعتر، وأعلن أن عليا منه وهو منه ولا يؤدي عنه إلا هو أو علي. وهذا الاعلان. هو نفس الاعلان يوم سورة براءة في العام التاسع الهجري. وبعد أن سلط الضوء على سبيل الخير. سلطه على الجانب الآخر كي يحذر الناس من مقدمات الوقوع قبل الوقوع. ثم بين كيفية النهوض بعد الوقوع. كما سنبين فيما بعد. ومن أشعة الضوء على الجانب الآخر من قريش. عن أبي مطير قال: أخبرني من سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع وهو يعظ الناس ويأمرهم وينهاهم فقال: أيها الناس خذوا العطاء ما كان عطاء. فإذا

-
- (١) رواه البخاري عن ابن عمر ك بدء الخلق ب، مناقب قريش (الصحيح ٢٦٤ / ٢) وابن أبي عاصم عن أبي هريرة (كتاب السنة ٥٣٤ / ٢).
- (٢) رواه أحمد عن علي وقال الهيثمي رجاله ثقات (الفتح الرباني ٢٢٦ / ٢٤).
- (٣) رواه البخاري ك الأداب (الصحيح ٧٧ / ٤) وصححه الترمذي (الجامع ٥٩٦ / ٤).

تجاحت قريش على الملك وكان عن دين أحدكم فدعوه " (١)، فهو في حجة الوداع كان يعلم أن قريشا ستدفع لتشتري الدين من الناس. أليس هذا في حاجة إلى إقامة حجة دافعة عليها؟ وفي رواية: " خذوا العطاء ما دام عطاء، فإذا كان إنما هو رشا فاتركوه. ولا أراكم تفعلون. يحملكم على ذلك الفقر والحاجة. ألا إن رحي بني مرج قد دارت. وإن رحي الإسلام دائرة. وإن الكتاب والسلطان سيفترقان. فدوروا مع الكتاب حيث دار. وستكون عليكم أئمة أن أطعتموهم أضلوكم. وإن عصيتهموهم قتلوكم. قالوا: فكيف نصنع يا رسول الله؟ قال. كونوا كأصحاب عيسى نصبوا على الخشب ونشروا بالمنشير. موت في طاعة. خير من حياة في معصية (٢)، قال صاحب عون المعبود في شرح سنن أبو داود: معنى حديث ترك أخذ العطاء. إذا رأيت قريش تخاصموا على الملك. وتقاتلوا عليه. وقال كل واحد منهم: أنا أحق بالملك أو الخلافة منك. وتنازعوا في ذلك وأصبح هذا العطاء عن دين أحدكم، أي يعطوه لكم عوضا عن دينكم. فاتركوا أخذه " (٣).

باختصار الحديث عن القيادة لا يكون تفصيله إلا على أرضية قريش. فإذا كان علي ولي كل مؤمن بعد رسول الله. فلا بد أن يعلن هذا أولا عند الأعقاب التي ستتصارع على الملك ليكون في ذلك حجة عليها. ومن أراد أن يفهم هذا المعنى عليه أولا أن يسلم بأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث في قوم من البشر وليسوا من الملائكة. وهذا القوم كان النبي يتعامل معه وفقا لمصلحة الإسلام وكان لا يخاف إلا على الدعوة. ومن الدليل على ذلك. أن زيد بن حارثة كان عبدا للنبي صلى الله عليه وسلم. ثم حرره واتخذه ابنا له. وكان تحت زينب بنت جحش بنت عممة النبي. وكان النبي يعلم من ربه أن زينب ستكون من أزواجه. فجاء زيد إليه واستشاره في طلاقها. فنهاه النبي عن

(١) رواه أبو داود حديث ٢٩٥٨.

(٢) رواه الطبراني عن معاذ، وابن عساكر عن ابن مسعود (كنز العمال ٢١٦ / ١).

(٣) عون المعبود ١٧٣ / ٨.

الطلاق. ثم طلقها زيد بعد ذلك وتزوجها النبي. يقول تعالى: (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) (١)، أي: لم قلت أمسك عليك زوجك وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك؟ إن النبي قال هذا خوفا من المنافقين والذين في قلوبهم مرض. ولقد أخفى في نفسه ما أخفاه استشعارا منه أنه لو أظهره. عابه الناس وطعن فيه تيار الذين في قلوبهم مرض. فيؤثر ذلك أثرا سيئا في إيمان العامة وحركة الدعوة. والنبي صلى الله عليه وسلم لم تكن خشيته للناس خشية على نفسه. بل كانت خشية في الله. وهذا الخوف ليس خوفا مذموما لأن الخوف في الله هو في الحقيقة خوف من الله تعالى. ومن المعلوم أن الله تعالى. فرض للنبي أن يتزوج زينب زوج زيد. ليرتفع بذلك الحرج من المؤمنين في التزويج بأزواج الأدعياء.

ألم يكن هذا الخوف على أرضية الصحابة؟ نعم كان على أرضيتهم لأن كل من سمع من النبي أو رآه فهو صحابي. فالنبي خاف من بعضهم على الدعوة. فإذا كان قد خاف منهم في موقف كهذا. فكيف بموقف يترتب عليه قيادة هم من صاحبها في غليان؟ لقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم في بشر فيهم الصالح والطالح والمحسن والمسيء. والنبي صلى الله عليه وسلم كان ينتظر الوقت المناسب الذي يعلن فيه ولاية علي بن أبي طالب أمام قريش ومن حولهم في المقام الأول لأنهم خميرة الاختلاف وطلب الملك.. وفي أثناء ذلك نزل قوله تعالى: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين) (٢).

فالآية تكشف عن أمر قد أنزل على النبي. وكان النبي يخاف الناس من تبليغه ويؤخره إلى حين يناسبه. ولولا مخافته. لم يحتاج إلى تهديده بقوله: " وإن لم تفعل فما بلغت رسالته "، النبي كان يخاف ولكن لم تكن مخافته على

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.

(٢) سورة المائدة: الآية ٦٧.

نفسه. وكيف يخاف على نفسه وهو الذي بلغ عن ربه. (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله) (١)، كيف وهو الذي بلغ قوله تعالى: (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) (٢)، كيف؟ وهو الذي تلى قوله تعالى: (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) (٣)، إن النبي لم يخف على نفسه. وإنما يخاف أن يتهموا الدعوة اتهاماً يفسدها ويترتب على ذلك اختلافها واخترامها، وقد علم من ربه أن هذا سيحدث. ولذا فهو صلى الله عليه وسلم يأخذ بأسباب النجاة ليقيم الحجة. فهو يخاف على الدعوة وعلى الذين قدر لهم أن يعيشوا في زمانه، يرى فيه الإنسان الخير والشر فلا يدري أيهما يركب. ولله في عباده شؤون. قال المفسرون: قوله: " وإن لم تفعل فما بلغت رسالته " تفيد التهديد بظاهاها. وإعلامه صلى الله عليه وسلم وإعلام غيره ما لهذا الحكم من الأهمية. فالكلام في صورة التهديد. لبيان أهمية الحكم. بحيث أن هذا الحكم لو لم يصل إلى الناس. ولم يرع حقه. كان كأن لم يرع حق شيء من أجزاء الدين. والتهديد كما في ظاهر الآية. لا يعني أن القرآن يذكر في حق النبي احتمال أن يبلغ الحكم أو لا يبلغ. حاشا ساحة النبي صلى الله عليه وآله من ذلك. فالله تعالى يقول: (الله أعلم حيث يجعل رسالته) (٤). فإذا كانت سورة المائدة آخر سور القرآن نزولاً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فما هو هذا الحكم النازل؟ إذا كان يختص بالوضوء والصلاة. فالناس قد توضعوا وصلوا. وإذا كان يختص بصيام رمضان وإيتاء الزكاة. فالناس صاموا من قبل وزكوا. وإذا كان يختص بتعليم الناس مناسك الحج. فالرسول قد فرغ من حجة الوداع وأخذ الناس عنه مناسكهم والجميع تحت مظلة لا إله إلا الله

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٩.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٧٥.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٧٣.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٢٤.

محمد رسول الله. فما هو هذا الحكم الذي وأكبه تهديد من الله تعالى إذا لم يبلغ؟ قال المفسرون: لم يصرح القرآن باسم هذا الشئ الذي أنزل على النبي من ربه. وعبر عنه بالعنت وإنه شئ أنزل إليه. إشعاراً بتعظيمه ودلالة على أنه أمر ليس فيه لرسول الله صنع ولا له من أمره شئ. ليكون هذا البرهان على عدم اختيار من النبي في كتمانته وتأخير تبليغه. ويكون له عذر في إظهاره على الناس. وتلويحا إلى أنه مصيب في ما تفرس منهم وتخوف عليه. وإيحاء إلى أنه مما يحب أن يظهر من ناحيته صلى الله عليه وآله وبلسانه وبيانه.

هذا عن الحكم. أما قوله تعالى: (والله يعصمك من الناس) (١)، قال المفسرون: أخذ لفظ الناس. اعتباراً بسواد الأفراد. الذي فيه المؤمن والمنافق والذي في قلبه مرض. وقد اختلطوا من دون تمايز، فإذا خيف خيف من عامتهم. والعصمة في الآية. بمعنى الحفظ والوقاية من شر الناس المتوجهة إلى النبي أو مقاصده الدينية أو نجاح تبليغه.

والذي يجب أن تذكر به إن طريق تبوك في العام التاسع الهجري. أنتج جماعة من اثني عشر رجلاً، أخبر الحديث الصحيح أنهم لن يدخلوا الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وإنهم حرب على الله وعلى رسوله في الحياة الدنيا (١)، وأن الطريق من حجة الوداع إلى المدينة وزمنه ومكانه ضمن الحياة الدنيا...

وآية سورة المائدة التي نحن بصدددها. ذهب في أسباب نزلها إلى كل مذهب. فهناك من قال إنها مكية. وهذا القول لا يلتفت إليه. لأن الآية بتمامها لا تنطبق على الأحداث التي ذكروها. فلم يكن من شأن اليهود ولا النصراني في عهد النبي صلى الله عليه وسلم. أن يتوجه إليه من ناحيتهم خطر يجعله يمسك عن التبليغ أو يؤخره إلى حين. ولم يكن من شأن كفار قريش ومشركي مكة أن يفعل النبي ذلك أيضاً. وهم أغلظ جانباً وأشد بطشاً وأسفك للدماء

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢٤.

وأفتك من اليهود وسائر أهل الكتاب. فهؤلاء لم يمسك النبي صلى الله عليه وسلم عن تبليغهم أو أخره. وإنما تعامل معهم على امتداد الرحلة بالذي تظهره كتب التفسير والحديث والتاريخ. وهؤلاء قد يأتي منهم خطر. ولكن هذا الخطر لا يأتي إلا بعد أن يتأكل الأساس. وتأكل الأساس مهمة المنافقين والذين في قلوبهم مرض - في المقام الأول - لقد رد ابن كثير على القول بأن الآية مكية فقال في تفسيره: إن هذه الآية مدينة. بل هي من أواخر ما نزل بها (١). وقول ابن كثير بأن الآية أخر ما نزل. قد يفتح الأبواب على سؤال هو، ما هو الحكم الذي أنزل الله في آخر آية نزلت على رسوله وقال له: (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) إن القول بأن هذا الحكم يتعلق بالطهارة والغسل والتكفين. قول لا يلتفت إليه. وعلى أي حال. فهناك نبذة من الأخبار تدل على نزول هذه الآية في حق علي بن أبي طالب يوم غدير خم. وقبل أن نقدم أحداث يوم الغدير. حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه أئمة الحفاظ عن جمع من الصحابة " كنت مولاه فعلي مولاه " نلقي الضوء على الحديث ورواته.

قال ابن كثير في البداية: لما تفرغ النبي من بيان المناسك ورجع إلى المدينة. خطب خطبة عظيمة الشأن في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة. بغدير خم تحت شجرة هناك. فبين فيها أشياء. وذكر في فضل علي بن أبي طالب وأمانته وعدله وقربه إليه. وأزاح به ما كان في نفوس كثير من الناس منه. وقد اعتنى بأمر حديث غدير خم أبو جعفر الطبري فجمع فيه مجلدين وأورد فيها طرقة وألفاظه. وكذلك الحفاظ الكبير أبو القاسم بن عساكر أورد أحاديث كثيرة في هذه الخطبة (٢).

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حديث من كنت مولاه. سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثون صحابياً. شهدوا به لعلي بن أبي طالب عندما

(١) تفسير ابن كثير ٧٩ / ٢.

(٢) البداية والنهاية ٤٠٨ / ٥.

نوزع أيام خلافته. وصرح بتواتر هذا الحديث العديد من العلماء... وقال ابن حجر: حديث من كنت مولاه، كثير الطرق جدا، وقد استوعبها ابن عقدة في مؤلف مفرد وأكثر أسانيدھا صحيح وحسن (١)، وقال الألباني في كتاب السنة: حديث من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه حديث صحيح جاء من طرق جماعة من الصحابة. خرجت أحاديث سبعة منهم. ولبعضهم أكثر من طريق واحد. وقد خرجتها كلها وتكلمت على أسانيدھا في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢).

وحديث الغدير رواه جمع من الصحابة منهم: زيد بن أرقم، ومالك بن الحويرث، وعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، وأبو أيوب الأنصاري. وجرير. وجندب الأنصاري، وطلحة وغيرهم، وسجل هذا الحديث في كتبهم العديد من الأئمة والحفاظ منهم: أحمد بن حنبل والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن حبان والحاكم والضياء وابن أبي شيبه. وابن جرير. وابن عساكر وأبو نعيم وسموية والخطيب والبزار وأبو يعلى والطبراني وابن رهوة. وابن أبي عاصم والمحاملي وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد في سبع صفحات. وذكر الفخر الرازي عند تفسيره الآية (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك)، قال: نزلت هذه الآية في فضل علي بن أبي طالب. فلما نزلت أخذ النبي بيده وقال: "من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعادي من عاداه"، فلقية عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: "هنيئا لك يا ابن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة"، وهو قول ابن عباس والبراء بن عازب ومحمد بن علي (٣). وروى الواحد في كتابه أسباب النزول عن أبي سعيد الخدري قال: نزلت هذه الآية: (يا أيها الرسول بلغ...)، يوم غدير خم في

(١) نظم المتناثر من الحديث المتواتر / الكفائي ص ١٩٤.
(٢) كتاب السنة / ابن أبي عاصم تحقيق نصر الدين الألباني ٥٦٦ / ٢.
(٣) الفخر الرازي ص ٤٨، ٤٩ / ١٢.

علي بن أبي طالب.
وغدير خم يقع على الطريق بين مكة والمدينة. وهو على بعد ثلاثة أميال
من الجحفة. وهناك حكمة بالغة في اختيار هذا الموقع لإقامة الحجة على قريش
ومن حولهم. فالمنطقة صحراوية إلا من بعض الشجر. وقيل، كان هناك غيطة
الغدير مضاف إليها، فالمكان معد لاستقبال من أراد الراحة من عناء سفر طويل.
واختيار هذا المكان لإبلاغ الحكم النازل. كي يكون المكان فريدا لإعلان
حكم فريد. بمعنى. لو أعلن الحكم في حجة الوداع مثلا. وسئل الناس بعد ربع
قرن على سبيل المثال. ماذا قال الرسول في حجة الوداع: سيقولون. قال كذا
عند الحلق والتقصير وذبح الهدي ورمي الجمار وأوصى بكذا وكذا، وأما إذا كان
المكان قد خصص لحكم واحد كغدير خم. فلو قيل: ماذا قال الرسول في
الغدير؟ فلن تكون هناك إلا إجابة واحدة على سؤال محدد. وهذا ما فعله
علي بن أبي طالب أيام خلافته فكان لا يقول إلا " نشدت الله رجلا سمع
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدير خم ما قال لما قام.. " (١)،
فإفراد المكان بحكم. لهدف ومن وراء الهدف حكمة. وأما حديث الغدير فإننا
نسوق منه ما رواه الإمام مسلم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه. قال: قام
رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فينا خطيبا بماء يدعى خميا بين مكة والمدينة. فحمد
الله وأثنى
عليه ووعظ وذكر. ثم قال: أما بعد ألا أيها الناس. فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي
رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله. فيه الهدى والنور.
فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به. فحث على كتاب الله ورغب فيه. ثم قال:
وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في
أهل بيتي (٢).
هذه رواية مسلم وفيها الخطوط العريضة. ومنها نعلم أن النبي يودع ويخبر

(١) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (مجمع الزوائد ١٠٤ / ٩).
(٢) رواه مسلم ب فضائل علي (الصحيح ١٧٩ / ١٥) وأحمد (الفتح الرباني ١٨٥ / ١) وابن
أبي عاصم (كتاب السنة ٦٤٤ / ٢).

بأنه أوشك على الرحيل من هذه الحياة الدنيا. ولهذا أوصى بالطريق الذي يسوق الناس إلى الصراط الذي يوصلهم إلى ربهم حيث السعادة الحقيقية، وروى الإمام النسائي رواية بزيادة: "إني قد تركت فيكم الثقلين. كتاب الله وعترتي أهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما. فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض. ثم قال: الله مولاي وأنا ولي كل مؤمن. ثم أخذ بيد علي فقال: من كنت مولاه فهذا وليه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه (١)، وعن عمرو ذي مر وزيد بن أرقم معا. روى الطبراني: "من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره وأعن من أعانه" (٢)، وروى ابن جرير عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيها الناس. إنه قد نبأني اللطيف الخبير. إنه لم يعمر نبي إلا مثل نصف عمر النبي الذي قبله. وإني لأظن إني موشك، وإن أدعى فأجيب. وإني مسؤول، وإنكم مسؤولون. فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك بغلت ونصحت فجزاك الله خيرا. قال: أستم تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأن جنته حق وناره حق وإن الموت حق وإن الساعة آتية لا ريب فيها. وإن الله يبعث من في القبور. قالوا: نشهد بذلك وقال: اللهم فاشهد. ثم قال: أيها الناس إن الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين. وأنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم. فمن كنت مولاه فعلي مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. أيها الناس. إني فرطكم وأنتم واردون علي الحوض. حوض عرضه ما بين بصرى وصنعاء. فيه عدد النجوم قدحان من فضة. وإني سائلكم حين تردون علي عن الثقلين. فانظروا كيف تخلفوني فيهما.

- (١) قال ابن كثير رواه النسائي وقال الذهبي وهذا حديث صحيح (البداية والنهاية ٢٠٩ / ٥) ورواه الحاكم وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بطوله (المستدرک ١٠٩ / ٣) ورواه الطبراني عن ابن عمر وابن أبي شيبه عن أبي هريرة وأحمد والطبراني وسعيد بن منصور عن أبي أيوب. والحاكم عن علي وأبو نعيم عن سعد (كنز العمال ٦١٠ / ١١)، وقال ابن كثير رواه أحمد وهذا إسناد جيد رجاله ثقات (البداية ٢١٢ / ٥).
(٢) رواه الطبراني (الزوائد ١٠٤ / ٩) والخطيب في الأفراد عن علي (كنز ١٣١ / ١٣) والبخاري وابن جرير وقال الهيثمي رجاله إسناد ثقات (كنز العمال ١٥٨ / ١٣).

الأكبر كتاب الله سبب طرفه بيد الله وطرف بأيديكم. فتمسكوا به لا تضلوا ولا تبدلوا. وعترتي أهل بيتي. وإنه قد نبأني اللطيف الخبير إنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض (١).

ولقد وردت روايات تفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أخذ البيعة لعلي. كان يذكر كل من يدخل عليه خيمته أو من يراه في منطقة الغدير. عن جابر بن عبد الله قال: كنا بالجحفة بغدير خم. وثم ناس كثير من جهينة ومزينة وخفار. فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من خباء أو فسطاط. فأشار بيده ثلاثا. فأخذ بيد علي. فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه (٢) وعن البراء بن عازب أن عمر بن الخطاب لقي بن أبي طالب بعد ذلك فقال: هنيئا لك يا ابن أبي طالب أصبحت وأمست مولى كل مؤمن ومؤمنة (٣). باختصار. شهد الغدير إعلان الحكم. وسمعتة قریش ومن ناصرهم. وانفرد المكان بهذا الحكم لتكون الحجة دامغة، وشاء الله أن تتفق الأمة على صحة هذا الحديث. وإذا كانت مقدمة الطريق مكة. حيث كانت حجة الوداع. فإن مقدمة الطريق شاهد من فيها وسمع البلاغ الذي يستقيم مع المساحة الواسعة. وشاء الله أن يشهد غدير خم ما أعلنه الرسول في مكة أمام هذه المساحة مضافا إليه ما أعلنه أمام قریش، أوائل الناس في الخير والشر كما ورد في الحديث. قال ابن كثير: قال الذهبي: وجدت نسخة مكتوبة عن ابن جرير

-
- (١) رواه ابن جرير الطبري (كنز العمال ٢٩٠ / ٥) والطبراني (كنز العمال ١٨٩ / ١) وابن أبي عاصم عن علي باختصار (كتاب السنة ٦٠٥ / ٢) وقال في كنز العمال رواه ابن راهويه وابن جرير وابن أبي عاصم والمحاملي في أماليه عن علي وإسناده صحيح (كنز العمال ١٤٠ / ١٣) ورواه ابن عساكر (البداية والنهاية ٢٤٩ / ٥).
- (٢) رواه البزار (كنز ١٣٧ / ١٣) وقال ابن كثير قال الذهبي إسناده حسن (البداية والنهاية ٢١٣ / ٥).
- (٣) رواه ابن أبي شيبة (كنز العمال ١٣٤ / ١٣) ورواه أبو يعلى (البداية والنهاية ٢١٠ / ٥)، وقال ابن كثير رواه ابن ماجه عن البراء وقد روى هذا الحديث عن سعد وطلحة وجابر وأبي سعيد الخدري وجرير وعمر وأبي هريرة (البداية ٣٥٠ / ٥).

عن عائشة بنت سعد سمعت أباها يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم الحجة. وقد أخذ بيد علي فخطب يوم قال: "أيها الناس إني وليكم. قالوا: صدقت. فرفع يد علي فقال: هذا وليي والمؤدي عني. وإن الله مولى من والاه ومعادي من عاداه (١)، لقد استقام البدء مع الختام. ففي حجة الوداع قال صلى الله عليه وسلم: "لا يؤدي عني إلا أنا أو علي" (٢)، وفي غدیر خم قال كما مر: "هذا وليي والمؤدي عني"، لقد استقبلت مساحة القيادة الاعلان التام للبدء والختام. ودارت الرحي.

ثالثا - الحجة على من لم يشهد الغدير:

لم يكن إعلان النبي في غدیر خم في خطبة واحدة. وإنما بعد خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم انتقل صلى الله عليه وسلم من قبيلة إلى قبيلة على امتداد الغدير وجاءوا إليه من هنا وهناك وهو في خيمته. وذكرهم وأخذ البيعة لعلي كما يستفاد من الأحاديث الواردة. وبعد وصول ركب النبي إلى المدينة بأيام. وصل أفراد سرية اليمن. التي بعثها النبي إلى هناك تحت قيادة علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد. وكان علي قد فارقه لحضور حجة الوداع وعاد مع الرسول صلى الله عليه وسلم حتى شهد يوم الغدير.

ويوم أن بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا إلى اليمن. روى عن أبي رافع أنه قال: لما مضى علي قال النبي صلى الله عليه وسلم: "يا أبا رافع الحقه ولا تدعه من خلفه. وليقف ولا يلتفت حتى أجيئه" فأتاه. فأوصاه بأشياء فقال: يا علي لأن يهدي الله على يديك رجلا خيرا لك مما طلعت عليه الشمس" (٣). ولقد كان لهذا الدعاء أثرا بالغما فيما بعد. فلقد كان مع علي في هذه الرحلة من ييغضه أشد البغض. وعندما عادت القافلة وأراد بعضهم أن يشكو عليا لرسول الله. خرجوا من عند النبي وحب علي يجري في عروقهم مجرى

(١) قال ابن كثير رواه ابن جرير وقال شيخنا الذهبي وهذا حديث حسن (البداة ٢١٣ / ٥).

(٢) تم تخرجه من قبل.

(٣) رواه الطبراني (كنز العمال ١٠٧ / ١٣).

الدم. وسجل التاريخ لهؤلاء أعظم الأثر على امتداد الرحلة بعد وفاة النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم. ومن هؤلاء بريدة الأسلمي والبراء بن عازب وعمران بن حصين وغيرهم، وروي أن خالد بن الوليد كان على رأس المبغضين لعلي والمحرضين عليه (١)، فعن البراء قال: بعث النبي صلى الله عليه وسلم جيشين فأمر علي أحدهما علي بن أبي طالب، ومع الآخر خالد بن الوليد. وقال: إذا كان القتال فعلي (٢). فافتتح علي حصنا فأخذ منه جارية. فكتب معي خالد كتابا إلى النبي يشي به. فقدمت على النبي فقرأ الكتاب. فتغير لونه. ثم قال: " ما ترى في رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله " قلت: أعوذ بالله من غضب الله وغضب الرسول. وإنما أنا رسول، فسكت النبي (٣)، وبعد هذه المقابلة كان البراء من المخلصين لعلي.

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه بريدة قال: أبغضت عليا بغضا لم يبغضه أحد قط، وأحببت رجلا من قريش لم أحبه إلا على بغضه علي - هو خالد - (٤)، فبعث هذا الرجل على خيل فصحبته ما أصبح به إلا على بغض عليا. فأصبنا سببا. فكتب إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم. ابعث إلينا من يخمسه. فبعث عليا، فأخذ منه جارية. فكتب الرجل - خالد - إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم. فقلت: ابعتني فبعثني مصدقا. فجعلت أقرأ الكتاب. وأقول: صدق. فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم يدي والكتاب. وقال: أتبغض عليا؟ قلت: نعم، قال: لا تبغضه وإن كنت تحبه فازدد له حبا، فوالذي نفسي بيده. لنصيب آل علي في الخمس أفضل من وصيفة. قال فما كان من الناس أحد بعد قول النبي صلى الله عليه وسلم أحب إلي من علي.

(١) قتل علي يوم بدر أخوه قيس بن الوليد ثلاثة من أبناء أعمامه.

(٢) أي إذا كان قتال فالقيادة لعلي.

(٣) رواه الترمذي وحسنه (الجامع ٦٣٨ / ٥) وابن أبي شيبة (كنز ١٣٤ / ١٣).

(٤) صرح باسمه في رواية أخرى عند الإمام أحمد (الفتح الرباني ٥٥ / ١٧)، وأيضا (كنز العمال ١٣٥ / ١٣).

قال عبد الله بن بريدة: فوالذي لا إله غيره ما بيني وبين النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث غير أبي بريدة (١)، وعن بريدة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: يا بريدة. أأنت أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: من كنت مولاه فعلي مولاه (٢) - وفي لفظ - من كنت وليه فعلي وليه (٣)، وفي رواية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تقع في علي فإنه مني وأنا منه وهو وليكم بعدي. وإنه مني وأنا منه وهو وليكم بعدي " (٤).

وعن عمرو بن شاس الأسلمي قال: خرجت مع علي إلى اليمن. فجأفاني في سفري ذلك. حتى وجدت في نفسي عليه. فلما قدمت أظهرت شكايته في المسجد. حتى بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم. فدخلت المسجد ذات غدوة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في ناس من أصحابه. فلما رأيته أبدى عينيه (أي: حدد إلي النظر) حتى إذا جلست قال: يا عمرو والله لقد آذيتني! قلت: أعوذ بالله أن أؤذيك يا رسول الله. قال: بلى من آذى علياً

(١) رواه أحمد (الفتح ٥٦ / ١٧) والبخاري في مختصره (الصحيح ٧٣ / ٣) وأبو نعيم (كنز العمال ١٣٥ / ١٣) وقال في الفتح أقسم ابن بريدة أنه تلقى هذا الحديث من والده بريدة مباشرة. وهو يفيد أن والده تلقاه من النبي مباشرة بغير واسطة يشير بذلك إلى علو السنن (الفتح ٢١٤ / ٢٢).

(٢) رواه أحمد وقال في الفتح قال الهيثمي رجال أحمد ثقات. وقال في موضع آخر رجاله رجال الصحيح (الفتح الرباني ٢١٣ / ٢١) ورواه ابن حبان وسموية والحاكم (كنز العمال ٦٠٩ / ١١).

(٣) رواه أحمد وقال في الفتح رواه أحمد والنسائي والحاكم وقال الهيثمي في موضع رجاله موثقون وفي موضع رجاله ثقات، وفي آخر رجاله رجال الصحيح (الفتح الرباني ٢١٣ / ٢١)، ورواه ابن أبي شيبه وابن جرير وأبو نعيم (كنز ١٣٤ / ١٣)، ورواه الحاكم وقال حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه (المستدرک ١١ / ٣).

(٤) رواه أحمد وأورده الهيثمي وقال رواه الترمذي باختصار ورواه أحمد والبزتر باختصار وفيه الأجلح الكندي وثقه ابن معين وبقية رجاله أحمد رجال الصحيح. وقال في الفتح أقسم ابن بريدة أنه تلقى هذا الحديث من والده (الفتح الرباني ٢١٤ / ٢١).

فقد آذاني (١).

وروى الحافظ البيهقي: أن سعد بن مالك كان فيمن خرج مع علي إلى اليمن وأصابه من علي بن أبي طالب بعض الغلظة والتضييق. وذلك منهم من استخدام إبل الصدقة. فاستخدموها فذمهم ولامهم. يقول سعد: فلما جاء - علي - عرف في إبل الصدقة أنها ركبت. فذم الذي أمره ولامه فقلت: أما إن لله علي أن قدمت المدينة وغدوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأذكرن لرسول الله ولأخبرنه ما لقينا من الغلظة والتضييق. فلما قدمنا المدينة. لقيت أبا بكر خارجا من عند رسول الله. فلما رأيته وقف معي. ورحب بي وسألني وسألته. وقال: متى قدمت؟ قلت: قدمت البارحة. فرجع معي إلى رسول الله!! وقال أبو بكر: هذا سعد بن مالك بن الشهيد. فقال النبي: ائذن له. فدخلت. فحييت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياني. وسلمت عليه وسألني عن نفسي وأهلي. فأخفى المسألة. فقلت: يا رسول الله. لقينا من علي بن أبي طالب ما لقينا منه! حتى إذا كنت وسط كلامي. ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم علي فخذي وكنت منه قريبا. وقال: سعد بن مالك بن الشهيد!! مه بغض قومك لأخيك علي. فوالله لقد علمت أنه جيش في سبيل الله. قال سعد: فقلت في نفسي: ثكلتك أمك سعد بن مالك. ألا أراني كنت فيما يكره منذ اليوم. وما أدري لا جرم. والله لا أذكره بسوء أبدا سرا ولا علانية (٢).

وعن عمران بن حصين. قال: بعث رسول الله سرية وأمر عليها علي بن أبي طالب. فأحدث شيئا في سفره فتعاقد أربعة من أصحاب محمد أن يذكروا أمره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال عمران: وكنا إذا قدمنا من

(١) رواه أحمد (الفتح ١٢٠ / ٢٣) وقال الهيثمي رواه أحمد والطبراني باختصار والبرار أحضر منه ورجال أحمد ثقات ورواه ابن حبان في صحيحه (الزوائد ١٢٩ / ٩)، ورواه الحاكم وقال حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (المستدرک ١٢٢ / ٣)، ورواه ابن أبي شيبه وابن سعد والبخاري في تاريخه والطبراني (كنز العمال ١٤٢ / ١٣) وقال ابن كثير رواه غير واحد. (البداية والنهاية ٣٤٧ / ٧).

(٢) رواه البيهقي (البداية والنهاية ٣٤٦ / ٧).

سفر بدأنا برسول الله فسلمنا عليه. قال: فدخلوا عليه. فقام رجل منهم. فقال: يا رسول الله إن عليا فعل كذا وكذا. فأعرض عنه. ثم قام الثاني فقال: يا رسول الله إن عليا فعل كذا وكذا. فأعرض عنه. ثم قام الثالث فقال: يا رسول الله إن عليا فعل كذا وكذا. فأعرض عنه. ثم قام الرابع فقال: يا رسول الله إن عليا فعل كذا وكذا قال: فأقبل رسول الله على الرابع وقد تغير وجهه. وقال: دعوا عليا - دعوا عليا - إن عليا مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي " (١).

وهكذا أقيمت الحجة على سرية اليمن. التي قال النبي فيها لعلي عند بداية رحلته " يا علي لأن يهدي الله على يديك رجلا خيرا لك مما طلعت عليه الشمس " ولقد صدق رسول الله وانتقل رجال من دائرة البغض إلى دائرة الحب. وظل النبي يحيط بقيادة علي بن أبي طالب بالرعاية وتسليط الضوء عليها ليقوم الحجة الدامغة. ولم تكن الحجج من نصيب سرية اليمن وحدها بعد غدير خم وإنما شملت آخرين فعن سعد بن أبي وقاص قال: كنت جالسا في المسجد أنا ورجلين معي. فنلنا من علي بن أبي طالب. فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله غضبان. يعرف في وجهه الغضب. فتعوذت بالله من غضبه. فقال: ما لكم وما لي!! من آذى عليا فقد آذاني (٢)، وعن أبي سعيد الخدري قال: اشتكى عليا الناس. فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فينا خطيبا فسمعتة يقول: أيها الناس لا تشكوا عليا!! فوالله إنه لأخشن في ذات الله. أو في سبيل الله (٣). وعن وهب ابن حمزة قال: سافرت مع علي بن أبي طالب من المدينة إلى مكة. فرأيت منه جفوة. فقلت: لئن رجعت فلقيت رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) رواه الترمذي وحسنه، والنسائي وأبو يعلى (البداية ٣٤٥ / ٧).

(٢) قال الهيثمي رواه أبو يعلى والبخاري باختصار، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح غير محمود بن خدّاش وقنان وهما ثقتان (الزوائد ١٢٩ / ٩)، وذكره ابن كثير وقال رواه أبو يعلى (البداية ٣٤٧ / ٧).

(٣) رواه أحمد (الفتح ٢٠ / ٢٣) والحاكم وأقره الذهبي (المستدرک ١٣٤ / ٣) وأبو نعيم في الحلية (كنز ٦٢٠ / ١١) وقال ابن كثير تفرد به أحمد (البداية ٣٤٦ / ٥).

وسلم. لأنال مننه قال: فرجعت فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت عليا فقلت عنه. فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تقولن هذا لعلي. فإن عليا وليكم بعدي " (١).

ولكي يكتمل تصور (هو وليكم بعدي) ويرسخ في الأذهان. تلى رسول الله صلى الله عليه وسلم آية من سورة المائدة آخر سور القرآن نزولا. وكانت الآية في علي بن أبي طالب. قال تعالى: (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) (٢).

قال المفسرون: اشتمل قوله تعالى من السياق. على ما يدل على وحدة ما في معنى الولاية المذكورة فيه. حيث تضمن العد في قوله: (الله ورسوله والذين آمنوا)، وأسند الجميع إلى قوله " وليكم " وظاهره كون الولاية في الجميع بمعنى واحد. ويؤيد ذلك أيضا قوله في الآية التالية: (فإن حزب الله هم الغالبون)، حيث يشعر أو يدل على كون المتولين جميعا حزبا لله. لكونهم تحت ولايته. فولاية الرسول والذين آمنوا. إنما هي من سنخ ولاية الله.. ولو كانت الولاية المنسوبة إلى الله في الآية. غير المنسوبة إلى الذين آمنوا. كان الأنسب أن تفرد ولاية أخرى للمؤمنين بالذكر. رفعا للالتباس. كما وقع في نظيرها قال تعالى: (.. قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) (٣)، فكرر لفظ الإيمان. لما كان في كل من الموضوعين. لمعنى غير الآخر.

على أن لفظ (وليكم) أتى به مفردا وقد نسب إلى الذين آمنوا وهو جمع. وقد وجهه المفسرون بكونه الولاية. ذات معنى واحد، هو لله سبحانه على الإصابة ولغيره بالتبع... والروايات تدل على أن الآيتين نازلتان في علي بن أبي طالب. فقوله تعالى: (والذين آمنوا)، إطلاق للجمع وإرادة للواحد. وقد كثر

(١) رواه أبو يعلى (البداية ٣٤٦ / ٧).

(٢) سورة المائدة: الآية ٥٦.

(٣) سورة التوبة: الآية ٦١.

في القرآن الحكم أو الوعد والوعيد للجماعة. والحقيقة حسب أسباب النزول للمفرد كقوله تعالى: (يسألونك ماذا ينفقون قل العفو) (١)، وقوله تعالى: (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) (٢)، وقوله تعالى: (الذين يظاهرون - من نسائهم ثم يعودون لما قالوا) (٣)، وقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء) (٤)، وقد صح في أسباب النزول أن المراد به حاطب بن أبي بلتعة في مكاتبة قريش. وقوله تعالى: (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) (٥)، وقد صح أن القائل عبد الله بن أبي سلول. وقوله تعالى: (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار) (٦)، وقد ورد أنها نزلت في علي بن أبي طالب، وقوله تعالى: (يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى) (٧)، والقائل هو عبد الله بن أبي، وهذه الآية واقعة بين الآيات المبحوث عنها نفسها إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي وردت بلفظ الجمع ومصدقها حسب أسباب النزول مفرد.

أما الحديث الذي يشهد بأن الآية نزلت في علي بن أبي طالب. فقد اتفق على نقله من غير رد أئمة التفسير بالمأثور. واتفق عليه أحمد والنسائي والطبراني والطبري وعبد بن حميد وغيرهم من الحفاظ وأئمة الحديث. فعن ابن عباس قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس يصلون بين راعع وساجد وقائم وقاعد. وإذا مسكين يسأل. فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: أعطاك أحد شيئاً؟ قال: نعم، قال: من؟ قال: ذلك الرجل القائم، قال:

-
- (١) سورة البقرة: الآية ٢١٩.
 - (٢) سورة آل عمران: الآية ١٨١، والقائل يهودي اسمه قحاص (تفسير ابن كثير ٤٣٤ / ١).
 - (٣) سورة المجادلة: الآية ٢ و ٣، والذي ظاهر هو أوس وكان تحته ابنة عم يقال لها خولة (تفسير ابن كثير ٣٢٠ / ٤).
 - (٤) سورة الممتحنة: الآية ١، نزلت في حاطب بن أبي بلتعة (تفسير ابن كثير ٣٤٥ / ٤).
 - (٥) سورة المنافقون: الآية ٨، والقائل عبد الله بن سلول (تفسير ابن كثير ٣٧١ / ٤).
 - (٦) سورة البقرة: الآية ٢٧٤، نزلت في علي بن أبي طالب (تفسير ابن كثير ٣٢٦ / ١).
 - (٧) سورة المائدة: الآية ٥٢، نزلت في عبد الله بن أبي (تفسير ابن كثير ٦٨ / ٢).

على أي حال أعطاكه؟ قال: وهو راعع، قال: وذلك علي بن أبي طالب. قال: فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول: (ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) (١).

وقال ابن كثير، قال ابن جرير. الآية نزلت في علي بن طالب تصدق وهو راعع (٢)، وروى الطبراني: بطريق إلى عيسى بن عبد الله بن عبيد الله بن عمر بن علي بن أبي طالب قال: حدثني أبي عن أبيه عن جده عن علي قال: "نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا...) الآية، فخرج رسول الله فدخل المسجد والناس يصلون بين راعع وقائم وإذا سائل. فقال: يا سائل هل أعطاك أحد شيئاً. فقال: لا إلا ها ذاك الراعع - لعلني - أعطاني خاتمه (٣).

إنها المنقبة التي جمعت أحداث الغدير. منقبة تفرد بها علي فتصدق وهو راعع. ليستقيم هذا التفرد. مع تفرد الغدير بحديث واحد وحدث واحد. فإذا قيل: ماذا قال النبي في الغدير؟ تردد صدق الإجابة مع إجابة سؤال: من الذي تصدق وهو راعع؟ إنه موقف التفرد وسط مواقف كثيرة، فلقد روى عن ابن عباس قال: "نزلت على ثلاثمائة آية" (٤). وعنه. قال: "كان لعلني ثمانين عشر منقبة ما كانت لأحد من هذه الأمة" (٥)، وإذا لا خلاف على أن منقبة علي بن أبي طالب في هذه الآية واحدة من هذه المناقب التي لم يتمتع بها غيره. إن ظلال ولاية الله ورسوله والذين آمنوا، يلتقي مع ظلال وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم. وتحت هذا الظلال ينتهي الطريق إلى سعادة الدنيا والآخرة. ولقد قامت الحجة في أول الطريق وشاع حديث الكساء

(١) رواه ابن مردويه (تفسير ابن كثير ٧١ / ٢).

(٢) تفسير ابن كثير ٧١ / ٢.

(٣) رواه الطبراني (البداية والنهاية ٣٥٨ / ٥).

(٤) تاريخ الخلفاء / السيوطي ص ١٦١.

(٥) تاريخ الخلفاء ص ١٦١.

والمباهلة والمنزلة والولاية بين الناس. والماضي زاد للحاضر. والقرآن حث على النظر إلى الماضي كي يتبين الإنسان في الحاضر خطأه. لأن الماضي لا يعمل فيه برنامج واحد ولم يكن ملكا لدائرة واحدة. فالنظر والتدبر فريضة حتى لا يلد الحاضر مستقبلا كسيحا. نكون نحن بالنسبة إليه ماضيا وحتما في عالم الكساح لن يكتب للذين لم يتدبروا الخلود.

(١٩٤)

خامسا - النور بين التحذير والتبشير

في بداية الطريق غرس الله تعالى في الإنسان ما يهديه سلوك الصراط المستقيم. وبعث سبحانه الأنبياء والرسل كي يسوقوا الناس نحو ربهم بعيدا على الأشواك وخيام الشذوذ التي أقامها الشيطان وأولياؤه. فالدين الذي يأتي به رسل الله عليهم السلام هو الطريقة الوحيدة التي تؤمن صلاح الدنيا بما يوافق الكمال الأخروي والحياة الدائمة الحقيقية. ومن رفض الدين فقد أعرض عن الذكر والعبادة التي من أجلها خلق الله الإنسان. وعلى هذا يدخل بأقدامه في دائرة الضنك حيث ضيق المعيشة في الدنيا ثم في دائرة العمى يوم القيامة. والله تعالى لا يظلم الناس. والعذاب الذي يروونه في الدنيا وسيروونه في الآخرة هو نتيجة طبيعية لأعمالهم.. ومنذ فجر التاريخ تأتي الأمم وتجري عليها سنة الابتلاء والامتحان. تلك السنة الإلهية التي لا يستثنى منها المؤمن والكافر والمحسن والمسيء. وتحت هذه السنة يمتحن الله تعالى البشر. بكل جزء من أجزاء العالم وكل حالة من حالاته التي لها صلة بالإنسان ليعلم سبحانه كيف وإلى أين سيوجه الإنسان إرادته واختياره. ومن هو المحسن ومن هو المسيء، ومن الصابر ومن القانط إلى غير ذلك، وما من امتحان يفتح إلا وفيه حجة من الله ترشد إلى طريق الحق لأن الله تعالى أوجب على نفسه فتح الطريق لعباده وهدايتهم إليه. وبني إسرائيل أمة من الأمم التي اختبرها الله تعالى وفي البداية قال لهم موسى عليه السلام كما أخبر تعالى: (قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم

ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) (١).
وأقام عليهم موسى وهارون الحجة تلو الحجة، وجاء من بعدهما أنبياء
لبنى إسرائيل فكذبوا من كذبوا وقتلوا من قتلوا. في نهاية المطاف فاز من بنى
إسرائيل من فاز ولعن من لعن. والحجة على رأس الجميع يوم القيامة. والأمة
الخاتمة، يقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: (ولقد أهلكنا القرون
من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا، كذلك نجزي
القوم المجرمين * ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف
تعملون) (٢).

ولما كان الاستخلاف يخضع لسنة الامتحان الإلهي، فما ترك رسول الله
صلى الله عليه وسلم من شيء إلا وحدد جانب الهدى فيه، وهو يخبر عن
ربه جل وعلا. فإذا كان الله هو الذي يجري الامتحان على عباده، فهو الذي يبين
النجاة من كل شيء إلى عباده. قال تعالى لرسوله: (ليس لك من الأمر
شيء) (٣).

فالضعف والقوة والإخزاء والإغاظة وغير ذلك ليس للنبي فيه ضلع، والأمر
فيه لله.

وقال تعالى لرسوله: (واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم) (٤).
ومن العجيب أن يقول القوم أن الأمر لهم في تنصيب ما يشاؤون، ومع
اختيارهم، ولأن الأمر لهم ركب على أعناق الأمة أغيلمة قريش الذين مهدوا
للسفهاء وأولاد الزنا أصحاب أطروحات الاغواء والتزيين والاحتناك.
ومن الأعجب، إن الله تعالى يقول لرسوله: (استقم كما أمرت)، وهم لا

(١) سورة الأعراف: الآية ١٢٩.

(٢) سورة يونس: الآية ١٣ و ١٤.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٢٨.

(٤) سورة الشورى: الآية ١٥.

يطبقون أن يقال لهم اتقوا الله. وجمعوا فريقاً من الناس وقالوا: هؤلاء رمزا للاستقامة والعدالة، وإذا أخطأ فله أجر وإذا أصاب فله أجران، وإذا قتل فهو القتل تحت عنوان: سيدنا قتل سيدنا من أجل سيدنا رضي الله عنهم أجمعين. وهذا الخلط أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقيم الحجة بعد أن أقام القرآن حجته على أن الجميع - سيدنا وغير سيدنا - يخضع للسنة الإلهية للابتلاء والامتحان، وتحت هذه السنة لا ينبغي للناس أن يزكوا أنفسهم لأن الله أعلم بالمتقين.

١ - النبي يحذر من أصول الفتن:

في غدير خم وعلى امتداد الرحلة أقام النبي صلى الله عليه وسلم الحجة على قريش ومن والاهم وعلى سكان العاصمة الإسلامية أن القيادة محصورة في دائرة لا تأكل الصدقة. ولهذه الدائرة ذروة كما لكل شيء ذروة، وعندما يحث النبي على شيء ويبالغ في الحث عليه إشارة إلى أن المحذر منه سيقع. والنبي كان يعلم من ربه أن الأمة مختلفة من بعده ولأن الاختلاف واقع لا محالة فبث الحجة بطرق مختلفة ضرورة والله لا يظلم الناس. في البداية خلق سبحانه آدم للخلافة في الأرض، وقبل أن يخلقه قال لملائكته: (إني جاعل في الأرض خليفة) (١).

لم يقل في الجنة وإنما في الأرض، وبعد خلق آدم نهاه الله عن شجرة وحذره من شيطان. وانطلق آدم وزوجه عليهما السلام في الجنة باختيارهما. لم يدفعاً للهبوط إلى الأرض لممارسة واجب الخلافة. لأن الله لا يظلم أحداً. وهو سبحانه قادر على خلقهما ودفعهما نحو الأرض. ولكن لكل شيء هدف ومن وراء الهدف حكمة. فلو حدث هذا ما ظهر النفاق الشيطاني وبرنامجه، وما ظهرت دائرة العزم والاختيار عند الإنسان. وآدم وزوجه عليهما السلام كانا منذ

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

البداية من المخلصين الذين لا يقدر عليهم الشيطان بشرك أو نحوه. ولم يجد الشيطان منفذا يؤكد من التزيين لهما سوى أن يقسم بالله أنه لهما من الناصحين (وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين) (١).

وما كان آدم يظن أن هناك من يقسم بالله كذبا في هذا العالم الطاهر التقى. وحدث ما حدث. وخرجا من الجنة وفقا لعزمهما واختيارهما ليمارسا واجب الخلافة في الأرض التي من أجلها خلقا.

والله تعالى قبل خلق آدم علم بعلمه المطلق أن خلقه سيسلكون هنا ويتركون هناك، ولو شاء سبحانه ما فعلوا هذا أو ذاك. لأن كل شيء تحت سلطانه ولا يستطيع أحد من خلقه أن يلفظ من قول إلا بإذنه، وعلى الأرض تاب الله على آدم وزوجه واصطفاه وبعث إلى ذريته الأنبياء والرسل. وفي بحور البشرية لبس القسم ألف وجه. وكان مادة أساسية لعرقلة الطريق أمام الذين عطلوا ملكة البصيرة والتفكر في ملك الله الواسع العريض. والأمة الخاتمة جزء من المسيرة البشرية. عرضة لعواصف القسم والدجل. لهذا بث النبي الحجة حتى لا يكون للناس على الله حجة. واختلاف الأمة ورد في آيات كثيرة من القرآن وروى عن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "آتاني جبريل فقال: يا محمد إن أمتك مختلفة من بعدك" (٢).

ودائرة الاختلاف لن تكون على مائدة طعام وإنما على الرأس. لأن من ملك الرأس وضع يده على كل بساط. فعن خالد بن عرفطة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنكم ستبتلون في أهل بيتي من بعدي" (٣). فالاختبار هنا وليس في مكان غير هذا. والاختبار هنا لأن الكتاب هنا. والله لا يختبر إلا فيما أمر ونهى. وما ربك بظلام للعبيد. ولما كان علي بن أبي طالب هو رأس أهل البيت فإنه ضمن المادة التي تختبر الأمة فيها. فعنه أنه قال:

(١) سورة الأعراف: الآية ٢١.

(٢) رواه أحمد (الفتح الرباني ١٨٦ / ١).

(٣) رواه الطبراني (كنز العمال ١٢٤ / ١١).

إن مما عهد إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الأمة ستغدر بك بعدي " (١).

والنبي الأكرم صلى الله عليه وسلم، سأل ربه أن لا يفرق أمته، وأن لا يجعل بأسهم فيما بينهم. ولكن الله الذي يعلم ما تحتويه طينة كل إنسان من خلقه أبى عليه. روي عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة. سألت ربي أن لا يهلك أمتي بسنة فأعطانيها. وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرور فأعطانيها. وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها - وفي رواية - وسألته أن لا يلبسهم شيئاً فأبى علي " (٢).

فالباب الذي منعه الله غمرته الحجج من كل مكان، والآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التي تحذر من الاختلاف والافتراق والبغي والاستكبار والإنكار وغير ذلك وتحث على الطاعة والوحدة والأخلاق والاستقامة وغير ذلك لا يخلو منها مصدر إسلامي. ونحن هنا لا نسلط ضوء الحجة إلا على دائرة الجيل الأول في القرن الهجري الأول. لأن على حركة هذا الجيل دارت العجلة آخذة من ورائها في كل زمان الماضي والحاضر وهي تتقدم نحو المستقبل. ولأن الجيل الأول هو العجينة التي سبأكل من خبزها الجميع ما ترك النبي باباً إلا وتكلم فيه، عن أبو زيد قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن، فأعلمنا

(١) رواه البيهقي وقال ابن كثير ابن كثير سنده صحيح (البداية ٢١٨ / ٦) ورواه البزار بسند صحيح والحاكم وقال حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (المستدرک ١٤٠ / ٣).
(٢) رواه مسلم ك الفتن (الصحيح ١٤ / ١٨) وأحمد (الفتح ٢١٥ / ٢٣) وأحمد وابن ماجه بسند صحيح (كنز ١٢١ / ١١) والترمذي والنسائي وابن حبان والضياء عن خباب (كنز ١٢٢ / ١١).

أحفظنا " (١).

كان النبي يعلم من ربه أن الفتنة إذا انطلقت فلن تنطلق إلا من عند الذين سمعوا منه وشاهدوه. وإنها ستسير بوقودهم على امتداد التاريخ، ولهذا كان يشير ويحذر. فعن أسامة قال: أشرف النبي صلى الله عليه وسلم على أطم (٢) من أطام المدينة ثم قال: هل ترون ما أرى؟ إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر " (٣).

والتشبيه بمواقع القطر أي أنها كثيرة وتعم الناس. وقال النووي: وهذا إشارة إلى الحروب الجارية بينهم... وفيه معجزة ظاهرة له صلى الله عليه وسلم (٤) لأن ما أخبر به وقع.

وإذا كان النبي قد أشار إلى مواقع الفتن على ساحة المدينة الواسعة فإنه صلى الله عليه وسلم أشار إليها في ساحة أضيق. فعن أم سلمة قالت: استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وهو يقول: لا إله إلا الله ما فتح الليلة من الخزائن؟ لا إلا إلا الله ما أنزل الليلة من الفتن؟ من يوقظ صواحب الحجر، يريد به أزواجه... يا رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة " (٥).

وقيل في المعنى: كاسية من نعم الله، عارية من الشكر الذي تظهر ثمرته في الآخرة (٦)، ومن ساحة بيوت النبي حيث المساحة الضيقة، أشار عليه الصلاة والسلام إلى ساحة أضيق، روى البخاري عن عبد الله قال: قام النبي صلى الله عليه وسلم خطيباً فأشار نحو مسكن عائشة فقال: ها هنا الفتنة، ها هنا

(١) رواه مسلم ك الفتنة (الصحيح ١٦ / ١٨) وأحمد (الفتح ٢٧٢ / ٢١).

(٢) الأطم / القصر أو الحصن.

(٣) رواه البخاري ك الحج (الصحيح ٣٢٢ / ١)، ومسلم (الصحيح ٧ / ١٨).

(٤) شرح مسلم ٧ / ١٨.

(٥) البخاري ك اللباس (الصحيح ٣٣ / ٤) والترمذي وصححه (الجامع ٤٨٨ / ٤) وأحمد

الفتح ٣٤ / ٢٣).

(٦) فتح الباري ٢٣ / ٦٠.

الفتنة، ها هنا الفتنة. من حيث يطلع قرن الشيطان " (١).

٢ - الرسول ونظرات على واقع بعيد:

لم يكن النبي يحذر من الفتن فقط، وإنما كان يبين لمن حوله أن الفتنة إذا هبت انطلق دخانها في سماء العصور والدهور. وعلى امتداد هذه المسيرة يدون لها ثقافات وقوانين لا تخدم إلا أنصار الشذوذ الذين لا هم لهم إلا التعقيم على نور الفطرة والصد عن السبيل. وفي نهاية المطاف يستخدم المسيح الدجال هذه الأوراق لصالحه.

والدجال أعظم فتنة منذ ذرأ الله ذرية آدم وما من نبي إلا وحذر قومه الدجال، ولقد حذر نوح قومه منه ليس على أساس أنه خارج فيهم. لأن نوح كان يعلم من ربه أنه يخرج في الأمة الخاتمة. وإنما حذرهم من نسيج الشذوذ. لأن كل نسيج من هذا يتلقفه الشيطان ويلقيه على رأس البشرية من جيل إلى جيل، حتى يستقر عند الدجال آخر الزمان، والنبي حذر أصحابه على هذا النحو، لأن الدجال خارج في الأمة الخاتمة لا محالة. فعن حذيفة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لأنا لفتنة بعضكم بعضاً أخوف عندي من فتنة الدجال. ولن ينجو أحد مما قبلها إلا نجا منها، وما صنعت فتنة منذ كانت الدنيا صغيرة ولا كبيرة إلا لفتنة الدجال" (٢).

فالشذوذ حلقات، وحلقات الشذوذ يصنعها أصحاب القسم الزائف، أي الأئمة المضلين، فعن أبي ذر قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "غير الدجال أخوف على أمتي؟".

قلت: يا رسول الله أي شيء أخوف على أمتك من الدجال؟

(١) رواه البخاري (فتح الباري شرح صحيح البخاري حديث رقم ٣١٠٤ ص ٢٤٣ / ٦ ط دار الريان).

(٢) رواه أحمد والبزار وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الزوائد ٣٣٥ / ٧).

قال: " الأئمة المضلين " (١).

فهؤلاء الباب الذي يدون عنده القانون ذو الغلاف المزخرف، الخارج عنه في عرفهم خارج عن الدين، ولأن الدين غلافه في عالمهم. يكون القابض على دينه كالقابض على الجمر.

والنبي صلى الله عليه وسلم حدد ثلاث فتن: الأولى فيها موت والثانية فيها قتل والثالثة فيها الدجال، ومن نجا عند الباب نجا عند الدجال. عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثلاثة من نجا منها فقد نجا. من نجا عند موتي فقد نجا، ومن نجا عند قتل خليفة يقتل مظلوما وهو مصطبر يعطي الحق من نفسه فقد نجا. ومن نجا من فتنة الدجال فقد نجا " (٢).

فعند موته صلى الله عليه وسلم تحدث أحداث من نجا منها فقد نجا، فهذه الأحداث باب وهذا الباب يوصل إلى الحلقة الثانية. حيث الخليفة المظلوم. فمن وقف في دائرة المظلوم الذي يعطي الحق ثم يأتيه القتل وهو مظلوم فقد نجا، وكم من خليفة قتل على امتداد التاريخ الإسلامي. وكل حزب وكل قبيلة تقسم أن خليفته قتل مظلوما. ولكي لا تضع الحقيقة لصالح الدجال فلا بد لتحديد الخليفة أن يقال: خليفة من؟ فإن قيل: خليفة لله، قلنا: ما البرهان؟ إذا نسب أي شيء إلى الله لا بد أن يكون عليه دليل. ألم تر أن المشركين كانوا إذا فعلوا فاحشة قالوا أن الله أمرهم بهذا. ألم تر أنهم عبدوا من دون الله ما لا ينفع ولا يضر وقالوا لو شاء الله ما أشركنا ولم يكن معهم دليل على هذا وذاك. ألم ترى أن عبادة الأصنام دخلت من باب التقرب إلى الله والله برئ من المشركين.

(١) رواه أحمد وقال في الفتح الرباني إسناده حسن (الفتح ٢٦ / ٢٣).

(٢) رواه الطبراني والخطيب وأحمد والضياء بسند صحيح عن عبد الله بن حوالة (كنز ١٨٠ / ١١) والحاكم وصححه (المستدرک ١٠١ / ٣).

ألم تر أن دأب القرآن التمييز بين الحق والباطل والعلم والجهل والجهاد والقعود وغير هذا حتى يكون لكل شئ معالمه ولا تختلط الأوراق. حتى النبوة لا بد أن يكون عليها من الله برهان، والإمامة قال تعالى فيها لإبراهيم عليه السلام: (لا ينال عهدي الظالمين) (١). وعلى هذا لا بد أن يحدد للناس من العادل ويكون عدله حجة بذاتها على الظالمين.

وكذلك الخلافة. فالخلافة عنه تعالى منزلة. وما دامت عنه تعالى فهو سبحانه الذي يحدد دائرتها. فكم من دائرة إنسانية مهمتها الصد عن السبيل وكل دائرة لها أسماؤها الرنانة. وإذا كان الشيطان قد زخرف قاموس الأسماء وخرج من أتباعه من يدعي الألوهية والنبوة ومراتب الصلاح فلا بد أن يقابل هذا الدوائر الحق التي تشير للناس نحو دوائر الزيف وتسوقهم إلى الصراط المستقيم. والقرآن أشار إلى دائرة الخلافة وكيف نسبها الله إلى نفسه. فداوود عليه السلام كان رسولا. وبمنزلة الرسالة كان يحق له أن يدخل أي دائرة من دوائر الهدى ولكنه لم يدخل إلا بإذنه، قال تعالى: (يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق) (٢).

فالخلافة ليست وجهة، لا بد للخليفة أن يتخلق بأخلاق الله. ويريد ويفعل ما يريده الله. ويحكم ويقضي بما يقضي به الله. والله يقضي بالحق وأن يسلك سبيل الله ويسوق الناس إليه ولا يتعداه. ولا يتبع في قضائه الهوى هوى النفس لأنه يضل عن الحق. ولهذا وصف النبي الخليفة المظلوم الذي يقتل فقال: "خليفة يقتل مظلوما وهو مصطبر يعطي الحق من نفسه". ودائرة الخلافة لا يجب أن تفترق عن القرآن ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إني تارك فيكم خليفتين كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يتفرقا حتى يرثي علي

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٢) سورة ص: الآية ٢٦.

الحوض " (١).

والدائرة الثانية في الحديث دائرة الخليفة الذي يقتل مظلوما، تمهد للدائرة الثالثة التي يتربع فيها الدجال. والطريق بين الدائرتين يجلس فيه القاتل. أي قاتل الخليفة المظلوم. فمن تبين هذه الحقيقة بعد قتل الخليفة. فقد نجا مثل الذين نصروا الخليفة المظلوم في حياته. فعن عبد الله بن مسعود. قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله. كيف تقول في الرجل أحب قوما ولم يلحق بهم؟ فقال النبي: المرء مع من أحب (٢)، أما من وضع على عينيه الغمامة ومر على الخطيئة مر الكرام. فيجيبه أبو العرس بن عميرة. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرها كمن غاب عنها. ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها (٣)، فمن غاب عنها ورضي وشارك الذي شهدها ورضي وإن بعدت المسافة وبعد الزمان بينهما.

والفتنة في كل حلقة لا بد من أن تترك أثرا لها على القلوب. فمن أنكر لا يتعكر قلبه. ومن رضي تعكر قلبه ودخل على فتنة الدجال وهو يهمل للدجال مغديا له بالروح والدم والمال. وعن أثر الفتن على القلوب. يقول حذيفة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " تعرض الفتن على القلوب. فأأي قلب أنكرها. نكتت في قلبه نكتة بيضاء. وأي قلب لم ينكرها نكتت في قلبه نكتة سوداء. حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا. لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض. والآخر أسود مربدا كالكوز مجفيا. لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا. إلا ما شرب من هواه " (٤)، ومن أجل هذا لا بد من البحث عن الحقيقة. لأن الحلقة القادمة هي حلقة الدجال. ومن دخل عليها وهو عارف بحقيقتها فقد

(١) رواه أحمد وقال الهيثمي إسناده جيد (الزوائد ١٩٣ / ٩).

(٢) رواه البخاري ك الآداب (الصحيح ٧٧ / ٤).

(٣) رواه أبو داود حديث ٤٣٤٥.

(٤) رواه أحمد (كنز العمال ١١٩ / ١١) والحاكم وصححه (المستدرک ٤٦٨ / ٤).

نجا. أما الذي يدخلها لبحث عن الحقيقة بداخلها، فلن ينفعه إيمانه لأن لله آيات لا ينفع فيها إيمان نفس لم تكن آمنت من قبل. قال تعالى: (يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً أيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون) (١)، وهذه الآيات حددها النبي صلى الله عليه وسلم فقال: " ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً أيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في أيمانها خيراً. الدجال والدابة. وطلوع الشمس من المغرب "، رواه الترمذي وغيره (٢).

فالنبي صلى الله عليه وسلم حذر من أصول الفتن وهو يشير إلى بيوت أصحابه. وحذر من فتنة قومه وفتنة قتل الخليفة القائم بالحق. وبين أن الفتنة كبرها وصغيرها يقود إلى الدجال. كان يحذر وفي التحذير حجة كي لا يفتح فاتح الباب.

٣ - النبي يحذر من رموز الفتن:

بعد أن بين النبي المكان والزمان الذي تهب منه الفتنة، وبعد أن بين إلى أين تتجه الفتنة. خوفهم من رموز الفتن. كي ترعد أيديهم إذا حاولوا فتح الباب. وأخبرهم بأنهم (بعده) سيختلفون بعد أن جاءهم العلم وإنهم سيحرصون على الإمارة (٣)، وإن حرصهم عليها سيقودهم إلى سنن الذين من قبلهم. وإن الطريق سينتهي بهم إلى حيث لا قيادة وإن كانت هناك قيادة. فلن يدري القاتل في أي شيء قتل. ولن يدري المقتول في أي شيء قتل (٤). ونحن هنا سنقدم نخبة من الأحاديث التي فيها كلمة (بعدي) فلعلها تفيد الباحث عن الحقيقة. وقبل ذلك نقدم هذه النخبة لتكون فاتحة عن عمران بن حصين قال: قال النبي صلى الله عليه

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥٨.

(٢) راجع كتابنا عقيدة المسيح الدجال.

(٣) رواه البخاري ك الفتنة (الصحيح ٢٣٥ / ٤).

(٤) رواه مسلم ك الفتنة (الصحيح ٣٤ / ١٨).

وسلم: " أكثر ما أتخوف على أمتي من بعدي رجل يتأول القرآن. يضعه على غير مواضعه. ورجل يرى أنه أحق بهذا الأمر من غيره " (١)، ومن العجيب أنهم يقولون. أن الرسول ترك الأمر هكذا في الرياح. كيف وهو كان يخاف أن يأتي من يرى أن أحق بهذا الأمر من غيره؟ هل يترك القرآن ليتلعب به الناس؟ هل يترك الأمر حتى يناله سفهاء قريش ويتسموا بأمراء المؤمنين وهم في بطون أمهاتهم؟ كيف؟ وهو الذي بلغ الرسالة ونصح الأمة وتركها على المحجة البيضاء نهارها وليلها سواء.

وإذا كان الأمر هكذا فكيف يترك النبي هؤلاء يزحفون إلى النار وهو المبعوث رحمة للعالمين. لا بد أن يقيم عليهم الحجة أولا ثم ليزحفوا وقتما شاؤوا. ويوم القيامة لا يفيد الندم ولا يكون لهم على الله حجة. وهذه الحقيقة ترى في حديث أبي هريرة. قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: يوشك رجل أن يتمنى أنه خر من الثريا ولم يل من أمر الناس شيئا " (٢)، ومن دائرة الرجل ينتقل التحذير إلى دائرة أوسع. فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لئتمنين أقوام ولوا هذا الأمر أنهم خروا من الثريا وأنهم لم يولوا شيئا " (٣)، وينتقل التحذير إلى دائرة المرتزقة الذين يجيدون الأكل والتهاتف على موائد الرجال وأقوامهم. فعن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ويل للأمرء وويل للعرفاء وويل للأمناء. لئتمنين أقوام يوم القيامة. أن نواصيهم معلقة بالثريا فيجملجون بين السماء والأرض وأنهم لن يلوا عملا " (٤).

وإذا كان النبي يحذر الناس من القيادة ويحذر الأمراء والعرفاء والأمناء. فهل المقصود من هذا أن الدولة لا تعرف النظام. وأن الدولة ينبغي أن تكون بلا

(١) رواه الطبراني في الأوسط (كنز ٢٠٠ / ١٠).

(٢) رواه الحاكم وأقره الذهبي (كنز العمال ١٧ / ٦).

(٣) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الفتح الرباني ٢٩ / ٢٣).

(٤) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الفتح الرباني ٢٣ / ٢٣).

رأس. كيف، وهل أمة بلا رأس تكون جديرة بقيادة العالم. كيف وكان النبي يبعث الأمراء والأمناء والعرفاء في أعمال الدولة. أن العديد فهم من الحديث إنه دعوة للتورع. وكثير منهم تورع حتى لا يتمنى يوماً أن يتجلى بين السماء والأرض وأنه لم يلي عملاً. والحديث له أهداف أوسع. فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم يذهب أهل الجيل الأول في أمر ليس من حقهم. وحذر من حذى حذوهم. فعن المقدم بن معد يكرب. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب على منكبه. ثم قال له: "أفلحت يا قديم إن مت ولم تكن أميراً ولا كاتباً ولا عريفاً" (١)، فإذا كان الصحابة كلهم عدول ثقات. فمن أولى منهم بالقيادة، ولماذا يحذرهم النبي ومما كان يخاف عليهم؟ لقد كان النبي يبحث أصحابه على أن لا ينازعوا الأمر أهله. فعن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. "عليك بالسمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك. وأثره عليك. وأن لا تنازع الأمر أهله" (٢)، فإذا كنا قد علمنا أن الأمر كله لله. فعلينا أن نعلم أن أهل الأمر لا يحدددهم غير الله. ولذلك كان أبو أيوب الأنصاري يبكي أيام بني أمية. وكان رضي الله عنه قد شهد المشاهد مع علي بن أبي طالب. وعندما سئل عن بكائه. قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا تبكوا على الذين إذا وليه أهله. ولكن ابكوا عليه إذا وليه غير أهله" (٣)، ثم إذا كان أحد أحياء قريش من الذين لم يشر إليهم النبي بولاية الأمر. هم أهل الدين. فلماذا طالب النبي الأمة باعتزالهم. روى الشيخان عن أبي هريرة قال النبي صلى الله عليه وآله: "يهلك أمتي هذا الحي من قريش"، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: لو أن الناس اعتزلوهم" (٤)، لو

(١) رواه أبو داود الحديث ٢٩٣٣.

(٢) رواه ابن أبي عاصم وقال الألباني إسناده حسن ورجال ثقات (كتاب السنة ٤٩٣ / ٢).

(٣) رواه أحمد (الفتح ٣٢ / ٢٣) والحاكم وأقره الذهبي (المستدرک ٥١٥ / ٤)، والطبراني (الزوائد ٢٤٥ / ٥).

(٤) رواه البخاري ك بدء الخلقة (الصحيح ٢٨٠ / ٢) ومسلم ك الفتن (الصحيح ٤١ / ١٨) وأحمد (الفتح ٣٩ / ٢٣).

كانوا أهل الدين فهل يجوز اعتزال الدين؟
 إن النبي كان يخوفهم من فتح الباب. لأن الله أبي عليه أن لا يلبسهم شيئا
 ويذيقهم بأس بعضهم بعضا. وكان عليه الصلاة والسلام يعلم أن الحق سيكون
 غريبا، فعن قيس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا قيس عسى
 إن مد بك الدهر. أن يليك بعدي ولاة لا تستطيع أن تقول بحق معهم " (١)، وعن
 معقل بن يسار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يلبث الجور
 بعدي إلا قليلا. فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله. حتى يولد في
 الجور من لا يعرف غيره. ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل فكلما جاء من العدل
 شيء ذهب من الجور مثله. حتى يولد في العدل من لا يعرف غيره "، وقوله:
 " ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور
 مثله. حتى يولد في العدل من لا يعرف غيره " (٢)، وقوله: " ثم يأتي الله تبارك
 وتعالى بالعدل "، لا بد أن يكون عليه دليل على أنه من الله. ومهمته يجب أن
 تكون محصورة في إقامة مؤسسات القسط والعدل بدلا من مؤسسات الظلم
 والجور. وقد ورد هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم. بأن القادم هو
 المهدي. من عترته. من ولد فاطمة رضي الله عنها ومهمته يملأ الأرض قسطا
 وعدلا كما ملئت ظلما وجورا (٣)، وأوصافه في كتب الحديث فمن أرادها
 فليراجعها (٤)، هناك فداثة الظلم زوالها على يدي المهدي الذي من عترة
 الرسول. والمهدي سيقا تل الدجال آخر الزمان. وزاد المهدي من زاد علي بن
 أبي طالب. فمن تزود نجا من فتنة الدجال.
 وبعد أن بين النبي لأصحابه أن الجور لا يلبث بعده إلا قليلا وكلما طلع
 برأسه. توارى العدل إلى الظلال. أخبرهم بدائهم العضال فعن أبي هريرة قال.

-
- (١) رواه الطبراني عن قيس بن خوشة (كنز العمال ١٩٠ / ١١).
 (٢) رواه أحمد (الفتح ٣٢ / ٢٣) وقال الهيثمي فيه خالد بن طهمان وثقه أبو حاتم وبقية رجاله
 ثقات (الزوائد ١٩٦ / ٥).
 (٣) أبو داود ١١٧ / ٤، وابن ماجه ٢ / ١٣٦٨، الحاكم ٤ / ٥٥٧.
 (٤) راجع كتابنا عقيدة المسيح الدجال.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنكم ستحرضون على الإمارة. وستكون ندامة يوم القيامة. فنعم المرضعة وبئست الفاطمة " (١)، قال بعضهم: نعم المرضعة. لما فيها من حصول الجاه والمال ونفاذ الكلمة وتحصيل اللذة الحسية. وبئست الفاطمة. عند الانفصال عنها وما يترتب عليها من التبعات في الآخرة (٢)، والحرص على الإمارة سيجعل للحريص أنياب ومخالب. فيزرع الجلادين في كل مكان. وسيأتي بالفقهاء علماء اللسان يفصلون له الفتوى التي تحقق له الأمن والقداسة. ولهذا كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول لأصحابه فيما رواه مسلم: " يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ولا يستنون بسنتي. وسيقوم فيها رجال قلبهم قلوب شياطين في جثمان أنس " (٣)، هؤلاء الرجال. من أي دائرة جاءوا؟ على أي حال ما دامت قلوبهم قلوب شياطين فلا علاقة لهم بالذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. وعن حذيفة قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " سيكون بعدي عليكم أمراء يأمرؤنكم بما لا يفعلون. فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ولن يرد علي الحوض " (٤)، من صدقهم وأعانهم لن يرد علي الحوض. فإذا سألنا. من الذي يرد علي الحوض؟ فإن الإجابة تكشف لك حقيقة هؤلاء الأمراء الكذبة. وعن كعب بن عجرة قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: اسمعوا. هل سمعتم؟ أنه سيكون بعدي أمراء. فعن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه وليس بوارد علي الحوض. ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم فهو مني وأنا منه. وهو وارد علي الحوض " (٥)، إسمعوا، إسمعوا. من الذي يرد علي

(١) البخاري ك الأحكام (الصحيح ٢٢٥ / ٤).

(٢) فتح الباري (٢٢ / ٣٢).

(٣) مسلم (الصحيح ٦ / ٢٠) ط إسطنبول.

(٤) رواه أحمد وقال الهيثمي رواه أحمد والبخاري وفيه إبراهيم بن قيس وثقه ابن حبان وبقيّة رجاله رجال الصحيح (الزوائد ٢٤٧ / ٥).

(٥) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٥٢٥ / ٤) ورواه أحمد عن خباب (الفتح الرباني ٣٠ / ٢٣) وابن أبي عاصم وقال الألباني رجاله ثقات وأخرجه أحمد وابن حبان (كتاب السنة ٣٥٢ / ٢).

الحوض، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إني تارك فيكم خليفتين - وفي رواية ثقلين - أحدهما أكبر من الآخر. كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض " (١). وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنه سيلي أمركم من بعدي رجال يطفئون السنة ويحدثون بدعة. ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها "، قال ابن مسعود: كيف بي إذا أدركتهم؟ قال: يا ابن أم عبد. لا طاعة لمن عصى الله (قالها ثلاث مرات) (٢)، يطفئون السنة، والإطفاء إما عدم تدوينها. أو تدوينها وعدم معرفة مراميها أو ترجيح الرأي عليها. فعلى كل هذا وغيره يترتب الإطفاء. وإذا كان هذا الحديث قد أخبر عن أمراء يؤخرون الصلاة فعند البخاري حديث لضياح الصلاة في عهد بني أمية، أحد عهود القرن الأول (٣). وإذا كان النبي قد قال عند تأخير الصلاة لا طاعة لمن عصى الله. فإنه صلى الله عليه وسلم قد قال في عهد ضياح الصلاة. اعتزلوهم. ولكل مرحلة فقه وعلم. وأخيراً نأتي إلى حديث حذيفة. كان يسأل النبي عن الشر مخافة الوقوع فيه. قال للنبي فيما رواه البخاري وغيره: " يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر. فجاء الله بهذا الخير. فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم (٤)، فهذا الحديث سجل وقوع الشر، حلقة وراء حلقة. ويسأل حذيفة عن هذا الشر. ما هو؟ قال النبي: فتن كقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضاً. تأتيكم مشبهة كوجوه البقر لا تدرون أيها من أي " (٥)، فهل يصح أن يترك الرسول أمته دون أن

(١) تم تخريج الحديث فيما سبق ورواه أحمد والترمذي وحسنه والطبراني وقال المناوي رجاله موثقون (الفتح الرباني ١٨٦ / ١).

(٢) رواه أحمد وقال في الفتح الرباني حديث صحيح (الفتح ٢٩ / ٢٣).

(٣) سيأتي الحديث عنه في حينه.

(٤) البخاري (الصحيح ٢٨٠ / ٢) ك بدء الخلق ب علامات النبوة.

(٥) رواه أحمد (الفتح الرباني ٣٨ / ٢٣).

يبين لهم النجاة من هذه الفتن التي تعصف أول ما تعصف بحبل الصحابة. والله تعالى أوجب على نفسه فتح الطريق لعباده وهدايتهم إليه، (ما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) (١)، وحذيفة لم يسأل النبي عن الشر مرة واحدة. وإنما كان يحب أن يسأل عنه على فترات كما تدل رواياته. وفي هذه الروايات يقول النبي عن دعاة الشر "دعاة على أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها" فيقول حذيفة: يا رسول الله صفهم لنا؟ قال: "هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا" (٢)، ويسأل حذيفة: وما العصمة من ذلك؟ قال: السيف. فقلت يا رسول الله: ثم ماذا يكون؟ قال: إن كان لله خليفة في الأرض فضرب ظهرك وأخذ مالك فأطعه. وإلا فمت وأنت عاص بجذل شجرة. قال حذيفة: ثم ماذا؟ قال النبي: ثم يخرج الدجال (٣)، فهذه الرواية. قال له: "إن كان لله خليفة في الأرض" وفيه أن البحث فريضة. فقد يكون خليفة الله كهارون في عالم السامري. فعالم السامري كان عالم واسع عريض. ولا يضر هارون أنه يقف على الأرضية الأضيقة في أعين الناس. والأرضية الضيقة لها علم وفقه. وقد يكون الصمت فيها دواء. وقد يكون آخر الدواء الكي وهذا أمر يحدده خليفة الله. إن لكي شيء علم. ألم تر أن الله رفع نبيه عيسى عليه السلام. وكان في الإمكان خسف الأرض. بمن أرادوا قتله. ولكن هذا تم لهدف ومن وراء الهدف حكمة. منها امتحان الذين آمنوا بعيسى عليه السلام. فعيسى أخبر وصيه وتلاميذه بأنه سيرفع وأخبر القاعدة العريضة أيضا بذلك وقال لهم: إنه حيث يكون فلن يستطيعوا الوصول إليه. ومن المعلوم أن أعداءه لا يستطيعون الوصول إلى السماء. وبعد الرفع جاء الامتحان. كانت الحجة كلمة وصرخة تلميذ. أن الذي على الصليب ليس عيسى. فمن استمع نجا، ومن صدق ما يشاهده هلك. وهنا تبرز قيمة الوصية والأوصياء. وكلمة الوصي أصدق مما تراه العيون. ولكن الجماهير تركت الوصي والتلاميذ. وانساقوا وراء من يظنون أنه المسيح. ولم

(١) سورة التوبة: الآية ١١٥.

(٢) رواه البخاري (الصحيح ٢٨٠ / ٢) ك بدء الخلق.

(٣) رواه أبو داود حديث ٤٢٤٤.

يلبث الجور بعد المسيح إلا قليلا. فكلما طلع من الجور شئ ذهب من العدل مثله. حتى ولد في الجور من لا يعرف غيره. وشاء الله أن يجتمع عيسى بن مريم والمهدي المنتظر في عصر واحد. لينخوضا ملاحم الدجال (١).
لقد أمر النبي حذيفة أن يبحث عن الإمام الحق ثم قال: " وإلا فمت وأنت عاص بجذل شجرة. قال: ثم ماذا؟ قال النبي: ثم يخرج الدجال "، فهل بشجرة هنا رمزا لمبايعة حق وخصوصا أن الدجال على الأبواب. ولكن أي شجرة هذه التي يتم مبايعتها وما الناس والكلام إلا شجر. وورد عند البخاري بعد أن قال النبي لحذيفة بأن يلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قال حذيفة: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام. قال النبي. فاعتزل تلك الفرق كلها. ولو أن تعص بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك " (٢)، وعدم وجود الجماعة والإمام وارد. فنحن في زماننا نرى ما نرى. فكل شئ غائب عنا. وغدا يأتي الله بأمره فهل هذه الرواية تختص بزماننا هذا. وكما ذكرنا أن أسئلة حذيفة للنبي كانت بين الحين والحين ولم تكن واحدة. إن الفرق كلها أمر النبي باعتزالها. ولكن الاعتزال والوقوف في العراء يكون قريبا من دائرة الموتة الجاهلية لحديث البخاري وغيره " من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية " (٣)، فما بالك بعدم وجود جماعة أصلا والحديث أشار بهذا والنبي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يدفع إنسان إلى العراء أو يجعله قريبا من الموتة الجاهلية. لذا نجده في حديث حذيفة يقول بعد أن أمر باعتزال الفرق: " ولو أن تعص بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك " فعند الشجرة يمكن أن يأتي الموت ولكن ليس موتا جاهليا. وعلى هذا والله أعلم أن الشجرة رمزا للجماعة، من فارقها في العصر الذي يقصده الحديث تكون ميتته ميتة الجاهلية. وبين الإمام والجماعة في الحديث خط مستقيم يصل إلى الشجرة. والبحث في أصول الشجرة، يقتضي منا

(١) راجع كتابنا عقيدة المسيح الدجال.

(٢) رواه البخاري (الصحيح ٢٨٠ / ٢) ك بدء الخلق.

(٣) رواه البخاري (الصحيح ٢٢٢ / ٤) ك الفتن.

أن نضع هنا قول النبي صلى الله عليه وسلم " علي أصلي... " (١)، وقوله: " إن الناس اليوم كشجرة ذات جنى. ويوشك أن يعودوا كشجرة ذات أشواك " (٢)، وكل إنسان يبحث عن شجرة.

وكما علمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حذر من أصول الفتن. فأخبر أن الفتن من بعده ستكون كثيرة وستنتهي إلى الدجال وأن السلطة ستكون كخيمة على بركة من الدماء. الجميع يتصارع من أجل الوصول إليه. ولذا حذر صلى الله عليه وسلم أصحابه حتى لا ينازعوا الأمر أهله. لأن المنازعة ستفتح الأبواب لما هو أشد وافتك. إذا كنا قد علمنا ذلك. فيجب أن نعلم هنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حدد تيارا بعينه وهو تيار بني أمية. وحذر منه أشد التحذير. وأخبر أن هذا التيار سيصل إلى السلطة. والوصول إلى السلطة لا يأتي في يوم وليلة. فإذا كان سيصل مثلاً في مرحلة منتصف الطريق. فلا بد أن تكون مرحلة أول الطريق قد مهدت له ووضعت له الركائز التي يركز عليها دينياً. ثم يقوم هو بدوره فيضع الركائز ويمهد لمن يأتي في نهاية الطريق.

وتحذير النبي لأصحابه من الفتن حتى لا يفتحوا الباب لهذا التيار. تعدى مرحلة التحذير بالقول إلى مرحلة التحذير بالفعل حيث قام النبي صلى الله عليه وسلم بنفي الحكم بن العاص الذي تعتبر ذريته آخر حكام بني أمية وظل الحكم بن العاص في المنفى. حتى رده عثمان بن عفان سليل بني أمية في خلافته. ونفى النبي للحكم كان من باب الأخذ بالأسباب وإقامة الحجة، وبمعنى أن النبي علم من ربه أن الحكم باب من أبواب الفتن وأن في صلبه من سيركب على رقبة الأمة. وأن الأمة ستكون لأبنائه شيعة. فأخذ النبي بالأسباب وأزال أصل العقبة من البداية وهو يعلم أن الأمة ستأتي به وستقيم عليه فسطاطاً. وإذا كان الحكم بن العاص حلقة أخيرة في الفتنة. فإن النبي لم يكتف بالتحذير من الحلقة الأخيرة فقط. وإنما حذر من الحلقة الأولى لبني أمية التي عليها سيأتي

(١) رواه الطبراني والضياء بسند صحيح (كنز ٦٠٢ / ١١).

(٢) رواه ابن عساكر وفيه ضعف (كنز ١٤٩ / ١١).

أبناء الحكم. باختصار حذر من الشجرة الأموية كلها. وقد أراه الله تعالى من أخبار هذه الشجرة الشيء الكثير الأمر الذي جعله صلى الله عليه وسلم لم ير ضاحكا حتى مات صلى الله عليه وسلم.

ففي سورة الإسراء. وبعد أن تحدث سبحانه عن الآيات التي يرسلها إلى عباده. وعن ناقة ثمود التي قتلها الجاحدون وبعد أن أخبر سبحانه أنه يرسل بالآيات للتخويف والإنذار. قال تعالى: (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا) (١). ولا ندري ما هذه الشجرة الملعونة في القرآن التي جعلها فتنة للناس. ولا يوجد في القرآن شجرة يذكرها الله ثم يلعنها. قالوا: إنها شجرة الزقوم! التي جاء ذكرها في قوله تعالى: (أم الشجرة الزقوم إنا جعلناها فتنة للظالمين) (٢)، فالشجرة في الآية وصفت بأنها فتنة. أي عقاب للظالمين. فكيف يقال أن العقاب ملعون والله تعالى لم يلعن الشجرة فلو كانت الشجرة ملعونة لكونها تخرج في أصل الجحيم وسببا من أسباب عذاب الظالمين. لكانت النار، وكل ما أعد الله فيها للعذاب ملعونة، وهذا لا يصح لأن الله أعد لها ملائكة للعذاب فقال تعالى: (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) (٣)، وقد أثنى الله تعالى على ملائكة النار، فقال تعالى: (عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) (٤).

وبما أن الشجرة جاء ذكرها بين الآيات التي يخوف بها الله عباده. ومنها آية الناقة. فإن الرؤيا والشجرة المشار إليهما في الآية أمران سيظهران على الناس. أو هما ظاهران. يفتتن بهما الناس فيشيع بهما فيهم الفساد. ويتعرف فيهم الطغيان والاستكبار. وذيل الآية: (ونخوفهم مما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا)،

(١) سورة الإسراء: الآية ٦٠.

(٢) سورة الصافات: الآية ٦٢ - ٦٣.

(٣) سورة المدثر: الآية ٣١.

(٤) سورة التحريم: الآية ٦.

يشير إلى ذلك ويؤيده. بل وصدر الآية أيضا يؤيده قال تعالى: (وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا...)، والمعنى: واذكر التثبت فيما ذكرنا لك في هذه الآيات أن شيمة الناس والاستمرار في الفساد والفسوق. واقتداء أخلافهم بأسلافهم في الإعراض عن ذكر الله وعدم الاعتناء بآيات الله. وقد قلنا لك أن ربك أحاط بالناس علما. وعلم أن هذه السنة ستجري بينهم كما كانت تجري ولم نجعل الشجرة الملعونة في القرآن التي تعرفها بتعريفنا. وما أريناك في المنام من أمرهم. إلا فتنة للناس، وقد أحطنا بالناس. (ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا)، أي تخوف الناس فما يزيدهم التخويف إلا طغيانا ولا أي طغيان كان. بل طغيانا كبيرا. أي إنهم لا يخافون من تخويفنا حتى ينتهوا عما هم عليه بل يجيئوننا بالطغيان الكبير. فهم يبالغون في طغيانهم ويفرطون في عنادهم مع الحق.

وذكر غير واحد من المفسرين أن الله تعالى في هذه الآية يعزي نبيه صلى الله عليه وسلم. بأن الذي أراه من الأمر وعرفه من الفتن. قد جرت عليه سنة الله فهو سبحانه يمتحن عباده بالمحن والفتن. ويؤيد هذا ما ورد من أحاديث بأن المراد بالرؤيا في الآية. هي رؤيا رآها النبي صلى الله عليه وسلم في بني أمية. والشجرة شجرتهم. أما القول بأن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم. فلا معنى له. لأنه لا ذنب للشجرة. وهل وجودها في أصل الجحيم عقابا للظالمين يستحق اللعن. كيف؟ والذي سيسوق الظالمين إليها ملائكة لا يعصون الله. ويفعلون ما أمرهم به الله. أما الرؤيا التي أراها الله لرسوله فعن الحسن قال: فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني أمية يخطبون على منبره رجلا رجلا فسأه ذلك... " (١)، وروى أبو بكر ابن خيثمة عن سعيد بن المسيب في قوله: " وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس "، قال:

(١) رواه الحاكم وأقره الذهبي (المستدرک ١٧١ / ٣) وقال ابن كثير رواه الترمذي عن القاسم بن الفضل وقد وثقه يحيى بن سعيد وغيره، ورواه ابن جرير والحاكم والبيهقي (البداية ٢٤٣ / ٦).

رأى ناسا من بني أمية على المنابر فسأه ذلك (١).
 هذا عن مقدمة بني أمية. أما خاتمتهم الحكم بن العاص. فقد روى أبو
 يعلى. رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه كان بني الحكم ينزون على
 منبره وينزلون فأصبح كالمتغيظ. فقال: ما لي رأيت بني الحكم ينزون على منبري
 نزو القردة. فما رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعا ضاحكا بعد
 ذلك حتى مات (٢)، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله
 وسلم: "أريت في منامي كأن بني الحكم بن أبي العاص ينزون على منبري كما
 ينزو القردة" (٣).

أما كون الشجرة شجرتهم ما رواه مطعم قال. كنا مع النبي فمر الحكم بن
 العاص فقال النبي: ويل لأمتي مما في صلب هذا (٤)، وعن ضمرة ابن حبيب
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ويل لأمتي من هذا وولد هذا" (٥)،
 وعن ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للحكم: "إن هذا سيخالف
 كتاب الله وسنة نبيه وسيخرج من صلبه فتن يبلغ دخانها السماء وبعضكم يومئذ
 شيعته" (٦).

أما كون هذه الشجرة ملعونة. ما روى عن عبد الله. قال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم ونحن عنده. ليدخلن عليكم رجل لعين فوالله ما زلت
 وجلا أتشوف خارجا وداخلا حتى دخل فلان - يعني الحكم - وروى الإمام
 أحمد: "لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلانا وما ولد من صلبه"، وفي

-
- (١) أبو بكر بن خيثمة (البداية والنهاية ٥٠ / ١٠).
 (٢) رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير مصعب بن عبد الله وهو ثقة - قاله الهيثمي
 (الزوائد ٢٤٤ / ٥) والحاكم وصححه (المستدرک ٤٨٠ / ٤).
 (٣) والبيهقي وابن عساكر وأبو يعلى (كنز العمال ٣٥٨ / ١١) والحاكم (كنز ١١٧ / ١١) وقال
 ابن كثير رواه يعقوب بن سفيان (البداية ٥٠ / ١٠، ٢٤٣ / ٦).
 (٤) رواه ابن عساكر (كنز ١٦٧ / ١١).
 (٥) ابن عساكر (كنز ١٦٧ / ١١). (الإصابة ٢٩ / ٢).
 (٦) رواه الدارقطني (كنز ١٦٦ / ١١) وابن عساكر (٣٦٠ / ١١)، والطبراني (كنز ١٦٧ / ١١).

رواية للبزار: " لعن الله الحكم وما ولد على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم " (١)، وروى البزار أن عبد الرحمن بن أبي بكر قال لمروان ابن الحكم: " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن أباك " (٢)، وروى أن عبد الله بن الزبير قال وهو يطوف بالكعبة " ورب هذا البيت الحرام والبلد الحرام أن الحكم بن أبي العاص وولده ملعونين على لسان محمد صلى الله عليه وسلم " (٣)، وروى أن الحسن قال لمروان بن الحكم: " لقد لعنك الله على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت في صلب أبيك " (٤). وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن عائشة أنها قالت لمروان: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأبيك وجدك أنكم الشجرة الملعونة في القرآن. وباختصار: روى أصحاب التفاسير كالطبري وغيره عن سهل بن ساعد وعبد الله بن عمر ويعلى بن مرة والحسين بن علي وسعيد بن المسيب أن هؤلاء هم الذين أنزل فيهم قوله تعالى: (وما جعلنا الرؤيا) إلى قوله: (والشجرة الملعونة في القرآن).

أما كون النبي صلى الله عليه وسلم قد أخذ بالأسباب ونفاه. وذلك بعد أن ارتكب الحكم بن أبي العاص الجريمة التي يستحق عليها هذه العقوبة. وكما نعلم أن الله لا يظلم الناس شيئاً. فلقد خلق الإنسان ليمارس واجب الخلافة في الأرض. ولم يخرج أحداً من الجنة إلا عندما ارتكب آدم وزوجه الخطأ الذي استحقا عليه الإخراج من الجنة. وعندما ارتكب الشيطان الجريمة التي استحق عليها الطرد واللعن. وهناك فرق بين الإخراج والطرد واللعن. والحكم بن أبي العاص ارتكب الجريمة التي استحق عليها النفي واللعن. وما

(١) قال الهيثمي رواه أحمد والبزار والطبراني بنحو رواية البزار وعنده رواية كرواية أحمد ورجال أحمد الصحيح (الزوائد ٥ / ٢٤١).

(٢) قال الهيثمي رواه البزار وإسناده حسن (الزوائد ٢٤١ / ٥).

(٣) رواه ابن عساكر (كنز ٣٥٨ / ١١) والحاكم وصححه (المستدرک ٤٨١ / ٤).

(٤) رواه أبو يعلى (الزوائد ٢٤٠ / ٥) وابن سعد وابن عساكر (كنز ٣٥٧ / ١١) وذكره ابن كثير في البداية (٢٨٠ / ٨).

كانت الجريمة إلا لهدف ومن وراء الهدف حكمة. وروى عن حماد بن سلمة. إن أصحاب النبي دخلوا عليه وهو يلعن الحكم بن أبي العاص فقالوا: يا رسول الله ما له. قال: دخل على شق الجدار وأنا مع زوجتي فكلح في وجهي. فقالوا: أفلا نلعنه نحن؟ قال: لا فإني أنظر إلى بنيه يصعدون منبري وينزلونه. فقالوا: يا رسول الله ألا نأخذهم؟ قال: لا ونفاه (١)، وروى أن سبب نفيه غير ذلك. وهو أن الحكم كان من المرجفين في المدينة ويبلغ فيها أسرار رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد نفاه النبي عندما أمره الله بنفي من كانت هذه أعماله. وقد وردت هذه الجرائم وعقوباتها في سورة الأحزاب (٢)، وقد أخبر النبي بأن من الأمة من سيتعهد بني أمية وبني الحكم حتى يبلغوا ثلاثين رجلاً وفي رواية أربعين. ثم يكون الحديث انطلاقهم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "إذا بلغ بنو أبي فلان ثلاثين رجلاً اتخذوا مال الله دولا (٣) ودين الله دخلاً (٤)، وعباد الله خولا (٥) (٦) وفي رواية إذا بلغ بنو العاص ثلاثين... (٧)، وفي رواية إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين... (٨)، ويبدو والله أعلم أن هذا العدد يتعلق بعدد رجالهم في المناصب القيادية في الدولة. بمعنى إذا فتح لهم الباب وتولي "ثلاثون" أو أربعون منهم المناصب فعلوا هذه الأشياء. وحركة التاريخ تؤيد هذا الرأي كما سيأتي في حينه.

٤ - الرسول وإقامة الحجّة على القريب والبعيد:

إذا كانت المسيرة بعد النبي وبنص الأحاديث الصحيحة. ستبدأ بفتن تنطلق

-
- (١) الإصابة ٢٨ / ٢.
- (٢) سورة الأحزاب: الآية ٦٠.
- (٣) أي يكون المال لقوم دون قوم.
- (٤) أي يدخلوا في دين الله أمور لم ترد في كتاب الله وسنة رسوله.
- (٥) أي يستخدمون الناس ويستعبدوهم.
- (٦) رواه أحمد (الفتح ٣٢ / ٢٣). (٧)
- رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني (كنز ١٦٥ / ١١).
- (٨) رواه الطبراني والبيهقي (كنز ١٦٥ / ١١) (البداية ٢٥٨ / ٨).

من بيوت الصحابة. وإذا كانت الأحداث ستأتي على رقاب العباد برجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان أنس كما في صحيح مسلم. وبدعاة على أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها كما ورد في صحيح البخاري. ثم تنتهي الأحداث بقذف الأمة نحو سنن الأولين ففسير عليها شبرا بشبر وذراعا بذراع. وفي النهاية يكونون غثاء كغثاء السيل لا قيمة لهم ولا وزن. القاتل فيهم لا يدري فيما قتل والمقتول فيهم لا يدري فيما قتل. إذا كان هذا كله قد دخل من تحت لافتة القيادة فكيف يقال أن الشريعة قد تكلمت في كل شيء عدا القيادة. وكيف يستقيم قول كهذا مع ما رواه أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وآله: " وأيم الله، لقد تركتم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء " (١).

قال البعض: إن الناس أدرى بشؤون دنياهم. وإن اختيارهم للقيادة ينضوي تحت قوله تعالى: (وأمرهم شورى بينهم) (٢)، وقول البعض بهذا. لا يحقق أي دفع لدائرة الرجس. فتحت سقف شؤون دنياهم يجلس أيضا المنافقين والذين في قلوبهم مرض. وشؤون دنياهم لا تنسى أنها قابلة للاختراق من جهة الشيطان بفقه التزيين والإغواء. باختصار ستكون المسيرة غير محمودة العواقب. ولهذا لا بد من مرشد لها حدده الله الذي أخذ على نفسه فتح طريق العبادة وهداية الناس إليه. ثم إن القول بأن الأمر كان شورى في اختيار الخليفة. أمر لا يمكن إثباته. وذلك لأن اختيار الخليفة على امتداد المسيرة لم يكن له وجد واحد ولم تتوفر الشورى فيه إلا فيما ندر. وعلى سبيل المثال. فإن يوم السقيفة لم يشهده رجل من بني هاشم بل لم يشهده من المهاجرين عدد لا يتعدى خمسة أفراد على أكثر الروايات وأصحها. ويوم السقيفة كان بحق يوم عمر بن الخطاب رضي الله عنه. حيث توعد سعد بن عبادة مرشح الأنصار وهتف كما جاء في الصحيح " اقتلوا

(١) رواه ابن ماجه (كنز ٣٧٠ / ١١) وابن أبي عاصم، وقال الألباني له متابع قوي عند الإمام أحمد (كتاب السنة ٢٧ / ١).
(٢) سورة الشورى: الآية ٣٨.

سعدا"، فأبي شوري ترى هنا؟ وقد اعترف عمر فيما بعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه بأن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقال من عاد إلى مثلها فاقتلوه كما جاء في الصحيح، فإذا كانت البيعة أن عادت على نفس الصورة فجزاء من يقدم عليها القتل. فما القول في هذا؟ وأبو بكر رضي الله عنه وهو على فراش الموت أوصى لعمر بن الخطاب من بعده ولم يشاور المهاجرين والأنصار عند اتخاذ هذا القرار. وعمر بن الخطاب وهو على فراش الموت جعلها شوري في ستة من أهل الجنة كما ورد في الحديث، ووضع نظاما للاختيار وأمر رضي الله عنه بقتل من عارض اختيار الأغلبية. فمن هذا وذاك لا ترى ما تعارف عليه من الشوري. وفي أيام معاوية وبني أمية. عندما أراد البيعة لولده يزيد. روى أنه جاء بأفصح فقهاءه. وجمع رؤوس القبائل. ووقف الفقيه المحنك وأشار إلى معاوية وقال: أنت أمير المؤمنين. فإن مت فيزيد. فمن أبي هذا وأشار إلى السيف. وعلى هذا جاء أولاد الحكم بن أبي العاص في القرن الأول الهجري. وعلى هذا أفتى المحنكون بولاية الفاسق فهل الفاسق يسوق الناس إلى رب العالمين؟ إذا كانت الإجابة نعم، فما معنى قوله تعالى: (والله لا يهدي القوم الفاسقين) (١)، وكيف يسوق الفاسق الناس إلى رب العالمين؟ إذا كانت الإجابة نعم، قال تعالى: (ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون) (٢)، ولا يرض عنهم: (فإن الله لا يرض عن القوم الفاسقين) (٣)، وكيف يتم وضعهم على رقبة الأمة. والله قد حذر من المنافقين وما الفاسقين إلا عمال في دائرة الرجس قال تعالى: (نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون) (٤)، كيف تستأمن الأمة والله تعالى لم يستأمن الفاسق على نأ قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فساد بنأ فتبينوا) (٥)، لقد جعل المحنكون من الشذوذ قاعدة استرضاء منهم لخط نصب

(١) سورة التوبة: الآية ٨٠.

(٢) سورة النور: الآية ٤.

(٣) سورة التوبة: الآية ٩٦.

(٤) سورة التوبة: الآية ٦٧.

(٥) سورة الحجرات: الآية ٦.

خيمته ومن داخلها اتخذ مال الله دولا. ودين الله دخلا وعباد الله خولا. وجميع ذلك تحت شعار الشورى.

والحقيقة أن ولاية الفاسق التي أقرها المحنكون فيها تساهل طويل وعريض. لأن الذي أدلى دلوه كي يخرج لنا فيه فاسقا. كان عليه أولا أن يبحث عن بئر نظيف ليخرج لنا بآخر وقد قال تعالى: (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون) (١)، نعم قد يكون الفاسق في الذروة ولكن وفقا للقاعدة النبوية حيث قال صلى الله عليه وسلم في قریش: "الناس تبع لقریش في هذا الشأن مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم" (٢)، وقال: "صالحهم تبع لصالحهم وشرارهم تبع لشرارهم" (٣)، فالناس لا بد لهم من شجرة يستظلون بظلها. وهناك شجرتان، وللناسق شجرة وذروته، أما قوله تعالى: (وأمرهم شورى بينهم)، قال المفسرون: أي أن الأمر الذي يعزمون عليه فيما بينهم يتشاورون فيه لاستخراج صواب الرأي بمراجعة العقول. وصواب الرأي تمتصه العقول من قوله تعالى: (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) (٤)، فهذه دائرة أصحاب الشورى، والقرآن الكريم كما سلط الضوء على الذين أمرهم شورى بينهم. سلطة أيضا على الذين فرقوا أمرهم بينهم ووضعهم في دائرة مغلقة عليهم قال تعالى في الصنف الذي رفض الأمة الواحدة والدعوة الواحدة للسبيل الحق (فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون)، ولأن لهذا الحزب سائر على امتداد السيرة لا يكل ولا يمل. قال تعالى لرسوله: (فذرهم في غمرتهم حتى حين) * أيحسبون إنما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون (٥)، فأصحاب هذه الآية قطعوا أمرهم. وجعلوا كل قطعة منه كتابا. ثم التقط كل حزب قطعه وانطلق فرحا يقرأ في قطعه كتابه.

(١) سورة السجدة: الآية ١٨.

(٢) رواه البخاري (الصحيح ٢٦٤ / ٢) وسبق تخريجه.

(٣) رواه أحمد ورجال ثقات (الفتح ٢٢٦ / ٢٤) سبق تخريجه.

(٤) سورة الزمر: الآية ١٨.

(٥) سورة المؤمنون: الآية ٥٤ - ٥٥ - ٥٦.

وفي عالم الزخرف والزينة والإغواء يرقصون طربا لما عندهم من مال وبنين. وهم في الحقيقة لا يشعرون ماذا ينتظرهم في نهاية الطريق. إنهم قد يرون بداية الطريق أو وسطه. أما نهاية الطريق فلا ترى إلا بعد أن تجيء. وإذا كان القرآن قد سلط الأضواء على الذين أمرهم شورى بينهم والذين قطعوا أمرهم بينهم، فإن الله تعالى أمر دائرة الإيمان وفيها الذين أمرهم شورى بينهم. أمرهم أمرا واحدا لا اختيار فيه حتى يوازنوا بينه وبين أمرهم فقال جل وعلا: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) (١). فكيف يكون هناك اختيار والله ورسوله قد اختار. وفي هذا الاختيار قمة الحرية الحقيقية التي توفر للإنسان إنسانيته الحققة. حتى نعود إلى من حيث بدأنا ونقول:

إن علم النبي صلى الله عليه وسلم بما سيحدث في النهاية يقتضي أن يقيم عليه الحجة في البداية. وإقامة الحجة سنة إلهية يترتب عليها الثواب والعقاب. ألم ترى أن الله أقام الحجة على خلقه وهم في عالم الذر. أقامها عند أول أعتاب خلق البشرية. لعلمه أن المسيرة ستنتج المؤمن والكافر والمحسن والمسيء، قال تعالى: (وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) (٢)، فإذا كان سبحانه قد أقامها في البداية في عالم الغيب. فإنه تعالى قد أقامها على امتداد العصور. وإن كانت الحجة قد سدت الأبواب في وجوه البعض. فإنها فتحتها أمام آخرين. والنبي ما سد شيئا ولا فتحه. ولكنه أمر بشئ فاتبعه وهو في هذا عبدا مأمورا. ما أمر به فعله. إن يتبع إلا ما يوحى إليه. والنبي ما أدخل أحدا وما أخرج أحدا. ولكن الله هو الذي أدخل هذا وأخرج هؤلاء. وذلك لأن المستقبل به أصحاب شجرة خبيثة. والشجرة الخبيثة لا بد أن يقابلها شجرة طيبة، والمستقبل فيه دائرة رجس لا بد أن يقابلها دائرة

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

طهر. والمستقبل به الذين في قلوبهم زيغ الذين يريدون الفتنة المتشابه. ولا بد أن يقابلهم الراسخون في العلم فبعد أن أشارت الأحاديث التي بها كلمة (بعدي) إلى مواقع الفتن. إلى مقدماتها ونتائجها وبداياتها ونهاياتها. أشارت أحاديث أخرى إلى مواقع الأمان. لتقوم الحجة ويظهر التبشير والتحذير على صفحات التاريخ. وعن هذه الأحاديث عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي: "أنت وليي في كل مؤمن بعدي" (١)، وعن عمران بن حصين قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "علي مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن من بعدي" (٢)، وعن بريدة الأسلمي قال: قال النبي صلى الله عليه وآله في علي: فإنه مني وأنا منه وهو وليكم بعدي. وإنه مني وأنا منه وهو وليكم بعدي (٣)، وعن بريدة أيضا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا بريدة إن عليا وليكم بعدي. فأحب عليا فإن يفعل ما يؤمر" (٤)، وعن أنس قال، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "يا علي أنت تبين لأمتي ما اختلفوا فيه من بعدي" (٥). وعن وهب بن حمزة قال: قال

(١) رواه أحمد ورجاله ثقات غير أبي بلج وهو ثقة وطيحه لين (الفتح ١١٦ / ٢٣) وقال ابن كثير رواه أبو داود الطيالسي (البداية ٣٤٦ / ٧) ورواه ابن أبي عاصم وقال الألباني صحيح (كتاب السنة ٢٦٣ / ٥).

(٢) رواه ابن أبي عاصم وقال الألباني: إسناده صحيح ورجاله ثقات على شرط مسلم والحديث أخرجه الترمذي وابن حبان والحاكم وأحمد من طرق أخرى. وقال الترمذي حديث حسن غريب وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي (كتاب السنة ٥٦٥ / ٢)، ورواه ابن جرير بسند صحيح (كنز العمال ١٤٢ / ١٣) وابن أبي شيبة بسند صحيح (كنز العمال ٦٠٨ / ١١)، والطبراني وقال الهيثمي رواه أحمد والطبراني في الأوسط وباختصار في الكبير ورجال أحمد رجال الصحيح (الزوائد ١٠٩ / ٩).

(٣) رواه أحمد وقال في الفتح الرباني. رواه الطبراني في الكبير والأوسط وأسانيد الكبير رجاله رجال الصحيح ورجال أحمد ثقات (الفتح ١١٧ / ٢٣)، ورواه ابن أبي شيبة (كنز العمال ٦٠٨ / ١١).

(٤) رواه الديلمي (كنز العمال ٦١٢ / ١١).

(٥) رواه الديلمي (كنز العمال ٦١٥ / ١١).

رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تقولن هذا لعلي فإن عليا وليكم بعدي " (١)، وعن ابن عباس قال قال النبي صلى الله عليه وسلم: " أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنك لست نبيا. إنه لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي في كل مؤمن من بعدي " (٢).

والمعروف أن أظهر منازل هارون بعد موسى. وزارته له. وخلافته عنه. واشتراكه في الأمر معه. قال سبحانه حاكيا عن نبيه موسى: (فاجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري)، إلى قوله تعالى: (قد أوتيت سؤلِكَ يا موسى) (٣)، وقال تعالى: (وقال موسى لأخيه هارون أخلفني في قومي وأصلح) (٤)، والنبي صلى الله عليه وسلم عندما نزل قوله تعالى: (وأُنذِرَ عشيرتك الأقربين)، قال لهم كما ذكرنا من قبل في رواية صحيحة: " إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم واسمعوا له وأطيعوا "، وعندما اتسعت الدائرة كما ذكرنا قال: " أنت مني بمنزلة هارون من موسى "، ثم اتسعت الدائرة فبعثه بسورة براءة وقال كما ذكرنا في رواية صحيحة: " ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي "، وعندما اتسعت قال: " من كنت مولاه فعلي مولاه "، وعلي بحكم نص منزلة هارون من موسى. خليفة الرسول في النواة التي تدور حولها القرى والقبائل. ولعلي ابن أبي طالب على الأمة جمعاء فرص الطاعة كما كان لهارون بالنسبة إلى أمة موسى. ومن حيث طاعته لا يكون مأمورا، وها نحن قد أوردنا نخبة من الأحاديث الصحيحة التي توجب الطاعة. فأبي حجة بعد ذلك. ولقد قام النبي بتحسين هذه الطاعة فعن عبيد الله بن عباس قال: نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى علي فقال: يا علي أنت سيد في الدنيا سيد في الآخرة. حبيبك حبيبي. وحبيبي حبيب الله. وعدوك عدوي وعدوي عدو الله.

(١) رواه ابن كثير في البداية (٣٤٦ / ٧).

(٢) رواه ابن أبي عاصم وقال الألباني إسناده حسن ورجاله ثقات (كتاب السنة ٥٦٥ / ٢).

(٣) سورة طه: الآية ٣٦.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٤٢.

والويل لمن أبغضك بعدي (١)، وعن أم سلمة قالت: أشهد أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من أحب عليا فقد أحبني. ومن أحبني فقد أحب الله. ومن أبغض عليا فقد أبغضني. ومن أبغضني فقد أبغض الله (٢)، وعن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا علي من فارقتني فارق الله ومن فارقك يا علي فارقتني (٣)، وعن علي قال. قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: " إن الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك (٤)، أليس في هذا كله سوق للناس نحو الطاعة؟ وعن عمرو بن شاس الأسلمي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: يا عمرو والله لقد آذيتني. قلت: أعوذ بالله أن أؤذيك يا رسول الله. قال: بلى من آذى عليا فقد آذاني (٥)، وعن سعد بن أبي وقاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمن نالوا من علي: " ما لكم وما لي. من آذى عليا فقد آذاني " (٦)، أليس في هذا تحصين للخليفة وسوق للناس إلى صراط المستقيم؟

ألم تجمع الأمة على حديث من كنت مولاه فعلي مولاه؟ فما جزاء من أهان ولي الله وسلطاناه؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: " من أهان لي وليا

(١) رواه الحاكم وقال حديث صحيح على شرط الشيخين. وأبو الأزهر بإجماعهم ثقة. وإذا تفرد الثقة بحديث فهو على أصلهم صحيح. والحديث سمعه يحيى بن معين بن أبو الأزهر فصدقه واعتذر إليه إن كان قد رماه بالكذب (المستدرک ١٢٨ / ٣) وأورده ابن كثير في البداية ٣٥٦ / ٧.

(٢) رواه الطبراني وقال الهيثمي إسناده حسن (الزوائد ١٣٢ / ٩).

(٣) رواه البزار وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ١٣٥ / ٩).

(٤) رواه الطبراني وقال الهيثمي إسناده حسن (الزوائد ٢٠٣ / ٩).

(٥) رواه أحمد (الفتح ١٢٠ / ٢٣) وقال الهيثمي رواه أحمد والطبراني باختصار والبزار أصغر منه. ورجال أحمد ثقات، ورواه ابن حبان (الزوائد ١٢٩ / ٩)، ورواه ابن أبي شيبة وابن سعد وأحمد والبخاري في تاريخه والطبراني والحاكم (المستدرک ١٢٢ / ٣) (كنز العمال ١٤٢ / ١٣).

(٦) رواه أبو يعلى ورجاله ثقات (الزوائد ١٢٩ / ٩) وممر سابقا.

فقد بارزني بالعداوة... " (١)، وقال: " من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله " (٢)، وقال: " أول فرقة تسير إلى السلطان في الأرض لتذله يذلهم الله قبل يوم القيامة " (٣). وقال صاحب تحفة الأحوازي: من أهان من أعز الله وألبسه خلعة السلطنة أهانه الله. وسلطان الله في قوله: (إنا جعلناك خليفة في الأرض) (٤) فالله هو الذي جعل. وإضافة السلطان إلى الله أضافت تشريف كبيت الله وناقة الله (٥) ولأنه سلطان الله. فمن خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية كما ورد في صحيح البخاري (٦). ولأنه هذا السلطان في مركز النواة. فهو العمود الفقري للجماعة ومن فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية، كما ورد أيضا في البخاري (٧)، وعن حذيفة من فارق الجماعة شبرا خلع ربة الإسلام من عنقه (٨)، فإذا لم يكن هذا كله تحصينا للخليفة وحثا للناس كي يكونوا يدا واحدة وسوقا لهم نحو الصراط المستقيم. فأى كلام بعد ذلك يجدي؟ " من كنت مولاه فعلي مولاه "، ألا يستشف عن هذا النص إمارة أي إمارة. فإذا كانت فيه. فكيف نفهم ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله.

-
- (١) رواه الطبراني وأبو نعيم في الطب عن أبي أمامة. ورواه ابن عساكر عن أنس بلفظ " من أخاف لي وليا فقد بارزني بالمحاربة (كنز ٢٢٩ / ١)، ورواه أحمد وأبو يعلى والطبراني والبيهقي وأبو نعيم عن عائشة بلفظ " من آذى لي وليا فقد استحل محاربتني " (كنز ٢٣٠ / ١) ورواه الطبراني عن ابن عباس بلفظ " من عادى لي وليا فقد ناصبني بالمحاربة (كنز ٢٣١ / ١).
- (٢) رواه ابن أبي عاصم وقال الألباني حديث صحيح (كتاب السنة ٢٨٩ / ٢) ورواه الترمذي من أبي بكر (كنز ١٨٢ / ١).
- (٣) رواه الديلمي عن حذيفة (كنز ٢١٥ / ١).
- (٤) سورة ص: الآية ٢٦.
- (٥) تحفة الأحوازي ٤٧٦ / ٦.
- (٦) البخاري (الصحيح ٢٢٢ / ٤) ك. الفتن.
- (٧) البخاري ك. الفتن (الصحيح ٢٢٢ / ٤).
- (٨) ابن أبي شيبه (كنز ٣٨٤ / ١).

ومن أطاع أميري فقد أطاعني. ومن عصى أميري فقد عصاني " (١)، ألا ينطبق هذا النص على أي شيء مما ذكرناه في علي بن أبي طالب؟
والخلاصة: لقد حذر الله تعالى من دائرة البخس التي يعمل بداخلها حكومة دينية تتخذ الدين ستارا. وهدف هذه الحكومة رد الذين آمنوا بالله عن دينهم ووضعهم على أرضية لا علاقة لها بالصراط المستقيم. وحذر تعالى من دائرة الرجس التي يعم بداخلها طابور خامس تلتقي أهوائه في الخطوط العريضة مع أهواء حكومة الأخبار وعباقرة الأوثان. ولما كانت الحكومة التي تواجهها إلى حكومة. فقد أمر تعالى بأن يكون المؤمنين كلهم يدا واحدة. ولما كان لكل شيء ذروة أعلن النبي ولاية علي بن أبي طالب على رأس الحكومة الدينية. فإذا نظرت ولم تجد الرأس. فلا تسأل في خاتمة الطريق كيف اتبعت الأمة سنن الأولين التي صممها أخبار الحكومة الدينية وأشرف على تنفيذها جميع الخدم والعبيد.

٥ - خاتمة المطاف عند الحوض يوم القيامة:

بعد أن أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن الفتن وكيفية النجاة منها. وبعد أن قام قبل ذلك بإغلاق الباب الذي تهب منه أعاصير الفتن آخذا بأسباب النجاة مع علمه بأن الأمة مختلفة بعده. فليس معنى أن الموت قد كتب على الإنسان. أن يجلس الإنسان في انتظاره. ولكن عليه أن يأخذ بأسباب الحياة الكريمة التي تحقق له الحياة السعيدة في الآخرة. والنبي قدم كل سبب يؤدي للنجاة من يوم يجد المرء فيه ما قدمت يداه. والذي أخذ بسبب في الدنيا سيتسلقه حتى يرد على الحوض يوم القيامة. وعند الحوض سترى وجوه الجميع ولن ينجو إلا الذي أخذ بالكتاب والعترة، كما أخبر النبي، ومن يشفع له صلى الله عليه وسلم. وذكر ابن ماجه في باب الخطبة يوم النحر

(١) رواه البخاري كالأحكام (الصحيح ٢٣٣ / ٤) وأحمد بسند صحيح (الفتح ٤٠ / ٢٣) وابن أبي عاصم بسند صحيح (كتاب السنة ٥٠٧ / ٢).

ص ٦٢٩ / ٣٢ أن حديث الحوض كان في حجة الوداع، أي ذكره النبي يوم أن أمر الأمة أن تأخذ بالكتاب والعترة. ومن العجيب أن بعض الأحاديث قد أشارت إلى رجل يظهر عند الحوض يخبر النبي بما حدث بعده. وفي أحاديث أخرى كشف النقاب عن هذا الرجل لنتبين أنه علي بن أبي طالب الذي زوده الله بخاصية أنه لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق كما ورد في مسلم وغيره، ولنتبع الأحاديث حتى نصل إلى ما ذكرنا.

روى الشيخان عن سهل. قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنا فرطكم على الحوض من ورد وشرب ومن شرب لم يظمأ أبداً، وليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفونني ثم يحال بيني وبينهم (١)، وفي رواية عن عبد الله: "أقول يا رب أصحابي أصحابي. فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك (٢)، وفي رواية عن أبو هريرة، فيقول، "إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقري (٣)، وفي رواية عن أسماء " فيقال: هل شعرت ما عملوا والله ما برحوا بعدك يرجعون على أعقابهم " (٤)، وفي رواية عن ابن عباس: " فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم " (٥). فهذه الروايات هي صلب هذا الحدث الخطير. وفي روايات أخرى ظهرت الإشارة إلى الرجل. روى البخاري عن أبي هريرة قال. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بينما أنا قائم، إذا زمرة، حتى إذا عرفتهم. خرج رجل من بيني وبينهم. فقال: هلم. قلت: أين؟ قال: إلى النار والله. وقلت: وما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقري. ثم إذا زمرة، حتى إذا عرفتهم.

-
- (١) البخاري ك: الدعوات (الصحيح ١٤١ / ٤). مسلم ك الفضائل ب الحوض (الصحيح ٥٣ / ١٥) وأحمد (الفتح ١٩٢ / ١).
(٢) البخاري ك الدعوات (الصحيح ١٤١ / ٤) مسلم ك الفضائل ب الحوض (الصحيح ٥٩ / ١٥) وأحمد والبيهقي عن ابن سعد (كنز ٤١٨ / ١٤).
(٣) البخاري ك الدعوات (الصحيح ١٤٢ / ٤) ب الصراط.
(٤) رواه مسلم عن أسماء وأحمد ومسلم عن عائشة (كنز العمال ٤١٩ / ١٤).
(٥) البخاري في تفسير سورة الأنبياء (الصحيح ١٦٠ / ٣) مسلم (١٩٤ / ١٧).

خرج رجل من بيني وبينهم. فقال: هلم. قلت: أين؟ قال: إلى النار والله. قلت: ما شأنهم. قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقري. فلا أراه يخلص منهم ألا مثل همل النعم. (١). ففي هذه الرواية ظهر رجل شاهد عليهم. وكلما ذهب زمرة وجاءت أخرى فالرجل شاهد ولا يغادر موقعه. وفي رواية أخرى أشير إلى الرجل بصورة أخرى فعن أم سلمة " فصرخ صارخ فقال: إنهم قد بدلوا بعدك. فأقول سحقا سحقا " (٢)، وفي رواية حدد زمن هذا الرجل، بأنه بعد النبي صلى الله عليه وسلم. فعن أم سلمة رضي الله عنها. قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيها الناس بينما أنا على الحوض. جيئ بكم زمرا (أي جماعات) فتفرقت بكم الطرق. فناديتكم: ألا هلموا إلى الطريق (أي اقبلوا) فناداني مناد من بعدي فقال: إنهم قد بدلوا من بعدك. فقلت: ألا سحقا سحقا (٣) - وفي رواية - فأقول: سحقا سحقا لمن بدل بعدي (أي بعدا بعدا. أو مكانا سحيقا أو بعيدا) (٤).

وبنظرة سريعة على بعض الأصناف التي تدخل تحت بند سحق يمكن أن نحدد طبيعة من هو الرجل أو الصارخ أو المنادي الذي ورد ذكره في الأحاديث. بمعنى أن المكان الذي به الجاني حتما سنجده فيه ما يشير إلى المجني عليه أو إلى الشاهد. فلينظر في الأصول مرة أخرى. هذا هو حديث الثقلين يوم غدیر خم ورواه غير واحدة وفيه " إني تارك فيكم خليفتين "، وفي رواية " ثقلين " - أحدهما أكبر من الآخر - كتاب الله جبل ممدود من السماء والأرض وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا - حتى يردا علي الحوض (٥) - وفي رواية - وإن اللطيف الخبير خبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني

-
- (١) البخاري (الصحيح ١٤٢ / ٤) ك الدعوات ب الصراط.
(٢) رواه أحمد بسند صحيح والطبراني (كنز العمال ٤٣٦ / ١٤).
(٣) رواه أحمد وقال في الفتح إسناده جيد (الفتح الرباني ١٩٧ / ١).
(٤) فيه إشارة إنهم غير عصاة لأن العاص يشفع له النبي. وهؤلاء أبعدهم.
(٥) رواه أحمد والترمذي وقال حديث حسن والطبراني عن أبي سعيد، وقال المناوي رجاله موثقون (الفتح الرباني ١٨٦ / ١).

فيهما " (١) - وفي رواية: وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور. فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به. فحث على كتاب الله. ورغب فيه. ثم قال: وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي (٢) - وفي رواية - إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنهما لن ينفرقا حتى يردا علي الحوض. إن الله مولاي. وأنا ولي كل مؤمن. من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم والي من والاه وعاد من عاداه (٣).

من هذا نعلم أن الأقدام الثابتة عند الحوض يوم القيامة هي الكتاب والعتره وعلى رأس أهل البيت علي بن أبي طالب. فالشاهد أو المجني عليه في هذه الدائرة. ثم لننظر نظرة سريعة أيضا في أصناف الذين سيقال لهم سحقا لنعرف من أي دائرة هم - عن خباب قال: إنا لنعوذ على باب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ننتظره أن يخرج لصلاة الظهر إن خرج علينا. فقال: " اسمعوا " فقلنا: سمعنا. ثم قال: " اسمعوا " فقلنا: سمعنا. فقال: " إنه سيلي عليكم أمراء فلا تعينوهم على ظلمهم. فمن صدقهم بكذبهم فلن يرد على الحوض " (٤) - وفي رواية - اسمعوا. هل سمعتم؟ إنه سيكون بعدي أمراء فمن دخل عليهم (٥) فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه وليس بوارد على الحوض " (٦) - وفي رواية - سيكون بعدي أمراء فمن دخل عليهم فصدقهم

(١) رواه أحمد وأبو يعلى وابن أبي شيبه وابن سعد عن أبي سعيد (كنز ١٨٦ / ١).

(٢) رواه مسلم والصحیح ١٧٩ / ١٥ ك فضل الصحابة.

(٣) رواه الطبراني والحاكم عن زيد بن أرقم (كنز ١٨٧ / ١).

(٤) رواه أحمد (الفتح الرباني ٣٠ / ٢٧) وابن أبي عاصم وقال الألباني رجاله ثقات أخرجه أحمد وابن حبان (كتاب السنة ٣٢٢ / ٢).

(٥) قال في تحفة الأحوازي (فمن دخل عليهم) أي العلماء وغيرهم، (وأعانهم على ظلمهم) أي الافتاء ونحوه (فليس مني ولست منه) أي بيني وبينهم براءة ونقص ذمة (التحفة ٥٣٧ / ٦).

(٦) رواه الترمذي عن كعب بن عجرة وصححه (٥٢٥ / ٤) وقال في تحفة الأحوازي أخرجه النسائي وأحمد (التحفة ٥٣٧ / ٦).

بكذبهم وأعانهم على فجورهم فليس مني ولست منه ولا يرد علي حوضي " (١). من هذه الأحاديث نرى أن هناك رؤوس وقواعد طواغيت ورعاع. مادتهم الكذب وهدفهم الفجور وبين هذا وذاك (رحماء) وغوغاء، وهؤلاء لا علاقة لهم بالكتاب. لأن الكتاب له هدف. ولا علاقة لهم بالعترة لأن العترة طاهرة وهؤلاء خرجوا من بحيرات الفجور والدنس. فطردهم من على الحوض شئ طبيعي. لأنهم بغضوا الطهر والنقاء. بغضوا حكم الكتاب وحركة العترة. ومن كان شأنه هذا كانت النار مثواه، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " لا ييغضنا أهل البيت أحد إلا أدخله الله النار " (٢)، وعن الحسن قال رسول الله صلى الله عليه وآله: " لا ييغضنا أحد ولا يحسدنا أحد إلا دبر يوم القيامة عن الحوض " (٣)، وعن أنس قال صلى الله عليه وآله: " لا يشربه أحد أخفر ذمتي ولا قتل أهل بيتي " (٤)، ألم تقرأ من قبل الحديث الذي ذكرناه عن زيد بن أرقم قال النبي صلى الله عليه وآله لعلي وفاطمة والحسن والحسين: " أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم " (٥)، فلا عجب أن يطردوا عند الحوض. لأن الحجة قامت عليهم في الدنيا فضربوا بها عرض الحائط. ثم نعود مرة أخرى لنعرف من هو الرجل، أو المنادي، أو الصارخ الذي

(١) رواه ابن أبي عاصم بن كعب بن عجرة وقال الألباني حديث صحيح (كتاب السنة ٣٥٣ / ٢).

(٢) رواه الحاكم عن أبي سعيد وقال حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه (المستدرک ١٥٠ / ٣).

(٣) رواه الطبراني (كنز العمال ١٠٤ / ١٢).

(٤) رواه ابن مردويه (كنز ٤٢٦ / ١٢) وابن عدي (كنز ٤٣٥ / ١٤).

(٥) تم تخريجه سابقا، رواه الترمذي عن زيد بن أرقم، والترمذي وابن ماجه والحاكم عن زيد أيضا. وأحمد والطبراني والحاكم عن أبي هريرة. ورواه الضياء بسند صحيح وابن حبان وابن أبي شيبه (الجامع الصحيح ٦٩٩ / ٥) (تحفة الأحوازي ٣٧٢ / ١٠) (المستدرک ١٤٩ / ٣) (كنز العمال ٩٦، ٩٧ / ١٢، ٦٤٠ / ١٣)، (الفتح الرباني ١٠٦ / ٢٢)، (البداية والنهاية ٣٨ / ٥).

جاء ذكره عند البخاري وأحمد وغيرهما. ولنبداً من عند طرد الإبل الغريبة من على حوض النبي. روى مسلم عن أبي هريرة قال، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " لأذودن عن حوضي رجالاً كما تزداد الغريبة من الإبل " (١)، ومعناه: كما يزدود ساقى الناقة الغريبة عن إبله إذا أرادت الشرب مع إبله (٢)، وهذا الحديث من جنس الحديث الذي رواه أحمد عن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله غافر إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله " (٣) وبالجملة، بعد النظر في الروايات الواردة في الحوض ونحن نبحت عن الصارخ. وجدنا أنه علي بن أبي طالب عليه السلام. روى الطبراني قال النبي صلى الله عليه وسلم: يا علي معك يوم القيامة عصا من عصي الجنة تذود بها المنافقين عن حوضي (٤). وعن علي قال: أنا أذود عن حوض النبي صلى الله عليه وآله بيدي هاتين القصيرتين. الكفار والمنافقين. كما تذود السقا غريبة الإبل عن حياضهم " (٥)، وعن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: سألت ربي أن تسقي أمتي من حوضي فأعطاني " (٦).

وروى، إن معاوية بن خديج كان يسب علي بن أبي طالب. يوم أن كان السب ثقافة أمر بها معاوية ابن أبي سفيان. فلقبه الحسن بن علي فقال له: أنت الساب لعلي! أما والله لتردن على الحوض. وما أراك أن ترده. فتجده مشمر الإزار على ساق يزدود عنه. لا يأتي المنافقون ذود (كذا) غريبة الإبل. قول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم وقد خاب من افترى (٧).

-
- (١) رواه مسلم (الصحيح ٦٤ / ١٥) ك الفضائل ب الحوض.
(٢) مسلم شرح النووي ٦٤ / ١٥.
(٣) رواه أحمد والحاكم والضياء بسند صحيح (كنز العمال ١٢ / ١٦).
(٤) رواه الطبراني وقال الهيثمي رواه ثقات (الزوائد ١٣٥ / ٩).
(٥) رواية الطبراني في الأوسط (الزوائد ١٣٥ / ٩) (كنز العمال ١٥٧ / ١٣).
(٦) رواه شاذان وقال السيوطي لهذا الحديث شاهد (كنز ١٥٢ / ١٣).
(٧) رواه ابن أبي عاصم. واختلف أحد رواة الحديث وهو علي بن أبي طلحة. وقال الألباني: إن علي بن أبي طلحة سالم مولى بني العباس، وأخرج له مسلم وأصحاب السنن إلا الترمذي. وهو ليس مولى بني أمية كما وقع في الإسناد واتفق عليه الإمامان أحمد بن حنبل وأبو حاتم (كتاب السنة ٢٦١ / ٢).

فالرجل والصارخ والمنادي الذي جاء ذكره في الروايات عند البخاري ومسلم وأحمد. وهو علي بن أبي طالب وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه: " لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا " (١)، وذهب صلى الله عليه وسلم يوما إلى القبور. فقال فيما رواه الحسن: السلام عليكم يا أهل القبور. لو تعلمون ما نجاكم منه مما هو كائن بعدكم. ثم قال لأصحابه: هؤلاء خير منكم. إن هؤلاء خرجوا من الدنيا ولم يأكلوا من أجورهم شيئا. وخرجوا وأنا الشهيد عليهم. وإنكم قد أكلتم من أجوركم ولا أدري ما تحدثون من بعدي (٢)، وروى الإمام مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لشهداء أحد: هؤلاء أشهد عليهم، فقال أبو بكر الصديق: ألسنا يا رسول الله إخوانهم، أسلمنا كما أسلموا وجاهدنا كما جاهدوا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بلى، ولكن لا أدري ما تحدثون بعد. فبكى أبو بكر ثم بكى. ثم قال: ائنا لكائنون بعدك (٣).

إن الطريق إلى الحوض. هو نفسه الصراط المستقيم... الذي يكافح الشيطان وأعوانه من أجل أن يقرقلوا المسيرة البشرية التي خلقها الله لتسير إليه بعبادته سبحانه، والذين ارتدوا على أدبارهم القهقري هم في الحقيقة الذي سقطوا في شباك الشيطان. قال تعالى: (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعدما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم) (٤)، فالارتداد على الأدبار. الرجوع إلى الاستدبار بعد الاستقبال. وهو استعارة أريد بها الترك بعد الأخذ. وتسويل الشيطان لهم. أي زين لهم ما تحرص النفس عليه. وصور القبيح لهم

(١) رواه مسلم (كنز ٤٠٨ / ١١).

(٢) رواه ابن المبارك عن الحسن مرسلا (كنز ١٧٩ / ١١).

(٣) موطأ مالك. كتاب الجهاد ص ٣٧١.

(٤) سورة محمد: الآية ٢٥.

في صورة الحسن. والطرء من على الحوض عقوبة شديدة يتذوقها الذين ارتدوا على أءبارهم قبل أن يذوقوا عذاب النار. قال تعالى: (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) (١). فقد بين تعالى جزاء عمل هذا النمط البشري وعاقبة أمرهم بقوله تعالى: (أولئك لهم اللعنة وسوء الدار " واللعن: الإبعاد من الرحمة والطرء من كل كرامة. وليس ذلك إلا لانكبابهم على الباطل ورفض الحق النازل من الله، وليس للباطل إلا البوار.

إن للمؤمنين سبيل فمن سلكه شرب ونال الثواب العظيم. ومن ارتد القهقري فله الجهة التي ارتد إليها، قال تعالى: (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) (٢)، وقيل: المراد بمشاقة الرسول بعد تبين الهدى. فخالفته وعدم إطاعته. وعلى هذا فقوله: " ويتبع غير سبيل المؤمنين " بيان آخر لمشاقة الرسول. والمراد بسبيل المؤمنين. إطاعة الرسول. فإن طاعته طاعة لله. قال تعالى: (من يطع الرسول فقد أطاع الله) (٣).

(١) سورة الرعد: الآية ٢٥.

(٢) سورة النساء: الآية ١١٥.

(٣) سورة النساء: الآية ٨٠.

سادسا - غروب الشمس والقمر

مما سبق علمنا منزلة علي بن أبي طالب. فهو من بني هاشم كالقمر في كبد السماء. وفي الحديث الصحيح قال النبي صلى الله عليه وسلم لبني هاشم: "إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا" (١)، ومن بني هاشم اخترق هذا التكليف والأمر جدار القبيلة. إلى دار الأمة فقال النبي صلى الله عليه وسلم مخاطبا أمته "علي مني وأنا منه ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي" (٢)، وقال: "من كنت مولاه فعلي مولاه" (٣)، وقال لعلي: "أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي" (٤)، إلى غير هذا من الأحاديث التي تلقته الأمة بالقبول وصحها علماء الحديث.

فعلي بن أبي طالب له مكانه الواضح الظاهر في منطقة المركز. ثم في جميع مناطق الاتساع التي تنشأ نتيجة لحركة الدعوة. وهذا المكان تم تأمينه بوضع علامات تحذيرية من حوله. كي يعلم كل من يريده بسوء أن الأمر لن يكون سهلا عندما يقف التابع والمتبوع أمام الله تعالى يوم القيامة. ويكفي من

(١) حديث قوله تعالى: (وأُنذِرَ عشيرتك الأقربين) رواه أحمد وابن جرير وصححه

والطحاوي والضياء بسند صحيح، وتم تخريجه من قبل راجع (كنز العمال ١٢٩ -

١٣٣، ١٧٤، ١٧٥ / ١٣) (الفتح الرباني ١٢٢ / ٢٣) (المستدرک ٣٥ / ٣).

(٢) تم تخريجه والحديث صحيح راجع (جامع الترمذي ٦٣٥، ٦٣٦ / ٥) (كنز العمال ٥٩٩، ٦٣٦ / ٥).

(٣) تم تخريجه والحديث صحيح راجع (الفتح الرباني ٢١٣ / ٢١) (كنز العمال ٦٠٩ / ١١، ١٣٤ / ١٣) (المستدرک ١١٠ / ٣) (الزوائد ١٠٤ / ٩).

(٤) رواه مسلم وغيره وتم تخريجه من قبل راجع (صحيح مسلم ١٧٤ / ١٥).

علامات التحذير قوله صلى الله عليه وسلم لعلي وفاطمة والحسن والحسين:
" أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم " (١)، وخطابه صلى الله عليه
وسلم أمته قائلا: " أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي.
أذكركم الله في أهل بيتي " (٢).

ولما كان من مهام الإنسان خلافة الله في الأرض - فإن هذه المهمة في
جوهرها مادة للابتلاء. وعلى امتداد التاريخ الإنساني. رفضت أقوام الأنبياء
والرسل. وكان العمود الفقري للرفض أنه من بين هذه الأقوام من كان يزعم أنه
الأجدر والأحق بقيادة المسيرة. وهذا في حد ذاته خروج عن واجب الخلافة.
وترتب على هذا الزعم أن انحرفت قوافل الضلال وتاهت في أودية عبادة المادة
بجميع أشكالها - وظهر في الوجود آلهة من الأصنام والأوثان والبشر. ومن ينظر
بتدبر تحت أقدام هذه الآلهة المتعددة. يجد أن السبب الرئيسي لوجودها هو
رفض خليفة الله في الأرض. وإذا عدنا بالذاكرة إلى الخلف لنلتقط مشهد وحركة
من أعماق الوجود لندلل به على ذلك. فلنقف أمام قصة آدم عليه السلام وموقف
الشيطان الرجيم منه فآدم عليه السلام خليفة. والشيطان خارج على هذه
الخلافة. ولكل منهما منهاج له مقدمة وعليها نتيجة.

والأمة الخاتمة بين لها رسولها صلى الله عليه وسلم المقاعد الأولى
فيها. وذلك كما بينا من قبل. ولما كان التشريع مبنيا على أساس أنه لا إجماع
في دين الله. وإنه لا إجماع في الأفعال. وإن التكليف مجعولة على وفق مصالح
العباد في معاشهم ومعادهم أولا، وهي متوجهة إلى العباد من حيث أنهم
مختارون في الفعل والترك ثانيا. والمكلفون إنما يثابون أو يعاقبون بما كسبت
أيديهم من خير أو شر اختيارا. فإنه لا معنى للقول بأن التكليف أهمل مصالح
العباد في تعيين الخليفة الذي يسوق الناس إلى الله تعالى، ويعبر بهم الحياة الدنيا

(١) رواه أحمد وتم تخريجه من قبل راجع (المسند ٢ / ٢٤٢) (المستدرک ١٤٩ / ٣) والحديث صحيح.

(٢) رواه مسلم وتم تخريجه من قبل. راجع (صحيح مسلم ١٧٩ / ١٥).

بما يوافق الكمال الأخروي الحياة الدائمة الحقيقية. وكيف يهمل التكليف هذا. وفي الإهمال إلغاء لآدم وبرنامج آدم، وفي الإلغاء ضياع للسعادة الحقيقية التي لا يصل الإنسان إليها. إلا عندما يكون مؤمنا بالله وكافرا بالطاغوت. وبضياع السعادة الحقيقية يفسد دين الإنسان الفطري ولا تتعادل قواه الحسية الداخلية. وعندما يفسد الدين الفطري يميل الإنسان إلى قوة من القوى ويتبعها. ويؤدي هذا الميل إلى طغيان تلك القوة. ويعلو هبل بل ألف ألف هبل. ولا معنى أيضا للقول بأن الإنسان خلقه الله تعالى كحصاة في الطريق تلهو بها كل قدم. وإن على عباقرة القبائل في كل عصر أن يستخدموه في أي عمل شاءوا كيف؟ وهل جاءت الأصنام والأوثان إلا من طريق الفراعنة والقيصرية والأكاسرة. أصحاب المقاعد الأولى التي زخرف الشيطان حولها. إن التسليم لفقه الحصى الذي تلهو به كل قدم. يعني إبطال معرفة الحسن من القبيح. ويعطل الثواب والعقاب. وكيف يكون هذا والتكاليف متوجهة إلى العباد من حيث أنهم مختارون في الفعل والترك. ويثاب المكلفون أو يعاقبون بما كسبت أيديهم من خير أو شر اختيارا. والقرآن الكريم أخبر بأن الكفار والمشركين سيعترفون يوم القيامة بأنهم إنما أشركوا واقترفوا المعاصي بسوء اختيارهم واغترارهم بالحياة الدنيا، إن فقه الحصى وضعه علماء الشذوذ والترفع ليقدم سياسة الاحتناك لأن من أبوابه دخل الجلادون ليمارسوا واجب الاستكبار الذي دور أوتاده الشيطان. وفقه الحصى والحجارة مهمته تبرير أعمال المنافقين والفساق والمشركين والكفار. ونسي عباقرة هذا الفقه أن الله تعالى عندما تبرأ من المشركين لم يتبرأ سبحانه من خلق ذواتهم أو ألوان بشرتهم. وإنما تبرأ من شركهم وقبائحهم. وتحت سقف التبرير دخل علماء الحجارة من باب القضاء والقدر. ومن هذا الباب قتلوا المقاومة والتصدي للشر عند أكثر الناس: بحجة أن الله أجبر العباد على أفعالهم. أو أن الأنبياء والرسل عليهم السلام قد يريدون لذويهم أن يكونوا على المقاعد الأولى في أممهم. ولكن الله تعالى يريد غير ذلك لأن الناس سواسية كلهم لآدم وآدم من تراب. ولهذا سبق القضاء وجاء الفراعنة والقيصرية. لقد كان هذا الباب من فقه الحصى والحجارة. من أخطر الأبواب

على المسيرة البشرية. وكيف يجلس الفراغنة في دائرة الفحشاء والمنكر ثم يقال بعد هذا إن الله أمر بذلك؟ إن البرنامج الذي يأمر بالسوء والفحشاء حذر الله تعالى الجنس البشري منه. وما قال أتباع هذا البرنامج ذلك إلا ليحتموا وراء جدار من الزينة ليغواوا الناس ويدعونهم إليه. أما القول الحق في هذه المسائل ما روي عن الإمام الصادق. وقد قيل له: هل فوض الله الأمر للعباد؟ فقال: إن الله أكرم من أن يفوض إليهم. فقليل له: فأجبر الله العباد على أفعالهم؟ قال: الله أعدل من أن يجبر عبدا على فعل ثم يعذبه عليه. وروي عنه أنه قال: إن الله عز وجل أرحم بخلقه من أن يجبر خلقه على الذنوب ثم يعذبهم عليها والله أعز من أن يريد أمرا فلا يكون. وعنه قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من زعم أن الله يأمر بالسوء والفحشاء فقد كذب على الله. ومن زعم أن الخير والشر بغير مشيئة الله فقد أخرج الله من سلطانه.

وبيان هذا كله فيما روي عن الإمام الرضا. قال: إن الله عز وجل لم يطع بإكراه. ولم يعص بغلبة ولم يهمل عبادة في ملكه هو المالك لما ملكهم والقادر على ما أقدرهم عليه فإن ائتمر العباد بطاعته لم يكن الله منها صاددا ولا منها مانعا. وإن ائتمروا بمعصية فشاء أن يحول بينهم وبين ذاك فعل، وإن لم يحل فعلوه فليس هو الذي أدخلهم فيه. ثم قال الإمام الرضا: من يضبط حدود هذا الكلام فقد خصم من خالفه - أي من جادله.

لقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أين المركز من الدائرة. وأحاط أُمته علما بأن اختيار الأمة سيكون حول هذا المركز. ونهى عن إيذاء أهل المركز أو حربهم وأمر بالالتفات حولهم. واختبار الناس بالناس سنة إلهية جارية. قال تعالى: (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) (١)، وقال تعالى: (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا

(١) سورة الأنعام: الآية ٥٣.

وليعلن الكاذبين (١)، ففي الآيات مرتكرات ودوائر. وحول هذا وذاك يجري الامتحان الذي سترتب عليه الثواب أو العقاب. قال تعالى: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) (٢)، وبما أن الأمة الخاتمة من الناس وعليها يجري الاختبار. وبما أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر بما هو كائن وما سيكون. وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها حتى لا يكون للناس على الله حجة. فإننا سنلقي الضوء هنا على معالم العقبات التي لم تمكن أهل البيت من القيام بواجب الخلافة.

وفي البداية إذا سألنا: ما هي العوامل التي أدت إلى ابتعاد أهل البيت عن القيادة، رغم ما أحيط حولهم من مناقب وتبشير وتحذير؟ فإن الإجابة لا بد لها من مقدمة. نقول فيها: إن الأمور الماضية يتعذر الوقوف على عللها وأسبابها. ولا يعلم حقائقها إلا من شاهدها ولا بسها. وكما قال ابن أبي الحديد: بل لعل الحاضرين المشاهدين لها. لا يعلمون باطن الأمر فيها... ولأن الأمر كذلك. فنحن هنا نقوم بترتيب المعلومات لاستنتاج المجهولات ونستعمل مقدمات حقيقية يقينية لاستنتاج معلومات تصديقية واقعية. وفي مجال البحث عن الحقيقة نعلم أن الأمور إذا اشتبهت اعتبر آخرها أولها أي يقاس آخرها على أولها فحسب البدايات تكون النهايات، وعمودنا الفقري في البحث هنا الحديث الشريف، وفيه نسلط الضوء على التاريخ وحركته وتحت الضوء تظهر المعلومات وبحديث آخر ترتب هذه المعلومات، وفي النهاية نحصل على مقدمة حقيقية يقينية على ضوءها يفتح التاريخ أبوابه لنستنتج المعلومات التصديقية الواقعية.

والمقدمات الحقيقية التي يمكن أن يستند عليها لاستنتاج الأسباب التي أدت إلى إبعاد أهل البيت عن ممارسة واجب الخلافة مقدمات كثيرة. ولكننا سنسلط الضوء على وجه المجتمع أولاً فعلى الوجه ترى ما نريده من مقدمات.

(١) سورة العنكبوت: الآية ٢ - ٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٤٢.

١ - من معالم الغروب:

بيننا فيما سبق أن الصحابة قوم من الناس. لهم ما للناس وعليهم ما عليهم. ليس لهم على غيرهم من المسلمين كبير فضل إلا بمشاهدة الرسول ومعاصرته لا غير. بل وربما كانت ذنوبهم أفحش من ذنوب غيرهم. لأنهم شاهدوا الأعلام والمعجزات. ويكفي أن فيهم اثني عشر رجلا حربا لله ولرسوله في الحياة الدنيا. وإن فيهم أصحاب المسجد الضرار. وفيهم من قال فيهم عمر بن الخطاب عندما استأذنه الزبير في الغزو: ها أنا ممسك بباب هذا الشعب أن يتفرق أصحاب محمد في الناس فيضلّوهم. وسنذكر بعض الآيات الكريمة. التي تبين حاله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه كيف كانت. وقد بينا ذلك ونحن نتحدث عن دائرة الرجز والذين في قلوبهم مرض لأن هؤلاء هم أصحاب المصلحة في عرقلة الطريق وإضلال الناس. وهؤلاء كان لهم موقف ثابت من الرسول ودعوته على امتداد الزمان. وبما أن علي بن أبي طالب أقرب الناس إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه أخذ القسط الأكبر من العداة ووضع العراقيل أمام خطاه. ونحن لن نعرف حجم هذه العراقيل. إلا إذا وضعنا أيدينا على طبيعة القوم في عهد النبوة. فتخاذلهم وحبهم للدنيا والرسول في وسطهم. يفسح الطريق لفهم تخاذلهم وحبهم للدنيا عندما جاء دور علي بن أبي طالب. وآيات تخاذلهم في الحروب كثيرة في كتاب الله. فالقرآن يشهد بأنهم اتوا عليه صلى الله عليه وسلم يوم بدر وكرهوا لقاء العدو حتى خيف خذلانهم وذلك قبل أن تتراءى الفتتان. قال تعالى: (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون)* يجادلونك في الحق بعدما تبين لهم كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون (١)، قال المفسرون: المعنى: إن الله تعالى حكم في أمر الأنفال بالحق مع كراهتهم لحكمه. كما أخرجك من بيتك بالمدينة إخراجا يصاحب الحق. والحال أن فريقا من المؤمنين لكارهون لذلك ينازعونك في الحق بعدما تبين لهم إجمالا. والحال إنهم يشبهون جماعة يساقون إلى

(١) سورة الأنفال: الآية ٥ - ٦.

الموت. وهم ينظرون إلى ما أعد لهم من أسبابه وأدواته... ومن هذا نعلم أن المجتمع كان فيه من يجادل في الحق. وعلى هذا لا يكون من العسير أن يجادل هؤلاء علي بن أبي طالب أو غيره إذا كانوا قد جادلوا الرسول. ويوم أحد شهد القرآن أنهم عصوا أمره صلى الله عليه وسلم في ذلك اليوم، حيث أقامهم على الشعب في الجبل. وهو الموضع الذي خاف أن تكرر عليه منه خيل العدو من ورائه. وهم أصحاب عبد الله بن جبير. فإنهم خالفوا أمره وعصوه فيما تقدم به إليهم. وروى أصحاب التفاسير أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم: "إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم" ولكنهم رغبوا في الغنيمة عندما شاهدوا النساء يشتدون على الجبل وقد بدت أسواقهن وخلاخلهن رافعات ثيابهن (١). ففارقوا مركزهم، حتى دخل الوهن على المسلمين بطريقهم. لأن خالد بن الوليد كر في عصابة من الخيل فدخل من الشعب الذي كانوا يحرسونه فما أحس المسلمون بهم إلا وقد غشوه بالسيوف من خلفهم فكانت الهزيمة. وذلك قوله تعالى: (حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعدما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) (٢)، وعن ابن مسعود قال: ما كنت أرى أن أحدا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا. حتى نزل فينا ما نزل يوم أحد (٣). والذين يحبون الدنيا لا يمكن بحال أن يلتقوا مع علي بن أبي طالب على خط واحد له هدف واحد. والذين يحبون الدنيا لم تنته حياتهم. بموت الرسول صلى الله عليه وآله. بل استمر عطاؤهم على خنادق الصد حربا لله ولرسوله في الحياة الدنيا. ولم تكن المعصية يوم أحد فقط. وإنما كانت أيضا في غزوة تبوك. فبعد أن أكد عليهم النبي صلى الله عليه وسلم الأوامر. خذلوه وتركوه. كما بينا من قبل أساليبهم في ضرب القوة العسكرية للدعوة. وهذا

(١) تفسير ابن كثير ٤١٤ / ١.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٢.

(٣) تفسير ابن كثير ٤١٣ / ٢.

النمط البشري نزل فيه قول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) (١)، وهذه الآية خطاب مع المؤمنين لا مع المنافقين. وفيها أوضح دليل على أن أصحابه المصدقين لدعوته كانوا يعصونه ويخالفون أمره وهذا النمط المتخاذل عاتبهم الله ووبخهم بقوله تعالى: (لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون) (٢). كان هذا في ميادين القتال، وفي داخل المسجد لم يختلف الأمر كثيرا. فالذين أحبوا الدنيا في المعركة أحبوا أيضا والرسول صلى الله عليه وسلم قائم يخطبهم يوم الجمعة. وهذا إن دل على شيء. فإنما يدل على الاستهانة بما هو من أعظم المناسك الدينية. ويكشف أنهم لم يقدروها حق قدرها ولا نزلوها منزلتها. ولقد اتفقت الروايات على أنه ورد المدينة غير معها تجارة وذلك يوم الجمعة والنبي صلى الله عليه وسلم قائم يخطب ف ضرب أصحاب التجارة بالطلب والدف لإعلام الناس. فانفض أهل المسجد إليهم وتركوا النبي قائما يخطب وذلك في قوله تعالى: (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما) (٣)، أيستبعد على هذا النمط بعد ذلك أن يصادر الحكمة والبلاغة وأن يترك من هو دون الرسول إذا قام فيهم أو ساقهم إلى ما فيه سعادتهم الحقيقية. ومن دائرة حب الدنيا تنتقل إلى دائرة تفسير النصوص وفيها نرى أن العديد منهم كان يفتح أبواب الرأي والنبي في وسطهم. ولقد حذرهم النبي من هذا. لأن هذا الباب إذا فتح فسيدخل منه أمور لم يرد لها ذكر في الكتاب والسنة. روى الإمام مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع أصوات رجلين اختلفا في آية. فخرج يعرف في وجهه الغضب وقال: "إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في

(١) سورة التوبة: الآية ٣٨.

(٢) سورة التوبة: الآية ٤٢.

(٣) البخاري ك البيوع (الصحيح ٢ / ٢) ابن كثير في التفسير ٣٦٧ / ٤.

الكتاب " (١)، وفي رواية عند الإمام أحمد قال النبي لبعض أصحابه: " ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض. بهذا أهلك من كان قبلكم " (٢)، وروى الإمام مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: " أيتلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم " (٣)، وروى ابن أبي عاصم أنه قال لهم: " ألهذا خلقتكم؟ أم بهذا أمرتم. لا يضربوا كتاب الله بعضه ببعض. انظروا ما أمرتم به فاتبعوه وما نهيتم عنه فاجتنبوه " (٤)، وروى الدارقطني: إن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من باب البيت وهو يريد الحجرة. فسمع قوما يتراجعون بينهم في القرآن. يقولون: ألم يقل الله في آية كذا وكذا. فقال لهم: أبهذا أمرتم. أبهذا عنيتم إنما هلك من قبلكم بأشباه هذا ضربوا كتاب الله بعضه بعضا أمركم الله بأمر فاتبعوه ونهاكم عن شيء فانتهوا (٥).

فهل انتهوا؟ إن التاريخ يقول إن المسيرة شهدت للرأي أعلاما. واتفق على أن الصحابة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم. أطبقوا إطباقا واحدا على ترك كثير من النصوص لما رأوا المصلحة في ذلك. كإسقاطهم سهم ذوي القربى وإسقاط سهم المؤلفه قلوبهم. وهذان الأمران يدخلان في باب الدين وفيهما نصوص صريحة. وقد عملوا بأرائهم أمورا لم يكن لها ذكر في الكتاب والسنة. وعملوا بمقتضى ما يغلب في ظنونهم من المصلحة. ولم يقفوا مع موارد النصوص حتى اقتدى بهم الفقهاء من بعد فرجح كثير منهم القياس على النص، حتى استحالت الشريعة وصار أصحاب القياس أصحاب شريعة جديدة. وأكثر ما يعملون بأرائهم فيما يجري مجرى الولايات والتأثير والتدبير وتقرير قواعد الدولة. وما كانوا ليقفوا مع نصوص الرسول صلى الله عليه وسلم وتدابيراته

(١) مسلم ك العلم (الصحيح ٢١٨ / ١٦).

(٢) أحمد عن ابن عمر (كنز العمال ١٩٣ / ١).

(٣) مسلم (الصحيح ١٧٥ / ١).

(٤) ابن أبي عاصم. وقال الألباني إسناده حسن وأخرجه أحمد وابن ماجه (كتاب السنة

١٧٧ / ١).

(٥) الدارقطني وابن عساكر (كنز العمال ٣٨٣ / ١).

إذا رأوا المصلحة في خلافها. كأنهم كانوا يقيدون نصوصه المطلقة بقيد غير مذكور لفظاً، وكأنهم كانوا يفهمونه من قرائن أحواله. وتقدير ذلك القيد " افعلوا كذا إن رأيتموه مصلحة " (١)، وهكذا حذر النبي من تأول غير الراسخين في العلم. لأن تأولهم يفتح الأبواب للذين في قلوبهم زيغ. فيدقون أوتاد الفتن ويسيرون خيام الهلاك التي أقيمت من قبل للأمم السابقة. وكما حذر النبي من الرأي والتأويل الذي لا يستند على كتاب الله وسنة رسوله. حذر أيضاً من السلوك في طريق الخشوع الزائف. لأن هذا النوع من الخشوع من فضيلة ضرب كتاب الله بعضه ببعض. فأصحاب الخشوع الزائف شربوا من إناء الذين في قلوبهم زيغ. ولأن حركة أصحاب الخشوع الزائف تضيق الطريق أمام أصحاب الخشوع الحق. بتبليس الأمور على الناس فإن النبي صلى الله عليه وآله عاتب أصحاب هذا الخشوع ووبخهم وذمهم في أكثر من موضع. روى الإمام البخاري أن النبي صلى الله عليه وآله رخص في أمر فتنزه عنه ناس من الناس فبلغ ذلك النبي فغضب ثم قال: ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه. فوالله إنني لأعلمهم بالله وأشدّهم له خشية (٢)، وروى الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج إلى مكة فصام حتى بلغ كراع الغميم (٣) وصام الناس معه فقليل له: إن الناس قد شق عليهم الصيام وإن الناس ينظرون فيما فعلت. فدعا بقدر من ماء بعد العصر فشرب والناس ينظرون إليه. فأفطر بعضهم وصام بعضهم. فبلغه أن ناساً صاموا فقال: أولئك العصاة (٤)، وروى الإمام أحمد: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعظ الناس. فرفع رجل صوته بالبكاء. فقال النبي: من هذا الذي لبس علينا إن كان صادقاً شهر نفسه وإن كان كاذباً محقه الله " (٥)، وروى أحمد أيضاً عن ابن الأدرع قال: انطلقت مع

(١) ابن أبي الحديد ٨٠٧ / ٣.

(٢) البخاري ك الآداب (الصحيح ٦٦ / ٤) مسلم (الصحيح ٩٠ / ٥).

(٣) موضع بين مكة والمدينة.

(٤) الترمذي وصححه (الجامع ٨٠ / ٣).

(٥) أحمد في كتاب الورع ص ٧٩.

رسول الله صلى الله عليه وسلم فمررنا على رجل يصلي مجهرا بالقرآن. فقال النبي: عسى أن يكون مراثيا. قلت: يصلي يجهر بالقرآن!! (١)، فترك النبي صلى الله عليه وسلم يدي ثم قال: إنكم لن تنالوا هذا الأمر بالمغالبة (٢). وروى الإمام مسلم أن النبي صلى الله عليه وآله أعتم ذات ليلة العشاء حتى رقد الناس واستيقظوا. فجاء عمر بن الخطاب وأنذر الناس بالصلاة وصاح: الصلاة. وفي رواية: قال عمر: نام النساء والصبيان. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما كان لكم أن تنذروا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصلاة "، وذلك حين صاح عمر (٣) ومن الطريف قول بعضهم: أن صياح عمر كان لغيرته على الدين وذلك عندما وجد أن النبي لم يخرج للصلاة وأن النساء والصبيان قد ناموا.

وروى الإمام البخاري ومسلم أن رجلا اشتكى للنبي أن يتأخر عن الصلاة من أجل فلان (٤) الذي يطيل بهم في الصلاة. فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وقال: أيها الناس إن منكم منفرين. فأياكم ما صلى بالناس فليوجز فإن فيهم الكبير والضعيف وذا الحاجة " (٥)، من هذا نعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم واجه كل صور الخشوع الزائف أو المبالغ فيه أو الذي لا يستمد وقوده من النبي صلى الله عليه وسلم. وذلك لأن تحت هذه المظلة تنتعش تزكية النفوس. وتزكية النفوس بغير حق واضح. سلاح فعال يستخدم في أعمال الصد عن سبيل الله. فأصحاب دائرة الذين في قلوبهم مرض أو زيغ إذا ضربوا كتاب الله بعضهم ببعض. احتمى تلاعبهم بالنصوص بملايس الخشوع الزائف. وهنا تكمن الخطورة. وذروة التحذير من هذا النمط البشري. كانت فيما رواه أبو سعيد

(١) أي إنه رجل صالح.

(٢) رواه أبو يعلى وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الزوائد ٦٣٢ / ٦).

(٣) مسلم عن عائشة وابن عمر كتاب المساجد. وقت العشاء (١٣٧ - ١٣٨ / ٥ الصحيح)

(٤) في رواية أنه معاذ بن جبل.

(٥) رواه البخاري كك الأحكام (الصحيح ٢٣٦ / ٤).

الخدرى. أن أبا بكر رضي الله عنه. جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: يا رسول الله: إني مررت بوادي كذا وكذا، فإذا رجل تخشع حسن الهيئة يصلي. فقال له النبي: اذهب إليه فاقتله. فذهب إليه أبو بكر. فلما رآه على تلك الحال كره أن يقتله. فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله رأيته يصلي متخشعا فكرهت أن أقتله. فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر: اذهب فاقتله. فذهب عمر فرآه على تلك الحال التي رآه أبو بكر فكره أن يقتله فرجع فقال: يا رسول الله رأيته يصلي متخشعا فكرهت أن أقتله فقال النبي: يا علي اذهب فاقتله فذهب فلم يره فرجع علي فقال: يا رسول الله إني لم أره، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن هذا وأصحابه يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم في فوقه فاقتلوهم هم شر البرية (١).

وهذا الرجل المتخشع الحسن الهيئة هو ذو الثدية. وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله. وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى هذا المارق من قبل في المسجد كما في حديث أنس عند أبي يعلى. ويومئذ أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله ولكن خشوعه غر الشيخين أبو بكر وعمر. كان هذا في المرة الأولى. ثم جاءت الثانية عندما رآه أبو بكر يصلي في بعض الأودية. فأخبر النبي فأمره فورا بقتله. وفي هذا دليل على أن الخاشع محكوم عليه من قبل. ولكن رياء هذا المارق بتخشعه في صلاته غر بشيخين مرة أخرى فكرها قتله وآثرا استحياه. والنبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم من ربه أن هذا الخاشع المارق سيكون له فقه خاص به مهمته الصد عن الإسلام بالإسلام وعن الكتاب بالكتاب. ولما كان الأمر متعلقا بالإسلام وكتابه فإن الله تعالى أخبر رسوله أن نهاية هذا المارق ستكون بيد أعلم الناس بالأعلام وكتابه علي بن أبي طالب. ولقد قاتله علي بن أبي طالب فيما بعد وهو بين أتباعه. وعندما قتله أعلن على قواته الحقيقة الكبرى ومفادها أن هذا الرجل لم يكن إلا شيطان من

(١) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٢٢٧ / ٦) وابن كثير في البداية (٢٩٩ / ٧).

الشياطين. وذلك فيما ذكره ابن كثير أن سعد بن أبي وقاص قال بعد موقعة النهروان " قتل علي بن أبي طالب شيطان الردهة " (١)، وقال علي بعد الموقعة: " أخبرني خليلي صلى الله عليه وآله وسلم أنهم ثلاثة أخوة من الجن هذا أكبرهم " (٢)، وظهور الشياطين على هذه الصورة أمر غير مستغرب. فلقد روى الإمام مسلم " إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل فيأتي القوم فيحدثهم بالحديث " (٣). وروى مسلم أيضا: " إن في البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان يوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآنا " (٤)، ولما كان ظهور الشياطين حقيقة. ولما كانوا سيحدثون الناس بأحاديث يكذبون فيها على رسول الله. ويقرأون عليهم قرآنا ليشتعل الجدل ويأتي الاختلاف والافتراق. كما في قوله تعالى: (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم) (٥)، ولما كانوا سيظهرون بلباس الخشوع ويصلون وسوف يغتر بخشوعهم الكثير. كان من عدل الله تعالى أنه قطع الطريق عليهم بتحديدته تعالى دائرة الطهر التي يجلس فيها الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، وأهل هذه الدائرة لا يكذبون كما أنهم أعلم الناس بكتاب الله. ولقد فرض الله مودتهم. وأهل هذه الدائرة يتعاملون مع الدنيا على أنها قنطرة إلى الآخرة. ولا يأكلون في الدنيا إلا ما فرضه الله لهم من سهم ذي القربى كما أنهم دخلوا دائرة الأمان وذلك لإخبارهم أنهم سيكونون مع النبي صلى الله عليه وآله عند الحوض، وسيكونون معه في مكان واحد في الجنة. من هذا كله يمكن القول بأنه يستحيل عليهم أن يكذبوا بأي غنيمة ينالوها إذا كذبوا. أما الشياطين وأتباعهم فالكذب نقطة ارتكاز في نفوسهم. لأنهم

(١) ابن كثير في البداية (٢٩٨ / ٧).

(٢) رواه أحمد وقال في فتح الباري سنده جيد وله شاهد من حديث جابر عند أبي يعلى ورجاله ثقات (فتح الباري ٢٩٩ / ١٢)، وأخرجه الحاكم (المستدرک ٥٣٣ / ٤).

(٣) رواه مسلم (الصحيح ٩ / ١ ط إسطنبول).

(٤) رواه مسلم (الصحيح ١٠ / ١ ط استانبول).

(٥) سورة الأنعام: الآية ١٢١.

يريدون وإذا أعطوا لا يشبعون
فالنبي أمر بقتل المارق يوم إن كان متخشعا في صلاته. وكان يعلم من ربه
أن هذا المارق له يوم مؤجل وما فعل النبي هذا إلا من باب الأخذ بالأسباب.
بعد أن علم أن الأمة ستختلف وتفترق من بعده. ولقد أخذ صلى الله عليه
وسلم بالأسباب فحذر الناس من الإمارة لأنه علم أن الأمة ستسند الأمر إلى غير
أهله. وحذر من بني أمية ونفى الحكم بن أبي العاص لما علم من ربه ما
يضمروه للدعوة. وبعد أن شاهدتهم ينزون على منبره نزو القردة. ويوم فتح
مكة. أهدر النبي دم عبد الله بن أبي السرح وأمر بقتله ولو وجد متعلقا بأستار
الكعبة. وذلك عندما علم من ربه أن ابن أبي السرح ستجري على يديه فتن تقود
إلى فتن حالكة الظلام. فماذا فعلوا مع ابن أبي السرح. لقد فر هذا الرجل إلى
أخيه من الرضاعة عثمان بن عفان. وغيبه عثمان عنده حتى أتى به رسول الله
صلى الله عليه وسلم بعدما اطمئن أهل مكة. فاستأمنه له فصمت رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم طويلا. ثم قال: نعم فلما انصرف عثمان قال النبي لمن
حوله: ما صمتت إلا ليقوم إليهم بعضكم فيضرب عنقه فقال رجل: فهلا أومأت
إلي يا رسول الله. فقال النبي: إن النبي لا ينبغي أن يكون له خائنة أعين (١)،
وبعد وفاة النبي توارى ذو الشدية وابن أبي السرح وبني أمية وبني الحكم وراء
أشجار الزينة. يدونون فقههم بعد أن محيت آثار التحذير منهم وذلك عندما منع
الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه رواية الحديث. وألغي سهم المؤلف
قلوبهم الذي ضربه الله على ضعاف الإيمان المنافقين وأشباههم ليعرفوا به.
لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يأخذ بالأسباب رغم علمه بأن
الذي يطلب من الله دفعه عن الأمة. واقع لا محالة لأن الله أعلم بالقلوب وأعلم
بالطريق الذي ستختاره كل نفس من النفوس. والأخذ بالأسباب رغم هذا العلم.
هو في حقيقته تعلق بالله. لأن الله نسب الهداية في كل مكان إلى نفسه

(١) راجع ترجمة ابن أبي السرح (الإستيعاب ٣٧٨ / ٢، الإصابة ٣٠٩ / ٢، أسد الغابة ١٧٣ / ٣).

بصورة مطلقة. وأمر النبي صلى الله عليه وسلم، بإراقة دماء واحد من الناس بالإضافة إلى أنه أخذ بالأسباب. إلا أنه أيضا يدب الحياة في جسد التحذير بمعنى أن الناس عندما يعلمون أن فلانا قد استباح النبي صلى الله عليه وسلم دمه أو نفاه. فإن التحذير يكون إعلاما على رأس المحذر منه فيتعامل معه الناس بحرص ولا يملكوه أعناقهم. فالأخذ بالأسباب من ناحية الرسول هو تحذير وحجة في نفس الوقت.

مما سبق يمكن للباحث أن يرى صفحة المجتمع الذي بعث فيه النبي صلى الله عليه وسلم - وعلى هذه الرؤية يمكن القول بأن الصحابة قوم من الناس لهم ما للناس وعليهم ما عليهم. فيهم من يحب الدنيا ويعمل لها. وفيهم من يحب الآخرة ويعمل لها. وفيهم من كان يتلعب بالنصوص ويضرب كتاب الله بعضه ببعض. وفيهم أصحاب الخشوع الخيالي الزائف. ومن هؤلاء شيطان من الشياطين تلون وتشكل وزين وزخرف ثم جاءته ضربة فيما بعد من سيف العمود الرئيسي لدائرة الطهر فأردته قتيلا. ومن هذا كله يمكن أن نلقي بالقبول أن علي بن أبي طالب قد واجه صعوبات جملة وأن طريقه قد وضع عليه العديد من العقبات. ولم تكن العقبات تأتيه من جانب هؤلاء فقط. وإنما جاءت أيضا من الأعراب اتباع كل ناعق. الذين لا يعرفون من دينهم شيئا. وهؤلاء جاء ذكرهم فيما رواه البخاري عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم وقال: " ما أظن فلانا وفلانا يعرفان من ديننا شيئا " (١)، وروى الترمذي والإمام أحمد أنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم عندما مروا بسدرة: يا نبي الله اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها. فقال النبي: " الله أكبر. هذا كما قلت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة. إنكم تركبون سنن من قبلكم (٢)، وقولهم هذا كان في العام الثامن

(١) البخاري (الصحيح ٦١ / ٤) ك الآداب ب، يكون من الظن.

(٢) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٤٧٥ / ٤) وأحمد وابن جرير وابن أبي حاتم (تفسير ابن كثير ٢٤٣ / ٢) وابن أبي عاصم وقال الألباني حديث صحيح (كتاب السنة ٣٨ / ١) والشافعي والبيهقي (كنز العمال ١٧٠ / ١١).

الهجري. أي قبل وفاة النبي بسنتين ونصف تقريبا. فهؤلاء الذين لا يعرفون من الدين شيئا. والذين يريدون ذات أنواط. هؤلاء أنماط بشرية لا يمكن تجاهل وجودها عند قراءة صفحة المجتمع بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.

٢ - دعر على أعتاب الغروب:

على صفحة المجتمع قدمنا حقيقة يقينية، حملتها إلينا أحاديث صحيحة. وهذه المقدمات شهدت لها حركة التاريخ بعد ذلك بأنها صحيحة. وذلك لأن النتيجة في النهاية استقامت مع المقدمات في البداية. ولا نقصد بحركة التاريخ هنا ما دونه المؤرخون فقط. وإنما حركة التاريخ عندنا هي التي يرشد إليها حديث صحيح أخبر فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالغيب عن ربه. فنحن نمسك بأحاديث الإخبار عن الغيب ونمر بها على حركة التاريخ. ولا نعتمد في بحثنا أن الأحداث التي انطبق عليها الحديث الصحيح. وكما قدمنا مقدمات جرت على صفحة المجتمع أيام الرسول صلى الله عليه وسلم. فإننا نقدم هنا أيضا حدثا لا يمكن تجاهله ونحن نبحت عن العراقيل التي وضعت أمام علي بن أبي طالب. وهذا الحدث يحمل معالم الذعر من علي بن أبي طالب. ومما سبق علمنا أن دائرة الرجز وأصحاب المسجد الضرار عندما عزم النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرج إلى تبوك وترك عليا في المدينة، أشاع أصحاب دائرة الرجز أن النبي استثقله وخلفه بين النساء والصبيان. وكان هدفهم من وراء هذا أن يخرج علي بن أبي طالب مع النبي حتى تخلوا المدينة أمام مخططات ملك الروم ومشركي العرب وأصحاب المسجد الضرار. ولكن النبي رد كيدهم في نحورهم وقال لعلي: "أنت مني بمنزلة هارون من موسى..."

الحديث. وعند عودة النبي من تبوك حدثت محاولة اغتياله بواسطة اثني عشر رجلا هم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا. ومعنى أنهم حرب أي أنهم أصحاب مخططات يتعاملون مع الأحداث وفقا للزمان والمكان. ولا يمكن بحال أن يكون علي بن أبي طالب بعيدا عن مخططاتهم في حياة الرسول وبعد مماته. لأن الحديث الصحيح أفاد بأنهم حرب على امتداد الحياة الدنيا. والمعروف أن

أصحاب المخططات الحربية. يجيدون تحديد أعدائهم بدقة وبسرعة وبتركيز. وسبب ذلك أن الله جعلهم في ذعر دائم. وقد وصفهم الله في كتابه فقال: (لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمعون) (١) فهم في جزع وفزع وهلع وفي انزعاج دائم من ضرر متوقع. وإنهم لدفع هذا الضرر لو يجدون حصنا يتحصنون به وحرزا يتحرزون به أو مغارات في الجبال أو نفق في الأرض لأسرعوا في ذلك لا يصرفهم عنه شيء. فهذا النمط البشري في فزع من المستقبل ولهذا فهم في حرب مع كل مستقبل. والذين في قلوبهم مرض أو زيغ كانوا يعلمون أن السماء لن تضربهم بعقاب ما دام النبي صلى الله عليه وسلم فيهم لقوله تعالى: (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) (٢)، فالعذاب لا يضربهم ما دام الرسول فيهم. ولا يضربهم العذاب إذا استغفروا لذنوبهم وتابوا وعادوا إلى الرحاب الآمن. فإذا قبض الله تعالى رسوله إليه. فإنهم سيقفون تحت قانون هذه الآية: (فإما نذهبن بك فإننا منهم منتقمون...) (٣)، ويبقى الاستغفار لمن أراد أن يستقيم. لقد علموا ذلك في العهد النبوي. علموا أنه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم. وسيكون العقاب منهم أقرب. ولكن على يد من سيكون هذا العقاب؟ لقد كان في ذاكرتهم حدث وحديث. يمكن عليهما رصد حامل العقاب الذي يدخره المستقبل لهم. روى ربعي بن حراش الذي قال فيه الإمام الترمذي: سمعت الجارود يقول: سمعت وكيعا يقول. لم يكذب ربعي بن حراش في الإسلام كذبة (٤)، روى ربعي عن علي أنه قال: لما كان يوم الحديبية خرج إلينا ناس من المشركين فيهم سهيل بن عمرو وأناس من رؤساء المشركين. فقالوا: يا رسول الله. خرج إليك ناس من أبنائنا وإخواننا وأرقائنا وليس لهم فقه في الدين. وإنما خرجوا فرارا من أموالنا وضياعنا. فأرددهم

(١) سورة التوبة: الآية ٥٧.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٣٣.

(٣) سورة الزخرف: الآية ٤١.

(٤) الإمام الترمذي (الجامع ٦٣٤ / ٥).

إلينا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإن لم يكن لهم فقه في الدين سنفقهم، يا معشر قريش لتنتهين أو ليعثن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين. قد امتحن الله قلبه على الإيمان. قالوا: من هو يا رسول الله؟ وقال أبو بكر: من هو يا رسول الله؟ وقال عمر: من هو يا رسول الله. قال: هو خاصف النعل - وكان قد أعطى عليا نعله يخصفها (١)، وفي رواية بسند صحيح أيضا. قالوا: يا محمد إنا جيرانك وحلفاؤك. وإن ناسا من عبيدنا قد أتوك ليس بهم رغبة في الدين ولا رغبة في الفقه. إنما فروا من ضياعنا وأموالنا فأرددهم إلينا. فقال النبي لأبي بكر: ما تقول؟ قال: صدقوا إنهم لجيرانك وأحلافك. فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم قال لعمر: ما تقول؟ قال: صدقوا أنهم لجيرانك وحلفاؤك. فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا معشر قريش والله ليعثن الله عليكم رجلا قد امتحن الله قلبه بالإيمان. فيضربكم على الدين، أو يضرب بعضكم. فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله. قال: لا. قال عمر: أنا يا رسول الله. قال: لا ولكنه الذي يخصف النعل - وكان أعطى عليا نعلا يخصفها (٢).

فالذاكرة عند القوم تحمل حدث وحديث. والقرآن أخبرهم أنه بعد وفاة الرسول سيكون هناك انتقام لا محالة. وكما تحسسوا رقابهم عندما علموا يوم الحديبية. إن لهم يوما من علي بن أبي طالب. تحسسوها أيضا عندما علموا بتفسير قوله تعالى: (فإما تذهبن بك فإننا منهم منتقمون)، قال السيوطي في الدر المنثور. أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: (فإما تذهبن بك فإننا منهم منتقمون) قال: نزلت في علي بن أبي طالب أنه ينتقم من الناكثين والقاسطين بعدي، وروى علي وحذيفة في قوله تعالى: (فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان

(١) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٦٣٤ / ٥) والخطيب وابن جرير وصححه والضياء سند صحيح (كنز العمال ١١٥، ١٧٣ / ١٣).

(٢) رواه أحمد وابن جرير وصححه والضياء بسند صحيح وسعيد بن منصور (كنز ١٢٧، ١٧٣ / ١٣).

لهم) (١)، ما قوتل أهل هذه الآية بعد (٢)، وهذه الآية في سورة براءة التي نزلت بعد غزوة تبوك آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم (٣)، فإذا كان هناك قتال يدخره الغيب بعد آخر غزوة غزاها النبي صلى الله عليه وسلم. فلا جدال أن أصحاب دائرة الرجس سيبحثون كثيرا عن حصون يتحصنون بها أو حرزا يتحرزون به أو مغارات في الجبال أو نفقا في الأرض لدفع هذا الضرر عنهم. ولا يمكن للباحث المنصف أن يستبعد عامل الذعر هذا عند البحث عن العوائق التي وضعت في طريق علي بن أبي طالب.

ويضاف إلى هذا عامل آخر. فالقوم كان فيهم من حذر النبي صلى الله عليه وسلم منه. وفيهم من دعا النبي عليه ولعنه وفيهم من نفاه وفيهم من أحل دمه. روى الإمام مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: اللهم أشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم كسني يوسف اللهم العن لحيان ورعلا وذكوان وعصية" (٤)، وفي رواية عند أبي نعيم: "والعن أبا الأعور السلمي" (٥)، وفيما سبق بينا أنه لعن الحكم بن أبي العاص ونفاه وأحل دم عبد الله بن أبي السرح وذو الثدية. فهذا الطابور كله كانت لهم ثقافة يشقون بها طريقا في اتجاه السلطة لإعادة مجدهم الزائل الذي أطاحت به الدعوة الإسلامية. فكان لا بد من وضع عقبات يكون من نتائجها التعتيم على هذه الروايات حتى تندثر في عالم النسيان. وكان الطريق إلى ذلك لا يمر إلا بتخطي علي بن أبي طالب ثم الكذب بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لقد كانت هذه الأنماط البشرية تعمل من أجل رسم طريق حذر النبي صلى الله عليه وسلم منه. وهذا الطريق الذي اختاروه من على موائد الخوف والذعر والحسد والبغض. يستند علاوة على ما

(١) سورة التوبة: الآية ١٢.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن علي وحذيفة (كنز ٤٢٦ / ١١) (الدر المنثور

٢١٤ / ٣) (البداية والنهاية ٣٣٩ / ٢).

(٣) البداية والنهاية ٣٥ / ٥.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه أبو نعيم (كنز ٨٢ / ٨).

ذكرنا على عداوة قديمة بين عبد شمس وبين بني هاشم. فقديمًا كانت هناك عداوات بين حرب بن أمية وبين عبد المطلب بن هاشم. وفي عهد النبوة قدمت الدعوة رداء الأرحام كي تدخل تحته قريش لا فرق بين هذا وذاك. ولكن أبو سفيان لم ينصت لصوت الرحمة وحسد محمد صلى الله عليه وسلم وحاربه وبعد فتح مكة ظل الطريقان متباغضان وإن وقفوا على أرض واحدة. ولقد اتفق أن علي بن أبي طالب قتل جماعة كثيرة من بني عبد شمس في حروب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأكد هذا بغضهم لعلي وسنرى فيما بعد أن الأحداث تقرر بذلك.

باختصار: كان هناك خوف وذعر وطلب ثأر. وكان هناك من استحدث سن علي بن أبي طالب. وكان هناك من خاف من شدة وطأته وشدته في دين الله. وكان هناك من يبغضه فقط لقربه من رسول الله. وكان هناك من كره اجتماع النبوة والخلافة في بيت واحد، وكان خلاص هؤلاء. أن تتداول الخلافة بين قبائل العرب وأن لا تقتصر على بيت مخصوص. فتكون لكل قبيلة وفقا لهذا التصور بابا مفتوحا يصل بهم إلى كرسي الخلافة. وهذا الطريق يقف في النهاية تحت مظلة يكون فيها مال الله دولا ودينه دخلا وعباده خولا. وهو الطريق الذي حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم.

من هذا كله لا يمكن القول أن مجموعة الحرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا. تتحرك بدون خطة تمهد لها ثقافة، ولأن هذه الثقافة لا بد أن تنتشر بين عامة المسلمين. كان لا بد إما الكذب على رسول الله أو التلاعب بكتاب الله وضرب بعضه ببعض. والنبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم أن الكذب عليه واقع لا محالة. ولقد صرح في أكثر من مكان في حجة الوداع وقال: "من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار" (١)، بل وكان يعلم من ربه بالخطة التي تضعها مجموعة الحرب لله ولرسوله. قال تعالى: (ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية

(١) رواه البخاري وغيره (الصحيح ٩٣ / ١).

الرسول (١)، لقد أخبر تعالى عن ثلاثة جرائم: الإثم والعدوان ومعصية الرسول. والإثم الذي له أثر سيئ. والعدوان هو: العمل الذي فيه تجاوز إلى الغير مما يتضرر به الناس ويتأذون. والإثم والعدوان يدخلان تحت عنوان معصية الرسول. ولكنه تعالى أفرد معصية الرسول لتشمل مخالفته فيما أمر به أو نهى عنه. مما له من ولاية أمورهم لأنه صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

لقد نهوا عن النجوى وإن لم تشتمل على معصية. ولكنهم خالفوا. وكان هؤلاء من المنافقين والذين في قلوبهم مرض وقيل: إن اليهود كانوا طرفا في هذه النجوى. وشمول اليهود في الآية فيه خفاء. وقد بين سبحانه أن التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول. تنتهي إلى الشيطان، قال تعالى: (إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا...) (٢)، وروي في تفسير هذه الآيات أن خط الحرب كان هدفهم القضاء على الدعوة، وكان لهذا الهدف ثقافة عرفت باسم "العقدة" أو "الصحيفة" ويمكن أن يرى الباحث هذا العقد إذا تدبر الحوار بين المهاجرين والأنصار بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله، وإذا نقب في الأحداث بعد ذلك على امتداد العهد الأموي. ويمكن القول بأن قوافل الذعر والحسد والذين كرهوا أن تجتمع الخلافة والنبوة في بيت واحد. تعاقبوا فيما بينهم على ورقة ثقافية يشوها على العامة الذين يحبون الدنيا والذين طلبوا أن يكون لهم ذات أنواط والذين لا يعلمون من دينهم شيئا والذين يبحثون عن أمجاد الآباء وغير ذلك مما أوردنا عند البحث عن صفحة المجتمع. وأن العمود الفقري لهذه الثقافة هو:

إن الله بعث محمدا رسولا إلى الناس كافة. ومحمد لم يستخلف أحدا من بعده. وما قاله في علي بن أبي طالب له تأويلات كثيرة عند العرب. والنبي جعل الاختيار إلى المسلمين يختارون لأنفسهم من وثقوا برأيه. والرسول لم يستخلف

(١) سورة المجادلة: الآية ٨.

(٢) سورة المجادلة: الآية ١٠.

أحدا. لئلا يجري ذلك في أهل بيت واحد فيكون إرثا دون سائر المسلمين ولئلا يكون دولة بين الأغنياء منهم. ولئلا يقول المستخلف أن هذا الأمر باق في عقبه من ولد إلى ولد إلى يوم القيامة. والذي يجب على المسلمين عند مضي خليفة من الخلفاء. أن يجتمع ذوي الرأي والصلاح يتشاوروا في أمورهم. فمن رأوه مستحقا لها ولوه أمورهم وجعلوه القيم عليهم. فإنه لا يخفى على أهل كل زمان من يصلح منهم للخلافة. فإن ادعى مدع من الناس جميعا. إن رسول الله استخلف رجلا بعينه نصبه للناس ونص عليه بإسمه ونسبه. فقد أبطل في قوله. وأتى بما لا يعرفه أصحاب رسوله الله وخالف جماعة المسلمين. وإن ادع مدع أن الخلافة لا تصلح إلا لرجل واحد من بين الناس وأنها مقصورة فيه. ولا تنبغي لغيره لأنها تتلو النبوة. فقد كذب. لأن النبي قال: "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم" وإن ادع مدع أنه يستحق الإمامة بقربه من رسول الله. ثم هي مقصورة عليه وعلى عقبه ولا تصلح لغيرهم. فليس له ولا لولده وإن دنا من النبي نسبه. لأن الله يقول: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)، وقال رسول الله: "إن ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم وكلهم يد على من سواهم. فمن آمن بما جاء في كتاب الله وأقر بما قال به رسول الله فقد استقام وأتاب وأخذ بالصواب. ومن كره. فقد خالف الحق والكتاب وفارق جماعة المسلمين فاقتلوه. فإن في قتله صلاحا للأمة". وقد قال النبي: "من جاء إلى أمتي وهم جميع ففرقهم فاقتلوه. إن هذه الثقافة يرى وجهها بوضوح في عهد بني أمية. يوم أن حافظوا على الكرسي بقتال أمير المؤمنين علي، ويوم قتل الحسين، ويوم ضرب المدينة بعد أن خرج أهلها على يزيد بن معاوية. ولم تخرج قوات يزيد من المدينة يوم الحرة إلا بعد أن بالت الخيل بين الروضة والمنبر وبعد أن بايع أهل المدينة ليزيد على أساس أنهم عبيد له الحق أن يبيع فيهم ويشتري. وترى هذه الورقة أيضا على امتداد زمن أولاد مروان بن الحكم طريد رسول الله. وكان بعض الصحابة يعرفون الخطوط الرئيسية لما اتفق عليه القوم وما سمي بالعقدة. ومنهم حذيفة وأبي بن كعب. وروى أبو بكر أحمد بن عبد

العزیز (١) في كتابه السقيفة عن البراء بن عازب. إنه كان في جماعة منهم المقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت وسلمان الفارسي وأبو ذر وحذيفة والهيثم بن التيهان وذلك بعد وفاة الرسول الله صلى الله عليه وسلم. وإذا حذيفة يقول لهم: والله ليكونن ما أخبرتكم به والله ما كذبت ولا كذبت. وإذا القوم يريدون أن يعيدوا الأمر شورى بين المهاجرين. ثم قال: ائتوا أبي بن كعب. فقد علم كما علمت، قال: فانطلقنا إلى أبي. فضربنا عليه بابه حتى صار خلف الباب. فقال: من أنتم؟ فكلمه المقداد فقال: ما حاجتكم؟ فقال له: افتح عليك بابك، فإن الأمر أعظم من أن يجري من وراء حجاب. قال: ما أنا بفتاح بابي وقد عرفت ما جئتم له. كأنكم أردتم النظر في هذا العقد. فقلنا: نعم فقال: أفياكم حذيفة؟ فقلنا: نعم، قال: فاقول ما قال. وبالله ما أفتح عني بابي حتى تجري على ما هي جارية ولما يكون بعدها شر منها وإلى الله المشتكى (٢). كان هذا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة. وفي عهد عمر بن الخطاب على أصح الروايات عزم أبي أن يتكلم في الذي لم يتكلم فيه بعد وفاة الرسول. وكان يقول: هلك أهل العقدة ورب الكعبة ألا لا عليهم آسى ولكن آسى على من يهلكون من المسلمين (٣)، وفي رواية قال: لأقولن قولاً لا أبالي استحييتهموني عليه أو قتلتموني (٤)، ووعد أن يكشف الحقائق أمام الناس يوم الجمعة. وجاء يوم الأربعاء والجميع ينتظرون موعد أبي. ولكن يوم الأربعاء جاء بخبر أليم. قال قيس بن عباد: رأيت الناس يمجون. فقلت: ما الخبر؟ فقالوا: مات سيد المسلمين أبي بن كعب. فقلت: ستر الله على المسلمين حيث لم يقم الشيخ ذلك المقام (٥) ومات أبي في خلافة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أصح

(١) أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري.

(٢) ابن أبي الحديد نقلاً من كتاب السقيفة ٣١٢ / ١، كتاب سليم بن قيس ص ٧٤.

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية في الإمام أحمد.

(٤) ابن سعد (الطبقات الكبرى ٥٠١ / ٣) والحاكم باختصار (المستدرک ٢٢٩ / ٢، ٣٠٣ / ٣).

(٥) ابن جرير في المسترشد ص ٢٨.

الروايات (١) وقيل مات في خلافة عثمان (٢).
وكان هناك العديد من الصحابة يخافون من رواية بعض الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله. من هؤلاء أبو هريرة. قال فيما رواه البخاري " حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين فأما أحدهما فبشّته وأما الآخر فلو بشّته قطع هذا البلعوم " (٣)، وقال: " إني لأحدث أحاديث لو تكلمت بها في زمان عمر أو عند عمر لشج رأسي " (٤)، وكان حذيفة يقول: " لو كنت على شاطئ نهر وقد مددت يدي لاغترف فحدثكم بكل ما أعلم ما وصلت يدي إلى فمي حتى أقتل " (٥).

ولقد وجدنا في المقدمة نمطا بشريا يحب الدنيا ويضرب كتاب الله بعضه ببعض ويترك رسول الله قائما وينقض من حوله. ورأينا قبل ذلك دوائر عديدة مهمتها الصد عن سبيل الله. بملايس الخشوع الزائف ثم وجدنا أنماطا بشرية برامحها حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا. وأنماطا تنطلق من أرض القبائلية والعصبية هدفها إعادة مجد زائل وأنماطا بشرية تختزن في ذاكرتها معركة في المستقبل تطيح برقابهم فعملوا بكل ما لديهم من قوة وفكر من أجل الاحتماء وراء الجدر ومن وراء الجدر بثوا ثقافة تمهد لمجيئهم. كانت هذه مقدمات حقيقة. ترتب عليها نتائج أقرها الحديث الصحيح وحركة التاريخ. واستقامت هذه النتائج من هذه المقدمات على خط واحد.

٣ - القرارات الأخيرة للنبي صلى الله عليه وآله:
مما سبق علمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل ربه: " أن لا يلبس

(١) وهو قول ابن حبان وابن عبد البر (الإصابة ١٦ / ١).

(٢) وهو قول ابن سعد (الطبقات ٢٠٢ / ٣).

(٣) البخاري ك العلم (الصحيح ٣٤ / ١).

(٤) ابن كثير في البداية ١٠٧ / ٨.

(٥) ابن عساكر (كنز العمال ٣٤٥ / ١٣).

أُمته شيعة"، وفي رواية: "أن لا يجعل بأسهم بينهم" فأبى عليه، وفي رواية "فمنعنيها" (١)، وعلم من ربه أن الأمة ستختلف وتفترق من بعده وستركب سنن الأولين شبرا بشبر وذراعا بذراع. ووفقا لهذا الإخبار كان صلى الله عليه وسلم يأخذ بالأسباب ويلح على ربه جل وعلا. وفي كل هذا تعلق بالله الذي بيده مصير الأمور. وخلال الأيام الأخيرة للنبي صلى الله عليه وسلم. اتخذ قرارات وكان القوم يعرفون أنه ملاقي الله تعالى لا محالة في العام الحادي عشر الهجري. وذلك لأنهم سمعوا مقالته لهم في حجة الوداع "لعلي لا ألقاكم بعد عامكم هذا" وسمعوه يوم غدير خم يقول: "إنني أوشك أن أدعى فأجيب" وعندما نزل قوله تعالى: (إذا جاء نصر الله والفتح)، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نعت إلي نفسي" فقال ابن عباس: "فإنه مقبوض في تلك السنة" (٢) فلا ريب أن الجميع كانوا يعلمون أن النبي صلى الله عليه وآله مفارق الدنيا. ولا جدال أن الأفراد والجماعات يحب كل منهم أن يفارقه النبي وهو عنهم راض. فينفذون أوامره بدقة ولا يتخاذلوا بأي صورة من الصور. ونحن هنا سنسلط الضوء على قرارات ثلاثة أصدرها النبي صلى الله عليه وسلم وأيامه الأخيرة لنرى كيف كانت الصورة التي سنعتبرها مقدمة حقيقية يقينية ليستنتج منها طالب العلم معلومات تصديقية واقعية.

أولا - الأمر الواقعي من الضلال:

لقد علم النبي من ربه أن الاختلاف والافتراق واقع. وعلى فراش المرض أخذ النبي بالأسباب. وطلب من الحاضرين وكان فيهم عمر بن الخطاب. أن يأتوه بدواة وكتف ليكتب لهم كتابا لا يضلون بعده. فهذا أمر صريح مقدمته تستقيم مع نتيجته. فهو صلى الله عليه وسلم يريد أن يكتب حتى لا يضلوا. فماذا حدث؟ عن جابر بن عبد الله قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم دعا

(١) رواه مسلم كتاب الفتن (١٤ / ١٨ الصحيح) وأحمد (الفتح الرباني ٢١٥ / ٢٣) والترمذي (الجامع ٤٧٢ / ٤).

(٢) قال ابن كثير تفرد به الإمام أحمد (التفسير ٥٦٢ / ٤).

عند موته بصحيفة ليكتب فيها كتابا لا يضلون بعده. فخالف عليها عمر بن الخطاب حتى رفضها (١) فهذا الحديث حدد الزمن " عند موته " وحدد الطلب " صحيفة ليكتب فيها كتابا " وحدد هدف الكتاب " لا تضلون بعده " وحدد الذي خالف " فخالف عليها عمر بن الخطاب " .

وفي رواية عن ابن عباس قال: لما حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب. قال النبي صلى الله عليه وسلم: " هلم أكتب لكم كتابا لا تضلون بعده. فقال عمر: إن النبي قد غلبه الوجع وعندكم القرآن. حسبنا كتاب الله فاختلف أهل البيت فاختموا. منهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبي صلى الله عليه وسلم كتابا لن تضلوه بعده. ومنهم من يقول ما قال عمر فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي صلى الله عليه وسلم قال النبي: " قوموا " (!!) فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغظهم (٢)، وفي رواية: قال عمر: إن النبي غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا. فاختلفوا وأكثروا اللغو فقال النبي: " قوموا عني. ولا ينبغي عندي التنازع "، فخرج ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين كتابه (٣).

وفي رواية لابن عباس قال: يوم الخميس وما يوم الخميس (٤) ثم بكى حتى خضب دمه الحصباء ثم قال: اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه يوم الخميس فقال: ائتوني بكتاب أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا.

(١) رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ٢٢٥ / ٢٢) وابن سعد (الطبقات ٢٤٣ / ٢) والطبري (تاريخ الأمم ١٩٣ / ٤).

(٢) رواه البخاري ك المرض (الصحيح ٧ / ٤) ومسلم ط استنبول (الصحيح ٧٦ / ٥)، وأحمد (الفتح ١٩١ / ٢٢) وابن سعد بلفظ: وغموا رسول الله. فقال: قوموا عني (الطبقات ٢٤٤ / ٢).

(٣) رواه البخاري (الصحيح ٣٢ / ٢).

(٤) كان اشتداد المرض يوم الخميس وكانت الوفاة يوم الاثنين.

فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع فقالوا: هجر رسول الله، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه " (١). وقال في لسان العرب في معنى هجر: إذا جعلت إخباراً " هجر " فيكون المعنى أما من الفحش أو الهذيان. أما إذا كان على سبيل الاستفهام كقولهم " أهجر " يكون المعنى: هل تغير كلامه واختلط. وقال ابن الأثير: والقائل كان عمر بن الخطاب. والذي يليق بعمر أن يكون قد استفهم (٢). وبالنظر فيما ورد نجد أن المسلمين الذي حضروا سماع الأمر افرقوا في الدار. لقد وقع الاختلاف بين قولين. قول النبي وقول عمر! وحيل المسلمون بينهما فرجح قوم هذا. إن المهم هنا أن القوم سووا بين النبي وبين عمر وجعلوا القولين مسألة خلاف ذهب كل فريق إلى نصرته واحد منهما.

ولقد اعتذر العديد لعمر بن الخطاب. فقال النووي في شرح مسلم: إن قول عمر حسبنا كتاب الله من قوة فقهه ودقيق نظره لأنه خشي أن تكتب أمور ربما عجزوا عنها فاستحقوا العقوبة لكونها منصوصة! ولكن السندي في شرح البخاري كان له قول آخر قال: إن الأمر الصادر يفيد أنه أمن من الضلال فالكتاب الذي يريد الرسول أن يكتبه سبب للأمن من الضلال ودوام الهداية. فكيف يخطر على باب إنسان أنه سيجرب عليه عقوبة أو فتنة أو عجز. أما قوله: " حسبنا كتاب الله " لأنه تعالى قال: (ما فرطنا في الكتاب من شيء)، ويقول: (اليوم أكملت لكم دينكم)، فكل من الآيتين لا يفيد الأمن من الضلال ودوام الهداية للناس، ولو كان كذلك لما وقع الضلال ولكن الضلال والتفريق في الأمة قد وقع بحيث لا يرجى رفعه كما أن النبي لم يقل لهم: إن مراده أن يكتب لهم الأحكام حتى يقال على ذلك: إنه يكفي فهمها من كتاب الله. ولو فرض أن مراد

(١) رواه البخاري له الوصايا (الصحيح ١٧٨ / ٢) ومسلم (الصحيح ٧٦ / ٥)، وأحمد (الفتح الرباني ٢٢٤ / ٢١).

(٢) لسان العرب ص ٤٦١٩ وقال أبو حامد الغزالي في كتابه سر العالمين أن القائل كان عمر، وقال هذا أيضا سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص ص ٦٢.

النبي كان كتابة بعض الأحكام، فلعل النص على تلك الأحكام منه صلى الله عليه وآله وسلم سبب للأمن من الضلالة. وعلى هذا فلا وجه لقولهم "حسبنا كتاب الله" بل لو لم يكن فائدة النص ليس إلا الأمن من الضلال لكان مطلوباً جداً ولا يصح تركه للاعتماد على أن الكتاب جامع لكل شيء وكيف والناس محتاجون إلى السنة أشد احتياج مع كون الكتاب جامعاً وذلك لأن الكتاب وإن كان جامعاً إلا أنه لا يقدر كل أحد على الاستخراج منه، وما يمكن لهم استخراجاً منه لا يقدر كل أحد على استخراج منه على وجه الصواب. ولهذا فوض الله لرسوله البيان مع كون الكتاب جامعاً فقال تعالى لنبيه: (لتبين للناس ما أنزل إليهم)، ولا شك أن استخراجاً صلى الله عليه وآله وسلم من الكتاب على وجه الصواب يكفي ويغني في كونه نصاً مطلوباً لنا لا سيما إذا أمرنا به. ولا سيما إذا وعد على ذلك الأمن من الضلال. فما معنى قول حسبنا كتاب الله بعد ذلك (١)، ويبدو أن السندي كان يرد على النووي فيما ادعاه.

أدلى العديد من الباحثين بدلوهم. فقال بعضهم: إذا تأملت قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده"، وقوله: "إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: أحدهم أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي" (٢)، تعلم أن المرمى في الحديث واحد. وقال البعض: من ألم بأطراف حديث "هجر رسول الله" يقطع بأنهم كانوا عالمين أنه إنما يريد أمر يكرهونه ولذا فاجأوه بهذه الكلمة وأكثروا عنده اللغو واللغط كما لا يخفى. وكان هناك إصراراً حتى لا يكتب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما أراد أن يكتبه الأمر الذي جعل بعض نساء النبي يتحدثن من وراء حجاب (٣)، وقالوا كما في الحديث: "اثبتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحاجته. فقال عمر: اسكتن فإنكن صواحبه إذا مرضن عصرتن

(١) السندي شرح البخاري (٣٣ / ١) بتصرف.

(٢) رواه الترمذي وحسنه (الجامع ٦٦٣ / ٥).

(٣) القائلة هي أم المؤمنين زينب كما جاء في رواية عند ابن سعد (الطبقات ٢٤٢ / ٢).

أعينكم وإذا صح أخذتن بعنقه. فقال النبي: هن خير منكم " (١).
وبقي سؤال: لماذا لم يصر النبي على كتابة الصحيفة. والإجابة: لأنهم
جردوه من العصمة من الضلال بقولهم: " هجر " لقد أراد أن يكتب لهم كتابا
يكونوا به في مأمن الضلالة، فقالوا: الكلمة التي بها يصبح الكتاب مصدر ضلالة
فلو كتب الكتاب بعد هذه الكلمة لشكك الذين في قلوبهم مرض في كل مكتوب
بعد ذلك حتى كتاب الله. ولهذا قال لهم فيما رواه ابن عباس بعد أن قالوا أن
نبي الله ليهجرج: فقليل له ألا نأتيك بما طلبت، فقال صلى الله عليه وسلم:
أو بعد ماذا؟! (٢)، وهناك سبب آخر. وهو أنه صلى الله عليه وآله قد علم
من ربه أن الاختلاف واقع لا محالة. ولقد رآهم النبي يختلفون في أمر أصدره
داخل حجرته. فرجحوا بين قوله وبين قول عمر وكثر اللغط. والله تعالى أعلم
ماذا كان سيحدث لو أصر النبي على كتابة الصحيفة أثناء هذا اللغو واللغط.
ولقد اكتفى صلى الله عليه وسلم بما أمر به وحذر منه على امتداد رسالته.
ودعنا نفترض أن الرسول قد كتب ما يريده. فهل تمنع الكتابة هذه الأنماط
البشرية التي يعلمها الله من الكف عن مخططاتها. كلا! لقد كانوا سيعملون في
وجود الصحيفة نفس علمهم في عدم وجودها. والقرآن الكريم كشف عن أنماط
بشرية إذا جاءهم الرسول بآية ظاهرة. قالوا في ظهورها ما كانوا سيقولونه في
عدم ظهورها يقول تعالى: (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن
جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون * كذلك يطبع الله على قلوب
الذين لا يعلمون) (٣)، بل إن القرآن كشف عن نمط بشري أرادوا أن يبدلوا
كلام الله ليكون وفقا لما يريدون قال تعالى: (سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى
مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلككم
قال الله من قبل) (٤)، إن النبي أخذ بالأسباب وهو يعلم أنه لن يمكن من كتابة

(١) رواه الطبراني في الأوسط (كنز ٦٤٤ / ٥) وابن سعد (الطبقات ٢٤٤ / ٢).

(٢) رواه ابن سعد (الطبقات ٢٤٢ / ٢).

(٣) سورة الروم: الآية ٥٨، ٥٩.

(٤) سورة الفتح: الآية ١٥.

الصحيفة. كما أمر من قبل يقتل ذو الثدية وهو يعلم أن هذا المارق لن يقتله الشيخان أبو بكر وعمر. وإن له يوما في بطن الغيب وأخبر النبي بهذا اليوم. وأمر بقتل ابن أبي السرح وهو يعلم أن أحدا لن يقتله وأن عثمان بن عفان سيخفيه في داره وهي نفس الدار التي حاصرها الذين ظلمهم بن أبي السرح. ونفى الحكم بن أبي العاص، وعندما طلب بعض الصحابة أن يقتلوه، رفض وأخبرهم أن في صلبه ذرية الويل لأمتهم منهم واكتفى بنفيه حتى أعاده عثمان في عهده.

إن الأحداث تجري بمشيئة الله. وما فعل النبي أمرا إلا بإذن من الله. وكل حدث يجري كان من ورائه هدف ومن وراء الهدف حكمة. وعالم الفتن عالم عميق. وأعظم الفتن هي التي تأتي من مكان يستبعد الناس أن تأتي منه الفتن. وما فعله النبي من طرد الحكم وأمره بقتل ذي الثدية وغير ذلك يكون اختبارا لمن عاصر الحدث وتحذيرا لهم ولمن بعدهم. وعليه تأتي أحداث يترتب عليها امتحان. وهذا من حكمة الوجود. ألم تر أن الله تعالى قبل أن يخلق آدم أخبر سبحانه ملائكته أن آدم مخلوق ليمارس واجب الخلافة في الأرض. ولكن آدم لم يهبطه الله إلى الأرض عقب خلقه مباشرة. وإنما كان بين الخلق وبين الهبوط أوامر ونواهي وأحداث ترتب عليها أن آدم هبط إلى الأرض باختياره وليس قهرا. والرسول حذر وأمر ونهى وفي علم الله أن الهبوط والاختلاف والافتراق واقع لا محالة. لأنه سبحانه العليم المطلق بطباع الناس. والله لا يظلم مثقال ذرة. وما من طريق إلا ودل على موطن الهداية فيه. وما ترك الشيطان طريقا للهداية إلا دق عليه أوتادا. ألم تر أن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام أن يبني البيت الحرام وبعد فترة من الزمان أوحى الشيطان إلى أتباعه بزرع الأصنام حول الكعبة. فأصبح الناظر في المكان يرى هذا وذاك فأصحاب الفطرة السوية يعرفون طريق الصواب وأصحاب النفوس المريضة يعكفون على كل صنم. إن النبي الأعظم أمر أن يأتوه بصحيفة ليكتب لهم كتابا لا يضلوا بعده. وكان هذا لهدف من ورائه حكمة. وكان أيضا مادة يختبر بها من عاصر الحادثة وشعاعا يهدي إلى الحق لكل باحث عن الحقيقة، وكم كنا نتمنى أن تكتب هذه

الصحيفة. نعم لقد كان العديد من الجيل الأول سوف يشكك فيها وربما شكك فيها عشرة أجيال أو أكثر. ولكن الشيء الأكيد أن هذا التشكيك ما كان ليكتب له الخلود وعلى أي حال لم تصلنا هذه الصحيفة لأنها لم تكتب. فدعونا نبحث ودعونا نبكي مع ابن عباس رضي الله عنهما.

إن الرسول إذا أمر لا ينبغي أن نناقش ماذا وراء هذا الأمر. لأن المخالفة لا تصب إلا في وقت الفتن والعذاب قال تعالى: (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) (١)، قال المفسرون: دعاء الرسول هو دعوته الناس إلى أمر من الأمور كدعوتهم إلى الإيمان والعمل الصالح ودعوته ليشاورهم في أمر جامع ودعوته إلى الصلاة جامعة وأمرهم بشيء في أمر دنياهم أو أخراهم فكل ذلك دعاء ودعوة منه صلى الله عليه وآله وسلم. ويشهد بهذا المعنى قوله: "قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا"، وما يتلوه من تهديد فخالفني أمره صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا المعنى يناسب سياق الآية السابقة وهي قوله تعالى: (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله فإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله..) فهذه الآية تمدح الذين يلون دعوته ويحضرون عنه ولا يفارقونه حتى يستأذنوه. أما هذه الآية فهي تدم وتهدد الذي يدعوهم فيتسللون عنه لواذا غير مهتمين بدعائه ولا معتنين وقوله: "فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم"، تحذير لمخالفني أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ودعوته. من أن تصيبهم فتنة وهي البلية أو يصيبهم عذاب أليم.

والقرآن الكريم كما حذر الذين يخالفون أوامر الرسول. حذر أيضا الذين لا يستجيبون إلى الله، فالرسول إذا دعاهم لما يحييهم ويجعلهم في مأمن من الضلال. أن تصيبهم فتنة، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم. واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وإنه إليه تحشرون

(١) سورة النور: الآية ٦٣.

واتقوا فتنة لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة واعلم أن الله شديد العقاب) (١)، قال المفسرون: لقد أحس سبحانه بالاستجابة لما يحيي الإنسان بإخراجه من مهبط الفناء والبقار. وأخبر أنه سبحانه المالك لكل القلوب. وهو أقرب إلى الناس من كل شيء. حتى يعلم المنافقين أنه أعلم بما في قلوبهم منهم فيرتدعوا. وأحاط الجميع علما بأنهم إليه سيحشرون يوم القيامة، ويومئذ تظهر حقيقة ملكه لهم وسلطانه عليهم. ويومئذ له يغني عنهم منه شيء. ثم حذرهم من فتنة. تختص بجماعة منهم. لكن السوء من أثرها يعم الجميع. وقد أبهم الله تعالى أمر هذه الفتنة. ولم يعرفها بكمال اسمها ورسمها. غير أن قوله تعالى فيما بعد: (لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة)، وقوله: (واعلموا إن الله شديد العقاب)، يوضحها بعض الإيضاح. وهو إنها اختلاف البعض من الأمة مع بعض منها في أمر يعلم جميعهم وجه الحق فيه. فيجمع البعض عن قبول الحق. ويشق طريقه بالظلم وهذا الظلم هو الذي أمر سبحانه باتقائه. لأنه يرى سوء أثره إلى كافة المؤمنين وعامة الأمة. وقد تفتن بعض المفسرين بأن الآية تحذر الأمة وتهتدهم بفتنة تشمل عامتهم وتفرق جمعهم وتشتت شملهم. وهذه الفتنة حدثت أيام الصحابة وليس في أيام غيرهم. هم وحدهم المسؤولون عنها. فعن الزبير بن العوام قال: لقد خوفنا الله بقوله: (واتقوا فتنة...) الآية نحن مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وما ظننا أنا خصصنا بها خاصة (٢) وعنه أيضا قال: لقد قرأنا هذه الآية زمانا وما أرانا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها (٣)، وقال السدي: نزلت في أهل بدر خاصة فأصابته يوم الجمل فاقتلوا (٤)، ويوم الجمل ما جاء فجأة. ولكن كانت له مقدمات. وإتقاء هذه الفتنة يكون بالبحث عن المقدمات الحقيقية اليقينية لاستنتاج معلومات تصديقية واقعية. فإذا تشابهت الأمور اعتبر آخرها أولها

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٥.

(٢) رواه ابن جرير (تفسير ابن كثير ٢٩٩ / ٢).

(٣) ابن كثير في التفسير ٢٩٩ / ٢.

(٤) ابن كثير في التفسير ٢٩٩ / ٢.

فحسب البدايات تكون النهايات.
وفي رأينا أن هذا الأسلوب هو الأمثل للكشف عن فتنة ترتدي ثياب
القداسة والخشوع وأول باب للبحث لاتقاء هذه الفتنة يجب أن يبدأ من قوله
تعالى: (لا تصيبن الذين ظلموا) وليكون السؤال: الذين ظلموا! ظلموا من؟ ثم
يتم البحث عن المقياس الذي عليه يظهر الظلم وحجمه وحركة الظالم والمظلوم.
ثانيا - الأمر العسكري الأخير:

ذكرنا أن النبي في حجة الوداع أعلن على الناس وفاته وذلك في قوله:
"لعلي لا ألقاكم بعد عامكم هذا"، كما قال مثل ذلك في غدير خم. ويمكن أن
تكون المساحة الزمنية بين هذا الإعلام وبين حدوث الوفاة زاخرة بالاجتماعات
وترتيب الأوراق بالنسبة لجميع الأطراف. وشاء الله عز وجل أن يكون هناك
حدث يستدعي تجهيز جيش ليصدر النبي قرارا يبعث هذا الجيش إلى مهمة خارج
الدولة، ويكون هذا الجيش بقيادة أسامة بن زيد وينتظم تحت هذه القيادة جميع
الأطراف وكبار الصحابة باستثناء علي بن أبي طالب. وكان وجود علي في
المدينة لهدف كما كان لوجوده فيها يوم تبوك هدف. وروى أصحاب التواريخ
والسير أن هذا الجيش أمره الرسول أن يسير إلى مؤتة (وادي في فلسطين) وروى
البلاذري في تاريخه وهو معروف بالثقة والضبط أن أبا بكر وعمر معا كانا في
جيش أسامة (١)، وذكر الواقدي في كتاب المغازي أن أبا بكر لم يكن في جيش
أسامة وإنما كان عمر وأبو عبيدة وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد بن عمرو
وقتادة بن النعمان وسلمة بن أسلم. وقال الواقدي إن أبا بكر استأذن رسول الله
فأذن له فذهب إلى داره بالسنع وكان بها منزله حين تزوج ابنة خاتمة.
وبالجملة: اتفق جميع المؤرخين على أن عمر كان بالبعث وروى البلاذري وهو
ثقة أن أبا بكر كان أيضا ضمن الجيش وقال غيره غير ذلك.

(١) راجع (الطبقات الكبرى (١٩٠ / ٢، ٦٦، ٦٦ / ٤) والكامل ٣١٧ / ٢ في أنساب الأشراف
٤٧٤ / ١، اليعقوبي ٩٣ / ٢، كنز العمال ٣١٢ / ٥، تاريخ ابن عساكر ٣٩١ / ٢، الفتوح
الرباني ٢٢٢ / ٢١.

وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بخروج الجيش. فلما أصبح يوم التاسع والعشرين من صفر ووجدهم متناقلين خرج إليهم فحضرهم على السير وعقد اللواء لأسامة بيده تحريكا لحميتهم، ثم قال: أغز باسم الله وفي سبيل الله وقاتل من كفر بالله (١)، فخرج أسامة بلوائه معقودا فدفعه إلى بريدة وعسكر بالجرف ثم تناقلوا هناك وطعن قوم منهم في تأمير أسامة فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان ذلك يوم السبت قبل وفاته بيومين. وبعد أن قالوا: " هجر " بيومين. فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس. ما مقالة بلغني عن بعضكم في تأميري أسامة ولئن طعنتم في تأميري أسامة لقد طعنتم في تأميري أباه من قبل (٢)، وحضرهم على المبادرة إلى السير، وروى الشهرستاني أن النبي قال: " جهزوا جيش أسامة لعن الله من تخلف عنه... (٣) فلحق الذين تناقلوا من قبل بالجيش. ثم نقل إليهم أن النبي قد ثقل عليه المرض فبدءوا في التناقل وعندما نقل إليهم خبر الوفاة رجعوا إلى المدينة التي كانت ترجف بأهلها.

إن حروب النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن لدنيا وإنما لدين. وكان للدين فيها أقوى تعلق لما يعود على الإسلام وأهله بعلو كلمة. وحروب النبي صلى الله عليه وسلم كانت بأمر من الله عز وجل. وكان الملائكة يشاركون في معظمها لتثبيت الذين آمنوا ونصرة الفطرة. وتخاذل الناس في الحروب حدث على امتداد الرسالات السماوية في أقوام الأنبياء الذين أمروا بالقتال مع رسلهم. ولقد حدث تخاذل من البعض في المعارك التي خاضها الرسول صلى الله عليه وسلم. حدث هذا يوم أحد ويوم حنين ويوم تبوك. أما التخاذل عن بعث أسامة فقد حمل ملامح إضافية وهي أنهم طعنوا في تأمير أسامة عليهم. وهذا

(١) السيرة الحلبية ٢٣٤ / ٣.

(٢) رواه البخاري ب مناقب المهاجرين (الصحيح ٣٠٣ / ٢) وأحمد (الفتح الرباني

٢٢٢ / ٢١) الطبري (تاريخ الأمم ٣١٢ / ٣)، ابن سعد (الطبقات ١٩٠ / ٢).

(٣) الملل والنحل / الشهرستاني ٢٣ / ١.

الطعن في حقيقة الأمر موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لا إلى أسامة لأن الذي أمر أسامة هو الرسول. ولهذا خطب النبي ولعن من تخلف عن البعث. وطعنهم في تأمير أسامة أجمع عليه أهل السير والأخبار وأرسلوا ذلك في كتبهم إرسال المسلمات ورواه الإمام أحمد والبخاري وغيرهما. وتأمير أسامة والأمر بخروج الجيش ربما والله أعلم يكون من باب الأخذ بالأسباب. فالرسول قال لعلي كما في الحديث الصحيح أن الأمة ستغدر به. وإن لهذا الغدر أسباب منها أنهم سيتذرعون بصغر سنه. لذا أمر أسامة على عظماء قریش وشيوخها. وكان أسامة غلاماً لم يبلغ ثماني عشرة سنة وقتئذ. كي يبين لهم ولغيرهم بأن المؤمن يجب عليه أن يسمع ويطيع ولو وجد في نفسه حرجاً مما قضى النبي ويسلم تسليمًا وتأمير أسامة عليهم إرغام لهم على السمع له ليكون سمعهم لأسامة مدخلاً تتقبله نفوسهم بعد ذلك إذا وجدوا من هو أصغر منهم سناً على رأس الخرقه. ولكن القوم فطنوا إلى ذلك فقالوا القول الذي لا يبقى للقيادة أي مزية أو فضل وإلا فما معنى الطعن في إمارة من أمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

لقد أخلى النبي صلى الله عليه وسلم المدينة قبل وفاته بتعبئة شيوخ قریش تحت إمرة أسامة وإخلاء المدينة من هذه القوة في هذا الوقت بالذات. فيه أنه علم من ربه أن المدينة لن تهاجم من قبل الروم أو الفرس. في هذه الفترة. لذا أمر عليه الصلاة والسلام بالبعث لعل البعث يكون فيه شفاء. قال تعالى: (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) (١)، قال المفسرون: تؤذن بأن دين المسلمين في أمن من جهة الكفار مصون من الخطر المتوجه من قبلهم وأنه لا يتسرب إليه شيء من طوارق الفساد والهلاك إلا من قبل المسلمين أنفسهم وإن ذلك إنما يكون بكفرهم بهذه النعمة التامة ورفضهم هذا الدين الكامل المرضي ويومئذ يسلبهم الله نعمته ويغيرها إلى النقمة ويذيقهم لباس

(١) سورة المائدة: الآية ٣.

الجوع والخوف، ومن أراد الوقوف على مبلغ صدق هذه الآية في ملحمتها المستفادة من قوله: (فلا تخشوهم واخشون) فعليه أن يتأمل فيما استقر عليه حال العالم الإسلامي اليوم. حيث انهدام الوحدة الدينية وظهور الفرقة ونفاذ القوة وذهاب الشوكة. ثم يرجع القهقري بتحليل الحوادث التاريخية حتى يحصل على أصول القضايا وأعرافها.

ثالثا - الأمر الطبي الأخير:

بعد أمره صلى الله عليه وآله وسلم بأن يكتب لهم كتابا لا يضلون من بعده. وأمر بأن يخرجوا في بعث أسامة. ومن على فراش المرض. أمرهم أن لا يلدوه مهما شاهدوا عليه من علامات المرض، ومعنى اللد أن يجعلوا الدماء في إحدى جانبي فيه. وكانوا يستعملون العود الهندي في ذلك. فماذا حدث بعد هذا الأمر الصريح؟ روى البخاري عن عائشة قالت: لدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مرضه فجعل يشير لنا أن لا تلدونى، فقلنا: كراهية المريض للدواء. فلما أفاق قال صلى الله عليه وآله وسلم: ألم أنهاكم أن تلدونى، قلنا: كراهية المريض للدواء، فقال: لا يبقى أحد في البيت إلا لد. إلا العباس فإنه لم يشهد (١)، وفي رواية للإمام أحمد قالت: ثم سرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأفاق وعرف قد لد ووجد أثر اللدود فقال: ظننتم أن الله عز وجل سلطها علي - يعني ذات الجنب - ما كان الله يسلطها علي، ثم قال: لا يبقى أحد في البيت إلا لد إلا العباس فإنه لم يشهد (٢)، وفي رواية عند ابن سعد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كنتم ترون أن الله يسلط علي ذات الجنب ما كان الله ليجعل لها علي سلطانا والذي نفسي بيده لا يبقى في البيت أحد لا لد... " الحديث (٣)، وقال السندي في شرح البخاري: معنى قوله: " لا يبقى في

(١) رواه البخاري (الصحيح ٩٥ / ٣) ك كتاب المغازي ب مرض النبي.
(٢) رواه أحمد بسند جيد (الفتح الرباني ٢٣٩ / ٢١) والطبراني والحاكم (كنز العمال ٤٦٩ / ١١).

(٣) ابن سعد (الطبقات ٢٣٥ / ٣).

البيت أحد إلا لد "، عقوبة لهم بتركهم امتثال نهيه عن ذلك (١)، وبقراءة متدبرة لهذا الحدث. نجد أن من في البيت ظنوا أن النبي قد غلبه الوجد! لقد حكموا بما يرون ولم يمتثلوا لما قال. وبعد أن وقعوا في المحذور أخبرهم بأن الله لم يجعل لهذا المرض سلطانا على رسول الله. ثم أخبرهم بعقوبة تستقيم مع ما فعلوه. ومعنى أنه صلى الله عليه وسلم يخبرهم بالعقوبة أنه لا ينطق عن الهوى. وأنه كان يتلقى من ربه ويخبر بالغيب حتى النفس الأخير. لقد تعاملوا معه على أنه قد غلبه الوجد، أو أنه رفض الدواء كراهية المريض للدواء، فضربتهم العقوبة. ترى هل يستحق الفريق الذين قالوا يوم الخميس أن النبي قد غلبه الوجد عقوبة على ما قالوا بعد أن تبين هنا أن الله لا يسلط على رسوله المرض الذي يجعله يهدي أو يهجر؟

رابعا - الوصايا:

إذا سألنا: بماذا أوصى النبي صلى الله عليه وسلم قبل الموت؟ فستكون الإجابة على هذا السؤال غير تامة في جميع الأحوال. ولقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ما من حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده " (٢)، ولقد روى فيما بعد أن أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثوا عثمان بن عفان إلى أبي بكر يسأل لهن ميراثهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فكانت المفاجأة عندما أخبرهم أبو بكر رضي الله عنه أن الرسول قال: لا نورث " (٣)... فمن هذا يمكن القول أن النبي لم يكتب وصيته ويقول فيها هذا. وعلى أقل تقدير لم يخبر أهل بيته بذلك. فإذا تركنا الوصية فيما يتعلق بميراث أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ونظرنا إلى الوصية بالأمة. نجد روايات تحتاج إلى إيضاحات. وعلى سبيل المثال روى الإمام أحمد عن ابن عباس أن النبي

(١) البخاري شرح السندي (٩٥ / ٣).

(٢) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٤٣٢ / ٤).

(٣) سنين ذلك في حينه.

صلى الله عليه وسلم أوصى بثلاث وقال: اخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم"، إلى هنا انتهت الوصايا. وأنت كما ترى من الوصايا ثلاث لكن الراوي أخبرنا بإثنين. وعندما جاء الدور على الوصية الثالثة قال الراوي: وسكت سعيد عن الثالثة. فلا أدري أسكت عنها عمداً أو قال مرة أو نسيته! (١)، وهكذا حرماناً من الوصية الثالثة كما حرماناً من كتابة الصحيفة.

أين الوصية بخلافة راشدة متكفلة بصلاح النفوس والأموال والأحكام والأخلاق والصالح العام. هل يجوز أن يخشى معاوية بن أبي سفيان أن يترك أمة محمد بعده بلا راعي لها ولا يخشى محمد ذلك؟ أيكون سلاطين الإسلام الذين ورثوا الخلافة من والد إلى ولد أحرص على مصلحة الأمة من بني الرحمة؟ إن هذه التساؤلات ليست جديدة. فلقد طرحت من قبل وبعد وفاة الرسول بزمان يسير. روى البخاري: سئل بن أبي أوفى: هل كان النبي صلى الله عليه وسلم أوصى؟ فقال: لا، فقل: كيف كتب على الناس الوصية أو أمر بالوصية. قال: أوصى بكتاب الله (٢)، وفي رواية الترمذي: فقل: كيف كتبت الوصية وكيف أمر الناس... (٣)، وقال في تحفة الأحوازي: أي كيف يؤمر المسلمون بشئ ولا يفعله النبي. وبذلك يتم الاعتراض (٤).

وبعد هذا التساؤل من الناس جاء التساؤل الأهم روى البخاري عن الأسود قال: ذكروا عن عائشة أن علياً كان وصياً. فقالت: متى أوصى إليه؟ وقد كنت مسندته إلى صدري - أو حجري - فدعا بالطست - وفي رواية: فبال فيها - فلقد أثخنت في حجري فما شعرت أنه قد مات فمتى أوصى؟ (٥)، والجدير بالتسجيل

-
- (١) رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ٢٢٤ / ٢١) وقال في الفتح رواه الشيخان.
(٢) رواه البخاري ك الوصايا (الصحيح ١٢٥ / ٢) ومسلم (الصحيح ٧٤ / ٥ ط إسطنبول).
(٣) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٤٣٢ / ٤).
(٤) تحفة الأحوازي (٣٠٩ / ٦).
(٥) رواه البخاري ك الوصايا ١٢٥ / ٢، كتاب المغازي ٩٥ / ٣، ابن سعد (الطبقات ٢٦١ / ٢).

هنا أن وصية النبي صلى الله عليه وآله لعلي كانت متداولة أيام الصحابة. ألم تسمع قولهم في محضر أم المؤمنين: إن عليا كان وصيا. وعلى أي حال فإن حديث الناس بالوصية لعلي لا خلاف عليه كما في هذا الحديث. وإنما الخلاف في رد أم المؤمنين على الذين قالوا بذلك. فلقد أخبرتهم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مات على صدرها وإنما آخر الناس عهدا به. وهذا القول تعارضه أحاديث صحيحة أخرى منها ما رواه الإمام أحمد عن أم المؤمنين أم سلمة، قالت: والذي أحلف به إن كان علي بن أبي طالب لأقرب الناس عهدا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالت: عدنا رسول الله صلى الله عليه وآله بعد غداة والنبي يقول: جاء علي، جاء علي - وفي رواية قالت فاطمة: كأنه بعثة في حاجة - فجاء علي، قالت أم سلمة: فظننت أن له إليه حاجة. فخرجنا من البيت فقعدنا وكنت أدناهم إلى الباب فأكب عليه علي (١) فجعل يساره ويناجيه (٢)، ثم قبض صلى الله عليه وآله من يومه ذلك. وكان علي أقرب الناس به عهدا " (٣).

وروى ابن سعد عن أبي الغطفان قال سألت ابن عباس: يا ابن عباس أرأيت رسول الله صلى الله عليه وآله توفي ورأسه في حجر أحد؟ قال ابن عباس: توفي وهو لمستند إلى صدر علي بن أبي طالب. قلت: فإن عروة حدثني عن عائشة أنها قالت: توفي رسول الله صلى الله عليه وآله بين سحري ونحري. فقال ابن عباس: أتعقل!! والله لتوفى رسول الله وإنه لمستند إلى صدر علي وهو الذي غسله (٤)، وسئل عمر بن الخطاب: ما كان ما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: سل عليا، فقيل له: من غسله؟ قال: سل

(١) أي مال برأسه عليه.

(٢) أي يحدثه سرا.

(٣) رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح غير أم موسى وهي ثقة (الزوائد ١١٢ / ٩)، ورواه الحاكم وصححه وأقره الذهبي (المستدرک ١٣٩ / ٣)،

وأورده ابن كثير في البداية ٣٦٠ / ٧.

(٤) ابن سعد (الطبقات ٢٦٣ / ٢).

علياً (١)، وعن حذيفة بن اليمان قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مرضه الذي قبض فيه فرأيتَه يستند إلى علي بن أبي طالب. فأردت أن أنحيه وأجلس مكانه فقلت: يا أبا الحسن ما أراك إلا تعبت في ليلتك هذه فلو تنحيت فأعنتك. فقال النبي صلى الله عليه وآله: دعه فهو أحق بمكانه منك " (٢).

وكما ذكرنا لقد تحدث الناس في عصر الصحابة عن وصية النبي لعلي. ولكن الوصايا وصلت إلينا مبتورة. وصحيح أن أم المؤمنين عائشة ذكرت أن النبي لم يوصي لعلي. وصحيح أيضاً أن علياً كان آخر الناس عهداً برسول الله صلى الله عليه وآله. وفي الحديث أنه مال برأسه على النبي وأن النبي حدثه سرا. وفي الحديث الصحيح. أن علياً قال: إن مما عهد إلي رسول الله صلى الله عليه وآله أن الأمة ستغدر بك بعدي " (٣).
ورحل النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، رحل النبي الأمي العربي القرشي الهاشمي المكي المدني ونشهد أنه أدى الرسالة ونصح الأمة وكشف الغمة وجاهد في سبيل الله حتى آتاه اليقين فجزاه الله خير الجزاء ونسأله سبحانه أن يحشرنا تحت لوائه يوم القيامة والمؤمنين أجمعين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) ابن سعد (الطبقات ٢٦٣ / ٢).

(٢) رواه ابن عساكر (كنز العمال ٢٢٨ / ١٦).

(٣) رواه البيهقي بسند صحيح (كنز العمال ٢٩٧ / ١١) ابن كثير في البداية (٢١٨ / ٦).

أولاً - الاختيار

أضواء على سقيفة بني ساعدة:

بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أرجفت المدينة بأهلها. ونزل إليها الذين كانوا في بعث أسامة. وتوجه عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى دار النبي وأعلن البيان الأول وجاء فيه " أن النبي لم يمت وإنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى فغاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع بعد أن قيل قد مات والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله مات " (١)، وفي رواية البخاري عن عائشة قالت قال عمر: والله ما مات رسول الله " (٢)، والبيان بهذه الصورة في حاجة إلى دقة. فكان يكفي الفاروق أن ينظر في بيت النبي أو يسأل أم المؤمنين حفصة عن الحقيقة. ثم يلقي البيان على خلفية من الدقة. ولقد فصل الفاروق رضي الله عنه الأسباب التي دعت به إلى القول بهذا، فقال فيما رواه البخاري: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك وليبعثن الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم " (٣)، وفي تاريخ الطبري قال: والله إن حملني على ذلك إلا أنني كنت أقرأ هذه الآية: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا)، فوالله إنني كنت لأظن

(١) الطبري (١٩٧ / ٣).

(٢) البخاري ك بدء الخلق (الصحيح ٢٩١ / ٢).

(٣) البخاري (الصحيح ٢٩١ / ٢) ك بدء الخلق.

أن رسول الله سيبقى في أمته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها فإنه للذي حملني على أن قلت ما قلت " (١)، إن من أعجب الأشياء أن يقول الفاروق رضي الله عنه ذلك. كيف، وهو القائل يوم الخميس: حسبنا كتاب الله! والله تعالى يقول لرسوله: (إنك ميت وإنهم ميتون) (٢)، والرسول نفسه أعلن على الملأ أنه أوشك أن يدعى فيجيب والناس علموا وتناقلوا فيما بينهم أن آخر حج للنبي كان حجة الوداع، روى البخاري عن ابن عمر قال: هذا يوم الحج الأكبر فطفق النبي صلى الله عليه وآله يقول اللهم أشهد وودع الناس فقالوا: هذه حجة الوداع (٣).

إن ما نسب إلى الفاروق في تأويل هذه الآيات لا تستريح النفس إليه، فعمر كان أجل قدرا من أن يعتقد ما ظهر عنه في هذه الواقعة. لكنه لما علم بالوفاة خاف من وقوع فتنة في الإمامة وخاف حدوث ردة. فاقتضت المصلحة تسكين الناس بأن أظهر ما أظهره من كون أن النبي لم يمت. حتى يأتي أبو بكر وكبار الصحابة ويقرروا ماذا سيفعلون لمصلحة الأمة... وجاء أبو بكر وكان بالسنع وكشف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندما علم بالحقيقة قال لعمر الذي كان يحلف بالله أن النبي لم يمت: أيها الحالف على رسلك (٤)، ثم أعلن البيان الثاني وقال: ألا من كان يعبد محمدا صلى الله عليه وسلم فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وقال: (وإنك ميت وإنهم ميتون)، وقال: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، فإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) (٥)، وروى ابن سعد بن عمر عندما سمع الآية قال لأبي بكر: " هذا في كتاب الله؟! قال: نعم، فقال: أيها الناس هذا أبو

(١) الطبري (٢٠٤ / ٣).

(٢) سورة الزمر: الآية ٣٠.

(٣) البخاري (الصحيح ٣٠٠ / ١) ك الحج.

(٤) البخاري ك بدء الخلق (الصحيح ٢٩١ / ٢).

(٥) البخاري ك بدء الخلق (الصحيح ٢٩١ / ٢).

بكر وذو شيبه المسلمين فبايعون " (١)، وكانت هذه أول صيحة من المهاجرين تنادي بأبي بكر.

١ - الطريق إلى السقيفة:

إن دعوة الفاروق لمبايعة أبي بكر يمكن أن تفهم على أرضية الرأي وليس على أرضية النص. والصحابة على أرضية الرأي لهم أصول عديدة. ولقد أطبقت الصحابة أطباقا واحدا على ترك كثير من النصوص لما رأوا المصلحة في ذلك. كإسقاطهم سم ذوي القربى وإسقاط سهم المؤلفة قلوبهم. وفيهما نصوصا واضحة وصريحة بكتاب الله، وكان ذلك بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. وفي حياته أمرهم بالخروج في بعث أسامة لكنهم رأوا أن عدم الخروج مصلحة للدولة وللملة وحفظ للبيضة ودفعاً للفتنة. والأمثلة في ذلك كثيرة. ولما كانت الحركة بعد وفاة النبي تدور بساعد الفاروق رضي الله عنه. فإننا نسجل هنا أن الفاروق كانت له اجتهدات وآراء واعتراضات في زمن الرسول. إذا نظرنا فيها لا يمكن أن ننكر منه أنه يبايع لأبي بكر لمصلحة رأيها ويعدل عن النص. ومن الثابت أنه أنكر مرارا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمورا اعتمدها. منها إنكاره صلاة رسول الله على عبد الله بن أبي. وذلك فيما رواه الإمام البخاري أن عمر قال للنبي: "تصلي عليه وهو منافق وقد نهاك الله أن تستغفر له" (٢)، وفي رواية عند الترمذي "فلما أراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يصلي جذبه عمر وقال: أليس قد نهى الله أن تصلي على المنافقين" (٣)، وفي رواية عنده أيضا قال له النبي: "أخر عني يا عمر إني خيرت فاخترت" (٤). واعترض على قسمة قسمها النبي، روى مسلم عن عمر بن الخطاب قال: قسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قسما فقلت: والله يا رسول الله لغير

(١) الطبقات الكبرى ٢٦٧ / ٢.

(٢) رواه البخاري في تفسير سورة براءة (الصحيح ١٣٧ / ٣) ومسلم (الصحيح ١٦٧ / ١٥).

(٣) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٢٨٠ / ٥).

(٤) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٢٧٩ / ٥).

هؤلاء كان أحق به منهم فقال النبي: إنهم خيروني أن يسألوني بالفحش أو يخلون فلست بياخل " (١)، أي: الجأوني إلى السؤال بالفحش أو نسبتي إلى البخل. واعترض على صلح الحديبية وقال للنبي بكل صراحة: أأست نبي الله حقاً؟ ولم يعترض عليه النبي.

روى البخاري قال عمر: فأتيت نبي الله صلى الله عليه وسلم فقلت: أأست نبي الله حقاً؟ قال: بلى، قلت: أألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذا؟ قال: إني رسول الله! ولست أعصيه وهو ناصري، قلت: أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى فأخبرتكم أنا نأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتية ومطوف به. ثم قال عمر فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً؟!، قال: بلى، قلت: أألسنا على الحق وعدونا على الباطل، قال: بلى، قلت: فلنعطي الدنية في ديننا إذا. فقال أبو بكر: أيها الرجل! إنه لرسول الله وليس يعصي ربه وهو ناصره فاستمسك بفرزه!! فوالله إنه على الحق (٢).

وفي روايات عديدة أن عمر بن الخطاب عندما تحدث مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. رجع متغيظاً رغم ردود النبي عليه. وذلك من قوة فقهه وعظيم بصيرته رضي الله عنه، روى البخاري: "قال رسول الله يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً. فرجع متغيظاً فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر أألسنا على الحق... " الحديث (٣). وأرضية الرأي وقف عليها كثير من الصحابة. وبعد الرسول عملوا بمقتضى ما يغلب في ظنونهم من المصلحة. ولم يقفوا مع موارد النصوص حتى اقتدى بهم الفقهاء من بعد فرجح كثير منهم القياس على النص. والذي يمكن أن نقوله وفقاً لقراءتنا للأحداث. أن العديد من كبار الصحابة تبينوا أن علياً لن تجتمع

(١) رواه مسلم (الصحيح ١٤٦ / ٤).

(٢) رواه البخاري كتاب الشروط باب الجهاد والمصالحة (الصحيح ١٢٢ / ٢).

(٣) رواه البخاري تفسير سورة الفتح (١٩٠ / ٣).

عليه العرب إما لأنه وترها وسفك دماءها وإما للحسد أو البغض وإما لاستحداثهم سنة أو للخوف من شدة وطأته وشدته في دين الله أو لدفع ضرر يخبئه لهم الغيب. وإما كراهة اجتماع النبوة والخلافة في بيت واحد. ولقد تبينوا خطورة الموقف بعد غزوة تبوك وهي الغزوة التي شهدت محاولة اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم. ووفقا لهذه القراءة للأحداث كان كبار الصحابة أمام خيارين:

الأول: أن يعملوا بالنص وينصبوا عليا، ثم تجرى بحور الدماء على أيدي الذين حق عليهم القول فهم لا يؤمنون بجميع دوائهم وتياراتهم، ويترتب على ذلك تقدم الجاهلية والارتداد عن الإسلام.

الثاني: أن يرجحوا المصلحة وينصبوا لشيخا مجربا للأمور لا يحسده أحد ولا يحقد عليه أحد ولا يبغضه أحد. فأيهما أصلح للدين؟ الوقوف مع النص الذي يؤدي إلى ارتداد الخلق ورجوعهم إلى الأصنام والجاهلية. أم العمل بمقتضى الأصلح واستبقاء الإسلام واستدامة العمل بالدين وإن كان فيه مخالفة النص؟

قد يقول قائل: إن نفسي لا تسامحني أن أنسب إلى الصحابة عصيان النبي ودفع النص. وهذا شعور طيب. ولكن هناك نصوص صريحة ثم مصادرتها وهي في كتاب الله ومن ذلك سهم المؤلفة قلوبهم وسهم ذي القربى وسيأتي الحديث عنهما في حينه. ثم أن نفسي أيضا لا تسامحني أن أنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم إهمال أمر الإمامة وأن يترك الناس في فوضى وهو صلى الله عليه وسلم ما كان يغيب عن المدينة إلا ويؤمر عليها أميرا وهو حي ليس بالبعيد عنها فكيف لا يؤمر وهو ميت لا يقدر على استدراك ما يحدث؟

والخلاصة أقر كبار الصحابة هذا الرأي لحقن الدماء ولسير الدعوة. وحقن الدماء يدخل تحت ظلها علي بن أبي طالب وأهل بيته. ولهذا لم يتعرض إليه أحد بمكرهه وكان هو وأولاده على امتداد عصور الخلفاء الثلاثة يعامل بكل تقدير واحترام. ووفقا لما ذكرنا بايع عمر لأبي بكر رضي الله عنه... وأبو بكر

ما كان يريد قيادة وإنما كان يخاف الفتنة وسنذكر أقواله في حينها. وكان من قبيلة لا تزاحم غيرها من القبائل على طلب رأس قريش. ولم يكن في نسبه ما يشمخ به على الناس (١). وكان منطقة توازن يميل إليه الكثير من الصحابة ولا يفرق بين هذا وذاك حتى أبو سفيان كان أبو بكر يكن له كل تقدير. ومعاملة كهذه تشهد بأنه كان ماهرا في قيادة السفينة. روى الإمام مسلم عن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سلمان وهيب وبلال في نفر فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها. فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم. فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره. فقال النبي: يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك. فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوانه أغضبتكم؟ قالوا: لا يغفر الله لك يا أخي (٢) أنها أرضية من الحب. لم يتكبر على الضعفاء وإنما ذهب إليهم وطيب خاطرهم، قال النووي في الحديث: هذه فضيلة ظاهرة لسلمان ورفقته هؤلاء (٣)، ولم يختلف الفاروق رضي الله عنه عن أبي بكر فهو من قبيلة لا تصارع قريشا على متاع ولم يكن عندها ما تشمخ به على القبائل كان منزله بالعوالي في بني أمية (٤)، وكان يقدر أبا سفيان وأولاده، ذكر معاوية يوما عنده فقال: دعوا فتى قريش وابن سيدها (٥)، فهذا كله يحفظ التوازن لتسير الدولة وفقا لمصلحة الأمة. قد يقول قال: ما هو الدليل على أن كبار الصحابة أخذوا بمصلحة الأمة في أمر الخلافة ودفعهم النص؟ نقول: أما النصوص الخاصة بالولاية فقد قدمناها على امتداد هذا الكتاب وأما أخذهم بمصلحة الأمة فلقد روى ابن خزيمة في صحيحه والإمام أحمد بسند صحيح عن أبي رافع قال: لما استخلف الناس

(١) الإسلام لا يقيم وزنا للقبائل من حيث نسبها. ولكننا طرحنا النسب هنا نظرا للقبائلية التي توهجت بعد رسول الله وبقيت زمنا طويلا.

(٢) رواه مسلم (الصحيح ٦٦ / ١٦) في فضل سلمان وبلال وصهيب).

(٣) مسلم شرح النووي (٦٦ / ١٦).

(٤) الترمذي (الجامع ٤٢٠ / ٥).

(٥) رواه الديلمي (كنز العمال ٥٨٧ / ١٣) وابن كثير في البداية (١٢٤ / ٨).

أبا بكر. قلت: صاحبي الذي أمرني أن لا أتأمر على رجلين. فارتحلت فانتفيت إلى المدينة فتعرضت لأبي بكر فقلت له: يا أبا بكر أتعرفني؟ قال: نعم، قلت: أتذكر شيئاً قلته لي. أن لا أتأمر على رجلين وقد وليت أمر الأمة، فقال: إن رسول الله قبض والناس حديث عهد كفر فخفت عليهم أن يرتدوا وأن يختلفوا فدخلت فيها وأنا كاره ولم يزل بي أصحابي. فلم يزل يعتذر حتى عذرتة (١)، وفي رواية الإمام أحمد قال: فبايعوني لذلك وقبلتها منهم وتخوفت أن تكون فتنة يكون بعدها ردة (٢).

وروى الطبري أن عمر قال لابن عباس: أتدري ما منع قومكم منهم بعد محمد؟ قال ابن عباس فكرهت أن أجيبه فقلت: إن لم أكن أدري فأمر المؤمنين يدريني فقال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة فتبجحوا على قومكم بجحاً بجحاً فاختارت قریش لنفسها فأصاب (٣)، وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز في كتابه السقيفة أن عمر قال لابن عباس: ما أظن صاحبك إلا مظلوماً. قال ابن عباس فقلت في نفسي: والله لا يسبقني بها فقلت: يا أمير المؤمنين فاردد إليه ظلامته. فانتزع يده من يدي ثم مر يهملهم ساعة ثم وقف فلحقته فقال لي: يا ابن عباس ما أظن القوم منعهم من صاحبك إلا أنهم استصغروه. قال ابن عباس فقلت في نفسي: هذه شر من الأولى، فقلت: والله ما استصغره الله حين أمره أن يأخذ سورة براءة من أبي بكر (٤). وروى أحمد بن أبي الطاهر صاحب كتاب تاريخ بغداد في كتابه مسنداً عن ابن عباس قال: قال لي عمر (٥): من أين جئت يا عبد الله؟ قلت: من المسجد. قال: كيف خلفت ابن عمك؟ فظننته يعني عبد الله بن جعفر. قلت: خلفته يلعب مع أترابه، قال: لم أعن ذلك، إنما عنيت عظيمكم أهل البيت، قلت: خلفته يمتح

(١) رواه ابن خزيمة في صحيحه والبخاري وابن رهوة (كنز ٥٨٦ / ٥).

(٢) رواه أحمد بسند صحيح (الفتح الرباني ٦١ / ٢٣).

(٣) الطبري (تاريخ الأمم ٣١ / ٥).

(٤) ابن أبي الحديد ٢٩٠ / ٢.

(٥) كان لقاء عمر بابن عباس في أوائل خلافة عمر بالمسجد.

بالغرب (١) على نخيلات من فلان، وهو يقرأ القرآن قال: يا عبد الله، عليك دماء البدن إن كتمتنيها! هل بقي في نفسه شيء من أمر الخلافة. قلت: نعم، قال: أيزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نص عليه؟ قلت: نعم وأزيدك. سألت أبي عما يدعيه فقال: صدق. فقال عمر: لقد كان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أمره ذرو (٢) من قول لا يثبت حجة ولا يقطع عذرا. ولقد كان يربع في أمره وقتا ما. ولقد أراد في مرضه أن يصرح باسمه فمنعت من ذلك إشفافا وحيطة على الإسلام، لا ورب هذه البنية لا تجتمع عليه قریش أبدا. ولو وليها لانتقضت عليه العرب من أقطارها. فعلم رسول الله إني علمت ما في نفسه. فأمسك وأبى الله إلا إمضاء ما ختم (٣). ونعود إلى حيث بدأنا. فعندما أعلن عن وفاة النبي صلى الله عليه وسلم. وهتف عمر بمبايعة أبي بكر علمت الأنصار بما عزم عليه المهاجرون. فأتوا بسعد بن عباد ليباعوه. ويقتضي هذا أن نلقي الضوء على الأنصار. ٢ - أضواء على الأنصار:

الأنصار هم القوة الضاربة في جيش الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وأطاحت سيوفهم برقاب العديد من أهل مكة. وكان الطلقاء من أهل مكة يحملون أحقادا للأنصار. وهذه الأحقاد بلغت ذروتها يوم الحرة عندما اجتاحت خيول يزيد بن معاوية المدينة وبايعه أهل المدينة على أنهم عبيد له. والنبي صلى الله عليه وسلم وضع الأنصار مع علي بن أبي طالب على أرضية واحدة هي أرضية الإيمان. روى مسلم عن علي أنه قال: إنه لعهد النبي الأمي صلى الله عليه وسلم أن لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق (٤)، وفي الأنصار روى مسلم عن البراء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأنصار

(١) الغرب / الدلو.

(٢) ذرو / طرف.

(٣) ابن أبي الحديد ٧٦٥ / ٣.

(٤) رواه مسلم (٦١ / ١ ط التحرير).

لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق من أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله (١)، وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا يبغض الأنصار جل يؤمن بالله واليوم الآخر (٢)، وروى مسلم عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "حب الأنصار آية الإيمان وبغضهم آية النفاق" (٣).

ولأن عليا والأنصار على أرضية واحدة كان أبو سعيد الخدري يقول: "إننا كنا لنعرف المنافقين نحن معشر الأنصار ببغضهم علي بن أبي طالب" (٤)، وقال النووي في شرح مسلم: إن من عرف مرتبة الأنصار وما كان منهم في نصرة دين الله والسعي في إظهاره. وعرف من علي بن أبي طالب قربه من رسول الله وحب النبي له، وما كان منه في نصرة الإسلام، ثم أحب الأنصار وعلياً كان ذلك من دلائل صحة إيمانه، ومن أبغضهم كان ضد ذلك واستدل به على نفاقه وفساد سيرته (٥).

والنظر إلى الأنصار لا ينبغي أن يحمل على أن جميع الأنصار في دائرة الإيمان. لأن كل قاعدة بها وتد للنفاق، قال تعالى: (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم) (٦)، والمعنى وممن حولكم أو حول المدينة من الأعراب الساكنين في البوادي منافقون مرقوا على النفاق ومن أهل المدينة أيضا منافقون معتادون على النفاق لا تعلمهم أنت يا محمد نحن نعلمهم - لذا فدائرة الإيمان على أرضية الأنصار لا ترى إلا على طريق علي بن أبي طالب. فعلي إنسان فطري رباه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وغرس فيه القيادة كما غرس صلى الله عليه وآله في

(١) رواه مسلم (٦٠ / ١ ط التحرير).

(٢) رواه مسلم (٦٠ / ١ ط التحرير).

(٣) رواه مسلم (٦٠ / ١ ط التحرير).

(٤) رواه الترمذي (الجامع ٦٣٥ / ٥) ورواه الخطيب عن أبي ذر بلفظ آخر (كنز ١٠٦ / ١٣).

(٥) مسلم شرح النووي (٦٤ / ٢).

(٦) سورة التوبة: الآية ١٠١.

الأنصار الجندية. ولهذا ترى الجندية الحق على صفحة القيادة الحق. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرتب الأنصار على درجات، روى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال: "خير دور الأنصار دور بني النجار ثم دور بني الأشهل ثم بني الحرث بن الخزرج ثم بني ساعدة وفي كل دور الأنصار خير" (١)، وعندما علم سعد بن عبادته بهذا الترتيب حيث بني ساعدة التي اشتهرت بسقيفتها رابع أربع قال: خلفنا رسول الله فكنا آخر الأربع. اسرجوا لي حماري أتى صلى الله عليه وسلم فقال له ابن أخيه: أتذهب لترد على رسول الله صلى الله عليه وآله أعلم. أوليس حسبك أن تكون رابع أربع فرجع وقال: الله ورسوله أعلم (٢).

ومن الغريب أن في صحيح البخاري حديثا يتهم سعد بن عبادته بالنفاق. والحديث روته أم المؤمنين عائشة في قصة الإفك، وفيه: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي. فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا وقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلي إلا معي. فقام سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله أنا والله أعذرك منه إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك. فقال سعد بن عبادته وهو سيد الخزرج وكان قبل ذلك رجلا صالحا!! ولكن احتملته الحمية فقال: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على ذلك. فقام أسيد ابن الحضير فقال: كذبت لعمر الله والله لنقتله فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا. ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فنزل فخفضهم حتى سكتوا وسكت" (٣) فسعد بن عبادته الذي زاحم المهاجرين في البيعة وطلبها للأنصار كما طلبها

(١) رواه مسلم في الصحيح (٧٠ / ١٦) والترمذي (الجامع ٧٢٠ / ٥) البخاري (الصحيح ٣١١ / ٤).

(٢) رواه مسلم (الصحيح ١٧٥ / ٦).

(٣) رواه البخاري باب حديث الإفك من كتاب الشهادات (الصحيح ١٠٤ / ٢).

المهاجرين لأنفسهم متهم في صحيح البخاري بالنفاق وبالذفاق عن المنافقين بعد أن كان رجلا صالحا. وحدث هذا أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم.
٣ - صراع داخل السقيفة:

كان علي بن أبي طالب يغسل النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم. وكان المهاجرون يتناقشون في الخلافة، وعندما علم الأنصار بأن قريشا عازمة على إبعاد علي بن أبي طالب وليس بالضرورة أن يكون هذا العلم قد جاء بعد وفاة الرسول لأن الرسول أخبر بما هو كائن بعده. علاوة على أن الأنصار يعرفون من يحبهم. اجتمع الأنصار وأرادوا إبرام الأمر فيما بينهم على أن يكون الخليفة منهم اعتقادا منهم بأن الإسلام قام بحد سيوفهم وأن المهاجرين عيال عليهم. وحملوا سعد بن عبادة وكان مريضا إلى سقيفة بني ساعدة. فخطبهم ودعاهم إلى إعطائه الرياسة والخلافة فأجابوه. ثم تكلموا فيما بينهم فقالوا: فإن أبي المهاجرين وقالوا: نحن أولياؤه! فقال قوم من الأنصار نقول: منا أمير ومنكم أمير فقال سعد: هذا أول الوهن.

وكان للمهاجرين عيون على الأنصار فانطلق عويم بن ساعدة وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد آخا بين عويم وبين عمر (١)، وجاء إلى عمر ومعه معن بن عدي وأخبراه بما حدث من الأنصار. فأرسل عمر إلى أبي بكر أن أخرج فقد حدث أمر لا بد أن تحضره. فخرج فأعلمه بالخبر، فمضينا مسرعين نحوهم ومعهما أبو عبيدة. وكان عمر على امتداد الطريق يبحث عن إجابات مقنعة يقنع بها الأنصار. فقد كان يخشى ردة فعل الأنصار وكان يخشى أن لا يوافقوا على إبعاد علي بن أبي طالب نظرا للصالح العام. وعندما وصلوا إلى السقيفة. روى البخاري أن عمر أراد أن يتكلم. فأسكته أبو بكر. وكان عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا إني قد هيأت كلاما قد أعجبني خشيت أن لا يبلغه أبو بكر (٢)، أي أنه جهز كلاما وهو في الطريق خشي أن لا يقول أبو بكر مثله. فتكلم أبو بكر

(١) الإصابة ٤٥ / ٥.

(٢) البخاري باب فضائل أصحاب النبي (الصحيح ٢٩١ / ٢).

وقال: نحن الأمراء وأنتم الوزراء فقال الحباب بن المنذر: لا والله لا نفعل منا أمير ومنهم أمير. فقال أبو بكر: لا ولكننا الأمراء وأنتم الوزراء (١).
وارتفعت الأصوات وكثر اللغط، وتكلم عمر وقال: والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم (٢)، فرد عليه الحباب فقال: يا معشر الأنصار أملكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر. فإن أبوا عليكم ما سألتموهم فاجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور. فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم فإنه بأسيا فكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين. أنا جذي لها المحكك وعذيها المرجب أما والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة. فقال عمر: إذا يقتلك الله، قال الحباب: بل إياك يقتل (٣)، وقال أبو بكر: إني قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين عمر أو أبو عبيدة (٤)، وانتهى الأمر بأن قال عمر: أبسط يدك يا أبا بكر فلا بايعك. فقال أبو بكر: بل أنت يا عمر فأنت أقوى لها مني ففتح عمر يد أبي بكر وقال: إن لك قوتي مع قوتك (٥)، إلى هذا الحد كان الأنصار يصرون على موقفهم حتى قام بشير بن سعيد الخزرجي وكان حاسدا لسعد وقال: يا معشر الأنصار. إلا أن محمدا من قریش وقومه أولى به. وبايع، فناده الحباب بن المنذر: يا بشير بن سعد عقلت عقاق ما أحوجك إلى ما صنعت أنفست على ابن عمك الإمارة (٦)، فلما رأت الأوس ما صنع بشير. قام أسيد بن الحضير - قال صاحب الإصابة: كان أبو بكر لا يقدم عليه أحد من الأنصار. ولما مات أسيد وفي عمر دينه (٧) - وقال: قوموا فبايعوا أبا بكر. فقاموا إليه فبايعوه، فأنكس على سعد بن عباد وعلى الخزرج ما

(١) البخاري (الصحيح ٢٩١ / ٢) ك بدء الخلق.

(٢) الطبري (تاريخ الأمم ٢٠٩ / ٣).

(٣) الطبري (٢٠٩ / ٣).

(٤) البخاري كتاب بدء الخلق باب فضل أصحاب النبي (٢٩١ / ٢) الطبري (٢٠٩ / ٣).

(٥) الطبري (١٩٩ / ٣).

(٦) الطبري (٢٠٩ / ٣).

(٧) الإصابة (٤٨ / ١).

كانوا أجمعوا له من أمرهم (١).

وحدث هرج وكادوا يطؤون سعد بن عباد. فقال ناس من أصحاب سعد: اتقوا سعد لا تطؤوه. فقال عمر: اقتلوه قتلته الله (٢). ثم قام على رأسه وقال: لقد هممت أن أطأك حتى تنذر عضوك. فأخذ سعد بلحية عمر، فقال عمر: والله لو حصصت منه شعرة ما رجعت وفي فيك واضحة (٣)، فقال سعد لعمر: أما والله لو أن بي قوة ما أقوى على النهوض - وكان مريضا - لسمعت مني في أقطارها وسككها زئيرا يحجزك وأصحابك. أما والله إذا لألحقتك بقوم كنت فيهم تابعا غير متبوع. ثم قال: احملوني من هذا المكان. فحملوه فأدخلوه داره. وترك أياما. ثم بعث إليه أن أقبل فبايع. فقال: أما والله حتى أرميكم بما في كنانتي من نبلي. وأخضب سنان رمحي وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني من قومي. فلا أفعل وأيم الله. لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربي وأعلم ما حسابي. فلما أتى أبو بكر ذلك. قال له عمر: لا تدعه حتى يبايع فقال له بشير بن سعد: أنه قد لج وأبى. وليس بمبايعكم حتى يقتل. وليس بمقتول حتى يقتل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته فاتركوه فليس تركه بضاركم. إنما هو رجل واحد. فتركوه وقبلوا مشورة بشير بن سعد. وكان سعد لا يصلي بصلاتهم ولا يجمع معهم ولا يحج ولا يفيض معهم بإفاضتهم (٤)، فلم يزل كذلك حتى خلافة عمر بن الخطاب. فقال لعمر: كان صاحبك أحب إلينا وقد أصبحت والله كارها لجوارك. وأنا متحول إلى جوار من هو خير منك. وخرج سعد مهاجرا إلى الشام. وفي حوران قتل سعد (٥) وقالوا لناس يومئذ: لقد قتله الجن.

(١) الطبري (٢٠٩ / ٣).

(٢) الطبري (٢١٠ / ٣) البخاري في الصحيح (٢٩١ / ٢).

(٣) الطبري (٢١٠ / ٣).

(٤) الطبري (٢١٠ / ٣).

(٥) ابن سعد (الطبقات ٦٢٨ / ٥).

وبعد أكان يرضي رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الصراع والتهديد بإجلاء هؤلاء وقتل هؤلاء؟ إن ما ذكرناه اتفق عليه أصحاب الحديث والتراجم والسير واعتبروه من المسلمات. فهل يجوز على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يترك أمتة ليكون الحال كما رأينا وهو الذي قال إني تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها سواء. لقد وقف كل طرف يسأل الإمارة. ولقد روى الإمام مسلم أن رجلين دخلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال أحدهما: يا رسول الله أمرنا على بعض ما ولاك الله عز وجل. وقال الآخر مثل ذلك. فقال النبي: أنا والله لا تولي هذا العمل أحدا سألته ولا أحدا أحرص عليه (١)، لقد طلب كل منهما بعض ما ولاه الله. ولكن هيهات. إن الأمر لله ورسوله والرسول قد يشاور أصحابه في أمر ما ولكن في النهاية فإن العزم له وحده فإذا عزم فاعلم أن العزم لهدف ومن وراء الهدف حكمة. وقد يعكف البعض على أرضية المشاورة ويعتقدون أنه ما دام الرسول كان يشاورهم فإن لكلمتهم الخلود. وفاتهم أن الخلود يمكن في دائرة العزم وحدها ومن تعدى هذه الدائرة فلا يؤمن عليه من الفتن قال تعالى: (وشاورهم في الأمر فإذا عزم فتوكل على الله)، فهكذا أشركهم سبحانه في المشاورة ووجد رسول الله في العزم. ولقد عزم الرسول أن لا يولي هذا العمل أحدا سألته ولا أحد أحرص عليه.

٤ - صراع خارج السقيفة.

روى الزبير بن بكار في كتابه: "الموفقيات والزبير" - قال فيه الذهبي: إمام ثقة من أوعية العلم (٢) - لما بويح أبو بكر أقبلت الجماعة التي بايعته تزفه زفا إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣)، وروى الإمام البخاري عن أنس أنه بعد بيعة أبو بكر سمع عمر يقول لأبي بكر يومئذ اصعد المنبر فلم يزل به حتى صعد المنبر فبايعه الناس عامة وكان قبل ذلك قد بايعته طائفة من

(١) رواه مسلم باب الإمارة (الصحيح ٦ / ٦).

(٢) ميزان الاعتدال ٦٦ / ٢.

(٣) ابن أبي الحديد عن كتاب الموفقيات ٢٧٢ / ٢.

السقيفة (١)، وروى الزبير بن بكار أنه لما كان من الغد قام أبو بكر فخطب الناس وقال: أيها الناس إني وليت أمركم ولست بخيركم فإذا أحسنت فأعينوني وإذا أسأت فقوموني إن لي شيطانا يعتريني فأياكم وإياي إذا غضبت... " (٢). وقال الزبير بن بكار: وكان عامة المهاجرين وجل الأنصار لا يشكون أن عليا هو صاحب الأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأن الفضل بن العباس قال: يا معشر قريش وخصوصا يا بني تيم إنكم إنما أخذتم الخلافة بالنبوة ونحن أهلها دونكم ولو طلبنا هذا الأمر الذي نحن أهله لكانت كراهة الناس لنا أعظم من كراهتهم لغيرنا حسدا منهم لنا وحقدا علينا وإنا لنعلم أن عند صاحبنا عهدا هو ينتهي إليه (٣)، وقد ذكر الإمام علي (٤) إنه كان معهود إليه أن لا ينازع في الأمر ولا يثير فتنة بل يطلبه برفق فإن حصل له وإلا أمسك وذلك لأن الحجة قد قامت والامتحان قد بدأ ولا إكراه في الدين. وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري في كتاب السقيفة: بعد بيعة أبو بكر ذهب عمر بن الخطاب ومعه عصا به إلى بيت فاطمة منهم أسيد بن حضير فقال لهم: انطلقوا فبايعوا فأبوا عليه وروى الطبري أن عمر قال: والله لأحرقن عليكم أو لتخرجن إلى البيعة. فخرج عليه الزبير بسيفه (٥) فقال عمر: عليكم الكلب، فوثب عليه سلمة بن أسلم وأخذ السيف من يده فضرب به الجدار، ثم انطلقوا بن وبعلي ومعهما بنو هاشم وعلي يقول: أنا عبد الله! وأخو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم!

وروى صاحب كتاب السقيفة: وعندما انتهوا بعلي إلى أبي بكر فقبل له: بايع فقال: أنا أحق بهذا الأمر منكم لا أبايكم وأنتم أولى بالبيعة لي. أخذتم

(١) البخاري (الصحيح ٢٤٨ / ٤) ك الأحكام.

(٢) ابن أبي الحديد ٢٧٣ / ٢.

(٣) ابن أبي الحديد ٢٧٣ / ٢.

(٤) سنين ذلك في حينه.

(٥) الطبري ١٩٨ / ٣.

هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليهم بالقرابة من رسول الله فأعطوكم المقادة وسلموا إليكم بالإمارة. وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار فانصفونا إن كنتم تخافون الله من أنفسكم واعرفوا لنا من الأمر مثل ما عرفت الأنصار لكم وإلا فبؤوا بالظلم وأنتم تعلمون. فقال عمر: إنك لست متروكا حتى تبائع، فقال له علي: احلب يا عمر حلبا لك شطره! اشدد له اليوم أمره ليرد عليك غدا!! ألا والله لا أقبل قولك ولا أبايعه، فقال له أبو بكر: فإن لم تباعني لم أكرهك، وقال أبو عبيدة: يا أبا الحسن أنك لحديث السن وهؤلاء مشيخة قریش قومك ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور. ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر وأشد احتمالا له واضطلعا به فسلم له هذا الأمر وأرض. فإنك إن تعش ويصل عمرك فأنت لهذا الأمر خليف وبه حقيق في فضلك وقرابتك وسابقتك وجهادك. فقال علي: يا معشر المهاجرين الله الله. لا تخرجوا سلطان محمد عن داره وبيته إلى بيوتكم ودوركم ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه. فوالله يا معشر المهاجرين لنحن - أهل البيت - أحق بهذا الأمر منكم. أما كان منا القارئ لكتاب الله الفقيه في دين الله العالم بالسنة المضطلع بأمر الرعية والله إنه لفينا فلا تتبعوا الهوى فتزدادوا من الحق بعدا وانصرف علي إلى منزله ولم يبايع (١).

الملاحظ هنا وخلال أحداث هذه الفترة فيما وصل إلينا أن الإمام عليا لم يحتج على قریش بالنص. ويمكن فهم السبب بخلفية أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أراد خلال الأيام القليلة السابقة لهذه الأحداث أن يكتب لهم نصا ولكنهم حالوا بينه وبين ذلك. إشفاقا عليه وإشفاقا على أنفسهم من أن يكتب لهم ما يعجزون عنه فتكون العقوبة أشد لكون الأمر مكتوب. فإذا كان القوم قد صادروا النص المكتوب لأن عقوبته أشد فإنه لا يستبعد أن يصادروا النص المسموع. والإمام لوح بالنص في مواطن عديدة. فقوله لهم: " لنحن أهل البيت أحق بهذا الأمر منكم "، فتح دائرة حق من أراد أن يناقشها ناقشه والحق لا يخفى ثم قوله:

(١) ابن أبي الحديد ٢٦٦ / ٢.

" والله إنه لفينا فلا تتبعوا الهوس " كشف دائرة الهوى وهي أيضا مفتوحة للمناقشة.

وروى البيهقي بسند صحيح أن أبا بكر حين استخلف قعد في بيته حزينا فدخل عليه عمر بن الخطاب فأقبل أبو بكر عليه يلومه وقال: أنت كلفتني هذا الأمر! وشكا إليه الحكم بين الناس. فقال عمر: أو ما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الوالي إذا اجتهد فأصاب فله أجران وإن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد. فكأنه سهل على أبي بكر. (١)

٥ - هتاف الأنصار:

بعد أن تزعم سعد بن عبادة جماعة من الأنصار ودعا إلى نفسه. قال الزبير بن بكار: أفسد حاله رجلا من الأنصار وهما عويم بن ساعدة ومعن بن عدي (٢) وهما عيون المهاجرين على الأنصار. وذكر المدائني والواقدي: كان معن بن عدي يسوق أبا بكر وعمر سوقا عنيفا إلى السقيفة مبادرة إلى الأمر قبل فواته (٣). وانتهى الأمر إلى مبايعة أبي بكر وأول من بايعه عمر ثم بشير بن سعد ثم أسيد بن حضير ثم أبو عبيدة بن الجراح ثم سالم مولى أبي حذيفة. والذين أنكروا بيعه أبي بكر: خالد بن سعيد بن العاص. وسلمان وأبو ذر والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر وبريدة الأسلمي وأبو الهيثم بن التيهان وسهل وعثمان ابنا حنيف وخزيمة بن ثابت وأبي بن كعب وأبو أيوب الأنصاري.

وروى الزبير بن بكار وقال الذهبي الزبير بن بكار إمام ثقة من أوعية العلم - عن إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: لما بويع أبو بكر واستقر أمره. ندم قوم كثير من الأنصار على بيعته ولام بعضهم بعضا وذكروا عليا وهتفوا بإسمه وإنه في داره لم يخرج إليهم وجزع لذلك المهاجرون وكثر في

(١) رواه البيهقي وابن رهوة وخيشمة (كنز العمال ٦٣٠ / ٥).

(٢) ابن أبي الحديد ٢٧٥ / ٢.

(٣) قدمنا الحديث بطوله فيما سبق ورواه الترمذي وصححه وابن جرير وصححه والضياء

بسند صحيح (كنز ١١٥، ١٧٣ / ١٣) (جامع الترمذي ٦٣٤ / ٥).

ذلك الكلام وكان أشد قريش على الأنصار نفر فيهم وهم: سهل بن عمرو والحارث بن هشام وعكرمة بن أبي جهل. وهؤلاء أشراف قريش الذين حاربوا النبي ثم دخلوا في الإسلام وكلهم موتور قد وتره الأنصار. فلما اعتزلت الأنصار. تجمع هؤلاء. فقام سهيل بن عمرو فقال: يا معشر قريش إن هؤلاء القوم قد سماهم الله الأنصار. وأثنى عليهم القرآن فلهم بذلك حظ عظيم وشأن غالب. وقد دعوا إلى أنفسهم وإلى علي بن أبي طالب. وعلي في بيته لو شاء لردهم! فادعوه إلى صاحبكم وإلى تجديد بيعته فإن أجابوكم وإلا فاقتلوهم. فوالله أني لأرجو الله أن ينصركم عليهم كما نصرتم بهم.

وقال الحارث: فإنه قد لهجوا بأمر إن ثبتوا عليه. فإنهم قد خرجوا مما وسموا به وليس بيننا وبينهم معاتبة إلا السيف... وقال عكرمة: إن الذي هم فيه من فلتات الأمور ونزغات الشيطان. وما لا يبلغه المنى ولا يحمله الأمل اعذروا إلى القوم فإن أبوا فقاتلوهم.

الملاحظ أن مقدمة القوم هنا هو سهل بن عمرو. وهو بالذات يحفظ في ذاكرته قول النبي يوم الحديبية والذي أنذرهم فيه بمعركة يدخرها الغيب لهم عقوبة على ما في قلوبهم، ففي الحديث الصحيح عن ربعي عن علي قال: لما كان يوم الحديبية خرج ناس من المشركين فيهم سهيل بن عمرو - إلى أن قال - فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا معشر قريش لتنتهين أو ليعثن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين قد امتحن الله قلبه على الإيمان. قالوا: من هو يا رسول الله؟ وقال أبو بكر: من هو يا رسول الله. وقال عمر: من هو يا رسول الله قال: هو خاصف النعل - وكان قد أعطى عليا نعله يخصصها.

لهذا لا يستغرب خوف سهيل بن هتاف الأنصار بعلي. وقوله: "وعلي في بيته لو شاء لردهم" يبين مدى جزعه. ولا يستغرب منه أن يطالب بتحديد دعوة الأنصار لأبي بكر فإن أجابوا فهو الأمان. وإلا فقتلهم أولى. وعلى ضوء هذا كله يمكن أن نفهم لماذا لم يخرج علي بن أبي طالب بأي وسيلة مطالباً بالأمر. فالسكوت كان لقلة الأتباع وظهور سهيل بن عمرو وطابوره. وهم الذين أخرجوا

الرسول من قبل فكيف بعلي! ثم علينا أن نأخذ عدة خطوات للإمام ونقول. ماذا حدث عندما أظهر الإمام نفسه وبويع بالخلافة؟ لقد اشتعل التراب نارا مع العلم إن هذا الاشتعال كان بعد وفاة النبي بربع قرن تقريبا فما بالك لو كان هذا الاشتعال بعد وفاة النبي بيوم واحد.

ذكر الزبير بن بكار أن عمرو بن العاص قدم من سفر كان فيه. وعندما علم بالأحداث وما كان من يوم السقيفة وما تلى ذلك أدلى بدلوه وقال: لقد قاتلنا الأنصار بالأمس فغلبونا على البدء ولو قاتلناهم اليوم لغلبناهم على العاقبة، فلما بلغ الأنصار مقالته قال شاعر الأنصار النعمان بن العجلان فيه شعرا (١)، فلما انتهى شعر النعمان وكلامه إلى قريش غضب كثير منهم. وفي هذا الوقت قدم خالد بن سعيد العاص من اليمن. وكان له ولأخيه أثر قديم عظيم في الإسلام. ولهما عبادة وفضل. فغضب للأنصار وشتهم عمرو ابن العاص وقال: يا معشر قريش إن عمرا دخل في الإسلام حين لم يجد بدا من الدخول فيه. فلما لم يستطيع أن يكيده بيده كاده بلسانه وإن من كيده الإسلام تفريقه وقطعه بين المهاجرين والأنصار، والله ما حاربناهم للدين ولا للدنيا. لقد بذلوا دماءهم لله تعالى فينا وما بذلنا دماءنا لله فيهم وقاسمونا ديارهم وأموالهم وما فعلنا مثل ذلك بهم وآثرونا على الفقر وحرمانهم على الغني ولقد وصى رسول الله بهم وعزاهم عن جفوة السلطان فأعوذ بالله أن أكون وإياكم الخلف المضيع والسلطان الجاني (٢).

وخالد بن سعيد بن العاص هو الذي امتنع عن بيعة أبي بكر وقال: لا أبايع إلا عليا. وروى الزبير بن بكار: أن رجلا من سفهاء قريش ومثيري الفتن منهم اجتمعوا إلى عمرو بن العاص فقالوا له: إنك لسان قريش ورجلها في الجاهلية والإسلام فلا تدع الأنصار، وما قالت. فراح إلى المسجد وفيه ناس من قريش وغيرهم فتكلم وقال: إن الأنصار ترى لنفسها ما ليس لها. وأيم الله لو ددت

(١) من أراد أن يقف على الشعر فليراجع ابن أبي الحديد ٢٨٠ / ٢.

(٢) ابن أبي الحديد ٢٨١ / ٢.

أن الله خلى عنا وعنهم وقضى فيهم وفينا بما أحب. ولنحن الذين أفسدنا على أنفسنا أحرزناهم عن كل مكروه وقدمناهم إلى كل محبوب حتى آمنوا المخوف فلما جاز لهم ذلك صغروا حقنا ولم يراعوا ما أعظمنا من حقوقهم... فقال له الفضل بن العباس بن عبد المطلب: يا عمرو إنه ليس لنا أن نكتم ما سمعنا منك. وليس لنا أن نجيبك وأبو الحسن شاهد بالمدينة إلا أن يأمرنا فنفعل. ثم رجع الفضل إلى علي فحدثه فغضب وشم عمرًا وقال: آذى الله ورسوله. ثم قام فأتى المسجد فاجتمع إليه كثير من قريش وتكلم مغضبا فقال: يا معشر قريش إن حب الأنصار إيمان وبغضهم نفاق. وقد قضوا ما عليهم وبقي ما عليكم (!)، واذكروا أن الله تعالى رغب لنبئكم عن مكة فنقله إلى المدينة. وكره له قريشا فنقله إلى الأنصار. ثم قدمنا عليهم دارهم فقاسمونا الأموال وكفونا العمل فصرنا منهم بين بذل الغنى وإيثار الفقر ثم حاربنا الناس فوقونا بأنفسهم وقد أنزل الله تعالى فيهم آية من القرآن جمع لهم فيها بين خمس نعم فقال: (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) (١)، ألا وإن عمرو بن العاص قد قام مقاما (آذى فيه الميت والحي. ساء به الواتر وسر به الموتور فاستحق من المستمع الجواب ومن الغائب المقت. وأنه من أحب الله ورسوله أحب الأنصار. فليكفف عمرو عنا نفسه. قال الزبير بن بكار: فمشت قريش عند ذلك إلى عمرو بن العاص فقالوا: أيها الرجل أما إذا غضبت علي فأكفف وقال علي للفضل: يا فضل أنصر الأنصار بلسانك ويدك فإنهم منك وإنك منهم. فقال الفضل:

قلت يا عمرو مقالا فاحشا* إن تعد يا عمرو والله فلك
 إنما الأنصار سيف قاطع* من تصبه ظبة السيف هلك
 وسيوف قاطع مضربها* وسهام الله في يوم الحلك
 نصروا الدين وآووا أهله* منزل رحب ورزق مشترك

(١) سورة الحشر: الآية ٩.

وإذا الحرب تلظت نارها * بركوا فيها إذا الموت برك
ودخل الفضل على علي بن أبي طالب فأسمعه شعره ففرح به. وأمره أن
يظهر شعره ويبعث به إلى الأنصار. فلما بلغ ذلك الأنصار بعثوا إلى حسان بن
ثابت فعرضوا عليه شعر الفضل. فقال: كيف أصنع بجوابه إن لم أتحر قوافيه
فضحني فرويدا حتى أقفو أثره في القوافي. فقال له خزيمة بن ثابت ذو
الشهادتين: اذكر عليا وآله يكفك عن كل شيء. فقال:
جزى الله عنا والجزاء بكفه * أبا حسن عنا ومن كأبي حسن
سبقت قریش بالذي أنت أهله * فصدرك مشروح. وقلبك ممتحن
تمنت رجال من قریش أغرة * مكانك. هيهات الهزال من السمن
وأنت من الإسلام في كل موطن * بمنزلة الدلو البطين من الرسن
غضبت لنا إذ قام عمرو بخطية * أمات بها التقوى وأحيا بها الإحن
فكنت المرجي من لؤي بن غالب * لما كان منهم. والذي كان لم يكن
حفظت رسول الله فينا وعهده * إليك. ومن أولى به منك من ومن
ألست أخاه في الهدى ووصيه * وأعلم منهم بالكتاب وبالسنن
فحقك ما دمت بنجد وشيخة * عظيم علينا ثم بعد على اليمن (١)
في هذا الشعر صرحت الأنصار بوصية النبي لعلي:
ألست أخاه في الهدى ووصيه * وأعلم منهم بالكتاب وبالسنن
ولقد قالوا هذا الشعر وهتفوا باسم علي. وهذا الأمر يقتضي من الباحث
أن يلتمس للأنصار الأعذار وأن ينظر إلى حركتهم من البدء إلى الانتهاء بمنظور
الفطرة والرسول الأكرم هو الذي أرشدنا إلى التماس الأعذار لهم. كان صلى الله
عليه وسلم يقول لهم: " اللهم أنتم من أحب الناس إلي " (٢)، وقال النبي
الأكرم: " أيها الناس فإن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في
الطعام فمن ولي منكم أمرا يضر فيه أحد أو ينفعه فليقبل من محسنهم ويتجاوز

(١) ابن أبي الحديد نقلا عن الزبير بن بكار ٢٨٣ / ٢.

(٢) البخاري (الصحيح ٣١٠ / ٢) ك بدء الخلق ب مناقب الأنصار.

عن مسيئهم" (١)، فمن هذا الشعر وهذا الهتاف الذي رواه الزبير بن بكار الإمام الثقة. يمكن القول أن الأنصار علموا بعد وفاة الرسول أن صفحة جديدة ستفتح لهم. قال لهم النبي: "إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني وموعدكم الحوض" (٢)، وكما علمنا من قبل أن الكتاب والعترة لا يفترقان حتى يردا على الحوض وإن عليا سيدفع المنافقين عنه. ولما كان الأنصار قد اشتركوا مع علي في أرضية واحدة حيث "لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق" فإن دعوة الرسول لهم أن يصبروا حتى يلقوه وموعدهم الحوض. تعني أنه يحثهم على التمسك بالأرضية التي وقفوا مع علي بن أبي طالب ولا يفارقوه. لأن هذه الأرضية بمثابة المقدمة لنتيجة ستظهر آثارها يوم القيامة.

لقد علم الأنصار أن هناك تحولات ستحدث. وأن أي مواجهة عسكرية ستكون خسارة فادحة للفائز فيها فضلا على أنها ستحدث في الإسلام فجوات الله وحده أعلم بها. لهذا فضل أغلب الأنصار الاعتزال وعلى رأسهم أبي بن كعب. أما سعد بن عباد ومن معه فقد حسبوها بطريقة أخرى. لقد أرادوا أن يواجهوا الأثرة التي ستحدث لهم بعد وفاة الرسول بالاحتماء في السلطة وذلك بمزاحمة المهاجرين فيها. لعلمهم أن المهاجرين يطالبون بما ليس لهم. بمعنى أن المهاجرين زاحموا على شيء هم ليسوا من أهله فلا مانع أن يزاحمهم الأنصار. وأي اتفاق مهما كان حجمه فسيدخل الأنصار به دائرة الأمان حتى يحدث الله بعد عسر يسرا. ولذا نجدهم في أول الأمر طالبوا بالقيادة لسعد بن عباد. ثم تشاوروا فيما بينهم ونزلوا درجة وقالوا منا أمير ومنكم أمير. واعتقد أنه لو تأخر النعمان بن بشير وأسيد بن حضير عن المبايعة برهة من الزمن لتوصل الأنصار إلى الحصول على موطن قدم يحقق لهم الحماية ويدخلهم في عملية التوازنات التي تشارك فيه أطراف عديدة.

والذي يؤيد ما ذهبنا إليه من أن حركة سعد بن عباد كان هدفها حقن دماء

(١) البخاري (الصحيح ٣١٢ / ٢).

(٢) البخاري (الصحيح ٣١١ / ٢) ورواه مسلم (الصحيح ١٥٢ / ٧).

الأنصار ولكن بالمناورة على السلطة أن شعراء المهاجرين إذا هاجموا سعد بن عبادة. حزن الأنصار كلهم في الوقت الذي يهتفون فيه باسم علي بن أبي طالب! وخروج علي بن أبي طالب وشتمه عمرو بن العاص سببه يرجع في الابتداء إلى شعر قاله عمرو في سعد والأنصار. من هذا قول عمرو كما روى الزبير بن بكار: عجبت لسعد وأصحابه * ولو لم يهيجوه لم يهيج رجاء الخزرج رجاء السراب * وقد يخلف المرء ما يرتجى فكان كمنح على كفه * بكف يقطعها أهوج

قال الزبير: فلما بلغ الأنصار مقالته بعثوا إليه لسانهم وشاعرهم النعمان بن عجلان... وتحدث إليه النعمان (١) ثم قال فيه شعرا جاء فيه: وقتلتم حرام نصب سعد ونصبكم * عتيق بن عثمان حلال أبا بكر وأهل أبو بكر لها خير قائم * وإن عليا كان أخلق بالأمر وكان هوانا في علي وإنه * لأهل لها يا عمرو من حيث لا تدري فذاك بعون الله يدعو إلى الهدى * وينهي عن الفحشاء والبغي والنكر وصى النبي المصطفى وابن عمه * وقاتل فرسان الضلالة والكفر (٢) فكما ترى شعر من عمرو بن العاص في سعد. انتهى إلى حيث انتهى.

وبعد السقيفة وقف الأنصار ومن حولهم أمثال سهيل بن عمرو وعكرمة ابن أبي جهل وعمرو بن العاص. وانتظم معهم في الطابور الوليد بن عقبة الذي قال عنه الزبير بن بكار: كان ييغض الأنصار لأنهم أسروا أباه يوم بدر وضربوا عنقه بين يدي رسول الله. وقال الوليد في الأنصار شعرا شتم فيه الأنصار (٣)، ودخل الأنصار دائرة الصبر. يقول الزبير: وأقبل حسان بن ثابت مغضبا من كلام الوليد بن عقبة وشعره. فدخل المسجد وقال: يا معشر قريش إن أعظم ذنبنا

(١) راجع الحديث في المطولات.

(٢) ابن أبي الحديد ٢٨٠ / ٢.

(٣) ابن أبي الحديد ٢٨٤ / ٢.

إليكم قتلنا كفاركم وحمائنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كنتم تنقمون منا حنة كانت بالأمس فقد كفى الله شرها. فما لنا وما لكم. والله ما يمنعنا من قتالكم الجبن. ولا من جوابكم العيبى. إنا لحي فعال ومقال. ولكننا قلنا: إنها حرب أولها عار وآخرها ذل فأغضينا عليها عيوننا. وسحبنا ذيولنا حتى نرى وتروا فإن قلتم قلنا وإن سكتكم سكتنا.

فلم يجبه أحد من قريش. ثم سكت كل من الفريقين عن صاحبه (١)، وظل الأنصار تحت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال لهم فيه: "إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا" (٢)، والذي قال النووي في شرحه: أي يستأثر عليكم ويفضل عليكم غيركم بغير حق (٣)، ظلوا على أرضية الصبر حتى كان زمن علي بن أبي طالب فبايعوه كلهم وحاربوا تحت رايته. وبعد وفاة علي وفي عصر يزيد بن معاوية جاء يوم الحرة وهو اليوم الذي بايعوا فيه ليزيد على أنهم عبيد.

٦ - الخلافة في قريش:

في سقيفة بني ساعدة لم يذكر فيها نص عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأن الأئمة من قريش والروايات الواردة في الجدل الذي دار بين المهاجرين وبين الأنصار ليس فيها إلا إلى أبي بكر وعمر بأن قريشا أهل النبي صلى الله عليه وسلم وعشيرته وأن العرب لا تطيع غير قريش. وقول أبي بكر لهم: إن هذا الأمر لا يصلح إلا لهذا الحي من قريش. ليس نصا مرويا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد يكون أبو بكر قد ذكر هذا بناء على نص سمعه من رسول الله فنقل لهم معناه. وفي أثناء المواجهة بين المهاجرين وبين الأنصار برز علي بسطح القول: "بأن الأئمة من قريش"، وكان أول من قال به عكرمة بن أبي جهل ثم أكده عمرو بن العاص عندما عاد من سفره ثم رواه بعد

(١) ابن أبي الحديد ٢٨٥ / ٢.

(٢) رواه البخاري (الصحيح ٣١١ / ٤) مسلم (الصحيح ١٥٢ / ٧).

ذلك معاوية بن أبي سفيان وغيره، وروى عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان " (١). وحديث الأئمة من قريش لا جدال في أنه حديث صحيح ولكن الكثير اختلف في تحديد معناه ومبناه. قال البعض: إن النسب ليس بشرط وأن الإمامة تصلح في القرشي وغير القرشي إذا كان سيجمعنا للشرائط المعتبرة. وقال البعض: إن القرشية شرط إذا وجد في قريش من يصلح للإمامة فإن لم يكن فيها من يصلح فليست القرشية شرط فيها. وقال البعض: إن النسب شرط فيها وأنها لا تصلح إلا في العرب خاصة ومن العرب فقريش خاصة. وقال في فتح الباري: وقال البعض لا تجوز إلا في بني أمية وعن بعضهم لا يجوز إلا في ولد عمر. وقال ابن حزم ولا حجة لأحد من هؤلاء الفرق. وبالعوض ضرار بن عمرو فقال: تولية غير القرشي أولى لأنه يكون أقل عشيرة فإذا عصى أمكن خلعه (٢) وقال البعض إنها في العباس وولده من بطون قريش كلها. وقال البعض الآخر: إنها في الفاطميين. وقال آخرون: تجوز في غير الفاطميين من ولد علي بن أبي طالب وهناك من جعلها في محمد بن الحنفية وولده، ومنهم من نقلها منه إلى ولد غيره. قال البعض: إنها سارية في ولد الحسين في أشخاص مخصوصين. وهذا الاختلاف ليس معناه أن النبي صلى الله عليه وسلم قد ترك أمته ولم يبين لهم وجه الصواب في هذه المسألة. لقد بين وساق الناس إلى الصراط المستقيم. ولكن السياسة كان لها أقوال وأفعال وإليها يعود كل اختلافات الأئمة. وعلى أي حال فكل فريق وكل طائفة لديه أصوله وحججه. ولأننا نبحت هنا في المواجهة بين المهاجرين وبين الأنصار يحتم علينا البحث أن نلقي الضوء على عنوان " الأئمة من قريش ".

ونحن أمام هذا العنوان يجوز لنا أن نسأل إذا كان الأئمة من قريش فما معنى قول عمر بن الخطاب: لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا

(١) رواه البخاري في مناقب قريش (الصحيح ٢٦٥ / /).

(٢) فتح الباري ١١٨ / ١٣.

لاستخلفته (١)، وما جعلتها شورى (٢)، وسالم لم يكن قرشياً وإنما كان من المؤيدين الأوائل للمهاجرين يوم السقيفة. وإذا كان الأئمة من قریش فأی قریش يعنيها الحديث؟ ومن المعروف من عبد مناف خرجت شجرة بني هاشم وشجرة بني عبد شمس حيث بني أمية وبني العاص وقال ابن حجر في فتح الباري: وقد وردت أحاديث في لعن الحكم والد مروان وما ولد أخرجها الطبراني وغيره وبعضها جيد (٣) فما معنى أن يكون على رقبة الأئمة أئمة ملعونين على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم. والذي ينظر في التاريخ نظرة المتدبر تجد معالم الفتن التي غرست في هذه العهود وإن كان يعلوها البريق والزخرف وكل أدوات التزيين. وهذه الفتن ما ترتب عليها من حركة تؤكد صحة هذه الأحاديث. فأی قریش التي تدخل تحت سقف "الأئمة من قریش" مع العلم أن قریشا كما ذكر المسعودي خمسة وعشرون بطنا (٤)، قد يقال: يدخل تحت هذا السقف من كان مستجمعا للشرائط المعتمدة. نقول: كيف؟ والأمة بها العديد من الدوائر التي هدفها الصد عن سبيل الله. وفيها أصحاب الخشوع الزائف والمنافق عليم اللسان والأئمة المضلين وجميع هؤلاء ورد فيهم أحاديث صحيحة. وغير هذا. هل يمكن للناس الوصول إلى من يتصف بالصفات الحميدة. وهل في وسعهم الاتحاد والاتفاق على اختياره وانتخابه؟ فإذا كانت الإجابة بنعم. فما معنى اختلاف الأمة في الإصابة. وهل القرشية شرط أو أن النسب ليس بشرط. وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن الأمة ليست متفقة في الرأي وإن لكل فرد أو قبيلة رأي يخالف الباقيين. ومن المعلوم أن أي اختلاف وأي افتراق لا بد وأن تدره حجة من الله. حتى إذا اختلفوا لم يكن لهم على الله حجة. بمعنى إن الله تعالى يرشدهم إلى الحق ويحيطهم علما بذلك. فإذا بغوا كان بغيتهم بعد العلم وبهذا لا يكون لهم على الله حجة.

(١) الطبري ٣٤ / ٥.

(٢) الإستبصار في معرفة الأنصار ص ٢٩٦.

(٣) فتح الباري ١١ / ١٣ كتاب الفتن.

(٤) مروج الذهب / المسعودي ٢٧٦ / ٢.

إن سقف الأئمة من قريش سقف واسع ولا يمكن تحديد من كان مستجمعا للشروط المعتمدة وفقا لمقاييس القلوب إلا بإرشاد من رسول الله صلى الله عليه وسلم. أما الاستجماع للشروط وفقا للصور والثياب واللون وبلاغة اللسان فهذه أمور أخرى. وليس معنى أن الأئمة من قريش أن القرشي يستحق الإمامة. كما أنه ليس المعنى إن الله كرم الإنسان إن كل إنسان سيدخل الجنة وينال رضا ربه جل وعلا. ومن الدليل أن القول بإمامة قريش قول واسع لا بد له من تحديده وخوف النبي صلى الله عليه وسلم على أمته من قريش نفسها فقال: " يهلك أمتي هذا الحي من قريش " (١)، وقال: " إن هلاك أمتي على يدي غلظة من قريش " (٢)، وطالب باعتزالهم فقال: " لو أن الناس اعتزلوهم " (٣)، إن التعريف الواسع يدفع إلى الفتن روى الإمام أحمد عن عمران بن حصين قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إني لا أخشى على قريش إلا نفسها قلت: وما هو؟ قال: أشحة سمرة أن طال بك عمر رأيته يفتنون الناس حتى يرى الناس بينهم كالغنم بين الحوضين مرة إلى هذا ومرة إلى هذا " (٤)، وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ولتحملنكم قريش على سنة فارس والروم ولتؤمنن عليكم اليهود والنصارى والمجوس " (٥). إن هذه حقائق. وعندما ترعرع الزرع في عهد بني أمية قال أبو برزة " إني أصبحت ساخطا على أحياء قريش " (٦)، فأى قريش؟ هل يمكن تفادي ما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه سيحدث بأن يختار الناس لأنفسهم؟ وما ذكره

-
- (١) رواه البخاري ك بدء الخلق ب علامات النبوة (الصحيح ٢٨٠ / ٢) مسلم ك الفتن (الصحيح ٤١ / ١٨) أحمد (الفتح الرباني ٣٩ / ٢٣).
- (٢) رواه البخاري (الصحيح ٢٨٠ / ٢) ك بدء الخلق ب علامات النبوة.
- (٣) البخاري (٢٨٠ / ٢) مسلم كتاب الفتن (٤١ / ١٨) أحمد (الفتح ٣٩ / ٢٣).
- (٤) رواه أحمد وقال الهيثمي رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات (الزوائد ٢٤٨ / ٥).
- (٥) رواه الطبراني (الزوائد ٢٣٦ / ٧).
- (٦) البخاري لا الأحكام (الصحيح ٢٣٠ / ٤) وأحمد والنسائي وابن ماجه والطبراني (الفتح الرباني ١٨٩ / ٢٣).

النبي الأعظم صلى الله عليه وآله في قريش قال مثله في مضر فعن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "إن هذا الحي من مضر لا تدع لله في الأرض عبدا صالحا إلا افتننته وأهلكته" (١)، وفي رواية: "إلا فتنوه أو قتلوه" (٢) مما سبق علمنا أن عنوان الأئمة من قريش عنوان واسع، ولكي نحدد المكان الخاص تحت السقف العام. فلا بد أن نحدد أولا: أين جانب الفخر في قريش؟ هل هو في قريش أم في عبد مناف أم في أولاده. أم أن جانب الفخر في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ روى أن عبد الله بن الزبير تفاخر يوما أمام ابن عباس، بأن أبيه حوارى رسول الله وأسماء بنت أبي بكر أمه وعمته خديجة سيدة نساء العالمين وأن عائشة أم المؤمنين حالته وأن صفية عمة رسول الله جدته. فقال ابن عباس: لقد ذكرت شرفا رفيعا. وإنك لم تذكر فخرا إلا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وأنا أولى بالفخر منك، لقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "ما افترقت فرقتان إلا كنت في خيرهما"، وقد فارقناك يا ابن الزبير من بعد قصي بن كلاب. أفنحن في فرقة الخير أم لا؟ إن قلت نعم خصمت وإن قلت لا. كفرت.. فالرسول صلى الله عليه وآله هو جانب الفخر في قريش وعنده يكون الشموخ وفيه يكون الطهر. ومكانة الرسول صلى الله عليه وآله منذ نور الله ذرية آدم مكانة رفيعة فلقد جعله الله في خير الفرق وخير القبائل وخير البيوت وخير النفوس. فعن وائلة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الله اصطفى من ولد إبراهيم وإسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة واصطفى من كنانة قريشا واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم" (٣)، لقد سار الفخر على امتداد التاريخ حتى استقر في المكان الذي يقف فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فمن أراد الفخر فلا يبحث في محطة قريش وإنما يبحث في المكان الذي استقر عنده.

(١) رواه أحمد وقال الهيثمي رواه أحمد والبخاري وأحد أسانيد أحمد وأحد أسانيد البزار رجاله رجال الصحيح (الفتح ٢٤٠ / ٢٣).

(٢) رواه أحمد (الفتح ٢٤٠ / ٢٣).

(٣) رواه مسلم ك الفضائل (الصحيح ٣٦ / ١٥) والترمذي وصححه (الجامع ٥٨٣ / ٥).

وبما أن بني هاشم بيوت وللرسول بيتا فيهم، تم تحديد دائرة في بني هاشم وفي هذه الدائرة يوجد الفخر. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله خل الخلق فجعلني في خيرهم فرقة. ثم جعلهم بيوتا فجعلني في خيرهم بيتا وخيرهم نفسا" (١). فالدائرة التي نقصدها هي دائرة النفس. أي الدائرة التي ترتبط بالروح أكثر من ارتباطها بالأرض. وترتبط بالهدف أكثر من ارتباطها بالقبائل. ومقام النفس له معالم وامتداد. وإذا أردنا أن نضع أيدينا عليه. فلنقرأ قوله تعالى: (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) (٢) ففي هذه الآية وردت أحاديث تلقىها الأمة بالقبول. وقال فيها العلماء قولاً واحداً هو: إن معنى (أنفسنا وأنفسكم)، رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب (وأبناءنا) الحسن والحسين (ونساءنا) فاطمة (٣) فالفخر بعد رسول الله ترى معالمه في دائرة النفس والمتدبر في قول النبي لعلي لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق يتبين ذلك بسهولة ويسر. ولقد قدمنا فيما سبق الأحاديث الصحيحة التي أخبر فيها النبي صلى الله عليه وسلم بأن علياً أصل شجرة الرسول. وإن أولاده هم عترة الرسول. وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كل بني آدم ينتمون إلى عصبة إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم" (٤)، وفي رواية: "إن لكل بني أب عصبة ينتمون إليها إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم وهم عترتي خلقتهم من طينتي ويل للمكذبين بفضلهم من أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله" (٥)، واستمرارية دائرة النفس وتفضيلها على غيرها جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "نحن خير من أبنائنا وبنونا خير من أبنائهم وأبناء بنينا خير من أبناء

(١) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٥٨٤ / ٥) وأحمد (الفتح الرباني ٢٦٦ / ٢١).

(٢) سورة آل عمران: الآية ٦١.

(٣) تفسير ابن كثير ٣٥١ / ١.

(٤) رواه الطبراني عن فاطمة (كنز العمال ١١٦ / ١٢).

(٥) رواه ابن عساكر والحاكم عن جابر (كنز ٩٨ / ١٢).

أبنائهم " (١)، وقوله: " نحن أهل البيت لا يقاس بنا أحد " (٢). ومهمة دائرة النفس هي سوق الناس إلى ربهم. ومن صفات أصحاب هذه الدائرة أنهم يقفون على أرضية الرسول. أرضية العبد الكريم. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: " إن الله جعلني عبدا كريما ولم يجعلني جبارا عنيدا " (٣)، وقال: " إنا بعثت رحمة ولم أبعث عذابا " (٤). ووفقا لما تقدم نقول: إن النبي صلى الله عليه وآله إذا ذم قريشا أو أمر باعتزالها. فإن المقصود بقريش. قريش التي لا يوجد فيها. وإذا أمر بالالتفاف حول قريش فليس معنى هذا أن نبحت عن نسل عبد مناف ونجري وراء أبناء عبد شمس حديث أمية وحرب وأبو سفيان وحيث العاص والحكم ومروان وامتداد طابورهما الطويل. أو نبحت في أصول العباس التي تنتهي عند الخليفة المستعصم وإنما علينا أن نبحت أين رسول الله صلى الله عليه وآله. وكما ذم النبي صلى الله عليه وآله قريشا ذم أيضا مضر. كما قدمنا وفي مقابل ذلك قال: " إذا اختلف الناس فالحق في مضر " (٥)، ولماذا يكون الحق في مضر؟ الإجابة: لأن للنبي قدم في مضر قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " إن جبريل أخبرني أنني رجل من مضر " (٦)، وإذا كان للرسول امتداد إلى مضر فإن هذا الامتداد ينتهي أيضا إلى أهل البيت. وفروع مضر كان يعلمها الأوائل وهم المخاطبون بهذا الحديث. والحكمة من وراء هذا جمع القبائل عند نقطة واحدة. وبيان أن الانتساب إلى القبائلية والشعوبية في الماضي الغابر لا جدوى من ورائه. فالإنسان لا قيمة له إلا الحق والالتفاف حول الحق. وبعد ذلك كله يمكن أن نفهم حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " الناس تبع لقريش صالحهم تبع لصالحهم "

-
- (١) رواه الطبراني عن معاذ (كنز ١٠٤ / ١٢).
 - (٢) رواه الديلمي (كنز ١٠٤ / ١٢).
 - (٣) رواه الترمذي (كنز ٤٢٦ / ١١).
 - (٤) رواه البخاري في التاريخ (كنز ٤٢٦ / ١١).
 - (٥) رواه ابن أبي شيبة والطبراني (كنز ٥٩ / ١٢).
 - (٦) ابن سعد (الطبقات ٥٩ / ٢).

وشرارهم تبع لشرارهم " (١)، ويمكن أن تفهم قوله: " يا أيها الناس لا تعلموا قريشا وتعلموا منها فإنهم أعلم منكم " (٢)، ألم تر فيما قدمنا إنهم كانوا يضربون كتاب الله ببعضه ببعض ويتأولونه في غير موضعه. فمن منهم الأعلم والراسخ في العلم؟ ويمكن أيضا أن نعلم موضع الإمامة في حديث مسلم الذي رواه جابر بن سمرة. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة " - وفي لفظ - لا يزال أمر الناس ماضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا - وفي لفظ - لا يزال الإسلام عزيزا إلى اثني عشر خليفة - وفي لفظ - لا يزال هذا الأمر عزيزا إلى اثني عشر خليفة "، ثم قال جابر بن سمرة بعد أن سمع ذلك من رسول الله: " ثم تكلم النبي بكلام خفي علي " - وفي لفظ - ثم قال كلمة لم أفهمها - وفي لفظ - ثم تكلم بشئ لم أفهمه قال جابر: " فقلت لأبي: ما قال؟ فقال: كلهم من قريش " (٣).

والخلاصة أن الإمامة تصيب الذين يعلمون الذين يهدون إلى الحق، قال تعالى: (أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي) (٤)، وإن القول بالأئمة من قريش قول فضفاض أريد به إخراج آل محمد من الإمامة. ثم إن هذا القول لم يظهر في السقيفة وإنما ظهر بعدها أثناء المواجهة بين المهاجرين وبين الأنصار. ومن العجيب أن الذي روج له في بداية الأمر عكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو ثم جاء من بعدهما عمرو بن العاص ومعاوية وغيرهما. ومن الأعجب أن الواحد في كتابه المسمى بأسباب النزول ذكر في قوله تعالى: (فقاتلوا أئمة الكفر)، إنها نزلت في سهيل بن عمرو وعكرمة وأبي سفيان، وروى عن الإمام علي وحذيفة: أن أهل هذه الآية لم يقاتلوا بعد. وكما علمنا أن

(١) رواه أحمد وقال في الفتح، قال الهيثمي رجاله ثقات (الفتح الرباني ٢٢٦ / ٢٤) ورواه

البخاري بلفظ آخر (الصحيح ٢٦٤ / ٢)، ومسلم (الصحيح ٦ / ٢ ط كتاب التحرير).

(٢) رواه ابن أبي عاصم (كتاب السنة ٦٣٦ / ٢) وقال في فتح الباري: أخرجه البيهقي

والطبراني والشافعي (فتح الباري ١١٨ / ١٣).

(٣) رواه مسلم كتاب الإمامة (الصحيح ٣ / ٦ ط كتاب التحرير).

(٤) سورة يونس: الآية ٣٥.

هؤلاء كانوا يعلمون من يوم الحديبية أن لهم يوما سيواجه طابورهم فيه خاصف
النعل وعلى هذا وذاك لا نستبعد أن يكون الحديث على هذه الصورة وكان عن
عمير.

(٣٠٨)

ثانيا - دائرة الرأي

بعد السقيفة فتحت أولى صفحات دائرة الرأي. وهي دائرة تقوم على الشهادتين وعلى احترام شعائر الدين. لكنها لا تعرف السلطة الدينية ولا تعترف بها ولا تحبذ الالتزام بالمثاليات الدينية والنواحي الإدارية والسياسية وكان همها الأكبر قوة الدولة واستقرارها... وذلك لأن الحكم في دائرة الرأي أساسه رضا الناس واختيارهم فالأمة عنده هي الأصل.

وكما بينا من قبل أن أحداث السقيفة - في رأينا - جاءت بعد أن تبين كبار الصحابة ما يحيط بالدعوة من مكائد وإن العرب لا تطيع عليا. ومن السقيفة خرج نظام الخلافة. والخلافة ليست نظاما إلهيا نبويا. فهي جاءت على قاعدة اختيار الصحابة. والاختيار ليس دينا بأي حال. ونحن إذا أخذنا خطوة إلى الإمام واستبقنا الأحداث نجد أن الخلافة تحولت فيما بعد إلى ملك وجبرية فإذا بحثنا عن الأسباب وجدنا أن كبار الصحابة الذي خافوا على الإسلام من أعدائه يوم السقيفة. أقاموا حصونهم على حدود من الرمال الناعمة. فلم تتمكن الحصون من التغلب على طبيعة الموروث العشائري عند العرب ولا عن الموروث الكيدي عند كفار أهل الكتاب وغيرهم. فبعد فترة تعاون الموروث العشائري مع الموروث الكيدي في مقاومة نظام الخلافة. قامت دوائر النفاق بالنخر في الجدار ثم بالإغارة عليه وفي النهاية تركاه صريعا تسفحه الرياح بعد أن انزلت حصونه المشيدة على حافة الرمال - وفي أعماق الشقوق رفعت أعلام

الملك والجبرية وحولها وقف علماءهم لإرساء قواعد الاستبداد. فقالوا بفصل الدين عن السياسة بحجة أن العمل السياسي ليس عملاً دينياً لكنه فعل بشري يحتمل الخطأ والصواب ويمكن نقضه أو نقده أو العدول عنه. وتحت هذه الحجة ارتكبت أفظع الجرائم في حق المسلمين ولم يستطع أحد أن ينقض أو ينقد لأن الفعل البشري تحت قبة الجبروت لا يمكن نقده أو العدول عنه. ونتيجة لهذا برزت مشكلة أساسية ألا وهي اجتزاء المسلمين على السلطة وخروجهم عليها باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تارة. وطمعا في الحكم تارة أخرى. لقد كانت البداية حصون على الرمال. وكانت الخاتمة شقوق ودهاليز تحت سطح الأرض. وبين هذا وذاك ترى الأحداث التي أدت إلى الخسف.

١ - من معالم الرأي:

إذا أردنا أن ننسب الرأي إلى أصوله فسنجد أن أهم أصوله عمر بن الخطاب. فقد كانت شخصيته من أبرز شخصيات الصحابة في هذا الباب يقول الدكتور عبد الحميدة متولي: لم يقتصر عمر فحسب على الاجتهاد أو استعمال الرأي حيث لا نص من كتاب أو سنة إنما ذهب إلى مدى أبعد من ذلك. إذ كان يعتمد إلى الاجتهاد أو بعبارة أخرى. استعمال الرأي لبحث عن وجهة العدالة أو المصلحة حتى رغم وجود نص من الكتاب أو السنة. فكان لذلك لا يفسر النص طبقاً لحرفيته. وإنما يفسره طبقاً لحكمته ولو أدى هذا التفسير إلى عدم تطبيق النص (١)، فمثلاً قال تعالى: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم)، لقد رأى عمر أن الحكمة التي أدت إلى تقريب ذلك الحكم الشرعي قد زالت. والأمثلة في هذا الباب كثيرة (٢)، وكثير من الصحابة كما ذكر الإمام محمد عبده " كانوا إذا رأوا المصلحة في شيء يحكمون به وإن خالف

(١) أزمة الفكر السياسي الإسلامي / د عبد الحميد متولي، تقديم الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر ص ١٢١.

(٢) سيأتي ذكر ذلك في موضعه.

السنة. كأنهم يرون أن الأصل هو الأخذ بما فيه المصلحة لا بجزئيات الأحكام وفروعها (١)، ويقول الشيخ عبد الوهاب خلاف: وكانوا إذا لم يجدوا نصا في القرآن والسنة يدل على حكم ما عرض لهم من الوقائع استنبطوا حكمه. وكانوا في اجتهادهم يعتمدون على ملكتهم التشريعية التي تكونت لهم من مشافهة الرسول، ووقوفهم على أسرار التشريع ومبادئه العامة. فتارة كانوا يقيسون ما لا نص فيه على ما فيه نص. وتارة كانوا يشرعون ما تقضي به المصلحة أو دفع المفسدة. ولم يتقيدوا بقيود في المصلحة الواجب مراعاتها. وبهذا كان اجتهادهم فيما لا نص فيه فسيحا مجاله وفيه متسع لحاجات الناس ومصالحهم (٢). كانت هذه بداية الرأي. فما هي محطة النهاية؟ يقول الشيخ عبد الوهاب خلاف: في عهد الصحابة لما تعدد رجال التشريع منهم وقع بينهم اختلاف في بعض الأحكام وصدرت عنهم في الواقعة الواحدة فتاوى مختلفة وإن هذا الاختلاف كان لا بد أن يقع بينهم لأن فهم المراد من النصوص يختلف باختلاف العقول ووجهات النظر ولأن السنة لم يكن علمهم بها وحفظهم لها على السواء وربما وقف بعضهم منها على ما لا يقف عليه الآخر لأن المصالح التي تستنبط لأجلها الأحكام يختلف تقديرها باختلاف البيئات التي يعيش فيها رجال التشريع. فلهذه الأسباب اختلفت فتاويهم وأحكامهم في بعض الوقائع والأقضية... ولما آلت السلطة التشريعية في القرن الثاني الهجري إلى طبقة الأئمة المجتهدين اتسعت مسافة الخلاف بين رجال التشريع ولم تقف أسباب اختلافهم عند الأسباب الثلاثة التي بنى عليها اختلاف الصحابة بل جاوزتها إلى أسباب تتصل بمصادر التشريع وبالنزعة التشريعية وبالمبادئ اللغوية التي تطبق في فهم النصوص. وبهذا لم يكن اختلافهم في الفتاوى والفروع فقط بل كان اختلاف أيضا في أسس التشريع وخططه وصار لكل فريق منهم مذهب خاص يتكون من أحكام فرعية استنبطت بخطة تشريعية

(١) المنار / محمد رشيد رضا ٣١٠ / ٤.

(٢) خلاصة تاريخ التشريع الإسلامي / خلاف ص ٤٠.

خاصة (١)... ثم جاء عهد التقليد الذي بدأ من منتصف القرن الرابع الهجري بالتقريب. حين طرأت على المسلمين عدة عوامل سياسية وعقلية وخلقية واجتماعية أثرت في كل مظهر من مظاهر نهوضهم وأحالت نشاطهم التشريعي إلى فتور ووقفت حركة الاجتهاد والتقنين وأماتت في العلماء روح الاستقلال الفكري فلم يردوا المعين الذي لا ينضب ماؤه وهو القرآن والسنة بل راضوا أنفسهم على التقليد ورضوا أن يكونوا عالة على فقه الأئمة السابقين أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وأقرانهم. وحصروا عقولهم في دوائر محدودة من فروع مذاهب هؤلاء الأئمة وأصولها وحرّموا على أنفسهم أن يخرجوا عن حدودها وبذلوا جهودهم في ألفاظ أئمتهم وعباراتهم لا في نصوص الشارع ومبادئ العامة. وبلغ من كونهم إلى أقوال أئمتهم أن قال أبو الحسن الكرخي من علماء الحنفية: ككل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ"، ثم يقول الشيخ خلاف عن أسباب وقوف حركة الاجتهاد: أهم العوامل التي أدت إلى هذا الوقوف والتزام تقليد السابقين أربعة:

أولا - انقسام الدولة الإسلامية إلى عدة ممالك يتناحر ملوكها وولاياتها وأفرادها. فهذا الانقسام شغل ولاية الأمور بالحروب والفتن واتقاء المكائد وتدابير وسائل القهر والغلبة وشغل الناس معهم فذب الانحلال العام وكان لهذا الانحلال أثره في وقوف حركة التشريع.

ثانيا - أنه لما انقسم الأئمة المجتهدون في العهد الثالث إلى أحزاب وصار لكل حزب مدرسة تشريعية بها نزعتها وخطتها. عني تلاميذ كل مدرسة أو أعضاء كل حزب بالانتصار لمذهبهم وتأييد أصوله وفروعه بكل الوسائل والإشادة بزعمائهم ورؤسائهم. فانشغل علماء المذاهب بهذه الأمور وانصرفوا عن الأساس التشريعي الأول وهو القرآن والسنة. وبهذا فنيت شخصية العالم في حزبيته. وصار الخاصة كالعامّة أتباعا مقلدين.

(١) المصدر السابق ٧٢.

ثالثا - أنه لما أهمل المسلمون تنظيم السلطة التشريعية ولم يضعوا نظاما كفيلا بأن لا يجترأ على الاجتهاد إلا من هو أهل دبت الفوضى في التشريع والاجتهاد وادعى الاجتهاد من ليس أهلا له وتصدى لإفتاء المسلمين جهال عبثوا بنصوص الشريعة وبحقوق الناس ومصالحهم. وبهذا تعددت الفتاوى وتباينت وتبع هذا تعدد الأحكام في الأقضية حتى كان القضاء يختلف في الحادث الواحد في البلد الواحد فتستحل دماء وأموال في ناحية من نواحي المدينة وتستباح في ناحية أخرى منها وكل ذلك نافذ في المسلمين وكله يعتبر من أحكام الشريعة. فلما فزع من هؤلاء العلماء حكموا في أواخر القرن الرابع بسد باب الاجتهاد وتقيد المفتين والقضاة بأحكام الأئمة السابقين فعالجوا الفوضى بالجمود. رابعا - إن العلماء فشوا بينهم أمراض خلقية حالت بينهم وبين السمو إلى مرتبة الاجتهاد فلقد فشا بينهم التحاسد والأنانية... فماتت روح النبوغ. وضعفت ثقة العلماء بأنفسهم وثقة الناس بهم فولوا وجههم مذاهب الأئمة السابقين (١).

لقد كانت البداية البحث عن المصلحة. فجاء الخلاف وانقسام الدولة الإسلامية وتناحر ملوكها وولاتها. ثم تجرأ على الفتوى اتباع الدوائر المختلفة الذين عبثوا بنصوص الشريعة وبحقوق الناس ومصالحهم وضرب التحاسد والأنانية وجوه العديد من العلماء. وعندما جف الوقود الذي يدفع بأصحابه نحو المستقبل ولوا وجوههم نحو الخلف حيث مذاهب السابقين. وإذا كان الأوائل قد اختلفوا في الفتوى نظرا لاختلاف البيئة. فإن الاختلاف من بعدهم أوسع لأن البيئة الواحدة تمزقت إلى ألف بيئة ومعطيات العصر ألقت بآلاف المسائل، فبماذا يجدي النظر إلى الخلف لحل مشكلات الحاضر؟ ألا يفتح ذلك الباب للدخول في سنين الأولين. وخصوصا أن عندهم من المصالح ما لا يخفى على أحد وما يغري العامة والخاصة على تقليدهم واتباعهم شبرا بشبر وذراعا بذراع.

(١) المصدر السابق ص ٩٦ - ٩٩.

والخلاصة: أن البحث عن المصلحة مطلب فطري. ولكن كلما كان الباحث عن المصلحة لا مصلحة له فيما يبحث - بمعنى أن يكون لا مطمع له في مال أو جاه أو غير ذلك نظير فتواه - أصابت فتواه دائرة الفطرة. وأيضا كلما كان الباحث عن المصلحة عالما بالكتاب الذي لا يمسه إلا المطهرون وبالسنة التي يشهد لها الكتاب. ساقى فتواه الناس إلى صراط الله الذي لا اختلاف فيه. فإذا لم يتوفر الطهر والعلم والعدل في الباحث عن مصالح الناس. كان الناس من سنن الأولين أقرب.

٢ - نظرات على فذك:

فذك قرية تبع عن المدينة مسافة يومين أو ثلاثة. أرضها زراعية خصبة. فيها عين فوارة ونخيل كثيرة (١) يقدر نخيلها بنخيل الكوفة في القرن السادس الهجري (٢)، وكان جماعة من اليهود يسكنون فذك ويستثمرونها حتى السنة السابعة للهجرة. فلما حارب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يهود خيبر لنقضهم العهد بينهم وبين رسول الله وفتح حصونهم وبقي حصنان أو ثلاثة منها لم تفتح حاصرهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. فلما اشتد بهم الحصار راسل أهلها رسول الله على أن يؤمنهم على حياتهم وينزلوا له عن حصونهم وأرضهم. فقبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعرضهم هذا. وما حدث يوم خيبر أربأ أهل فذك. ولكن اتفاقية أهل الحصون المحاصرة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتحت أمام أهل فذك بابا للأمل. فلما جاءهم رسول النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدعوهم إلى الإسلام أبوا أن يسلموا ولكنهم استعدوا أن يقدموا نصف أرضهم للنبي مع الاحتفاظ لأنفسهم بالنصف الآخر على أن يعملوا في أرضهم وأرض رسول الله. ومتى شاء النبي أن يجلبهم عن أرضهم فعل شريطة أن يعرضهم عن أتعابهم وأرضهم فصارت فذك ملكا لرسول الله بنص القرآن الكريم

(١) معجم البلدان للحموي مادة فذك.

(٢) ابن أبي الحديد ١٦ / ٢٣٦ - ط الحلبي.

(وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير) (١)، قال المفسرون: كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب كأموال بني النضير هذه فإنها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب. أي لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة بل نزل أولئك من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم من هيبة رسول الله صلى الله عليه وآله. فأفأه الله على رسوله. أي خصه به وملكه وحده إياه يتصرف فيه كما يشاء. فلما نزل قوله تعالى: (وآت ذا القربى حقه) (٢)، أعطى النبي صلى الله عليه وآله فداكا لفاطمة. روى أبو سعيد الخدري أنه لما نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وآله أعطى فاطمة فداكا وسلمه إليها (٣) وبقي الأمر هكذا حتى توفي النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وضعت الدولة اليد على فداك وانتزعتها من يد الزهراء، ومن هنا بدأ نزاع فاطمة رضي الله عنها وبين أبي بكر، روى البخاري عن عائشة أن فاطمة سألت أبا بكر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يقسم لها ميراثها مما ترك رسول الله مما أفاء الله عليه. فقال لها أبو بكر: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال، لا نورث ما تركناه صدقة. فغضبت فاطمة فهجرت أبا بكر فلم نزل مهاجرة حتى توفيت. وعاشت بعد رسول الله ستة أشهر. وكانت فاطمة تسأل أبا بكر نصيبها مما ترك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من خير وفداك وصدقته بالمدينة فأبى أبو بكر عليها ذلك....

وروي أن عليا عندما سمع قول أبي بكر بأن الرسول قال: لا نورث وما

(١) سورة الحشر: الآية ٦.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٢٦ والآيات ٢٦، ٣٢، ٣٣، ٥٧، ومن الآية ٧٣، إلى الآية ٨١ مدنية.

(٣) رواه البزار وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد (الدر المنثور ١٧٧ / ٤) (الزوائد ٤٩ / ٧) (كنز العمال) وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس (الدر المنثور ١٧٧ / ٤).

تركناه صدقة، قال علي: ورث سليمان داوود وقال زكريا: (يرثني ويرث من آل يعقوب...) هذا كتاب الله ينطق. وروى أن فاطمة نازعت في سهم ذي القربى الذي نص القرآن عليه. وكانت الدولة قد وضعت يدها عليه. روى الإمام أحمد لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلت فاطمة إلى أبي بكر: أنت ورثت رسول الله صلى الله عليه وسلم أم أهله؟ فقال: لا بل أهله، قالت: فأين سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟، فقال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله عز وجل إذا أطعم نبيا طعمة ثم قبضه الله جعله للذي يقوم من بعده فرأيت أن أردّه على المسلمين" (١)، وفي رواية عند ابن سعد قالت: فسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جعله لنا وصافيتنا التي بيدك، فقال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول: إنما هي طعمة أطعمنيها الله فإذا مت كانت بيد المسلمين" (٢)، وإذا كان من العجيب أن يترك النبي صلى الله عليه وسلم عترته دون أن يبين لهم حقيقة ميراثه فإن الأعجب أنه

لم يبين لنسائه أيضا. روى البخاري عن عائشة قالت: أرسل أزواج النبي صلى الله عليه وآله عثمان إلى أبي بكر يسألنه ثمنهن مما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم. قالت عائشة: فكنت أنا أردهن فقلت لهن: ألا تتقين الله. ألم تعلمن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا نورث وما تركناه صدقة فانتهمن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما أخبرتهن" (٣). مما سبق نرى أن الزهراء طالبت بنحلتها وبالإرث وبسهم ذي القربى - ولكن أبا بكر أبي عليها وتوفيت رضي الله عنها بعد وفاة النبي بستة أشهر. وفي عهد عمر بن الخطاب. ذهب علي والعباس ينازعان في الميراث وكان في مجلس عمر يومئذ عثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير وسعد. فقال لهم عمر: أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا نورث ما تركناه صدقة"،

(١) رواه أحمد وإسناده صحيح (الفتح ٦٣ / ٢٣).

(٢) الطبقات الكبرى (٣١٤ / ٢).

(٣) البخاري ك المغازي ب حديث ابن النضير (١٧ / ٣) ومسلم (١٥٣ / ٥) ط دار التحرير.

قالوا: نعم، قال عمر: إن الله جل وعز كان خص رسوله بخاصة لم يخصص بها أحدا غيره قال: " ما أفاء الله علي رسوله من أهل القرى فلله وللرسول "، فقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أموال بني النضير فوالله ما استأثر عليكم ولا أخذها دونكم حتى بقي هذا المال فكان رسول الله يأخذ منه نفقة سنة ثم يجعل ما بقي أسوة المال. أتعلمون ذلك؟ قالوا: نعم. ثم نشد عباسا وعليا بمثل ما نشد به القوم. أتعلمان ذلك؟ قالوا: نعم، قال: فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال

أبو بكر: أنا ولي رسول الله صلى الله عليه وسلم. فجئت تطلب ميراثك من ابن أخيك ويطلب هذا

ميراث امرأته من أبيها. فقال أبو بكر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نورث ما تركناه صدقة. فرأيتماه كاذبا آثما غادرا خائنا والله يعلم أنه لصادق بار راشد تابع للحق. ثم توفي أبو بكر. وأنا ولي رسول الله صلى الله عليه وسلم وولي أبي بكر فرأيتماني كاذب آثما غادرا خائنا. والله يعلم أنني لصادق بار راشد تابع للحق فوليتها، ثم جئتنني أنت وهذا وأنتما جميع وأمركما واحد فقلتما ادفعا إلينا (١).

ولنا تعليق على هذه الروايات وفي البداية نقول: إن حديث " لا نورث " لم يرويه إلا أبو بكر وحده. ذكر ذلك أعظم المحدثين حتى أن الفقهاء في أصول الفقه أطبقوا على ذلك في احتجاجهم في الخبر برواية الصحابي الواحد. وفي الحديث السابق استشهد عمر وعبد الرحمن بن عوف والزبير وسعدا فقالوا: سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأين كانت هذه الروايات أيام أبي بكر. ما نقل أن أحدا من هؤلاء يوم خصومة الزهراء وأبي بكر روى من هذا شيئا.

وفي الحديث السابق أيضا جاء علي والعباس إلى عمر يطلبان الميراث. وقد كان أبو بكر قد حسم هذا كله في عهد وقرر أمام أزواج النبي وأمام علي والعباس وفاطمة وعمر حيث كان من المساعدين له. أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يورث. فكيف يعود العباس وعلي بعد وفاة أبي بكر يحاولان أمرا قد

(١) مسلم (١٥٢ / ٥) ط دار التحرير في البخاري (١٧ / ٣).

فرغ منه. اللهم إلا أن يكونا ظنا أن عمر ينقض قضاء أبو بكر في هذه المسألة. وهذا بعيد لأن عليا والعباس كانا في هذه المسألة يتهمان عمر بممالة أبي بكر على ذلك. ألا تراه يصرح بأنهما نسباه إلى الكذب والغدر والخيانة فكيف يظنان أنه ينقض قضاء أبي بكر؟!

ثم إن قول عمر لعلي والعباس عن أبي بكر: فرأيتماه كاذبا آثما غادرا خائنا. ثم قال لما ذكر نفسه: فرأيتماني كاذبا آثما غادرا خائنا. فإذا كانا يزعمان ذلك. فكيف يزعم هذا الزعم مع كونهما يعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لا أوث " قال ابن أبي الحديد: إن هذا لمن أعجب العجائب ولولا أن هذا الحديث مذكور في الصحاح المجمع عليها لما أطلت العجب من مضمونه. إذ لو كان غير مذكور في الصحاح لكان بعض ما ذكرناه يطعن في صحته. وإنما الحديث في الصحاح لا ريب في ذلك.

وورد أيضا أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أرسلوا عثمان إلى أبي بكر يسألنه ثمنهن. ولقد ذكرنا الرواية في ذلك.. ثم وجدنا عثمان في مجلس عمر بعد ذلك وعمر يقول: أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا نورث ما تركناه صدقة. قالوا: نعم، ومن جملة الذين أجابوا عثمان. فكيف يعلم بذلك فيكون مترسلا لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسأله أن يعطيهم الميراث. وروى أيضا أن عمر قال لعلي والعباس: أتعلمون ذلك؟ قالوا: نعم. فإذا كانا يعلمانه فكيف جاء العباس وفاطمة إلى أبي بكر يطلبان الميراث على ما ذكر. وهل يجوز أن يقال: كان العباس يعلم ذلك ثم يطلب الإرث الذي لا يستحقه؟ وهل يجوز أن يقال: أن عليا كان يعلم ذلك ويمكن زوجته أن تطلب ما لا تستحقه. خرجت من دارها إلى المسجد ونازعت أبا بكر وكلمته بما كلمته إلا بقوله وإذنه ورأيه (١).

وإذا تم التسليم بأن النبي لا يورث. فكيف نسلم بأن النبي صلى الله عليه

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٠.

وسلم وهو الذي أنزل عليه قوله تعالى: (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين) (١)، وقوله: (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين)، إلى قوله تعالى: (تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنة تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم)* ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين) (٢)، والآيات هنا عامة يدخل فيها النبي صلى الله عليه وسلم وغيره. بدليل أن الآية لم تستثن أحدا. كيف نسلم بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكتب وصيته ويقول فيها: "لا نورث". وكيف يبين النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحكم لغير الأقربين ويكتمه عن الأقربين وهم ورثته. وكيف يظل علي والعباس وفاطمة على كلمة واحدة يكذبون رواية نحن معاصر الأنبياء لا نورث، ويقولون أنها مختلفة. بينما يزعم عمرو وأبو بكر أن عليا والعباس في قصة الميراث زعما هما كاذبين ظالمين فاجرين. وما رأينا عليا والعباس اعتذرا ولا تنصلا ولا رأينا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنكروا عليه ما حكاه عمر عنهما ونسبه إليهما (٣). إن هذا التضارب فتح الأبواب للقليل والقال. ومما قيل: قيل لرجل من قرية تسمى الحلة بين الكوفة والبصرة: ما تظن قصد أبي بكر وعمر بمنع فاطمة فذك؟ ما قصد؟ قال: أرادا ألا يظهرنا لعلي - بعد السقيفة - رقة ولينا وخذلانا ولا يرى عندهما خورا. فأتبعاه القرح بالقرح. وقيل لآخر من بلدة تسمى بليدة في سواد الكوفة: وهل كانت فذك إلا نخيلا يسيرا وعقارا ليس بذلك الخطير؟ فقال: ليس الأمر كذلك بل كانت جليلة جدا وكان فيها من النخل ما بالكوفة الآن من النخل. وما قصد أبو بكر وعمر

(١) قال في تحفة الأحوازي: وحتى الاستشكال أن أصل القصة صريح في أن العباس وعلي قد علما بأنه صلى الله عليه وآله قال: لا نورث. فإن كان سمعاه من النبي فكيف يطلبانه من أبي بكر أو في زمنه فكيف يطلبانه بعد ذلك من عمر (تحفة الأحوازي ٢٣٥ / ٥).

(٢) سورة النساء ١١ - ١٤.

(٣) قال السندي في شرح البخاري: كي يجئ منهما تكذيب أبي بكر فيما روي عن النبي أنه صديق هذه الأمة (البخاري شرح السندي ١٦ / ٣).

بمنع فاطمة عنها إلا ألا يتقوى علي بن أبي طالب بحاصلها وغلثها على المنازعة في الخلافة. ولهذا اتبعنا ذلك بمنع فاطمة وسائر بني هاشم وبني المطلب حقهم في الخمس. فإن الفقير الذي لا مال له تضعف همته ويتصاغر عند نفسه. ويكون مشغولا بالاحتراف والاكتساب عن طلب الملك والرياسة. وهكذا ضاعت فذك. وضاع سهم ذي القربى الذي نص عليه كتاب الله روى أبو داود أن نجدة الحروري حين حج في أيام ابن الزبير. أرسل إلى ابن عباس يسأله عن سهم ذي القربى ويقول لمن تراه؟ قال ابن عباس: لقربى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد كان عمر عرض علينا من ذلك عرضا رأيناه دون حقنا فرددناه عليه وأبيننا أن نقبله (١).

وترتب على ذلك فيما بعد اختلاف العلماء في الغنائم وكيف توزع (٢)، واختلفوا في الفئ والخمس (٣) إلى غير ذلك وجميع هذه الاختلافات أصلها مصادرة الدولة لنحلة الرسول وإرثه وسهم ذي القربى، وهذه الاختلافات ولدت فيما بعد الاختلاف الأعظم في معرفة أهل البيت. وخصوصا عندما أمر عمر بن الخطاب بعدم رواية الحديث. فعندئذ اختلف عامة المسلمين في أهل البيت. فمن عاكف عليهم هائم بهم ومن معرض عنهم لا يعبأ بأمرهم ومكانتهم من علم القرآن. أو مبغض شأنهم لهم. وقد وصاهم النبي صلى الله عليه وسلم بما لا يرتاب في صحته

ودلالته مسلم أن يتعلموا منهم ولا يعلموهم وهم أعلم منهم بكتاب الله. وذكر لهم أنهم لن يغلطوا في تفسيره ولن يخطئوا في فهمه - ولكن الوصايا لم تذاع وفقا للمصلحة العامة. حيث كان العديد من الدوائر يتربص بالإسلام والمسلمين.

وإن أردت العجب فلك أن تعجب إذا علمت أن مصير فذك بعد سنوات قليلة من منعها عن ربحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة الزهراء - قد

(١) سنن أبو داود، حديث رقم ٢٩٨٢.

(٢) تحفة الأحوازي ٢٢٣ / ٥.

(٣) تحفة الأحوازي ٣٨٣ / ٥.

أصبح في جعبة مروان بن الحكم الذي لعن الرسول أباه وهو في صلبه. قال في الفتح الرباني: فلما كان عهد عثمان. تصرف في فذك بحسب ما رأى فأقطعها لمروان. لأنه تأول أن الذي يختص به النبي صلى الله عليه وسلم يكون للخليفة بعده فوصل بها بعض أقاربه (١)، إنها التركة التي لغير وارث ومن العجيب أن الحكام فيما بعد كانوا يعتبرون التركة من غير وارث ليستولوا عليها. روي أنه في القرن الثالث الهجري أنشئ ديوان خاص يسمى ديوان الموارث وذلك في عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ)، وكان هذا الديوان مجالا واسعا لظلم الناس والإعنات في موارثهم وأخذ ما لم تجز به السنة (٢). يقول ابن المعتز قرب أواخر القرن الثالث يشكو ما يجري على أصحاب الموارث.

وويل لمن مات أبوه موسرا * أليس هذا محكما شهرا
وطال في دار البلاء سجنه * وقيل من يدري بأنك ابنه
فقال: جيرانني ومن يعرفني * فتنفوا سباله حتى فني
واسرفوا في لكمه ودفعه * وانطلقت أكفهم في صفعه
ولم يزل في ضيق الحبوس * حتى رمى لهم بالكيس (٣)

وكان سيف الدولة يأخذ الموارث أخذا رسميا ففي عام (٣٣٣ هـ) عين ابن عبد الملك الرقي قاضيا على حلب فكان هذا القاضي يصادر التركات ويقول: التركة لسيف الدولة. وليس لي إلا أخذ الجعالة وكان كثير من الحكام يحاولون أن يعتبروا التركة من غير وارث ليستولوا عليها (٤)، ونعود إلى حيث ابتدأنا فنقول: إن فاطمة الزهراء كانت مصيبة فيما ادعته. ولم تكن فاطمة في حاجة إلى شهادة وبينه. لأنها بنص الآية: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)، معصومة. والآية تناولت جماعة منهم فاطمة بما تواترت الأخبار في ذلك. وهي أيضا بنص الحديث " فاطمة بضعة مني من آذاها فقد

(١) الفتح الرباني ٢٦٣ / ٢١.

(٢) الحضارة الإسلامية / آدم متز ٢١٧ / ١.

(٣) المصدر السابق ٢١٧ / ١.

(٤) المصدر السابق ٢١٨ / ١.

آذاني ومن آذاني فقد آذى الله عز وجل " معصومة. لأنها لو كانت ممن تقارف الذنوب لم يكن من يؤذيها مؤذيا له على كل حال. بل إن إقامة الحد عليها إن كان صدر منها فعل يقتضي ذلك أيكون سارا له ومطيعا. ولأنها بعيدة عن كل هذا كان من آذاها فقد آذاه ولا خلاف بين المسلمين في صدقها فيما ادعته. لأن أحدا لا يشك أنها تدعي ما ادعته كاذبة، وليس بعد: لا تكون كاذبة إلا أن تكون صادقة. ولقد قال البعض عن الفعل الأصح الذي كان يجب أن يكون: قد كان الأجمل أن يمنعهم التكرم مما ارتكبا منها فضلا عن الدين وقال ابن أبي الحديد في تعليقه على هذا القول المفيد: وهذا الكلام لا جواب عنه. ولقد كان التكرم ورعاية حق رسول الله صلى الله عليه وسلم وحفظ عهده يقتضي أن تعوض ابنته بشئ يرضيها. إن لم يستنزل المسلمون عن فدك وتسلم إليها تطيبا لقلبها. وقد يسوغ للإمام أن يفعل ذلك من غير مشاورة المسلمين إذا رأى المصلحة فيه. وقد بعد العهد الآن بيننا وبينهم ولا نعلم حقيقة ما كان وإلى الله ترجع الأمور.

٣ - تساؤلات على الطريق:

إذا تحدثنا عن الزهراء نجد أنفسنا أمام أسئلة حائرة تبحث لها عن أجوبة. من هذه الأسئلة: هل بايعت فاطمة الزهراء أبا بكر؟ والإجابة التي نجدها في البخاري وغيره من حديث عائشة عندما أبى أبو بكر أن يعطي فاطمة ما سألت: أن فاطمة غضبت وهجرت أبا بكر فلم تول مهاجرته حتى توفيت. وعند البخاري: أن عليا دفنها ولم يخبر أبو بكر بموتها (١). وعلى هذه الإجابة نقول: كيف يستقيم موقف الزهراء مع الحديث الصحيح: " من فارق الجماعة شبرا فمات إلامات ميتة جاهلية " (٢)، وحديث: " من خرج من السلطان شبرا مات

(١) البخاري (الصحيح ٥٦ / ٣) ك المغازي.
(٢) صحيح البخاري (الصحيح ٢٢٢ / ٤) ك الفتن.

ميتة جاهلية " (١)، هل كانت الزهراء مفارقة للجماعة؟ كيف؟
وبخصوص علي بن أبي طالب. فلقد روى البخاري ومسلم " كان لعلي بن
الناس وجهه حياة فاطمة. فلما توفيت استنكر على وجوه الناس فالتمس مصالحة
أبي بكر ومبايعته ولم يكن بايع تلك الأشهر فأرسل إلى أبي بكر أن ائتنا ولا يأتنا
معك أحد كراهية محضر عمر بن الخطاب. فقال عمر لأبي بكر: والله لا تدخل
عليهم وحدك! فقال أبو بكر، وما عساهم أن يفعلوا بي وإني والله لآتينهم فدخل
عليهم أبو بكر " (٢)، قال المفسرون: إنه كان لعلي من الناس وجه حياة فاطمة.
أي وجه وإقبال في مدة حياتها. وقيل: وجه من الناس حياة فاطمة أي جاء وعز
فقد هما بعدها. وبعد وفاة فاطمة استنكر على وجوه الناس أي لم يعجبه نظرهم
إليه. فأرسل إلى أبي بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد قال المفسرون: أي لئلا
يحضر معه من يكره حضوره وهو عمر بن الخطاب لما علم من شدته وصدعه
بما يظهر له فخاف هو ومن معه ممن تخلف عن البيعة أن ينتصر عمر لأبي بكر
فيصدر عنه ما يوحش صدورهم على أبي بكر بعد أن طابت وانشرت له. أما
قول عمر: لا تدخل عليهم وحدك فمن خوفه أن يغلظوا على أبي بكر في العتاب
ويحملهم على الاكثار من ذلك. لين عريكة أبي بكر وصبره عن الجواب.
وبين استنكار وجوه الناس وبين الخوف من غلظة عمر كما قال المفسرون
روى البخاري ومسلم: " فقال علي لأبي بكر موعدك العشية للبيعة " (٣)، ويبقى
السؤال: هل يوجد دليل واحد يقول بأن عليا يستمد الجاه والعز من وجوه الناس
وهو الذي أطاح برقاب الجبابرة على امتداد حياته. وعاش مظلوما ومات
مظلوما. وما هو وزن بيعة مدخلها إرضاء الناس. ثم إذا كان الناس قد انفضوا
من حول علي فلماذا خاف عمر على أبي بكر أن يدخل عليهم وحده. وأي عتاب

(١) صحيح البخاري (الصحيح ٢٢٢ / ٤) ك الفتن.

(٢) صحيح مسلم (١٥٤ / ٥ باب قول النبي لا نورث)، البخاري (الصحيح ٥٥ / ٣) ك
المغازي.

(٣) صحيح مسلم (١٥٤ / ٥ ط دار التحرير)، البخاري (الصحيح ٥٥ / ٣) ك المغازي.

هذا الذي كان الفاروق يخشاه على أبي بكر؟
ثم نعود إلى حديث من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية
فنقول. ألم يعلم علي بهذا الحديث؟ فإذا كان قد بايع بعد وفاة الزهراء. فهل
كان علي يعلم أنه سيعيش إلى ما بعد أبي بكر فتأخر عن بيعته تلك الشهور
الستة، ولقد لعن النبي صلى الله عليه وسلم والمسوفون الذين يقولون سوف أعمل
غدا كذا وكذا ثم يأتيهم الموت على شر ولم يعملوا شيئا. إن هذه أسئلة. ولقد
بعد العهد الآن بيننا وبينهم ولا نعلم حقيقة ما كان وإلى الله ترجع الأمور.

(٣٢٤)

ثالثا - التعقيم والظهور

لا جدال في أن الفاروق رضي الله عنه هو الذي وضع الأعمدة الأساسية للمجتمع المدني بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وعمر بن الخطاب هو صاحب أروع منهج لفهم النصوص الدينية فهما يساير الواقع ويحقق مصلحة المسلمين العامة. وما قدمه الفاروق بجميع المقاييس عملا جريئا للغاية لا يقدر عليه سوى رجل من طراز عمر وقليل ما تجد. ونحن هنا سنسلط الأضواء على بعض هذه الأعمال الأساسية. ولكن في البداية نلقي نظرة على كيفية تولية عمر بن الخطاب الخلافة:

روى الطبري: دعا أبو بكر عثمان خاليا فقال له: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين. أما بعد: ثم أغمي عليه. فذهب عنه فكتب عثمان. أما بعد: فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم ألكم خيرا. ثم أفاق أبو بكر. فقال: اقرأ علي فقرأ عليه. فكبر أبو بكر وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن افتللت نفسي في عشيتي. قال: نعم، قال: جزاك الله خيرا عن الإسلام وأهله. وأقرأها رضي الله عنه من هذا

(٣٢٥)

الموضع (١).

وفي رواية: إن أبا بكر أخذ رأي عثمان وعبد الرحمن بن عوف في عمر وكان رأيهم من رأيهما أن عمرا خير من يصلح لهذا الأمر. وفي رواية: أن أبا بكر بعد أن استقر على عمر أعلن للناس أن يسمعوا له ويطيعوا. وقبل أن يعلن أبو بكر اسم الخليفة من بعده، روى الطبري عن قيس قال: رأيت عمر بن الخطاب وهو يجلس والناس معه ويده جريدة وهو يقول: أيها الناس اسمعوا وأطيعوا قول خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال قيس: ومعه مولى لأبي بكر يقال له شديد معه الصحيفة التي فيها استخلاف عمر (٢)، ويا ليت الفاروق قال ذلك يوم أن أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتوه بصحيفة ليكتب لهم كتابا لا يضلوا بعده أبدا. ورحل أبو بكر رضي الله عنه وجاء عمر وكان قبل الخلافة على القضاء أيام خلافة أبي بكر كلها (٣)، وعلى امتداد هذه المسيرة والشئ الذي يدعو للدهشة أن ظروف المجتمع التي حتمت إلغاء سهم ذي القربى على مراحل. ضيقت في الوقت نفسه على رواية الحديث لئتم إلغائها أيضا على مراحل. ومما يدعو للإعجاب بشكل مساو للدهشة أن سهم المؤلفة قلوبهم الذي جعله الله تعالى علامة يتميز بها ضعاف الإيمان والذين في قلوبهم مرض. ثم تخفيف القبضة عنه لئتم إلغائه أيضا على مراحل. والشئ الذي يدعو للدهشة والإعجاب معا أن هذه الأمور سارت جنبا إلى جنب. الجميع نالوا جرعة واحدة لم يتميز طريق على طريق. وفي النهاية خرجت شجرة كل فرع فيها يداعبه النسيم ليخرج صوتا موسيقيا وفي النهاية تستمع إلى سمفونية يسري صداها في عالم الفتن.

١ - التضييق على رواية الحديث الشريف:

لا غنى للكتاب عن السنة. فلولا السنة ما عرفنا مجملات القرآن. والقرآن

(١) الطبري ٥٢ / ٤.

(٢) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (الزوائد ١٨٤ / ٥) ورواه الطبري (٥٢ / ٤).

(٣) الطبري ٣٧٧ / ٣.

الكريم يتعرض بمنطقة في سنته المشروعة لجميع شؤون الحياة الإنسانية من غير أن يتقيد بقيد أو يشترط بشرط، ما يحكم على الإنسان منفردا أو مجتمعا، صغيرا أو كبيرا، ذكرا أو أنثى، على الأبيض والأسود، والعربي والعجمي، والحاضر والبادي، والعالم والجاهل، والشاهد والغائب، في أي زمان كان وفي أي مكان كان، ويدخل كل شأن من شؤونه من اعتقاد أو خلق أو عمل من غير شك. فللقرآن اصطكاك من جميع العلوم والصناعات المتعلقة بأطراف الحياة الإنسانية، ومن الواضح اللائح من خلال آياته النادرة إلى التدبر والتفكر والتذكر والتعقل أنه يحث حثا بالغا على تعاطي العلم ورفض الجهل في جميع ما يتعلق بالسماويات والأرضيات والنبات والحيوان والإنسان من أجزاء عالما وما وراءه من الملائكة والشياطين واللوح والقلم وغير ذلك ليكون ذريعة إلى معرفة الله سبحانه، وما يتعلق نحوا من التعلق بسعادة الحياة الإنسانية الاجتماعية من الأخلاق والشرائع والحقوق وأحكام الاجتماع. والقرآن اعتبر في بيان مقاصده السنة النبوية. وعين للمسلمين الأسوة في رسول الله صلى الله عليه وسلم. فكان المسلمون يحفظون عنه ويقلدون مشيئته العلمية تقليد المتعلم معلمه في السلوك العلمي (١). فلولاً السنة ما عرفنا محملات القرآن ولا اكتشفنا الكثير من أسرارهِ وغوامضهِ. هذا بالإضافة إلى الكثير من الحوادث التي لم ينص عليها القرآن باسمها ووصفها وتركها للرسول صلى الله عليه وسلم الذي ائتمنه على وحيه وحمله مسؤولية الأداء والتبليغ والتفسير وبيان ما اشتبه حكمه وخفي على المسلمين وجهه فقال تعالى: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) (٢)، وقال: (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه) (٣)، وأوجب القرآن على المسلمين النزول على حكمه صلى الله عليه وسلم

(١) الميزان ٢٧١ / ٥.

(٢) سورة النحل: الآية ٤٤.

(٣) سورة النحل: الآية ٦٤.

في كل خلاف يحدث بينهم قال تعالى: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) (١)، وأكد عليهم أن يرجعوا إلى النبي في أمور دينهم وحثهم على الاستجابة لما يدعوههم فقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم).

فمما سبق نعلم أنه لا غنى للكتاب عن السنة ولا وجه للسنة إلا الكتاب. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحث على تبليغ حديثه ويحذر من الكذب عليه. قال صلى الله عليه وسلم: "ليبغ الشاهد الغائب فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه" (٢)، قال النووي: فيه تصريح بوجوب نقل العلم وإشاعة السنن والأحكام. وقال المهلب: فيه أنه سيأتي في آخر الزمان من يكون له من الفهم في العلم ما ليس لمن تقدم، وقال ابن سيرين: وقد كان ذلك. قد كان بعض من بلغه أوعى له من بعض من سمعه (٣)، والعلم ما بلغ أهله وأصحابه إلا من بعد عصر التدوين. أما قبل ذلك فكان للناس مع الحديث شؤون. ولقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الفترة من الزمان وهو يخبر بالغيب عن ربه فقال: "ألا أني أوتيت القرآن ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن. فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه" (٤).

والرجل الشبعان على أريكته الذي جاء ذكره في الحديث هو من استوى قاعدا على وطاء متمكنا. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: "لألفين

(١) سورة النساء: الآية ٦٥.

(٢) رواه البخاري كتاب العلم (الصحيح ٢٣ / ١) وأحمد ورجاله ثقات (الفتح الرباني

٢٧٦ / ٢١) وقال النبي هذا في حجة الوداع.

(٣) (الفتح الرباني ٢٧٦ / ١١).

(٤) رواه أحمد وإسناده جيد وقال في نيل الأوطار حديث صحيح ورواه أبو داود عن المقدم بن معد يكرب (الفتح الرباني ١٩١ / ١) (كنز العمال ١٧٤ / ١) أبو داود حديث رقم ٤٦٠٤.

أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا أدري ما وجدناه في كتاب الله اتبعناه (١)، وقال لهم: "يوشك أحدكم أن يكذبني وهو متكئ على أريكته. يحدث بحديث من حديثي فيقول. بيننا وبينكم كتاب الله. فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمانه ألا وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما حرم الله (٢). وفي مرحلة من مراحل الدعوة كان بعض الصحابة يحرصون على حفظ الحديث ونقله. وهذا الحرص منهم عن تمحيصه والتدبر في معناه وخاصة في عرضه على كتاب الله وهو الأصل الذي تبنى عليه بنية الدين وتستمد منه فروعه. فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بعدم الرواية عنه والرجوع إليه في أمور دينهم وفي حجة الوداع وبعد أن اكتمل البناء بحمل أهل البيت لسنته صلى الله عليه وسلم. أمر عليه الصلاة والسلام بأن يروي الناس عنه. وأشار إلى أن يتعلم المسلمون من أهل البيت ولا يعلموهم لأنهم أعلم منهم بكتاب الله وذكر أنهم لن يغلطوا في تفسيره ولن يخطئوا في فهمه وإنهم والكتاب لن يفترقا حتى يرثي الله الحوض.

وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وجد أبو بكر رضي الله عنه أن العديد من الصحابة يبالغ في رواية الحديث فضيق الحلقة على الرواية. وعندما تولى عمر رضي الله عنه الخلافة روى مالك: أن عمر أراد أن يكتب الأحاديث. أو كتبها. ثم قال: لا كتاب مع كتاب الله (٣)، ثم ضيق على الرواية فعن قرظة بن كعب قال، قال عمر: أقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا

-
- (١) رواه أحمد والترمذي وأبي داود وابن ماجه والحاكم عن أبي رافع وقال الترمذي حديث صحيح (الجامع ٣٧ / ٥)، (كنز العمال ١٧٤ / ١).
(٢) رواه أحمد والترمذي وحسنه والحاكم (الجامع ٣٨ / ٥) (الفتح الرباني ١٩١ / ١).
(٣) ابن عبد البر (كنز العمال ٢٩٢ / ١٠).

شريككم (١)، وقال ابن كثير: إن عمر كان يقول اشتغلوا بالقرآن فإن القرآن كلام الله ولهذا لما بعث أبا موسى إلى العراق قال له: إنك تأتي قوما لهم في مساجدهم دوي بالقرآن كدوي النحل فدعهم على ما هم عليه ولا تشغلهم بالأحاديث. وأنا شريكك في ذلك. وقال ابن كثير: هذا معروف عن عمر رضي الله عنه (٢).

ثم بدأ عمر يضيق الدائرة حتى أنه كان يحبس من يروي. فعن سعد بن إبراهيم عن أبيه أن عمر بن الخطاب قال لابن مسعود ولأبي الدرداء ولأبي ذر ما هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأحسبه حبسهم حتى أصيب (٣)، وعن السائب بن يزيد قال: سمعت عمر يقول لأبي هريرة: لتتركن الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لألحقنك بأرض دوس (٤)، وروي عن عبد الرحمن بن عوف قال: والله ما مات عمر حتى بعث إلى أصحاب محمد صلى الله عليه وآله فجمعهم من الآفاق: عبد الله بن حذافة، وأبا الدرداء، وأبا ذر، وعقبة بن عامر، فقال: ما هذه الأحاديث التي أفشيتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآفاق: قالوا: أتنهانا. قال: لا. أقيموا عندي. لا والله لا تفارقوني ما عشت (٥)، وروى ابن عبد البر: كتب عمر في الأمصار من كان عنده شيء من ذلك فليمحه (٦).

-
- (١) رواه الحاكم وقال حديث صحيح (المستدرک ١٠٢ / ١) الطبري ١٩ / ٥.
(٢) ابن كثير في البداية والنهاية ١٠٧ / ٨، وقال بن حبان في المجروحين رواه ابن ماجه والحاكم وله طرق (المجروحين ٣٦ / ١).
(٣) رواه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين وإنكار عمر على الصحابة كثرة الرواية فيه سنة ولم يخرجاه (المستدرک ١١٠ / ١) ورواه ابن سعد في الطبقات (٣٣٦ / ٢) وابن حبان في كتابه المجروحين (٣٥ / ١).
(٤) رواه ابن عساكر (كنز العمال ٢٩١ / ١٠).
(٥) رواه ابن عساكر (كنز العمال ٢٩٣ / ١٠) وابن حبان في كتابه المجروحين (٣٥ / ١).
(٦) رواه ابن عبد البر وأبو خيثمة معا في العلم (كنز العمال ٢٩٢ / ١٠).

وترتب على ما سبق خوف الصحابة من الرواية كان أبو هريرة يقول: إني لأحدث أحاديث لو تكلمت بها في زمان عمر أو عند عمر لشج رأسي (١)، وقال: أفكنت محدثكم بهذه الأحاديث وعمر حي. أما والله إذا لأيقنت أن المحففة ستباشر ظهري (٢)، وقال: " ما كنا نستطيع أن نقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قبض عمر (٣)."

وقيل إن عدم الرواية كان حفظاً للقرآن وخوفاً من أن يتداخل الحديث مع القرآن، ولا يخفى ما في هذا القول من تساهل كبير. لأن القرآن إعجاز لو اجتمعت الإنس والجن كي يضعوا فيه ما ليس منه ما استطاعوا. ولا يصدق عاقل أن يقرأ إنسان نصف آية ثم يكملها بحديث أو نصف حديث. ويقول هذا من كتاب الله. فقول مثل هذا لا يلتفت إليه. لقد وضع عمر مبدأ عدم الرواية. ولكن نشأ عنه آثار جانبية مثل التي تنشأ عن الدواء الذي يستخدم في علاج داء معين ومن جملة تلك الآثار الجانبية تمسك بعض من الصحابة بمبدأ عمر في وقت كانت الرواية فيه بمثابة عودة الروح للجسد، ومن الأمثلة على ذلك. عن محمود بن لبيد قال: سمعت عثمان بن عفان على المنبر يقول: لا يحل لأحد يروي حديثاً لم يسمع به في عهد أبي بكر ولا عهد عمر (٤)، ثم جاء معاوية بن أبي سفيان فقال: أيها الناس أقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وإن كنتم تحدثون فحدثوا بما كان يتحدث به في عهد عمر (٥)، ثم جاء عمر بن العاص ليشهد ويقسم. فقال: أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ما أقرأكم عمر فاقروا وما أمركم به فائتمروا (٦)، ولا يخفى أن المسافة من عثمان إلى معاوية كنت في حاجة إلى أحاديث وأحاديث.

(١) ابن كثير في البداية (١٠٧ / ٨).

(٢) ابن كثير في البداية (١٠٧ / ٨).

(٣) ابن كثير في البداية (١٠٧ / ٨).

(٤) ابن سعد (الطبقات ٣٣٦ / ٢) ابن عساكر (كنز العمال ٢٩٥ / ١٠).

(٥) ابن عساكر (كنز العمال ٢٩١ / ١٠).

(٦) ابن عساكر (كنز ٥٩٣ / ١٢).

ومن الآثار الجانية لمبدأ عدم الرواية. أن هناك أنماطا بشرية لعنهم رسول الله وحذر منهم وطرد بعضهم فهؤلاء ضاع من عليهم التحذير. ومع مرور الأيام نسي الناس ما روي فيهم. فتقلدوا مراكز الصدارة في فترة من الفترات. ولقد حاول هؤلاء التعقيم على الرواية في العهد النبوي ولكن الرسول أمر بالرواية ورد كيدهم في نحورهم، فعن عبد الله بن عمرو قال: قالت لي قريش تكتب عن رسول الله صلى الله عليه وآله!! وإنما هو بشر يغضب كما يغضب البشر. فأتيت رسول الله صلى الله عليه وآله فقلت: إن قريشا تقول تكتب عن رسول الله وإنما هو بشر يغضب كما يغضب البشر. قال: فأوماً لي النبي صلى الله عليه وآله وسلم شفتيه. وقال: والذي نفسي بيده ما يخرج ما بينهما إلا حق فاكتب " (١)، وقولهم: يغضب كما يغضب البشر فيه أنهم كانوا يعنون أحاديث بعينها. وعلى هذا لا يستغرب أن يصبر عثمان ومعاوية وعمرو على رواية أحاديث خضعت لفقه عدم الرواية.

ومن الآثار الجانية أن عدم الرواية أدى إلى نسيان الصحابة وتركهم رواية الحديث، فعن ابن أبي أوفى قال: كنا إذا آتينا زيد بن أرقم فنقول حدثنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: كبرنا ونسينا (٢)، وروي عن ابن عباس قال: كنا نحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله إذا لم يكذب عليه فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه (٣). ومن آثاره إفساح المجال للقص في المساجد ثم دخول الأحاديث الموضوعية بعد ذلك. ومن آثاره التعقيم على أهل البيت في مرحلة. وقتلهم في مرحلة وتشويههم في مرحلة. وفيما نظن أن الفاروق لو كان يعلم أن مبدأه

-
- (١) رواه الحاكم وقال حديث صحيح الإسناد أصل في نسخ الحديث عن رسول الله ولم يخرجاه (المستدرک ١٠٥ / ١) ورواه أبو داود حديث ٣٦٤٦.
(٢) ابن عساکر (کنز العمال ١٩٤ / ١٠).
(٣) رواه ابن حبان في كتابه المجروحين (٣٨ / ١).

سيترتب عليه آثار جانبية. لعدل عنه وجمع العديد من الصحابة العدول الثقة وأمرهم بكتابة الأحاديث الصحيحة لتكون منارا لمن يأتي بعدهم ولقطع بذلك الطريق على الوضاعين والذين فرقوا الأمة شيئا وأحزابا. ولسد المنافذ على الذين التمسوا لمبدأه الأعذار وقالوا: إن منع الرواية كان من أجل أن لا يزاحم الحديث القرآن لأن في هذا القول من التشكيك ما لا يخفى.

٢ - من آثار عدم رواية الحديث:

كان عدد من أهل الكتاب قد دخلوا في الإسلام وأخذ عنهم المحدثون فيما بعد شيئا كثيرا من أخبار كتبهم وقصص أنبيائهم وأمهم فخلطوها بما كان عندهم من الأحاديث المحفوظة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأخذ الوضع والدس يدوران في الأحاديث. ويوجد اليوم في الأحاديث المقطوعة المنقولة من الصحابة ورواتهم في الصدر الأول شيء كثير من ذلك يدفعه القرآن بظاهر لفظه: وإذا أردنا أن نضع أيدينا على البداية. فلا بد من البحث في مساحة عدم الرواية لنرى أين الوتر الذي تعود إليه وإلى طابوره الأحاديث الموضوعة في صفات الله وأسمائه وأفعاله والزلات المنسوبة إلى الأنبياء الكرام والمساوي المشوهة المنسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم والخرافات في الخلق والإيجاد وقصص الأمم الماضية. والتد الأساسي الذي نعتقد أنه الأساس في هذا البلاء هو القص وعليه نسلط الضوء.

أ - القص في المساجد:

القاص أو القصاص (والجمع قصاص) هو الرجل الذي كان يجمع الناس حوله في الطرقات أو في المساجد. فيعظهم حينما يذكر الأحاديث والأخبار ويسليهم بالقصص والحكايات حينما آخر. وهؤلاء كانوا مقربين من الخلفاء وكانوا يقومون مقام الصحف في أيامنا هذه لذا كان الإمام علي بن أبي طالب يقول

للقاص: أنت أبو اعرفوني (١).

وأقدم خبر للقص في صدر الإسلام ما رواه البخاري أن سعيد بن جبير قال لابن عباس: بالكوفة رجل قاص يقال له نوف البكالي يزعم أن موسى الذي اجتمع مع العبد الصالح بمجمع البحرين ليس بموسى بني إسرائيل. فقال ابن عباس: كذب عدو الله (٢).

وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وتضييق الرواية كانت الساحة مستعدة لاستقبال هؤلاء ليقوموا بالواجب الذي تقوم به صحافة أيامنا هذه. وروى الإمام أحمد: كان أول من قص تميم الداري استأذن عمر بن الخطاب أن يقص على الناس قائما فأذن له (٣)، وعن السائب بن يزيد قال: إنه لم يكن يقص على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولا أبي بكر وكان أول من قص تميم الداري استأذن عمر أن يقص فأذن له (٤)، وتميم كان راهبا نصرانيا وأسلم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم. ولم يعترض أحدا على القص أو لم يجتمعوا لترتيب أوراقهم بعد أن حذرهم النبي من أن القص علامة على طريق طويل. وذلك فيما رواه الطبراني: "إن بني إسرائيل لما هلكوا قصوا" (٥)، ولكن الساحة رضيت بهذه الظاهرة التي يتشقف بها العامة. ثم جاءت نقطة التحول بدخول كعب الأحبار ساحة القص. وكعب كان على دين اليهود فأسلم في عهد عمر بن الخطاب وكان من المقربين إليه. قال ابن حبان مات كعب سنة أربع وثلاثين وقد بلغ مائة سنة وأربع سنين (٦). وكان أستاذ كعب الأحبار قد أسلم في عهد أبي بكر. وكان يدعى

(١) رواه الدارمي والبيهقي والعسكري (كنز العمال ٧٧٥ / ١٢).

(٢) رواه البخاري ك التفسير (الصحيح ١٥٥ / ٣).

(٣) أحمد (الفتح الرباني ١٤٥ / ٢٠).

(٤) العسكري (كنز العمال ٢٨٠ / ١٠).

(٥) الفتح الرباني (١٩٤ / ١).

(٦) راجع ترجمته بالإصابة ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧ / ٣، الطبقات الكبرى ٤٤٥ / ٧.

المسؤول فكناه أبو بكر أبا مسلم وروى عن معاوية (١). وكعب الأخبار نفسه عمل مستشارا لمعاوية وهو أمير على الشام. وذلك بعد أن ترك المدينة وتوجه إلى الشام وسكن حمص. وكعب هو الذي ألقى حب الخلافة في قلب معاوية في أثناء الثورة على عثمان بن عفان (٢). وكان معاوية يقول: إن كعب الأخبار أحد العلماء (٣)، وبدخول كعب إلى الساحة ظهر طاوور طويل لم يكن قصدهم الدين بل تسليّة العامة باختراع الأحاديث ونشرها بينهم. وتشويه القصص الدينية ووضعها في مربع الخرافات. وكانت الإسرائيليات وما يتصل بها مادة لقصصهم، وقد عملوا على نشرها. وكانوا لا يترددون عن الإجابة عن كل سؤال يوجه إليهم. لأن اعترافهم بالجهل كان من شأنه أن يزعزع ثقة العامة بهم. وبدأ كعب الأخبار يمارس عمل كعمل الصحافة في أيامنا هذه. وعلى سبيل المثال عن محمد بن سيرين أن كعب الأخبار قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين هل ترى في منامك شيئا؟! فانتهره. فقال: إنا نجد رجلا يرى أمر الأمة في منامه (٤)، وعن شداد بن أوس قال. قال كعب الأخبار: " كان في بني إسرائيل ملك إذا ذكرناه ذكرنا عمر وإذا ذكرنا عمر ذكرناه " (٥)، وعن سالم بن عبد الله أن كعب الأخبار قال لعمر: إنا لنجد ويل لملك من ملك السماء فقال عمر: إلا من حاسب نفسه فقال كعب: والذي نفسي بيده إنها في التوراة لتابعها (٦). ويبدو أن الساحة في هذه الآونة كانت على خلاف في تعريف من هو الخليفة ومن هو الملك. وكان هذا الأمر يشغل الفاروق، فعن سفيان بن أبي العوجاء قال: قال عمر: والله ما أدري أخليفة أنا أم ملك؟!، فإن كنت ملكا فهذا أمر عظيم. فقال قائل: يا أمير المؤمنين إن بينهما فرقا. قال: ما هو؟ قال:

-
- (١) الجرح والتعديل / الرازي ٤٣٦ / ٩.
(٢) راجع البداية والنهاية ٨٢٧ / ٨، الكامل ٧٩ / ٣ وسيأتي ذلك في حينه.
(٣) الإصابة ٣١٦ / ٣.
(٤) ابن المبارك وابن عساكر (كنز العمال ٥٦٢ / ١٢).
(٥) سدد وإسناده صحيح (كنز العمال ٢٨٢ / ١).
(٦) الدارمي والبيهقي والعسكري (كنز العمال ٧٧٥ / ١٢).

الخليفة لا يأخذ إلا حقا ولا يضعه إلا في حق. فأنت بحمد الله كذلك. والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا. فسكت عمر (١)، ويبدو أن سكون الفاروق يعبر على أن الإجابة ليست كاملة. لهذا سأل سلمان الفارسي: أملك أنا أم خليفة؟ فقال سلمان: إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر. ثم وضعته في غير حقه فأنت ملك غير خليفة (٢)، ويبدو أن هذه الإجابة تشير إلى الفئ وتقسيمه من طرف خفي. ثم طرح السؤال بعد ذلك على كعب الأخبار الذي نعتبره الجريدة الرسمية في هذه الآونة. فسأل عمر كعبا: أنشدك الله أتجدني خليفة أم ملك؟ قال: بل خليفة. فاستحلفه عمر. فقال: خليفة والله من خير الخلفاء وزمانك خير زمان (٣).

وروى أن بعد فتح بيت المقدس كان كعب يرافق عمر. وعندما أراد عمر الصلاة قال لكعب: أين ترى أن أصلي؟ قال: إن أخذت عني! صليت خلف الصخرة فكانت القدس كلها بين يدك (٤)، لقد كان كعب يريد من وراء ذلك أن تراحم قبلة اليهود قبلة المسلمين. ولكن عمر تنبه إلى هذا فيما رواه الهيثم بن عمار قال: قال عمر لكعب حين أراد أن يبنى المسجد: أين ترى أن نجعل المسجد؟ قال: اجعله خلف الصخرة فتجمع بين القبلتين قبلة موسى وقبلة محمد. فقال عمر، ضاهيت اليهودية والله يا أبا إسحاق. خير المساجد مقدمها فبناه في مقدم المسجد (٥).

وفي ساحة حظرت الرواية لا يستغرب أن يسأل عمر كعب الأخبار: أخبرنا عن فضائل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مولده " (٦)، وقوله: حدثني

-
- (١) ابن سعد (كنز العمال ٥٦٧ / ١٢).
 - (٢) ابن سعد (كنز العمال ٥٦٧ / ١٢)، الطبري (تاريخ الأمم ٣٤ / ٥).
 - (٣) نعيم ابن حماد في الفتن (كنز العمال ٥٧٤ / ١٢).
 - (٤) أحمد والضياء بسند صحيح (كنز العمال ١٤٣ / ١٤).
 - (٥) ابن عساكر (كنز العمال ١٤٨ / ١٤).
 - (٦) ابن عساكر (كنز العمال ٣٦٤ / ١٢).

يا كعب عن جنات عدن (١)، إن فتح الباب أمام كعب ليدخل إلى السيرة النبوية وإلى الغيبات يترتب عليه أمور وأمور. ومن فضل الله تعالى أنه جعل في الساحة من يتصدى لكعب. فعن عوف بن مالك أنه دخل المسجد يتوكأ على ذي الكلاع وكعب يقص على الناس فقال عوف لذي الكلاع: ألا تنهي ابن أخيك هذا عما يفعل (٢)، وبلغ حذيفة أن كعبا يقول: إن السماء تدور على قطر كالرحا فقال: كذب كعب (٣).

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحب البحث عن نفسه في كتب أهل الكتاب. فعن الأقرع مؤذن عمر بن الخطاب قال: بعثني عمر إلى الأسقف فدعوته فقال له: هل تجدني في الكتاب؟! قال: نعم، قال: كيف تجدني؟ قال: أجذك قرنا. فرفع عمر عليه الدرة وقال: قرن مه؟ قال الأسقف: قرن حديد أمين شديد (٤)، وروى أن عبد الله بن سلام - كان يهوديا. أسلم في عهد النبوة - وكان عمر قد ذهب إليه ليسأله في معنى قفل جهنم. أن قال: يا أمير المؤمنين أخبرني أبي عن آبائه عن موسى بن عمران عن جبريل أنه قال: يكون في أمة محمد رجل يقال له عمر بن الخطاب. أحسن الناس دينا وأحسنهم يقينا ما دام بينهم الدين عال والدين فاش فجهنم مقفلة... إلخ " (٥).

وإذا أردنا أن نزن ما سبق ونسأل هل أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذه الأحداث التي تعصف بالساحة؟ نقول: ربما تكون هناك إشارة في حديث رواه ابن عباس، قال: إن عمر بن الخطاب أتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب. فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "أمتهوكون (٦) فيها يا ابن الخطاب. والذي نفسي بيده لقد جئتكم

(١) ابن المبارك وأبو ذر الهواري في الجامع (كنز ٥٦١ / ١٢).

(٢) الإصابة / ابن حجر (٣١٥ / ٣).

(٣) الإصابة (٣١٦ / ٣).

(٤) أبو داود حديث رقم ٤٦٥٦، ابن أبي شيبة ونعيم ابن حماد (كنز العمال ٥٥٩ / ٣).

(٥) ابن عساكر (كنز العمال ٥٨٦ / ١٢).

(٦) أي: أمتحيرون أنتم في الإسلام. وقيل: أترددون ساقطون لسان العرب ص ٤٧٢٢.

بها بيضاء نقية. لا تسألوهم عن شيء فيخبرونكم بحق فتكذبونه ويباطل فتصدقونه. والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني " (١)، إن دخول معترك أهل الكتاب يكون بمعرفة مادتهم أولا ثم وزنها بميزان الإسلام ثم طرحها عليهم لتدمغهم الحجة. ولذلك نرى أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر زيد بن ثابت بأن يتعلم له كتب اليهود أولا ليكتب له ويقرأ له إذا كتب إليه. وغضب النبي صلى الله عليه وسلم عندما جاء عمر بكتاب أهل الكتاب. فيه إشارة خاصة ليتذكرها الذهن وتقوم بها الحجة. ولأنه صلى الله عليه وآله وسلم يعلم أن هذا سيقع لا محالة قال: " لتهوكون كما تهوكت اليهود والنصارى. لقد جئكم بها بيضاء نقية لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي " (٢).

ومعالم التهوك يمكن أن يرصدها الباحث بسهولة، فالقصص يعتبر أكبر عقبة في سبيل التقدم. لأنه يصرف الناس عن الاشتغال بالعلوم الدينية وما يحقق سعادتهم في الدنيا والآخرة. وذلك لما له من تأثير قوي في الجماهير. وفي عصر بني أمية راج القصص. فمعاوية أمر كعب الأحرار بأن يقص بالشام (٣) وبعد كعب جاء وهب بن منبه. قال الذهبي عنه: أبو عبد الله اليماني صاحب القصص... ولد في آخر خلافة عثمان... كثير النقل من كتب الإسرائيليات. كان يقول: قرأت بضعة وسبعين كتابا من كتب الأنبياء (٤)، ولوهب أيضا تلاميذ. وظل يتجول في بلاد المسلمين يث فيها خرافاته وأساطيره إلى السنة التي مات فيها وهي سنة ١١٤ هـ على أصح الأقوال (٥). والحزب الأموي اعتنى بالقص كي يرفعهم القصاصون في عيون المسلمين نظرا لعدم وجود فضل لهم يرفعهم

(١) رواه أحمد وابن ماجه (كنز ٢٠٠ / ١) وابن أبي عاصم وحسنه الألباني وقال له طرق (كتاب السنة ٢٧ / ١).

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (كنز العمال ٢٠١ / ١١).

(٣) رواه الطبراني (الإصابة ٣١٦ / ٣).

(٤) ميزان الاعتدال ٣٥٢ / ٤.

(٥) تاريخ الأدب العربي / بروكلمان ٢٥١ / ١.

على عهد النبي صلى الله عليه وسلم. وفي عهد بني أمية كان القصاصون يذكرون عليا وولده بما يطفئ نورهم ويكتم فضلهم. وذلك كله لحساب الحزب الحاكم. وروى عن غضيف بن الحرث قال: بعث إلي عبد الملك بن مروان فقال: قد جمعنا الناس على أمرين. قلت: وما هما؟ قال: رفع الأيدي على المنابر يوم الجمعة والقص بعد الصبح والعصر (١).

وعلى هذا الدرب اخترعت أحاديث. وتم الخلط بين الحقيقة والخيال. روى ابن عساكر عن يزيد بن هارون قال: سمعت شعبة يقول: أبو هريرة كان يدلّس. أي يروي ما سمعه من كعب وما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يميز هذا من هذا (٢)، ولم يقف الأمر عند أبي هريرة. بل تعداه إلى من سمع منه، روى الإمام مسلم عن بشر بن سعيد أنه قال: لقد رأيتنا نجالس أبا هريرة فيحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحدثنا عن كعب الأحمار ثم يقول. فاسمع بعضه من كان معنا يجعل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كعب وحديث كعب عن رسول الله - وفي رواية - يجعل ما قاله كعب. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كعب (٣). وسواء كان التدليس من أبي هريرة أم من الذين سمعوا منه. فإن كعب الأحمار هو محور الارتكاز. إن طريق التهوك بعد أن فتح الباب أمام النص واضح ولا غبار عليه. ولقد ذم غير واحد من العلماء أثر القص على الحديث. قال ابن الجوزي: إن بعض البلاء يجري من القصاصين. قيل لواحد منهم: من أين حفظت هذه الأحاديث؟ قال: والله ما حفظتها ولا أعرفها بل في وقتي قتلها (٤) وقال أبو حاتم: كان القصاصون يضعون الحديث في قصصهم ويرونها عن الثقات (٥)، ولم يقف الأمر

(١) رواه أحمد والبزار والطبراني وقال في الفتح الرباني إسناده جيد (الفتح ١٩٤ / ١).

(٢) ابن عساكر (البداية والنهاية ٤٠٩ / ٨).

(٣) مسلم (البداية والنهاية ١٠٩ / ٨).

(٤) الموضوعات / ابن الجوزي ٤٤ / ١.

(٥) المجروحين / ابن حبان ٨٥ / ١.

عند الحديث والتفسير بل انتهى القص إلى مرحلة أخرى يدمر فيها الأخلاق. فلقد أخذت مواد القصص الغرامية تتكاثر وتزايد بإطراد في أواخر العصر الأموي. حتى حمل السرور والإعجاب بها على إنشاء حلقات من القصص الغرامية تعتمد على أغاني الغزل المشهورة من ناحية. كما تشتبك بمختلف البواعث النابعة من آداب الأمم عامة من ناحية أخرى، ورواها العرب دون تحري مصادرها وإن سموا بعض الأشخاص من أبطال الغرام والعشق الذين لم يكونوا إلا من أبناء الخيال (١)، وهذا الباب ترتب عليه ثقافة وهذه الثقافة فتحت الطريق لأبواب أخرى تجد على أبوابها دعاة الصوفية والانعزالية. وتجد الذين يستدرون عطف الحكام. وتجد الذين يطبخون علوم الكلام لترى على الموائد أصنافا عديدة. من أقوال مرجئة إلى أقوال قدرية إلى علوم يونانية. وكل هذا أملاه الواقع الجديد الذي بناه القص.

قد يتبادر إلى الذهن سؤال: أين كان علماء أهل البيت من هذا؟ نقول: كانوا يعيشون عيش العلماء وقد زهدوا في الناس وما في أيدي الناس. كانوا يقيمون الحجة ولا يتدخلوا في اختيار الناس. فالإمام علي، واجه القصاصين ونسبهم إلى النسب الصحيح فقال: أنتم أبو اعرفوني. أما الحسن بن علي رضي الله عنه فلقد روي أنه مر يوما. وقاص يقص على باب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال له الحسن: ما أنت؟ قال: أنا قاص يا ابن رسول الله، قال: كذبت! محمد صلى الله عليه وسلم القاص. قال تعالى: (فاقصص القصص)، قال الرجل: فأنا مذكر، قال: كذبت! محمد صلى الله عليه وآله وسلم المذكر، قال تعالى: (فذكر إنما أنت مذكر)، قال الرجل: فما أنا؟ قال له الحسن: المتكلف من الرجال (٢).

والخلاصة لقد قدمنا هنا أن البداية كانت عندما فتح عمر باب القص، وشهد بذلك حديث صحيح، وإن هذا القص زيف الحقائق وشهد بذلك حديث

(١) تاريخ الأدب العربي ١٩٩ / ١.

(٢) تاريخ يعقوبي ٢٧٠ / ٢.

عند البخاري (١)، كما أحدث القص خلط الأمور وشهد بذلك حديث عند مسلم (٢)، وانتهى المطاف بالأمة إلى الاختلاف والافتراق على طريق التهوك وكل حزب من الأحزاب في جعبته حزمة من الأحاديث وقد شهد بذلك القرآن الكريم والأحاديث الشريفة وحركة التاريخ.

ب - الاقتحام بالشعر:

كان الشعر سلاحا فعالا على ساحة ضاقت فيها دائرة الرواية. ولا نقصد بذلك عموم الشعر. وإنما نقصد الشعر الذي يصد عن سبيل الله ويضرب الأخلاق في جذورها. ولأن الطريق إلى المجنون يبدأ دائما من دائرة البخس. فلقد حذر تعالى من الاقتراب من هذا الطريق، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) (٣)، وقال: (ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم) (٤)، وقال: (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا) (٥)، وقال: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة) (٦)، إلى غير ذلك من الآيات وقد تكلمنا عنها فيما سبق. وفي الوقت الذي أمر فيه تعالى بهذه الأوامر لحفظ دينه على امتداد الأرض. أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتحسين مركز القيادة وإشعاع الثقافة الإسلامية في حديث رواه الشيخان وغيرهما. وذلك عند وفاته صلى الله عليه وآله وسلم فقال: " اخرجوا المشركين من جزيرة العرب " وحدد قبائل بعينها وصفهم بأنهم شر القبائل فقال: " شر قبيلتين في العرب نجران وبني تغلب " (٧)، وكانت هذه القبائل مركزا خصباً للنصرانية. وروي عن ابن عباس أنه قال: " لا

(١) نقض الحديث الذي يخص القاص نوف البكالي.

(٢) نقصد حديث النقل عن أبي هريرة.

(٣) سورة المائدة: الآية ٥١.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٦٩.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٠٩.

(٦) سورة الممتحنة: الآية ١.

(٧) رواه أحمد ورجاله ثقات (الزوائد ٧١ / ١٠).

تؤكل ذبائح نصارى بني تغلب ولا تنكح نساؤهم. ليسوا منا ولا من أهل الكتاب " (١). وكان الإمام علي بن أبي طالب يقول في خلافته: " لئن تفرغت لبني تغلب ليكونن لي فيهم رأي. لأقتلن مقاتلتهم ولأسبين ذريتهم " (٢)، ولكنه رضي الله عنه لم يعط الفرصة لالتقاط أنفاسه.

فهل خرج المشركون من جزيرة العرب؟ من الثابت أنهم لم يخرجوا إلا قليلا منهم، أما الكثرة فرضيت الدولة منهم بدفع الجزية. روى الطبري وغيره أن الجزيرة افتتحها عمر بن الخطاب في السنة السابعة عشرة هجرية (٣). وعندما أراد عمر أن يأخذ الجزية من نصارى بني تغلب فروا إلى أرض الروم. فقال النعمان بن زرة لعمر: أنشدك الله في بني تغلب فإنهم قوم من العرب يغضبون من ذكر الجزاء وهم قوم شديدة نكايتهم، فصالح عمر بني تغلب بعدما قطعوا الفرات وأرادوا اللحاق بأرض الروم. على أن لا ينصروا وليدا ولا يمنعوا أحدا منهم من الإسلام. فأعطى بعضهم ذلك وأخذوا به وأبى بعضهم إلا الجزية (٤)، ثم نقض بنو تغلب عهدهم مع عمر ونصروا أولادهم. فضاعف عمر عليهم الجزية فقالوا: إنا نرضى ونحفظ ديننا (٥)، واستمر الحال على ذلك. وفي عهد عثمان بن عفان. أراد عثمان أن لا يقبل من بني تغلب في الجزية إلا الذهب والفضة. فجاءه الثبت أن عمرا أخذ منهم ضعف الصدقة فرجع عن ذلك (٦). مما سبق نعلم أن الدولة اجتهدت في وصية النبي صلى الله عليه وسلم فبدلا من إخراجهم قبلوا منهم الجزية لما رأوا أن المصلحة في ذلك. بل لم تقف الدولة عند هذا الحد بل جاءت بسبي النصارى إلى الجزيرة. ذكر البلاذري: لما ولي عمر بن الخطاب معاوية الشام حاصر قيسارية حتى فتحها فوجد بها من

(١) فتوح البلدان / البلاذري ص ١٨٦.

(٢) فتوح البلدان ص ١٨٧.

(٣) الطبري ١٩٨ / ٤.

(٤) الطبري ١٩٨ / ٤، فتوح البلدان ص ١٨٦.

(٥) فتوح البلدان ص ١٨٦.

(٦) فتوح البلدان ص ١٨٧.

المرتزقة سبعمئة ألف ومن السامرة ثلاثين ألف ومن اليهود مائتي ألف، ووجد بها ثلاثمئة سوق قائمة كلها. وقد بلغ سبي قيسارية أربعة آلاف. فلما بعث به معاوية إلى عمر بن الخطاب. قسمهم على يتامى الأنصار وجعل بعضهم في الكتاب والأعمال للمسلمين (١). وكان أبو بكر أخدم بنات أبي أمامة خادمين من سبي عين التمر فماتا فأعطاهن عمر مكانهما من سبي قيسارية (٢)، ولا يخفى ما يترتب على عمل كهذا في ساحة لا رواية فيها.

ونحن سنلقي بعض الضوء على الأرضية النصرانية بالجزيرة لنمسك بأول الخيط الذي نقف اليوم في نهايته. روي أن الوليد بن عقبة كان على رأس القوة التي افتتحت الجزيرة ودخلت إلى ديار بني تغلب. وفي بني تغلب التقى الوليد بن عقبة بأبي زبيد الشاعر. فأما الوليد قال فيه صاحب كتاب الإستيعاب: لا خلاف بين أهل العلم أن قوله الله عز وجل: (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) (٣)، نزلت في الوليد بن عقبة (٤). وعن ابن عباس في قوله تعالى: (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون) (٥)، قال: نزلت في علي بن أبي طالب والوليد بن عقبة، وذكر قصة في ذلك (٦)، أما أبو زبيد قال فيه صاحب الإصابة: كان في الجاهلية مقيما عند أخواله بني تغلب بالجزيرة. وكان في الإسلام منقطعاً إلى الوليد بن عقبة في ولايته للجزيرة ثم للكوفة (٧)، وقال ابن قتيبة: لم يسلم أبو زبيد ومات على نصرانيته. وقال المرزباني: كان نصرانياً وهو أحد المعمرين. يقال عاش مائة وخمسين سنة وأدرك الإسلام فلم يسلم (٨)،

(١) أول سبي دخل إلى المدينة من أبناء العجم كان في عهد أبي بكر (تاريخ الطبري ٢٦ / ٤).

(٢) فتوح البلدان ٤٧.

(٣) سورة الحجرات: الآية ٦.

(٤) الإستيعاب ٦٣٢ / ٣.

(٥) سورة السجدة: الآية ١٨.

(٦) الإستيعاب ٦٣٣ / ٣.

(٧) الإصابة ٨٠ / ٤.

(٨) الإصابة ٨٠ / ٤.

وبقي أبو زبيد إلى أيام معاوية (١). وبالرغم من أن الوليد بنص الحديث فاسق بما يوافق القرآن. وبالرغم من أن أبا زبيد على أكثر الآراء نصرانيا. فإن الفاروق رضي الله عنه رأى أن من المصلحة العامة أن يكون الوليد واليا على الجزيرة. أما فيما يتعلق بأبي زبيد قال ابن حجر في الإصابة: "استعمله عمر على صدقات قومه ولم يستعمل نصرانيا غيره" (٢)، وفي هذه الفترة أصدر عمر بن الخطاب قرارا. روى ابن شهاب أن عمرا كتب إلى أبي موسى الأشعري: "أن مر من قبلك بتعلم العربية فإنها تدل على صواب الكلام ومرهم برواية الشعر فإنه يدل على معالم الأخلاق" (٣)، ورواية الشعر كانت سنة عربية لم يهتم بأمرها الإسلام. ولم يمدح الكتاب الشعر والشعراء بكلمة ولا السنة بالغت في أمره. وروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "والذي بعثني بالحق لتكونن بعدي فترة في أمتي يبتغي فيها المال من غير حلة وتسفك فيها الدماء. ويستبدل فيها الشعر بالقرآن" (٤)، نحن إذا أمام دعوة لرواية الشعر وأمام إخبار بالغيب يقيم الحجة على فترة يستبدل فيها الشعر بالقرآن. وتحت ظلال دعوة رواية الشعر. تقف قبيلة تغلب التي ذمها رسول الله صلى الله عليه وآله. ونصارى الحيرة الذين بقوا على نصرانيتهم حتى العصر العباسي. وقوافل قيسارية التي بعث بهم معاوية إلى عاصمة الخلافة. وباقي دوائر الصد عن سبيل الله.

وفي عهد عثمان اتسعت الدائرة عندما أزيلت بعض الحواجز. وذلك عندما تولى الوليد بن عقبة ولاية الكوفة. ففي عهده تم الاتصال بنصارى الحيرة وبدأت قوافلهم تجوب المنطقة وراج شعر الأديرة الذي كان له نصيب من التأثير الخفي في الثقافة العقلية. ثم بدأ شعر الخمر يلقي بظلاله ومنه الذي يدعو لنبد الإسلام

(١) الإصابة ٨٠ / ٤.

(٢) الإصابة ٨٠ / ٤.

(٣) ابن الأنباري (كنز العمال ٣٠٠ / ١٠).

(٤) رواه الديلمي (كنز العمال ١٨٧ / ١١).

صراحة. ولقد قدمنا بعضه في كتابنا " الانحرافات الكبرى " (١)، فمن أراد أن يقف عليه وعلى أصول هذه الفترة فليراجعه هناك. وتحت ظلال شعر الأديرة والخمر. كان الأمير الوليد والشاعر أبو زيد يضربان بالأخلاق عرض الحائط. قال صاحب الإستيعاب: أخبار الوليد في شرب الخمر ومنادمته أبا زيد مشهورة كثيرة (٢)، وخبر صلاته بالمسلمين وهو سكران وقوله لهم: أزيدكم بعد أن صلى الصبح أربعاً مشهورة من رواية الثقات من نقل أهل الحديث وأهل الأخبار (٣)، وترتب على ذلك حدوث أول انتفاضة ضد حكم عثمان بن عفان. ضحى أمامها بعزل الوليد. ولكن الشعر بقي وازداد اتساعاً. وتطور إلى شعر الغزل ثم إلى شعر المجون. وفي عهد معاوية راج الأدب العربي غاية رواجه وظهر الشعر الذي يحتضن سياسة الحزب الحاكم ومنازعات القبائل ومظاهر العصبية العربية. وكان الأمويون يبالغون في ترويح الشعر. وربما كانوا يبدلون بإزاء بيت من الشعر أو نكتة أدبية المئات والألوف من الدنانير. وانكب الناس على الشعر وروايته وأخبار العرب وأيامهم وكانوا يكتسبون بذلك الأموال الكثيرة. وبلغ من نفوذ الشعر والأدب في المجتمع العلمي أنك ترى كثيراً من العلماء يتمثلون بشعر شاعر أو مثل في مسائل عقلية.

وبدأ شعر الصد يتسلل في ليل الفتن. وبدأ الشعراء يزحفون نحو مركز القيادة ومن هؤلاء: الأخطل، الذي ولد بالحيرة وكان من بني تغلب. دان بالنصرانية كأكثر قبيلته. ولما ولي يزيد بن معاوية الخلافة. دعا الأخطل إليه وأكرمه. وكذلك أكرمه خلفاء يزيد بن بعده وأسبغوا عليه نعمتهم ولا سيما عبد الملك الذي فضله على سائر الشعراء وأجزل له عطاياه (٤)، ومنهم: أعشى بني تغلب كان نصرانياً يقدم شعره في كل مكان ينزل به (٥)، وبدأت ثقافة الفتنة

(١) الانحرافات الكبرى / للمؤلف ط دار الهادي بيروت.

(٢) الإستيعاب ٦٣٣ / ٣.

(٣) الإستيعاب ٦٣٤ / ٣.

(٤) تاريخ الأدب العربي ٢٠٥ / ١.

(٥) المصدر السابق ٢٣٨ / ١.

تتسع حتى أصبح النصارى في عهد بني أمية لا يستغنى عنهم في تدبير السياسة كما كان عدد من نصارى الروم قائمين على تدبير الخراج. وكان لكثير منهم جاه عند الخلفاء (١)، ومن عبادة ثقافة الفتنة التي زحفت بالشعر والخمر والمجون نحو أرضية اللارواية. خرجت الآراء التي جاء بها الزنادقة. والنصرانية هي الأصل التي أتت منه جميع هذه الآراء (٢)، وخرجت آراء المرجئة على أيدي يحيى الدمشقي وكان أبوه صاحب عبد الملك بن مروان. وقد صنف يحيى كتابا في فضائل النصرانية. ولم يكن عرضا أن ظهرت عند المرجئة والقدرية في الشام آراء يحيى الدمشقي. وفي هذا الطوفان عادت إلى الظهور الأوضاع القديمة لعالم قديم. وأصبحت فيها للمال قوة عظيمة حتى سحقت طاحونه الكبيرة كل قيمة أخرى. وكل شئ صار يعرض من أجل المال وبلغت وصمة حب المال والمكر لتحصيله أعلى طبقات رجال الدولة.

وفي نهاية المطاف ظهر فريق من الشعراء يحتقرون كل ما هو ديني ويجرءون على الجهر بذلك على نحو لم يسبق له نظيرا في عصر من العصور. فكان أبو العلاء المعري الشاعر بالشام (ولد ٣٦٣ هـ) وتوفي عام (٤٤٩ هـ) يهاجم كل ما هو ديني مستندا في ذلك إلى وجهة نظر عقلية ومن شعره: أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما * ديانتك مكر من القدماء أرادوا بها جمع الحطام فأدر كوا * وبادوا وماتت سنة اللؤماء وقال:

قد ترامت إلى الفساد البرايا * واستوت في الضلالة الأديان (٣)
ثم جاء ابن الراوندي (المتوفى ٢٩٣ هـ) ليقول: إنا نجد في كلام أكتهم بن صيفي ما هو أحسن من القرآن (٤)، ويروى عن أبي العلاء المعري أنه عارض

(١) المصدر السابق ٢٥٦ / ١.

(٢) الحضارة الإسلامية ٦٥ / ٢.

(٣) المصدر السابق ١٣٧ / ٢.

(٤) المصدر السابق ١٣٩ / ٢.

القرآن بكتاب عنوانه " بالفصول والغايات في محاذاة السور والآيات "، وقد قيل لأبي العلاء: " ما هذا إلا جيد إلا أنه ليس عليه طلاوة القرآن. فقال: حتى تصقله الألسن في المحاريب أربعمئة سنة وعند ذلك انظروا كيف يكون " (١). وهكذا تحقق الإخبار بالغيب. تحقق بركوبه الشعر أولا حيث فتح الوليد الأسوار ودخل نصارى الحيرة ليعانقوا نصارى تغلب. وشاع شعر الأديرة ثم شعر الخمرور ثم شعر المجون. ثم تم التسلل نحو الكرسي الأكبر بركوبة شعر القبائل وأيام العرب وفضائل بني أمية. وعلى ساحة اللارواية نشأ التصوف تحت ضغط المشاكل السياسية. وفي مواجهة التصوف ظهرت الزندقة وتعاليم المرجئة وغيرهما وخلال هذا التطاحن كان النصارى يشرفون على جمع الخراج. ومن أراد الوزارة كان عليه أن يتقرب إليهم (٢)، وتحت شجرة الشوك تكالب الجميع على المال وأعلن شعراء الانحلال والصد الحرب على الدين والقرآن بصورة لم يسبق لها مثيل. وإذا كان الإمام علي بن أبي طالب قد توعد بني تغلب إن تفرغ لهم فإن له فيهم رأيا وقال: لأقتلن مقاتلهم ولأسبين ذريتهم (٣)، وذلك لتنفيذ وصية النبي صلى الله عليه وسلم والخاصة بإخراج المشركين من جزيرة العرب (٤). فإنه رضي الله عنه كان له رأي في الشعر والشعراء، يقول صاحب تاريخ الأدب العربي: اشتهر الفرزدق بالشعر وهو شاب. فعرضه أبوه على علي بن أبي طالب بعد يوم الجمل قائلا: إنه شاعر مضر، فأوصاه أمير المؤمنين أن يقرأ القرآن خيرا له من الشعر. ويروى أن الفرزدق وضع رجله في القيد وأقسم لا يفكهما إلا بعد أن يحفظ القرآن (٥).

(١) المصدر السابق ١٤٠ / ٢.

(٢) المصدر السابق ١٢٧ / ١.

(٣) فتوح البلدان ص ١٨٧.

(٤) البخاري (الصحيح ٢٠٢ / ٢).

(٥) تاريخ الأدب العربي ٢٠٩ / ١، تاريخ الطبري ٩٤ / ٢ - ١٠٨.

وأخيراً لقد أدى عدم الرواية إلى القص ورواية الشعر وكلاهما سنة عربية قديمة وإحياء هذه السنة أدى إلى عودة أوضاع قديمة لعالم قديم وكان ينقص هذا العالم لكي يكتمل خطوة أو خطوتين.

٣ - إلغاء سهم المؤلفة قلوبهم:

قال تعالى: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل)، وقد روى زياد بن الحارث الصدائي قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فبايعته. فأتاه رجل فقال: أعطني من الصدقة. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره من الصدقات حتى حم فيها فجزأها ثمانية أجزاء، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك"، رواه أبو داود (١)، وسهم المؤلفة قلوبهم قيل: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطيه لجماعة منهم الذين يراد تأليف قلوبهم ليسلموا كسادات العرب وزعمائهم ومنهم للذين أسلموا ونياتهم ضعيفة فتؤلف قلوبهم بإجزال العطاء. ومنهم من يترقب بإعطائهم إسلام نظرائهم من رجالات العرب. ولقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى هذا السهم لأبي سفيان بن حرب وابنه معاوية (٢)، والأقرع بن حابس وعيينة بن حصين، وعباس بن مرداس. وصفوان بن أمية، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلفة قلوبهم منذ نزلت الآية حتى لحق صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ولم يعهد إلى أحد من بعده بإسقاط هذا السهم إجماعاً من الأمة المسلمة كافة وقولا واحداً.

وبعد وفاة النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم. جاء عيينة بن حصين والأقرع بن حابس وعباس بن مرداس. وطلبوا من أبي بكر نصيبهم فكتب لهم

(١) المغني / ابن قدامة ٦٦٥ / ٢.

(٢) إعطائه أبو سفيان راجع مسلم ١٥٦ / ٧ وإعطائه أبو سفيان ومعاوية راجع البداية والنهاية (٣٥٩، ٣٦٠ / ٤).

به. وجاءوا إلى عمر بن الخطاب، وأعطوه الخط، فأبى ومزقه. وقال: هذا شيء كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطيكموه. تأليفا لكم على الإسلام. وأغنى عنكم. فإن ثبتم على الإسلام. وإلا فبيننا وبينكم السيف فرجعوا إلى أبي بكر فقالوا: الخليفة أنت أم عمر؟ بذلت لنا الخط فمزقه عمر، فقال: هو إن شاء. وأمضى ما فعله عمر (١).

يقول ابن قدامة: ولنا كتاب الله وسنة رسوله. فإن الله تعالى سمي المؤلف في الأصناف الذين سمي الصدقة لهم والنبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله تعالى حكم فيها فجزأها ثمانية أجزاء"، وكان النبي صلى الله عليه وآله يعطي المؤلف كثيرا في أخبار مشهورة. ولم يزل كذلك حتى مات، ولا يجوز ترك كتاب الله وسنة رسوله إلا بنسخ. والنسخ لا يثبت بالاحتمال. ثم إن النسخ إنما يكون في حياة النبي صلى الله عليه وسلم لأن النسخ إنما يكون بنص. ولا يكون النص بعد موت النبي صلى الله عليه وآله وانقراض زمن الوحي. ثم إن القرآن لا ينسخ إلا القرآن وليس في القرآن نسخ كذلك ولا في السنة. فكيف يترك الكتاب والسنة بمجرد الآراء والتحكم فكيف يتركون به الكتاب والسنة؟ (٢).

واعتذروا عما فعله عمر وقالوا: إن الله سبحانه فرض في أول الإسلام عندما كان المسلمون ضعافا عطاء يعطي لبعض من يخشى شرهم ويرجي خيرهم تألفا لقلوبهم. غير أن الإسلام لما اشتد ساعده وتوطد سلطانه رأى عمر بن الخطاب حرمان المؤلف قلوبهم من هذا العطاء المفروض لهم بنصوص القرآن!! نقول: لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلف يوم إن كان الوحي يدافع عنه أي: كان يعطيهم من موقع القوة. لفتح الطريق بتحطيم الأصنام داخل نفوسهم. ويصل النور إلى عقولهم فتحترضه الفطرة. وتحطيم الأصنام له وجوه.

(١) فقه السنة ٤٢٥ / ١، تفسير المنار ١٠ / ٤٩٦، الدر المنثور ٢ / ٢٥٢.

(٢) المغني / ابن قدامة ٦٦٦ / ٢.

فمن قبل حطم إبراهيم عليه السلام الأصنام ليصل النور إليهم وقيم عليهم الحجة. فكيف يقال والوحي مع رسول الله أن النبي كان يعطي نظرا لضعف المسلمين. وأنهم منعوا لأن معهم آراءهم. ولوقوفهم على أرضية العز وتوطيد السلطان. ثم من الذي قطع بأن السلطان دائم؟ ألم يخبر النبي صلى الله عليه وسلم بالاختلاف والافتراق من بعده وقال: "إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود كما بدأ... (١)، قال النووي: إن الإسلام بدأ في أحاد من الناس وقلة ثم انتشر وظهر ثم سيلحقه النقص والإخلال حتى لا يبقى إلا في أحاد وقلة أيضا كما بدأ (٢).

وهب أننا سلمنا وقلنا بما قالوا بأن السهم كان يعطى لضعف المسلمين. أليس بين أيدينا نص يقول بأن هذا الضعف سيعود. وعلى هذا فلا بد أن يكون إعطاء السهم ممتد. والخلاصة: أن النص في إعطائهم مطلق وإطلاقه واضح في كتاب الله، وهذا مما لا خلاف ولا شبهة فيه. وليس لنا أن نعتبر إعطاءهم معللا بظروف زمنية مؤقتة هي تألفهم حينما كان الإسلام ضعيفا دون غيره من الأزمنة. لقد افترضوا في المقدمة أن السلطان دائم وقوي. وها نحن عند النتيجة نرتجف خوفا - حتى قال صاحب المنار: إننا نجد دول الاستعمار الطامعة في استعباد جميع المسلمين وفي ردهم عن دينهم يخصصون من أموال دولهم سهما للمؤلفة قلوبهم من المسلمين، فمنهم من يؤلفونه لأجل تنصيره وإخراجه من حظيرة الإسلام. ومنهم من يؤلفونه لأجل الدخول في حمايتهم ومشاقة الدول الإسلامية الوحدة الإسلامية. أفليس المسلمون أولى بهذا منهم؟! (٣)، إننا عند النتيجة نخاف من عالم المعونات والمنح والقروض الأجنبية، لأن كل هذا يصب في النهاية في مربع المؤلفة قلوبهم ولكن لصالح دوائر الصد عن سبيل الله.

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة وابن ماجه عن ابن مسعود وأنس والطبراني في الكبير عن سلمان وسهل بن سعد وابن عباس. ورواه الترمذي (صحيح مسلم ١٧٧ / ٢)
(كنز العمال ٢٣٨ / ١) (جامع الترمذي ١٨ / ٥).

(٢) مسلم بشرح النووي ١٧٧ / ٢.

(٣) فقه السنة ١٧٧ / ٢.

نظرات على الطريق:

إن سهم المؤلفة قلوبهم دليل على إمامة أهل البيت، وبدون قيادتهم لا يمكن للسهم أن يصرف بما يخدم الدعوة. فمن المعلوم أن الاقتراب في الدين أو الحياة الدينية من الذين ظلموا بنوع من الاعتماد أو الاتكاء يخرج الدين أو الحياة الدينية عن الاستقلال في التأثير ويغيرهما عن الوجهة الخالصة. ولهذا نهى الله تعالى النبي وأمته من الركون إلى من اتسم بسمة الظلم بأن يميلوا إليهم ويعتمدوا على ظلمهم في أمر دينهم أو حياتهم الدينية. قال تعالى: * (ولا تركزوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) * (١)، وتحديد الذين ظلموا يحتاج إلى صاحب فقه عال فإن قيل أن الأمة قادرة على هذا التحديد. قلنا وعلى رأس هؤلاء يكون من أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. وفي هذا نصوص. لأن الله ما طهرهم لا للدين والحياة الدينية فهم الأولى بتحديد أي عقبة على طريق الدين. ومن المعلوم أيضا أن الأمة بها العديد من الدوائر التي هدفها الصد عن سبيل الله. ومنهم الذين أرادوا اغتيال الرسول صلى الله عليه وآله عند عودته من تبوك ووصفهم النبي بأنهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا وذلك في حديث صحيح. فالتعامل مع هذه الدوائر تحتاج إلى سياسة خاصة تتألفهم في الوقت الذي تجعلهم فيه بعيد عن المناصب التي لا يطلعون فيه على الأسرار المهمة، قال تعالى: * (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر) * (٢)، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: هم المنافقون (٣)، وقال ابن كثير: نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة (٤)، فإن قيل أن الأمة تعرف المنافقين. قلنا: لا نسلم بهذا وإنما نسلم بمن جاء فيه نص.

(١) سورة هود ١١٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١١٨.

(٣) الدر المنثور ٦٦ / ٢.

(٤) تفسير ابن كثير ٣٩٨ / ١.

فالذي لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق هو القادر على القيادة وتحديد الذين سيتعامل معهم. ومن هو الذي سيكون قريبا من دائرة القرار ومن هو الذي ينبغي أن يكون في موقع بعيد عن الأسرار المهمة للدولة. إن سهم المؤلفة قلوبهم لم يكن يعطى كي يعتنق البعض الإسلام. فهذا المنطق في ديار التبشير حيث ينطلق المبشرون بالخبز والدواء في كل مكان كي يعتنق الناس النصرانية. أما الإسلام فلا. لأن الآية حددت القلب كدائرة عمل قال تعالى: * (والمؤلفة قلوبهم) *، فالرسول صلى الله عليه وآله يهيئ قلوبهم ويجهزها كي تستقبل منه. ومعنى يهيئ قلوبهم أن يحدد المرض الذي على الطريق إلى القلب ثم يجهز له الدواء المناسب. فهناك من كان النبي يتألفه بوضعه على رأس سرية من السرايا. حتى إن عمرو بن العاص عندما قيل له عند موته: قد كان رسول الله يدينك ويستعملك قال: أما والله ما أدري أحبا كان ذلك أم تألفا يتألفني (١)، ومنهم من كان يتألفهم بمشاورتهم في بعض الأمور. ومنهم من كان يتألفه بالمال عن صفوان بن أمية قال: أعطاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإنه لأبغض الخلف إلي فما زال يعطيني حتى أنه لأحب الخلق إلي (٢).

إن الرسول صلى الله عليه وآله يحدد الداء الذي في الصدر وعليه يعطي الدواء لكي يقيم الحجة على أفراد بعينهم. أنه صلى الله عليه وآله يحطم الأصنام التي تحت الجلود كي يجعل أصحابها أحرارا في اتخاذ القرار. كما حطم إبراهيم عليه السلام الأصنام من قبل كي يرجع القوم إلى أنفسهم ويكونوا أحرارا في اختيارهم " قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كان ينطقون. * (فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم

(١) أخرجه الإمام أحمد وقال الهيثمي رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح وله طرق أخرى (الفتح ٣١٠ / ٢٢)، ورواه ابن سعد (الطبقات الكبرى ٢٦٣ / ١) وابن أبي شيبة (كنز العمال ٥٤٩ / ١١) وراجع مجمع الزوائد (٣٥٣ / ٩).
(٢) رواه مسلم، ورواه الترمذي (جامع الترمذي ٤٤ / ٣).

الظالمون) * (١)، فالإسلام لم يأت بأجولة من الدنانير والدراهم كي يعتنقه الناس. وإنما جاء بالكلمة والحركة التي تذكر الإنسان بمخزون الفطرة وتجعله يقرأ الوجود من حوله من منطلق التوحيد. وإذا كان الإسلام قد فرض سهما للمؤلفة قلوبهم لحكمة فإنه طالب أتباعه بأن يجاهدوا في سبيل الله بالمال والولد. فهو يعطي لهدف ويأخذ لهدف والله غني عن العالمين. وروي أنه يوم حنين أعطى النبي قريشا ولم يعط الأنصار. فحزن بعض الأنصار لذلك فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنني أعطي رجالا حديثي عهد بكفر أتألفهم أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون إلى رحالكم برسول الله. فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به. قالوا: بلى يا رسول الله قد رضينا فقال لهم: إنكم سترون بعدي أثره شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله على الحوض. قال أنس وهو الراوي للحديث: فلم نصبر (٢) فالذين أخذوا المال كان المال لهم دواء من أجل أن ينتصروا على في أنفسهم. وهناك من كان يطلب من النبي أن يعطيه. وعندما رأى أنه انتصر داخل نفسه لم يسأل مالا وتركه ليكون سبيلا إلى آخر. فعن حكيم بن حزام قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاني. ثم سألته فأعطاني ثم قال لي: يا حكيم إن هذا المال خضر حلو. فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلى. قال حكيم فقلت: يا رسول الله والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحد بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا.

وهناك صنف كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطيهم وهو يعلم أن الله ختم على قلوبهم فهم لا يؤمنون. وهؤلاء الذين قال فيهم الله تعالى: * (وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) * (٣)، وهناك أيضا الذين قال فيهم

(١) سورة الأنبياء: الآية ٦٤.

(٢) البخاري ك الجهاد (١٩٩ / ٢) مسلم (١٥١ / ٧) أحمد (الفتح الرباني ٨٩ / ١٤).

(٣) سورة يس: الآية ٦.

تعالى: * (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هو بمؤمنين) * (١)،
والرسول صلى الله عليه وآله كان يعطي هؤلاء يكون سهم المؤلفه عليهم
علامة. يكون كالسك وعلى هذا يكونوا معروفين للأمة فتحذرهم وتتعامل معهم
بفقه عال فلا توليهم المناصب العليا في الدولة حتى لا يصلوا إلى موقع القرار.
ولله تعالى على بعض عباده علامات. قال سبحانه في كفار أهل الكتاب:
* (وضربت عليهم الذلة والمسكنة) * (٢)، ضربت كضرب السكة على المعدن أو
كضرب الخيمة على الإنسان، وسهم المؤلفه على الذين يقولون آمنا بالله وباليوم
الآخر وما هم بمؤمنين كالسك على المعدن. وليس كل من رآه المسلمين مؤمنا
أن يكون بالضرورة مؤمنا فيولونه أمورهم. روى الإمام مسلم أن النبي صلى الله
عليه وآله وسلم أعطى قوما كان سعد يجلس فيهم. فترك النبي منهم من لم
يعطه. وكان سعد يعجبه بعض الذين لم يعطهم النبي فقال سعد: يا رسول الله
مالك عن فلان فوالله إني لأراه مؤمنا. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أو
مسلمًا. ثم تكرر هذا الموقف أكثر من مرة وسعد يقول ما قال والنبي يقول: أو
مسلمًا. ثم قال النبي: إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه خشية أن يكب في
النار (٣)، وفي هذا الحديث أن سعدا كان يحكم على طرف بأنه مؤمنا وذلك
وفقا لما يراه. أما الرسول صلى الله عليه وآله كان يحكم بما لا يراه سعد. وهذا المقياس
له بعد النبوة امتداد. لأن الذين يقولون آمنا وهم لا يؤمنون باقون
وأیضا سهم المؤلفه باقي لأنه لم ينسخ بقرآن. وعلى هذه الخلفية يمكن أن نفهم
قول النبي صلى الله عليه وآله بن أبي طالب: " ألا ترضى أن تكون مني
بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي " (٤)، ويضاف قوله لعلي: " لا
يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق " (٥)، فهذا الامتداد يحفظ الدعوة من

(١) سورة البقرة: الآية ٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٦١.

(٣) رواه مسلم وغيره (صحيح مسلم ١٨٢ / ٢).

(٤) رواه البخاري وغيره (الصحيح ٨٦ / ٣) وسبق تخريجه.

(٥) رواه مسلم وغيره وسبق تخريجه.

الذين ظلموا ويمنع تسلل بطانة السوء إلى المقاعد الأولى. لأن الاقتراب في الدين أو الحياة الدينية من هذه الدوائر بنوع من الاعتماد والاتكاء يخرج الدين أو الحياة الدينية عن الاستقلال في التأثير.

وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم لم يتحقق الامتداد لمصلحة رآها بعض الصحابة يحفظون بها الحياة الدينية. فأمسكوا سهم المؤلف الذي كان يعطيه النبي صلى الله عليه وسلم للبعض من قريش وغيرهم فقد روي أنه صلى الله عليه وسلم كان يبعث بالمال إلى أبي سفيان ليفرقه في قريش ليتألفهم (١)، ولكن رأي الصحابة نشأ عنه آثار جانبية مثل التي تنشأ عن الدواء الذي يستخدم في علاج داء معين ومن جملة هذه الآثار أن أبا سفيان دخل على عثمان بن عفان بعد أن كف بصره فقال: هل علينا من عين؟ قال: لا، فقال: يا عثمان إن الأمر أمر عاليه والملك ملك جاهلية فاجعل أوتاد الأرض بني أمية (٢)، وفي رواية قال: يا معشر بني أمية إن الخلافة صارت في تيم وعدي حتى طمعت فيها. وقد صارت إليكم فتلقفوها بينكم تلقف الصبي للكرة (٣)، وفي مروج الذهب عنه أنه قال: يا بني أمية تلقفوها تلقف الكرة فولاذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصرن إلى صبيانكم وراثته (٣)، وروي أنه مر بقبر حمزة بن عبد المطلب فضربه برجله وقال: يا أبا عمار إن الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمس صار في يد غلماننا اليوم يتلعبون به. ومن جملة ذلك أيضا أن معاوية الذي ضاع من على يديه سكة سهم المؤلف بعد التضييق على الرواية نازع على الخلافة. وجلس في المقعد الأول يقود الحياة الدينية للأمة!! ومن جملة هذا ظهور المزيد من المنافقين الذين يقرأون القرآن يريدون به ما عند الناس. روي أن الفاروق عمر بن الخطاب خطب الناس فقال: أيها الناس ألا إنما كنا نعرفكم إذ بين ظهرانينا النبي صلى الله عليه

(١) رواه ابن عساكر (كنز العمال ١٧٦ / ٩).

(٢) الأغاني ٦ / ٣٥٥، تهذيب ابن عساكر ٤٠٧ / ٦.

(٣) الأغاني ٣٥٥ / ٦، الإستيعاب ٦٩٠ / ٢.

وآله وسلم. وإذ ينزل الوحي... وإذ ينبأنا الله من أخباركم ألا وإن النبي صلى الله عليه وآله قد انطلق وانقطع الوحي وإنما نعرفكم بما نقول لكم من أظهر منكم خيرا ظننا به خيرا وأحببناه عليه. ومن أظهر لنا شرا ظننا به شرا وأبغضناه عليه. سرائركم بينكم وبين ربكم ألا أنه قد أتى علي حين وأنا أحسب أن من قرأ القرآن يريد الله وما عنده فقد خيل إلي بآخره ألا أن رجالا قد قرأوه يريدون به ما عند الناس فأريدوا الله بقراءتكم وأريدوه بأعمالكم (١). في هذا الخطاب أمضى الفاروق بأن الطريق الذي بدأه بقول: " حسبنا كتاب الله " قد أنتج في عهده. من يقرأ القرآن يريد به ما عند الناس. وفي الخطاب يأس من معرفة المنافقين. وفيه أن العمود الفقري الذي تدور عليه السياسة " وإنما نعرفكم بما نقول لكم "، وقد أمر رضي الله عنه بما كان يراه لمصلحة المسلمين. ولكن الإشكال في قوله: " من أظهر لنا شرا ظننا به شرا "، لأن المنافق لا يظهر شرا!! وعلى هذا تسلسل أغيلمة قريش إلى الكراسي الأولى. وأمروا الناس بقتل الحسين واستباحة المدينة. وقتل من بقي من الأنصار وحرقت الكعبة وجلد المسلمين. وكانوا يعرفون الناس بما يقولون لهم فمن أظهر لهم شرا أطاحوا برقبته وطاقوا برأسه. حتى انتهى الأمر إلى ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أمراء السور وبطانتهم. وأغلب الظن أن الصحابة في المجتمع المدني بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله تبيينوا أن وجود سهم المؤلفة يحتم وجود طرف آخر تحت ضوئه يظهر النفاق، ونظرا لأن ظروف ما حتمت إبعاد هذا الطرف سيصبح سهم المؤلفة إرثا للذين كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعطيهم أو أن قاعدته ستتسع لتشمل البعض من الذين لم يقطع بنفاقهم أو سيصبح نهيا ويوظف لاتجاهات أخرى الصحابة أجل من أن يخوضوا فيها، وعلى هذا فضلوا الإطاحة بالسهم وهذا العمل وفقا لأعمدة المجتمع المدني عمل لا غبار عليه ويمكن فهمه.

(١) رواه أحمد وقال في الفتح إسناده حسن وأخرج البخاري الطرف الأول منه (الفتح الرباني ٨٧ / ٢٣) ورواه ابن خزيمة والبيهقي والحاكم وابن سعد وابن عساكر وسعيد بن منصور (كنز العمال ١٦٣ / ١٦).

رابعاً - الأمراء والفتن

كانت سيرة النبي صلى الله عليه وآله في أمرائه الذين يبعثهم لإنجاز مهمة ما أن يحذرهم بأن معصيته هي معصية لله. وكانوا يعلمون أن الوحي يرصدهم تحت جلودهم. وكان صلى الله عليه وآله يحذرهم من اتخاذ أي قرار لم يمضه حتى لا تسيل قطرة دم بغير حق. عن معاذ بن جبل قال بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله إلى اليمن فلما سرت أرسل في أثري. فرددت فقال: أتدري لم بعثت إليك؟ لا تصيبين شيئاً بغير إذني فإنه غلول ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة، لهذا دعوتك فامض لعملك (١)، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يبرأ إلى الله من أي أمير لا يتقيد بأوامره أو يجتهد في أمر اجتهاد ليس للإسلام فيه نصيب. روي أنه صلى الله عليه وآله بعث خالد بن الوليد في بعث إلى بني خزيمة فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا " قالوا صبأنا صبأنا. فجعل خالد يقتل منهم ويأسر. وعندما علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالخبر رفع يده وقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد - مرتين - (٢)، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يأمر الجنود بأن يطيعوا أمراءهم إذا كان الأمر في حدود المهمة التي أرسلوا إليها وأن يطيعوه إذا اجتهد اجتهاداً لا يتعارض مع الإسلام. روي أن النبي صلى الله عليه وآله بعث سرية و أمر

(١) ورواه الترمذي. وقال في تحفة الأحوازي أخرجه أبو داود والبيهقي وابن حميد وابن عدي (التحفة ٥٦٥ / ٤).

(٢) رواه البخاري كتاب المغازي ب بعث النبي خالد (الصحيح ٧١ / ٣).

من فيها بأن يطيعوا أميرهم. وعند تنفيذ المهمة غضب الأمير. فقال لمن معه: أليس أمركم النبي صلى الله عليه وسلم أن تطيعوني. قالوا: بلى، قال: فاجمعوا لي حطباً فجمعوا فقال: أوقدوا ناراً. فأوقدوها. فقال: أدخلوها فهموا. وجعل بعضهم يمسك بعضها ويقولون: فررنا إلى النبي من النار (١)، فما زالوا حتى خمدت النار. فسكن غضب الأمير فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: لو أدخلوها ما

خرجوا منها إلى يوم القيامة والطاعة في المعروف (٢)، وروي أن عمران بن حصين بعد وفاة النبي كان يذكر بهذا الحديث الأمراء الذين كانوا يتسعملهم زياد (٣).

١ - أمراء على الطريق:

وكما ذكرنا من قبل أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستعمل البعض على رأس السرايا تألفاً منهم عمرو بن العاص وقد ولاه أميراً على أبي بكر وعمر وأبي عبيدة بن الجراح في غزوة ذات السلاسل (٤)، وكان النبي قد وجهه إلى أخوال أبيه العاص يستألفهم بذلك و يدعوهم إلى الإسلام (٥)، فلما وصل ابن العاص إلى أرض السلاسل بعث إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستمده بجيش فأمره بمأتين فيهم شيوخ المهاجرين (٦)، لقد كانت هذه سيرته صلى الله عليه وسلم في تحديد الأمراء وتعيين أهداف الدعوة. وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم. كانت هناك مقاييس أخرى لهذه العملية. فعلى سبيل

(١) أي آمنا خوفاً من النار يوم القيامة ونحن الآن نأمر بالدخول فيها.

(٢) رواه البخاري كالمغازي (الصحيح ٧١ / ٣) وأحمد بإسناد صحيح (الفتح ٤٢ / ٢٣).

(٣) رواه أحمد وفيه " لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق " وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الفتح ٤٢ / ٢٣).

(٤) رواه الطبراني ورجاله ثقات (الزوائد ٣٥٢ / ٩) وسعيد بن منصور (كنز العمال ٧٨٢ / ٥) وابن حجر في الإصابة (٢ / ٣) والاستيعاب (٥١٠ / ٢).

(٥) الإستيعاب (٥١٠ / ٢).

(٦) الإستيعاب (٥١٠ / ٢).

المثال خالد بن الوليد الذي تبرأ من صنعة النبي صلى الله عليه وسلم نجده في عهد أبو بكر يرتكب مخالفات ليست أقل خطورة مما ارتكب من قبل ولكن فعله توارى وراء تعريف " تأول فأخطأ وله أجر واحد "، وكان الشخص الذي يرتكب مخالفة للكتاب أو السنة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ويراد الاعتذار عنه أو يصحح عمله يقال له: " تأول " وتطور الاعتذار إلى حد صار إلى كل جريمة ترتكب ومن أمثلة ذلك اعتذار ابن حزم عن أبي الغادية قاتل عمار بن ياسر من أنه متأول مجتهد فأخطأ فله أجر واحد هذا مع ما تواتر من قول النبي صلى الله عليه وسلم في عمار أنه تقتله الفئة الباغية.

ومخالفة خالد عندما قتل مالك بن نويرة ثم تزوج امرأته التي وصفها ابن كثير بأنها كانت جميلة (١)، قصة معروفة عند من تأمل كتب السير والنقل. فمالك بن نويرة كان على صدقات قومه بني يربوع واليا من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولما بلغه وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أمسك عن أخذ الصدقة من قومه حتى يقوم قائم بعد النبي صلى الله عليه وسلم وروى أهل النقل. إن أبا بكر وصى الجيش الذي بعثه ليقا تل مانعي الزكاة. بأن يؤذنوا ويقيموا فإن أذن القوم كأذانهم وإقامتهم كفوا عنهم. وإن لم يفعلوا أغاروا عليهم (٢). وعندما تقدم خالد نحو بني يربوع وكان معه أبو قتادة بن سراباه وأمر جنوده أن يدعوا القوم وأن يأتوه بكل من لم يجب. فجاءته الخيل بمالك بن نويرة الذي انتهى الأمر بقتله وتزوج خالد زوجته أم تميم بنت المنهال. وكان أب قتادة الحارث بن ربيعي ممن شهد أنهم أذنوا وأقاموا و صلوا. وحلف أبو قتادة ألا يسير تحت لواء خالد في جيش أبدا (٣). وركب أبو قتادة فرسه واتجه إلى أبي بكر فأخبره الخبر وقال له: إني نهيت خالدا عن قتله فلم يقبل قولي. وعندما سمع عمر بن الخطاب الخبر قال: إن القصاص قد وجب على

(١) البداية والنهاية ٣٢٢ / ٦.

(٢) الطبري ٢٤٢ / ٣.

(٣) الطبري ٢٤٣ / ٣.

خالد. وعندما جاء خالد قام إليه عمر فنزع الأسهم عن رأسه فحطمها ثم قال له: يا عدو نفسه أعدوت على امرئ مسلم فقتلته ثم نزوت على امرأته والله لنرجمنك بأحجارك. وخالد لا يكلمه. ولا يظن إلا أن رأي أبي بكر مثل رأيهِ. حتى دخل إلى أبي بكر واعتذر إليه بعذره وتجاوز عنه. فخرج خالد وعمر جالس في المسجد فقال: هلم إلي يا ابن أم شملة. فعرف عمر أن أبا بكر قد رضي عنه (١). وروى أن أبا بكر قال: " ما كنت لأرجمه فإنه تأول فأخطأ " وفي رواية: " هبه يا عمر تأول فأخطأ " فارفع لسانك عن خالد (٢).

لقد كانت هذه بداية جاء عليها طوفان من الأمراء فيما بعد. في البداية قام الأمراء بالقتل على الرغم من أن الخليفة وضع شرطا لهذا القتال، وهو الآذان والإقامة. ونحن لا نناقش هنا الأساس الفقهي الذي استند إليه أبو بكر في قتال مانعي الزكاة. وقد علمنا أن النبي صلى الله عليه وآله لم يقبل زكاة ثعلبة بن حاطب وقصته مذكورة في سورة التوبة. ونحن لا نناقش الأساس الفقهي في ذلك وقد رأينا عمر نفسه قد اعترض على قتال مانعي الزكاة منذ البداية واعترض على مخالفات خالد. ولا ندري كيف يقتل مالك على الزكاة وهو يصلي. فهل معنى ذلك أن يقتل الذي لا يصلي حتى إذا أخرج الزكاة. وذلك لأن الصلاة والزكاة حزمة واحدة ومعها الشهادتين وحج البيت. ولكننا نناقش هنا الأرضية التي جاء عليها الأمراء. لأن منها خرجت فتن وصل دخانها عنان السماء.

لقد علمنا أنه في عهد النبوة كانت هناك دوائر عديدة هدفها الصد عن سبيل الله. وكان الرسول يدعو على بعضهم ويطردهم ويخبر أصحابه بأسماء البعض الآخر. وكان عبد الله بن عمرو يكتب بعض أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم في صحيفة خاصة به. فلما علمت جهات الصد عن السبيل بذلك. حاولوا أن يحولوا بين عبد الله وبين ما يكتب نظرا لاحتمال ذكرهم فيما يكتب.

(١) الطبري ٢٤٣ / ٣.

(٢) الطبري ٢٤٢ / ٣.

روي عن عبد الله أنه قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أريد حفظه فنهتني قریش. وقالوا: أكتب كل شيء تسمعه ورسول الله صلى الله عليه وآله بشر يتكلم في الغضب والرضا. فأمسكت عن الكتابة. فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله فأومئ لي شفتيه وقال: والذي نفسي بيده ما يخرج مما بينهما إلا حق فاكتب " (١).
لقد كان التدوين عقبة أمامهم. فلما جاء عهد الفاروق وهدد من يروي بالضرب والحبس وذلك لمصلحة للمسلمين لا نستطيع الوقوف عليها. ضاع ذكر القوم. وعندما أقدم الفاروق رضي الله عنه على إلغاء سهم المؤلفة قلوبهم. تجرد القوم من علامة بارزة تدل على تألفهم لضعف إيمانهم. ومع نسيان أخبارهم وضياع علامتهم انخرطوا في نسيج واحد مع الأمة دون اتخاذ الأمة لأي نوع من أنواع الحذر والحيلة تجاههم. ولكي تكتمل المأساة كذبوا على رسول الله صلى الله عليه وآله. نظرا لاحتمال تسرب حديث من الأحاديث التي ذمهم فيها النبي. وعلى سبيل المثال لقد وصفوا النبي لابن عمرو عندما كان يكتب. بأن النبي بشر يتكلم في الغضب والرضا. ونجدهم يقولون على لسان الرسول فيما بعد: " اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر. وإنني اتخذت عندك عهدا لن تخلفه. فأیما مؤمن آذيته أو سببته أو جلدته فاجعلها كفارة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة " (٢)، وهكذا جعلوا النبي مؤذيا سبابا جلادا حتى يفلتوا مما ورد فيهم. ورووا عنه أيضا أنه قال: " اللهم فأیما مؤمن سببته أو لعنته فاجعل ذلك له قربة إليك يوم القيامة " (٣)، هكذا جعلوه سبابا ولعانا " هذه الأحاديث يعارضها قوله الله تعالى: * (وإنك لعلی خلق عظیم) * (٤)، وقوله تعالى: * (وما

-
- (١) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد أصل في كتابه الحديث عن رسول الله ولم يخرجاه (المستدرک ١٠٥ / ١) ورواه أبو داود حديث رقم ٣٦٤٦.
(٢) رواه مسلم (الصحيح ١٥٣ / ١٦) ك البرب من لعنه النبي.
(٣) سورة القلم: الآية ٤.
(٤) سورة النجم: الآية ٣.

ينطق عن الهوى) * (١)، وقوله تعالى: * (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) * (٢)، إلى غير ذلك من الآيات. ويعارضه حديث "لم يكن النبي سبابا ولا فحاشا" (٣)، وإذا كان النبي قد لعن أحدا فإن هذا اللعن بأمر من الله قال تعالى: * (إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) * (٤)، وقد أمر الله رسوله يوم مباهلة نصارى نجران بأن يأتي بعلي وفاطمة والحسن والحسين وأن يقول للنصارى: * (ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) * (٥)، فالرسول لا ينطق إلا بوحي ولكن أجهزة ومؤسسات الصد جعلته يغضب كما يغضب البشر لأسباب يفهمها كل باحث عن الحقيقة.

وبعد أن انخرطوا مع الأمة في نسيج واحد ضاع ذكرهم بعد أن أغلقت الأبواب على الأحاديث التي حذرت منهم. كما ضاع ذكر أهل البيت بعد أن أغلقت نفس الأبواب على الأحاديث التي رغبت فيهم. ورغم ذلك كان في الساحة طائفة موالية لأهل البيت ولكن في عالم الظلال... وتحت الأضواء كان هناك من يسير بين الأمة وهدف الأمة. كان يود لو أمسك بقائمة كرسي أمام باب من الأبواب يتسلك عليها إلى كرسي آخر حتى يخرج الحياة الدينية عن مسارها وتتحول فيما بعد إلى اتجاه يدفع إلى فتن حذر النبي صلى الله عليه وآله من مقدماتها. ونحن هنا سنلقي بعض الضوء على بعض الأمراء الذين كانت بداية ظهورهم في عهد أبي بكر ثم تدفقت بهم الدولة بعد ذلك على امتداد تاريخها. أما الذين كانوا على عهد أبي بكر فمنهم رجل يدعي الفجأة. قدم إلى أبي بكر وزعم أنه مسلم وسأله أن يجهز معه جيشا يقاتل به أهل الردة. فجهز معه جيشا فلما سار جعل لا يمر بمسلم أو مرتد إلا قتله وأخذ ماله. وعندما علم أبو بكر

(١) سورة

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

(٣) رواه البخاري كتاب الآداب (الصحيح ٥٥ / ٤).

(٤) سورة البقرة: الآية ١٥٩.

(٥) سورة آل عمران: الآية ٦١.

بهذه الأحداث رده ثم أحرقه في النار (١)، ومن قبل رأينا خالد بن الوليد الذي وصفته الأحاديث الصحيحة أنه كان من المبغضين لعلي بن أبي طالب كيف ركب على رأس جيش وقتل مالك وأخذ ماله وتزوج زوجته. وتحت شعار حروب الردة برز عمرو بن العاص. وروي أن عمر بن الخطاب قال لأبي بكر حين شيع عمرو بن العاص: أو تزيد الناس نارا. ألا ترى ما يصنع هذا بالناس! فقال: دعه فإنما ولاه علينا رسول الله لعلمه بالحرب (٢)، وغير هؤلاء كثير شربوا لبن الإمارة صغاراً ثم قاتلوا من أجلها كباراً ثم جاء عهد عمر بن الخطاب فاتسعت الرقعة. ولقد كانت الرقعة في عهد أبي بكر على مسرحها تدور الكثير من حروب الردة وبعض الفتوحات، أما في عهد عمر فعلى مسرحها دارت الفتوحات الكثيرة الواسعة. وبحجم الفتوحات كان حجم الأمراء. ومن هؤلاء الأمراء. معاوية بن أبي سفيان، الذي أسلم هو وأبيه وأمه يوم الفتح (٣)، وقال البعض: إنه أسلم بعد الحديبية وكنتم إسلامه وهذا يعارضه ما ثبت في الصحيح عن سعد بن أبي وقاص أنه قال في العمرة في أشهر الحج. فعلناها وهذا يومئذ كافر (٤)، كان الفاروق لا يخفي إعجابه بمعاوية، روى أنه ذكر معاوية عند عمر فقال: دعوا فتى قريش وابن سيدها أنه لمن يضحك في الغضب ولا ينال منه إلا على الرضا ومن يأخذ من فوق رأسه إلا من تحت قدميه (٥)، وكان يقول للناس: تذكرون كسرى وعندكم معاوية (٦)، ومعاوية بدأ يحبو في اتجاه الكرسي بعد وفاة أخيه يزيد بن أبي سفيان الذي كان له كرسي في عهد أبي بكر وعمر عندما مات يزيد. كتب عمر بولاية معاوية مكان أخيه. وعندما ذهب عمر ليعزي أبي سفيان

(١) البداية والنهاية ٣١٩ / ٦.

(٢) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٣٥٢ / ٩).

(٣) البداية والنهاية ٢١ / ٨، والاستيعاب ٣٩٥ / ٣.

(٤) الإصابة ١١٣ / ٦.

(٥) رواه الديلمي في سند الفردوس (كنز العمال ٥٨٧ / ١٣)، البداية والنهاية ١٢٥ / ٨،

الإستيعاب ٣٩٧ / ٨.

(٦) الطبري ١٨٤ / ٦، الإستيعاب ٣٩٦ / ٣.

في ابنه يزيد قال له أبو سفيان: يا أمير المؤمنين من وليت مكانه؟ قال: أخوه معاوية، فقال أبو سفيان: وصلت رحما يا أمير المؤمنين - وفي رواية - قال أبو سفيان: فمن بعثت على عمله؟ قال عمر: معاوية أخاه! إبنان مصلحان وإنه لا يحل لنا أن ننزع مصلحا (١).

وبعد أن ركب معاوية على الكرسي جاءته رسالة من أبيه وأخرى من أمه. قال له أبوه: يا بني إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا فرفعهم سبقهم وقصر بنا تأخيرنا فصاروا قادة وسادة. وصرنا أتباعا وقد ولوك جسيما من أمورهم فلا تخالفهم فإنك تجري إلى أمد فنافس فإن بلغته أورثته عقلك!! وقالت له أمه في رسالتها: والله يا بني إنه قل أن تلد حرة مثلك وإن هذا الرجل قد استنهضك في هذا الأمر فاعمل بطاعته فيما أحببت وكرهت (٢).

ولقد أخذ معاوية بالنصيحة. روي لما قدم عمر إلى الشام تلقاه معاوية في موكب عظيم. فلما دنا من عمر قال له: أنت صاحب الموكب. قال: نعم، فقال: هذا حالك مع ما بلغني من طول وقوف ذوي الحاجات ببابك لم تفعل ذلك؟ قال: يا أمير المؤمنين إنا بأرض جواسيس العدو فيها كثيرة فيجب أن نظهر من عز السلطان ما يكون عز الإسلام وأهله ويرهبون به فإن أمرتني ففعلت وإن نهيتني انتهيت. فقال عمر: يا معاوية ما سألتك عن شيء إلا تركتني في مثل رواجب الفرس لئن كان ما قلت حقا إنه لرأي رأيت ولئن كان باطلا إنه لخديعة أديت، قال معاوية: فمرني يا أمير المؤمنين بما شئت، فقال: لا آمرك ولا أنهاك!! (٣) وروى ابن المبارك عن أسلم مولى عمر قال: قدم علينا معاوية وهو أبيض الناس وأجملهم فخرج إلى الحج مع عمر فكان عمر ينظر إليه فيعجب منه. ثم يضع إصبعه على متن معاوية ثم يرفعها ويقول: بخ بخ. نحن إذن خير الناس إن جمع لنا خير الدنيا والآخرة فقال معاوية: يا أمير المؤمنين سأحدثك أنا

(١) ابن سعد اللالكائي في السنة (كنز العمال ٦٠٦ / ١٣)، البداية والنهاية ١١٨ / ٨، الطبري

٦٩ / ٥، الإستيعاب ٥٩٦ / ٣.

(٢) البداية والنهاية ١١٨ / ٨.

(٣) الطبري ١٨٤ / ٦، البداية والنهاية ١٢٥ / ٨.

بأرض الحمامات والريف والشهوات. قال عمر: ما بك إلا أطفالك نفسك بأطيب الطعام وذوي الحاجات وراء الباب، فقال معاوية: يا أمير المؤمنين علمني أمثل. فلما جئنا ذا طوى أخرج معاوية حلة فلبسها فوجد عمر فيها ريحا كأنه ريح طيب فقال، يعمد أحدكم فيخرج حاجا مقلا حتى إذا جاء أعظم بلدان الله حرمة أخرج ثوبيه كأنهما كانا في الطيب فلبسهما. فقال معاوية: إنما لبستهما لأدخل بهما على عشيرتي وقومي... فالله إني قد عرفت الحياء فيه. ثم نزع معاوية ثوبيه ولبس ثوبيه الذين أحرم فيهما (١)، لقد كان الفاروق يسأل في كل مرة عن ذي الحاجات ولكم ذكراهم كانت تغيب في ردود معاوية. والخلاصة أن معاوية كانت في ذاكرته رسائل والديه ففي كل مرة قال: مرني أمثل! علمني أمثل.

وعلاقة معاوية بالكرسي علاقة وطيدة. قال في الإصابة: عاش ابن هند عشرين سنة أميرا وعشرين سنة خليفة (٢)، وقال صاحب الاستيعاب: هو أول من أقام المهرجان. وأول من قتل مسلما صبورا حجرا وأصحابه. وأول من أقام على رأسه حرسا. وأول من قيدت بين يديه النجائب، وأول من اتخذ الخصيان في الإسلام، وأول من بلغ درجات المنبر خمس عشر مرقاة - ليكون منبره أعلا من منبر رسول الله، وقال: أنا أول الملوك (٣). وأقول هو أول من دق وتد الوراثة في الحكم. وأول من قال بعدالة الصحابة ليدخل تحت هذه العدالة ولا ينتقده أحد، وأول من رعى القبائلية حتى أثمرت في النهاية ثمرة القومية العربية. والإسلام ينظر للإنسان كإنسان ولا فرق عنده بين عربي وبين أعجمي إلا بالتقوى. وقال الحسن البصري: أربع خصال كن في معاوية لو لم تكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة: انتزأه على هذه الأمة بالسيف واستخلافه من بعده ابنه يزيد السكير الذي يلبس الحرير وادعأؤه زيادا والنبي قال: " الولد للفراش

(١) البداية والنهاية ١٢٥ / ٨.

(٢) الإصابة ١١٣ / ٦، الاستيعاب ٣٩٨ / ٣.

(٣) الاستيعاب ٤٠٠ / ٣.

وللعاهر الحجر "، وقتله حجر بن عدي وأصحابه. فيا ويل له من حجر، يا ويل له من حجر، يا ويل له من حجر وأصحاب حجر " (١)، وحجر كان من شيعة علي بن أبي طالب. وهكذا كانت البداية والنهاية في مشهد وحركة. والتفاصيل تأتي في موضعها.

. ومنهم (عمرو بن العاص) ولقد كان الفاروق يلوم أبا بكر في توليته عمرو ويقول: "أو تزيد الناس نارا؟" ولكن بعد أن أجاد عمرو التسلق. كان عمر بن الخطاب إذا نظر إليه يقول: "ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميرا (٢)، ولاء عمر فلسطين والأردن ثم أمره بفتح مصر فلم يزل واليا عليها حتى مات عمر بن الخطاب. وأقره عثمان عليها ثم عزله عنها، فجعل يطعن على عثمان، ولما قتل عثمان سار إلى معاوية وخاض معه معاركه ضد الإمام علي بن أبي طالب مقابل أن يعطيه مصر طعمة. وولاه معاوية مصر فلم يزل عليها إلى أن مات بها (٣)، والذي يتأمل في سيرة ابن العاص يجد أن حرصه على الإمارة كان محور الارتكاز لحركته.

. ومنهم (الوليد بن عقبة) ولاء عمر صدقات بني تغلب. وكان يتخذ أبا زبيد الشاعر نديما له. وعلى مائدة اللهو شربا الخمر ودقا قواعد شعر الخمریات. وصلاة الوليد بالمسلمين وهو سكران رواها أكثر من واحد (٤)، ومنهم (عبد الله بن أبي السرح) الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله حتى ولو كان متعلقا بأستار الكعبة. ولاء عمر بعض أعماله وكان من المقربين إليه (٥)، وكان لعبد الله في عهد عثمان عيونه على بيت المال ومن أجل المال فرض الضرائب على أهل مصر وجلد ظهورهم فجاءوا يشكونه إلى عثمان. وكان

(١) الطبري ١٥٧ / ٦، ابن الأثير ١٩٣ / ٣، ابن أبي الحديد ٤٥٦ / ١.

(٢) الإصابة ٣ / ٥.

(٣) الإستيعاب ٥١١ / ٢.

(٤) الإستيعاب ٦٣٣ / ٣.

(٥) الطبري ٥٩ / ٥، البداية والنهاية ٢١٤ / ٨.

ما كان حتى قتل عثمان. ومنهم (المغيرة بن شعبة) قال: أنا أول من رشا في الإسلام. أعطيت حاجب عمر بن الخطاب عمامة فكان يأنس بي ويأذن لي أن أجلس داخل باب عمر. فيمر الناس فيقولون: إن للمغيرة عند عمر منزلة إنه ليدخل عليه في ساعة لا يدخل فيها أحد (١)، واستعمله عمر على البحرين فكرهوه وشكوا منه فعزله ثم ولاه البصرة. فاتهموه بالزنا فعزله، ثم ولاه الكوفة بعد ذلك (٢)، وهكذا من كرسي إلى كرسي. والمغيرة أول من وضع في حفرة بني أمية الحكم بالوراثة. وسبب ذلك أن معاوية عزم على عزله من منصبه فأشار إليه بتنصيب ابنه يزيد من بعده. وهو يضمن له أصوات الشيوخ في ولايته. فثبته معاوية وساقوا الشيوخ وتمت الوراثة. وكان جابر يقول: صحبت المغيرة بن شعبة. فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من بابها إلا بمكر لخرج المغيرة من أبوابها كلها (٣)، وعن الشعبي قال: دهاة العرب أربعة: معاوية وعمر بن العاص والمغيرة بن شعبة وزيد. فأما معاوية فللحلم والأناة، وأما عمرو فللمعضلات، وأما المغيرة فللمبادهة، وأما يزيد فللكبير والصغير (٤). ومنهم (أبو الأعور السلمي) أدرك الجاهلية وشهد حينما مشركا (٥)، لعنه النبي صلى الله عليه وسلم (٦) وكان أمير المؤمنين علي يدعو عليه (٧)، وعن محمد ابن حبيب قال: كتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الآفاق أن يبعثوا إليه من كل عمل رجلا من صالحها فبعثوا إليه أربعة من البصرة والكوفة والشام ومصر. فاتفق أن الأربعة من بني سليم وهو الحجاج بن علاط وزيد بن الأخنس ومجاشع بن مسعود وأبو الأعور. فجعل عمر السلمي على مقدمة

(١) الإصابة ٤٥٣ / ٣.

(٢) البداية والنهاية ٤٨ / ٨.

(٣) البداية والنهاية ٤٩ / ٨، الإصابة ٤٥٢ / ٣.

(٤) ابن عساكر (تاريخ الخلفاء ص ١٩٠)، الاستيعاب ٣٨٩ / ٣.

(٥) الإصابة ٥٤٠ / ٢، أسد الغابة ١٦ / ٦.

(٦) أبو نعيم (كنز العمال ٨٢ / ٨).

(٧) ابن أبي شعبة (كنز العمال ٨٢ / ٨).

جيش (١)، وظل هكذا حتى عهد معاوية، وكان من أشد المبغضين لعلي بن أبي طالب.

. ومنهم (يعلى ابن منبه) استعمله أبو بكر على بلاد حلوان في الردة وعمل لعمر على بعض بلاد اليمن (٢) وكان عظيم الشأن عند عثمان. وهو الذي أعان الزبير بأربعمائة ألف واشترى لعائشة جمل يقال له عسكر وجهاز سبعين رجلا من قريش (٣)، وكل هذا لملاقاة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يوم الجمل. وكان يقول: من خرج يطلب يوم بدم عثمان فعلى جهازه (٤).
. ومنهم (بسر بن أرطاة) كان أحد الذين بعثهم عمر بن الخطاب مددا لعمر بن العاص في فتح مصر. كان الكرسي هدفه، ومن أجله ارتكب أبشع الجرائم في الإسلام فيما نقله أهل الأخبار وأهل الحديث. منها ذبحه ابني عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب وهما صغيران بين يدي أمهما. وإغارته على همدان، وسبي نساء المسلمين فكن أول نساء سبين في السلام، وقتله أحياء من بني سعد (٥).

لقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من أمراء ومن طريق تكون الإمارة فيه ندامة يوم القيامة. والأمراء الذين ذكرناهم لم يأتوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقرن من الزمان. وإنما جاءوا سريعا وشقوا طريقهم لأن السياسة لم تكتشفهم ولأن الاجتهاد مهد لهم - ولم يكن هؤلاء فقط في بستان الصدر الأول وإنما كان هناك آخرون دخلوا عن عنوان أعلنه عمر بن الخطاب قال فيه: نستعين بقوة المنافق وإثمه عليه (٦)، وقال ابن حجر في فتح الباري: والذي

(١) الإصابة ٥٤١ / ٢.

(٢) الإستيعاب ٦٦٢ / ٣.

(٣) الإستيعاب ٦٦٤ / ٣.

(٤) الإستيعاب ٦٦٣ / ٣.

(٥) الإستيعاب ١٥٥، ١٥٧ / ١.

(٦) رواه ابن أبي شيبة والبيهقي (كنز العمال ٦١٤ / ٤).

يظهر من سيرة عمر في أمرائه الذين كان يؤمرهم في البلاد أنه كان لا يراعي الأفضل في الدين فقط بل يضم إليه الذي عنده مزيد من المعرفة بالسياسة فلاجل ذلك استخلف معاوية والمغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص مع وجود من هو أفضل منهم في أمر الدين والعلم (١).

لقد كان الطريق مفتوحا. فدخل منه رجال بكل هدوء ويسر منهم (إياس بن صبيح) قال صاحب الإصابة: كان من أصحاب مسيلمة الكذاب ثم أسلم وولاه عمر القضاء في البصرة (٢)، ومنهم (طليحة بن خويلد) الذي ادعى النبوة بعد النبي صلى الله عليه وآله. أعجب عمر لكلامه ورضي عنه وكتب له بالوصاية إلى الأمراء أن يشاور (٣)، وفي رواية: كتب عمر إلى النعمان بن مقرن استشر واستعن في حربك بطلحة وعمرو بن معد يكرب ولا تولهما (٤)، ومنهم (ابن عدي الكلبي) قال لعمر: أنا امرؤ نصراني. قال عمر: فما تريد. قال: أريد الإسلام. فعرضه عليه فقبله. ثم دعا له برمح فعقد له على أمن أسلم. قال عوف بن خارجة: ما رأيت رجلا لم يصل صلاة أمر على جماعة من المسلمين قبله (٥)، ومنهم (أبو زبيد الشاعر) كان عند أخواله من بني تغلب بالجزيرة، وبعد أن فتحها الوليد بن عقبة في خلافة عمر استعمل عمر أبا زبيد على صدقات قومه ولم يستعمل نصرانيا غيره (٦)، ومنهم (كعب الأحبار) تولى عملية القص في المساجد ثم انتقل إلى الشام فجعل للقص أوتاد اتخذها القوم سنة فيما بعد (٧). ولقد كانت هناك اعتراضات على عمر بن الخطاب في توليته بعض الناس. روي أنه لما ولي معاوية الشام قال الناس: ولي معاوية فقال لهم: لا تذكروا

(١) فتح الباري كتاب الأحكام ١٩٨ / ١٣.

(٢) الإصابة ١٢٠ / ١.

(٣) البداية والنهاية ١٣٠ / ٧.

(٤) الإستيعاب ٢٣٨ / ٢.

(٥) الإصابة ١١٦ / ١.

(٦) الإستيعاب ٨٠ / ٤.

(٧) الإصابة ٣١٦ / ٣.

معاوية إلا بخير فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اللهم أهده (١).

ومن المعروف أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو لأمته كلها بالهداية. ومن العجيب أن حديث " اللهم أهده " حديث ضعيف إلا أن ابن كثير دافع عنه والتمس لا الأعذار. وهذا الموقف لا نجده إذا كان يتعلق بحديث صحيح لمعسكر غير معسكر معاوية. ومن الذين اعترضوا على عملية التوظيف هذه حذيفة رضي الله عنه. قال لعمر: إنك تستعين بالرجل الفاجر. فقال عمر: إني لأستعمله لأستعين بقوته ثم أكون على قفائه (٢)، وكما ذكرنا من قبل إن الله نهى عن اتخاذ بطانة ينتهي طريقها بخروج الحياة الدينية ودخول حياة أخرى تحت أي اسم آخر. والنبي صلى الله عليه وسلم كان إذا استعمل أحدا وصاه وكان يتبرأ من أي عمل لا يصيب في وعاء الدين والحياة الدينية، وكان وراء ذلك كله الوحي. وبعد رحيل النبي صلى الله عليه وسلم كانت للحياة الدينية سياسة وهذه السياسة يمكن للباحث أن يكتشفها بسهولة في خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. فلقد قيل له أن يبقى على الأمراء في أول عهده حتى يستتب له الأمر. لكنه أبي إلا أن يعزلهم. لأنه علم من النبي صلى الله عليه وسلم نهاية الطريق الذي يركبه هؤلاء الأمراء. وما دام الطريق لا يصب في المصب الصحيح فلا بديل لخلعهم. ما هي الفائدة التي ستعود على الدعوة من دهاء معاوية وعمرو والمغيرة؟ وما هي الفائدة التي ستعود على الدعوة من عضلات أبو الأعور وبسر بن أرطأة؟ وما هي الفائدة التي ستعود على الدعوة من وراء كعب الأحرار وأبي زيد وتلميذ مسيلمة الكذاب وطلحة بن خويلد؟ قلت الدعوة ولم أقل ما هي الفائدة التي ستعود على المسلمين. ثم ما هي النتيجة ليس بعد ألف عام. ولكن في القرن الأول فقط.

ولقد اتسعت الدائرة بعد ذلك في عهد عثمان بن عفان فمن الذين ذكرناهم

(١) البداية والنهاية ١٢٢ / ٨.

(٢) قفائه: مؤخر العنق والحديث رواه أبو عبيد (كنز العمال ٧٧١ / ٥).

ممن اتسع نفوذهم عما كان عليه في عهد أبي بكر وعمر وزاد عثمان القائمة
بآخرين منهم:

. (الحكم بن أبي العاص) كان من مسلمة الفتح وأخرجه رسول الله
صلى الله عليه وآله من المدينة وطرده منها ولعنه وورد في لعنه أحاديث
صحيحة. أعاد عثمان في خلافته. وكان من الأسباب التي نقمها الناس على
عثمان. ومنهم (مروان بن الحكم) قيل: كان مع أبيه عندما طرده رسول الله
صلى الله عليه وآله. وقيل: أن مروان ولد بالطائف فلم يزل مع أبيه
بالطائف إلى أن ولي عثمان. روي أن عائشة قالت لمروان: أما أنت يا مروان
فاشهد أن رسول الله صلى الله عليه وآله لعن أباك وأنت في صلبه (١)،
وكان مروان من أسباب قتل عثمان (٢)، وقال الذهبي وابن عبد البر وغيرهما:
مروان أول من شق عصا المسلمين بلا شبهة (٣)، وهذا الذي لعنه النبي صلى الله
عليه وآله وسلم وشق عصا المسلمين. تولى الخلافة وأخذ لقب " أمير
المؤمنين ".

وهكذا وكما ترى فلقد كان الكرسي هو مركز الصراع. هناك من يخاف
عليه. وهناك من يعمل كي يمتلكه. وهذا الإشكال لا يذيه إلا نص. فتحت
النص يكون لا خلاف ولا اختلاف ولا افتراق ولا صراع. لأن الله تعالى كتب
على هداية الناس وفتح الطريق أمامهم. فإن ضلوا الطريق لا تكون لهم على الله
حجة يوم القيامة. وكتب الله تعالى على نفسه أن من يختار لنفسه معجزة فلا
يستطيع أن يتعدى عائق من العوائق حتى يعود إليه. ومن العوائق من يرتدي
الحرير ويتحلى بالذهب والفضة. ولكن حقيقة البريق ترى بعد زمان ليس
بطويل. فعندئذ تسمى الأشياء بأسمائها الحقيقية. ولا يكون هناك ملجأ من الله
إلا إليه. إن عالم الفتن. عالم يضرب بقفاز من حرير الذين نسوا ما ذكروا به

(١) الإستيعاب ٣١٨ / ١.

(٢) الإصابة ١٥٧ / ٢.

(٣) شذرات الذهب / ابن العماد ٦٩ / ١.

ويستدرج هؤلاء وهؤلاء إلى طريق ليس فيه إلا طعام وشراب اليأس وهناك يموتون كما تموت الحيتان.

٢ - الأمراء والفتوحات:

إن الجندية في الإسلام لها هدف فرما يؤيد الله المسلمين بالرجل الفاجر بمعنى أن يساعدهم بقوته في القتال أو غير ذلك من أمور الحرب، أما أن يؤيد الله الدين بالرجل الفاجر فلا معنى لذلك، لأن الدين سلوك. وطريقة خاصة في الحياة تؤمن صلاح الدنيا بما يوافق بكمال الأخروي. والدين كطريق لا ينجو الإنسان من السلوك فيه إلا باستقامة، وعدم الاستقامة توجب السقوط والهلاك. وهذا لا يتفق مع الفاجر والفاسق والمنافق. كما أن السعادة الحقيقية يصل إليها الإنسان، أو يعمل في الوصول إليها عندما يكون مؤمنا بالله. وكافرا بالطاغوت. وهذا لا يتفق أيضا مع أصحاب المصالح والأهواء والقتال في الإسلام به قوانين وربما يقاتل إنسان ما تحت شعار الإسلام ولكن لا ينفعه الشعار إذا قتل: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قتل تحت راية عمية ينصر العصبية ويغضب للعصبية فقتلته جاهلية " (١). وزاد في رواية: " ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها لا يتحاشى لمؤمنها ولا يفني لذي عهدا فليس مني ولست منه " (٢). وسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو في سبيل الله (٣). ومعارك الإسلام تحددها الدعوة ولا يحددها طلاب المال أو الغنائم. فالله تعالى هو الذي كتب القتال والدعوة التي كتب فيها القتال هي التي تحدد موضع

(١) رواه مسلم (كنز العمال ٥٠٩ / ٣).

(٢) رواه أحمد ومسلم (الفتح الرباني ٥٢ / ٢٣).

(٣) رواه البخاري (الصحيح ٣٦ / ١) ومسلم (الصحيح ٤٩ / ١٣) وأحمد (الفتح ٢٠ / ١٣) والترمذي (الجامع ١٧٩ / ٤).

كل قطرة دم، ومعارك الإسلام في المقام الأول هي معارك لله وفي الله وبالله. قال تعالى: (سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم* وهو الذي أخرج الذين كفوا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار) (١). فبقوة الله وسلطانه أجرى سبحانه ما أراد به بأيدي أعدائه، حيث خربوا بيوتهم بأيديهم من الرعب وأيادي المؤمنين الذين أمرهم بذلك ووفقهم لامثال أمره وإنفاذ إرادته. وكما حدد الله تعالى موضع كل قطرة دم في معارك الإسلام حدد سبحانه موضع كل مال من غنائم الحرب. فقال تعالى: (واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن الله خمس له وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان) (٢)، وقال: (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب) (٣)، فالله تعالى في الآية الأولى بين موضع الخمس ويفهم من الآية أن أربعة أخماسها للغانمين (٤). وفي الآية الثانية أفاء سبحانه الفئ وأرجعه إلى النبي صلى الله عليه وآله ودله على موارد صرفها التي يتصرف فيها كيف يشاء. وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قسم فئ بني النضير على المهاجرين وأعطى بعض الأنصار. وعلى امتداد العهد النبوي كانت الدعوة تستعمل أدوات الفطرة وهي تشق طريقها إلى الفطرة، ومن الثابت أن الحكم الإسلامي عند وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يشمل إلا شبه الجزيرة العربية، وكانت الدعوة حريصة على إزالة العقبات التي تهدد الفطرة في هذه المنطقة بعد أن رفض رؤوس الكفر

(١) سورة الحشر: الآية ١ - ٢.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٤١.

(٣) سورة الحشر: الآية ٧.

(٤) المغني / ابن قدامة ٧١٨ / ٢.

من أهل الكتاب الإيمان الحق. وعندما أخبر الله تعالى رسوله بأن هذه الأنماط البشرية لن تؤمن وأنهم يسعون في الأرض فسادا ويسارعون فيه، كانت عملية إجلائهم عملية تستقيم تماما مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها. وعملية الإجلاء نسبها الله تعالى إلى نفسه فقال: (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب...)، فالله سبحانه هو الذي أخرج بني النضير من ديارهم في أول إخراجهم من جزيرة العرب، وأي إخراج لهم في العهد النبوي يقف تحت هذا العنوان. إن الدعوة لم تضاعف عليهم الجزية وإنما أخرجتهم لأن في الإخراج انتصارا للفطرة، وتأمينا للعاصمة من مخاطر الاختراق والدسائس التي يجيدها الذين يسعون في الأرض فسادا.

والدعوة التي حصنت نفسها بالتطهير من الداخل، عملت من أجل إيجاد المسلم الرسالي الذي إذا وضع قدميه على أرض جديدة في الجزيرة العربية أو خارجها. عمل من أجل نشر مفاهيم الدعوة، وكلما جد جديد خرجت الطوائف الرسالية إلى العاصمة ليتحققوا الفقه والفهم في الدين فيعملوا به لأنفسهم وينشروه بين الأقوام إذا رجعوا إليهم. وعلى ذلك كان تقسيم الأراضي على الغانمين هو في الحقيقة موطئ قدم لداعية.

وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم كانت الذاكرة عند المسلمين تحتوي على وصايا منها إخراج المشركين من جزيرة العرب، ولكن الدولة نظرا لظروف خارجة عن إرادتها، ونظرا للمصلحة العامة ضاعفت الجزية على نصارى بني تغلب، كما سمحت بدخول سبي العجم إلى المدينة، وكان أول سبي دخلها في عهد أبي بكر ثم بعث معاوية أبي عمر في عهده بعدة ألوف من سبي قيسارية. وكان عمر نفسه ضحية من ضحايا السبي، حيث إن الذي طعنه كان غلاما مجوسيا. ومع حركة الفتوحات هبت رياح تحمل آثارا وبصمات كان يعتقد أنها ذهبت بلا رجعة.

٣ - رحلة الخراج:

٣ - رحلة الخراج:

مع الفتوحات جاء حرص الدولة على تدبير المال اللازم لحماية الحدود،

فضلا عن تدبير مصدر للإيرادات تستطيع منه سداد رواتب العاملين وغير ذلك من النفقات الملقاة على عاتقها. وإذا كنا قد تحدثنا فيما سبق عن سهم ذي القربى وسهم المؤلفة قلوبهم بأن الدولة تصرفت فيهما وفقا للمصلحة العامة، فإننا سنتحدث هنا عن الأخماس الأربعة التي فرضها الله للغانمين، وقد رأت الدولة التصرف فيها وفقا للمصلحة العامة أيضا. فلقد رأى عمر بن الخطاب أن المصلحة تقتضي عدم تقسيم الأرض على الغانمين وإبقائها في أيدي أهلها، وفرض شئ عليها يؤدي سنويا إلى بيت المال. وما أن اتخذ عمر قراره حتى انقسم المسلمون إلى فريقين فريق ينادي بقسمة الأرض بين الفاتحين، وفريق آخر يقول بقول عمر. وكان عمر يرد على المعارضين بقوله: " هذا رأيي " (١)، وروي أن بلال بن رباح وذويه قال لعمر في الأرض التي افتتحوها عنوة: اقسمها بيننا وخذ خمسها، فقال عمر: لا هنا عين المال ولكني أحبسه فينا يجري عليهم وعلى المسلمين. قال بلال وأصحابه: اقسمها بيننا. فقال عمر: اللهم اكفني بلالا وذويه. قيل: فما حال الحول ومنهم عين تطرف (٢) (!). وعدم تقسيم عمر الأرض على الفاتحين مشهور، يقول ابن قدامة: إن عمر لم يقسم الأرض التي افتتحتها. وتركها لتكون مادة لأخبار المسلمين... وقد نقلنا بعض ذلك وهو مشهور تغني شهرته عن نقله " (٣)، وما قاله الفقهاء في إلغاء سهم المؤلفة قلوبهم قالوه هنا أيضا. قالوا: إن قسمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم خير كانت في بدء الإسلام وشدة الحاجة! فكانت المصلحة فيه. وقد تعينت المصلحة فيما بعد ذلك في وقف الأرض فكان ذلك هو الواجب (٤). والذي رآه عمر رضي الله عنه من الامتناع عن قسمة الأرض على من افتتحتها من

(١) الخراج / أبو يوسف ص ٢٤.

(٢) المغني / ابن قدامة ٧١٦ / ٢.

(٣) المغني / ٧٢٢ / ٢.

(٤) المغني ٧١٨ / ٢.

الغزاة عندما عرفه الله ما كان في كتابه من بيان ذلك!! توفيقا من الله كان له فيما صنع وفيه كانت الخيرة للمسلمين (١).

وفتح بيت المال لاستقبال الخراج، وانطلق الأمراء الذين وقع اختيار أبي بكر وعمر عليهم من أجل أن يفتحوا البلاد. ولم تمض سنتان بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله حتى اتسعت الفتوحات بسرعة هائلة، فاستولى المسلمون على أراضي كلدة والحيرة التي سميت فيما بعد بالعراق. ثم جاءت موقعة اليرموك لفتح أبواب الشام، ويفتح المسلمون دمشق وأنطاكية وبيت المقدس. ثم تحولوا إلى الشرق ففقدوا على الدولة الساسانية وحكموا إيران، ثم استولوا على أفغانستان ووصلوا إلى حدود نهر السند. ثم تحولوا إلى المغرب، وفتحوا مصر وعموم شمال إفريقيا، ووصل المسلمون إلى سواحل المحيط الأطلسي. ثم حملوا عن طريق ميناء طنجة على إسبانيا واستولوا على طليطلة. وبالجملة: أصبحت الدولة الإسلامية تمتد من شواطئ المحيط الأطلسي في الغرب إلى نهر السند في الشرق، ومن بحر مازندران في الشمال إلى منابع النيل في الجنوب.

ونشر الدعوة عمل فطري، ومن الثابت أن المخلصين لم تخل منهم ساحة على امتداد الفتوحات. فكما كان في الصفوف طلاب المال والجاه كان فيها أيضا دعاة الحق وابتغاء مرضاة الله ولكن التيار العام لم يكن مع هذا الصنف الرسالي في معظم الأحيان. ولهذا نجد أن النبي صلى الله عليه وآله كان يحذر من التيار العام وذلك لشدة وسرعته فقال: إذا فتحت عليكم فارس والروم أي قوم أنتم؟ فقال عبد الرحمن بن عوف: نكون كما أمرنا الله، قال النبي: أو غير ذلك تتنافسون ثم تتحاسد ثم تتدابرون ثم تتباغضون (٢).

والتنافس إلى الشيء المسابقة إليه وكراهة أخذ غيرك إياه. وهو أول درجات الحسد. وأما الحسد فهو تمنى زوال النعمة عن صاحبها. وأما التدابر

(١) الخراج / ابن يوسف ص ٢٧.

(٢) رواه مسلم (الصحيح ٩٦ / ١٨) ك الزهد.

فهو التقاطع. وأما التباغض فهو بعد التدابر (١). وهذا الطوفان من الكراهية مفتاحه إذا فتحت عليهم فارس والروم!!، وقال صلى الله عليه وآله لأصحابه: كيف أنتم بعدي إذا شعبتم من خبز البر والزبيب وأكلتم ألوان الطعام ولبستم ألوان الثياب، فأنتم اليوم خير أم ذاك؟ قالوا: ذاك، فقال: بل أنتم اليوم خير (٢). وقال صلى الله عليه وآله: فوالله ما الفقر أخشى عليكم. ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم (٣).
 فهل وقع الذي أخبر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟ فإذا كان قد وقع فما هي الأسباب وعلى أيدي من جرت؟
 إن الذي جرى كان أمراء السوء مفتاحه وفقهاء السوء أقلامه. ولا يستطيع باحث أن ينكر أن معاوية بن أبي سفيان قد استغل الخراج إلى أبعد مدى لشراء الذمم وسفك دماء المسلمين، وإن عمرو بن العاص ساند معاوية لهدف واحد هو كطعنة بعد أن ذاق خراجها في عهد الفاروق، وأن يعلى بن منية استعمل الخراج في تقوية عائشة والزبير لخوض معركتهم مع علي بن أبي طالب. وغير ذلك وعلى امتداد التاريخ كان الخراج مادة الأمراء في تثوير الناس، كان الخراج رشوة تحمل شعارا إسلاميا الإسلام منه برئ. والنبي صلى الله عليه وآله حذر من هذه الرشوة التي علم من ربه أنها كائنة على طريق أمراء السوء، فقال في خطبة الوداع: يا أيها الناس خذوا العطاء ما كان عطاء، فإذا تجاحفت قريش على الملك وكان عن دين أحدكم فدعوه (٤). وفي رواية: "خذوا العطاء ما دام عطاء، فإذا كان إنما هو رشا فتركوه، ولا أراكم تفعلون يحملكم على ذلك الفقر والحاجة، ألا إن رحي بني مرج قد دارت وإن رحي الإسلام دائرة وإن

(١) النووي شرح مسلم (٩٧ / ١٨).

(٢) رواه البيهقي وابن عساكر (كنز العمال ٢١٦ / ٣).

(٣) رواه مسلم (الصحيح ٩٥ / ١٨) كتاب الزهد.

(٤) رواه أبو داود حديث رقم ٢٩٥٨.

الكتاب والسلطان سيفترقان فدوروا مع الكتاب حيث دار، وستكون عليكم أئمة إن أطعتموهم أضلوكم، وإن عصيتموهم قتلوكم. قالوا: فكيف نصنع يا رسول الله؟ قال: كونوا كأصحاب عيسى نصبوا على الخشب ونشروا بالمناشير، موت في طاعة خير من حياة في معصية (١).

قال في عون المعبود: خذوا العطاء ما كان محلة فإذا كان أثمان دينكم فدعوه، فإذا (تجاحت) أي تنازعت قريش على الملك، أي تخاصموا وتقاتلوا عليه، وقال كل واحد منهم أنا أحق بالملك أو بالخلافة منك وتنازعوا في ذلك فاتركوا أخذه (٢). وفيما سبق علمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم حذر من تيار يدق أوتاد التنافس والتحاسد والتدابير والتباغض، وكان يعلم أن هذا واقع على الأمة لا محالة لسوء اختيارها، وأن نهاية الطريق بعد فتح فارس والروم ستصب في محطة البغي، فقال صلى الله عليه وسلم: " سيصيب أمتي داء الأمم الأشر والبطر والتكاثر والتشاحن في الدنيا والتباغض والتحاسد حتى يكون البغي " (٣). وتحديد محطة البغي لا ينبغي أن تحددها الأهواء. ولهذا عين النبي صلى الله عليه وسلم عمار بن ياسر وقال له في حديث أجمعت الأمة على صحته: " تقتلك الفئة الباغية " فمحطة عمار هي المحطة الأم لمن أراد أن يفهم الحديث السابق. أما تحديد محطات أخرى صغيرة بمعرفة هذا أو ذلك فأمر لا يلتفت إليه.

لقد كانت الفتوحات مطلب فطري، ولكن أمراء السوء حولوها إلى مطلب تجاري. ولقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قيادة تركب أعناق الأمة فقال: " كأنكم براكب قد أتاكم فنزل فقال: الأرض أرضنا والفيء فيؤنا وإنما أنتم عبيدنا فحال بين الأرامل واليتامى وما أفاء الله

(١) رواه ابن عساكر عن ابن مسعود (كنز العمال ٢١٦ / ١)، الطبراني عن معاذ (كنز ٢١١ / ١).

(٢) عدن المعبود ١٧٣ / ٨.

(٣) رواه الحاكم (كنز العمال ٥٢٦ / ٣).

عليهم (١)، صلى الله عليك يا رسول الله! فكم من راكب قد جاء. منهم معاوية بن أبي سفيان الذي وضع أميرا في الحبس لأنه طالب بتوزيع الغنائم على كتاب الله. روي أن الحكم بن عمرو قام بغزو جبل الأشل فغنم شيئا كثيرا فجاءه كتاب على لسان معاوية فيه: أن يصطفي لمعاوية ما في الغنيمة من الذهب والفضة لبيت ماله فرد الأمير: إن كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين، أولم يسمع قول النبي صلى الله عليه وسلم لا طاعة لمخلوق في معصية الله. ثم قسم الأمير في الناس غنائمهم. فحبسه معاوية وروي أنه مات في الحبس (٢)، ومنهم: مروان بن الحكم طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم. قيل لمروان في زمن معاوية: الفئ مال الله وقد وضعه عمر بن الخطاب مواضعه. فقال: الفئ مال أمير المؤمنين معاوية يقسمه فيمن شاء (٣). وردد مقولة مروان من بعده عشرات الألوف في عالم التحاسد والتدابير والتباغض. وكل ذلك من أجل العجل الذي في بيت المال قال النبي صلى الله عليه وسلم: " لكل أمة عجل يعبدونه وعجل أمتي الدرهم والدينار " (٤)، وقال: " إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي في المال " (٥)، وقال: " إن هذا الدينار والدرهم أهلكما من قبلكم وهما مهلكاكم " (٦).

وعن رحلة الخراج يقول الدكتور محمود لاشين: ظلت الدولة تقوم بدورها في تحصيل الخراج... وذلك حتى منتصف القرن الخامس الهجري حيث حدث تطور خطير كان له أكبر الأثر في إضعاف الدولة، وذلك أنها تخلت عن دورها في جباية وتحصيل الخراج وتلي ذلك تخليها عن تحصيل كثير من الإيرادات العامة، وتركت ذلك للجنود وقادتهم وكل من له حق قبل الدولة كراتب أو غير

(١) رواه ابن النجار عن حذيفة (كنز العمال ١٩٥ / ١١).

(٢) البداية والنهاية ٥١ / ٨.

(٣) الإصابة ٣٠٢ / ١.

(٤) رواه الديلمي عن حذيفة (كنز ٢٢٣ / ٣).

(٥) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٥٦٩ / ٤).

(٦) رواه أبو داود والطبراني والبيهقي (كنز ١٩١ / ٣).

ذلك ليتولى تحصيل هذه الإيرادات مباشرة من الممولين ويستولي عليها سداداً لراتبه أو حقه أو غير ذلك، وظهر على ذلك ما عرف بإقطاع الاستغلال... وقد ترتب على ذلك حدوث اضطرابات داخلية نتيجة للظلم والتعسف في جمع هذه الأموال (١). ويقول الحافظ أبي بكر بن محمد: آل الحال إلى أن استأثر كثير من الناس بأموال بيت المال من غير قيام بمصلحة ولا اتصاف بصفة استحقاق (٢). وقد رأى نظام الملك (عام ٤٨٦ هـ) أن يفرق الإقطاعات على الجند ولم يكن هذا من عادة الخلفاء من لدن عمر بن الخطاب، وأراد نظام الملك بذلك أن كل من أقطع قرية يعتني بعمارتها وتوفير غلتها. ثم تغيرت الأحوال واختل النظام. وصارت الولاة وأتباعهم من الأجناد يجاهدون في الرعايا من المسلمين وغيرهم بسلب أموالهم وتعذيبهم، ومن وقف أمام ظلمهم رموه بالعصيان أو وسموه بالبغي والعدوان واستباحوا قتاله واغتنام ماله. وأصل هذا الفساد بل كل فساد في الدين من ولاة الجور وقضاة الرشا وفقهاء السوء وصوفية الرجس، كما قال عبد الله بن المبارك: أو هل أفسد الدين إلا الملوك وأحباء السوء ورهبانها، فإن الولاة لما فسدوا وامتدت أطماعهم إلى أن أخذوا أموال الناس، واستأثروا بأموال الصالح واعتقدوها مملوكة لهم، تعدى الفساد إلى القضاة والفقهاء وأرباب المناصب بل إلى الكافة، وتقلد الأمانات الخونة فباعوا الدين بالدين، وعلم الأتباع منهم أنهم قد خانوا الله. وقالوا: ما لنا لا نخون، وقد روى ابن عبد ربه أن مروان بن الحكم أرسل وكيلاً إلى قرية له في الغوطة ثم حضر إليه في بعض الأيام فقال له مروان: يا هذا أظن أنك تخونني في ضيعتي. فقال له: أو تظن ذلك ولم تستيقنه؟ والله إني أخونك وأنت تخون أمير المؤمنين وأمير المؤمنين يخون الله، فلعن الله أشر الثلاثة (٣). ثم زاد الفساد

(١) الفاروق عمر والخراج ص ٣٢، ٤٠.

(٢) تحرير المقال فيما يحل ويحرم من بيت المال / الحافظ أبي بكر بن محمد البلاطلي ص ٨٩.

(٣) العقد الفريد / ابن عبد ربه ٣٧ / ١.

بتصرف الأجناد وغيرهم في الإقطاعات تصرف الملاك بالبيع والشراء، وأمضى لهم الولاية ذلك، واشترك في هذا الأمر الخاص والعام، ومن يصلح للجهاد ومن لم يصلح، ومن يستحق في بيت المال ومن لا يستحق. ثم اشتد حرص الولاية وأركان الدولة على جمع الأموال وأخذ الرشا، وخصصوا في الأمور فاعتنم الجهال ذلك منهم وأرضوهم بسخط الله، ووثب كل فريق. واستأثر بما تصل إليه قدرته من أموال بيت المال وغيرها، وكثر التنازع والتنافس في ذلك حتى آل الحال إلى أن حولوا كثيرا من الجهات المختصة ببيت المال إلى الملك والوقف والرزق المؤبد، وجعلوا ذلك وسيلة إلى حوز الدنيا لهم ولذرائعهم من بعدهم، واستنبطوا في ذلك أنواعا من الحيل يخدعون بها الخلق (١)، كانت هذه شهادة لمؤرخ يصف فيها ما حدث في عصره وغير عصره.

ويقول مؤرخ آخر وهو يتحدث عما شاهده في دولة المماليك بمصر (٢):
في زماننا فسد الحال... وصارت الإقطاعات ترد من جهة الملوك على سائر الأموال من خراج الأرضين والجزية وزكاة المواشي والمعادن والعشر وغير ذلك، ثم تفاحش الأمر وزاد حتى أقطعوا المكوس على اختلاف أصنافها وعمت البلوى والله المستعان في الأمور كلها (٣).

ويقول مؤرخ آخر يصف حال زمانه (٤): إن أرض مصر أربعة وعشرين قيراطا، فيختص السلطان فيها بأربعة قراريط (أي يحصل السلطان على سدس مساحة الأرض الزراعية في مصر)، ويختص الأجناد بعشرة قراريط (ما يعادل ٧، ٤١٪). من خراج أرض مصر، ويختص الأمراء بعشرة قراريط. وكان الأمراء يأخذون كثيرا من إقطاعات الأجناد فلا يصل إلى الأجناد منها شيء، ويصير ذلك الاقطاع في دواوين الأمراء ويحتمي بها قطاع الطرق وتثور بها الفتن، ويمنع منها

(١) تحرير المقال / الحافظ أبي بكر البلاطلسي ص ١٠٥.

(٢) هو القلقشندي.

(٣) صبح الأعشى / القلقشندي ١١٧ / ١٣.

(٤) هو المقرئزي.

الحقوق والمقررات الديوانية وتصير مأكلة لأعوان الأمراء ومستخدميهـم ومضرة على أهل البلاد (١).

وظل إقطاع الاستغلال الابن البكر لبيت المال يعمل به حتى نهاية دولة المماليك ٩٣٢ هـ، حتى دخلت مصر تحت السيطرة العثمانية، فقاموا بإلغاء قطاع الاستغلال وحل محله نظام الالتزام، كما تم إحلال مصطلح الأموال الأميرية محل الخراج، ولم يترك العثمانيون أي نشاط سواء كان تجاريا أو صناعيا حتى أصحاب المهن والحرف دون أن يفرض عليهم ضرائب محددة يلتزم بتحصيلها أشخاص معينون (٢). لقد أمروا في البداية أن يعطوا الناس كي تشق الدعوة طريقها برفق. ولكن الأمر سار على غير ذلك وفقا لمصلحة زمان، وترتب على ذلك أنهم أخذوا من الناس وفقا لمصلحة زمان آخر. ترى هل كانت قسمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم خبير في بدء الإسلام من أجل شدة الحاجة؟ أم أن القسمة كانت دعوة لا يقوم العدل إلا بها؟

إن الفتوحات أمر عظيم له شروط يمكن فيها النجاة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنه سيفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها وإن عمالها في النار إلا من اتقى الله وأدى الأمانة" (٣)، وروي أن أعرابيا قال: يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم فالرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله أعلی فهو في سبيل الله (٤).

٤ - نهاية الطريق:

أن بداية النهاية من هنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لم يزل

(١) الخطط / المقرري ٨٨ / ١.

(٢) عمر والخراج ص ٤٢، ١٥٨.

(٣) رواه أحمد وفيه شفيق بن حبان ذكره ابن حبان في الثقات وقال ابن حجر حسن الإسناد (الفتح الرباني ٢٥ / ٢٣).

(٤) رواه البخاري (الصحيح ١١٣٦) ومسلم (الصحيح ٤٩ / ١٣).

أمر بني إسرائيل معتدلاً حتى نشأ فيهم المولدون وأبناء سبائا الأمم التي كانت بنو إسرائيل تسبيها، فقالوا بالرأي فضلوا وأضلوا " (١). ولقد علمت متى دخلت السبائا ومتى قالوا بالرأي. وأول نقص دخل كان من باب التخاذل قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقي الرجل فيقول: يا هذا إتق الله ودع ما تصنع فإنه لا عمل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض.

ثم تلى رسول الله قوله تعالى: (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم)، إلى قوله: (فاسقون) ثم قال: " كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهين عن المنكر، ولتأخذن على يدي الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا (٢) ولتقصرنه على الحق قصرا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم " (٣).

فهذا أول النقص. فإذا لم يدفع منذ البداية. فلا جدوى من فعل أي شيء بعد ذلك لأن الشبل أصبح أسدا. قالوا: يا رسول الله متى ندع الائتمار بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: " إذا ظهر فيكم ما ظهر في بني إسرائيل، إذا كانت الفاحشة في كباركم والملك في صغاركم والعلم في رذالككم " (٤). لهذا قال النبي في روايات كثيرة وهو يتحدث عن أمراء السوء " لا أن الناس اعتزلوهم " فهذا الدواء خاص بالداء في أول الطريق. أما استفحال الداء بعد ذلك فله فقه آخر. ومما لا شك فيه أن الفتوحات قذفت على الأمة بالسبائا وبالرأي وبأمراض أول الطريق التي لم يشعر بها أكثر الناس نظرا للبريق الذي حولها وحولهم.

(١) رواه الطبراني في الكبير (كنز العمال ١٨١ / ١١).

(٢) أي لترد به إلى الحق.

(٣) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجال رجال الصحيح (الزوائد ٢٦٩ / ٧).

(٤) رواه أحمد وابن ماجه وقال البوصيري في الزوائد ابن ماجه إسناده صحيح ورجاله ثقات

(الفتح الرباني ١٧٧ / ١٩)، وقال في فتح الباري أخرجه ابن أبي خيثمة (فتح الباري

٣٠١ / ١٣).

فالفتوحات أيقظت غريزة العرب الجاهلية من الغرور والنخوة، بعدما كانت في سكن بالتربية النبوية. فكانت تتسرب فيهم روح الأمم المستعيلة وتتمكن منهم رويدا. ويشهد بذلك شيوع تقسيم الأمة المسلمة يومئذ إلى العرب والموالي، وسيرة معاوية وهو والي الشام يومذاك بين المسلمين بسيرة ملوكية قيصرية، حتى قال عمر بن الخطاب: أتذكرون كسرى وعندكم معاوية، وأمور أخرى كثيرة ذكرها التاريخ. وتحت ظل الفتوحات راج الحديث رواجا بينا في عصر معاوية، وكان عدد من أهل الكتاب قد دخلوا في الإسلام، وأخذ عنهم المحدثون شيئا كثيرا من أخبار كتبهم وقصص أنبيائهم وأممهم فخلطوها بما كان عندهم من الأحاديث المحفوظة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأخذ الوضع والدس يدوران في الأحاديث. وتحت ظل الفتوحات اتسع نطاق المباحث الكلامية، لأن الفتوحات الواسعة أفضت بالطبع إلى اختلاط المسلمين بغيرهم من الأمم وأرباب الملل والنحل وفيهم العلماء والأخبار والأساقفة والبطارقة الباحثون في الأديان والمذاهب، فارتفع منار الكلام في عهد عمر، ثم اتسع في عهد عثمان وعلى امتداد حكم بني أمية. وتحت ظل الفتوحات نقلت علوم الأوائل من المنطق والرياضيات والطبيعات والإلهيات والطب والحكمة العملية إلى العربية، نقل شطر منها في عهد الأمويين، ثم أكمل في أوائل عهد العباسيين. فقد ترجموا مئات الكتب من اليونانية والرومية والهندية والفارسية والسريانية إلى العربية، وأقبل الناس يتدارسون مختلف العلوم، ولم يلبثوا كثيرا حتى استقلوا بالنظر وصنفوا فيها كتباً ووسائل. وفي ظل الفتوحات ظهرت قوافل التصوف التي ترفض ما وصل إليه الحال. ثم ظهرت قوافل أخرى يتكلمون بأمور تناقض الدين وحكم العقل، وغير ذلك كثير. وما كان هذا ليحدث لو طاب أعلى الوعاء، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "إنما مثل عمل أحدكم كمثل الوعاء، إذا طاب أعلاه طاب أسفله، وإذا خبث أعلاه خبث أسفله" (١). ولقد سقطت السياسة المالية يوم اتخذ الفيء دولا، ففي حديث النبي

(١) رواه الرامهرمزي في الأمثال.

صلى الله عليه وسلم قال: " إذا اتخذ الفئ دولا والأمانة مغنما والزكاة مغرما وتعلم لغير دين الله... فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء وزلزلة وخسفا ومسحاً وقذفا وآيات تتتابع كنظام بال قطع سلكه فتتابع ". وفي رواية: " إذا فعلت أمتي خمس عشر خصلة حل بها البلاء "، منها: " إذا كان المغنم دولا والأمانة مغنما والزكاة مغرما " (١). إن النظام الاقتصادي في المقدمة، فإذا انحرف ظهر أمراء السوء وفقهاء السوء وعادت نخوة الجاهلية، وراجت الأحاديث التي يكذبون فيها على رسول الله، ودخلت المباحث الكلامية عالم البريق والزخرف. وروي الشعر وراج القصص وكل هذا من أجل المال الذي في بيت المال ويغترف منه الأمراء والأجناد. وعالم مثل هذا لا بد أن تجرى عليه الزلزلة فتتباع أركانه، أو تنهدم ويجري عليه الخسف فيتوارى تحت التراب وتخسف هامته.

ومن الثابت أن الدولة الواسعة الأطراف لم تستطع البقاء تحت حكم إدارة مركزية واحدة، فكما توسعت بسرعة نراها تجزأت بسرعة أيضاً، وأول من قام بتجزئتها أحد أفراد أسرة الأمويين في إسبانيا وهو عبد الرحمن الداخل، حيث أسس دولة مستقلة سنة ١٣٩ هـ، ورفع يد الحاكم العباسي عن ذلك الجزء من الدولة الإسلامية. ثم انفصل الأدارسة وأسسوا الدولة العلوية في مراكش. ثم انفصل الأغالبة واستولوا على بقية مناطق إفريقيا سنة ١٨٤ هـ، وأسسوا دولة الأغالبة، وبعد قرن أي في سنة ٢٤٦ هـ ظهر ابن طولون في مصر ففصلها عن الدولة الإسلامية. أما في المشرق فتم تأسيس الدولة الطاهرية بخراسان (٢٠٤ هـ)، ثم ظهرت دويلات صغيرة بعد ذلك في شرق إيران كالصفاريين والسامانيين والغزنويين. وفي منتصف القرن الرابع الهجري سيطر على جهاز الدولة العباسية القواد والأمراء والحجاب والمماليك والأتراك. وخلال هذه الفترة قامت الدولة البويهية في الجزء المتبقى لهم في إيران. ثم انقرضت الدولة العباسية على يد المغول سنة ٦٥٦ هـ. ولقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بهذه النهايات قال: " منعت

(١) رواه الترمذي على أبو هريرة وعن علي (الجامع ٤٩٤، ٤٩٥ / ٤).

العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام مديها ودينارها، ومنعت مصر أرد بها ودينارها، وعدتم من حيث بدأتم وعدتم من حيث بدأتم وعدتم من حيث بدأتم " (١). قال النووي: القفيز مكيال معروف لأهل العراق، والمدى مكيال معروف لأهل الشام، والأردب مكيال معروف لأهل مصر، والأشهر في معنى الحديث: إن العجم والروم يستولون على البلاد فيمنعون حصول ذلك للمسلمين، وقد روى مسلم عن جابر قال: يوشك أن لا يحجى إليهم قفيز ولا درهم. قلنا: من أين ذلك؟ قال: من قبل العجم يمنعون ذلك. وذكر في منع الروم ذلك بالشام مثله (٢). لقد ذهب الخراج الذي فتح له بيت المال أبوابه، لأن فيه الأمن والأمان لحدود الدولة. ولم يأت الخراج بالأمن لأن السبي أصبح لهم موطئ قدم في الدولة، وتجول نصارى الحيرة وبني تغلب في الطرقات. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يوشك أن يملأ الأرض عز وجل أيديكم من العجم ثم يكونون أسدا لا يفرون فيقتلون مقاتلتكم ويأكلون فيأكلهم " (٣)، وعلى موائد الفئ لا ترى العجم وحدهم وإنما ترى كل وجوه الأمم. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قيل: يا رسول الله فمن قلة بما يومئذ؟ قال: لا ولكنكم غثاء كغثاء السيل، يجعل الوهن في قلوبكم وينزع الرعب من قلوب عدوكم لحبكم الدنيا وكرهتكم الموت (٤). غثاء السيل: أي كالذي يحمله السيل من زبد ووسخ (٥)

(١) رواه مسلم كتاب الفتن (الصحيح ٢٠ / ١٨) وأحمد (الفتح الرباني ٣٧ / ٢٤) وأبو داود حديث ٣٠٣٥.

(٢) النووي شرح مسلم (١٨ / ٢٠).

(٣) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الفتح الرباني ٥٥ / ٢٤)، ورواه البزار والحاكم (كنز ١٨٨ / ١١).

(٤) رواه أحمد وقال الهيثمي إسناده جيد (الزوائد ٢٨٧ / ٧) وقال في الفتح الرباني رواه أبو داود والبخاري في تاريخه (الفتح ٣٢ / ٢٤).

(٥) عون المعبود ٤٠٥ / ١١.

٥ - مشهود في أول الطريق:

توجد معالم في عهد الفاروق لا يمكن إهمالها ونحن نلقي الضوء على بدايات في عصره كانت لها نهايات في عصرنا، ومن هذه المعالم مدينة البصرة. ويذكر أن العرب لما فتحوا " الحيرة " سنة ١٤ هـ، أمر عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان بتأسيس البصرة سنة ١٥ هـ، فصارت حاضرة العراق. وأوطنت فيها قبائل عربية مختلفة الأصول والأنساب، تشابكت في علاقات مع سكان البلاد الأصليين من الفرس والنبط والآراميين. ومما لا شك فيه أن القبائل العربية قد نالها بعضا من غبار ثقافة أهل تلك البلاد. ولذا فقد حذر النبي صلى الله عليه وآله من البصرة من قبل أن تنشأ، ومن قبل أن يخرج اسمها إلى الوجود، وبين أن العدل سيموت على أعتابها. قال صلى الله عليه وسلم لأنس: يا أنس أن الناس يمضون أمصارا وأن مصرا منها يقال لها: البصرة أو البصرة، فإن أنت مررت بها أو دخلتها فإياك وسباخها (١)، وكلاءها (٢)، وسوقها (٣)، وباب أمرائها (٤)، وعليك بضواحيها (٥)، فإنه يكون بها خسف وقذف ورجف وقوم يبيتون فيصبحون قردة وخنازير (٦). وفي رواية فإن أنت وردتها فإياك ومقصعها وسوقها وباب سلطانها، فإنه سيكون بها خسف ومسح وقذف، آية ذلك أن يموت العدل ويفشوا فيها الجور، ويكثر فيها الزنا وتفشوا فيها شهادة الزور (٧)، وروي أن

(١) موضع يعلوه الملوحة.

(٢) موضع تربط فيه السفن.

(٣) لفساد العقول فيها.

(٤) لكثرة ظلمهم.

(٥) أي الجبال.

(٦) أي تحل بهم صفات لا يتصف بها إنسان سوى فيكونوا مقلدين كالقردة باحثين عن المادة كالخنازير.

(٧) رواه أبو داود حديث ٤٢٨٥ والطبراني (عون المعبود ٤٢١ / ١١).

أنسا اتخذ بيتا بعيدا عن البصرة (١).

إن الاعتراض ليس على بناء المدينة، وإنما على تولية أمراء المدينة الذين ذابوا مع نصارى الحيرة على موائد الشراب، وذلك أمر أقره علماء الحديث والتاريخ. فمن فوق هذه الموائد راج الشعر والقصص وكثر الزنا حتى قال الفاروق: إن الله بعث محمدا بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل آية الرجم (٢). وزاد في رواية: فرجم رسول الله ورجم أبو بكر ورجمت، ولولا أنني أكره أن أزيد في كتاب الله لكتبته في المصحف، فإني خشيت أن تجئ أقوام فلا يجدونه من كتاب الله فيكفرون (٣)، ومما يذكر أن الفاروق نهى عن نكاح المتعة، وهو عند بعض الفقهاء دواء يسد باب الزنا في مهمة كمهمة الفتوحات وغيرها. فعن جابر أنه قال: كنا نستمتع بالقبضة من التمر والدقيق الأيام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر حتى نهى عنه عمر (٤)، وروي أن عليا كان يقول: لولا نهى عمر عن المتعة ما زنى إلا شقي. وتمصير الأمصار كان يتم على قاعدة لا رواية فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان عمر لا يهتم إلا بقراءة القرآن في الأمصار، لكنه علم في آخر عهده أن القرآن وحده لا يعبر الطريق إلى الفرس والنبط والآراميين، ولا بد له من مفتاح يمهد له الطريق. وهذا المفتاح هو السنة الشريفة. ففي بداية الطريق يقول ابن كثير: فإن عمر كان يقول اشتغلوا بالقرآن فإن القرآن كلام الله، ولهذا لما بعث أبا موسى إلى العراق قال له: إنك تأتي قوما لهم في مساجدهم دوي بالقرآن كدوي النحل، فدعهم على ما هم عليه ولا تشغلهم بالأحاديث، وأنا شريكك في ذلك. هذا معروف عن عمر رضي الله عنه (٥). أما في نهاية الطريق

(١) رواه البخاري كالأحكام ب ما ذكر النبي وحض عليه (الصحيح ٢٦٥ / ٤).

(٢) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٣٨ / ٤).

(٣) رواه مسلم (الصحيح ١٣١ / ٤).

(٤) البداية والنهاية ١٠٧ / ٨.

(٥) رواه ابن عساكر (كنز العمال ٢٦٧ / ١٠).

فيروي ابن عساكر أن عمر بن الخطاب قال لابن عباس: أرى القرآن قد ظهر في الناس. فقال له: ما أحب ذاك يا أمير المؤمنين قال عمر: لم؟ فقال: لأنهم متى يقرأوا ينقروا ومتى ينقروا يختلفوا ومتى يختلفوا يضرب بعضهم رقاب بعض. قال عمر: إن كنت لأكتمها الناس (١)، ثم روى أن أبا موسى قد بعث إليه بأن عدد القراء قد ازداد، فقال عمر: إن بني إسرائيل إنما هلكت حين كثر قراؤهم (٢). وهكذا فطن الفاروق للنهية التي ما بعدها نهاية. لقد أراد أن تنتج الساحة قراء وأمراء من أصحاب السواعد القوية، ولكن في هذا إشكال لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "أكثر منافقي أمتي قراؤها" (٣)، وقال: "بكتاب الله يضلون وأول ذلك من قبل قرائهم وأمرائهم" (٤). إن القراءة فقط هي بذرة الخوارج التي عليها نبتت شجرتهم. والذي يستحق التسجيل هنا أن الفاروق أطلق صيحة مبكرة عندما علم أن أهل العراق قد نقروا واختلفوا. لقد قال: "يا أهل الشام استعدوا لأهل العراق فإن الشيطان قد باض فيهم" (٥)، ونحن لا ندري لماذا اختار الفاروق أهل الشام في هذا الوقت المبكر ليتجهزوا لأهل العراق. إننا لا نعلم الأسباب التي وراء هذا القرار لأنه غابت عنا أحداث لا يعلمها إلا من لا بسها.

إن البصرة بداية ضربها الدم من قبل أن يمصرها الناس، وذلك لما لها من أثر بالغ على اللغة والدين بعد أن اختلطت بها الشعوب وتحول على أرضها أمراء السوء، ولهذا لا نعجب عندما نستمع إلى حذيفة وهو يقول للفاروق: "إنك تستعين بالرجل الفاجر" (٦). ولا نعجب عندما نسمع من يقول لعمر: الله يا عمر تستعمل من يخون وتقول ليس عليك شئ وعاملك يفعل كذا

(١) رواه ستة (كنز العمال ٢٦٨ / ١٠).

(٢) الإستيعاب ٧٢ / ١.

(٣) رواه أحمد وقال الهيثمي رواة ثقات (الزوائد ٢٢٩ / ٦).

(٤) رواه ابن أبي عاصم وفي إسناده ضعف (كتاب السنة ١٣٢ / ١).

(٥) ابن سعد في الدلائل (كنز العمال ٣٥٤ / ١٢).

(٦) (كنز العمال ٧٧١ / ٥).

وكذا " (١). فأني علم هذا وأي دعوة هذه التي يشرف عليها الفاجر والخائن من الأمراء؟ والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: " لا إيمان لمن لا أمان له ولا دين لمن لا عهد له " (٢)، والقرآن قد نهى عن اتخاذ بطانة من دون المؤمنين. وإذا كانت البصرة قد أدينت من قبل أن تمصر، فإن أمراء عمر بن الخطاب قد أدينوا من قبل أن يظهروا على مسرح الأحداث. وذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبر بأنه سيظهر من بعد وفاته رجلا يقال له أويس، وأن هذا الرجل كريم عند ربه، وأنه خير التابعين (٣)، وأمر أصحابه إن لقوه فليطلبوا منه أن يستغفر لهم، وخص النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب وقال: إن استطعت أن تستغفر لك فافعل (٤). وظهر أويس في عهد عمر بن الخطاب، ولهذا قصة طويلة، وطلب عمر أن يستغفر له ففعل. وحرص عمل على أن يبقى أويس معه ولا يفارقه ولكنه أملس منه (أي تملس من الأمر. تخلص وأفلت) (٥)، فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة! فقال عمر: ألا أكتب لك إلى عاملها فيستوصي بك؟ قال: لا!! أكون في غبراء الناس أحب إلي (٦). لقد رفض أويس الأمراء، وعندما ذهب إلى الكوفة سأله رجل: كيف الزمان؟ فقال أويس: إن قيام المؤمن بأمر الله لم يبق له صديقا، والله إنا لنامرهم بالمعروف وننهاهم عن المنكر فيتخذوننا أعداء، ويجدون على ذلك من الفاسقين أعوانا، حتى والله لقد يقذفوننا بالعظام. والله لا يمنعني ذلك أن أقول الحق (٧). وقال أويس لهرم بن حبان: إن الأرواح لها أنفس كأنفس الأحياء، إن

(١) الطبري في تاريخه ٣١ / ٥.

(٢) رواه أحمد وأبو يعلى وفيه أبو هلال وثقه ابن معين (الزوائد ٩٦ / ١).

(٣) مسلم في فضائل أويس (الصحیح ٩٥ / ١٦).

(٤) أسد الغابة ١٨٠ / ١ ورواه مسلم.

(٥) كنز العمال ٤ / ١٤.

(٦) رواه مسلم وابن سعد وأبو نعيم والبيهقي (كنز ٤ / ١٤) مسلم في فضائل أويس

(الصحیح ٩٦ / ١٦).

(٧) الحاكم (المستدرک ٤٠٦ / ٧).

المؤمنين يعرف بعضهم بعضاً، ويتحدثون بروح الله وإن لم يلتقوا وأن لم يتكلموا، ويتعارفوا وإن نأت بهم الديار وتفرقت بهم المنازل. فقال له هرم: حدثني عن رسول الله بحديث أحفظه عنك؟ قال: إني لم أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تكن لي معه صحبة، ولقد رأيت رجلاً رأوه وقد بلغني من حديثه كما بلغكم ولست أحب أن أفتح هذا الباب على نفسي (١)، ولقد قاتل أويس بعد ذلك تحت راية علي بن أبي طالب واستشهد بين يديه. وسيأتي ذلك عند حديثنا عن معارك أمير المؤمنين.

هذا ما كان من أمر أويس الذي ادخره الله ليأتي في زمان لله حكمة فيه. وعندما جاء رفضه حتى توصية الأمراء به. وهذا ما كان من أمر البصرة التي أخبر عنها رسول الله من قبل أن يتخذها الناس مصراً من الأمصار، وإخبار فيه إدانة لحياتها الاجتماعية والاقتصادية والتربوية والسياسية. ثم إن طلب عمر بن الخطاب وهو الخليفة الراشد أن يستغفر له أويس وهو الذي لم ير النبي ولم يسمع منه فيه أن الإسلام دين لا يدعو إلى التعتم أمام الأشخاص. ويدعو أن يكون الشغل في الله والهمة به والفرار إليه، والشاهد الأخير هنا على أن الناس في عهد الفاروق كثير منهم تناولت أعناقهم في طلب الدنيا. ما رواه مسلم عن عبد الله بن الحارث قال: كنت واقفاً مع أبي بن كعب فقال: لا يزال الناس مختلفاً أعناقهم في طلب الدنيا. قلت: أجل... "الحديث (٢)، وأبي بن كعب مات في خلافة عمر على أصح الروايات (٣)، وطلب الدنيا ينتهي دوماً إلى زوال. أخرج ابن جرير عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن البعوضة تحيا ما جاعت فإذا شبعَت ماتت. وكذلك ابن آدم إذا امتلأ من الدنيا أخذته الله عند ذلك ثم تلى: " فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء

(١) الحاكم (المستدرک ٤٠٧ / ٣).

(٢) مسلم (الصحيح ١٩ / ١٨) كتاب الفتن.

(٣) الإصابة ١٩ / ١، الإستيعاب ٤٩ / ١.

حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر الذين ظلموا
والحمد لله رب العالمين " (١).

(٣٩٢)

خامسا - وجاء بنو أمية

في عالم الفتوحات حل الإسلام في قلوب البعض حين جاءت الغنائم والأموال وكثرت المكاسب، فهناك من ذاق طعم الحياة وعرف لذة الدنيا عندما لبسوا الناعم وأكلوا الطيب، وتمتعوا بنساء الروم وملكوا خزائن كسرى. بعد أن كانوا يعيشون في دائرة العيش الخشن، وأكل الضباب والقنافذ واليرابيع ولبس الصوف. فهذا الصنف حلا الإسلام في قلبه عندما وقع ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم بأنه سيفتح عليهم كنوز كسرى وقيصر. فلما وجدوا الأمر قد وقع بموجب ما قاله وأكلوا الغلوزجات ولبسوا الحرير والديباج. وأصبحوا أمراء في الأمصار استدلو بما فتح الله عليهم على صحة الدعوة فعظموها بجلوها، وتمسكوا بالدين لأنه زادهم طريقا إلى نيل الدنيا، ومجمل القول: لولا الفتوح والنصر والظفر والخراج لانقرض دين الإسلام بصورة من الصور، ولولا غلظة عمر التي جبله الله عليها ولا حيلة له فيها، وهي غلظة لا يقصد بها سوءا ولا يريد بها ذما، فعمر أجل قدرا من أن يعتقد فيه أن غلظته هدفها الدم والتخطفة، نقول لولا غلظته في التعامل مع بعض رؤوس القوم، لوجد أعداء الدولة لهم ثغرات يعملون فيها على انقراض الإسلام بصورة من الصورة. ولكن عمر وهو المشهور بالتصدي لهم، وعلى سبيل المثال فعمر هو القائل في سعد بن عبادة وهو رئيس الأنصار وسيدها، اقتلوا سعدا قتل الله سعدا، وعمر هو الذي شتم أبو هريرة، وعمر هو الذي خون عمرو بن العاص ونسب إليه سرقة مال الفئ، وعمر شتم خالد بن الوليد وطعن في دينه وحكم بفسقه وبوجوب قتله. فسرعة

(٣٩٣)

عمر إلى محاسبة البعض جعلت البعض الآخر يعيش يومه. وموقف عمر هذا وإن كان فيه خدمة للدولة إلا أنه لم يكن في صالح عمر، فلقد أبغضه بعض الصحابة وملوه رغم كثرة الفتوح لأنه لم يسمح لهم بالخروج إلى الأمصار. يقول الشعبي: لم يمت عمر حتى ملته قریش وقد حصرهم بالمدينة، وقال: إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد. فلما ولي عثمان خلى عنهم فاضطربوا في البلاد وانقطع الناس إليهم فكان ذلك أول وهن دخل على الإسلام وأول فتنة كانت في العامة ليس إلا ذلك (١).

فالذي حافظ على التماسك من ضربات الأعداء، أموال الفتوحات وقبضة عمر - الذي كان عصره بحق أفضل بكثير من عصور الملوك والسلاطين الذين ركبوا على أعناق الأمة على امتداد التاريخ. وإذا كان تاريخ المسلمين ملئ بالسلبيات والغيوم، فإن الحق يحتم علينا أن نقول بأن أعظم دولة للمسلمين هي التي كان على رأسها أبو بكر وعمر بن الخطاب، فهذا العصر كان عصر البذور والبذور لا يختلف أحد على أوراقها وثمارها لأنها لم تأت بعد: وهذه الفترة من التاريخ انتهت نهاية أليمة، وذلك عندما طعن غلام مجوسي الفاروق عمر رضي الله عنه. وروي أنه كان يفسر لعمر أحلامه. وقد أخبره عمر بحلم من الأحلام ففسره كعب بأنه سيقتل بسلاح له مواصفات خاصة، وعندما طعن عمر جاء كعب ييكي ويقول: والله لو أن أمير المؤمنين أقسم على الله أن يؤخره لأخره (٢)، ومن الأعجب أن كعبا اشتغل بعد ذلك مستشارا لمعاوية يوم أن كان أميراً على الشام، وعندما حدثت الانتفاضة على عثمان كان كعب أول من ألقى في قلب معاوية حب الخلافة! وعلى أي حال بعد عملية طعن الفاروق وهذا الاسم أطلقه عليه أهل الكتاب تعبيراً منهم لعدله ونظراً لأنهم لم يشعروا بغربة في عهده، وأظلتهم مظلة التسامح الإسلامية في كل مكان على أرض الدولة. حتى

(١) ابن عساکر (کنز العمال ٧٦ / ١٤).

(٢) ابن سعد (کنز العمال ٦٨٧ / ١٢).

إن عمر كان له مملوكا نصرانيا (١). ومن قبل عمر أخرج مالك وابن أبي شيبة وابن جرير والبيهقي عن عمرة بنت عبد الرحمن أن أبا بكر دخل على عائشة وهي تشتكي ويهودية ترقبها فقال أبو بكر ارقبها بكتاب الله عز وجل. فمظلة التسامح كانت تظلمهم ولم يشعروا بالكرامة الحقيقية على امتداد تاريخهم إلا تحت هذه المظلة وخير شاهد أنهم أطلقوا على عمر اسم الفاروق، قال ابن شهاب: بلغنا أن أهل الكتاب كانوا أول من قال لعمر الفاروق وكان المسلمون يأترون ذلك من قومهم، ولم يبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر من ذلك شيئا (٢). وبعد أن طعن الغلام المجوسي الفاروق فتحت صفحة جديدة بدأت بما سمي في التاريخ بالشورى.

١ - يوم الشورى:

من الثابت أن عمر بن الخطاب قال: لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا استخلفته. ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا استخلفته (٣)، وفي رواية عند الإمام أحمد: لو أدركني أحد الرجلين ثم جعلت الأمر إليه لوثقت به. سالم مولى أبي حذيفة وأبو عبيدة بن الجراح (٤). ثم اختار عمر ستة من الصحابة وصفهم بأن النبي صلى الله عليه وسلم مات وهو راض عنهم وهم: عثمان بن عفان. عبد الرحمن بن عوف. سعد بن أبي وقاص. الزبير بن العوام. طلحة وعلي بن أبي طالب. وأمر عمر صهيب أن يصلي بالناس ثلاثة أيام، وأن يدخل هؤلاء الرهط بيتا ويقوم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة وأبى واحد، على صهيب أن يطيح رأسه بالسيف. وإن اتفق أربعة وأبى اثنان يضرب رؤوسهما وإن رضي ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا فعليه أن يكون مع الذين فيهم عبد الرحمن بن

(١) أنظر ترجمة ناسق اليهودي.

(٢) الطبري ١٥ / ٥، ابن كثير في البداية باختصار ١٣٣ / ٧.

(٣) الطبري ٣٤ / ٥، تاريخ الخلفاء ص ١٢٧.

(٤) الإمام أحمد (الفتح الرباني ٩١ / ٢٣).

عوف ويقتل الباقيين (١)!!.

ومن العجيب أن عمر بن الخطاب كان يخاف أن يطلق الصحابة في الأمصار، ونهاهم عن مخالطة الناس لأنه رأى في ذلك أسي الفساد في الأرض. ثم نراه قد أطلقهم على دائرة الإمارة والخلافة، الأمر الذي أدى بعد ذلك إلى التنافس بعد أن رسخت في نفوس البعض من أهل الشورى حب الخلافة. ومن الصعب أن تأتي بجندي وترشحه للخلافة ثم تقول له بعد ذلك زاحم في الصفوف الأخيرة للجنود.

ومن العجيب أيضا أن يقول عمر لأهل الشورى: إن هذا الأمر لا يصلح للطلاق ولا لأبناء الطلقاء (٢)، خوفا منه لئلا يطمع الطلقاء في الملك، في الوقت الذي لم يخف حين جعلها في ستة متساوين في الشورى مرشحين للخلافة (٣). ومن الأعجب أن يشهد عمر بأنه أهل الشورى مات النبي وهو عنهم راض، ثم يأمر بضرب أعناقهم إن تأخروا في البيعة أكثر من ثلاثة أيام، ومعلوم أنهم بذلك لا يستحقون القتل لأنهم كلفوا أن يجتهدوا في اختيار الإمام، وربما يطول زمن الاجتهاد وربما قصر. وعلى هذا فأى معنى للقتل، إذا تجاوز الأيام الثلاثة؟ ثم إنه أمر بقتل من يخالف العدد الذي فيه عبد الرحمن، وهذا أيضا لا يستحق القتل. ثم أي إجماع وأي شورى وأي اختيار لمن يجلس والسيوف على رأسه ويتهدد بالقتل؟ ثم كيف يقتل من ورد فيهم أحاديث بأنهم من أهل الجنة؟ وما هو رأي المسلمين لو سمع النبي صلى الله عليه وسلم عمر يقول اقتلوا أهل الشورى؟ ونحن

لا ندري ما الذي حمل عمر على الوقوع في هذا الارتباك وقد كان قادرا على أن يستخلف أصلح القوم وهو يعرفهم واحد واحد! وروي أن أمراء الأجناد كانوا مع عمر بن الخطاب عند أدائه مناسك الحج

(١) هذا الخبر أجمعت عليه الأمة وأرسله علماء الحديث والتاريخ إرسال المسلمات. (راجع

الكامل ٣٦ / ٣)، (كنز العمال ٧٤٣ / ٥).

(٢) ابن سعد (كنز العمال ٧٣٥ / ٥).

(٣) فتح الباري كتاب الأحكام (١٩٧ / ١٣).

وقدموا معه إلى المدينة وهم: معاوية بن أبي سفيان أمير الشام، وعمير بن سعد أمير حمص، والمغيرة ابن شعبة أمير الكوفة، وأبو موسى الأشعري أمير البصرة، وعمرو بن العاص أمير مصر (١)، فهذه الحزمة الواحدة كانت موجودة يوم الشورى، وروي أن عبد الرحمن بن عوف خرج ليشاور الناس ودار لياليه يلقي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشرف الناس يشاورهم ولا يخلو برجل إلا أمره بعثمان (١). وروي أن عليا عندما علم بما يفعله عبد الرحمن لقي سعد بن أبي وقاص وقال له: اتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام أن الله كان عليكم رقيبا. أسألك برجم ابني هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وبرحم عمي حمزة منك أن لا تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيرا علي فإني أولى بما لا يدلي به عثمان (٢)، وذكر البخاري أن عبد الرحمن بن عوف كان يخشى من علي بن أبي طالب شيئا (٣) ولكنه لم يفصح عن هذا الشيء.

وكان عمار بن ياسر ميزانا للساحة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فالذي يبغض عليا فعليه بعمار بن ياسر ليرشده إلى طريق الحق الذي لن يجد فيه إلا علي بن أبي طالب. روى البخاري أن عمارا أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم (٤). وعمار قال فيه النبي: ابن سمية ما عرض عليه أمران قط إلا اختار الأرشد منهما (٥)، ويوم الشورى قال عبد الرحمن بن عوف: إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم (٦). فقام عمار بن ياسر وقال: إن أردت أن لا يختلف

(١) الطبري ٣٦ / ٥.

(٢) الطبري ٣٦ / ٥.

(٣) البخاري كتاب الأحكام (الصحيح ٢٤٦ / ٤).

(٤) البخاري في مناقب عمار (الصحيح ٣٠٥ / ٢).

(٥) رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ٣٣٠ / ٢٢) والترمذي وصححه (الجامع ٦٦٨ / ٥).

والحاكم، وقال حديث صحيح على شرط الشيخين (المستدرک ٣٨٨ / ٣).

(٦) الطبري ٣٧ / ٥.

المسلمون فبايع علياً (١). وفي رواية قال: يا معشر قريش أما إذا صرفتم هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ههنا مرة وههنا مرة، فما أنا بأمن من أن ينزعه الله منكم فيضعه في غيركم، كما نزعتموه من أهله ووضعتموه في غير أهله (٢)، فقال المقداد بن الأسود: صدق عمار إن بايع عبد الرحمن علياً قلنا سمعنا وأطعنا. فقال عبد الله بن أبي السرح - وكان النبي قد أحل دمه واختفى عند عثمان - يا عبد الرحمن إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان. فقال عبد الله بن أبي ربيعة: صدق إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا. فشتم عمار بن ياسر بن أبي السرح وقال: متى كنت تنصح المسلمين؟ ثم قال: أيها الناس إن الله عز وجل أكرمنا بنبيه وأعزنا بدينه فأني تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم. فقال له رجل من بني مخزوم (٣): لقد عدوت طورك يا ابن سمية وما أنت وتأمير قريش لأنفسها (٤). وكل ذلك كان يجري وأمرء الأمصار في المدينة يراقبون. وكان علي بن أبي طالب في هذا الوقت يقف في دائرة إقامة الحجة وليس له أن ينازع في أمر طريق الاختيار فيه مفتوح، وعلى الاختيار يأتي إما الأمن وإما الخوف والاستدراج. لقد أقام الحجة على سعد بن أبي وقاص عندما قال له: لا تكن مع عبد الرحمن لعثمان ظهيرا علي. وأقام الحجة عليهم جميعا فيما رواه أبو الطفيل قال: كنت على الباب يوم الشورى، فارتفعت الأصوات بينهم فسمعت علياً يقول: بايع الناس لأبي بكر وأنا والله أولى بالأمر منه وأحق به منه فسمعت وأطعت مخافة أن يرجع الناس كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض بالسيف، ثم بايع الناس عمر وأنا والله أولى بالأمر منه وأحق به منه فسمعت وأطعت مخافة أن يرجع الناس كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض بالسيف، ثم

(١) الطبري ٣٧ / ٥.

(٢) مروج الذهب / المسعودي ٣٢٢ / ٢.

(٣) بني مخزوم ضمن القبائل التي ذمها رسول الله صلى الله عليه وآله وأمر بجهادهم في الإسلام. رواه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه (كنز العمال ٤٨٠ / ٢).

(٤) الطبري ٣٧ / ٥.

أنتم تريدون أن تبايعوا عثمان إذا أسمع وأطيع. إن عمر جعلني في خمسة نفر أنا سادسهم لا يعرف لي فضلا عليهم في الصلاح ولا يعرفونه لي، كلنا فيه شرع سواء، وأيم الله لو أشاء أن أتكلم ثم لا يستطيع عربيهم ولا عجميهم ولا المعاهد منهم ولا المشرك رد خصلة منها لفعلت. ثم قال: نشدتكم الله أيها النفر جميعا أفيكم أحد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم غيري؟ قالوا: اللهم لا (١). وفي الصواعق المحرقة روى الدارقطني أن عليا قال لهم: أنشدكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم يا علي أنت قسيم الجنة والنار يوم القيامة غيري؟ قالوا: اللهم لا (٢)، وروى ابن أبي الحديد أنه قال لهم: أنشدكم الله هل فيكم أحد قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم من كنت مولاه فهذا مولاه غيري؟ قالوا: لا قال: أفيكم أحد قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي غيري؟ قالوا: لا، قال: أفيكم من أوتمن على سورة براءة وقال له رسول الله أنه لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني غيري؟ قالوا: لا (٣).

كان علي بن أبي طالب يقيم الحجة فقط، وكان يعلم أن طريقه إلى الخلافة غير ممهد، واختيار عمر بن الخطاب لأصحاب الشورى أول دليل على ذلك. فبعد تحديد الأسماء، قال علي للعباس: عدلت عنا. فقال له: وما علمك؟ قال: قرن بي عثمان وقال كونوا مع الأكثر، فإن رضي رجلا رجلا، ورجلا رجلا فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف. فسعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن وعبد الرحمن صهر عثمان. لا يختلفون فيوليها عبد الرحمن عثمان أو يوليها عثمان عبد الرحمن، فلو كان الآخرون معي لم ينفعوا في (٤). قال له العباس: لا تدخل معهم. قال: أكره

(١) (كنز العمال ٧٢٥ / ٥).

(٢) الصواعق المحرقة / ابن حجر الهيتمي ص ٢٤.

(٣) ابن أبي الحديد ٦١ / ٢.

(٤) الطبري ٣٥ / ٥.

الخلاف (١). فالإمام كان يعلم بالنتيجة، وكان يراقب من بالمدينة وكان يكره الخلاف وكان يقيم الحجة ولا إكراه في دين الله.

وروي أن عبد الرحمن بن عوف قال لعلي بن أبي طالب هل أنت مبايعي علي كتاب الله وسنة نبيه وسنة الماضين من قبل؟ وفي رواية: وسيرة أبي بكر وعمر؟ وفي رواية: وفعل أبي بكر وعمر؟ فقال علي: أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي، فقال عثمان: أنا يا أبا محمد أبايعك على ذلك (٢).. فقام عبد الرحمن ودخل المسجد وأرسل إلي من كان حاضرا من المهاجرين والأنصار وأرسل إلي أمراء الأجناد ثم قال: يا علي إني قد نظرت في أمر الناس فلم أراهم يعدلون بعثمان (٣). فقال علي: حبوته حبو دهر. ليس هذا أول يوم تظاهرت فيه علينا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون. ثم خرج وهو يقول: سيبليغ الكتاب أجله. فقال المقداد: يا عبد الرحمن أما والله لقد تركته وإنه من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون. فقال: يا مقداد والله لقد اجتهدت للمسلمين. فقال المقداد: ما رأيت مثل ما أوتي إلى أهل هذا البيت بعد نبهم. إني لأعجب من قریش إنهم تركوا رجلا ما أقول أن أحدا أعلم ولا أقضى منه بالعدل. أما الله لو أجد عليه أعوانا. قال عبد الرحمن: يا مقداد اتق الله فإنني خائف عليك الفتنة. فقال رجل للمقداد (٤): رحمك الله من أهل هذا البيت ومن هذا الرجل (٥)!! فقال المقداد: أهل البيت بنو عبد المطلب والرجل علي بن أبي طالب (٦).

لقد وضع عبد الرحمن شرطا يعلم أن عليا لن يقبله. بل يعلم أن عليا لو وجه النقد لهذا الشرط لكان في هذا كفاية لسيل الدماء فضلا عن ابتعاد الخلافة

(١) الطبري ٣٤ / ٥.

(٢) فتح الباري ١٩٨ / ١٣.

(٣) البخاري (الصحيح ٢٤٦ / ٤) ك الأحكام ب كيف يبائع الإمام الناس.

(٤) فيه إشارة أن عدم رواية الحديث جعلت الكثير لا يعرفون شيئا عن أهل البيت.

(٥) المقداد بن الأسود ورد فيه حديث (إن الله أمرني بحب أربعة وأخبرني أنه يحبهم: علي

وأبو ذر والمقداد وسلمان) رواه الترمذي وحسنه (الجامع ٦٣٦ / ٥).

(٦) الطبري ٣٨ / ٥، الكامل ٣٧ / ٣.

عن علي. وهذا الشرط أن يبايعه على سيرة أو فعل أبي بكر وعمر. وفي المدينة
أمرأ عمر معاوية وعمر و والمغيرة وغيرهم، كأمثال ابن أبي السرح وأبي سفيان
وبني مخزوم وهؤلاء انتعشوا بالفتوحات والخراج. والإمام ما كان له أن يقبل
هذا الشرط وذلك أن أبا بكر وعمر اختلفا في سيرة كل منهما للآخر. وعلى سبيل
المثال أبو بكر نص على خلافة عمر، بينما عمر جعلها شورى في ستة نفر، وأبو
بكر رأى أن يقاتل الذين امتنعوا عن دفع الزكاة، وعمر كان له رأي غير هذا.
وأبو بكر كان يرى أن خالد بن الوليد متأول في قتل مالك بن نويرة، وعمر كان
يرى غير ذلك. وأبو بكر كتب لنفر من المؤلفة قلوبهم بحقوقهم، وعمر مزق
كتاب أبي بكر لأن له رأيا آخر. فهذا وغيره يستقيم مع قول الإمام " أرجو أن
أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي " ولكن التيارات الموجودة بالمدينة حينئذ كانت
تعلم أن زهد علي لن يدفع بالخراج إلى أيديهم، وكانوا يعلمون أن عمر كان
مجتهدا يعمل بالقياس والاستحسان والمصالح المرسلة، ويرى تخصيص
عموميات النص بالآراء وبالاستنباط من أصول تقتضي خلاف ما يقتضيه عموم
النصوص، وكانوا يعلمون أن عمر قد عارك السياسة وكاد خصمه وأمرأ الأمراء
بالكيد والحيلة وكان يؤدب بالدرة والسوط من يتغلب على ظنه أنه يستوجب
ذلك، ويصفح عن آخرين قد اقترفوا ما يستحقون به التأديب. كل ذلك بقوة
اجتهاده وما يؤديه إليه نظره. أما علي بن أبي طالب فهو على خلاف ذلك - كان
يقف مع النصوص والظواهر ولا يتعدها إلى الاجتهاد والأقيسة ويطبق أمور الدنيا
على أمور الدين، ويسوق الكل سياقاً واحداً ولا يضع ولا يرفع إلا بالكتاب
والنص.

لقد عرفوا هذا من علي بن أبي طالب على الرغم من أنه لم يجلس على
كرسي يأمرهم به وينهاهم. كانوا يعلمون أن عمر شديد الغلظة والسياسة،
ويعلمون أن علياً كثير الحلم والصفح والتجاوز، ولكن المصلحة كانت في
سياسة عمر، والخوف كان من حلم علي، لأن دائرة الذهن عند جميع تيارات
الصد تخاف من يوم، وهذا اليوم ليس من دائرة الغلظة والشدة، وإنما من دائرة
خاصف النعل حيث الحلم والصفح والتجاوز والضرب في الله. وعلى هذا يمكن

أن نفهم قول البخاري: إن عبد الرحمن بن عوف كان يخشى من علي بن أبي طالب شيئاً.

٢ - رياح بني أمية:

كانت أشرف خصال قريش في الجاهلية: اللواء والندوة والسقاية والرفادة وزمزم والحجابه، وهذه الخصال مقسومة في الجاهلية إلى: بني هاشم وعبد الدار وعبد العزى دون بني عبد شمس. على أن معظم ذلك صار في الإسلام إلى بني هاشم، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة صار مفتاح الكعبة بيده، فدفعه إلى عثمان بن طلحة، فالشرف راجع إلى من ملك المفتاح لا إلى من دفع إليه (١). وكان بنو عبد شمس في الجاهلية من ألد أعداء بني هاشم، وازداد هذا العداء حدة بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم حيث قاد أبو سفيان ابن حرب بن أمية بن عبد شمس الحرب ضد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم صلى الله عليه وسلم. وهذه الحرب لها جذور قديمة لم يقض عليها الإسلام فضلاً على أسباب تتعلق بالإسلام ودعوته، ولهذا يمكن أن نفهم وصية أبي سفيان وهو يأمر معاوية بأن يطيع عمر فيقول له: فلا تخالفهم فإنك تجري إلى أمد فنافس فإن بلغته أورثته عقبك (٢). وقوله في عهد عثمان كما جاء في مروج الذهب: يا بني أمية تلقفوها الكرة فوالذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرن إلى صبيانكم وراثه. ثم وقوفه على قبر حمزة وقوله: يا أبا عمار إن الأمر الذي اجتدلنا عليه أمس صار في يد غلماننا اليوم يتلاعبون به (٣). وذلك بعد أن تحول أمراء بني أمية في الأمصار وراء الخراج. فأبو سفيان لم يكن يريد لعقة وإنما كان يريد الاستمرارية على مدى الأيام والدهور، وهذا من الكبر وبطر الحق ويظهر شدة الخصومة، ولذا نجد

(١) ابن أبي الحديد ٦١١ / ٤.

(٢) البداية والنهاية ٨١٨ / ٨.

(٣) ابن أبي الحديد ٤ / ٥١، الإمتاع والمؤانسة ٧٥ / ٢.

النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " إن أشد قومنا لنا بغضا بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم " (١). وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم أرى بني أمية على منبره فسأه ذلك " (٢). وقال صلى الله عليه وسلم: " ويل لنبي أمية " ثلاث مرات (٣)، ومعنى أن يكون عثمان بن عفان على رأس الخلافة، أن الطريق أمام بني أمية أصبح ممهدا بصورة من الصور. فبني أمية هدفهم الحكم وهم في سبيله يركبون الصعب، ولو كان الملك من وراء الجبال ليشبوا عليه حتى يصلوا كما روي عن الإمام علي (٤). فإذا كان كرسي الخلافة لا ينجو منهم إذا كان من وراء الجبال فكيف به إذا كان أمامهم والجالس عليه من وسطهم.

ونحن نقول إن عثمان باب لهم لأنه من نسيجهم، والرسول صلى الله عليه وسلم عندما أعطى سهم ذي القربى ترك بني نوفل وبني عبد شمس، ولم يعط عثمان على الرغم من أن عثمان كان في موقف السائل، روى البخاري وأبو داود عن جبير بن مطعم قال: لما كان يوم خيبر وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم سهم ذي القربى في بني هاشم وبني المطلب وترك بني نوفل وبني عبد شمس، فانطلقت أنا وعثمان بن عفان حتى أتينا النبي صلى الله عليه وسلم فقلنا: يا رسول الله هؤلاء بنو هاشم لا ننكر فضلهم للموضع الذي وضعك الله به منهم. فما بال إخواننا بني المطلب أعطيتهم وتركنا وقرابتنا واحدة؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنا وبنو المطلب لا نفرق في جاهلية ولا إسلام وإنما نحن وهم شيء واحد، وشبك بين أصابعه (٥).

فالتاريخ الفطري واضح في الجاهلية والإسلام. وليست المسألة مسألة قرابة، فالنبي عندما أعطى أعطى على النصرة، وبنو عبد شمس يلتقون في

(١) رواه الحاكم وأبو نعيم (كنز العمال ١٦٩ / ١١).

(٢) رواه الترمذي وحسنه (الجامع ٤٤٤ / ٥).

(٣) رواه ابن منده وأبو نعيم عن حمran عن جابر، وابن قانع عن سالم الحضرمي (كنز ١٦٥ / ١١).

(٤) رواه ابن عساكر (٣٦٤ / ١١ كنز).

(٥) رواه البخاري (الصحيح ١٩٦ / ٢) وأبو داود حديث ٢٩٨٠ واللفظ له.

قرابتهم مع بني هاشم في عبد مناف، ولكن ما قيمة قرابة لا نصره فيها لفطرة أو لدعوة، وكما قال ابن قدامة: إن بني المطلب شاركوا بني هاشم بالنصرة والقرابة (١).

ومن الدليل على أن خلافة عثمان كانت بابا لبني أمية، أن النبي صلى الله عليه وسلم أدخل مدة حكم عثمان في المدة الإجمالية لبني أمية وهي ألف شهر. روي عن الحسن قال: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني أمية يخطبون على منبره رجلا رجلا فسأه ذلك فنزلت (إنا أعطيناك الكوثر) نهر في الجنة ونزلت: (إنا أنزلناه في ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر) تملكها بنو أمية، فحسبنا ذلك فإذا هو لا يزيد ولا ينقص (٢).

وهذا الحديث رواه الحاكم وقال هذا إسناد صحيح، وقال الذهبي: وروي عن يوسف بن نوح بن قيس أيضا، وما علمت أن أحدا تكلم فيه والقاسم وثقه رواه عنه أبو داود والتبوكي (٣). وقال في الدر المنثور أخرجه الخطيب عن ابن المسيب وروي أيضا مثله عن الخطيب في تاريخه عن ابن عباس. وأيضا ما في معناه عن الترمذي وابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي عن الحسن بن علي. وقال ابن كثير في البداية والنهاية رواه الترمذي عن القاسم بن الفضل وقد وثقه يحيى بن سعيد وغيره ورواه ابن جرير والحاكم والبيهقي (٤). ورغم أن الحديث صحيح إلا أن منهم من لم يقبله قلبه. فترتب على ذلك مشكلة حتى أن الذهبي قال: وما أدري آفته من أين (٥)، ولقد حاول ابن كثير في التفسير أن يظهر نقطة ضعف واحدة فلم يجد واكتفى بالقول إن الحديث منكر، وظهرت حيرة ابن كثير في البداية والنهاية بعد أن أنكر الحديث في تفسيره، فقال: سألت

(١) المغني ٦٥٧ / ٢.

(٢) الحاكم (المستدرک ١٧١ / ٣).

(٣) المستدرک (١٧١ / ٣).

(٤) البداية والنهاية (٢٤٣ / ٦).

(٥) المستدرک (١٧١ / ٣).

شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزني عن هذا الحديث، فماذا قال الحافظ لابن كثير؟ إن ما قاله كان هو حجر الزاوية الذي عليه أنكروا حديث صحيح. قال الحافظ: إن القول بأنه حسب دولة بني أمية فوجدها ألف شهر لا تزيد يوما ولا تنقص فهو غريب جدا. وذلك لأنه لا يمكن إدخال دولة عثمان في هذه المدة، وذلك أنها ممدوحة ولأنه أحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين الذين قضوا بالحق وبه يعدلون، وهذا الحديث إنما سبق لزم دولتهم (١).

وتحديد المدة بدقة هو من شأن علماء التواريخ والسير الأقدمين في بداية العصر العباسي. وما بين أيدينا اليوم من تواريخ يؤيد ما ذهب إليه الحديث ولا يستثني دولة عثمان. وفي محاولة قديمة أسقط من المدة أيام ابن الزبير فقارب من قام بهذه الصحة في الحساب. وعلى أي حال فإن التاريخ خير شاهد، فعثمان أقام خيمة وهذه الخيمة دخلها معاوية فلم يشعر فيها بغربة، وبعد أن جعلها معاوية وراثته انطلق الورثة من داخل الخيمة وقتلوا الأنصار والحسين والذين يأمرهم بالقسط من الناس، وكل ذلك تحت هتاف واحد يقول: "يوم بيوم قتل عثمان"، وساروا وراء الخراج وجلسوا أمام بيوت المال ومعهم أختام ليست غريبة عن عهد عثمان.

٣ - ظهور النفاق:

ومن الدليل القاطع على أن دولة عثمان رتع فيها النفاق حتى بلغ الذروة، تلك الأحاديث التي رويت عن حذيفة صاحب سر رسول الله (٢). فحذيفة كان يعلم أسماء المنافقين الكبار الذين أرادوا اغتيال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند رجوعه من تبوك كما ذكرنا. والثابت والقاطع أن حذيفة مات بعد

(١) البداية والنهاية (٢٤٤ / ٦).

(٢) وصف في الصحيحين أنه صاحب السر الذي لا يعلمه غيره (البخاري ٣٠٥ / ٢) (الإصابة ٣٣٢ / ٢).

مقتل عثمان بأربعين يوما (١)، وقبل وفاته بايع عليا وأوصى الناس بطاعة أمير المؤمنين علي (٢)، وأمر أولاده بالقتال تحت رايته فقتلا بصفين (٣). والثابت أيضا أن حذيفة كان مريضا قبل قتل عثمان وكان يلزم بيته (٤)، وعلى ما سبق فإن رواياته التي سنوردها هنا لا بد وأن تكون قد وقعت في خلافة أبي بكر وعمر، وأما في خلافة عثمان. وهي روايات تجسد واقع المجتمع الذي رآه وسمعه حذيفة ومن هذه الروايات: قال: " لا يغرنك ما ترى، فإن هؤلاء يوشكون أن ينفرجوا عن دينهم كما تنفرج المرأة عن قبلها " (٥). وقال: " والله ما أدري أنسي أصحابي أم تناسوا؟ (٦) والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قائد فتنة (٧) إلى أن تنقضي الدنيا بلغ من معه ثلاثمائة فصاعدا إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه واسم (٨) قبيلته " (٩). إن حذيفة هنا يشير إلى أن النبي ترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، ولأن الصحابة نسوا ما ذكروا به جرت الفتنة. وقال حذيفة في معالمتها: " إن المنافقين اليوم شر منهم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يومئذ يسرون واليوم يجهرون " (١٠). ثم قال صاحب السر الذي لا يعلمه أحد غيره: " إنما كان النفاق على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم. فأما اليوم فإنما هو الكفر

-
- (١) الإصابة ٣٣٢ / ٢، الحاكم (المستدرک ٣٨٠ / ٣)، (البخاري في التاريخ الصغير ٨٠ / ١).
(٢) الحاكم (المستدرک ٣٨٠ / ٣) والبخاري ورجاله ثقات (الزوائد ٢٣٦ / ٧) وأبو نعيم (كنز العمال ٦١٢ / ١١) والطبراني ورجاله ثقات (الزوائد ٢٤٣ / ٧) ومروج الذهب ٣٩٤ / ٢، فتح الباري ٤٠ / ١٣.
(٣) الكامل ١٤٧ / ٣.
(٤) مروج الذهب ٣٩٤ / ٢.
(٥) رواه ابن أبي شيبة وأبو نعيم (كنز العمال ٢١٦ / ١١).
(٦) أم تناسوا: أي أظهروا النسيان لمصلحة من غير نسيان؟!
(٧) قائد فتنة: أي داعي ضلالة وباعث بدعة يأمر الناس بها.
(٨) باسمه واسم أبيه: يعني وصفا واضحا مفصلا لا مبهما.
(٩) رواه أبو داود حديث ٤٢٤٣، في عون المعبود حديث ٤٢٢٢.
(١٠) البخاري (الصحيح ٢٣٠ / ٤)، ك الفتنة باب إذا قال عند قوم شيئا ثم خرج.

بعد الإيمان " (١).

ثم يقول صاحب السر الشاهد على عصر الصحابة بعد وفاة النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم: " إن الرجل كان يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير منافقا. وإنني لأسمعها من أحدكم في المقعد الواحد أربع مرات. وفي رواية: عشر مرات (٢). إنها ثقافة وتربية مجتمع الرأي والمصلحة، وإلا كيف انتشرت هذه الثقافة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم بزمن يسير؟ ثم يفجر حذيفة أكبر حقيقة ترتبت على ذلك كله فيقول: قال صلى الله عليه وسلم: اكتبوا إلى من تلفظ بالإسلام من الناس. فكتبنا له ألف وخمسمائة رجل، فقلنا: تخاف ونحن ألف وخمسمائة. ثم يقول حذيفة: فلقد رأيتنا ابتلينا حتى أن الرجل ليصلي وحده وهو خائف (٣). وفي رواية عند مسلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنكم لا تدرون لعلكم أن تبتلوا. قال حذيفة: فابتلينا حتى جعل الرجل لا يصلي إلا سرا (٤).

إن الصلاة سرا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بأقل من ربع قرن انتهت في زمان بني أمية إلى ما رواه البخاري عن أنس، دخل عليه الزهري فوجده يبكي. فقال ما يبكيك؟ قال: لا أعرف شيئا مما أدركت إلا هذه الصلاة وهذه الصلاة قد ضيعت (٥). إن الأحاديث التي رواها حذيفة والأقوال التي قال بها حدثت إما في زمن أبي بكر، وإما في عهد عمر الذي اعترف صراحة بتعيين المنافقين، وإما في عهد عثمان، ونحن نرجح العهد الأخير لأنه باب لأسرة ذمها رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديث صحيحة. والنبي صلى الله عليه وسلم كان قد أخبر بظهور النفاق فقال: لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتكم قليلا، يظهر النفاق، وترفع الأمانة، وتقبض الرحمة، ويتهم الأمين،

(١) البخاري (الصحيح ٢٣٠ / ٤) ك الفتنة باب إذا قال عند قوم شيئا ثم خرج.

(٢) رواه أحمد وإسناده جيد (الفتح الرباني ١٧٣، ٢٣١ / ١٩).

(٣) البخاري (الصحيح ١٨٠ / ٢) ك الجماد والسير باب كتابة الإمام الذي.

(٤) مسلم (الصحيح ١٧٩ / ٢) وأحمد (الفتح الرباني ٤٠ / ٢٤).

(٥) البخاري (الصحيح ١٣ / ١).

ويؤمن غير الأمين " (١). صلى عليك يا رسول الله فلقد ظهر هذا بعد وفاتك بزمان قليل ثم بدأ يتسع حتى تاه الجميع في سنن الأولين إلا من رحم الله. وكان لظهور النفاق علامات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن للمنافقين علامات يعرفون بها، تحيتهم لعنة وطعامهم نهبه (أي اغتصاب) وغنيمتهم غلول (أي سرقة) (٢). وصلى الله عليك يا رسول الله.

٤ - الإحتجاج السلمي:

بدأ عثمان خطاه فقال: " لا يحل لأحد يروي حديثا لم يسمع به في عهد أبي بكر ولا عهد عمر " (٣) وكانت بداية حكمه لا تختلف عن سبقه، ولكن ما لبث بعد أن قام بنو أمية بترتيب أوراقهم أن تحول الحكم لصالح بني أمية، وصالح الأرسطراطية القرشية. وكما ذكرنا من قبل أن السياسة التي اتبعها عمر بن الخطاب كانت عدم توزيعه الأرض على المسلمين المقاتلين، وحولها إلى أرض خراج تملك الدولة رقبته، وصار بيت المال يدفع للمقاتلة أعطيات من الثابت أن عمر بن الخطاب فضل بعض الناس على بعض. ففضل السابقين على غيرهم وفضل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين، وفضل المهاجرين كافة على الأنصار كافة، وفضل العرب على العجم (٤). وكان من نتيجة ذلك ظهور طبقة من الأرسطراطية القرشية، ولكن بحجم محدود ما لبث أن اتسع بعد ذلك. وفي عهد عمر روى الإمام أحمد أن أبا عبيدة بن الجراح بكى وعندما قيل له ما يكيك قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: يا أبا عبيدة يكيك من الخدم ثلاث، خادم يخدمك، وخادم يسافر معك، وخادم يخدم أهلك. وحسبك من الدواب ثلاث، دابة لرحلك، ودابة لثقلك، ودابة لعلامك. ثم ها أنذا أنظر

(١) رواه الحاكم (كنز العمال ١٢٧ / ١١) ورواه الطبراني والبيهقي بلفظ مشابه (كنز ١٢٨ / ١١).

(٢) رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ٢٣٢ / ١٩).

(٣) الطبقات الكبرى ٣٣٦ / ٢، وابن عساكر (كنز العمال ٢٩٥ / ١٠).

(٤) ابن أبي الحديد ٤ / ٣.

إلى بيتي قد امتلأ رقيقاً، وانظر إلى مرابطي قد امتلأت دواباً، فكيف ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا وقد أوصانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أحبكم إلي وأقربكم مني من لقيني على مثل الحال الذي فارقتني عليها (١). وبعد ذلك اتسعت الطبقة في عهد عثمان بعد أن بسط نبلاء بني أمية وغيرهم أيديهم على كثير من الضياع. وبعد أن توسع الناس في أمور الدنيا واستعملوا النفيس من الملبس والمسكن والمطعم واقتنوا الأثاث الفاخر. وبمنظرة سريعة على ثروة بعض الأفراد خلال هذه المدة نجد أنه كان لعثمان عند خازنه يوم قتل ثلاثون ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم، وخمسون ومائة ألف دينار، وترك ألف بعير (٢). وكانت قيمة ما ترك عبد الرحمن بن عوف ألف بعير، وثلاثة آلاف شاة، ومائة فرس، كما ترك ذهباً قطع بالفؤوس حتى مجلت أيدي الرجال منه (٣).

وكان لطلحة بالعراق ما بين أربعمائة ألف إلى خمسمائة ألف، وكان يرسل إلى عائشة إذا جاءته غلته كل سنة بعشرة آلاف. وروي أنه ترك ألفي ألف درهم ومائتي ألف درهم، ومائتي ألف دينار، وإن قيمة ما ترك من العقار ثلاثين ألف ألف، وترك مائة بهار، في كل بهار ثلاثة قناطير ذهب والبهار جلد ثور (٤)، وكانت قيمة ما ترك الزبير إحدى وخمسين ألف ألف، وكان له بمصر خطط، وبالإسكندرية، وبالكوفة خطط، وبالبصرة دور، وكان له أربع نسوة أصابت كل امرأة ألف ألف ومائة ألف (٥). وفي تاريخ ابن عساكر أن عمرو بن العاص كان يلقح كروم بستان له بالطائف بألف ألف خشبة كل خشبة بدرهم، وكانت له دور كثيرة بمصر ودمشق وحرون والجابية. وكان لسعد بن أبي وقاص داراً بناها بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضائها وجعل على أعلاها شرفات.

(١) الإمام أحمد (الفتح الرباني ١٠٧ / ١٩).

(٢) الطبقات الكبرى ٧٦ / ٣.

(٣) الطبقات الكبرى ١٣٦ / ٣.

(٤) الطبقات الكبرى ٢٢٢ / ٣.

(٥) الطبقات الكبرى ١١٠ / ٣.

فالبذرة التي وضعها عمر تحت عنوان الخراج، جعلت العيون تتطلع إلى أموال الدولة حيث كانت وكل فرد يأخذ منها حجم الخدمة التي يؤديها للنظام. فمنهم من يأخذ دراهم، ومنهم من يأخذ داراً أو خادماً، ومنهم من يأخذ أرضاً أو ضياعاً. ووفقاً لثروة الدولة نتيجة للفتوحات، كان الفاروق يختار الأمراء وقادة الجند من قبائل مختلفة، فإذا وجد المال والأمير المخلص ضمنت الدولة عدم حدوث أي تمرد من أي قبيلة، لهذا لا نستغرب تعيين المنافقين في الدولة العمرية، ولا نستغرب تعيين أبي زبيد النصراني لأنه مدخل إلى بني تغلب، ولا إياس بن صبيح الذي كان من أصحاب مسيلمة لأنه مدخل إلى بني حنيفة رافعة لواء التمرد، ولا طلحة بن خويلد الذي ادعى النبوة لأنه مدخل إلى قبيلته حتى لا تنور، إلى غير ذلك من قبائل العرب، فبيت المال هو في حقيقة الأمر الحافظ للنظام، ولكنه في عهد عثمان كان في حقيقة الأمر المدمر للنظام. وذلك لأن الأغلبية العظمى من الأمراء الذين اختارهم عمر لم يكونوا من الطامعين في الخلافة، أما الأغلبية العظمى التي استعملها عثمان كانت تطمع في الخلافة، والغالبية العظمى في قريش كانت قد ملت عمر لأنه لم يسمح لهم بالخروج. وفي عهد عثمان انطلقوا فخالطوا الناس وجرى في أيديهم الذهب، وحببوا للناس الإمارة كما أحبوا الملك والرئاسة. واتسعت الطبقة الأرستقراطية القرشية وازدادت قائمة النبلاء، وأمام هذا الاتساع ظهرت الحركات المضادة التي تنبثق تحت العمامة الأموية. وعندئذ يقف عثمان ويقول: يا أيها الناس إن أبا بكر وعمر كانا يتأولان في هذا المال ظلف أنفسهما وذوي أرحامهما، وإنني تأولت فيه صلة رحمي " (١). ولكي يضع عثمان على قراره عباءة القداسة نراه يقول لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: " نشدتك الله أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤثر قريشاً على سائر الناس ويؤثر بني هاشم على سائر قريش. فسكت القوم. فقال: لو أن يبدي مفاتيح الجنة لأعطيتها بني أمية حتى

(١) الطبقات الكبرى ٦٤ / ٣، كنز العمال ٦٢٧ / ٥.

يدخلوا " (١). ولا ندري لماذا لم يسلك عثمان مسلك رسول الله الذي فضل بني هاشم على سائر قريش، ورضي أن يفضل بني أمية في الدنيا بل وطمع أيضا في الآخرة.

لقد كان لتدفق المال قصص وحكايات، وكان على هذا المال تحذير من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا التحذير حمله أبو ذر الغفاري، وشاء الله أن يحمله أبو ذر دون خلق الله حتى لا يتهم بأنه من بني هاشم فلا يسمع له.

لقد خرج أبو ذر على طائفة النبلاء في أول طريقهم، حتى لا تحدث كارثة في نهاية الطريق تتعدهم إلى غيرهم حتى قيام الساعة. وكان أبو ذر يحمل منقبة الصدق التي وضعها النبي صلى الله عليه وسلم على لسانه لتكون المنقبة حجة بذاتها على الصحابة في هذا الوقت. فعن عبد الله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما قلت الغبراء ولا أظلت الخضراء عن رجل أصدق من أبي ذر (٢). وفي رواية: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق ولا أوفى من أبي ذر شبيه عيسى بن مريم. فقال عمر بن الخطاب كالحاسد: يا رسول الله أنعرف ذلك له؟ قال: نعم فاعرفوه (٣).

قال أبو جعفر في مشكل الأثر: والمراد بالحديث التأكيد والمبالغة في صدقه، وتأملنا هذا الحديث لنقف على المعنى الذي أريد به، ما هو؟ فكان ذلك عندنا والله أعلم على أنه كان رضي الله عنه في أعلى مراتب الصدق (٤)، ونحن نقول: إن لكل شيء توقيتا، فأبو ذر كان في أعلى مراتب الصدق من يوم أن

(١) رواه أحمد وقال الهيثمي رواه ثقات (الفتح ٣٣٢ / ٢٢).

(٢) رواه أحمد بسند جيد (الفتح الرباني ٣٧٠ / ٢٢) وابن ماجه والطبراني بسند جيد (كشف

الخفاء ٢٣١ / ٢) والترمذي وحسنه (الجامع ٦٧٩ / ٥) وابن سعد (كنز العمال ٢٢٨ / ٤)

وابن عساكر (كنز العمال ٦٦٧ / ١١).

(٣) رواه الترمذي وحسنه (الجامع ٦٧٠ / ٥).

(٤) مشكل الأثر ٢٢٤ / ١.

قال له النبي صلى الله عليه وسلم ذلك. ولكن هذا الصدق لا بد وأن يشع عند هدفه ليكون على الناس حجة، لأن ما من شيء إلا من أجل هدف ومن وراء هذا الهدف حكمة. وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أمر أبا ذر فقال له: "ويحك بعدي إذا رأيت البناء قد علا سلعا، فالحق بالمغرب أرض قضاة، فإنه سيأتي عليكم يوم قاب قوسين، أو رمح أو رمحين من كذا وكذا (١). وذكر لأبي ذر أحداث وأحداث وقال له: "يا أبا ذر كيف أنت عند ولاه - وفي رواية: كيف أنت وأئمة من بعدي!! - يستأثرون عليك بهذا الفئ؟ قال أبو ذر: والذي بعثك بالحق أضع سيفي على عاتقي فأضرب به حتى ألحقك: قال: أفلا أدلك على خير لك من ذلك تصبر حتى تلقاني (٢).

وأمر النبي صلى الله عليه وآله بالصبر هو من نسيج أمره لأمر المؤمنين علي بأن لا ينازع، لأن المقام مقام إقامة الحجة. وروي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جعل يقرأ هذه الآية: * (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً...) * حتى فرغ من الآية ثم قال: يا أبا ذر كيف تصنع إن أخرجت من المدينة؟ قال قلت: إلى السعة والدعة أنطلق حتى أكون من حمام مكة. قال: كيف تصنع إن أخرجت من مكة؟ قال قلت: إلى السعة والدعة إلى الشام والأرض المقدسة. فقال: وكيف تصنع إن أخرجت من الشام؟ قال قلت: إذا والذي بعثك بالحق أضع سيفي على عاتقي. قال: أو خير من ذلك قال قلت: أو خير من ذلك. قال: تسمع وتطيع وإن كان عبداً حبشياً (٣) - وفي رواية - ألا أدلك على خير من ذلك تنقاد لهم حيث قادوك وتنساق لهم حيث ساقوك حتى تلقاني وأنت على ذلك (٤). وليس معنى أن يسمع ويطيع أن يجاريهم في سياستهم، لأن خروجه لن يكون عندئذ له معنى وستكون علامة الصدق معطلة في حالة سماعه وطاعته

(١) ابن عساكر (كنز العمال ١٨٨ / ١١) والطبري في التاريخ (تاريخ الأمم ٦٦ / ٥).

(٢) رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ٣٧ / ٢٣)، وابن سعد ولكن بلفظ كيف أنت إذا كان عليك أمراء الطبقات ٢٢٦ / ٤).

(٣) رواه أحمد وإسناده جيد (الفتح الرباني ٣٦ / ٢٣).

(٤) رواه أحمد (الفتح الرباني ١٠٨ / ٢٣).

لنبلاء قریش. وإنما المعنى أن يسمع ويطيع لهم عند قرارهم بنفيه وتسييره كي تنتقل الحجة من مكان إلى مكان دون عوائق يضعها أمام نفسه. وعندما بلغ سلعا، وهي العلامة التي سينطلق عندها أبو ذر بدأت المحن. فلقد قام أبو ذر بإنذار الذين يكنزون الذهب والفضة. وبدأت القيادة في المدينة المنورة تضيق على عثمان. فعن الأحنف بن قيس قال: كنت بالمدينة فإذا برجل يفر الناس منه حين يرونه. قلت: من أنت؟ قال: أنا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت: ما يفر الناس؟ قال: إني أنهارهم عن الكنوز بالذي كان ينهارهم عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم (١). أبو ذر لمن حضر: أحدثكم إني سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم تتهموني. ما كنت أظن أنني أعيش حتى أسمع هذا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم (٢). وعندما وجدت الدولة أن أبا ذر بدأ يضرب في الاتجاه الآخر، وأنه سيبعث رواية الأحاديث من جديد وستظهر الحقائق، زادت من إعطية الناس حتى تغطي هذه الزيادة على عنوان "مال الله دولا" الذي ورد في الحديث. ولكن أبا ذر مضى في طريقه يحذر من نبلاء قریش، فقال له رجل: إن أعطيأتنا قد ارتفعت اليوم وبلغت، هل تخاف علينا شيئا؟ قال: أما اليوم فلا. ولكنها توشك أن تكون أثمان دينكم فدعوها وإياكم (٣). وانتهى الأمر بإخراج أبي ذر إلى الربرة واستقبل أبو ذر هذا القرار بالرضا التام، لأنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين (٤). وبينما أبو ذر يستعد للخروج قال له رجل: أنت أبو ذر؟ قال: نعم، قال: لولا أنك رجل سوء ما أخرجت من

(١) رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ٣٧١ / ٢٢).

(٢) مروج الذهب ٢٧٦ / ٢، ابن أبي الحديد ٥٤١ / ٥.

(٣) الحاكم (المستدرک ٥٢٢ / ٤).

(٤) رواه ابن حبان في صحيحه والضياء وأحمد وابن سعد (كنز العمال ٦٦٨ / ١١).

المدينة، فقال: بين يدي عقبة كؤود إن نجوت منها لا يضرني ما قلت، وأن أقع فيها فأنا شر مما تقول (١). وعند خروج أبي ذر ودعه الإمام علي بن أبي طالب وقال له: يا أبا ذر إنك غضبت لله فأرج من غضبت له، إن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه، واهرب منهم بما خفتهم عليه، فما أحوجهم إلى ما منعتهم وما أغناك عما منعوك وستعلم من الرابح غدا والأكثر حسدا، ولو أن السماوات والأرضين كانتا على عبد رتقا ثم اتقى الله لجعل الله له منهما مخرجا، ولا يؤنسك إلا الحق ولا يوحشك إلا الباطل، فلو قبلت دنياهم لأحبوك ولو قرضت منها لأمنوك (٢) وتوفي أبو ذر بالربذة، وروى البلاذري أنه لما بلغ عثمان موت أبي ذر قال: رحمه الله، فقال عمار: نعم فرحمه الله من كل أنفسنا، فقال عثمان: يا عاص أبر أبيه أتراني ندمت على تسييره، وأمر فدفن قفاه وعندما تدخل المهاجرون تركه (٣). وهكذا أقيمت الحجة على أصحاب الخواتم الذهبية والضياح الفاخرة والأراضي الواسعة لعلهم أن يرتبوا أوراقتهم من جديد على طريق الدعوة. وإذا كان أبو ذر قد لفت الأنظار إلى أمراء بني أمية الذين يسلكون طريقا يتخذون فيه دين الله دخلا، فإن عبادة بن الصامت أعلن احتجاجه هو أيضا على أصحاب هذه الدائرة ويعلم لا طاعة لمن عصى الله. وكان عبادة يومئذ بالشام، وروي أن معاوية كتب إلى عثمان أن عبادة بن الصامت قد أفسد علي الشام وأهله فإما أم تكفف عني عبادة، وإما أن أخلي بينه وبين الشام، فكتب إليه عثمان: أن رحل عبادة حتى ترجعه إلى داره بالمدينة، فبعث بعبادة حتى قدم إلى المدينة، فدخل على عثمان في الدار فالتفت إليه فقال: يا عبادة بن الصامت ما لنا وما لك، فقام عبادة بين ظهراني الناس فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: سيلي أموركم بعدي رجال يعرفونكم ما تنكرون،

(١) الإمتاع والمؤانسة ١٢٨ / ٢.

(٢) ابن أبي الحديد ٩٠ / ٣، مروج الذهب ٣٧٧ / ٢.

(٣) البلاذري ٥ / ٥٤، يعقوبي ٢ / ١٥٠.

وينكرون عليكم ما تعرفون، فلا طاعة لمن عصى الله (١). وعلى عثمان كان أيضا اعتراض المقداد بن الأسود، روى مسلم أن رجلا جعل يمدح عثمان، فعمد المقداد فجثا على ركبتيه وكان رجلا ضخما يحثوا في وجهه الحصباء فقال له عثمان: ما شأنك؟ فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب (٢). وهناك اعتراض آخر لجمع من الصحابة قالوا لأسامة بن زيد: ألا تدخل على عثمان فتكلمه؟ فقال: أترون أني لا أكلمه إلا أسمعكم، والله لقد كلمته فيما بيني وبينه (٣). قال النووي: والمعنى أتظنون أني لا أكلمه إلا وأنتم تسمعون.. وفي الحديث وعظ الأمراء سرا وتبلغهم ما يقول الناس فيهم ليكفوا عنه. وهذا كله إذا أمكن ذلك فإن لم يمكن الوعظ سرا والإنكار فليفعله علانية لئلا يضيع أصل الحق (٤). ولقد قام زيد بن صوحان بوعظ عثمان أبلغ موعظة قبل الطوفان فقال له: يا أمير المؤمنين ملت فمالت أمتك اعتدل تعتدل أمتك - ثلاث مرات (٥).

٥ - الرد على الاحتجاج السلمي:

لقد خرج أبو ذر وعبادة والمقداد باعتراضهم عام ٣٠ هـ، وفي عام ٣٣ هـ كان الحال كما هو عليه فالوليد بن عقبة ونديمه النصراني أبو زبيد كانا يشربان الخمر، ويدخل عليهما نصارى بني تغلب ونصارى الحيرة في دار الإمارة حيث كان الوليد يومئذ أمير عثمان على الكوفة. وروي أن الوليد عندما ذهب ليجلس على كرسي الإمارة قال له سعد بن أبي وقاص: والله ما أرى أكسبت بعدنا أم

(١) رواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات (الزوائد ٢٢٧ / ٥).

(٢) رواه مسلم باب النهي عن الإفراط في المدح (الصحيح ١٢٨ / ١٨).

(٣) رواه مسلم (الصحيح ١١٨ / ١٨) ك الزهد باب عقوبة من يأمر بالمعروف.

(٤) مسلم شرح النووي ١١٨ / ١٨.

(٥) الطبقات الكبرى ١٢٤ / ٦.

حمقنا بعدك، فقال الوليد: لا تجزعن أبا إسحاق فإنما هو الملك يتغذاه قوم ويتعشاه آخرون، قال سعد: أراكم والله ستجعلونها ملكا (١)، والوليد هو أخو عثمان لأمه (٢)، ولا خلاف بين أهل العلم أن قوله تعالى: * (إن جاءكم فاسق...)* نزلت في الوليد (٣)، وقصة صلاته بالناس الصبح أربعاً وهو سكران مشهورة مخرجة، وقصة عزله بعد أن ثبت عليه شرب الخمر مشهورة أيضاً مخرجة، في الصحيحين (٤). ونتيجة لما فعله الوليد احتج وجوه أهل الكوفة وتوجهوا إلى عثمان وطالبوا بعزل الوليد ولكن عثمان ماطل. وروى البلاذري: أن عثمان ضرب بعض الشهود أسواطاً، فأتوا علياً فشكوا إليه، فأتى عثمان وقال: عطلت الحدود وضربت قوماً شهوداً على أخيك فقلبت الحكم. وأخرج البلاذري أيضاً: وأتى بعض الشهود عائشة فأخبروها بما جرى بينهم وبين عثمان، وأن عثمان زبرهم فنادت عائشة: إن عثمان أبطل الحدود وتوعد الشهود. وأخرج صاحب الأغاني: إن عثمان قال: أما يجد مراق أهل العراق وفساقهم ملجأً إلا بيت عائشة، فسمعت فرفعت نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت: تركت سنة رسول الله صاحب هذا النعل. فتسامع الناس فجاءوا حتى ملأوا المسجد فمن قائل: أحسنت، ومن قائل: ما للنساء ولهذا؟ حتى تحاصبوا وتضاربوا بالنعال. ولم يجد عثمان مفراً أمام هذه الانتفاضة سوى أن يجمع بين الوليد وبين خصمائه ورأى أن ينفذ عليه الحد. وروي أن سعيد بن العاص جلس على كرسي الإمارة بعد الوليد، وما صعد منبر الكوفة حتى أمر به أن يغسل: فناشده رجال من قریش كانوا قد خرجوا معه من بني أمية وقالوا: إن هذا قبيح والله لو أراد هذا غيرك لكان حقاً أن تذب عنه يلزمه عار هذا أبداً، ولكن سعيداً أبى إلا أن يفعل فغسله (٥). وإذا كان سعيد قد

(١) الإستيعاب ٦٣٣ / ٣.

(٢) الإستيعاب ٦٣١ / ٣.

(٣) الإستيعاب ٦٣٢ / ٣، الإصابة ٦٣٧ / ٣.

(٤) الإصابة ٦٣٨ / ٣.

(٥) الطبري ٨٨ / ٥.

طهر المنبر نجد أنه عندما اختار من أهل الكوفة من يدخل عليه ويسمر عنده، قد فجر مشكلة فتحت بابا واسعا للاحتجاج. روى أنه تفاخر بالخراج وقال: "إنما هذا السواد بستان لقريش". فهذه المقولة كانت بداية وقف الأشرع عندها. وقال له: أترعم أن السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيا فنا بستان لك ولقومك والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيبا إلا أن يكون كأحدنا. وتكلم القوم مع الأشرع، وعندئذ قال قائد شرطة سعيد: أتردون على الأمير مقالته وأغلظ لهم... فقال سعيد: والله لا يسمر عنهم عندي أحد أبدا. ثم كتب سعيد إلى عثمان: إن رهطا من أهل الكوفة يؤلبون ويجمعون على عيبك وعيبي والطعن في ديننا وقد خشيت إن ثبت أمرهم أن يكثروا (١).

وعلى هذه الرسالة بدأ عثمان ينتهج سياسة جديدة هي سياسة التسيير أي إبعاد الناس عن ديارهم إلى مكان آخر يمتاز بغلظة اليد. وكتب عثمان إلى سعيد أن سيرهم إلى معاوية وكان معاوية يومئذ على الشام فسيرهم وهم تسعة نفر إلى معاوية (٢) منهم: زيد بن صوحان وجندب بن كعب وفيهما ورد حديث يدين عهد عثمان. روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "جندب وما جندب وزيد الخير وما زيد الخير، أما أحدهما فيضرب ضربة يفرق بين الحق والباطل، وأما الآخر فيسبقه عضو من أعضائه إلى الجنة ثم يتبعه سائر جسده (٣). وقال: "من سره أن ينظر إلى رجل سبقه بعض أعضائه إلى الجنة فلينظر إلى زيد بن صوحان" (٤).

فأما جندب فواجه الوليد بن عقبة (٥) وحكم عليه عثمان بالتسيير. وأما زيد

(١) الطبري ٨٨ / ٥.

(٢) الطبري ٨٨ / ٥، البداية ١٦٥ / ٧.

(٣) رواه ابن عساكر وابن مندة وابن السكن (كنز العمال ٦٦٩ / ١١).

(٤) رواه أبو يعلى وابن عدي والخطيب وابن عساكر (كنز ٦٨٥ / ١١)، وقال ابن كثير رواه البيهقي (البداية ٢١٤ / ٦).

(٥) هو الذي أخبر ابن مسعود وغيره بشرب الوليد للخمر وقاد المعارضة ضده (الطبري ١٧ / ٢).

فهو الذي قال لعثمان: ملت فمالت أمتك اعتدل تعتدل أمتك (١). ثم بايع بعد ذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقتل تحت رايته. ومنهم: كميل بن زياد قال صاحب الإصابة: أدرك من الحياة النبوية ثمان عشرة سنة، شهد صفين مع علي، وكان شريفا مطاعا ثقة (٢). ومنهم: جندب بن زهير. قال في الإصابة: أتى النبي صلى الله عليه وسلم في نفر من قومه. قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إني لأرجع من عندك، فلم تفر عيني بمال ولا ولد حتى أرجع فأنظر إليك. وقيل كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق ارتاح لذلك، فنزلت قوله تعالى: * (من كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا) *. ومنهم: عمرو بن الحمق، قال في الإصابة: روي عن ابن إسحاق ما يقتضي أن عمرو بن الحمق شهد بدرًا، وشهد مع علي حروبه كلها (٤). ومنهم: عروة بن الجعد وهو الذي أرسله النبي صلى الله عليه وسلم ليشتري الشاة بدينار فاشترى به شاتين، والحديث مشهور في البخاري (٥). ومنهم: صعصعة بن صوحان قال في الإصابة: كان مسلما في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يره. شهد صفين مع علي وكان خطيبا فصيحاً. وقال الشعبي: كنت أتعلم منه الخطب (٦). ومنهم: مالك بن عامر الأشتري، الذي شهد الصلاة على أبي ذر حين مات بالربذة، وكان النبي قد أخبر أنه يشهد الصلاة عليه عصابة من المؤمنين. وكان الأشتري قلب هجوم علي بن أبي طالب في صفين. فهؤلاء الصحابة الأجلاء (٧). فيهم من شهد بدرًا، وفيهم من كانت رؤية النبي أعلى من ماله وولده، وفيهم من أجمع العلماء على أنه ثقة ومأمون

-
- (١) الطبقات الكبرى ١٢٤ / ٦.
(٢) الإصابة ٣٢٥ / ٥.
(٣) الإصابة ٢٥٩ / ١.
(٤) الإصابة ٢٩٤ / ٤.
(٥) الإصابة ٢٣٦ / ٤.
(٦) الإصابة ٢٥٩ / ٣.
(٧) راجع أسماءهم في الطبري ٩٠ / ٥.

وخطيب، هؤلاء طردهم عثمان لأنهم تصدوا لمن هم من أمثال الوليد وسعيد
ومعاوية إلى غير ذلك من نبلاء بني أمية. لقد سيرهم إلى الشام وهناك بدأ معاوية
يعرفهم بتاريخ آبائه بعد أن قطعت المسيرة شوطا كبيرا على طريق اللارواية.
فقال لهم: ... وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها إلا ما جعل الله لنبيه
صلى الله عليه وآله... وإني لأظن أن أبا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلا
حازما (١). وفي سباق الأحداث يبدو أن معاوية كان يمهد الأمر لنفسه بهذه
المقولة وكان يطمع في نشرها كما سيظهر فيما بعد. ولكن أحد المبعدين وهو
صعصعة قال: قد ولد لهم خير من أبي سفيان من خلقه الله بيده ونفخ فيه من
روحه (٢). وفي الليلة التالية جمعهم معاوية وقال لهم: أيها القوم ردوا علي خيرا
أو اسكتوا، وتفكروا وانظروا فيما ينفعكم وينفع أهليكم وينفع عشائركم وينفع
جماعة المسلمين فاطلبوه تعيشوا ونعش بكم (٣). وهنا لوح معاوية بالمال ولكن
صعصعة قال: لست بأهل ذلك ولا كرامة لك إن تطاع في معصية الله. فأخبره
معاوية بأنه يأمر بتقوى الله وطاعته وطاعة رسوله. فقال صعصعة: فأما نأمرك أن
تعتزل عملك فإن في المسلمين من هو أحق به منك. قال معاوية: من هو؟
فقال: من كان أبوه أحسن قدما من أبيك، وهو بنفسه أحسن قدما منك في
الإسلام، قال معاوية: إن لي في الإسلام قدما، ولقد رأى عمر بن الخطاب
ذلك، فلو كان غيري أقوى مني لم يكن لي عند عمر هوادة، فقالوا: لست لذلك
أهلا (٤).

كتب معاوية إلى عثمان: فإنك بعثت إلي أقواما يتكلمون باللسنة الشياطين،
وما يملون عليهم ويأتون الناس زعموا من قبل القرآن فيشبهون على الناس،
وليس كل الناس يعلم ما يريدون وإنما يريدون فرقة، فقد أفسدوا كثيرا من الناس
من أهل الكوفة، ولست آمن إن قاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم

(١) الطبري ٨٩ / ٥، البداية والنهاية ١٦٥ / ٧.

(٢) الطبري ٨٩ / ٥، البداية ١٦٥ / ٧.

(٣) الطبري ٨٩ / ٥.

(٤) الطبري ٨٩ / ٥.

وفجورهم فارددهم إلى مصرهم. فكتب إليه عثمان يأمره أن يردهم إلى سعيد بن العاص بالكوفة، فردهم إليه (١). وعندما تحدثوا بالقرآن خاف سعيد أن يغروا الناس بسحرهم كما خاف معاوية من قبل فكتب إلى عثمان يضحج منهم فكتب عثمان إليه أن يسيرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد أمير حمص (٢). لقد كانت البداية اعتراض على مقولة: "السواد بستان لقريش" تلك المقولة الظالمة التي عند نتیجتها أولى خرج أبو ذر الغفاري وغيره. ولكن الدولة تعامت عن حركة الغليان في الجانب الآخر، وعلى كؤوس الوليد وشعر أبي زبيد والأقيشر وشعراء الأديرة والخمور خرج جندب ليضرب الشعوذة والدجل والسحر ويقاضي الوليد بل والنظام كله. ولكن النظام عاد ليقول: "السواد بستان لقريش" ولم يضع في حساباته أن الخروج السلمي لأبي ذر وعبادة والمقداد قد طرح ثقافة تحذر من بني أمية إذا بلغوا ثلاثين رجلا، ولهذا لم يكن غريبا أن نسمع وفد المبعدين وهم يطالبون باعتزال معاوية.

٦ - البطانة السوء:

جاءت سياسة التسيير بمزيد من الصعوبات أمام دولة عثمان فبعد أن انقضى عام ٣٣ هـ - ٣٤ هـ بدأت الأمصار تضج من ظلم الولاية، فمصر تحت قيادة عبد الله بن أبي السرح أخو عثمان من الرضاعة. وكان عبد الله يكتب الوحي للنبي، ثم ارتد مشركا، ويوم فتح مكة أمر النبي بقتله، ولو وجد تحت أستار الكعبة، ولكن عبد الله اختفى عند عثمان. وبعد أن هدأت الأمور في مكة جاء به عثمان ليستأمن له، ولكن النبي صمت طويلا، ثم قال: نعم. فلما انصرف عثمان قال النبي صلى الله عليه وسلم لمن حوله: ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه فقال رجل: فهلا أومأت إلي يا رسول الله، فقال: إن النبي لا

(١) الطبري ٩٠ / ٥.

(٢) الطبري ٩٠ / ٥.

ينبغي أن تكون له خاتمة الأعين (١). وفي عهد عمر بن الخطاب ولاة عمر على صعيد مصر وفي عهد عثمان ضمت إليه مصر كلها بعد أن عزل عمرو بن العاص عنها. وأمره عثمان أن يغزو بلاد إفريقيا، فإن فتحها فله خمس الخمس من الغنيمة، فسار إليها في عشرة آلاف فافتتحها وقتل خلقا كثيرا من أهلها (٢). وعلى الرغم من أن خمس الخمس قد دخل جيبه إلا أنه فرض الضرائب على مصر حتى اشتكى أهلها. أما في الكوفة فقد اجتمع الناس وتذاكروا أعمال عثمان وما صنع، واجتمع رأيهم على أن يبعثوا إليه رجلا يكلمه، فأرسلوا إليه عامر بن قيس. فلما دخل عليه قال: إن ناسا من المسلمين اجتمعوا فنظروا في أعمالك فوجدوك قد ركبت أمورا عظاما، فاتق الله عز وجل وتب إليه. فقال عامر: بلى والله إلى هذا!! تكلمني في المحقرات، فوالله ما تدري أين الله. فقال عامر: بلى والله إني لأدري إن الله بالمرصاد لك (٣). وعقب هذا اللقاء أرسل عثمان إلى معاوية بن أبي سفيان وإلى عبد الله بن أبي السرح وإلى سعيد بن العباس وإلى عمرو بن العاص وإلى عبد الله بن عامر، فجمعهم ليشاورهم. فلما اجتمعوا عنده قال لهم: إن لكل امرئ وزراء ونصحاء، وإنكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي، وقد صنع الناس ما قد رأيتم، وطلبوا إلي أن أعزل عمالي، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون، فاجتهدوا رأيكم وأشيروا علي (٤). فماذا قال الذين تطالب الشعوب بعزلهم؟ قال عبد الله بن عامر: رأيي لك أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك وأن تجمرهم في المغازي حتى يذلو لك، فلا يكون همّة أحدهم إلا نفسه... (٥). فهذا الرأي جعل الجهاد سقفا له، وفي الميدان إما بقتل. وإما التصفية الجسدية، وأما الابقاء في ثغور العدو، أو

(١) راجع أبو داود حديث ٢٦٦٦، أسد الغابة ٢٥٩ / ٣، البداية والنهاية ١٥٢ / ٧، الإصابة

٣١٧ / ٢، الإستهباب ٣٧٦ / ٢.

(٢) البداية والنهاية ١٥٢ / ٧.

(٣) الطبري ٩٤ / ٥، مروج الذهب ٣٧٢ / ٢.

(٤) الطبري ٩٤ / ٥، مروج الذهب ٣٧٢ / ٢.

(٥) الطبري ٩٤ / ٥، مروج الذهب ٣٧٢ / ٢.

الحبس في أرض العدو. وهذه أمور نهى عنها الشرع (١). أما سعيد بن العاص فقال: إن لكل قوم قادة متى تهلك يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر. فقال عثمان: إن هذا الرأي! لولا ما فيه (٢)! أما معاوية فقال: الرأي أن تأمر أمراء أجنادك فيكفيك كل رجل منهم ما قبله وأكفيك أنا أهل الشام (٣). لقد أراد معاوية أن تجري في الأمصار بحور الدماء، ولم لا وهم في أيديهم المال والسلاح والجند. أما عبد الله ابن أبي السرح فقال: إن الناس أهل طمع فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم (٤). وهذا الرأي يعني التلويح بالرغيف والزخرف لشراء الدين والنفوس. أما عمرو بن العاص فقال: إنك قد ركبت الناس بما يكرهون، فاعتزم أن تعتدل، فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل، فإن أبيت فاعتزم عزما وامضي قدما. فقال عثمان: ما لك قمل فروك. أهذا الجد منك. فسكت عمرو. وعندما تفرق القوم قال: يا أمير المؤمنين قد علمت أنه سيبلغ الناس قول كل رجل منا، فأردت أن يبلغهم قولي فيثقوا بي فأقود إليك خيرا أو أدفع عنك شرا (٥). إن هذا الاجتماع الذي رواه غير واحد من أصحاب التاريخ. هو المقدمة الأولى التي قامت على عثمان فقرارات غرفة المشورة هذه أشعلت النيران لحسابها الخاص، وذلك بعد أن تمكن المال من نفوسهم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " لا تزال أمتي على الفطرة ما لم يتخذوا الأمانة مغنما والزكاة مغرما " (٦). فأصحاب المشورة الذين شاورهم عثمان هم المقدمة الأولى لقيادة فاسدة الفطرة، لأن المال والجاه والترف هو رأس الزاوية لتحركاتهم. وروي أن عثمان بعد هذا الاجتماع قرر أن يضيق الأمراء على من قبلهم، وأن يجمروا الناس في البعوث، وعزم على تحريم أعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا

(١) لسان العرب مادة حجر.

(٢) الطبري ٩٤، ٩٥ / ٥، مروج الذهب ٣٧٢ / ٢.

(٣) الطبري ٩٤، ٩٥ / ٥، مروج الذهب ٣٧٢ / ٢.

(٤) الطبري ٩٤، ٩٥ / ٥، مروج الذهب ٣٧٢ / ٢.

(٥) الطبري ٩٤، ٩٥ / ٥، مروج الذهب ٣٧٢ / ٢.

(٦) رواه الضياء (كنز العمال ٦٢ / ٣).

إليه (١). ولم يمض عام ٣٤ هـ حتى كتب أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعضهم إلى بعض: أن اقدموا فإن كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد، وكثر الناس على عثمان ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد (٢). وأمام هذه التحولات خطب عثمان في الناس: فقد والله عبتكم علي بما أقررتكم لابن الخطاب بمثله، ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده وقمعكم بلسانه، فدنتم له ما أحببتم أو كرهتم، ولنت لكم وأوطأت لكم كتفي ولقفت يدي ولساني عنكم فاجترأتم علي، أما والله لأنا أعز نفرا وأقرب ناصرا وأكثر عددا وأمن إن قلت هلم أتى إلي، ولقد أعددت لكم أقرانكم وأفضلت عليكم فضولا وكشرت لكم عن نابي، فكفوا عليكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم، فإنني قد كففت عنكم من لو كان هو الذي يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقي هذا إلا فما تفقدون من حقكم والله ما قصرت في بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلي، ومن لم تكونوا تختلفون عليه (٣). فأمام الزحف الساخط على الأمراء، كشر عثمان عن نابه وأمر بالكف عن الطعن على الولاة، وأخبر أن عمر بن الخطاب كان يطؤهم برجله ويضربهم بيده ويقرعهم بلسانه، وعثمان لا يختلف عن عمر لأن عثمان يمسك بذيل عمر في كيفية تولية الأمراء وتوزيع المال. وإذا كانت الثورة قد جاءت لأن عثمان قد لان لهم وكف يده عنهم، فلا، لأنه أعز نفرا وأقرب ناصرا وأكثر عددا. فهذا مجمل خطاب عثمان أثناء العاصفة. وترتب على ذلك أن أهل الكوفة خرجوا على أميرهم سعيد بن العاص بالسلاح وردوه إلى عثمان وقالوا: لا والله لا يلي علينا حكما ما حملنا سيوفنا (٤). ولم تجدي أنياب الدولة أمام هذا الموقف شيئا، وبعث عثمان بأبي موسى أميرا عليهم فأقروه (٥).

(١) الطبري ٩٥ / ٥.

(٢) الطبري ٩٦ / ٥.

(٣) الطبري ٩٧ / ٥، البداية والنهاية ١٦٩ / ٧.

(٤) الطبري ٩٥، ٩٦ / ٥.

(٥) الطبري ٩٥، ٩٦ / ٥.

٧ - العاصفة والبحث عن الذات:

وجاء عام ٣٥ هـ، وهو العام الذي سقط في سلته ما ترتب على قرارات صدرت خلال ما يقرب من ربع قرن بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم. وأقصد بذلك قرار إبعاد علي بن أبي طالب عن مركز القيادة، وقرار التضييق على رواية الحديث ثم منعها بعد ذلك، وقرار القص في المساجد، وقرار إلغاء سهم المؤلفة قلوبهم، وقرار إنشاء الخراج الذي استفاد منه طبقة على حساب الذين فتحوا الأرض عنوة، وقرار تعيين المنافقين. وجميع هذه القرارات وردت فيها أحاديث صحيحة، ورواها أصحاب التاريخ وتقبلها العلماء وأرسلوها إرسال المسلمين، ولا يمكن الطعن فيها بأي حال من الأحوال. وذلك لأن الحديث وحركة التاريخ فضلا عن آيات القرآن الكريم، جميع ذلك لا يلتفت إلى أي اعتراض لأنه سيكون اعتراض قوائمه في ديار الأهواء، والذي دفعني لكي أقول ذلك أنه خلال عام ٣٥ هـ ظهر عند بعض أصحاب التواريخ شخصية اعتبروا أنها السبب الرئيسي في البلاء الذي حط على رحلة المسلمين، وهذه الشخصية هي "عبد الله بن سبأ" أو "ابن السوداء"، وأغلب الظن أن الذين اخترعوا هذه الشخصية أرادوا بها قطع طريق البحث العلمي حتى لا يصل إلى الأسباب الحقيقية التي دفعت بالأمة إلى عالم الاختلاف والافتراق واتباع سنن الذين من قبلهم. والذي ساعد على دق عمود هذه الشخصية في تاريخ المسلمين هو القص الذي اتبع سياسة بث الإسرائيليات والخرافات، في وقت كان العديد يتقبل هذه الإذاعات بالتسليم التام، نظرا لعدم وجود سياسة لرواية الحديث عن رسول الله.

ومن العجيب أن القاص، وهو يعرض شخصية عبد الله بن سبأ، أخبر بأنه لم يستطع أن يمزق وحدة المسلمين في الشام!! ولازم ذلك أن الشام عليها أمير فقيه في دين الله مهتم بأمة محمد ووحدتها. ومن الثابت والذي لا خلاف عليه أن القص كان وجبة أساسية على امتداد العهد الأموي، وتحت ظلاله سبوا أمير المؤمنين علي. في البيوت والحارات والبارات وفي المساجد. وعدم اختراق ابن سبأ للشام جاء عند الطبري على النحو التالي: كان عبد الله بن سبأ يهوديا من

أهل صنعاء أمه سوداء، فأسلم زمان عثمان ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم، فبدأ بالحجاز ثم الكوفة ثم الشام، فلم يقدر على ما يريد أحد من أهل الشام، فأخرجوه حتى أتى مصر فاعتمر فيهم (١). ولا ندري إذا كان ابن سبأ معروف لأهل الشام حتى أنهم أخرجوه. فلماذا لم يقتله معاوية وهو الذي قتل حجر بن عدي بعد ذلك تحت دعوى أنه خطر على النظام. أو لماذا لم يسيره إلى عثمان وهو الذي كتب إليه من قبل أن أهل الكوفة يتحدثون بالسنة الشياطين وأنه غير أمن إن قاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم وفجورهم؟! وإذا فرضنا أنه لم يستطع القبض عليه لهروبه، فلماذا لم يقبض عليه أي أمير من أمراء الدولة، وهم أصحاب العيون المفتوحة على كل ما يهدد أمنهم؟ ولماذا لم يظهر ابن سبأ يوم قتل عثمان ضمن المجموعة التي اغتالته. وإذا كان كارها لعثمان لماذا لم نسمع له اسما في معارك علي بن أبي طالب كلها. ثم لماذا لم يبحث عنه معاوية يوم أن جلس على رقبة الأمة، وهو الذي كان يبحث عن المعارضين تحت كل حجر، وأتى بعمر بن الحمق وقطع رأسه وأهداها إلى زوجة عمرو، فكان أول رأس أهدي في الإسلام؟ ونحن إذا نظرنا في العمود الفقري للدعوة التي قام بها عبد الله بن سبأ نرى العجب، جاء في تاريخ الطبري: قال ابن سبأ لهم: إنه كان ألف نبي، ولكل نبي وصي، وكان علي وصي محمد. وقال: محمد خاتم النبيين، وعلي خاتم الأوصياء. وقال: من أظلم ممن لم يحز وصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ووثب علي وصي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتناول أمر الأمة. وقال: إن عثمان أخذها بغير حق وهذا وصي رسول الله، فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وأبدوا الطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " (٢). هذه دعوة الشخصية الخرافية المنبوذة جعلوها على لسانه لتكون دعوة خرافية منبوذة، أو في عالمهم وعصرهم أوهموا الناس وقفا لسياسة

(١) الطبري ٩٨ / ٥.

(٢) الطبري ٩٨ / ٥.

النص. أن ابن سبأ شخصية حقيقية، ثم على لسانه وضعوا ما يعتبرونه شذوذاً كي يرفضه الناس، وفي صلب الدعوة نجد أنهم وضعوا وتداً مهماً هو أن الطعن على الأمراء جريمة من فعلها يكون قد اقتفى أثر ابن سبأ اليهودي، وليس من الصدقة أن نرى هذا الكم من الأحاديث الموضوعة التي تحض على طاعة الأمراء. ثم نجد وتداً لا يستحق النقاش هو أنهم جعلوا موقع علي بن أبي طالب من الرسول صلى الله عليه وسلم في دائرة الشذوذ، ليفسحوا الطريق أمام أمرائهم. ويكفي في هذا المقام أن نقول بأن الله خيب سعيهم، لأن وضع الحقيقة في دائرة الخرافة على عهدهم دليل على أن لله طائفة لا يضرهم من خالفهم أو ناوهم أو خذلهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك " (١). وفي رواية: " لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس " (٢). وفي رواية: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على من ناوهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى وينزل عيسى ابن مريم " (٣). وعلى ذلك فإنهم ما وضعوا الحقيقة في دائرة الخرافة إلا عندما أحسوا بوقع أقدام هذه الطائفة فأرادوا أن يعزلوها عن الناس بفعلهم هذا. إن طائفة الحق ظاهرة في عالم اللارواية، ولن يعتم عليها القص، لأن الله قضى ذلك، وطائفة الحق ظاهرة مهما كانت قوة من ناوهم أو خذلهم أو خالفهم. قد تكون الطائفة على الأرض تحت الظلال وقد يكون من ناوهم فوق السحاب وتحت الشمس، ولكن الظهور لها لأن الله أراد ذلك. وليس معنى أن الطائفة ليس لها مكان على الأرض إنها غير موجودة. فعيسى بن مريم لم يمتلك شبرا واحداً من الأرض ولكن وجوده على الأرض أظهر، وهكذا شاء الله. والخلاصة: أن ابن سبأ شخصية يسأل عنها القائلين على سياسة القص، فهو شخصية خرافية، جعلوا على لسانه حقائق وخرافات أراد إعلام النبلاء أن يبشها على

(١) رواه الإمام مسلم (الصحيح ٦٥ / ١٣) ك الجهاد.

(٢) رواه مسلم (الصحيح ٦٧ / ١٣) ك الجهاد.

(٣) رواه أحمد والحاكم وأبو داود (الفتح الرباني ٢١٠ / ٢٣).

الأسماع، رغبة منه في إيجاد رأي عام يؤيد ما تراه السياسة حقيقة أو خرافة. ولقد قال غير واحد من الباحثين إن شخصية ابن سبأ لا وجود لها في التاريخ (١). ولم يذكر ابن سبأ في العديد من الكتب التي سبقت تاريخ الطبري ومنها كتاب مروج الذهب للمسعودي. ومما سبق نعلم أن الساحة كان بها أكثر من تيار ضد عثمان. فتيار كان يعمل من أجل تغيير الأمراء في الأمصار، وتيار كان يرى أن عثمان مسؤول مسؤولية مباشرة عن سياسة الأمراء، ونقموا منها أشياء منها: إرجاعه للحكم بن أبي العاص الذي لعنه رسول الله ونفاه وغير ذلك، وهذا التيار كان يريد خلع عثمان ليتولى السلطة أحد غيره. وكان هناك تيار يريد أن يعود إلى الأمر الأول الذي في دائرته علي بن أبي طالب، وذلك بعد أن فشلت أطروحة الاجتهاد والرأي في قيادة الأمة، وخلفت وراءها أمراء النفاق والفتن وطبقات من النبلاء، وأخرى من المحرومين، ومدونات من الشعر والقصص. وهذا التيار حكماً بوجوده وفقاً لأطروحة ابن سبأ فلو لم يكن له وجود ما اخترعوا له شخصية ابن سبأ، وبالأخص أننا لم نقرأ نصاً واحداً ينادي بعلي بن أبي طالب حول بيت عثمان يوم حصاره. والذي قرأناه أن هناك من كان ينادي بطلحة، وليس معنى عدم وجود أصوات لعلي ومؤيديه له يصرخون ويولولون حول بيت عثمان أن علياً كان وحده، ويكفي علي أن يكون معه عمار، وأبو أيوب الأنصاري، وحذيفة، وأبو قتادة، وبريدة، وزيد بن أرقم، وعمران بن حصين، والبراء بن عازب، وزيد بن صوحان، وغير هؤلاء رضي الله عنهم أجمعين، وروي أن الصحابة أشاروا على عثمان بأن يرسل من يثور به إلى الأمصار كي يتبين حقيقة الأمور، فأخذ عثمان بهذه المشورة وبعث برجال إلى الأمصار كي يقفوا على حقيقة الإذاعة ضده وموقف الأمراء من الرعية. وعندما عادوا أخبروه بعدم وجود إذاعة ضده إلا أن الأمراء يظلمون الناس، فبعث عثمان إلى عمال الأمصار، معاوية، وابن عامر، وابن أبي السرح، وأدخل معهم في المشورة سعيداً،

(١) راجع كتاب عبد الله ابن سبأ / للعلامة مرتضى العسكري.

وعمرأ، وعندما قدموا عليه قال: ويحكم ما هذه الشكاية وما هذه الإذاعة،
إني والله لخائف أن تكونوا مصدوقا عليكم وما يعصب هذا إلا بي (١).
ومن العجيب أنهم أصرروا على وجود إذاعة ضده، على الرغم من أن الذين
بعث بهم عثمان إلى الأمصار نفوا ذلك. وعندما أخبرهم عثمان بما انتهى إليه
قالوا: لا والله ما صدقوا ولا بروا، وإن ما نقل إليك لا يحل الأخذ به ولا
الانتهاء إليه، ثم أكدوا الإذاعة ضده. فقال سعيد بن العاص: هذا أمر مصنوع
يصنع في السر فيلقى به غير ذي معرفة، فيخبر به فيتحدث به في مجالسهم. قال
عثمان: فما دواء ذلك؟ قال: طلب هؤلاء القوم ثم قتل هؤلاء الذين يخرجهم هذا
من عندهم (٢). لقد أراد أن يلقي بمزيد من الزيت على النار، وأشار كل واحد
منهم بمشورة لا تستقيم مع كون الأمة أمة واحدة، وقال عثمان: كل ما أشرت به
علي قد سمعت ولكل أمر باب يؤتى منه (٣). وبعد هذا اللقاء حدث أمر هام
يلقي بظلاله على المسيرة بعد ذلك، فلقد روي أن عثمان بعد هذا اللقاء خرج
وكان يسير خلفه كعب الأحمار، ولا ندري ما هو دور كعب في هذا اللقاء الذي
كان قريبا منه، ولكن الذي نعلمه أن كعبا كان بعد فتح بيت المقدس يقيم بالشام
عند معاوية، وكان كثير الانتقال بين الشام وبين المدينة، وأن معاوية أمره بالقص
في المساجد بالشام، ثم اتخذه مستشارا له وكان يعده من العلماء، روي بعد
خروج عثمان رجز الحادي:

قد علمت ضوامر المطي* وضمرات عوج القسي
أن الأمير بعده علي* وفي الزبير خلف رضي

فقال كعب وهو يسير خلف عثمان. الأمير والله بعده صاحب البلغة وأشار
إلى معاوية، وروي أن كعبا قال عندما سمع الشعر: كذبت صاحب الشهباء
بعده - يعني معاوية - وعندما أخبر معاوية بما قاله كعب سأله، فقال كعب: نعم

(١) الطبري ٩٩ / ٥.

(٢) الطبري ٩٩ / ٥.

(٣) الطبري ١٠٠ / ٥.

أنت الأمير بعده، ولكنها لا تصل إليك حتى تكذب بحديثي هذا، ف وقعت في نفس معاوية. وفي رواية: ما زال معاوية يطمع فيها بعد مقدمة على عثمان حين جمعهم ثم ارتحل فحدا به الراجز:

أيها الأمير بعده علي* وفي الزبير خلف رضي (١)
ماذا يستفاد من ذلك؟ لقد قال كعب لعمر من قبل أن أوصافه مذكورة في التوراة، فهل أخبر معاوية بأن له أوصاف ظاهرة في كتب الأولين؟ وأن أهم هذه الأوصاف أنه سيولي أمر هذه الأمة، ولن يلي هذا الأمر حتى يكذب بهذا الخبر، نظرا لتواضعه وحيأؤه وملكات نفسه التي شبت من غذاء الروح، فهي لا تجوع أبدا ولا تطلب شعبا من قيادة أو غيرها! وهل أراد كعب أن يخرج معاوية بأقصى سرعة من دائرة التكذيب بحديثه إلى دائرة الاصرار إلى نيل الخلافة؟ لقد قال معاوية للوفد الذي سبره عثمان إليه حين طالبوه باعتزال السلطة: والله إن لي في الإسلام قدما، ولغيري كان أحسن قدما مني، ولكنه ليس في زمانني أحد أقوى على ما أنا فيه مني (٢). أليس في هذا ما أراد كعب؟ ففي فترة ما كان معاوية أن يعتقد أن هناك من أحسن منه، وهذا الاعتقاد جعله لا يسرع في الأمر لأنه لو أسرع لكذبت نفسه في بلوغ الهدف، ثم جاءت مرحلة الاصرار حيث ليس في زمامه أحد أقوى على ما هو فيه منه.

ثم يحق للباحث أن يتساءل، لقد كان كعب الأخبار قريبا من عمر. وروي أن عمر قال لأصحاب الشورى: إن اختلفتم دخل عليكم معاوية بن أبي سفيان من الشام (٣). فهل كان في هذا إغراء لمعاوية بالخلافة يكون مدخلا لما قاله كعب بعد ذلك؟ ثم لقد روي أن عمر قال: " يا أهل الشام استعدوا لأهل العراق " (٤) فهل في هذا إغراء آخر ازداد بريقه في عهد عثمان حيث كانت

(١) الطبري ١٠٠ / ٥.

(٢) الطبري ١٠٩ / ٥.

(٣) الطبقات الكبرى ٧٣٥ / ٥.

(٤) ابن سعد في الدلائل (كنز العمال ٣٥٤ / ١٢).

المعارضة في العراق قد بلغت الذروة؟ والباحث يمكن أن يرى بسهولة أن الاغراء قد تمكن من نفس معاوية، وذلك من خلال أقواله وأفعاله بعد أن أخبره كعب الأحماس بأن الأمر إليه بعد عثمان، فقبل أن يتوجه معاوية إلى الشام، خرج من عند عثمان وعليه ثياب السفر متقلدا سيفه متنكبا قوسه، فإذا هن بنفر من المهاجرين فيهم طلحة والزبير وعلي، وهم الذين جاء ذكرهم في رجز الحادي بخصوص الخلافة بعد عثمان، فقام معاوية عليهم فتوكأ على قوسه بعدما سلم عليهم ثم قال: إنكم قد علمتم أن هذا الأمر كان إذا الناس يتغالبن إلى رجال، فلم يكن منكم أحد إلا وفي فصيلته من يرأسه ويستبد عليه ويقطع الأمر دونه ولا يشهده ولا يؤمره، حتى بعث الله نبيه، فكانوا يرأسون من جاء من بعده وأمرهم شورى بينهم يتفاضلون بالسابقة والقدمة والاجتهاد. فإن أخذوا بذلك وقاموا عليه كان الأمر أمرهم والناس تبع لهم، وإن أصغوا إلى الدنيا وطلبوها بالتغالب سلبوا ذلك ورده الله إلى ما كان يرأسهم، وإلا فليحذروا الغير فإن الله على البذل قادر وله المشيئة في ملكه وأمره، إني خلفت فيكم شيئا فاستوصوا به خيرا وكانفوه تكونوا أسعد منه حالا". ثم ودعهم فقال علي: ما كنت أرى في هذا خيرا (١). أهم أعمدة هذا الخطاب أراد معاوية أن يذكرهم بأنه قبل الإسلام كانت القيادة في قريش إلى رجال (٢)، وأنهم كانوا يرجعون أمورهم إلى هؤلاء الرجال الذين كانوا يستبدون عليهم ويقطعون الأمور، دون أن يشاوروا غيرهم. وعندما جاء الإسلام جعل الأمر شورى والتفاضل بالسابقة والاجتهاد، فإن أخذوا بذلك كان الأمر لهم والناس تبع لهم، وأن أبوا خلاف ذلك رد الله القيادة إلى من كان يرأسهم قبل الإسلام. ثم حذرهم الغير هذا، لأن الله على البذل قادر، فالبذل إذا جاء جاء بأمر الله، فسبحانه له المشيئة في ملكه وأمره. ولم ينس معاوية أن يضع بينه وبينهم شيئا، ثم أوصاهم به، لأن هذا الشيخ ربما يكون طريقا إلى البذل إذا حدث له أي مكروه.

(١) الطبري ١٠١ / ٥.

(٢) ومنهم أبو سفيان وكان معاوية قد قال للوفد الذي سيره إليه عثمان، وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها (الطبري ٨٩ / ٥).

هكذا تحدث معاوية بعد إذاعة كعب، ولذا قال الإمام علي: ما كنت أرى أن في هذا خيرا. وروي أن معاوية قال لعثمان: انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به، فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا (١). ومعنى هذا أن يكون اسم الخلافة بالشام فتكون من معاوية ومعاوية منها. ولكن عثمان لم يوافق على ذلك فقال معاوية: والله يا أمير المؤمنين لتغتالن أو لتغرين (٢). وانطلق معاوية إلى الشام وهو يبحث عن ذاته وسط العاصفة، مسترجعا وصية أمه له حين ولاه عمر.

٨ - من الذي قتل عثمان؟

إن عثمان قتل في نهاية طريق. كانت بدايته ربما بلا عواصف وغالبا لا يرى الإنسان إلا بداية الطريق أو وسطه أما نهاية الطريق فلا ترى إلا بعد أن يجيء. وفي نهاية الطريق كانت هناك عواصف عاتبة. لقد فتحت الدولة أبوابها للمنافقين أصحاب السواعد القوية. ومن نفس الباب جاء عثمان بعبد الله بن أبي السرح الذي أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دمه. ليجعله واليا على مصر بعد أن جعله عمر أميرا على الصعيد. كما جاء عثمان بالوليد بن عقبة وجعله واليا على الكوفة بعد أن جعله عمر أميرا على بني تغلب. ثم أحضر الحكم بن أبي العاص طريد رسول الله وأعطاه من غنائم المسلمين. واتخذ مروان ابنه مستشارا له ومروان في البداية هو مفتاح قتل عثمان وفي النهاية هو الذي شق عصا المسلمين بلا شبهة. ولم يكتف عثمان بذلك قبل فتح أبواب بيت المال لنبلأ بني أمية والطبقة المميزة من قريش. وعندما قامت عليه الثورة وجد أمامه وحده كل هذه الأخطاء وطالبوه وحده بالتوبة، وروى الطبري أن المصريين عندما قدموا عليه قالوا له: أدع بالمصحف؟ فدعا بالمصحف فقالوا له: إفتح السورة السابعة وكانوا يسمون سورة يونس السابعة. ثم أمروه أن يقرأ. حتى أتى على

(١) الطبري ١٠١ / ٥، البداية والنهاية ١٦٩ / ٥.

(٢) الطبري ١٠١ / ٥، البداية والنهاية ١٦٩ / ٥.

قوله تعالى: (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل الله أذن لكم أم على الله تفترون) (١) فقالوا له: قف. أرأيت ما حميت من الحمى الله أذن لك أم على الله تفتري؟ قال: وأما الحمى فإن عمر حمى الحمى قبلي لا بل الصدقة. فلما وليت زادت إبل الصدقة فزدت في الحمى لما ناد في إبل الصدقة... ثم أخذوه بأشياء لم يكن عنده منها مخرج فعرفها فقال: أستغفر الله وأتوب إليه ما تريدون؟ قالوا: نريد ألا يأخذ أهل المدينة عطاء. فإنما هذا المال لمن قاتل عليه ولهؤلاء الشيوخ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فرضي عثمان بذلك وأخذ عليهم ألا يشقوا عصا ولا يفرقوا جماعة ما قام لهم بشروطهم (٢).

ويا ليت الأمر سار على هذا. ولكن بني أمية مكروا مكرهم روى الطبري: لما قدمت إبل الصدقة على عثمان بعد ذلك وهبها لبعض بني الحكم بن أبي العاص. فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف فأخذها وقسمها في الناس وعثمان في الدار (٣). والأكبر من ذلك أن المصريين عندما تصالحوا مع عثمان على أن لا يشقوا عصا ما قام بشروطهم. فوجئوا في طريقهم بأبي الأعور السلمي الذي لعنه رسول الله يحمل رسالة إلى ابن أبي السرح الذي أهدر النبي دمه. وفيها يأمره عثمان بصلبهم أو قتلهم أو قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف. وعلى الرسالة خاتم عثمان: ولقد أنكر عثمان ذلك ومن سير الأحداث تبين أن الذي وراء هذه الرسالة هو مروان بن الحكم بن أبي العاص الذي لعنه النبي صلى الله عليه وسلم وهو في صلب أبيه. إن الذي قتل عثمان سياسة سهرت عليها بطانة سوء من أمثال معاوية وعمرو مروان وابن أبي السرح وغيرهم، وما تصدى لعثمان إلا الصحابة وأبناء الصحابة، وليس من الحقيقة في شيء أن يقال: إن الذين ألبوا وساعدوا وقتلوا

(١) سورة يونس: الآية ٥٩.

(٢) الطبري ١٠٧ / ٥.

(٣) الطبري ١١٤ / ٥.

عثمان هم مجموعة من أتباع عبد الله بن سبأ أشهر شخصية خرافية في تاريخ المسلمين، أو إنهم مجموعة من الرعاع والدهماء والعامّة، فالذين قاموا بهذا مجموعة من الصحابة منهم على سبيل المثال:

. معاوية بن أبي سفيان: لقد كان له حلمه الخاص. وعندما واجهت عثمان المخاطر. كتب إلى معاوية: أما بعد، فإن أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة فابعث إلي من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول. وعندما جاء معاوية الكتاب وعلم اجتماع الصحابة على عثمان!

تباطئ (١)، وعندما علم عثمان إبطاء معاوية. تعداه وكتب إلى أهل الشام يستنفرهم ويعظم حقه عليهم. وقال لهم: فإن كان عندكم غياث فالعجل العجل فإن القوم معاجلي. فلما قرئ كتابه عليهم قام يزيد بن أسد القسري وحضهم على نصره وأمرهم بالمسير إليه حتى إذا كانوا بوادي القرى بلغهم قتل عثمان فرجعوا (٢) ولقد جرى كل هذا ومعاوية بعيد كل البعد ولا يشغله إلا ما أخبره به كعب.

. ومنهم السيدة عائشة أم المؤمنين. لقد كانت رضي الله عنها أول من كفر عثمان. وذلك حين علمت أن الوقت ليس في صالحه وأن الثورات التي تتوالى عليه ستهلكه لا محالة. روي أنها قالت عندما عطل عثمان الحد عن الوليد بن عقبة وضرب الشهود الذين شهدوا عليه بأنه ينادم أبا زييد ويشرب معه الخمر قالت: "اقتلوا نعثلا فقد كفر" (٢)، قال في لسان العرب: النعثل الشيخ الأحمق وكان أعداء عثمان يسمونه نعثلا. وفي حديث عائشة: "اقتلوا نعثلا. قتل الله نعثلا... " تعني عثمان وكان هذا منها لما غاضبته وذهبت إلى مكة (٤) أي: قولها الذي ذكره صاحب لسان العرب كان عند الثورة الأخيرة عليه. وما

(١) الطبري ١١٥ / ٥.

(٢) الطبري ١١٦ / ٥.

(٣) النهاية لابن الأثير ٥ / ٨٠، تاريخ أعمش ص ١٥٥، شرح النهج ٧٧ / ٤.

(٤) لسان العرب مادة نعثل ص ٤٤٧٠.

ذكرناه نحن كان في الثورة الأولى عليه يوم الوليد بن عقبة. وروى أن مروان بن الحكم وزيد بن ثابت قدما إلى أم المؤمنين وهي تريد الحج وعثمان محصور فقالا لها: يا أم المؤمنين. لو أقمت فإن أمير المؤمنين على ما ترين محصور ومقامك مما يدفع الله به عنه. فقالت: قد حلبت ظهري وعريت غرائزي ولست أقدر على المقام فقال مروان:

وحرقت قيس على البلاد* حتى إذا استعرت أجذاما
فقالت: أيها المتمثل علي بالأشعار. وددت والله أنك وصاحبك هذا الذي يعينك أمره. في رجل كل واحد منكما رحا وإنكما في البحر. وخرجت أم المؤمنين إلى مكة (١).

. ومنهم: طلحة بن عبيد الله. روى الإمام أحمد عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: شهدت عثمان يوم حوصره. فرأيت عثمان أشرق من الخوخة فقال: أيها الناس أفيكم طلحة. فسكتوا - فكررهما ثلاثا - فقام طلحة. فقال له عثمان: ألا أراك هنا، ما كنت أرى أن تكون في جماعة تسمع ندائي آخر ثلاث مرات ثم لا تجيبني (٢)، وفي رواية: قال طلحة: نعم؟ فقال عثمان: فإننا لله وإنا إليه راجعون، أسلم على قوم أنت فيهم فلا تردن. فقال: قد رددت قال: ما هكذا الرد أسمعك ولا تسمعني يا طلحة (٣) وكان عثمان يقول: اللهم اكفني طلحة فإنه حمل علي هؤلاء (٤). وروى ابن أبي الحديد: أن طلحة كان يوم قتل عثمان مقنعا بثوب استتر به عن أعين الناس وكان يرمي الدار بالسهم (٥). وروى الطبري: أنهم عندما قتلوا عثمان خرج سودان بن حمران يقول: أين طلحة بن

(١) الطبقات الكبرى ٣٧ / ٥.

(٢) رواه أحمد وروى النسائي بعضه (الفتح ١١٢ / ٢٣).

(٣) رواه أحمد ورجاله ثقات (الفتح ١١٢ / ٢٣).

(٤) الطبري ١٢٢ / ٥.

(٥) ابن أبي الحديد ٤٠٤ / ٢.

عبيد الله قد قتلنا ابن عفان (١). ومن العجب العجائب أن أم المؤمنين عائشة وطلحة ومن معهما خرجوا على إمام المتقين علي بن أبي طالب يطالبون بالثأر لعثمان. وروى الحاكم عن علقمة بن وقاص قال: رأيت طلحة وأحب المجالس إليه أخلاها وهو ضارب بلحيته على زوره فقلت له: يا أبا محمد إني أراك وأحب المجالس إليك أخلاها وأنت ضارب بلحيتك على زورك إن كنت تكره هذا الأمر فدعه. فليس يكرهك عليه أحد فقال: يا علقمة بن وقاص. لا تلمني كنا أمس يدا واحدة على من سوانا فأصبحنا اليوم جبلين من حديد يزحف أحدهما على صاحبه ولكنه كان مني في أمر عثمان ما لا أرى كفارته إلا أن يسفك دمي في طلبه " (٢)، وكان بنو أمية يعلمون أن طلحة له نصيب كبير في قتل عثمان. لذا نجد مروان يجد في قتل طلحة يوم الجمل. وعندما ظفر به وقتله قال: والله لا أطلب قاتل عثمان بعدك (٣) وكان عبد الملك بن مروان يقول: أخبرني أمير المؤمنين مروان أنه هو الذي قتل طلحة. ولولا ذلك ما تركت من ولد طلحة أحدا إلا قتلته بعثمان (٤).

. ومنهم عمرو بن العاص. كان مستشارا لعثمان وعندما عزله عثمان عن مصر انقلب على عثمان. وظلت مصر هي شاغلة الأول والأخير على امتداد حياته. قال في أسد الغابة: لما استعمل عثمان عبد الله بن أبي السرح على مصر وعزل عنها عمرو بن العاص. جعل عمرو يطعن على عثمان ويؤلب عليه ويسعى في إفساد أمره (٥) وانتقل عمرو إلى المدينة وفي نفسه من عثمان أمر عظيم وشر كبير فكلمه فيما كان من أمره. وتقاولا في ذلك وافتخر عمرو بأبيه على عثمان وأنه كان أعز منه، وجعل عمرو يؤلب الناس على عثمان (٦)، وروى الطبري: لما قدم عمرو المدينة جعل يطعن على عثمان. فأرسل إليه عثمان وقال له: يا ابن

(١) الطبري ١٢٣ / ٥.

(٢) الحاكم (المستدرک ١١٨، ٣٧٢ / ٣).

(٣) الطبقات الكبرى ٢٢٣ / ٣، أسد الغابة ٨٨ / ٣.

(٤) الطبقات الكبرى ٢٢٣ / ٣.

(٥) أسد الغابة ٢٦٠ / ٣.

(٦) الطبري ١٠٨ / ٥، البداية والنهاية ١٧٠ / ٨.

النابعة ما أسرع ما قمل جربان جبتيك إنما عهدك بالعمل عاما أول. أتعطن علي وتأتيني بوجه وتذهب عني بآخر والله لولا أكلة ما فعلت ذلك... لقد استعملتك على ظلعك وكثرة القالة فيك. فقال عمرو: قد كنت عاملا لعمر بن الخطاب ففارقني وهو عني راض (١)، وعندما اجتمع الناس على عثمان ناداه عمرو بن العاص من ناحية المسجد: اتق الله يا عثمان فإنك قد ركبت نهائيرا وركبناها معك فتب إلى الله نتب. فناداه عثمان: وإنك هناك يا ابن النابعة تملت جبتيك منذ تركتك من العمل. فناداه الناس من ناحية أخرى: يا عثمان تب إلى الله وأظهر التوبة يكف الناس عنك (٢) وروى الطبري: أن عمروا كان يعترض الحاج فيخبرهم بما أحدث عثمان (٣)، وعندما خرج عمرو إلى منزله بفلسطين مر به راكب فناده عمرو وقال: ما فعل الرجل؟ يعني عثمان. قال: قتل، فقال عمرو: أنا أبو عبد الله إذا حككت قرحة نكأنها إن كنت لأحرصن عليه حتى أني لأحرصن عليه الراعي في غنمه في رأس الجبل (٤)، ومن العجب العجائب أن ابن النابعة بعد ذلك يهرول في اتجاه معاوية ويكي عثمان المظلوم ويشارك معاوية في قتال إمام المتقين علي بن أبي طالب نظير أن يعطيه معاوية مصر طعمة. ومنهم مروان بن الحكم. طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم. لقد كانت مهمة مروان تصعيد العنف على عثمان، وعندما قتل عثمان تاجر مروان بدم عثمان شأنه في ذلك كشأن جميع أصحاب المصالح من النبلاء وتجار الأديان. روي أن عثمان عندما تصالح من الثوار أول مرة ورجع الثوار إلى مصرهم. خرج وخطب في الناس فرق الناس له يومئذ وبكى من بكى. وعندما عاد إلى منزله وجد مروان وسعيد بن العاص ونفرا من بني أمية فقال مروان: تكلم وأعلم الناس أن أهل مصر قد رجعوا وأن ما بلغهم عن إمامهم كان باطلا. فإن خطبتك تسير في البلاد قبل أن يتحلب الناس عليك من أمصارهم فيأتيك من

(١) الطبري ١٠٨ / ٥.

(٢) الطبري ١١١ / ٥.

(٣) الطبري ١٠٨ / ٥.

(٤) الطبري ١٠٩ / ٥، الكامل ٨٢ / ٣.

لا تستطيع دفعه. ولم يزل به مروان حتى خرج وقال بما أشار به مروان (١). فهاج الناس عليه. وعندما تدخل علي بن أبي طالب لتهدئة الناس استمع الناس إليه. ليتكرر المشهد مرة أخرى مع ثوار آخرين. وعندما اجتمع الناس على باب عثمان قال عثمان لمروان: اخرج إليهم فكلهمهم. فخرج مروان إلى الباب والناس يركب بعضهم بعضا فقال: ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب. شأته الوجوه كل إنسان أخذ بأذن صاحبه إلا من أريد. جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا. أخرجوا عنا. أما والله لئن رمتونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدوا. غب رأيكم ارجعوا إلى منازلكم فإننا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا، وعندما سمعت نائلة امرأة عثمان ذلك قالت لعثمان: إنك إن أطعت مروان قتلك (٢). وعندما توجه وجوه الناس إلى دار عثمان لتهدئة الخواطر خرج مروان وقال: شأته الوجوه إلا من أريد. ارجعوا إلى منازلكم فإن يكن لأمر المؤمنين حاجة بأحد منكم يرسل إليه. وإلا قر في بيته (٣) وسمع علي بما قاله مروان وعندما جاءه رسول عثمان يبلغه أن يأتي عثمان. قال علي بصوت مرتفع عال مغضب: قل له ما أنا بداخل عليك ولا عائد (٤). وكان علي يقول لعثمان قبل ذلك: إني قد كنت كلمتك مرة بعد مرة. فكل ذلك نخرج فتكلم ونقول وتقول. وذلك كله فعل مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وابن عامر ومعاوية. أطعتهم وعصيتني (٥)، لقد كان الإمام يعلم إلى أين ستنتهي الأحداث وفقا لما أخبره به النبي صلى الله عليه وسلم فكان يحذر ويراقب من بعيد ليقوم الحجة على من شهد أنه ما قتل وما أمر بقتل. وكان صوته بعيدا عن دائرة القتال. وكان صوته حجة في دائرة المقتول. كان يفعل ذلك لعلمه بأنهم سيخلطون بين الدائرتين من أجل إنتاج دائرة جديدة يكونون فيها أصحاب جور.

(١) الطبري ١١٠ / ٥.

(٢) الطبري ١١٢ / ٥، البداية والنهاية ١٧٣ / ٧.

(٣) الطبري ١١٢ / ٥، البداية والنهاية ١٧٢ / ٧.

(٤) الطبري ١١٣ / ٥، البداية والنهاية ١٧٣ / ٧.

(٥) الطبري ١٠٩ / ٥.

وفي دائرة الإمام كان يقف معه الحسن والحسين. فالحسن كانا يدفعان العدوان عن عثمان. لكي يفهم أصحاب العقول أن الذي يدافع عن شيء لا يمكن أن يهجم عليه. وكم في عالم الحجّة من حكمة بالغة. فهؤلاء الذين ذكرنا كانوا من المحرضين والمساعدين على قتل عثمان ثم تاجروا بدمه بعد ذلك. ويبقى قسم آخر وقفوا في دائرة الثوار فأغلظوا لعثمان ورفضوا الوقوف بجانبه من هؤلاء:

. عمار بن ياسر: الذي قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: " من عادى عمارا عاداه الله ومن أبغض عمارا أبغضه الله " (١). وقال عن عمار: " ما خير بين أمرين إلا اختار أرشدهما " (٢)، وقال: " إذا اختلف الناس كان ابن سمية مع الحق " (٣)، إلى غير ذلك من الأحاديث التي تبين مناقبه التي أودعها الله فيه لحكمة بالغة. ولقد ذكر ابن كثير أن عثمان ضرب عمار بن ياسر (٤) ولكن اختلفوا في سبب ضربه وذكر المسعودي: أن القبائل اعترضت على ضرب عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود (٥)، وروى ابن كثير والطبري: أن القوم طلبوا من عمار أن يرد الثوار فقال عمار: والله لا أردهم عنه أبدا (٦)، وقال ابن كثير: كان عمار يحرض الناس على عثمان ولم يقلع ولم يرجع ولم ينزع (٧)، وكان عمار له موقف ثابت من بني أمية. كما أنه كان يعلم أسماء المنافقين الاثني عشر الذين أرادوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم عند عودته من تبوك.

(١) رواه أحمد وقال الهيثمي رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح (الزوائد ٢٩٣ / ٩ / الفتح ٣٢٩ / ٢٢).

(٢) رواه الحاكم وأقره الذهبي ورواه أحمد (الفتح الرباني ٣٣٠ / ٢٢)، (المستدرک ٣٨٨ / ٣) ورواه الترمذي وحسنه (الجامع ٦٦٨ / ٥).

(٣) رواه الطبراني (كنز العمال ٧٢١ / ١١).

(٤) البداية والنهاية ١٧١ / ٧.

(٥) مروج الذهب ٣٧٣ / ٢.

(٦) الطبري ١١٠ / ٥، البداية ١٧١ / ٧.

(٧) البداية ١٧١ / ٧.

. ومنهم زيد بن صوحان. زيد وما زيد! ولقد تحدثنا عنه من قبل. وهو الذي سيره عثمان من الكوفة إلى الشام، ثم من الكوفة إلى حمص. وقد خرج ثوار الكوفة إلى المدينة في أربع رايات، كان بينهم زيد ومالك الأشتر، وقال في الإصابة: كان زيد فاضلاً ديناً سيداً في قومه (١) وقال: كان زيد يحب سلمان الفارسي ومن شدة حبه له اكتنى أبا سلمان (٢).

. ومنهم: عبد الرحمن بن عديس. خرج ثوار مصر إلى المدينة في أربع رايات كان عبد الرحمن فيهم ومعه كنانة بن بشر الليثي فأما ابن عديس فكان ممن بايع تحت الشجرة (٣) وأما كنانة فكان من الصحابة الذين أدركوا النبوة (٤). . ومنهم: جبلة بن عمر الساعدي. قال في الإستبصار: كان من فضلاء الصحابة (٥) شهد أحداً (٦) قال ابن كثير والطبري: مر عثمان على قوم فيهم جبلة. فسلم فرد القوم، فقال جبلة: لم تردون عليه. ثم أقبل على عثمان فقال: والله لأطرحن هذه الجامعة. وكانت في يده جامعة - أو لتتركن بطانتك هذه. قال عثمان: أي بطانة فوالله لأتخير الناس. فقال جبلة: مروان تخيرته! ومعاوية تخيرته! وعبد الله بن عامر تخيرته! وابن السرح تخيرته! منهم من نزل القرآن بدمه وأباح رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه (٧)، وروى أن عثمان مر بجبلة وهو بفناء داره فقال: يا نعثل والله لأقتلنك ولأحملنك على قلوص جرباء ولأخرجنك إلى حرة النار. ثم جاء جبلة مرة أخرى وعثمان على المنبر فأنزل عنه (٨).

(١) الإصابة ٤٥ / ٣.

(٢) الإصابة ٤٦ / ٣.

(٣) الإصابة ١٧١ / ٤.

(٤) الإصابة ٣٢٥ / ٥.

(٥) الإستبصار ١٣٦.

(٦) الإصابة ٢٣٣ / ١.

(٧) البداية ١٣٦ / ٧، الطبري ١١٤ / ٥.

(٨) البداية ١٧٦ / ٧، الطبري ١١٤ / ٥.

. ومنهم: جهجاه الغفاري قال في الإصابة: شهد بيعة الرضوان روى له الشيخان (١) وقال الطبري: كان عثمان يخطب على عصا النبي صلى الله عليه وسلم التي كان يخطب عليها وأبو بكر وعمر. فقال له جهجاه: قم يا نعثل فانزل عن هذا المنبر وأخذ العصا فكسرها (٢).

. ومنهم: أعين بن ضبيعة. روى الإمام أحمد أن عثمان قال: إنا والله قد صحبنا رسول الله. وكان يعود مرضانا ويغدوا معنا ويواسينا بالقليل والكثير. وإن ناسا يعلموني به عسى أن لا يكون أحدهم قد رآه قط، فقال له أعين بن امرأة الفرزدق: يا نعثل إنك قد بدلت (٣).

. ومنهم جرول بن مالك وعمرو بن بديل وعمرو بن حزم الأنصاري وهؤلاء جميعا من الصحابة. وكان منهم أبناء الصحابة من أمثال محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة، ولقد اعترضنا على عثمان لمخالفاته الكثيرة وعابا عليه استعماله بدين أبي السرح لأنه ارتد وكفر بالقرآن وأباح الرسول صلى الله عليه وسلم دمه (٤). وعندما اقتحم الثوار دار عثمان قال له محمد بن أبي بكر: ما أغنى عنك معاوية! ما أغنى عنك ابن عامر (٥). وبالجملية كانت الثورة ثورة الصحابة يقول الطبري: لما أرى الناس ما صنع عثمان. كتب من بالمدينة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى من بالآفاق منهم. وكانوا تفرقوا في الثغور وإنكم إنما خرجتم أن تجاهدوا في سبيل الله عز وجل تطلبون دين محمد صلى الله عليه وسلم. فإن دين محمد قد أفسد من خلفكم وترك. فهلموا فأقيموا دين محمد صلى الله عليه وسلم فأقبلوا من كل أفق

(١) الإصابة ٢٦٥ / ١.

(٢) الطبري ٥١٤ / ٥.

(٣) رواه أحمد ورواته ثقات (الزوائد ٢٢٨ / ٧).

(٤) البداية والنهاية ١٥٨ / ٧.

(٥) الطبري ١١٨ / ٥.

حتى قتلوه (١).

فكما ترى جميعهم من الصحابة وليسوا من الدهماء والرعاع كما قال البعض. ولم يكن بينهم عبد الله بن سبأ كما قال البعض الآخر من الذين أرادوا أن يقطعوا طريق البحث العلمي من قديم الزمان حتى لا يدينهم التاريخ وحتى لا تضع الأمة أيديها على موطن الداء ومركز الفتن. لم يكن هناك ابن سبأ. وكان هناك كعب الأحبار الذي كان يؤخذ برأيه في زمن عثمان في توزيع المال كما روى ابن أبي الحديد. وكان هناك أبو سفيان الذي سمعه عمار بن ياسر وهو يقول: " تلقفوها تلقف الكرة " وانطلق عمار إلى الصحابة ينقل إليهم الخبر كما ذكر المسعودي (٢)، وكان هناك الفاسق الذي يعرف عند من اشتغل بعلوم السيرة والتاريخ.

وبنظرة أخيرة على أحداث الثورة نقول: إن مشكلة عثمان كانت في وضع بني أمية على رقبة الناس الأمر الذي جعل من أكلة القنفاذ والضباب أصحاب خزائن كبرى مليئة بالذهب والفضة يصدون بها عن سبيل الله. وانتماء عثمان إلى قومه والعمل من أجلهم واضح وضوح الشمس. فالرسول صلى الله عليه وسلم كلما أهدر دم أحد منهم أو نفاه كان عثمان هو الملجأ. وخير دليل ما ورد في معاوية بن المغيرة بن العاص. كان النبي قد أسره بعد غزوة حمراء الأسد عند رجوعه إلى المدينة فلجأ إلى عثمان فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله إن وجد بعد ثلاثة أيام. وعندما توارى بعيدا عن أعين الرسول بعث الرسول إليه بعمار بن ياسر وزيد بن حارثة وأخبرهما بمكانه وعندما وجداه قتلاه (٣). وأيضا ما ورد في عبد الله بن أبي السرح والحكم بن أبي العاص الذي جاء به عثمان من منفاه. وضرب بمشاعر المسلمين عرض الحائط يوم أن أقام على قبره فسطاطا. وكأنه أراد أن يكون وجود الحكم شاخصا حيا أو ميتا على أرض الدولة بعد نفي

(١) الطبري ١١٥ / ٥.

(٢) الطبري ١١٥ / ٥.

(٣) السيرة الحلبية ص ٥٩١، حياة الحيوان / الجاحظ ١٦١ / ٤.

الرسول صلى الله عليه وسلم له. وعندما عاتبه الصحابة قال: إن عمر بن الخطاب أقام من قبل فسطاطا على قبر زينب بنت جحش (١). فإذا كان هذا حال عثمان مع المطرودين فكيف يكون الحال مع غيرهم. وإذا لم تكن بطانة عثمان التي اعترض عليها الثوار بطانة سوء. فما هي البطانة السوء التي حذر منها النبي وأخبر أنها أوشكت أن تتركب بعد وفاته. هل ما زالت في بطن الغيب أم أنها جاءت وزالت بعد أن تركت جذورا وشذوذا وفتنا. لقد كان عثمان منحازا إلى بطانته وكان في إمكانه أن يتفادى الثورة عليه لو سار مع الناس بسيرة أبي بكر وعمر ولم يقيم بتوسيع الدوائر التي خلفوها وراء ظهورهم. فالدوائر كلما كانت ضيقة تكون العواصف أهدأ. ولكن عثمان لم يفعل ذلك بل لقد استعان بخبراء في توسيع الدوائر وحفرها - لقد كان عمر بن الخطاب يستمع إلى الخصم ويحقق فيما ادعاه. ولكن الأمر اختلف عند عثمان. روي أنه بعد أن تصالح مع أهل مصر عند مجيئهم الأول ذكر له ابن عديس ما صنع ابن أبي السرح بمصر وذكر تحاملا منه على المسلمين وأهل الذمة وذكر استئثارا منه في غنائم المسلمين. وقال ابن عديس: فإذا قيل له في ذلك قال: هذا كتاب أمير المؤمنين (٢)، أي أنه يخبرهم أنه ما يفعل شيئا إلا بإذن عثمان. فماذا فعل عثمان؟ لقد أمر عليهم محمد بن أبي بكر وبينما هم في طريق العودة شاهدوا رسول عثمان ومعه كتابه وخاتمه إلى عبد الله بن أبي السرح يأمره فيه بجلد ظهورهم وغير ذلك. وعندما واجهوا عثمان اكتفى بقول: والله ما كتبت ولا أمرت ولا شورت ولا علمت. فقليل له: فمن كتبه؟ قال: لا أدري، فقالوا: أفيجترأ عليك فيبعث غلامك وجمل من صدقات المسلمين وينقش على خاتمك ويكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظام وأنت لا تعلم؟ قال: نعم. قالوا: فالكتاب كتاب كاتبك - أي مروان (٣) - قال: أجل ولكنه كتبه بغير أمري. قالوا:

(١) الإصابة ٢٩ / ٢.

(٢) الطبري ١١٩ / ٥.

(٣) كان محمد بن سلمة يقول: هذا من عمل مروان، الطبري ١١٩ / ٥.

والرسول الذي وجدنا معه الكتاب غلامك؟ قال: أجل ولكنه خرج بغير إذني.
قالوا: والجمل جملك، قال: أجل ولكنه أخذ بغير علمي، قالوا: ما أنت إلا
صادق أو كاذب. فإن كنت كاذبا فقد استحققت الخلع لما أمرت به من سفك
دمائنا بغير حقها، وإن كنت صادقا فقد استحققت أن تخلع لضعفك وغفلتك
وخبث بطانتك. لأنه لا ينبغي لنا أن نترك على رقابنا من يقتطع مثل الأمر دونه.
لضعفه وغفلته (١)، وجميع هذا قد حدث ومروان بن الحكم في مأمن تام لم
يوجه إليه أي اعتراض. وذلك لعلمهم أن في ظهره ذرية من خلفاء بني أمية.
ومعاوية نفسه كان يتحدث بذلك (٢) فمن أجل الحفاظ على فتنة ففتح بنو أمية
أبوابا لفتنة أخرى. وحاصر الثوار دار الخلافة. واستمر الحصار أربعين يوما
وكان عثمان يصلي بالناس ثلاثين يوما ثم منعه (٣). وكان علي بن أبي طالب
يقدم الماء إلى عثمان في هذا الوقت وكان الحسن والحسين يقومان على
حراسته. أولا: لأن ما يجري لا يستقيم مع المحاكمة العادلة. وثانيا: لأن ما
يجري سيتم المتاجرة به وسيتهم علي فيه فكان التواجد حجة في ذاته. وكان
علي بن أبي طالب يعلم ما ستجري عليه الأحداث وفقا لإخبار النبي صلى الله
عليه وآله وسلم بالغيب عن ربه جل وعلا. وإذا كان عثمان قد دفع بالأحداث
كي تصل إلى ما وصلت إليه وذلك لحفاظه على أسرته وأهل شورته. فإن التاريخ
قد سجل أيضا أن الدماء التي جرت حول دار عثمان وداخلها. كانت بدايتها
حفاظ عثمان أيضا على أهل شورته. فعلى الرغم من الحصار إلا أنه كانت تجري
محاولات لتهدئة الخواطر. ولكن هذه المحاولات انتهت بسفك الدماء.
روى الطبري: لما مضت أيام التشريق أطافوا بدار عثمان. وأبى إلا الإقامة
على أمره وأرسل إلى حشمه وخاصته فجمعهم. فقام رجل من أصحاب النبي
صلى الله عليه وآله يقال له: نيار بن عياص. وكان شيخا كبيرا. فنادى: يا

(١) الطبري ١٢٠ / ٥.

(٢) سيأتي في موضعه.

(٣) الطبري ١٠٧ / ٥.

عثمان. فأشرف عليه عثمان من أعلى داره. فذكره الشيخ لما اعتزلهم. فبينما هو يراجع الكلام إذ رماه رجل من أصحاب عثمان فقتله بسهم. وقيل إن الذي رماه كثير بن الصلت الكندي. فقالوا لعثمان عند ذلك: إُدفع إلينا قاتل نيار بن عياص فلنقتله به. فقال لهم: لم أكن لأقتل رجلا نصرتي وأنتم تريدون قتلي. فلما رأوا ذلك ثاروا إلى بابهِ فأحرقوه وخرج عليهم مروان بن الحكم وسعيد بن العاص والمغيرة بن الأخنس كل منهم في عصاة فاقْتتلوا قتالا شديدا. وكان الذي حداهم على القتال أنه بلغهم أنه مددا من أهل البصرة وأن أهل الشام قد توجهوا مقبلين (١). ولم يكن هذا قد حدث لأن معاوية كان في شغل. وعلى هذا نقول: إن الخدعة في البداية كانت من عند بني أمية يوم أن بعثوا برسالتهم إلى ابن أبي السرح ليقتل المصريين. وإن أول قطرة دم في الأحداث كانت على أيدي بني أمية يوم أن قتلوا نيار بن عياص. قال في الإصابة: كان نيار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ممن كلم عثمان في حصره وناشده الله. وقتله بعض أتباع عثمان. وقالوا: وهذا أول مقتول في ذلك الوقت (٢). ونحن قد ذكرنا في بداية حديثنا عند بني أمية حديث الألف شهر وهو حديث صحيح ولكن بعض العلماء قد حكم بأنه منكر وذلك لكون مدة حكم عثمان داخلة في مدة حكم بني أمية. وسبب إنكارهم أنهم قالوا إن هذا لا يجوز لأن عثمان خليفة راشد كانت الملائكة تستحي منه. وقد سئل الحافظ السخاوي عن المواطن التي استحيت فيها الملائكة من عثمان فقال: لم أقف عليها في حديث يعتمد (٣). ومن الأحداث التي دارت ومن الفتن التي خلفتها من ورائها يمكن القول بارتياح شديد إن الحديث المروي عن النبي حديث صحيح سنداً ومتناً ومعنى. وقتل عثمان. وروى الطبري وغيره: أن عثمان نبذ ثلاثة أيام لا يدفن. وقد

(١) الطبري ١٢٤ / ٥.

(٢) الإصابة ٢٥٩ / ٥.

(٣) التراتيب الإدارية ٣٨٤ / ٢.

كلم الناس عليا في ذلك فتدخل وأذن لأهله أن يدفنوه. فلما سمع الناس ذلك قعدوا له في الطريق بالحجارة. وعندما شاهد الناس السرير الذي يحمل عثمان رجموا السرير وهموا بطرحه. فبلغ ذلك عليا فأرسل إليهم يعزم عليهم ليكفن عنه ففعلوا. وانطلق به أهله. وأرادوا أن يصلوا عليه في موضع الجنازات فأبى الأنصار. وأرادوا أن يدفنوه بالبقيع فمنعوا أيضا من ذلك. وقالوا: لا يدفن في مقابر المسلمين. فدفنوه في حش كوكب كانت اليهود تدفن فيه موتاهم. فلما ظهر معاوية بن أبي سفيان. أدخل هذا الحش في البقيع فهو اليوم مقبرة بني أمية (١).

وفي الختام. إن الجيل الأول هو الذي حكم بفشل تجربة الرأي التي انطلقت من دائرة المصلحة العامة. الجيل الأول هو الذي اعترض على بطانة السوء التي دخلت من باب إلغاء سهم المؤلف وتأمير المنافقين. والجيل الأول هو الذي اعترض على توزيع الفئ الذي دخل من باب الخراجة. باختصار اعترض الجيل الأول على قوائم النظام الاقتصادية والإدارية والتربوية. التي عبر عنها الوليد بن عقبة. فكيف حدث هذا بعد مضي ربع قرن تقريبا من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم؟ هل خرج الناس على ما وضعه النبي أم أنهم خرجوا على شيء حذر منه النبي؟ ثم إذا كانوا قد خرجوا على ما حذر منه النبي فكيف دخل إليهم المحظور ولماذا؟ أخشى أن يقال إن الذي حدث كان قصورا في التطبيق. لأن الذين قاموا بالتطبيق صحابة عدول ثقات ولن يأتي على مر الزمان خير منهم. فإذا كان هؤلاء لم يصيبوا التطبيق الصحيح فكيف بمن دونهم. إن الذي يمكن أن يقال في هذا الموضع وإنهم أخطأوا التأويل الصحيح. لأن التأويل الصحيح له رجال يمكن أن يقاتلوا على تأويل القرآن كما قاتل النبي صلى الله عليه وسلم على تنزيله.

(١) الطبري ١٤٣ / ١٤٤ / ٥.

أولاً - من معالم الحكومة الدينية
بعد ربع قرن من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ظهر النفاق. ويشهد
بذلك حديث حذيفة " إن المنافقين اليوم شر منهم على عهد النبي صلى الله عليه
وسلم كانوا يومئذ يسرون واليوم يجهرون " (١)، بل إن النفاق ركب مرحلة
أخرى يقول فيها حذيفة: " إنما كان النفاق على عهد النبي صلى الله عليه
وسلم فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان " (٢)، ويشهد بظهور النفاق استعمال
عمر بن الخطاب للمنافقين وإلغائه لسهم المؤلفة قلوبهم. وبعد وفاة الرسول بربع
قرن قامت السياسة على أعمدة منها عمود عدم الرواية عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم وتهديد من يروي بالضرب أو النفي وهذا أيضاً ثابت في أحاديث
صحيحة رويت عن عمر بن الخطاب وبينت سيرته بشأن الرواية. وترتب على
ذلك ظهور القص والشعر بإذن من عمر وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بربع
قرن رتع بنو أمية في أموال المسلمين وذلك عندما تربعوا على الخراج الذي أنشأه
عمر بن الخطاب. حتى أن مروان بن طريد رسول الله وضع يده على فذك بأمر
من عثمان وفذك هذه لم تأخذها ريحانة رسول الله يوم أن نازعت فيها أبا بكر.
فالذي لم تأخذه ريحانة الرسول أخذه في نهاية الطريق ريحانة طريد رسول الله.
ولم يقف الأمر عند مروان بل التهم ابن أبي السرح الذي أهدر النبي

(١) البخاري (الصحيح ٢٣٠ / ٤).
(٢) البخاري (الصحيح ٢٣٠ / ٤).

دمه النصيب الأكبر من غنائم إفريقية بأمر من عثمان الذي كان يستفتي كعب الأبحار فيما يجوز للخليفة أن يأخذه من بيت المال. وروي أن كعبا عندما أفتاه قال أبو ذر لكعب: يا بن اليهوديين أتعلما ديننا. وعندئذ قال له عثمان: يا أبا ذر قد كثر أذاك لي وتولعك بأصحابي (١).

ومن نتائج هذا كله بهت مناقب أهل البيت، وإذا كانت المناقب تشع في أذهان البعض. فإنها أخذت عند البعض الآخر تأويلا آخر فوضعوهم في دائرة (البركة والمشايخ) أي الدائرة التي لا علاقة لها بالقيادة. وحتى هذه الدائرة لم تدم لأهل البيت فيوم الشورى الذي جعل عمر الخلافة فيه في ستة نفر، كانت دائرة الشيوخ لا يوجد فيها بني هاشم وحدهم فلقد دخلها أبناء عبد شمس وغيرهم. ومن المعروف أن أبناء عبد شمس - وبني أمية هم أشهر فروعهم - لم يكن لهم نصيب في أشرف خصال قريش في الجاهلية وهي: اللواء والندوة والسقاية والرفادة وزمزم والحجابه. وبعد الشورى استحوذ بنو أمية على كل مال على الرغم من أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حذر منهم إذا ركبوا الأمة. ولكن هذا التحذير لم يكن له وجود واسع بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وركب بنو أمية رقبة الأمة يوم الشورى وعملوا من أجل أن يكون الملك فيهم تعويضا لإبعادهم في الجاهلية والإسلام. وعلى امتداد حكم عثمان كانت هناك ثقافات أموية يشرف عليها أمراء عثمان ومنهم معاوية الذي قال في الشام وهو يخاطب الذين سيرهم عثمان " قد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها... وأن أبا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلا حازما ".

يستفاد من هذا كله أن هناك فتنة في المقدمة، وهذه الفتنة حذر القرآن منها والنبي صلى الله عليه وسلم لم يفارق الدنيا إلا وبين كل شيء. وهذه الفتنة يشهد كل قارئ للتاريخ أن نتائجها كانت بجميع المقاييس كارثة فالأمة الواحدة اختلفت وافتقرت وذهب ريحها. والجميع في كل دروب الاختلاف والافتراق يقرأون كتاب الله وكل منهم يدعي أن الحق معه وغيره الباطل. ومرجع ذلك في

(١) ابن أبي الحديد ٢٤٠ / ١.

رأينا أن كل فريق انتقى من على أرضية الصحابة وأبناء الصحابة قدوة له فأخذ منهم دون تمحيص وانطلق في أثره. وقد تكون القاطرة تسير على قضبان الفتنة فيركب فيها الراكبون وهم لا يعلمون أنهم بركبهم هذا يكونون قد شاركوا في الفتنة التي لم يشهدوها. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرها كمن غاب عنها ومن غاب عنها فريضها كان كمن شهدها" (١)، فهو مشارك في الإثم وإن بعدت المسافة بينهما (٢). ودواء هذا الداء لا يكون بتلجيم العقل والسير على طريق الاحتناك الذي ترفرف عليه أعلام الزينة والزخرف والإغواء. وإنما يكمن العلاج في العلم يقول النبي صلى الله عليه وسلم "إن الفتنة تجيء فتتسف العبادة نسفا وينجو العالم منها بعلمه" (٣).

فالفتنة إذا كانت في المقدمة يقع فيها الذين شاركوا فيها والذين جاءوا من بعدهم. بمعنى أن الفتنة لا تصيب الذين ظلموا خاصة وإنما تصيب الذين ركبوا القاطرة التي تسير على قضبان هذه الفتنة، أما العالم فإنها لا تصيبه عند المقدمة لأن عند المقدمة شهود. فشاهد عليه علامة تقول: "تقتله الفئة الباغية" وشاهد عليه علامة "تنبحها كلاب الحوآب" وشاهد عليه علامة "بأنه أصدق لهجة"، وآخر عليه علامة زيد وما زيد... وكثير كثير. والعالم لا تصيبه الفتنة عند النتيجة لأنه ينجو منها بعلمه بأحداثها وموطن الحق فيها.

وفتنة المقدمة ما وقعت إلا بعد أن اختار الناس لأنفسهم في جو من الأحداث لا نعلم عنه إلا القليل. فهناك من أبى أن تكون الخلافة والنبوة في بيت واحد. لأن هذا يعني أن بني عبد شمس من دون خلق الله جميعا لن يكون لهم ركوبة في جاهلية أو إسلام. لقد كانت الأبواب مغلقة بمفاتيح الدعوة ولكنها فتحت بمفاتيح الفتنة. ومن عدل الله تعالى أنه أقام الحجة على الجيل الأول في

(١) رواه أبو داود حديث رقم ٤٣٢٣.

(٢) عون المعبود ٥٠١ / ١١.

(٣) رواه أبو داود وأبو نعيم والرافعي (كنز العمال ١٥٠، ١٧٨ / ١٠).

كل حركاته بعد وفاة الرسول، وها نحن قد رأينا أحداث أبي ذر وغيره من الذين وضع عليهم النبي صلى الله عليه وسلم هالات من التبشير والتحذير. لقد حاصرت حجج الله جيل الصحابة لأنهم مقدمة على أرضية دين الله. والشيطان إذا دق وتدا له في هذا الجيل ضمن ثغرة له في الجدار يدخل منها بالزينة والإغواء فيضل بذلك كثيرا من الناس. وإذا كانت الحجة قد قامت يوم غدیر خم. وأن التحذير قد تم على لسان بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله من بعد وفاته. فإن إقامة الحجة بعد النبي بلغت الذروة في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وهذه الحجة لا تنفصل عن حجة غدیر خم بأي حال من الأحوال. ولكنها جاءت لتخاطب زماما قد تغير ومكانا أو شك على أن يتبعثر. وعندما جاء علي بن أبي طالب لم يأت ليخاطب المتقين بل جاء ليفتح أبواب التوبة أمام المنافقين الذين كثروا في الساحة كما شهد حديث حذيفة وغيره. جاء ليوقف تدفق الفتنة وليفتح صفحات التاريخ لتدون الأحداث التي يقف عندها أصحاب العقول والأفهام لينجو العالم بعلمه.

ولقد علمنا أن التعامل مع النفاق يخضع لفقه خاص لا يلم به كثير من الناس. والفقيه في هذا المجال لا يقوم بتعيينه سلطان أو أمير لأن هؤلاء لا يعلمون خفايا الأمور وإنما الفقيه هنا لا بد أن يحدده نص. وليس معنى هذا أن الفقيه بهذا التحديد يكون قد علم ما تخفيه الصدور، فالقول بهذا قول سقيم لتفكير غير مستقيم. وإنما الفقيه هنا هو الذي يضع سياسته على قوائم الإسلام. أي يقيم سياسته على القرآن ونصوص الدين بشكل شامل ويتعامل مع المستجدات بالبحث عن الجوهر فيها ثم يطابقه على الجوهر الأزلي في الإسلام. ولا يقوم بذلك إلا فقيه راسخ في العلم. ولما كان المنافق في الأساس كارها للإسلام ونظامه. فإنه يشع بعمله تحت عين الفقيه الراسخ في العلم والذي عليه نص بأن لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق. لهذا كان التعامل مع النفاق يحتاج إلى فقه خاص. وفي عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان النبي يتعامل مع المنافقين وفقا لحركة الدعوة وكان يجاهدكم وفقا لمطالبها. وكان يفتح لهم أبواب التوبة وفقا لشروط خاصة. وبعد وفاته صلى الله عليه وآله

وسلم. كانت حجة الله على المنافقين يرفعها علي بن أبي طالب الذي رفضوه في أول الأمر. ولتدبر هذه الآيات الكريمة التي أمرت وحذرت وفتحت الأبواب أمام النفاق في عهد الرسول ومن بعده في أيام علي بن أبي طالب لأنه عليه نص بأنه يقاتل على التأويل وأن على صفحته يكشف النفاق. قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا * إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا * إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما) (١).

قال ابن كثير: ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين. يعني: مصاحبتهم ومصادقتهم ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم قال تعالى: (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه) (٢)، أي يحذركم عقوبته في ارتكابكم نهيه ولهذا قال ههنا (أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا) أي حجة عليكم في عقوبته إياكم (٣)، وبعد هذه المقدمة أخبر تعالى عن المنافقين فقال سبحانه: (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا) أي يسكنهم في أسفل درك من النار ويقطع بينهم وبين كل نصير ينصرهم وشفيع يشفع لهم. وهذا يتفق مع حديث الورود على الحوض. الذي يقال فيه لبعض الصحابة: سحقا سحقا أي مكانا بعيدا ليس فيه ناصر ولا شفيع. ولقد بينا في هذا البحث أن علي بن أبي طالب سيكون مع النبي عند الحوض وهو الذي سيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. وبعد أن أخبرت الآيات عن مكان المنافقين يوم القيامة استثنت الذين تابوا منهم وبينت أن طريق التوبة الخاص بهم له علامات وهو قوله تعالى:

(١) سورة النساء: الآية ١٤٤ - ١٤٦.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٢٨.

(٣) تفسير ابن كثير ٥٧٠ / ١.

(إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم فأولئك مع المؤمنين)
فالطريق يبدأ من الخروج من جماعة المنافقين والالحاق بصف المؤمنين. وهذا
الخروج لا يتم إلا بالتوبة وهي الرجوع إلى الله. ولا ينفع الرجوع والتوبة حتى
يصلحوا كل ما فسد منهم من نفس وعمل. ولا ينفع الإصلاح إلا أن
يعتصموا بالله أي يتبعوا كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وآله ولا ينفع
الاعتصام إلا إذا أخلصوا دينهم لله وطهروا أنفسهم من بصمات الشرك والظلم قال
تعالى: (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم
مهيئون) (١).

فإذا سلكوا هذا الطريق حتى نهايته كانوا مع المؤمنين قال تعالى: (فأولئك
مع المؤمنين) ولم يقل: فأولئك من المؤمنين. لأنهم يلحقون بالمؤمنين ما داموا
على طريق التوبة ولن يكونوا منهم حتى تستمر فيهم الأوصاف على استقرارها.
وطريق التوبة في الجيل الأول لا بد له من سياسة تظهر الإصلاح وعلى هذا يظهر
المؤيد والمعارض لسياسة الإصلاح. وتنادي بالاعتصام بالله وعلى هذا يظهر دعاة
القبائلية والحزبية وتعمل من أجل إخلاص الدين وعلى هذا يظهر النبلاء الذين
كان الدين مصدرا لثروتهم. وبالجملة: لا بد من سياسة تظهر عورات التأويل
الذي وضع في غير موضعه. ولما كان هذا التأويل يستند إلى كتاب الله ويقوم به
جيل الصحابة فإن هذا يعني أن هذا التأويل سيكون له امتداد نظرا لأن الذين قالوا
به من الذين سمعوا وشاهدوا النبي وهنا يكمن الخطر على المستقبل. وينتهي
الأمر بالاختلاف والافتراق إلى أكثر من سبعين شعبة وإلى التسكع في طرق
أصحاب أعلام الأديان السابقة واتباعهم شبرا بشير وذراعا بذراع. وقبل أن
يحدث هذا كانت حجة الله على جيل الصحابة في بدايته وفي نهايته ليدون التاريخ
ويعلم اللاحق أين موضع السابق. وشاء الله أن يكون الفصل بين الحق والباطل
في هذه الأحداث على سهيل الخيول وضربات السيوف كي تنطبع الأحداث في
ذاكرة كل منتسب إلى الأمة وتشده شدا إلى البحث عن الحقيقة. ومعارك التأويل

(١) سورة الأنعام: الآية ٨٢.

خاضها الإمام علي بن أبي طالب الذي شاء الله أن يجعله في المقدمة بعد وفاة الرسول الأعظم ليرى الله كيف يعملون وفقا لدائرة اختيارهم. ولعلمه سبحانه بأن الاختلاف واقع لا محالة أحاط سبحانه النبي بالعلم وبين له مواطن الاختلاف والفتن من بعده. وكان فوق كل موطن من المواطن حجة كأبي ذر والمقداد وسلمان وعمار وأويس وجندب وزيد وغيرهم. وآخر هؤلاء جاء الفقيه الزاهد العالم إمام المتقين علي بن أبي طالب ليواجه دائرة النبلاء التي أخذت شرعيتها من تأويل وضع في غير موضعه. وكان هذا لطفا من الله كي يشع الماضي أمام الحاضر لينتقل إلى المستقبل.

لقد جاء علي في خاتمة عصر الصحابة القادة. ليفتح أبواب التوبة كي يتنفس المستقبل الأمان ولا يحدث الاختلاف ولا تخرج الفرق التي تستمد وقودها من عهود قبل معارك التأويل أو من عهود ما بعد معارك التأويل. جاء علي ليدخلهم تحت راية واحدة لتشق الدعوة طريقها وتسوق الناس إلى صراط العزيز الحميد. وليجد المستقبل أن ماضيه لا خلاف فيه. جاء ليفتح أبواب الشكر والإيمان في عالم اكتناز الذهب والفضة وكأنه يتلوا قوله تعالى: (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما) (١). ولكننا سنرى ماذا ترتب على فتح هذه الأبواب. وهل المعارك التي دارت كانت من أجل قميص عثمان. أم أن هذا القميص كان كقميص يوسف الذي حمله أبناء يعقوب إلى أبيهم ليخفوا به مقاصدهم التي بدأوها بالحسد وانتهوا بجريمة تغيب يوسف في أعماق الجب ليخلو لهم مركز الصدارة عند أبيهم؟ أم أن هذه المعارك خاضها طرف من أجل الدفاع عن تأويل حق بينما خاضها أطراف أخرى لوقف التأويل الحق نظرا لأن وجوده سيكشف ما ضاع من رواية وسيطيح بنبالة قريش؟ وعلى أي حال فإن ما بين أيدينا من حديث يثبت أن المعارك التي دارت كانت من أجل التأويل وهذا يعري حملة القمصان ويثبت أن القميص ما كان إلا شعارا أجوفاً حملته الوصول إلى أهداف أخرى، روى الإمام أحمد عن النبي صلى الله عليه

(١) سورة النساء: الآية ١٤٧.

وسلم أنه قال: فيكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله " (١)، قالوا: من؟ قال: خاصف النعل وكان أعطى عليا نعا يخصفها (٢)، وعن علي قال: " عهد إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتال الناكثين والقاسطين والمارقين " (٣)، قال في لسان العرب: ومنه حديث علي: " أمرت بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين " الناكثون أهل الجمل والنكث نقض العهد. وأهل الجمل كانوا قد بايعوه ثم نقضوا بيعته وقتلوه. والقاسطون أهل صفين لأنهم جاروا في الحكم وبغوا عليه. والمارقون الخوارج لأنهم مرقوا من الدين لغلوهم فيه (٤)، والآن هل رأيت للقميص مكانا في نصوص رسول الله؟ أم أنك رأيت نقضا للعهد وجورا في الحكم وبغيا على الحجة ومروفا من الدين؟ وجميع ذلك مرجعه إلى تأويل وضع في غير موضعه وأهواء وآراء تصب في وعاء المطامع ومن أجل هذا كان ظهور الحجة في نهاية عصر الصحابة القادة له حكمة ومن وراء الحكمة هدف.

أولا - النداء الحق:

بعد دفن عثمان تحرك الناس في اتجاه علي بن أبي طالب ليبايعوه (٥) منهم من رأى فيه الزهد فيما بين يدي الناس وسوف يتعامل مع الذهب والفضة تعامل العابد الزاهد العادل. ومنهم من وجد فيه الأمانة في النصيح لعثمان ومعارضيه على امتداد عصر الأزمات. ومنهم من تذكر الأيام الأولى وعلم أنه لا سبيل إلى الإصلاح إلا بالعودة إلى الأمر الأول. ومنهم من كان يعلم حقيقة الأحداث ولم ينسها يوما وعندما جاء أوان الظهور لم يكن في حاجة إلى بيعة لأنه كان قد بايع

(١) رواه أحمد وقال الهيثمي إسناده حسن (الزوائد ٢٤٤ / ٦) والحاكم وأقره الذهبي (المستدرک ١٢٣ / ٣).

(٢) رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح، قال الهيثمي (الزوائد ١٨٦ / ٥).

(٣) رواه البزار وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٢٣٨ / ٧).

(٤) لسان العرب مادة نكث ص ٤٥٣٦، ومادة قسط ص ٣٦٢٧، ومادة مرق ٤١٨٥.

(٥) رواه الحاكم.

بقبله من قبل.

والذي يستحق التسجيل هنا. أنه قبل أن تتم مبايعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب هروا الناس إلى أكابر الصحابة يسألونهم بماذا ينصحون؟ وعلى سبيل المثال قال عبد الله بن بديل لأم المؤمنين عائشة عندما خرجت الثورة على عثمان: ما تأمرني؟ فقالت: الزم عليا!! (١)، ولقد ذكرها ابن بديل بهذا الحديث بعد هزيمتها يوم الجمل فسكتت. ولم تكن أم المؤمنين وحدها التي نصحت بذلك. فكثير من الناس كانوا يتدافعون على حذيفة صاحب سر رسول الله ليعرفوا رأيه في الأحداث لأن حذيفة كان يقول: والله إني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنة فيما بيني وبين الساعة (٢)، وقال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لأنا لفتنة بعضكم أخوف عندي من فتنة الدجال. ولن ينجو أحد مما قبلها إلا نجا منها وما صنعت فتنة منذ كانت الدنيا صغيرة ولا كبيرة إلا لفتنة الدجال" (٣)، أي أن البداية لا تصيب إلا في نهايتها فالشر في الشر والخير في الخير. وروى بسند صحيح "لما قتل عثمان قالوا لحذيفة: يا أبا عبد الله قتل هذا الرجل وقد اختلف الناس فما تقول؟ قال: سندوني. فسندوه إلى ظهر رجل فقال حذيفة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أبو اليقظان على الفطرة لا يدعها حتى يموت (٤) وفي رواية: أمركم أن تلتزموا عمارا قالوا: إن عمارا لا يفارق عليا!! قال: إن الحسد هو أهلك الجسد وإنما ينفركم من عمار قربه من علي فوالله لعلي أفضل من عمار أبعد ما بين التراب والسحاب وإن عمارا لمن الأحباب. وهو يعلم أنهم إن لزموا عمارا كانوا مع علي" (٥). من الواضح هنا أن سياسة اللارواية كانت قد بلغت منتهاها. فهؤلاء القوم لم يكن

(١) أخرجه ابن أبي شيبة بسند جيد (فتح الباري ٥٧ / ١٣).

(٢) رواه مسلم (الصحيح ١٥ / ١٨) ك الفتنة.

(٣) رواه أحمد والبزار ورجال رجال الصحيح (الزوائد ٣٣٥ / ٧).

(٤) رواه البزار والطبراني في الأوسط باختصار ورجالهما ثقات (الزوائد ٢٩٥ / ٩).

(٥) رواه الطبراني ورجاله ثقات (الزوائد ٢٤٣ / ٧).

في ذاكرتهم أي منقبة لأهل البيت وربما كان في ذاكرتهم تشويش على أهل البيت ويظهر هذا في قولهم إن عمارا لا يفارق عليا. وحذيفة قد فطن لهذا الأمر برده الجامع الشامل. ولم يكن هؤلاء فقط الذين ذهبوا إلى حذيفة ولكن هناك آخرين ذهبوا إلى حذيفة فقال لهم: انظروا إلى الفرقة التي تدعو إلى أمر علي فالزموها فإنها على الهدى (١). ومما يذكر أن حذيفة كان بالكوفة عند مبايعة الناس لعلي، وعندما علم بمبايعة الناس قال: أخرجوني وادعوا الصلاة جامعة. فوضع على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي وآله ثم قال: أيها الناس. إن الناس قد بايعوا عليا فعليكم بتقوى الله وانصروا عليا وواظروا فوالله إنه لعلي الحق آخر وأولا وإنه لخير من مضى بعد نبيكم ومن بقي إلى يوم القيامة - ثم أطبق يمينه على يساره ثم قال: اللهم اشهد أنني قد بايعت عليا. الحمد لله الذي أبقاني إلى هذا اليوم. ثم قال لابنيه صفوان وسعيد احملاني وكونا معه فستكون له حروب كثيرة فيهلك فيها خلق من الناس. فاجتهدوا أن تستشهدا معه فإنه والله على الحق ومن خالفه على باطل. ومات حذيفة بعد هذا اليوم بسبعة أيام (٢) وقال صاحب فتح الباري: بايع حذيفة لعلي وكان حريصا على المبايعة له والقيام في نصره (٣) وقال ابن الأثير: قتل ابنه صفوان وسعيد مع علي بصفين بوصية أبيهما (٤). ولم يكتف حذيفة رضي الله عنه بندائه وهو مريض. وإنما أطلقه أيضا عند الموت، فعن بلال بن يحيى قال: لما حضر حذيفة الموت قال لنا: أوصيكم بتقوى الله والطاعة لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب (٥)، وأغمض حذيفة عينيه في هدوء وصعدت روحه إلى بارئها. ولقد ترك لنا رواياته في الفتن وغيرها والتي بدونها ما كان الباحث أن يصل إلى الحقيقة بسهولة ويسر. فجزاه الله عنا خير الجزاء. وبعد رحيل حذيفة لم يقف النداء. فكما سمعه أهل العراق سمعه

(١) رواه البزار ورجاله ثقات (الزوائد ٢٣٦ / ٧)، وفتح الباري ٥٥ / ١٣.

(٢) مروج الذهب / المسعودي ٣٩٤ / ٢.

(٣) فتح الباري / ابن حجر ٤٠ / ١٣.

(٤) الكامل ١٤٧ / ٣، مروج الذهب ٤٢٥ / ٢.

(٥) رواه الحاكم (المستدرک ٣٨٠ / ٣).

أيضا أهل المدينة وما حولها. لقد كان أبو سعيد الخدري يقول. قال النبي صلى الله عليه وسلم: ألا أخبركم بخياركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: الموفون الطيبون إن الله يحب الخفي التقي. ومر علي بن أبي طالب فقال النبي: الحق مع ذا الحق مع ذا (١)، وكان أبو ليلي الغفاري يقول قال النبي صلى الله عليه وسلم: سيكون بعدي فتنة فإذا كان فالزموا علي بن أبي طالب فإنه الفاروق بين الحق والباطل (٢)، وزاد في رواية: " وهو يعسوب المؤمنين والمال يعسوب المنافقين (٣)، وكان كعب بن عجرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يكون بين الناس فرقة واختلاف فيكون هذا وأصحابه على الحق - يعني عليا (٤). وهكذا أقيمت الحجة بالنداء.

١ - الظهور:

عندما جاء الناس إلى علي بن أبي طالب ليبايعوه. كان علي يعلم أن من أمامه أياما عصيبة. فالنبي عهد إليه بقتال الناكثين أولا. وهذا يعني أن بين الذين سيبايعونه من سينقض البيعة ويقاتله. ومن جهة أخرى فإنه أكثر الذين سيبايعونه لا يعلمون شيئا عن مكانته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يخوض بهم المعارك وهو لم يسهر على تربيتهم وتدريبهم في وقت تطفح فيه خزائن الذهب والفضة عند ألد أعداء الدعوة. لقد كان هذا كله شاخصا أمام الإمام علي وهم يعرضون عليه أن يبايعوه. وكان عليه أن يبين لهم حقيقة ما يعلمه ولا يعلمونه. ويخبرهم أنه إن أجابهم لما يريدون فإنه مثله لن يتراجع عما عهد إليه من النبي صلى الله عليه وسلم وفي هذه الحالة لن يلتفت إلى قول القائل منهم، ثم يخبرهم. إما أن يقبلوا بهذا أو أن يتركوه ويبحثوا عن غيره. وهذا المعنى كان فيما روي عنه رضي الله عنه أنه قال لهم: " دعوني والتمسوا غيري

(١) رواه أبو يعلى ورجاله ثقات (الزوائد ٢٣٥ / ٧).

(٢) رواه أبو نعيم (كنز العمال ٦١٢ / ١١).

(٣) الإصابة ١٦٧ / ٧.

(٤) رواه الطبراني (كنز العمال ٦٢١ / ١١).

فإننا ستقبلون أمرا له وجوه وألوان. لا تقوم له القلوب ولا ثبت عليه العقول، وإن الآفاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت. واعلموا إنني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم وأنا لكم وزير خير لكم مني أمير" (١).

لقد أخبرهم بأن الأيام في بطونها كثير في وقت بهت فيه الحقيقة ودثرها الغمام في عالم اللارواية ثم خيرهم إما أن يجيبهم ويركب بهم ما يعلم وإما أن يتركوه. وهو ما قال هذا إلا لأمرين:

أولهما: أن الناس أعداء ما جهلوا (٢). فأراد أن يبين لهم الخطوط الرئيسية حتى يكونوا على علم بما جهلوا.

وثانيهما: أنه أخبرهم بخطة عمله كما أخبر من قبل في يوم الشورى على عهد عمر. ليكونوا على بينة من أمرهم ويضعهم في دائرة الاختيار كما وضع غيرهم من قبل. وهذا شأن الحجة في كل زمان ومكان فالحجة تفتح الأبواب ولا إكراه في الدين. وهذا في حد ذاته أسمى معاني الحرية. وقبلت أعداد غفيرة أن يبايعوه على ذلك فقال فيما رواه الطبري: ففي المسجد فإن بيعتي لا تكون خفيا ولا تكون إلا عن رضا المسلمين. فلما دخل المسجد دخل المهاجرون والأنصار فبايعوه ثم بايعه الناس (٣)، ولم يتخلف أحد من الأنصار إلا بايع (٤)، وروي كان أول من بايعه طلحة ثم الزبير (٥) وروي ابن حجر في فتح الباري: عن الأشتر قال: رأيت طلحة والزبير بايعا عليا طائعين غير مكرهين (٦).

(١) ابن أبي الحديد ٥٩٧ / ٢، الطبري باختصار ١٥٦ / ٥.

(٢) هذا القول للإمام علي.

(٣) الطبري ١٥٢ / ٥.

(٤) الطبري ١٥٥ / ٥، البداية والنهاية ٢٢٧ / ٧.

(٥) البداية والنهاية ٢٢٧ / ٧.

(٦) فتح الباري ٥٤ / ١٣.

وروي أن الناس عندما بايعوا عليا تربص سبعة نفر فلم يبايعوه منهم سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وصهيب وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة وسلمة بن وقش وأسامة بن زيد (١)، وروي أن عمار بن ياسر قال: يا أمير المؤمنين قد بايعك الناس كافة إلا هؤلاء نفر فلو دعوتهم إلى البيعة كي لا يتخلفوا في ذلك عن المهاجرين والأنصار. فقال: يا عمار لا حاجة لنا في من لا يرغب فينا. وعندما قال الأشتر بمثل قول عمار قال الإمام: يا مالك إنني لأعرف بالناس منك دع هؤلاء يعملون برأيهم.

وذكر ابن أبي الحديد أن هؤلاء لم يتخلفوا عن البيعة وإنما تخلفوا عن الحرب (٢)، وروي أن مروان بن الحكم وسعيد بن العاص والوليد بن عقبة حضروا عند علي. فقال الوليد وكان لسان القوم: يا هذا إنك قد وترتنا جميعا. أما أنا فقد قتلت أبي صبرا يوم بدر. وأما سعيد فقد قتلت أباه يوم بدر وكان أبوه ثور قریش. وأما مروان فقد شتمت أباه وعبت على عثمان حين ضمه إليه. وأنا نبايعك على أن تضع عنا ما أصابنا. وتعفي لنا عما في أيدينا وتقتل قتلة صاحبنا. فغضب علي وقال: أما ما ذكرت من وتري إياكم فالحق وتركم وأما وضعي عنكم عما في أيديكم مما كان لله وللمسلمين فالعدل يسعكم، وأما قتلي قتلة عثمان فلو لزماني قتلهم اليوم لزماني قتالهم غدا. ولكن لكم أن أحملكم على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم. فمن ضاق الحق عليه فالباطل عليه أضيّق. وإن شئتم فإلحقوا بملاحقكم (٣)، وروى الطبري: هرب سعيد والوليد إلى مكة وتبعهم مروان (٤) وهرب قوم إلى الشام (٥). وهكذا تمت البيعة التي لم يكن فيها إكراه. وروى أن الإمام علي اشترط

(١) الطبري ١٥٥ / ٥.

(٢) ابن أبي الحديد ٧٤٦ / ١.

(٣) تاريخ اليعقوبي ١٢٥ / ٢.

(٤) الطبري ١٥٦ / ٥، البداية والنهاية ٢٢٧ / ٧.

(٥) الطبري ١٥٤ / ٥، البداية والنهاية ٢٢٧ / ٧.

أن يكون مفتاح بيت المال معه وأخبرهم بأنه لن يأخذ منه درهما وليس له أمر دونهم. ثم قال: رضيتم؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد عليهم ثم بايعهم على ذلك (١)، وروى عنه أنه قال: حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله وأن يؤدي الأمانة. فإذا فعل فحق على الناس أن يسمعوا له وأن يطيعوا وأن يجيبوا إذا دعوا (٢)، وروى عندما بويع الإمام علي بن أبي طالب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خزيمة بن ثابت وهو واقف بين يدي المنبر: فإذا نحن بايعنا عليا فحسبنا * أبو حسن مما نخاف من الفتن ووجدناه أولى الناس بالناس إنه * أطب قريشا بالكتاب وبالسنن وإن قريشا ما تشق غباره * إذا ما جرى يوما على الضمر البدن وفيه الذين فيهم من الخير كله * وما فيهم كل الذي فيه من حسن (٣)

٢ - إصلاحات علوية:

بدأ أمير المؤمنين عملية الإصلاح عقب مبايعته. ولم تكن عملية الإصلاح في محيط الغصون أو الثمار وإنما بدأت من عند الجذور حيث توجد سياسة تعيين المنافقين وسياسة عدم الرواية والتصريح بالقص والشعر وإغماض الطرف عن صناعة الخمر وسياسة الخراج وتأويل الآيات ووضعها في غير موضعها واكتناز الذهب والفضة إلى غير ذلك من سياسات، ولم تكن عملية الإصلاح والتغيير عملية سهلة فلقد برزت العقبات وجاءت موقعة الجمل بسرعة ومن بعدها هبت رياح هدفها تحطيم كل شيء. ونحن هنا سنلقي الضوء على بعض التغييرات والإصلاحات وليتدبر الباحث في جوهرها.

٠ - قرار عزل أمراء الفتن:

عندما قتل عثمان خرج النعمان بن بشير ومعه قميص عثمان مضمخ

(١) الطبري ١٥٢ / ٥.

(٢) رواه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم (كنز العمال ٧٦٤ / ٥).

(٣) الحاكم (المستدرک ١١٤ / ٣).

بدمه (١). فورد به على معاوية فوضعه معاوية على المنبر ليراه الناس. وندب الناس إلى الأخذ بهذا الثأر، فتباكى الناس حول المنبر. وأصدر معاوية قراراً بأنه لا يقرب الرجال النساء حتى يأخذوا بثأر عثمان (٢) وذكر ابن كثير: أن الناس تباكوا حول القميص سنة واعتزلوا النساء في هذا العام (٣) وما فعله معاوية يدل على أنه قد أصر على البقاء ولن يرضخ لأي محاولة لعزله. وكان علي قد بعث على الشام سهيل بن حنيف بدل معاوية. فسار حتى بلغ تبوك فتلقته خيل معاوية فقالوا: من أنت؟ قال: أمير، قالوا: على أي شيء، قال: على الشام، قالوا: إن كان عثمان بعثك فهلا بك وإن كان غيره فارجع. فقال: أو ما سمعتم الذي كان - أي هل وصلكم أخبار ما حدث؟! قالوا: بلى، فرجع إلى علي (٤)، وعندما جاء ابن عباس وكان يؤدي مناسك الحج دخل على أمير المؤمنين وقال له: يا أمير المؤمنين أنا أشير عليك بأن تثبت معاوية فإن بايع لك فعلي أن أقلعه من منزله. فقال الإمام: لا والله لا أعطيه إلا السيف. ثم تمثل بهذا البيت:

ما ميتة إن متها غير عاجز * بعار إذا ما غالت النفس غولها

فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع... أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: الحرب خدعة. قال الإمام: بلى يا ابن عباس لست من هنيئات وهنيآت معاوية في شيء. تشير علي وأرى. فإذا عصيتك فأطعني فقال: أفعل إن أيسر ما لك عند الطاعة (٥)، وكان المغيرة بن شعبة قد قال له قبل ذلك: إني لك ناصح وإني أشير عليك برد عمال عثمان عامك هذا فاكتب إليهم بإثباتهم على أعمالهم. فإذا بايعوا لك واطمأن الأمر لك عزلت من أحببت وأقررت من أحببت فقال الإمام: والله لا أدهن في ديني ولا أعطي الدني في أمري. قال المغيرة: فإن كنت قد أبيت علي فانزع من شئت واترك معاوية

(١) روى ابن أم حبيبة أرسلت القميص مع النعمان إلى معاوية (مروج الذهب ٣٧٩ / ٢).

(٢) مروج الذهب.

(٣) البداية والنهاية ٢٢٨ / ٧.

(٤) البداية والنهاية ٢٣٠ / ٧، الطبري ١٦١ / ٥.

(٥) الطبري ١٦١ / ٥.

فإن لمعاوية جرأة وهو في أهل الشام يسمع منه. ولك حجة في إثباته كان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام كلها. فقال أمير المؤمنين: لا والله لا أستعمل معاوية يومين أبدا (١) - وفي رواية - إذا كان عمر قد مكن له فأنا لن أتمكن له أبدا.

ولم تكن عملية عزل جميع الولاة عملية سهلة. فعندما فرق أمير المؤمنين عماله على الأمصار على امتداد عام ٣٦ هـ كان منهم من يتسلم عمله بهدوء ولكن على أرضية افتراق الناس. فرقة مع تيار بني أمية وفرقة مع جماعة المسلمين. حدث هذا في البصرة وفي مصر (٢)، أما أهل الكوفة فإن الغالبية العظمى تمسكوا بأمرهم وأعلنوا بأنهم لا يريدون بأمرهم بدلا وكتب أبو موسى إلى أمير المؤمنين بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم وبين الكاره منهم للذي كان والراضي بالذي كان (٣)، وأبو موسى نفسه كان في مستقر النفس وهو يكتب هذا لأمر المؤمنين - وسوف نرى بعد ذلك. كيف كان يضع العقبات في طريق أمير المؤمنين ورأي أمير المؤمنين وعمار فيه. وكانت بقية الأمصار في طاعة أمير المؤمنين ولكن هذه الطاعة تقف على أرضية الخوف من الماضي وطمعا فيما عنده من كنوز. لأنها لا تعرف الحاضر وما حوله من توبة.

. قرار التسوية في الأموال:

عن ابن عباس قال: إن عليا خطب في اليوم الثاني من بيعته بالمدينة فقال: ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان. وكل مال أعطاه من مال الله، فهو مردود في بيت المال. فإن الحق القديم لا يبطله شيء. ولو وجدته قد تزوج به النساء. وفرق في البلدان لردته إلى حاله فإن في العدل سعة ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق. قال ابن أبي الحديد: وتفسير هذا الكلام أن الوالي إذا ضاقت عليه تدبيرات أموره في العدل. فهي في الجور أضيق عليه. لأن الجائر في مظنة أن

(١) الطبري ١٦٠ / ٥.

(٢) الطبري ١٦١ / ٥.

(٣) الطبري ١٦٢ / ٥.

يمنع ويصد عن جوره (١).

وروي أن علياً أمر بكل سلاح وجد لعثمان في داره مما تقوى به على المسلمين. فقبض. وأمر بقبض نجائب كانت في داره من إبل الصدقة. فقبضت. وأمر بقبض سيفه ودرعه. وأمر ألا يعرض لسلاح وجد له لم يقاتل به المسلمين وبالكف عن جميع أمواله التي وجدت في داره وفي غير داره. وأمر أن ترتجع الأموال التي أجاز عثمان حيث أصيب أو أصيب أصحابها. فلما بلغ عمرو بن العاص ذلك. وكان بأيلة من أرض الشام. كتب إلى معاوية: ما كنت صانعاً فاصنع. إذ قشرك ابن أبي طالب من كل مال تملكه كما تقشر عن العصا لجأها. وقال الوليد بن عقبة وهو أخو عثمان لأمه وصاحب أبي زبيد النصراني وهو يذكر قبض علي بن أبي طالب نجائب عثمان وسيفه وسلاحه: بني هاشم ردوا سلاح ابن أختكم * ولا تنهبوه لا تحل مناهبه بني هاشم كيف الهواة بيننا * وعند علي درعه ونجائبه بني هاشم كيف التودد منكم * وبز ابن أروى فيكم وحرائبه بني هاشم إلا تردوا فإننا * سواء علينا قاتلاه وسالبه بني هاشم إنا وما كان منكم * كصدع الصفا لا يشعب الصدع شاعبه قتلتم أخي كيما تكونوا مكانه * كما غدرت يوماً بكسرى مرآزبه فأجابه عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بأبيات طويلة من جملتها:

فلا تسألونا سيفكم إن سيفكم * أضيع وألقاه لدى الروع صاحبه وشبهته كسرى وقد كان مثله * شبيها بكسرى هديه وضرائبه وكان المنصور إذا أنشد هذا الشعر يقول: لعن الله الوليد. هو الذي فرق بين عبد مناف بهذا الشعر (٢)، وهكذا بدأ الإمام علي تحركه. وهكذا بدأ عمرو بن العاص والوليد تحركهما الأول يريد إشعال النار والثاني يريد أموال

(١) ابن أبي الحديد ٢٢٠ / ١.

(٢) ابن أبي الحديد ٢٢٠ / ١.

كسرى وكسرى كسرى. ولكن الإمام لم يبال بهذا ولا بذاك وبدأ في إصلاح السياسة الحالية للخراج. فعندما قدم عليه عبد الله بن زمعة وهو من شيعته وطلب منه مالا فقال له الإمام علي: إن هذا المال ليس لي ولا لك وإنما هو فئ المسلمين. وجلب أسيافهم فإن شركتهم في حربهم.. كان لك مثل حظهم. وإلا فجناة أيديهم لا تكون لغير أفواههم (١). فهنا عادت الحقوق للمقاتلة ولم يعد السواد بستانا لقريش. كما عاد التسوية في العطاء. وعندما عوتب الإمام على التسوية في العطاء. وعندما عوتب الإمام على التسوية في العطاء. وتصييره الناس أسوة في العطاء من غير تفضيل أولى السابقات والشرف على غيرهم. كما كان يحدث من قبل (٢) قال الإمام علي: أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟ والله لا أطور به ما سمر سمير (٣). وما أم نجم في السماء نجما (٤). ولو كان المال لي لسويت بينهم.. فكيف وإنما المال مال الله. ثم قال الإمام: ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة. ويكرمه في الناس. ويهينه عند الله. وكم يضع امرؤ ماله في غير حقه وعند غير أهله إلا حرمه الله شكرهم. وكان لغيره ودهم. فإن زلت به الفعل يوما فاحتاج إلى معونتهم فشر خليل. وألام خدين (٥). أي: لو احتاج إليهم يوما عند عثرة يعثرها لم يجدهم (٦).

وكان أمير المؤمنين يراقب عماله في الأمصار من ناحية تصرفهم في الأموال: روي أنه كتب إلى زياد وكان خليفة عامله عبد الله بن عباس على البصرة وكان عبد الله عامل أمير المؤمنين عليها وعلى كور الأهواز وفارس وكرمان وغيرها: وإني أقسم بالله قسما صادقا. لئن بلغني أنك خنت من فئ

(١) ابن أبي الحديد ٧٢ / ٤.

(٢) راجع كتاب سيرة عمر لابن الجوزي، ابن أبي الحديد ٤ / ٣.

(٣) أي ما أقام الدهر وما بقي.

(٤) أي قصد وتقدم لأن النجوم تتبع بعضها بعضا.

(٥) الخدين / الصديق.

(٦) ابن أبي الحديد ٣ / ٣.

المسلمين شيئا صغيرا أو كبيرا. لأشدن عليك شدة تدعك قليل الوفر (١). ثقل
الظهر (٢)، ضئيل الأمر (٣)، والسلام (٤)، وروي أنه رضي الله عنه كتب إلى
بعض عماله: أما بعد. فقد بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت ربك.
وعصيت إمامك. وأخزيت أمانتك (٥). بلغني أنك جردت الأرض (٦) وأخذت ما
تحت قدميك وأكلت ما تحت يديك. فارفع إلي حسابك. واعلم أن حساب الله
أعظم من حساب الناس. والسلام (٧) وكتب إلى عامله على أردشير: بلغني عنك
أمر. إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك وعصيت إمامك.. أنك تقسم في
المسلمين فيمن أعتامك من أعراب قومك. فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة. لئن
كان ذلك حقا. لتجدن لك علي هوانا. ولتخفن عندي ميزانا. فلا تستهن بحق
ربك. ولا تصلح دنياك بمحق دينك. فتكون من الأخسرين أعمالا. ألا وإن حق
من قبلك وقبلنا من المسلمين في قسمة هذا الفئ سواء. يردون عندي عليه
ويصدرون (٨) والمعنى: أنه نهى عن أن يقسم الفئ على أعراب قومه الذين
اتخذوه سيذا ورئسا. ويحرم المسلمين الذين حازوه بأنفسهم وسلاحهم.
وكتب إلى عامله على آذربيجان: وإن عملك ليس لك بطعمة ولكنه في
عنقك أمانة. وأنت سترعى لمن فوقك. ليس لك أن تقتات في رعية. ولا تخاطر
إلا بوثيقة. وفي يدك مال من مال الله عز وجل. وأنت من خزانة حتى تسلمه
إلي " (٩).

(١) أي أفقرك بأخذ ما احتجت من بيت مال المسلمين.

(٢) أي مسكين لا تقدر على مؤونة عيالك.

(٣) أي حقير لأنك إذا افتقرت صغرت عند الناس.

(٤) ابن أبي الحديد ٥٦٨ / ٤.

(٥) أي أذلتها وأهنتها.

(٦) أي قشرتها.

(٧) ابن أبي الحديد ٧٩٢ / ٤.

(٨) ابن أبي الحديد ٨٠١ / ٤.

(٩) ابن أبي الحديد ٣٠٩ / ٤.

كان هذا ضوئاً على قرارات الإمام علي بخصوص الفئ ومنها علمنا أن الذين شاركوا في الحروب لا تكون حقوقهم لغيرهم. كما علمنا أن الإمام كان يسوي بين الناس في العطاء. وكان يتعامل مع المال على أنه مال الله. وبمنظرة سريعة أيضاً على أموال الصدقة نجد أنه كان يتعامل مع هذا المال بدقة شديدة فعامله على الصدقة يتحرك وفقاً لأوامر عمودها الفقري يقوم على الرحمة وعندما تصل الصدقات إلى الإمام فإنه يعطيها لمن أوجبها الله لهم. ومن وصية كان رضي الله عنه يكتبها لمن يستعمله على الصدقات ستري كيف كان يقيم عماد الحق في صغير الأمور وكبيرها. يقول الإمام في وصيته: انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له. ولا تروعن (١) مسلماً. ولا تجتازن عليه كارها (٢). ولا تأخذ منه أكثر من حق الله في ماله. فإذا قدمت على الحي فانزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم (٣). ثم امض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم. ولا تخرج بالتحية لهم ثم تقول: عباد الله. أرسلني إليكم ولي الله وخليفتم لاأخذ منكم حق الله في أموالكم. فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه؟ فإن قال قائل: لا. فلا تراجع. وإن أنعم لك منعم (٤) فانطلق معه من غير أن تخيفه أو توعده، أو تعسفه (ذ) أو ترهقه (٦). فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة. فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه. فإن أكثرها له. فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به. ولا تنفرن بهمة ولا تفزع عنها. ولا تسوئن صاحبها فيها (٧). واصدع المال صدعين ثم خيره (٨). فإذا اختار فلا

-
- (١) أي لا تفر عن.
(٢) أي لا تمرن ببيوت أحد من المسلمين يكره مرورك.
(٣) وذلك لأن الغريب يحمد منه الانقباض.
(٤) أي قال لك نعم.
(٥) أي لا تأخذ منه الصدقة عسفاً.
(٦) أي لا تكلفه العسر والمشقة.
(٧) أي لا تغموه ولا تحزنوه.
(٨) أي شقه نصفين ثم خيره.

تعرضن لما اختاره. ثم اصدع الباقي صدعين. ثم خيره. فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره. فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله في ماله. فاقبض حق الله منه. فإن استقالك فأقله. ثم اصنع مثل الذي صنعت أولا حتى تأخذ حق الله في ماله. ولا تأخذن عودا (١) ولا هرمة (٢) ولا مكسورة (٣) ولا مهلوسة (٤) ولا ذات عوار ولا تأمنن عليها إلا من تثق بدينه. رافقا بمال المسلمين حتى يوصله إلى وليهم فيقسمه بينهم. ولا توكل بها إلا ناصحا شفيقا وأمينًا حفيظًا. غير معنف (٥) ولا مجحف (٦) ولا ملعب (٧) ولا متعب. ثم احذر إلينا ما اجتمع عندك. نصيره حيث أمر الله. فإذا أخذها أمينك فأوعز إليه ألا يحول بين ناقة وبين فصيلها. ولا يمصر لبنها (٨) فيضر ذلك بولدها. ولا يجهدنها ركوبا. وليعدل بين صواحباتها في ذلك وبينها وليرفه على اللاغب. وليستان بالنقب والظالع (١٠). وليوردها ما تمر به من الغدر (١١). ولا يعدل بها عن نبت الأرض إلى جواد الطرق. وليروحها في الساعات. وليمهلها عند النطاف (١٢) والأعشاب. حتى تأتينا بإذن الله بدنا (١٣) منقبات (١٤). غير متعبات ولا مجهودات لنقسمها على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم. فإن ذلك

-
- (١) العود / المسن من الإبل.
 - (٢) المسنة أيضا.
 - (٣) التي إحدى قوائمها مكسورة.
 - (٤) المريضة.
 - (٥) المعنف / ضد الرفق.
 - (٦) الذي يسوق المال سوقا عنيفا فيهلكه.
 - (٧) متعب.
 - (٨) حلب ما في الضرع جميعا.
 - (٩) أي أمره أن يستأني بالبعير ذي النقب لركة خفه حتى لا تجرحه الأرض.
 - (١٠) أي الذي غمز في مشيه.
 - (١١) جمع غدير الماء.
 - (١٢) الماء الصافي القليل.
 - (١٣) أي السمان.
 - (١٤) أي ذوات شحم ولحم.

أعظم لأجرك وأقرب لرشدك إن شاء الله " (١).
وتقسيم الصدقات على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم يعني
أن سهم المؤلفه قلوبهم قد وجد له طريقا في عهد الإمام. والإمام وحده أدرى
الناس بطبيعة من حوله.
. قرارات قيادية:

لم تكن مهمة الإمام محصورة في بيت المال لأنه حجة والحجة لها دعوة
ونحن سنسلط ضوءا على بعض رسائله إلى عماله لترتشف رحيق الدعوة من
خلالها. كتب إلى عامله صاحب جند حلوان: أما بعد. فإن الوالي إذا اختلف
هواه منعه ذلك كثيرا من العدل. فليكن أمر الناس عندك في الحق سواء. فإنه
ليس في الجور عوض من العدل. فاجتنب ما تنكر أمثاله. وابتذل نفسك فيما
افترض الله عليك. راجيا ثوابه. ومتخوفا عقابه. واعلم أن الدنيا دار بلية لم يفرغ
صاحبها فيها قط ساعة إلا كانت فرغته عليه حسرة يوم القيامة وإنه لن يغنيك عن
الحق شئ أبدا. ومن الحق عليك حفظ نفسك. والاحتساب على الرعية
بجهدك. فإن الذي يصل إليك من ذلك أفضل من الذي يصل بك.
والسلام (٢).

لقد بين له أنه إذا اختلف هو الوالي منعه كثيرا من الحق. لأنه متى لم
يكن الخصمان عند الوالي سواء في الحق جار وظلم. وفي النهاية ذكره بالآخرة،
ومن كتاب له رضي الله عنه إلى الحارث الهمداني وكان أحد الفقهاء قال: تمسك
بحبل القرآن واستنصحه وأحل حلاله. وحرم حرامه. وصدق بما سلف من
الحق. واعتبر بما مضى من الدنيا لما بقي منها. فإن بعضها يشبه بعضها. وآخرها
لاحق بأولها. وكلها حائل مفارق. وعظم اسم الله أن تذكره إلا على حق. وأكثر
ذكر الموت وما بعد الموت ولا تتمن الموت إلا بشرط وثيق. واحذر كل عمل

(١) ابن أبي الحديد ٥٧٨ / ٤.

(٢) ابن أبي الحديد ١٠٥ / ٥.

يرضاه صاحبه لنفسه. ويكرهه لعامة المسلمين. واحذر كل عمل يعمل به في السر. ويستحي منه في العلانية. واحذر كل عمل إذا سئل عنه صاحبه أنكره واعتذر منه. ولا تجعل عرضك غرضا لنبال القوم. ولا تحدث الناس بكل ما سمعت به. فكفى بذلك كذبا. ولا ترد على الناس كل ما حدثوك به. فكفى بذلك جهلا. واكظم الغيظ واحلم عند الغضب. وتجاوز عند المقدرة. واصفح مع الدولة تكن لك العاقبة. واستصلح كل نعمة أنعمها الله عليك. ولا تضيعن نعمة من نعم الله عندك. ولير عليك أثر ما أنعم الله به عليك (١)، ومن كتابا له إلى عامله على مكة (٢) قال: أما بعد. فأقم للناس الحج، وذكرهم بأيام الله. واجلس لهم العصرين. فأفت المستفتي وعلم الجاهل. وذكر العالم. ولا يكن لك إلى الناس سفير إلا لسانك ولا حاجب إلا وجهك. ولا تحجبن ذا حاجة عن لقائك بها. فإنها إذا زيدت عن أبوابك في أول وردها. لم تحمد فيما بعد على قضائها. وانظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه إلى من قبلك من ذوي العيال والمجاعة. مصيبا به مواضع الفقير والخلات. وما فضل عن ذلك فاحمله إلينا لنقسمه فيمن قبلنا. ومر أهل مكة ألا يأخذوا من ساكن أجرا. فإن الله سبحانه يقول: (سواء العاكف فيه والباد) فالعاكف: المقيم به. والبادي: الذي يحج إليه من غير أهله. وفقنا الله وإياكم لمحابه والسلام " (٣). ولما كنا قد سلطنا الضوء هنا على بعض وصايا الأيام علي لعماله فإننا نرى أنه لا ينبغي لنا أن ننهي هذا الضوء إلا بعد أن نسلطه على كتاب الإمام إلى مالك الأشتر لما ولاه مصر. وهذا الكتاب وضع موضع العناية منذ أقدم العصور إلى يوم الناس هذا عند الكثير من رجال العلم. وأعلام الأدب. وأساتذة القانون. فلقد تناولوه درسا وبحثا. وأوسعوه شرحا وتعليقا. وأفردوا فيه المؤلفات، وترجموه إلى بعض اللغات (٤) وكتاب أمير المؤمنين إلى مالك

(١) ابن أبي الحديد ٢٢٦ / ٥.

(٢) هو قثم ابن العباس.

(٣) ابن أبي الحديد ٢٢٩ / ٥.

(٤) راجع مصادر نهج البلاغة / السيد الحسيني الخطيب ٤٢٦ / ٣.

الأشتر يعتبر عهدا جامعا شاملا وهو أطول عهد. ولطوله سنورد فقرات منه ومن أراد أن يقف على الخطاب بطوله فعليه بالمطولات. قال الإمام بعد أن أمر بتقوى الله وإيثار طاعته واتباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وسننه: ... وأشعر قلبك الرحمة (١) للرعية. والمحبة لهم. واللفظ بهم. ولا تكن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم. فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين. وإما نظير لك في الخلق (٢). يفرط منهم الزلل. وتعرض لهم العلل. ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ. فاعطهم من عفوك وصفحك. مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه. فإنك فوقهم. ووالي الأمر عليك فوقك. والله فوق من ولاك. وقد استكفأك أمرهم. وابتلاك بهم. ولا تنصب نفسك لحرب الله (٣). فإنه لا يدي لك بنقمته. ولا غنى بك عن عفوه ورحمته. ولا تندمن على عفوه. ولا يتبجحن بعقوبة. ولا تسرعن إلى بادرة وجدت عنها مندوحة. ولا تقولن إني مؤمر أمر فأطاع (٤). فإن ذاك إدغال (٥) في القلب. ومنهكة للدين (٦). وتقترب من الغير. وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة. فانظر إلى عظم ملك الله فوقك. وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك. فإن ذلك يطامن إليك طماحك. ويكف عنك من غربك (٧). ويفيء إليك بما عزب عنك من عقلك. إياك ومساماة الله في عظمتة (٨). والتشبه به في جبروته. فإن الله يذل كل جبار ويهين كل مختال. أنصف الله (٩) وأنصف الناس من نفسك. ومن

(١) أي إجعلها كالشعار له.

(٢) فالرعية إما أخوك في الدين أو إنسان مثلك تقتضي رقة الجنسية وطبع البشرية الرحمة له.

(٣) أي لا تبارزه بالمعاصي.

(٤) أي لا تقل: إني أمير ووال أمر بالشئ فأطاع.

(٥) الإدغال / الإفساد.

(٦) ومنهكة للدين: ضعف وسقم.

(٧) الغرب: حد السيد.

(٨) أي مباراته في السمو، وهو العلو.

(٩) أي قم له بما فرض عليك من العبادات.

خاصة أهلك. ومن لك هوى فيه من رعيته. فإنك إلا تفعل تظلم. ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده. ومن خصمه الله أدحض حجته. وكان لله حربا حتى ينزع أو يتوب. وليس شئ أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نعمته من إقامة على ظلم. فإن الله يسمع دعوة المضطهدين. وهو للظالمين بالمرصاد. وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق. وأعمها في العدل. وأجمعها لرضا الرعية. فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة. وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة.

قال ابن أبي الحديد: قال له: أنصف الناس من نفسك ومن ولدك وخاصة أهلك ومن تحبه وتميل إليه من رعيته فحتى لم تفعل ذلك كنت ظالما. ثم قال الإمام:

وليكن أبعد رعيته منك. وأشنأهم عندك أطلبهم لمعايب الناس. فإن في الناس عيوباً الوالي أحق من سترها، فلا تكشف عن غاب عنك منها. فإنما عليك تطهير ما ظهر لك. والله يحكم على ما غاب عنك. فاستر العورة ما استطعت. يستر الله منك ما تحب ستره من رعيته. أطلق عن الناس عقدة كل حقد. واقطع عنك سبب كل وتر. وتغاب عن كل ما لا يضح لك. ولا تعجلن إلى تصديق ساع. فإن الساعي غاش وإن تشبه بالناصحين. ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل. ويعدك الفقر. ولا جباناً يضعفك عن الأمور. ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور. فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله.

إن شر وزرائك من كان قبلك للأشرار وزيرا. ومن شكرهم في الآثام فلا يكن لك بطانة. فإنهم أعوان الأئمة. وإخوان الظلمة. وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفادهم. وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم وآثامهم. ممن لم يعاون ظالما على ظلمه. ولا آثما على إثمه. أولئك أخف عليك مؤونة وأحسن لك معونة. وأحنى عليك عطفا. وأقل لغيرك إلفا. فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك. ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك. وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه. واقعا ذلك من هواك

حيث وقع.
قال ابن أبي الحديد: نهاه رضي الله عنه أن يتخذ بطانة قد كانوا من قبل
بطانة للظلمة. وذلك لأن الظلم وتحسينه قد صار ملكة ثابتة في أنفسهم. فبعيد
أن يمكنهم الخلو منها إذ قد صارت كالخلق الغريزي اللازم لتكرارها وصيرورتها
عادة. فقد جاءت النصوص في الكتاب والسنة بتحريم معاونة الظلمة ومساعدتهم
وتحريم الاستعانة بهم. فإن من استعان بهم كان معينا لهم قال تعالى: (وما
كنت متخذ المضلين عضدا) (١)، وقال: (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر
يوادون من حاد الله ورسوله) (٢)، ثم يقول الإمام في كتابه:
"والصق بأهل الورع والصدق. ثم رضهم على ألا يطروك ولا ييجحوك
بباطل لم تفعله. فإن كثرة الاطراء تحدث الزهو. وتدني من العزة. ولا يكونن
المحسن والمسئ عندك بمنزلة سواء. فإن في ذلك تزهيدا لأهل الاحسان في
الاحسان. وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة. وألزم كلا منهم ما ألزم نفسه.
واعلم أنه ليس شئ بأدعى إلى حسن ظن وال برعته من إحسانه إليهم. وتخفيفه
المؤونات عليهم. وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قبلهم. فليكن منك في
ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك. فإن حسن الظن يقطع عنك نصبا
طويلاً. وإن أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده... واعلم أن الرعية
طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض. ولا غنى ببعضها عن بعض. فمنها
جنود الله. ومنها كتاب العامة والخاصة. ومنها قضاة العدل. ومنها عمال
الإنصاف والرفق. ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس.
ومنها التجار وأهل الصناعات. ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجات
والمسكنة. وكل قد سمى الله له سهمه. ووضع على حده وفريضته في كتابه أو
سنة نبيه صلى الله عليه وآله عهداً منه عندنا محفوظاً.
فالجنود بإذن الله حصون الرعية، وزين الولاة، وعز الدين، وسبل الأمن.

(١) سورة الكهف: الآية ٥١.

(٢) سورة المجادلة: الآية ٢٢.

وليس تقوم الرعاية إلا بهم. ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذي يقوون به على جهاد عدوهم. ويعتمدون عليه فيما يصلحهم. ويكون من وراء حاجتهم. ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاء والعمال والكتاب، لما يحكمون من المعاهد. ويجمعون من المنافع. ويؤمنون عليه من خواص الأمور وعوامها. ولا قوام لهم جميعا إلا بالتجار وذوي الصناعات. فيما يجتمعون عليه من مرافقتهم. ويقيمونه من أسواقهم. ويكفونهم من الترفق بأيديهم مما لا يبلغه رفق غيرهم.

ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة. الذين يحق ردهم ومعونتهم. وفي الله لكل سعة. ولكل على الوالي حق بقدر ما يصلحه. وليس يخرج الوالي من حقيقة ما ألزمه الله تعالى من ذلك. إلا بالاهتمام والاستعانة بالله. وتوطين نفسه على لزوم الحق والصبر عليه فيما خف عليه أو ثقل. فول من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك. وأظهرهم جنبا. وأفضلهم حلما. ممن يبطئ عن الغضب. ويستريح إلى العذر. ويرأف بالضعفاء (١). وينبو على الأقوياء (٢). وممن لا يثيره العنف (٣). ولا يقعد به الضعف (٤). ثم الصق بذوي المروءات والأحساب. وأهل البيوتات الصالحة. والسوابق الحسنة. ثم أهل النجدة والشجاعة. والسخاء والسماحة. فإنهم جماع من الكرم. وشعب من العرف. ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما. ولا يتفاقم في نفسك شيء قويتهم به. ولا تحقرن لطفا تعاهدتهم به وإن قل. فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك. وحسن الظن بك. ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالا على جسيمها. فإن ليسير من لطفك موضعا ينتفعون به. وللجسيم موقعا لا يستغنون عنه. وليكن أثر رؤوس جنودك عندك من واساهم في معونته. وأفضل عليهم من جدته. بما يسعهم ويسمع من وراءهم من خلوف

(١) أي: الذي يقبل أدنى عذر ويستريح له ويسكن عنده. ويرفق بالضعفاء ويرحمهم.

(٢) أي يتجافى عنهم ويبعد. أي لا يمكنهم من الظلم والتعدي على الضعفاء.

(٣) أي لا يهيج غضبه عنف وقسوة.

(٤) أي ليس عاجزا.

أهلهم (١). حتى يكون همهم هما واحدا في جهاد العدو. فإن عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك. ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاية أمورهم. وقلة استئصال دولهم (٢). وترك استبطاء انقطاع مدتهم. فافسح في آمالهم. وواصل من حسن الثناء عليهم. وتعدد من أبلى ذوي البلاء منهم. فإن كثرة الذكر لحسن فعالهم تهز الشجاع. وتحرض الناكل. إن شاء الله. ثم عرف لكل امرئ منهم ما أبلى. ولا تضمن بلاء امرئ إلى غيره (٣). ولا تقصرون به دون غاية بلائه. ولا يدعونك شرف امرئ إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيرا. ولا ضعة امرئ إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيما. واردد إلى الله ورسوله ما يضلحك من الخطوب. ويشتهه عليك من الأمور. فقد قال تعالى لقوم أحب إرشادهم: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول)، فالرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه. والرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة.

ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعتك في نفسك. ممن لا تضيق به الأمور. ولا تمحكه الخصوم (٤). ولا يتمادى في الزلة (٥). ولا يحرص من الفئ إلى الحق إذا عرفه (٦). ولا تشرف نفسه على طمع (٧). ولا يكتفي بأدنى منهم دون أقصاه (٨). وأوقفهم في الشبهات. وآخذهم بالحجج. وأقلهم تبرما

-
- (١) أي ممن يخلفونه من أولادهم وأهلهم.
- (٢) أي لا تصح نصيحة الجند لك إلا إذا أحبوا أمراءهم ثم لم يستثقلوا دولهم. ولم يتمنوا زوالها.
- (٣) أي اذكر كل من أبلى منهم مفردا غير ضوموم ذكر بلائه إلى غيره. كي لا يكون مغمورا في جنب ذكر غيره.
- (٤) أي تجعله ماحكا. أي لجوجا.
- (٥) أي إن زل رجع وأناب.
- (٦) نفس المعنى السابق.
- (٧) أي لا تشفق.
- (٨) أي لا يكون قانعا بما يخطر له بادئ الرأي من أمر الخصوم بل يبحث أشد البحث.

بمراجعة الخصم (١). وأصبرهم على كشف الأمور. وأصرمهم (٢) عند إيضاح الحكم. ممن لا يزدهيه إطراء. ولا يستمليه إغراء. وأولئك قليل. ثم أكثر تعاقد قضائه. وأفسح له في البذل ما يزيح علته. وتقل معه حاجته إلى الناس. وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك. ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك. فانظر في ذلك نظرا بليغا. فإن هذا الدين قد كان أسيرا في أيدي أشرار (٣). يعمل فيه بالهوى وتطلب به الدنيا. ثم انظر في أمور عمالك. فاستعملهم اختبارا. ولا تولهم محابة وأثرة. فإنهما جماع من شعب الجور والخيانة. وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة. والقدم في الإسلام المتقدمة. فإنهم أكرم أخلاقا. وأصح أعراضا. وأقل في المطامع إشرافا. وأبلغ في عواقب الأمور نظرا. ثم أسبغ عليهم الأرزاق. فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم. وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم. وحجة عليهم إن خالفوا أمرك. أو ثلموا أمانتك. ثم تفقد أعمالهم. وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم. فإن تعاهدك في السر لأموالهم حدوة لهم على استعمال الأمانة. والرفق بالرعية. وتحفظ من الأعوان. فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك. اكتفيت بذلك شاهدا. فبسطت عليه العقوبة في بدنه. وأخذته بما أصاب من عمله. ثم نصبته بمقام الذلة. ووسمته بالخيانة. وقلدته عار التهمة. وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله. فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم. ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم. لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله. وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج. لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة. ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد. وأهلك العباد... ولم يستقم أمره إلا قليلا. فإن شكوا

(١) أي تضجرا.

(٢) أي: اقطعهم وأمضاهم.

(٣) هذه إشارة إلى قضاة عثمان وحكامه وإنهم لم يكونوا يقضون بالحق عنده. بل بالهوى لطلب الدنيا.

ثقلًا (١) أو علة (٢). أو انقطاع شرب (٣)، أو بالة (٤). أو إحالة أرض اغتمرها غرق (٥). أو أجحف بها عطش (٦). خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم. ولا يثقلن عليك شئ خففت به المؤونة عنهم. فإنه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك. وتزيين ولايتك. مع استجلابك حسن ثنائهم. وتبجحك باستفاضة العدل فيهم. معتمدا فضل قوتهم. بما ذخرت عندهم من إجماعك لهم. والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم ورفقك بهم. فربما حدث من الأمور ما إذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوهم. طيبة أنفسهم به. فإن العمران محتمل ما حملته. وإنما يؤتى خراب الأرض عن أعواز أهلها. وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع. وسوء ظنهم بالبقاء. وقلة انتفاعهم بالعبر، ثم انظر في حال كتابك. فول على أمورك خيرهم. واخصص رسائلك التي تدخل فيها مكائيدك وأسرارك بأجمعهم لوجود صالح الأخلاق ممن لا تبطره الكرامة. فيجتري بها عليك في خلاف لك بحضرة ملأ. ولا تقصر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمالك عليك. وإصدار جواباتها على الصواب عنك. وفيما يأخذ لك ويعطى منك. ولا يضعف عقدا اعتقده لك. ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك. ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور. فإن الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل. ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك. فإن الرجال يتعرضون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن حديثهم. وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شئ. ولكن اختبرهم بما ولوا الصالحين قبلك. فأعمد لأحسنهم كان في العامة أثرا. وأعرفهم بالأمانة وجهها. فإن ذلك دليل على نصيحتك الله. ولمن وليت أمره. واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأسا منهم، لا

(١) أي ثقل الخراج المضروب عليهم.

(٢) أو علة / أي نحو ما يصيب الغلة آفة كالجراد والبرد.

(٣) أي ينقص الماء.

(٤) بالة / يعني المطر.

(٥) أي أن الأرض غمرها الغرق وأفسدها.

(٦) أي أتلّفها.

يقهره كبيرها. ولا يتشتت عليه كثيرها. ومهما كان في كتابك من عيب فتغايبت عنه ألزمته.

ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات. وأوصى بهم خيرا. المقيم منهم والمضطرب بماله. والمترفق ببدنه. فإنهم مواد المنافع. وأسباب المرافق. وجلابها من المباعد والمطارح (١). في برك وبحرك. وسهلك وجيلك. وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها. ولا يجترئون عليها. فإنهم سلم لا تخاف بائقته وصلح لا تخشى غائلته. وتفقد أمورهم بحضرتك. وفي حواشي بلادك. واعلم - مع ذلك - أن في كثير منهم ضيقا فاحشا. وشحا قبيحا. واحتكارا للمنافع. وتحكما في البياعات. وذلك باب مضرة للعامة. وعيب على الولاية. فامنع من الاحتكار. فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم منع منه. وليكن البيع سمحا بموازين عدل. وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع. فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكل به. وعاقبه من غير إسراف.

ثم الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم. من المساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزماني (٢). فإن في هذه الطبقة قانعا (٣) ومعترا (٤). واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم. واجعل لهم قسما من بيت مالك. وقسما من غلات صوافي الإسلام في كل بلد. فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى وكل قد استرعيت حقه (٥). ولا يشغلنك عنهم بطر. فإنك لا تعذر بتضييع التافه (٦) لإحكامك الكثير المهم. فلا تشخص همك عنهم، ولا خدك لهم. وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم. ممن تفتحمه العيون (٧). وتحقره الرجال. ففرغ

(١) الأماكن البعيدة.

(٢) أي البؤس وأولو الزمانة.

(٣) القانع / السائل.

(٤) المعتز، الذي يعرض لك ولا يسألك.

(٥) أي كل فقراء المسلمين سواء في سهامهم ليس فيهم أقصى وأدنى.

(٦) التافه / الحقير.

(٧) أي تزدريه وتحقره.

لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع. فليرفع إليك أمورهم. ثم اعمل فيهم بالإعذار إلى الله (١) سبحانه يوم تلقاه. فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم. وكل فأعذر إلى الله في تأدية حقه إليه، وتعهّد أهل اليتيم، وذوي الرقة في السن. ممن لا حيلة له. ولا ينصب للمسألة نفسه. وذلك على الولاية ثقيل. والحق كله ثقيل. وقد تخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم. ووثقوا بصدق موعود الله لهم.

واجعل لذوي الحاجات منك قسما تفرغ لهم فيه شخصك. وتجلس لهم مجلسا عاما. فتتواضع فيه لله الذي خلّقك. وتقعّد عنهم جندك وأعوانك من أحرّاسك وشرطك حتى يكلمك متكلمهم غير متتّع (٢). فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في غير موطن: لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متتّع " ثم احتمل الخرق (٣) منهم والعي (٤). ونح عنهم الضيق والأنف. يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته. ويوجب لك ثواب طاعته. وأعط ما أعطيت هنيئا. وامنع في إجمال واعتذار ثم أمور من أمورك لا بد لك من مباشرته. منها إجابة عمالك بما يعيا عنه كتابك. ومنها إصدار حاجات الناس عند ورودها عليك بما تخرج به صدور أعوانك. وامض لكل يوم عمله. فإن لكل يوم ما فيه. واجعل لنفسك فيها بينك وبين الله تعالى أفضل تلك المواقيت. واجزل تلك الأقسام. وإن كانت كلها لله. إذا صلحت فيها النية. وسلمت فيها الرعية. وليكن في خاصة ما تخلص لله به إقامة فرائضه التي هي له خاصة. فأعط الله من بدنك في ليلك ونهارك. ووف ما تقربت به إلى الله سبحانه من ذلك كاملا غير مكلوم ولا منقوص. بالغا من بدنك ما بلغ. وإذا قمت في صلاتك للناس فلا تكن منفرا ولا مضيّفا. فإن في الناس من به علة. وله الحاجة، وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وجهني إلى اليمن.

(١) أي في تأدية حقه والقيام بفرائضه.

(٢) أي غير مزعج ولا مقلق.

(٣) الخرق / الجهل.

(٤) أي / الجهل أيضا.

كيف أصلي بهم؟ فقال: " صل بهم كصلاة أضعفهم. وكن بالمؤمنين رحيمًا ".
وأما بعد هذا. فلا تطولن احتجاجك عن رعبتك فإن احتجاج الولاة عن
الرعية. شعبة من الضيق. وقلة علم بالأمور. والاحتجاج منهم يقطع عنهم علم
ما احتجوا به. فيصغر عندهم الكبير. ويعظم الصغير، ويقبح الحسن.
ويحسن القبيح. ويشاب الحق بالباطل. وإنما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عنه
الناس به من الأمور. وليست على الحق سمات لا تعرف بها ضروب الصدق من
الكذب. وإنما أنت أحد رجلين: أما أمرؤ سخت نفسك بالبذل في الحق. ففيم
احتجاجك من واجب حق تعطيه. أو فعل كريم تسديه أو مبتلي بالمنع. فما أسرع
كف الناس عن مسألتك. إذا أيسوا من ذلك! مع أن أكثر حاجات الناس إليك ما
لا مؤونة فيه عليك. من شكاية مظلمة. أو طلب إنصاف في معاملة.
ثم إن للوالي خاصة وبطانة. فيهم استئثار وتناول. وقلة إنصاف في
معاملة. فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال. ولا تقطعن لأحد من
حاشيتك وحامتك قطيعة. ولا يطمعن منك في اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من
الناس في شرب أو عمل مشترك. يحملون مؤونته على غيرهم. فيكون مهناً ذلك
لهم دونك. وعيبه عليك في الدنيا والآخرة. وألزم الحق من لزمه من القريب
والبعيد. وكن في ذلك صابراً محتسباً. واقعا ذلك من قرابتك وخاصتك حيث
وقع. وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه. فإن مغبة ذلك محمودة. وإن ظننت
الرعية بك جيفاً. فأصحر لهم بعذر. وأعدل عنك ظنونهم بإصهارك. فإن في
ذلك رياضة منك لنفسك. ورفقا برعبتك. وإعذاراً تبلغ به حاجتك من تقويمهم
على الحق.

قال ابن أبي الحديد: نهاه عن أن يحمل أقاربه وحاشيته وخواصه على
رقاب الناس. وأن يمكنهم من الاستئثار عليهم والتناول والإذلال. ونهاه عن أن
يقطع أحداً منهم قطيعة. أو يملكه ضيعة تضر بمن يجاورها في شرب يتغلبون
على الماء منه. أو ضياع يضيفونها إلى ما ملكهم إياه. وإعفاء لهم من مؤنة. أو
حفر وغيره. فيعفيهم الولاة منه مراقبة لهم. فتكون مؤنة ذلك الواجب عليهم قد
أسقطت عنهم. وحمل ثقلها على غيرهم. ثم قال الإمام: لأن منفعة ذلك في

الدنيا تكون لهم دونك. والوزر في الآخرة عليك. والعيب والذم في الدنيا أيضا لا حقان بك. ثم قال له: إن اتهمتكَ الرعية بحيف عليهم. أو ظنت بك جورا. فاذكر لهم عذرِكَ في ذلك. وما عندك ظاهر غير مستور. فإنه الأولى والأقرب إلى استقامتهم لك على الحق. ثم قال الإمام:

" وإن عقدت بينك وبين عدو لك عقدة. أو ألبسته منك ذمة. فحط عهدك بالوفاء. واراع ذمتك بالأمانة... إياك والدماء وسفكها بغير حلها. فإنه ليس شيء أدعى لنقمة. ولا أعظم لتبعة. ولا أخرى بزوال نعمة. وانقطاع مدة. من سفك الدماء بغير حقها... ولا عذر لك عند الله ولا عندي في قتل العمد. لأن فيه قود البدن... وإياك والإعجاب بنفسك. والثقة بما يعجبك منها. وحب الاطراء. فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه. يمحق ما يكون من إحسان المحسنين. وإياك والمن على رعتك بإحسانك. أو التزيد فيما كان من فعلك. أو أن تعدهم فتتبع موعده بك خلفك. فإن المن يبطل الاحسان. والتزيد يذهب بنور الحق. والخلف يوجب المقت عند الله والناس... وإياك والعجلة بالأمور قبل أوانها. أو التساقط فيها عند إمكانها. أو اللجاجة فيها إذا تنكرت. أو الوهن عنها إذا استوضحت. فضع كل أمر موضعه. وأوقع كل عمل موقعه. وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة. والتغابي عما تعني به مما قد وضح للعيون. فإنه مأخوذ منك لغيرك.. وعما قليل تنكشف عن أغطية الأمور. وينتصف منك للمظلوم. أملك حمية أنفك. وسورة حدك. وسطوة يدك. وغرب لسانك. واحترس من كل ذلك بكف البادرة. وتأخير السطوة. حتى يسكن غضبك. فتملك الاختيار. ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك...

وأنا أسأل الله بسعة رحمته. وعظيم قدرته على إعطاء كل رغبة. أن يوفقني وإياك لما فيه رضاه. من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه. ومن حسن الثناء في العباد. وجميل الأثر في البلاء. وتمام النعمة. وتضعيف الكرامة. وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة. إنا إلى الله راغبون. والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله الطيبين

الطاهرين (١).

ومن هذا العهد نرى أن الإمام كان يختار الولاية وفقا لقاعدة لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق ثم يزوده بالتعليمات التي تسوق الناس إلى صراط الله المستقيم. ويراقبه بعيون ليس لها مصلحة إلا ابتغاء مرضاة الله. فإن أخطأ الوالي شهد عليه من لا شبهة فيه عند الإمام وعند الناس. ومن هذا كله علمنا أن الإمارة لم تكن في عهد الإمام وجاهة ونبالة وقتلا من أجل مزيد من الخراج. ولكنها كانت مهمة ترفق بالإنسان لتكون فطرته مهياة لاستقبال النور. ولقد رأينا من قبل كيف كان الإمام يوصي عماله على الصدقة بالرحمة بالحيوان وأن لا يحول بين ناقة وبين فصيلها. ولا يجهدنها ركوبا وليعدل بين صواحباتها في ذلك وبينها. إلى غير ذلك، فالرحمة كانت عنوانا أصيلا يقف الإنسان تحت ظله شامخا بإنسانيته. وروي عن الإمام أنه قال: " من كانت له إني فيكم حاجة. فليرفعها في كتاب. لأصون وجوهكم من المسألة (٢). وبهذا تعبر المشاعر الإنسانية جسورا بزاد الرضى وهي تسلك طريقها إلى ربها.

• قرار رواية العلم ومنع القص:

لم يأت قرار رواية العلم إلا بعد أن وقف الإمام علي على باب مدينة العلم. روي أنه في أول خلافته خطب فأرشد الناس إلى كتاب الله وقال: " إن الله تعالى سبحانه أنزل كتابا هاديا بين فيه الخير والشر. فخذوا نهج الخير تهتدوا. واصرفوا عن سمت الشر (٣) تقصدوا (٤). الفرائض الفرائض. أدوها إلى الله تودكم إلى الجنة. إن الله حرم حراما غير مجهول. وأحل حلالا غير مدخول. وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها. وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق

(١) ابن أبي الحديد ٢٣ / ٥.

(٢) العقد الفريد ٢٧٦ / ١.

(٣) أي أعرضوا عن طريقه.

(٤) تقصدوا: أي تعدلوا. والقصد: العدل.

المسلمين في معاقدها (١). فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق. ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب (٢). بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم وهو الموت. فإن الناس أمامكم (٣) وإن الساعة تحدوكم من خلفكم. تخففوا تلحقوا. فإنما ينتظر بأولكم أخركم (٤). اتقوا الله في عباده وبلاده. فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم. وأطيعوا الله ولا تعصوه. وإذا رأيتم الخير فخذوا به. وإذا رأيتم الشر فأعرضوا عنه (٥).

فالإمام في أول خطاب له أمر بأخذ الخير وترك الشر. وأمر بأداء الفرائض وبين أن الله حرم حراما وأحل حلالا. وهذه الأمور لها أبواب. وكما علمنا أن سياسة القص وعدم الرواية تركت لها بصمات على أمور وبطانة السوء تركت لها بصمات على أمور أخرى. ودخل المنافقون في عصور الفتوحات بأحاديثهم التي تخدم مصالحهم. ونحن في هذا المقام سنتك تقسيم رواة هذا العصر لأمير المؤمنين علي. وبعد أن يحدد لهم لنا سنرى ما هو الباب الذي فتحه أمير المؤمنين في أول خطاب له لاغتراف العلم. سئل الإمام عن أحاديث البدع. وعما في أيدي الناس من اختلاف الخبر. فقال:

إن في أيدي الناس حقا وباطلا. وصدقا وكذبا. وناسخا ومنسوخا. وعاما وخاصا. ومحكما ومتشابها. وحفظا ووهما. ولقد كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم على عهده حتى قام خطيبا. فقال: من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار، وإنما أتاك الحديث أربعة رجال. ليس لهم خامس:

-
- (١) لأن الإخلاص والتوحيد داعيان إلى المحافظة على حقوق المسلمين صارفان عن انتهاك محارمهم.
 - (٢) أي إلا بحق.
 - (٣) أي سبقوكم.
 - (٤) أي إنما ينتظر بيعث الموتى المتقدمين أن يموت الأواخر أيضا. فيبعث الكل جميعا في وقت واحد.
 - (٥) ابن أبي الحديد ٣٣٧ / ٣.

رجل منافق مظهر لإيمان، متصنع بالإسلام، لا يتأثم ولا يتحرج. يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم متعمدا. فلو علم الناس أنه منافق كاذب لم يقبلوا منه. ولم يصدقوا قوله. ولكنهم قالوا: صاحب رسول الله رآه وسمع منه، ولقف عنه. فيأخذون بقوله. وقد أخبرك الله عن المنافقين بما أخبرك. ووصفهم بالزور والبهتان. فولوهم الأعمال. وجعلوهم حكاما على رقاب الناس فأكلوا بهم الدنيا. وإنما الناس مع الملوك والدنيا. إلا من عصم الله. فهذا أحد الأربعة.

وفيه من كلام الإمام رضي الله عنه أن الخلفاء بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم لم يعرفوا المنافقين لأن المنافق يسير بما في قلبه ويعامله الناس بظاهره. وعندما فتحت البلاد وكثرت الغنائم اختلط المنافقون بالأمرء في الأمصار فولوهم الأعمال والخلفاء لو كانوا يعرفون المنافقين بأعيانهم ما استطاع الأمرء وضعهم على رقاب الناس. ثم يقول الإمام رضي الله عنه عن الصنف الثاني: ورجل سمع من رسول الله شيئا لم يحفظه على وجهه، فوهم فيه، ولم يتعمد كذبا. فهو في يديه. ويرويه ويعمل به. ويقول: أنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلو علم المسلمون أنه وهم فيه لم يقبلوه منه. ولو علم هو أنه كذلك لرفضه.

ثم يقول الإمام عن الصنف الثالث: ورجل ثالث سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا يأمر به ثم إنه نهى عنه وهو لا يعلم أو سمعه ينهي عن شيء ثم أمر به وهو لا يعلم فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ فلو علم أنه منسوخ لرفضه. ولو علم المسلمون إذ سمعوه منه أنه منسوخ لرفضوه. ثم يقول الإمام في الصنف الأخير: وآخر رابع لم يكذب على الله ولا على رسوله. مبغض للكذب خوفا من الله. وتعظيما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يهم بل حفظ ما سمع على وجهه فجاء به على سمعه لم يزد فيه ولم ينقص منه. فهو حفظ الناسخ فعمل به. وحفظ المنسوخ فجنب عنه

وعرف الخاص والعام. والمحكم والمتشابه. فوضع كل شيء موضعه. وقد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه وسلم الكلام له وجهان: فكلام خاص، وكلام عام، فيسمعه من لا يعرف ما عنى الله سبحانه به ولا ما عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحمله السامع. ويوجهه على غير معرفة بمعناه. وما قصد به وما خرج به أجله. وليس كل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان يسأله ويستفهمه. حتى إن كانوا يحبون أن يجئ الأعرابي والطارئ فيسأله عليه الصلاة والسلام حتى يسمعوا. وكان لا يمر بي من ذلك شيء إلا سألت عنه وحفظته. فهذه وجوه ما عليه الناس في اختلافهم وعللهم في رواياتهم (١).

وقول الإمام إنه كان لا يمر به شيء من ذلك إلا سأل النبي عنه وحفظه له شواهد كثيرة. فعلاوة على أنه كان لا يفارق النبي في مواطن كثيرة. فإنه كان له من رسول الله صلى الله عليه وسلم مدخلان مدخل بالليل ومدخل بالنهار (٢) يقول له فيهما ما غاب عنه ويفسر له فيهما ما استفسر عنه. وحفظ علي رضي الله عنه لجميع ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء في حديث صحيح وذلك في قوله تعالى: (وتعيها أذن واعية) فعن علي قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: سألت الله أن يجعلها أذنك يا علي. فما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فنسيتها " (٣)، ولذا كان علي يقول: "إن ربي وهب لي قلبا عقولا ولسانا ناطقا " (٤)، وقال: "سلوني عن كتاب الله فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم بنهار في سهل أم في جبل " (٥)، وهذا كله كان لحكمة من ورائها هدف. وهذا الهدف يشع في أحاديث رواها أئمة الحديث عند قوله تعالى: (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد)

(١) ابن أبي الحديد ٥٩١ / ٣.

(٢) رواه النسائي ٢ / ١٢.

(٣) رواه الضياء بسند صحيح وابن مردويه وأبو نعيم (كنز العمال ١٧٧ / ١٣).

(٤) الطبقات الكبرى ٣٣٨ / ٢.

(٥) الطبقات ٣٣٨ / ٢.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الهادي هو علي بن أبي طالب " (١).
وبعد أن بين الإمام مصادر الرواية بين ما ترتب على ذلك من اختلاف:
ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام. فيحكم فيها برأيه. ثم ترد
تلك القضية بعينها على غيره. فيحكم فيها بخلاف قوله. ثم يجتمع القضاة بذلك
عند الإمام الذي استقضاهم. فيصوب آراءهم جميعا وإلهمم واحد ونبيهم واحد
وكتابهم واحد. أفأمرهم الله تعالى بالاختلاف فأطاعوه. أم نهاهم عنه فعصوا. أم
أنزل الله سبحانه دينا تاما فقصر الرسول عن تبليغه وأدائه. والله تعالى يقول: (ما
فرطنا في الكتاب من شيء) (٢)، وفيه تبيان كل شيء. وذكر أن الكتاب يصدق
بعضه بعضا وأنا لا اختلاف فيه: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا
كثيرا) (٣)، وأن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق. لا تفنى عجائبه. ولا تنقضي
غرائبه ولا تكشف الظلمات إلا به " (٤).

وبعد أن بين الإمام اختلاف الرواة وما ترتب عليه من اختلاف الفتوى. فتح
أبواب البحث: أيها الناس إنه من استنصح الله وفق. ومن اتخذ قوله دليلا هدى
لتي هي أقوم. فإن جار الله آمن. وعدوه خائف. وإنه لا ينبغي لمن عرف
عظمة الله أن يتعظم. فإن رفعة الذين يعلمون ما عظمت أن يتواضعوا له. وسلامة
الذين يعلمون ما قدرته أن يستسلموا له. فلا تنفروا من الحق نفار الصحيح من
الأجرب. والباري من ذي السقم. واعلموا أنكم لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا
الذي تركه. ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه. ولن تمسكوا به
حتى تعرفوا الذي نبذه. فالتمسوا ذلك عند أهله. فإنهم عيش العلم. وموت
الجهل، هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم. وصمتهم عن منطقتهم.
وظاهرهم عن باطنهم، لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه. فهو بينهم شاهد

(١) رواه ابن جرير (الفتح الرباني ١٨٥ / ١٨).

(٢) سورة الأنعام: الآية ٣٨.

(٣) سورة النساء: الآية ٨٢.

(٤) ابن أبي الحديد ٢٣٣ / ١.

صادق. وصامت ناطق " (١).

ومما سبق علمنا أن الإمام علي أمر بأخذ الخير وترك الشر. ثم بين ما في أيدي الناس من اختلاف الخبر. وما ترتب على ذلك من الاختلاف في الفتوى لتعدد الآراء. ثم فتح الإمام طريق البحث للوقوف على أسباب ذلك وقال: "واعلموا أنكم لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذي تركه" ثم ساق الباحث إلى كتاب الله ليقف عند الذي نقضه. ثم اختصر المسافة للتيسير على الباحث فبين أن المعرفة والأخذ بميثاق الكتاب والتمسك به جميع ذلك في دائرة "أهله" وهو قوله: "فالتمسوا ذلك عند أهله" وروي أنه قال في أول خطبة خطبها في خلافته: ألا إن أبرار عترتي وأطايب أرومتي. أحكم الناس صغارا. وأعلم الناس كبارا. ألا وإنا أهل بيت من علم الله علمنا. وبحكم الله حكمنا. ومن قول صادق سمعنا. فإن تتبعوا آثارنا تهتدوا ببصائرنا " (٢)، وقال: "نحن الشعار والأصحاب. والخزنة والأبواب. لا تؤتى البيوت إلا من أبوابها فمن آتاها من غير أبوابها سمي سارقا" (٣)، وقال في أهل البيت: "هم عيش العلم. وموت الجهل، يخبركم حلمهم عن علمهم. وظاهرهم عن باطنهم. وصمتهم عن حكمة منطقتهم. لا يخالفون الحق ولا يختلفون عليه. وهم دعائم الإسلام. وولائج الاعتصام" (٤).

ومن الطبيعي أن النص ورواية شعر المجون لا مجال لهما في هذه المساحة الزمنية والمكانية. ومن الطبيعي أن توجيه الدعوة للبحث يقتضي عودة الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولقد حث الإمام علي تدارس الحديث وقال: "تزاوروا وتدارسوا الحديث ولا تتركوه يدرس (أي اقرأوه

(١) ابن أبي الحديد ٢٠٣ / ٣.

(٢) ابن أبي الحديد.

(٣) ابن أبي الحديد ٢٤٧ / ٣.

(٤) ابن أبي الحديد ٢٨٧ / ٤.

وتعهدوه لئلا تنسوه (١)، وحذر الإمام من خلط الحديث بما كان يجري بالساحة من فعل وخلافة. فقال: "تعلموا العلم. فإذا علمتموه فاكظموا عليه. ولا تخالطوه بضحك وباطل فتمحه القلوب (٢) وزيادة في الاحتياط رد كل علم إلى عالمه حتى لا تخرق الرواية فقال: "إذا قرأت العلم على العالم فلا بأس أن ترويه عنه" (٣)، ثم بشر الذين يروون الحديث فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم ارحم خلفائي (ثلاث مرات) قيل يا رسول الله: ومن خلفاؤك؟ قال: الذين يأتون من بعدي ويروون أحاديثي ويعلمونها للناس" (٤). أما بخصوص انسحاب القص روي عن أبي البحتري: قال: دخل علي بن أبي طالب المسجد، فإذا رجل يخوف. فقال: ما هذا؟ قالوا: رجل يذكر الناس. فقال: ليس برجل يذكر الناس. ولكنه يقول: أنا فلان بن فلان اعرفوني. فأرسل إليه. فقال: أتعرف الناسخ من المنسوخ، قال: لا، فقال أمير المؤمنين: فاخرج من مسجدنا ولا تذكر فيه (٥). وروى مسدد بسند صحيح عن سعيد بن هند. أن عليا مر بقاص فقال: ما يقول؟ قالوا: يقص، قال: لا ولكن يقول اعرفوني (٦)، وعن أبي يحيى قال: مر علي وأنا أقص فقال: هل عرفت الناسخ من المنسوخ؟ قلت: لا، قال: أنت أبو اعرفوني" (٧).

والسياسة الإعلامية (إعرفوني) هي التي تقدم الناس إلى العامة بعد أن تنسج حولهم خيوطا براقة كما ساعدت على إيجاد شخصيات خرافية وقصص خرافية تخدم مصالح معينة. وكما انسحب القص انسحب شعر الجاهلية والأديرة

(١) الخطيب (كنز العمال ٣٠٤ / ١٠).

(٢) عبد الله بن الإمام أحمد والخطيب (كنز العمال ٣٠٤ / ١٠).

(٣) المرهبي (كنز العمال ٢٩٤ / ١٠).

(٤) الطبراني والخطيب والديلمي وابن النجار (كنز العمال ٢٩٥ / ١٠).

(٥) العسكري والمرزوي (كنز العمال ٢٨١ / ١٠).

(٦) مسدد (كنز العمال ٢٨٢ / ١٠).

(٧) المرزوي (كنز العمال ٢٨١ / ١٠).

والخمور، وروى ابن أبي الحديد. أن عليا كان يأمر بمحاربة شعراء أهل الشام الذين يروجون شعر الأديرة، وروى أن كعب بن جعيل عندما شرب الخمر وأقام علي بن أبي طالب عليه الحد. غضب ولحق بمعاوية وهجا عليا " (١)، ولما كانت الخمور زادا للشعراء والقصاصين فإن أمير المؤمنين حرق مركز صناعتها وذلك فيما رواه ربيعة بن زكار قال: نظر علي بن أبي طالب إلى قرية. فقال: ما هذه القرية؟ قالوا: قرية تدعى زرارة يلحن فيها ويبيع فيها الخمر. فأتاها بالنيران وقال: إضرموها: فإن الخبيث يأكل بعضه بعضا. فاحترقت (٢)، وكان علي رضي الله عنه يوصي الشعراء بتعلم القرآن.

وإذا كانت الإصلاحات العلوية قد شملت عزل الأمراء والتسوية في الأموال والرحمة بالإنسان والحيوان والعودة إلى رواية العلم كما كان على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فإن هذه الإصلاحات فتحت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أبوابا دخلت منها أصناف من الصدود. فنبلأ قريش وطبقتها العليا منهم من وجد أن عليا ساوى بينه وبين الطبقة السفلى فتحركت فيهم مشاعر لا تختلف كثيرا عن مشاعر الذين شعروا بالضجر يوم أن ساوى الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم وبين بلال وخباب وعمار وغيرهم. وهؤلاء إما فروا إلى معاوية في الشام وإما تفرغوا للكيد داخل القوات الإسلامية العلوية. ومنهم من وجد أن عودة الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ستظهر فضل علي بن أبي طالب لا محالة وستدين أطرافا أخرى بصورة من الصور فوجدوا أن السبيل لقطع هذا الطريق هو تشكيك الناس في علي بن أبي طالب بأنه ليس وحده من أهل البيت وأن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم من أهل البيت أيضا ولهن ماله وعليهن ما عليه وأن خروجه على إحداهن هو شق لصف أهل البيت. والذين ذهبوا إلى هذا المسلك استندوا على عمق مساحة اللارواية وما ترتب عليها من نسيان أو تناس للرواية فضلا على وجود جيل كامل في الأمصار

(١) ابن أبي الحديد ٧٩٩ / ١.

(٢) أبو عبيد (كنز العمال ٥٠٤ / ٥).

لم يسمع من النبي ولم يره وكثير منهم استمد علومه من فقهاء الأمراء وهي علوم لن تنصف علي بن أبي طالب في أكثر الأحوال.

ومنهم أيضا من كان يطمع في الكرسي بعد أن مهد يوم الشورى الطريق له كي يحلم بهذه الأحلام. ومن الأصناف الذين وجدوا في الإصلاح العلوي عقبة في طريقهم. صنف عمل على امتداد تاريخه في الجاهلية والإسلام من أجل الملك وحده. وذلك بعد استحواذ بني هاشم على مفاخر قريش في الجاهلية واختيار الله لهم في الإسلام. فهذه الأمور أصابت أطرافا أخرى بعقدة النقص. ولو ردوا كل شئ إلى الله ما أصابتهم هذه العقدة.

ونرى قبل تسليط الضوء على هذه الأمور أن نلقي نظرة سريعة على القيادة التي قامت بهذه الإصلاحات لنرى هل القيادة كانت تعمل من أجل الكرسي. أم أن المال مطلبها. أم أنها كانت قيادة الحجة. قيادة الزهد رداؤها وسيفها هو سيف الزهد ابتغاء وجه الله.

٣ - العالم العامل الزاهد:

يقول الإمام الزاهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "إني متكلم بعدة الله وحجته. قال الله تعالى: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة. أن لا تخافوا ولا تحزنوا...)، وقد قلت: "ربنا الله" فاستقيموا على كتابه. وعلى منهاج أمره. وعلى الطريقة الصالحة من عبادته. ثم لا تمرقوا منها. ولا تبدعوا فيها (١). ولا تخالفوا عنها. فإن أهل المروق منقطع بهم عند الله يوم القيامة" (٢)، وقال: "فالله الله معشر العباد. وأنتم سالمون في الصحة قبل السقم. وفي الفسحة قبل الضيق. فاسعوا فكاك رقابكم. من قبل أن تغلق رهائنها. اسهروا عيونكم. وأضمروا بطونكم. واستعملوا أقدامكم. وأنفقوا أموالكم. وخذوا من أجسادكم فجودوا بها على أنفسكم. ولا تبخلوا بها عنها. فقال قال

(١) أي لا تحدثوا ما لم يأت به الكتاب والسنة.

(٢) ابن أبي الحديد ٣٨٥ / ٣.

الله سبحانه: (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) (١)، وقال تعالى: (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم) (٢)، فلم يستنصركم من ذل. ولم يستقرضكم من قل. استنصركم وله جنود السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم. واستقرضكم وله خزائن السماوات والأرض وهو الغني الحميد. وإنما أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملا. فبادروا بأعمالكم تكونوا مع جيران الله في داره. رافق بهم رسله. وأزارهم ملائكته. وأكرم أسماعهم أن تسمع حسيس نار أبدا. وصان أجسادهم أن تلقى لغوبا ونصبا: " ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم " (٣).

مما سبق يتبين أن المتكلم حجة. همته بالله وشغله فيه وفراره إليه. وكان الإمام يقول مخاطبا ساحة عريضة اكتنز فيها الذهب والفضة " لطلب المال والثروة أسرع من خراب دين الرجل من ذئبين ضاريين باتا في حظيرة غنم. ما زالا فيها حتى أصبحا (٤)، وقال: " الزهد كله بين كلمتين من القرآن ". قال الله سبحانه: * (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) (٥)، ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه " (٦)، وقال: " فلا تنافسوا في عز الدنيا وفخرها. ولا تعجبوا بزيئها ونعيمها. ولا تجزعوا من ضرائها وبؤسها. فإن عزاها وفخرها إلى انقطاع. وزينتها ونعيمها إلى زوال. وضراءها وبؤسها إلى نفاد. وكل مدة فيها إلى انتهاء. وكل حي فيها إلى فناء. أوليس لكم في آثار الأولين مزدجر. وفي آباءكم الأولين تبصرة ومعتبر إن كنتم تعقلون. أولم تروا إلى الماضين منكم لا يرجعون. وإلى الخلف الباقين لا يبقون. أو لستم ترون أهل الدنيا يمسون ويصبحون على أحوال شتى: فميت ييكي. وآخر به يعزي

(١) سورة محمد: الآية ٧.

(٢) سورة الحديد: الآية ١١.

(٣) ابن أبي الحديد ٤٥٤ / ٣.

(٤) رواه العسكري في المواعظ (كنز العمال ٧١٨ / ٣).

(٥) سورة الحديد: الآية ٢٣.

(٦) ابن أبي الحديد ٧٩٥ / ٣.

وصريع مبتلي. وعائد يعود وآخر بنفسه وجود. وطالب للدنيا الموت يطلبه.
وغافل وليس بمغفول عنه.. " (١)، وقال: " أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي
ضرب الأمثال، ووقت لكم الآجال. وألبسكم الرياش (٢). وأرفع لكم
المعاش (٣). وأحاط بكم الاحصاء، وأرصد (٤) لكم الجزاء. وآثركم بالنعم
السوابغ، والرغد الروافغ (٥). وأنذركم بالحجج البوالغ (٦). فأحصاكم عددا.
ووظف لكم مددا. وفي قرارة خبرة. ودار عبدة. وأنتم مختبرون فيها.
ومحاسبون عليها " (٧).

فهكذا كان أمير المؤمنين يخاطب رقعة واسعة عليها العديد من النبلاء.
وكان أمير المؤمنين خير قدوة لسياسة الدنيا والآخرة. يقول الشعبي: دخلت
الكوفة وأنا غلام. فإذا أنا بعلي بن أبي طالب قائما على صبرتين (٨) من ذهب
وفضة. ومعه محففة. وهو يطرد الناس بمحففته. ثم يرجع إلى المال فيقسمه.
بين الناس. حتى لم يبق منه شيئا. ثم انصرف ولم يحمل إلى بيته قليلا ولا
كثيرا. فرجعت إلى أبي فقلت له: لقد رأيت اليوم خير الناس أو أحق الناس.
قال: من هو يا بني؟ قلت: علي بن أبي طالب أمير المؤمنين. رأيت يصنع كذا.
فقصصت عليه، فبكي أبي وقال: يا بني بل رأيت خير الناس (٩)، وروى ابن كثير
عن ابن عنترة عن أبيه قال: دخلت على علي بن أبي طالب وعليه قطيفة وهو يرعد
من البرد. فقلت: يا أمير المؤمنين. إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك نصيبا في هذا
المال وأنت ترعد من البرد. فقال: إني والله لا أرزأ من مالكم شيئا. وهذه

(١) ابن أبي الحديد ٦٣٢ / ٢.

(٢) الرياش / اللباس.

(٣) أرفع / أي واسعا خصبا.

(٤) أرصد / أي أعد.

(٥) الرغد الروافغ / الواسعة.

(٦) أي الظاهرة المبنية.

(٧) ابن أبي الحديد ٤٢٩ / ٢.

(٨) أي ما جمع بلا كيل ولا وزن.

(٩) ابن أبي الحديد ٤١٤ / ١.

القطيفة هي التي خرجت بها من بيتي - أو قال - من المدينة (١)، وروى أن عليا قال: أيها الناس والله الذي لا إله إلا هو ما رزأت من مالكم قليلا ولا كثيرا إلا هذه. وأخرج قارورة من كم قميصه فيها طيب وقال: أهداها إلي داهقان (٢) وروى أنه كان يختم على الجراب الذي فيه دقيق الشعير الذي يأكل منه. ويقول: لا أحب أن يدخل بطني إلا ما أعلم (٣)، وروى أنه لم يبن آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة وكان يأتي بحبوية من المدينة في جراب ليأكل منها (٤) وروى أنه كان يكنس بيت المال كل جمعة ويصلي فيه ركعتين ويقول: ليشهد لي يوم القيامة (٥).

والإمام علي بن أبي طالب لم يطالب بفدك وهي حقه. ليس لأن الزمان كان زمان ثورة على المال والذهب والفضة ومطالبته بها سيفتح عليه أبوابا. وإنما لأن فدك كانت ابتلاء لعصر. وإذا كان الإمام لم يأخذ حقه ومفتاح بيت المال في يده. فهو أيضا لم يطالب بفدك وهو على رأس السلطة. وذلك لأنه كان يتعامل مع الأحداث من باب إقامة الحجة ووفقا لمتطلبات الدعوة أما عن أمواله روى أنه قال: " بلى كانت في أيدينا فدك. من كل ما أظلمته السماء. فشحت عليها نفوس قوم. وسخت عنها نفوس آخرين. ونعم الحكم الله. وما أصنع بفدك وغير فدك " (٦)، وشرح ابن أبي الحديد كلام الإمام فقال: أبي لا مال لي. ولا اقتنيت فيما مضى مالا. وإنما كانت في أيدينا فدك. فشحت عليها نفوس قوم (أي نحلت) وسخت عنها نفوس آخرين. (أي سامحت واغضت)، ثم بين الإمام بعد ذلك. أن تقلله واقتصاره من المطعم والملبس على الجشب والخشن رياضة لنفسه. وأنه يعمل ذلك خوفا من الله. فالرياضة هنا هي رياضة في الحقيقة

(١) البداية والنهاية ٣ / ٨.

(٢) رواه مسدد والحاكم (كنز العمال ١٦٨ / ١٣).

(٣) الكامل ٢٠١ / ٣.

(٤) الكامل ٢٠١ / ٣.

(٥) الإمام أحمد في الزهد (كنز العمال ١٨٢ / ١٣).

(٦) ابن أبي الحديد ٨٢٣ / ٤.

بالتقوى لا بنفس التقلل والتكشف. لتأتي نفسه آمنة يوم الفرع الأكبر وتثبت في مداحض الزلق (١).

وهكذا ترك الإمام الذي له. وعلى مقربة منه جاء قوم ليأخذوا ما ليس لهم. ليكون الذي للإمام حجة عليهم ولقد رأينا مما سبق بعض معالم الحكومة الدينية التي تفتح أبواب التوبة فترسى قواعد حرية الإنسان مما يتوافق مع فطرته التي فطره الله عليها. ولقد رأينا أن الإمام لم يفرض نفسه ولم يهدد معارضييه. ونشر العلم ولم يتصد للقصاصين وغيرهم بقوة السلاح وإنما بقوة الحجّة. ولم يبعث العمال على الأمصار لهدف جمع الأموال وإنما ليكونوا دعاة رحمة يستظل بها الإنسان والحيوان. وكان الإمام أمام هذه المساحة الطويلة والعريضة قدوة ومثل أعلى للعامة والخاصة.

(١) ابن أبي الحديد ٨٢٤ / ٤.

ثانيا - البغاة والقمر

بعد مقتل عثمان انطلق النعمان بن بشير بقميص عثمان إلى معاوية. وفي الشام بدأ إعلام معاوية يعبأ الناس حول القميص. وعندما اطمئن معاوية لنتيجة سياسته الإعلامية. روى ابن كثير أنه بعث رجلا فدخل على علي بن أبي طالب. وعندما قال له علي: ما وراءك؟ قال: جئتك من عند قوم لا يريدون إلا القود. كلهم موتور. تركت سبعين ألف شيخ يكون تحت قميص عثمان وهو على منبر دمشق. فقال علي: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان (١).

لقد كانت هذه رسالة مبكرة من معاوية بعد أن أراد أمير المؤمنين عزله من على الشام. وبدأ إعلام بني أمية يث في الأمصار أن عثمان قتل مظلوما وأن عليا اشترك في دمه. وعندما علم أمير المؤمنين بهذا قال: " أولم ينه بني أمية علمها عن قرفي؟ أو ما وزع الجهال سابقتي عن تهمتي؟ ولما وعظّمهم الله به أبلغ من لساني. أنا حجيح المارقين. وخصيم الناكثين المرتابين. وعلى كتاب الله تعرض الأمثال. وبما في الصدور نجازي العباد قال ابن أبي الحديد ومعناه: أما كان في علم بني أمية بحالي ما ينهاها عن قرفي بدم عثمان. وذكر أن علمهم بها يقتضي ألا يقرفوه بذلك. وحاله التي يعلمها بنو أمية. هي منزلته في الدين التي لا منزلة

(١) البداية والنهاية ٢٣٠ / ٧.

أعلى منها. وما نطق به الكتاب الصادق من طهارته وطهارة بنيه وزوجته في قوله: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا" وأيضا قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أنت مني بمنزلة هارون من موسى" وذلك يقتضي عصمته عن الدم الحرام كما أن هارون معصوم عن مثل ذلك... فكيف ساغ لأعداء أمير المؤمنين. مع علمهم بمنزلته العالية في الدين التي لم يصل إليها أحد من المسلمين. أن يطلقوا ألسنتهم فيه وينسبوه إلى قتل عثمان أو الممالة عليه. لا سيما وقد ثبت عندهم أنه كان من أنصاره لا من المجلبين عليه. ثم قال: إن الذي وعظهم الله تعالى به في القرآن. من تحريم الغيبة والقذف وتشبيه ذلك بأكل لحم الميت أبلغ من وعظي لهم. لأنه لا عظة أبلغ من عظة القرآن. ثم قال: أنا حجيح المارقين وخصيم المرتابين يوم القيامة وروي عنه أنه قال: أنا أول من يجثوا للحكومة بين يدي الله تعالى"، ثم أشار إلى ذلك بقوله: على كتاب الله تعرض الأمثال. يريد بذلك قوله تعالى: (هذان خصمان اختصموا في ربهم) (١)، ثم قال: إن كنت قتلت عثمان أو مالأت عليه. فإن الله سبحانه سيجازيني بذلك. وإلا فسوف يجازى بالعقوبة والعذاب من اتهمني به ونسبني إليه (٢).

لقد أرادوا باتهام أمير المؤمنين في دم عثمان أمورا منها: إخراجهم من دائرة التطهير التي ستظهرها رواية الحديث في عهده، وهم يريدون إخراجهم من هذه الدائرة ليسهل عليهم مواجهته وتعبئة العامة من حولهم على اعتبار أنهم أولياء عثمان والأحق به. أي يجردونه من الرداء الذي وضعه عليه الله ورسوله. بينما يكون على أبدان بني أمية رداء تأويل قوله تعالى: (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل) (٣)، فيكونون هم في دائرة الدين. ويكون أمير المؤمنين واحدا من الناس حرص على الحكم ليجعله في أعقابه.

(١) سورة الحج: الآية ١٩.

(٢) ابن أبي الحديد ٣٧٩ / ٢.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٣٣.

ولقد بلغ الإعلام الأموي مداه حتى أن الأمر قد التبس عند العديد من الصحابة فهذا زيد من أرقم يقول لأmir المؤمنين علي، أنشدك الله، أنت قتلت عثمان؟ فأطرق الإمام ساعة ثم قال: والذي فلق الحبة. وبرأ النسمة ما قتلت ولا أمرت بقتله (١). وأمام طوفان الإعلام الأموي خطب الإمام علي في الناس فقال: لو أمرت به لكنت قاتلاً. أو نهيت عنه لكنت ناصراً. غير أن من نصره لا يستطيع أن يقول: خذله من أنا خير منه. ومن خذله لا يستطيع أن يقول: نصره من هو خير مني. وأنا جامع لكم أمره. استأثر فأساء الأثرة. وجزعتم فأسأتم الجزع. ولله حكم واقع في المستأثر والجازع (٢). وخلاصة هذا الكلام: أنه فعل ما لا يجوز وفعلتم ما لا يجوز. أما هو فاستأثر فأساء الأثرة. أي استبد بالأمر فأساء في الاستبداد. وأما أنتم فجزعتم مما فعل. أي حزنتم فأسأتم الجزع. لأنكم قتلتموه. وقد كان الواجب عليه أن يرجع عن استثنائه. وكان الواجب عليكم ألا تجعلوا جرائه عما أذنب القتل. بل الخلع والحبس وترتيب غيره في الإمامة. ثم قال: ولله حكم سيحكم به فيه وفيكم (٣).

وأما هذه الأحداث طلب منه قوم من أصحابه أن يعاقب من أجلب على عثمان. ولكن من هؤلاء الذين سيعاقبهم الإمام؟ وهناك من مهد ومن أفتى ومن ناصر القتلة ومن خذل المقتول ومن قتل. ولهذا قال الإمام لأصحابه: يا إخواني، إني لست أجهل ما تعلمون. ولكن كيف لي بقوة والقوم المجلبون على حد شوكتهم يملكوننا ولا نملكهم!! دهاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم والتفت إليهم أعرا بكم (٤) (لاحظ أن المجلبين هنا ليسوا في جيش الإمام) وهم خلالكم (٥) يسومونكم (٦) ما شاؤوا. وهل ترون موضعاً لقدرة على شيء تريدونه؟

(١) رواه الحاكم (المستدرک ١٠٦ / ٣).

(٢) ابن أبي الحديد ٣٦٣ / ١.

(٣) ابن أبي الحديد ٣٦٥ / ١.

(٤) أي انضمت واحتلقت بهم.

(٥) أي بينكم.

(٦) أي يكلفونكم.

إن هذا الأمر أمر جاهلية. وإن لهؤلاء القوم مادة. إن الناس من هذا الأمر إذا حرك على أمور: فرقة ترى ما ترون. وفرقة ترى ما لا ترون. وفرقة لا ترى هذا ولا هذا. فاصبروا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها. وتؤخذ الحقوق مسمحة. فأهدأوا عني (١)، وانظروا ماذا يأتيكم به أمري. ولا تفعلوا فعلة تضعضع قوة (٢). وتسقط منه (٣). وتورث وهنا (٤) وذلة. وسأمسك الأمر ما استمسك وإذا لم أجد بدا فآخر الدواء الكي (٥). قال ابن أبي الحديد: واعلم أن هذا الكلام يدل على أنه كان في نفسه عقاب الذين حصروا عثمان والاقتصاص ممن قتله. ولهذا قال: إني لست أجهل ما تعلمون. فاعترف بأنه عالم بوجوب ذلك. واعتذر بعدم التمكن كما ينبغي. وصدق في ذلك. فإن أكثر أهل المدينة أجلبوا عليه... ولا يأمن لو شرع في عقوبة الناس والقبض عليهم. من تجدد فتنة أخرى كالأولى وأعظم. فكان الأصوب في التدبير. والذي يوجب الشرع والعقل. الإمساك إلى حين سكون الفتنة... وكان يأمل أن يطيعه معاوية وغيره وأن يحضر بنو عثمان عنده يطالبون بدم أبيهم. ويعينون قوما بأعيانهم. بعضهم للقتل. وبعضهم للحصار. وبعضهم للتشور. كما جرت عادة المتظلمين إلى الإمام والقاضي. فحينئذ يتمكن من العمل بحكم الله تعالى. ولكن الأمر لم يقع على هذا النحو. وعصى معاوية وأهل الشام. والتجأ ورثة عثمان إليه. وفارقوا أمير المؤمنين. ولم يطلبوا القصاص طلبا شرعيا. وإنما طلبوه مغالبة. وجعلها معاوية عصبية جاهلية. ولم يأت أحد منهم الأمر من باب. وقد قال أمير المؤمنين لمعاوية فيما بعد: (فأما طلبك قتلة عثمان فادخل في الطاعة. وحاكم القوم إلي أحملك وإياهم على كتاب الله وسنة رسوله... وهذا عين الحق. ومحض الصواب لأنه يجب دخول الناس في طاعة الإمام ثم تقع المحاكمة

(١) أي فاسكتوا.

(٢) أي تضعف وتهل.

(٣) منة / القوة.

(٤) وهن / ضعف.

(٥) ابن أبي الحديد ٣٣٩ / ١، الطبري حوادث عام ٣٥.

إليه (١). ولكن بني أمية ما كانوا يريدون حقا لأن الحق وضعهم ورفع غيرهم. وجوهر الأمر لم يكن قتلة عثمان وإنما الملك وكان الإمام علي يعلم هذا ولهذا قال: " وسأمسك الأمر ما استمسك. فإذا لم أجد بدا فآخر الدواء الكي " أي: أمسك نفسي عن محاربة هؤلاء الناكثين للبيعة ما أمكنني وأدفع الأيام بمراسلتهم وتخويفهم وإنذارهم. واجتهد في ردهم إلى الطاعة بالترغيب والترهيب. فإذا لم أجد بدا من الحرب. فآخر الدواء الكي. أي الحرب. لأنها الغاية التي ينتهي أمر العصاة إليها.

لقد كان الإمام يعلم أن هؤلاء هدفهم الحكم وليس قميص عثمان إلا رمزا وشعارا، ولهذا قال: لو أعلم أن بني أمية يذهب ما في نفوسها. لحلفت لهم خمسين يمينا مردودة بين الركن والمقام. أني لم أقتل عثمان. ولم أمال على قتله (٢) وقال: " أما بنو أمية هيهات هيهات أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو كان الملك من وراء الجبال. لثبوا عليه حتى يصلوا " (٣)، والإمام قال ذلك لأنه سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخبر بالغيب عن ربه جل وعلا. فعن ثروان قال: كنا جلوسا في المسجد. فمر علينا عمار بن ياسر. فقلنا له: حدثنا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفتنة. فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يكون بعدي قوم يأخذون الملك. يقتل عليه بعضهم بعضا. قلنا له: لو حدثنا غيرك ما صدقناه قال: فإنه سيكون (٤) فالملك لو كان من وراء الجبال لو ثب عليه بنو أمية. ولا يقتلون عليه من خالفهم إن كان من غيرهم فقط. وإنما يقتلون أيضا بعضهم بعضا عليه. وفي نص سابق علمنا أن الإمام عليا أخذ على نفسه أن يرأسل القوم

(١) ابن أبي الحديد ٣٤٠ / ٣.

(٢) اللالكائي (كنز العمال ٩١ / ١٣).

(٣) ابن عساكر (كنز العمال ٣٦٤ / ١١).

(٤) رواه أحمد (الفتح الرباني ٢٤ / ٢٣) وقال الهيثمي رواه أحمد والطبراني وأبو يعلى

ورجاله ثقات (الزوائد ٢٩٢ / ٧).

وينذرهم ويجهدهم في ردهم إلى الطاعة. وقد فعل رضي الله عنه ذلك ليقوم على الظالمين الحجة أمام الله جل وعلا. وروى أنه كتب إلى معاوية: " أما بعد. فقد علمت إعداري فيكم. وإعراضي عنكم. حتى كان ما لا بد منه ولا دفع له. والحديث طويل. والكلام كثير. وقد أدبر ما أدبر. وأقبل ما أقبل. فبايع من قبلك. وأقبل إلي في وفد من أصحابك " (١)، لقد أقام الحجة وهو يعلم أن معاوية له يبايع. وكيف يبايع وعينه طامحة إلى الملك والرئاسة منذ أمره عمر على الشام. ومن خلفه وصية أمه وأبيه. وكيف يطيع عليا وبين علي بن أبي طالب وبين النبي صلى الله عليه وسلم مساحة واسعة من اللارواية ومساحة أوسع من القص وعليها من المحرضين على علي أكثر من عدد الحصى ويكفي الوليد بن عقبة الذي بعث إلى معاوية يقول:

فوالله ما هند بأملك إن مضى * النهار ولم يثأر بعثمان نائر
أيقول عبد القوم سيد أهله * ولم تقتلوه ليت أملك عاقر
يقول ابن أبي الحديد: وتالله لو سمع هذا التحريض أجبن الناس وأضعفهم
نفسا وأنقصهم همه لحركه وشحذ من عزمه فكيف معاوية. وقد أيقظ الوليد
بشعره من لا ينام (٢) ولم يكتف أمير المؤمنين برسالة واحدة إلى معاوية. وإنما
بعث إليه بأكثر من رسالة بعد بيعته بخصوص دم عثمان. وفي رسالة قال له:
ولعمري يا معاوية. لئن نظرت بعقلك دون هواك. لتجدني أبرأ الناس من دم
عثمان. ولتعلمن أنني كنت في عزله عنه. إلا أن تتجنى. فتجن ما بدا لك.
والسلام (٣).

ولم يكف الإعلام الأموي عن الباطل بل بعث إلى مكة وبقية
الأمصار بمن يحملون إذاعته ويعملون من أجل شق صف الأمة.
وفي هذا الوقت استأذن طلحة والزبير عليا في العمرة فأذن لهما فلحقا

(١) ابن أبي الحديد ٢٤٧ / ٥.

(٢) ابن أبي الحديد ٢٤٨ / ٥.

(٣) ابن أبي الحديد ٣١١ / ٤.

بمكة (١) وبدأ أهل المدينة يحومون حول أمير المؤمنين، ليعرفوا رأيه في معاوية، وقتال أهل القبلة. أيجسر عليه أم ينكل عنه. ووجد أهل المدينة في زياد بن حنظلة التميمي ضالتهم المنشودة. فدسوا زيادا إلى علي وكان من الذين يدخلون عليه. وذات يوم قال أمير المؤمنين لزياد: يا زياد تيسر. فقال: لأي شيء. فقال الإمام: تغزو الشام فخرج زياد على الناس والناس ينتظرونه. فقالوا: ما وراءك؟ قال: السيف يا قوم (٢) وبدأ الإمام علي يجهز قواته ليضرب الفرقة وطلاب الملك عند المهد وقبل أن يستفحل الأمر. وخطب أهل المدينة. فدعاهم إلى النهوض في قتال أهل الفرقة. وقال: إن الله عز وجل بعث رسولا هاديا مهديا بكتاب ناطق. وأمر قائم واضح. لا يهلك عنه إلا هالك. وإن المبتدعات والشبهات هن المهلكات. إلا من حفظ الله. وإن في سلطان الله عصمة أمركم. فاعطوه طاعتكم غير ملتوية. ولا مستكره بها. والله لتفعلن أو لينقلن الله عنكم سلطان الإسلام. ثم لا ينقله إليكم أبدا حتى يأمر الأمر إليها. إنهمضوا إلى هؤلاء القوم الذين يريدون يفرقون جماعتكم لعل الله يصلح بكم ما أفسد أهل الآفاق وتقضون الذي عليكم (٣)، وبينما كان أمير المؤمنين يحشد القوة لمواجهة أهل الشام (٤) جاءه الخبر أن مكة قد هاجت وأن أم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير لهم رأي آخر، واشتد على أهل المدينة الأمر!!

١ - ضجيج في أعماق الحجة:

كانت مكة منطلقا للأحداث بين أم المؤمنين عائشة وبين أمير المؤمنين علي، وبالنظر في خطب أمير المؤمنين بعد نكث طلحة والزبير وخروج أم المؤمنين عائشة. ترى أن جميع الخطب تدور على محور واحد هو: "... فإنه لما قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم. قلنا: نحن أهله وورثته وعترته.

(١) ابن أبي الحديد ١٦٣.

(٢) الطبري ١٦٣ / ٥.

(٣) الطبري ١٦٤ / ٥.

(٤) الطبري ١٦٩ / ٥.

وأولياؤه من دون الناس. لا ينازعنا سلطانه أحد ولا يطمع في حقنا طامع. إذ انبرى لنا قومنا فغصبونا سلطان نبينا. فصارت الإمرة لغيرنا. وصرنا سوقة. يطمع فينا الضعيف. ويتعزز علينا الذليل..... " (١)، وفي جميع هذه الخطب يبين الإمام مبايعة الناس له بعد مقتل عثمان وأن من بين الذين بايعوه طلحة والزبير. وقد نكثا وغدرا ونهضا إلى البصرة بعائشة ليفرقا الجماعة. والباحث لا يعلم حقيقة الأحداث التي دعت أمير المؤمنين أن يطرح قضية الخلافة في ساحة تواجهه فيها السيدة عائشة. وقبل هذه الأحداث كانت خطب أمير المؤمنين تدور حول الإصلاح وفي قليل منها كان يشيد بأهل البيت.

والذي يمكن أن يؤكد البحث العلمي هو أن علاقة السيدة عائشة بأمير المؤمنين لم تكن على المستوى المطلوب وهذه العلاقة كان النبي صلى الله عليه وسلم يقيم عليها الحجة في عهده لما سترتب عليها. من ذلك ما رواه ابن حجر عن معاذة الغفارية قالت: كنت أخرج مع رسول الله في الأسفار. أقوم على المرضى، وأداوي الجرحى. فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت عائشة وعلي خارج من عندها. فسمعتة يقول لعائشة: إن هذا أحب الرجال إلي وأكرمهم علي فاعرفي له حقه وأكرمي مثواه " (٢)، وعن رافع مولى عائشة قالت: كنت غلاما أخدمها إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها. وإنه قال: " عادى الله من عادى عليا " (٣). وكانت السيدة عائشة تعلم علم اليقين موضع علي وفاطمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فعن النعمان قال: استأذن أبو بكر صلى الله عليه وسلم. فسمع صوت عائشة عاليا وهي تقول: والله لقد عرفت أن عليا وفاطمة أحب إليك مني ومن أبي - مرتين أو ثلاثا - فاستأذن أبو بكر فأهوى إليها فقال: " يا بنت فلانة لا أسمعك ترفعين صوتك على رسول الله صلى الله عليه وسلم " (٤).

(١) راجع هذه الخطب في ابن أبي الحديد ٢٤٨ / ١ وما بعدها.

(٢) الإصابة ١٨٣ / ٨.

(٣) أخرجه ابن منده بسند صحيح (الإصابة ١٩١ / ٢).

(٤) رواه الإمام أحمد وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الفتح الرباني ٤ / ٢٧٥) (الزوائد ٢٠١ / ٩).

فالنبي صلى الله عليه وسلم أقام الحجة في هذا الأمر. والسيدة عائشة عرفت بهذه الحجة وأقرت. والملاحظ أن العلاقة بين السيدة عائشة وبين أمير المؤمنين علي لم تتقدم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فعندما ذكر عندها: هل أوصى النبي صلى الله عليه وسلم إلى علي؟ قالت: ما قاله؟ (١)، ثم أخبرت بأن الرسول توفي بين سحرها ونحرها وقال: فمتى أوصى؟ ولقد بينا من قبل أن هناك طائفة من الأحاديث الصحيحة أيضا تقول بأن النبي صلى الله عليه وسلم توفي وهو مستند إلى صدر علي وهو الذي غسله. وبعيدا عندما يتعلق بقضية الخلافة. نرى أن السيدة عائشة وهي تصف ذهاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيتها عند مرضه تقول: فخرج وهو بين رجلين تخط رجلاه في الأرض. بين عباس بن عبد المطلب وبين رجل آخر. الأمر الذي جعل ابن عباس يقول: هل تدري من الرجل الآخر الذي لم تسم عائشة: هو علي (٢)، ومن الدليل على أن العلاقة لم يحدث فيها تقدم على المستوى المطلوب قول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي: إنه سيكون بينك وبين عائشة أمر. قال: أنا يا رسول الله! قال: نعم (٣).

ولما كانت الدعوة لا تجامل أحدا. فإن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أصحابه بأن الفتن الكبرى ستكون على أيديهم. وقال: "إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم" (٤)، ولم يستثن أزواجه من هذا وإنما قال: "لا إله إلا الله ما فتح الليلة من الخزائن. لا إله إلا الله ما أنزل من الفتن. من يوقظ صواحب الحجرات رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة" قال البخاري: "يريد به

-
- (١) رواه البخاري (الصحيح ٩٥ / ٣) ك المغازي باب مرض النبي.
(٢) البخاري ك المغازي، ب مرض النبي (الصحيح ٩٣ / ٣) ومسلم (الصحيح ١٣٩ / ٤).
(٣) رواه الإمام أحمد (المسند ٦ / ٣٩٣) والبخاري (كشف الأستار ٤ / ٩٤) وقال الهيثمي ورجاله ثقات (الزوائد ٢٣٤ / ٧).
(٤) رواه البخاري (الصحيح ٣٢٢ / ١)، ومسلم (الصحيح ١٨ / ٧).

أزواجه " (١)، لقد أقام النبي صلى الله عليه وسلم الحجة على منطقة الاختيار في الإنسان. وفي علم الله المطلق أن كثيرا من الصحابة لن يلتفتوا إلى هذه الحجة وهذا التحذير، ولكن العلم المطلق يقابله تحذير مطلق. وهذه سنة إلهية جارية منذ أن بعث الله تعالى رسله حتى لا يكون للناس على الله حجة. والنبي صلى الله عليه وسلم عندما قال لعلي: "سيكون بينك وبين عائشة أمر. بين صلى الله عليه وسلم طريق هذا الأمر لتأخذ السيدة عائشة حذرهما إذا سلكت هذا الطريق فقال لنسائه: ليت شعري. أيتكن صاحبة الجمل الأدب. تخرج فتنبحها كلاب الحوآب. يقتل عن يمينها ويسارها قتلى كثير " (٢).

وفي رواية قال لعائشة: إياك يا حميراء (٣) وكان عند حذيفة خبر هذه الرحلة. لأنها في علم الله المطلق واقعة لا محالة ووقوعها لا ينفي ولا يقلل من وجود الحجة على بداية الطريق. قال حذيفة لرجل: ما فعلت أمك؟ قال: قد ماتت. فقال: أما إنك ستقاتلها. فعجب الرجل من ذلك حتى خرجت عائشة (٤). ونظرا لاتساع وعمق مساحة اللارواية وما نتج عنها. كان حذيفة يقول: لو حدثكم أن أمكم تغزوكم أتصدقوني؟ قالوا: أو حق ذلك! قال: حق (٥). وكان حذيفة يقول في مساحة اللارواية: لو حدثكم ما أعلم لافترقتم على ثلاث فرق. فرقة تقاتلني، وفرقة لا تنصروني، وفرقة تكذبني (٦). ولهذا اختصر حذيفة الطريق وأوصى الناس بأن يلزموا عمارا لأنه علم أن عمارا لا يفارق عليا. فإن لزموا عمارا لزموا عليا.

-
- (١) رواه أحمد والبخاري والترمذي (الفتح الرباني ٣٤ / ٢٣) (صحيح البخاري ك اللباس ٣٣، ٨٤ / ٤)، (جامع الترمذي ٤٨٨ / ٤).
(٢) رواه البزار (كشف الأستار ٤ / ٩٤) وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٧ / ٢٣٤).
(٣) رواه أبو نعيم بسند صحيح (كنز العمال ٣٣٤ / ١١).
(٤) رواه ابن أبي شيبة (كنز العمال ٣٣٣ / ١١).
(٥) رواه أبو نعيم وابن عساكر (كنز العمال ٢١٨، ٣٣٣ / ١١).
(٦) رواه ابن أبي شيبة (كنز العمال ٢٢٧ / ١١).

وعلى الرغم من أن مساحة اللارواية قد عتمت على تحذيرات كثيرة وتبشيرات أكثر، إلا أن الحجة كانت قائمة حتى في هذه العتمة. وكان العديد من الصحابة يعلمون أن لهم يوما يتلون فيه وأن الجمل سيكون علامة ناصعة في هذا اليوم. فعن عمير بن سعيد قال: كنا جلوسا مع ابن مسعود وأبو موسى عنده. فأخذ الوالي رجلا فضربه وحمله على جمل، فجعل الناس يقولون: الجمل الجمل. فقال رجل: يا أبا عبد الرحمن هذا الجمل الذي كنا نسمع؟ قال: فأين البارقة (١).

فمن هذا كله نستطيع القول بأن الحجة على الأحداث قد قامت على الجيل الأول وذلك في إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بالغيب عن ربه جل وعلا. ويمكن أن نقول: إن الضجيج الذي حدث في مكة وإن كان مظهره يحمل قميص عثمان. إلا أن جوهره بخلاف ذلك. فالذين نكثوا البيعة أرادوا شق الأمة بوضع السيدة عائشة في أعلى مربع أهل البيت ليقطعوا الطريق على علي بن أبي طالب. والدليل على ذلك ما حدث أثناء الهياج عندما هب الناس للبحث عن الحقيقة. فلقد ذهبوا إلى أكابر الصحابة وقتئذ ليعرفوا من هم أهل البيت. روى الإمام مسلم أن يزيد بن حبان وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم. ذهبوا إلى زيد بن أرقم فقال له حصين: من أهل بيته يا زيد. أليس نساؤه من أهل بيته. فقال زيد: لا - وفي رواية - نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده " (٢)، قال النووي: نساؤه لا يدخلن فيمن حرم الصدقة (٣). وسيأتي متابعة حرمة الناس في هذا الوقت في حينه.

ومن الدليل أيضا على أن المقصود من حركة الناكثين الإطاحة بعلي من دائرة أهل البيت. أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بأن هذا الالتباس سيحدث. وأوصى بعلي. وذلك فيما رواه حذيفة قال: كيف أنتم وقد خرج أهل بيت نبيكم صلى الله عليه وسلم فرقتين. يضرب بعضهم وجوه بعض. قالوا:

(١) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الزوائد ٢٣٧ / ٧).

(٢) رواه مسلم (الصحيح ١٧٩ / ١٥) في فضل علي ما.

(٣) النووي شرح مسلم (١٨٠ / ١٥)

يا أبا عبد الله. وإن هذا لكائن! وقال بعض أصحابه: فكيف نصنع إن أدركنا ذلك الزمان؟ قال: انظروا الفرقة التي تدعوا إلى أمر علي فالزموها فإنها على الهدى (١).

وعلى هذا وذاك يمكن القول بأن الناكثين خلطوا الأمور أمام السيدة عائشة. فخرجت للإصلاح ولكنهم ساروا بها في طريق شق الصف. وعندما نبحت عليها كلاب الحوآب. أرادت الرجوع ولكنهم قالوا لها: تقدمي ويراك الناس ويصلح الله عزو جل ذات بينهم (٢). وتقدمت السيدة عائشة. ومن ورائها تحذير يخوفها من الشيطان. روى البخاري عن عبد الله قال قال النبي صلى الله عليه وسلم خطيباً فأشار نحو مسكن عائشة فقال: "ها هنا الفتنة - ثلاث مرات - من حيث يطلع قرن الشيطان" (٣)، لقد كانت الأهواء تحيط بمسكن أم المؤمنين. ويريد أصحابها شق الصف أولاً: ليبحث كل صاحب هوى عن كرسي له ثانياً: يركب به على أعناق الأمة. ولم تتبين أم المؤمنين هذه الأهواء في وقتها. ولكنها علمت حقيقتها بعد ذلك. فلم تجد رضي الله عنها إلا الدمع تعبر به عن ندم طويل (٤). وسنذكر ذلك بتفاصيله في حينه.

٢ - الناكثون في أعماق الحجة:

كان الإمام علي يعلم إلى أين ستنتهي الأحداث. أولاً: لأن هناك نصاً أنه سيقا تل الناكثين والقاسطين والمارقين. ومن كان هذا شأنه فلا بد أن يعرف البدايات التي ستنتهي إلى ميدان القتال. وثانياً: لأنه كان قد تعلم رؤوس الفتن ورؤوس النفاق، روى أنه قال: "ما من ثلاثمائة تخرج إلا ولو شئت سميت

(١) رواه البزار وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٢٣٦ / ٧).

(٢) رواه الحاكم (المستدرک ١٢٠ / ٣).

(٣) رواه البخاري (فتح الباري حديث رقم ٣١٠٤، ص ٢٤٣ / ٦ ط الریان)، ومسلم

(الصحيح ٣١ / ١٨)، والإمام أحمد والترمذي (الفتح الرباني ١٨ / ٢٤).

(٤) ندم السيدة عائشة رواه الطبراني (الزوائد ٢٣٨ / ٧) وابن سعد (الطبقات ٧٤ / ٨) والحاكم

(المستدرک ٦ / ٤).

سائقها وناعقها إلى يوم القيامة " (١)، وعن حذيفة قال: "... والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعدا إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه واسم قبيلته " (٢). ولأن الإمام يعلم الرجال ومقاصدهم. كانت حركته كلها حجة عليهم. روي أنه بعد قتل عثمان جاء علي بن أبي طالب فقال لطلحة: أبسط يدك يا طلحة لأبايعك. فقال طلحة: أنت أحق وأنت أمير المؤمنين فابسط يدك فبسط علي يده فبايعه (٣). وطلحة كان يطمع في الخلافة. وكان لا يشك أن الأمر بعد عثمان سيكون له لوجوه منها: سابقته. ومنها أنه ابن عم لأبي بكر. وكان لأبي بكر في نفوس أهل ذلك العصر منزلة عظيمة، ومنها أنه كان سمحا جوادا. وقد كان نازع عمر في حياة أبي بكر. وأحب أن يفوض أبو بكر الأمر إليه من بعده (٤). وقال لأبي بكر: ما تقول لربك وقد وليت علينا فظا غليظا. وكان له في أيام عمر قوم يجلسون إليه. ويحادثونه سرا في معنى الخلافة. ويقولون له: لو مات لباعناك بغتة. وعندما بلغ ذلك عمر. خطب الناس بالكلام المشهور: إن قوما يقولون: إن بيعة أبي بكر كانت فلتة. وإنه لو مات عمر لفعلنا وفعلنا... " (٥) وعندما جعلها عمر شورى لم يجد طلحة لنفسه مخرجا للفوز بالخلافة. حيث إن الشورى ما كانت لتصب إلا في إناء بني أمية لأن عثمان و عبد الرحمن وسعدا حزمة واحدة. بالإضافة إلى أن وجود عبد الرحمن في فريق يرجح هذا الفريق على الفريق الآخر كما نصت لائحة الشورى. ورضي طلحة بالأمر الواقع حتى جاءت الأحداث التي أطاحت بعثمان. وكما رأينا أنه كان من المؤيدين عليه واستولى على مفتاح بيت المال أثناء هذه الثورة. لأنه كان لا يشك في أن الأمر سيصب في سلته. ومن العجيب أن أم المؤمنين عائشة كانت على علم بهذه

(١) رواه نعيم بن حماد بإسناد صحيح (كنز العمال ٢٧١ / ١١).

(٢) رواه أبو داود حديث ٤٢٢٢.

(٣) الطبري ١٥٦ / ٥.

(٤) ابن أبي الحديد ١٤٦ / ٣.

(٥) الطبري ٢٠٠ / ٣.

الأحداث وهي في مكة. روي أن ابن عباس مر بها في الصلصل. فقالت: يا ابن عباس أنشدك الله. فإنك قد أعطيت لسانا إزعيلا (١). أن تخذل عن هذا الرجل - يعني عثمان - وأن تشكك فيه الناس. فقد بانت لهم بصائرهم. وأنهجت ورفعت لهم المنار. وتحلبوا من البلدان لأمر قد جم وقد رأيت طلحة بن عبيد الله. قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح. فإن يل يسر بسيرة ابن عمه أبي بكر رضي الله عنه. فقال ابن عباس: يا أمه لو حدث بالرجل حدث. ما فزع الناس إلا إلى صاحبنا - يعني عليا - فقالت: إيها عنك. إني لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك " (٢). وعندما بلغها قتل عثمان قالت: أحق الناس بهذا الأمر لذي الإصبع - تعني طلحة - فلما جاءت الأخبار ببيعة علي قالت: تعسوا تعسوا لا يردون الأمر في تيم أبدا " (٣). فهذا الطريق الطويل أقام الإمام علي عليه الحجة في أوله عندما قال لطلحة: أبسط يدك يا طلحة لأبايعك. وذلك ليقطع طريق الهوى (٤). وهو يعلم أن طريق الهوى سيصب في ميدان القتال حيث يكون قتاله مع الناكثين. وليس معنى قتال الناكثين أن الحجة لم تقم عليهم في أول الطريق. وإنما قامت لأن الطريق سيكون عليه دماء. وهذه الدماء لها قانون. وهذا القانون تنيره حجة ظاهرة ناصعة.

وروي أن طلحة والزبير سألا علي بن أبي طالب أن يؤمرهما على الكوفة والبصرة. وكانا لهما أتباع فيهما. فقال علي: " تكونان عندي. فأتحمل بكما، فإنني وحش لفراقكما " (٥). وروي ابن قتيبة. أنهما قالوا: ولكننا بايعناك على أنا شريكان في الأمر. فقال علي لا. ولكنكما شريكان في القوة والاستقامة والعون

(١) ابن أبي الحديد.

(٢) الطبري ١٤٠ / ٥، البلاذري ٢١٧ / ٢.

(٣) ابن أبي الحديد ٤٠٩ / ٢.

(٤) روي أن طلحة والزبير قالوا بعد أن قال لهما على ذلك: عرفنا أنه لم يكن لبياعنا

(الطبري ١٥٣ / ٥).

(٥) الطبري ١٥٣ / ٥.

على العجز والأود " (١)، وبقي طلحة والزبير في المدينة أربعة أشهر يراقبان عليا من قريب (٢).

لقد كان طلحة يعلم أنه لن يكون له في ظل عهد أمير المؤمنين إلا ما يستحقه. ولذلك قال بعد أن بايع الناس عليا " ما لنا من هذا الأمر إلا كلحسة أنف الكلب " (٣)، وفي هذا اليأس جاءته رسالة من معاوية وفيها: أما بعد. فإنك أقل قریش وترا. مع صباحة وجهك. وسماحة كفك. وفصاحة لسانك. فأنت بإزاء من تقدمك في السابقة. وخامس المبشرين بالجنة. ولك يوم أحد وشرفه وفضله. فسارع رحمك الله إلى ما تقلدك الرعية من أمرها مما لا يسعك التخلف عنه. ولا يرضى الله منك إلا بالقيام به. فقد أحكمت لك الأمر قبلي. والزبير متقدم عليك بفضل. وأيكما قدم صاحبه فالمقدم الإمام. والأمر من بعده للمقدم له. سلك الله بك قصد المهتدين. ووهب لك رشد الموفقين. والسلام " (٤). ولم يكن طلحة وحده الذي أرسل إليه معاوية الرسالة الفخ. وإنما أرسل إلى الزبير أيضا. وفيها: ... واعلم يا أبا عبد الله. أن الرعية أصبحت كالغنم المتفرقة لغية الراعي. فسارع رحمك الله إلى حقن الدماء ولم الشعث. وجمع الكلمة. وصلاح ذات البين. قبل تفاقم الأمر وانتشار الأمة. فقد أصبح الناس على شفا جرف هار وعما قليل ينهار إن لم يرأب. فشمر لتأليف الأمة. وابتغ إلى ربك سبيلا. فقد أحكمت الأمر على من قبلي لك ولصاحبك. على أن الأمر للمقدم. ثم لصاحبه من بعده. جعلك الله من أئمة الهدى. وبغاة الخير والتقوى والسلام " (٥).

وبينما لوح لطلحة والزبير بالخلافة. نجده في رسائله إلى مروان بن الحكم وسعيد بن العاص و عبد الله بن عامر والوليد بن عقبة ويعلى بن منبه. يطالب

(١) الإمامة والسياسة ٥١ / ١.

(٢) تاريخ يعقوبي ١٢٧ / ٢، ابن أبي الحديد ٥٧٧ / ٣، الطبري ١٥٣ / ٥.

(٣) الطبري ١٥٣ / ٥.

(٤) ابن أبي الحديد ٥٣٣ / ٣.

(٥) ابن أبي الحديد ٥٣٣ / ٣.

بالحذر والسهر حتى لا يفلت الأمر من أيدي بني أمية. فهو يقول لمروان: فإذا قرأت كتابي هذا فكن كالفهد لا يصطاد إلا غيلة. ولا يتشازر إلا عن حيلة. وكالثعلب لا يفلت إلا روغانا. واخف نفسك منهم إخفاء القنفذ رأسه عند لمس الأكف. وامتهن نفسك إمتهان من يئأس القوم من نصره وانتصاره وابحث عن أمورهم بحث الدجاجة عن حب الدخن عند فقسها. وأنغل (١) الحجاز فإني منغل الشام والسلام " (٢).

وكتب إلي يعلى بن منبه،... فأما الشام فقد كفيتك أهلها. وأحكمت أمرها. وقد كتبت إلى طلحة بن عبيد الله. أن يلقاك بمكة. حتى يجتمع رأيكما على إظهار الدعوة والطلب بدم عثمان أمير المؤمنين المظلوم. وكتبت إلى عبد الله بن عامر يمهد لكم العراق. ويسهل لكم حزونة عقابها (٣). واعلم يا ابن أمية أن القوم قاصدوك بادئ بدء لاستنطاف ما حوته يداك من المال فاعلم ذلك واعمل على حسبه إن شاء الله " (٤).

وكتب إلى سعيد بن العاص:... إن أمير المؤمنين عتب عليه فيكم. وقتل في سبيلكم. فقيم القعود عن نصرته والطلب بدمه. وأنتم بنو أبيه. ذوو رحمه وأقربوه. وطلاب ثأره... فإذا قرأت كتابي هذا فذب ديب البرء في الجسد النحيف. وسر سير النجوم تحت الغمام... فقد أيدتكم بأسد وتيم " (٥). وكتب إلى عبد الله بن عامر: ساور الأمر مساورة الذئب الأطلس كسيرة القطيع. ونازل الرأي. وانصب الشرك. وارم عن تمكّن. وضع الهناء (٦) مواضع النقب (٧) واجعل أكبر عدتك الحذر. وأحد سلاحك التحريض... وقم قبل أن

(١) أنغلهم / أجملهم على الضعن.

(٢) ابن أبي الحديد ٥٣٣ / ٣.

(٣) العقاب / المرقى الصعب من الجبال.

(٤) ابن أبي الحديد ٥٣٦ / ٣.

(٥) ابن أبي الحديد ٥٣٤ / ٣.

(٦) هنا البعير / طلاء بالقطران.

(٧) النقب / هو أول ما يبدو من الجرب.

يقام لك. واعلم أنك غير متروك ولا مهمل. فإني لكم ناصح أمين... " (١)،
ودخل طلحة والزبير في فخاخ بني أمية بعد أن علم معاوية موطن الداء فيهما،
وبدأ كل من طلحة والزبير يعد العدة للذهاب إل مكة حيث توجد السيدة عائشة
وأذرع بني أمية التي ترتدي قفازات من حرير غمست في السم أياما طويلة.
وعن أم راشد قالت: سمعت طلحة والزبير يقول أحدهما لصاحبه: بايعته
أيدينا ولم تبايعه قلوبنا. فقلت لعلي بن أبي طالب فقال: " من نكث فإنما ينكث
على نفسه ومن أوفى بما عاهد الله عليه فسيؤتيه أجرا عظيما " (٢)، وجاء طلحة
والزبير. فاستأذناه في الخروج إلى مكة للعمرة. فأذن لهما. بعد أن أحلفهما ألا
ينقضا بيعته. ولا يغدرا به. ولا يشقا عصا المسلمين ولا يوقعا الفرقة بينهم
وأن يعودا بعد العمرة إلى بيوتهما بالمدينة. فحلفا على ذلك كله ثم
خرجا " (٣).

وروي أنه لما خرج طلحة والزبير إلى مكة وأوهما الناس أنهما خرجا
للعمره.. قال علي لأصحابه: والله ما يريدان العمرة وإنما يريدان الغدرة " ومن
نكث فإنما ينكث على نفسه " (٤)، وهكذا قامت الحجة في البداية وفي النهاية.
٣ - لقاء في مكة:

لما قتل عثمان كانت عائشة بمكة. وبينما هي في طريقها من مكة إلى
المدينة لقيها رجل يقال له عبد الله بن أبي سلمة. يعرف بأمه أم كلاب. فقال
لها: لا تدري. قتل عثمان. قالت: ثم صنعوا ماذا؟ قال: اجتمعوا على بيعه
علي. فقالت: ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك، ردوني ردوني.
فانصرفت إلى مكة وهي تقول: قتل والله عثمان مظلوما والله لأطلبن بدمه. فقبل

(١) ابن أبي الحديد ٥٣٤ / ٣.

(٢) رواه ابن أبي شيبة (كنز العمال ٢٣٥ / ١١).

(٣) ابن أبي الحديد ٥٧٦ / ٣، الطبري ١٦٣ / ٥.

(٤) ابن أبي الحديد ٥٧٦ / ٣.

لها: ولم والله إن من أول من أمال حرفه لأنت. ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلا فقد كفر. قالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه. وقد قلت وقالوا. وقولي الأخير خير من قولي الأول فقال لها ابن أم كلاب:

فمنك البداء ومنك الغير * ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام * وقلت لنا أنه قد كفر
فهبنا أطعناك في قتله * وقاتله عندنا من أمر (١)

وروي من طرق مختلفة أن عائشة كانت من أشد الناس على عثمان. وهي أول من سمى عثمان نعثلا. وكانت لا تشك في أن طلحة هو صاحب الأمر بعد عثمان. وروي أن عائشة نزلت على باب المسجد. وقصدت للحجر فسترت فيه. واجتمع الناس إليها فقالت: يا أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة. اجتمعوا إن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الأرب. واستعمال من حدثت سنه، وقد استعمل أسنانهم قبله. ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم. وهي أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها. فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحا لهم. فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا. خلجوا وبادءوا بالعدوان. ونبا فعلهم عن قولهم. فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام وأخذوا المال الحرام واستحلوا الشهر الحرام. والله لإصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم. فنجاة من اجتماعكم عليهم. حتى ينكل بهم غيرهم. ويشرد من بعدهم. ووالله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنبا. لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه " (٢). وروي ابن أبي الحديد أن طلحة والزبير كتبوا إلى عائشة وهي بمكة كتابا: أن خذلي الناس عن بيعه علي. وأظهري الطلب بدم عثمان. وحملا الكتاب مع ابن أختها عبد الله بن الزبير " (٣). وبدأت إذاعة المعارضين تعمل من أجل إيجاد رأي عام. واجتمع القوم في

(١) الكامل / ابن الأثير ١٠٦ / ٣، الطبري ١٧٢ / ٥.

(٢) الطبري ١٦٥ / ٣، الكامل ١٠٦ / ٣.

(٣) ابن أبي الحديد ٤٠٩ / ٢.

بيت أم المؤمنين عائشة، وقالوا: نسير إلى علي بن أبي طالب فنقاتله. فقال البعض: ليس لكم طاقة بأهل المدينة. ولكننا نسير حتى ندخل البصرة والكوفة وطلحة بالكوفة شيعة وهوى. وللزبير بالبصرة هوى ومعونة. فاجتمع رأيهم على أن يسيروا إلى البصرة (١). وأعلنت عائشة الاتفاق فقالت: أيها الناس إن هذا حدث عظيم وأمر منكر. فانهضوا فيه إلى إخوانكم. من أهل البصرة وأنكروه. فقد كفاكم أهل الشام ما عندهم - يعني معاوية - لعل الله عز وجل يدرك لعثمان وللمسلمين بثأرهم " (٢)، ورفع بنو أمية رؤوسهم. وقام سعيد بن العاص والوليد بن عقبة وسائر بني أمية. وقدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة ويعلى بن أمية - وينسب إلى أمه منه - من اليمن (٣). وجاء طلحة والزبير من المدينة. وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قد استحلفهما أن لا يوقعا الفرقة بين المسلمين. فحلفا على ذلك وغيره. وعندما التقت بهما عائشة قالت لهما: ما وراءكما؟ قالوا: فارقتا قوما حيارى لا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلاً " (٤). وبدأ الإعداد للغزو وقال يعلى بن أمية: معي ستمائة ألف وستمائة بعير فاركبوها. وقال عبد الله بن عامر معي كذا وكذا فتجهزوا به (٥). ونادى المنادي: إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة. فمن كان يريد إعزاز الإسلام وقتال المحلين. والطلب بثأر عثمان. ولم يكن عنده مركب ولم يكن له جهاز فهذه جهازه وهذه نفقته " (٦)، وكان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في مكة وقتئذ. وانطلق القوم إلى أم المؤمنين حفصة يسألونها رأيها في الأحداث فقالت: رأيي يتبع لرأي عائشة، وأرادت حفصة الخروج. فأتاها عبد الله بن عمر وطلب منها أن تقعد. فبعثت إلى عائشة أن عبد الله حال بيني وبين الخروج

(١) الطبري ١٦٨ / ٥.

(٢) الطبري ١٦٧ / ٥.

(٣) الطبري ١٦٦ / ٥.

(٤) الطبري ١٦٦ / ٥.

(٥) الطبري ١٦٦ / ٥.

(٦) الطبري ١٦٧ / ٥، البداية والنهاية ٢٣١ / ٧.

فقلت عائشة: يغفر الله لعبد الله " (١).
وبدأ التحرك. وذكر الطبري: أن مروان بن الحكم أذن للصلاة حين خرجوا
من مكة. ثم جاء إلى طلحة والزبير وقال: على أيكما أسلم بالإمرة وأؤذن
بالصلاة؟ فقال عبد الله بن الزبير: علي أبي عبد الله. وقال محمد بن طلحة: علي
أبي محمد. فأرسلت عائشة إلى مروان وقالت: ما لك أتريد أن تفرق أمرنا.
ليصل ابن أخي!! فكان يصلي بهم عبد الله بن الزبير حتى قدم إلى البصرة (٢).
وبينما الركب في الطريق. شاهدوا رجلا معه جمل. فقالوا: يا صاحب الجمل
تبيع جملك؟ قال: نعم. قيل له: بكم؟ قال: بألف درهم.. قيل: لو تعلم لمن
نريده لأحسننا. قال: ولمن تريده، فقيل له: لأملك. قال: تركت أُمي في
بيتها قاعدة. قيل: إنما نريده لأُم المؤمنين عائشة، قال: فهو لك فخذه بغير
ثمن. قيل له: لا ولكن ارجع معنا إلى الرحل فلنعطك ناقة مهريّة ونزيدك
دراهم. وبعد أن أعطوه، قالوا له: يا أخا عرينة هل لك دلالة بالطريق. قال:
نعم: أنا من أدرك الناس. قالوا: فسر معنا. فسار معهم وكان لا يمر على واد
ولا ماء إلا سأله عنه. حتى طرّقوا ماء الحوآب فنبحتهم كلابها. قالوا: أي ماء
هذا. قال: ماء الحوآب. فصرخت عائشة. ثم قالت: أنا والله صاحبة كلاب
الحوآب. طروقا ردوني (٣). فقالوا لها: بل تقدمين فيراك المسلمون فيصلح الله
عزو جل ذات بينهم، قالت: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لها ذات
يوم: كيف بإحداكن تنبح عليه كلاب الحوآب وانطلقت أم المؤمنين نحو
البصرة، في الركب الذي أقيمت عليه الحجة.

(١) الطبري ١٦٧ / ٥.

(٢) الطبري ١٦٩ / ٥، الكامل ١٠٧ / ٣.

(٣) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ونعيم بن حماد وقال ابن كثير إسناده صحيح، وقال
الهيثمى رواه أحمد وأبو يعلى والبخاري، ورجال أحمد رجال الصحيح، ورواه الحاكم
وذكر أن القائل: تقدمي هو الزبير (الفتح الرباني ١٣٧ / ٢٣) (البداية والنهاية ٢١١ / ٦)،
(المستدرک ١٢٠ / ٣)، الطبري ١٧٨ / ٥.

٤ - نظرات على طريق البغي:

عندما بلغ أمير المؤمنين عليا ما استقر عليه طلحة والزبير. قال: والله ما أنكروا منكرا. ولا جعلوا بيني وبينهم نصفا (١) وإنهم ليطلبون حقا هم تركوه. ودماهم سفكوه. فإن كنت شريكهم فيه. فإن لهم نصيبهم منه. وإن كانوا ولوه دوني فما المطالبة إلا قبلهم. وإن أول عدلهم للحكم على أنفسهم. وإن معي لبصيرتي. ما لبست ولا لبس علي.

وإنها للفئة الباغية فيها الحمأ والحمة (٢). والشبهة المغدقة (٣). وإن الأمر لو واضح. وقد زاح الباطل عن نصابه (٤). وانقطع لسانه عن شغبه (٥). وأيم الله لأفرطن لهم حوضا أنا ماتحه (٦). لا يصدرون عنه بري، ولا يعبون (٧) بعده من حسي " (٨).

قال ابن أبي الحديد: والمعنى: والله ما أنكروا علي أمرا هو منكر في الحقيقة. وإنما أنكروا ما الحجة عليهم فيه لا لهم. وحملهم على ذلك الحسد وحب الاستئثار بالدنيا. وقال: ولا جعلوا بيني وبينهم نصعا أي وسيطا يحكم وينصف. بل خرجوا عن الطاعة بغتة. وإنهم ليطلبون حقا تركوه. أي يظهرون أنهم يطلبون حقا بخروجهم إلى البصرة. وقد تركوا الحق بالمدينة. وقال: إن هؤلاء خرجوا ونقضوا البيعة. وقالوا: إنما خرجنا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإظهار العدل وإحياء الحق. وإماتة الباطل. وأول العدل أن يحكموا على أنفسهم. فإنه يجب على الإنسان أن يقضي على نفسه ثم على غيره. وإذا

(١) النصف / الأنصاف.

(٢) الحمأ / الطين الأسود، حمة العقرب / سمها.

(٣) الشبهة المغدقة / أي الخفية.

أي بعد وذهب عن مركزه ومقره.

(٥) الشغب / تهيج الشر.

(٦) لأفرطن لهم حوضا / أي لأملأن، الماتح / المستفي من فوق.

(٧) العب / الشرب بلا مص كما تشرب الدابة.

(٨) الحس / ماء كامن في رمل يحفر عنه.

كان دم عثمان قبلهم. فالواجب أن ينكروا على أنفسهم قبل إنكارهم على غيرهم. وقال: إن معي لبصيرتي. أي عقلي أي أوضح النبي صلى الله عليه وآله وسلم لي كل شيء وعرفنيه. وإنها للفئة الباغية. أي الفئة التي وعدت بخروجها علي ثم ذكر بعض العلامات. وقال: إن الأمر لواضح. وقوله هذا يؤكد به عند نفسه وعند غيره. أن هذه الجماعة هي تلك الفئة الموعود بخروجها. ثم أخبر: وقد ذهب الباطل وزاح. وخرس لسانه. ثم أقسم: ليملأن لهم حوضا هو ماتحه - يسقيهم من فوقه - وهذه كناية عن الحرب والهجاء وما يتعقبهما من القتل والهلاك (١).

وبعد أن كشف الإمام النقاب عن بداية حرب البغاة التي تحمل أسماء مختلفة وتدور رحاها في ميادين مختلفة. بين أن البغاة يسيرون نحو هدف واحد يقتلون عليه بعضهم بعضا ويبدلون في سبيله كل نفيس. وهذا الهدف هو الحكم. قال الإمام بعد نكت طلحة والزبير: " كل واحد منهم يرجو الإمام له. ويعطفه عليه دون صاحبه ولا يمتان (٢) إلى الله بحبل ولا يمدان إليه بسبب. كل واحد منهما حامل ضب (٣) لصاحبه. وعما قليل يكشف قناعه به. والله لئن أصابوا الذي يريدون لينتزعن هذا نفس هذا. وليأتين هذا على هذا. قد قامت الفئة الباغية فأين المحتسبون (٤). قد سنت لهم السنن. وقدم لهم الخير. ولكل ضال علة. ولكل ناكث شبهة. والله لا أكون كمستمع الدم (٥). يسمع الناعي ويحضر الباكي. ثم لا يعتبر " (٦).

فطريق البغي لا يتمسك بحبل الله وأصحاب الرؤوس الكبيرة من صفاتهم أن كل واحد منهم يريد الأمر لنفسه. ولأن هذه هي الحقيقة فإن تحت راياتهم لا

(١) ابن أبي الحديد ١٥١ / ٣.

(٢) يمتان / يتوسلان.

(٣) انصب / الحقد.

(٤) المحتسبون / طالبو الأجر

(٥) مستمع الدم / كناية عن الضبع حين تسمع وقع الحجر فتستسلم للصائد.

(٦) ابن أبي الحديد ٢٠٦ / ٣.

يدري المقتول في أي شيء قتل. ولا يرى القاتل إلا طعاما له بريق. والقاتل والمقتول لا يدريان شيئا عن الحقيقة. لأن الراية عمية ومرفوعة في ساحات العصية. وقد يكون قتال الرجل في هذه الساحات لينصر عصبته. ولكن الحقيقة أن هذا الغضب والقتال والنصر سيصب في نهاية المطاف داخل سلة رؤوس البغاة. ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " لو أن الناس اعتزلوهم " لأن في الاعتزال نجاة من الموتة الجاهلية يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات فميتته جاهلية " (١)، وقال: " من قتل تحت راية عمية ينصر العصية ويغضب للعصية فقتلته جاهلية " (٢). وفي عصر الإمام علي قال الإمام: قد قامت الفئة الباغية. فأين المحتسبون. أي أين طلاب الأجر؟ ثم قال: لكل ضال علة. ولكل ناكث شبهة. كأنه يقول: إذا كانوا قد خرجوا فلا بد أن يكون لهم تأويل في خروجهم. وكل ناكث لا بد له من شبهة يستند إليها.

ولأن الإمام خبير في معرفة الرجال. ولأنه يقاتل على التأويل كما قاتل النبي صلى الله عليه وسلم على التنزيل. قال: والله لا أكون كمستمع الدم. أي: لن يكون كالضبع. تسمع وقع الحجر بباب حجرها من يد الصائد. فتتخذل وتكف جوارحها إليها حتى يدخل عليه فيربطها. ولن يكون مقرا بالضمير راعنا، يسمع المخبر عن القتلى فلا يكون عنده شيء من التغيير والإنكار. ومن رحمة الله تعالى أنه سبحانه جعل في عصر الصحابة من يرشدهم إلى طريق الصواب. على الرغم من سياسة اللارواية. فأبو ذر كان رواية متحركة في عهد ما وهذه الرواية ينطق بها صمت أبو ذر ويسمعها من أراد الله أن يقيم الحجة عليه. فالرواية المتحركة لها إيقاع خاص ومذاق خاص عند نمط خاص. وكان أبو ذر يبشر الذين يكتزون الذهب والفضة بمكاو من نار. وفي عصر الإمام علي كان عمار رواية متحركة، حجة بذاتها على نوع خاص يدعوهم إلى الجنة

(١) رواه أحمد ومسلم (الفتح الرباني ٥٢ / ٢٣).

(٢) رواه مسلم وابن ماجه (كنز العمال ٥٠٩ / ٣).

ويدعونه إلى النار. باختصار كان عمار حجة على البغاة. حجة على أول طريقهم وحجة على نهاية طريقهم. وليس معنى أنه قتل في آخر الطريق أنه لم يكن له وجود في أول الطريق. لأن عمارا بمثابة مشعل على طريق طويل. وهذا المشعل وقوده عند علي بن أبي طالب. قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمار: " يا عمار إن رأيت عليا قد سلك واديا. وسلك الناس واديا غيره. فاسلك مع علي ودع الناس. إنه لن يدلك على ردى ولن يخرجك من الهدى " (١)، لهذا كان حذيفة يقول بعد مقتل عثمان: " آمركم أن تلزموا عمارا. قالوا: إن عمارا لا يفارق عليا. قال: إن الحسد هو أهلك الجسد. وإنما ينفركم من عمار قربه من علي. فوالله لعل أفضل من عمار أبعد ما بين التراب والسحاب. وإن عمارا لمن الأحاب " (٢)، وإذا كان طريق علي بن أبي طالب واضحا وضوح الشمس في كبد السماء فإن طريق عمار واضح أيضا فهو ما عرض عليه أمران قط إلا اختار الأرشد منهما (٣) وهو على الفطرة (٤)، وأجاره الله من الشيطان على لسان نبيه (٥)، ومن عاداه عاداه الله ومن أبغضه أبغضه الله (٦). باختصار كان عمار يحمل مؤهلات طريق علي بن أبي طالب. وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال لعل: " يا علي ستقاتلك الفئة الباغية وأنت على الحق فمن لم ينصرك يومئذ فليس مني " (٧)، فإنه قال لعمار الذي يحمل معالم الجندية على طريق علي: " ستقاتلك الفئة الباغية وأنت على الحق. فمن لم ينصرك يومئذ فليس مني " (٨). وطريق علي بن أبي طالب يبدأ من أول خطوة رفع فيها علي سيفه.

(١) رواه الديلمي (كنز العمال ٦١٤ / ١١).

(٢) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٢٤٣ / ٧).

(٣) رواه أحمد (الفتح ٣٣٠ / ٢٢) والحاكم وصححه (المستدرک ٣٨٨ / ٣)، والترمذي وصححه (الجامع ٦٦٨ / ٥).

(٤) رواه البزار والطبراني ورجالهما ثقات (الزوائد ٢٩٥ / ٩).

(٥) رواه البخاري في مناقب عمار (الصحيح ٣٠٥ / ٢).

(٦) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الزوائد ٢٩٣ / ٩).

(٧) رواه ابن عساكر (كنز العمال ٦١٣ / ١١).

(٨) رواه ابن عساكر (كنز العمال ٣٥١ / ١١).

ولخطورة ضربات سيف علي وما سترتب عليها حمل عمار أقوى تحذير على الإطلاق: " تقتله الفئة الباغية. يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار " وهذا في حد ذاته دعوة للتفكير. فأى قوات ستجابه جيشا فيه عمار. لا يمكن أن تقطع بأن عمارا سيخرج من المعركة سالما وأنه لن يصيبه ما يؤدي إلى قتله. وعلى هذا فمن الواجب أن تعيد هذه القوات ترتيب أوراقها في اتجاه التوبة. وإذا كان هذا التحذير يحيط بعمار. فإن هناك تحذيرا آخر حملته الصحابة منهم أبو رافع. قال النبي صلى الله عليه وسلم: " يا أبا رافع سيكون بعدي قوم يقاتلون عليا. حق على الله جهادهم. فمن لم يستطع جهادهم بيده فبلسانه. ومن لم يستطع بلسانه فبقلمه. ليس وراء ذلك شيء " (١)، وذلك حتى لا يدق في أرضية الصحابة أوتاد يأتي عليها الشارد والوارد والسابق واللاحق. وما هي إلا أوتاد فتن لا تصيب الذين ظلموا خاصة بل تتعداهم إلى غيرهم.

ولقد فطن عبد الله بن عباس للتحذير الذي حول عمار. فأراد أن يسمعه الناس بعد بيعة علي بن أبي طالب. حتى يكونوا على بينة من أمرهم قبل أن يفتح طريق البغي. فعن عكرمة أن ابن عباس قال له ولابنه علي: انطلقا إلى أبي سعيد الخدري فاسمعا من حديثه. قال: فانطلقنا فإذا هو في حائط له. فلما رأنا أخذ رداءه فجاءنا. فقعده. فأنشأ يحدثنا. حتى أتى على ذكر بناء المسجد قال: كنا نحمل لبنة وعمار بن ياسر يحمل لبنتين. فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل ينفض التراب عنه ويقول: يا عمار ألا تحمل لبنة كما يحمل أصحابك. قال: إني أريد الأجر من الله. فجعل ينفض التراب عنه ويقول: ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار " (٢)، والدعوة إلى النار لها أصول تحدث عنها حذيفة من قبل وذلك عندما قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: " فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم دعاة إلى أبواب جهنم من

(١) رواه الطبراني وقال الهيثمي فيه يحيى ابن الحسين لم أعرفه وبقية رجاله ثقات (الزوائد ١٣٤ / ٩).

(٢) رواه أحمد والبخاري (الفتح الرباني ٣٣١ / ٢٢).

أجابهم قذفوه فيها. قال: يا رسول الله صفهم لنا، فقال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا " (١)، فاختيار ابن عباس لأبي سعيد الخدري من أجل أن يسمع منه عكرمة وابنه علي. هذا الحديث في عمار كان لحكمة ومن وراء الحكمة هدف.

٥ - أصداء يوم غدیر خم:

كان لتحرك أم المؤمنين عائشة أثر عظيم على العديد من الأمصار. وذلك لأن العامة يعلمون أن السيدة عائشة عندما تتكلم فإنها تقف على أرضية ليست بعيدة عن النبي كما أنها قريبة من أرضية الخلافة بعد النبي، والخلفاء يعرف الناس عنهم الكثير، بينما لا يعرفون شيئاً عن علي بن أبي طالب. الذي تتحرك مناقبه تحرك النجوم وراء السحب بعد عودة الرواية. وكان لإذاعة أم المؤمنين الأثر الأعظم. وذلك لوفرة المال الذي حمله يعلى بن أمية وعبد الله بن عامر من اليمن والبصرة فضلاً عن الدعم القوي من الشام. وكما قال الإمام علي: الناس أعداء ما جهلوا.... فلأن الناس كانوا يجهلون حقيقة الأمور فإن الأرضية التي وقفت عليها أم المؤمنين كانت تكسب كل يوم جديداً. فمكة لم يخرج منها احتجاج واحد. وفي الكوفة يقف في موسى في مربع السيدة عائشة فضلاً على أن الكوفة فيها شيعة لطلحة والبصرة لها هوى في الزبير. ومعاوية يراقب من الشام وعمرو بن العاص يتابع من فلسطين... فكل ذلك كان له تأثير على من في المدينة وأصبحت عملية حشد القوات عملية تواجهها صعوبات. والحشد بالمال ليس من سياسة أمير المؤمنين. فهو حجة ويعرف أنه مقتول في نهاية الطريق والحجة المقتول لا وقود له يحركه إلا الدين فالإمام كان يريد الجندي الرسالي الذي ينطلق من الدين وينتهي إلى الدين. لذا سنراه يبكي في آخر الرحلة وهو يتذكر أصحابه الذين قتلوا في المعارك. والجندي الرسالي لا بد له من نصوص لتأتي به إلى دائرة أمير المؤمنين. وبما أن الإمام إذا تحدث عن نفسه

(١) رواه أحمد (الفتح الرباني ٣١ / ٢٣) والبخاري (الصحيح ٢٨٠ / ٢).

هذا الوقت ربما شكك أعداؤه فيما تفاخر به. وبالذات بعد خروج السيدة عائشة. فهذا الخروج أوجد التباسا شديدا في تحديد من هم أهل البيت. وهذا التحديد وإن كان عتم عليه في عالم الرواية. إلا أنه بعد خروج السيدة عائشة زاد التعم وأضيف إليه الالتباس. فإذا ادعى علي أنه من أهل البيت. جاءه صوت من دائرة الجمل يقول إنه ليس وحده من أهل البيت. بل إنه إذا كان من أهل البيت فإن يده ملطخة بدم عثمان ومن كان كذلك سقطت عنه دعوى أن الله أذهب عنه الرجس وطهره تطهيرا. ومن دخل في هذه الدائرة فليس له حق في قيادة المسلمين. وللمسلمين أن يختاروا وأصحاب السوابق كثير. منهم طلحة والزبير ومعاوية الذي يراقب وغير هؤلاء كثير.. لهذا كله كان الحديث عن المناقب على لسان أمير المؤمنين تواجهه عقبات ستدخل المسلمين في جدل طويل. وهناك من يضع البصرة كهدف لهجوم لعملياته الحربية. وكان لا بد أن تأتي المناقب من روايات الساحة ليشهد الإمام لها ويشهد الناس عليها. ولقد رأينا فيما سبق كيف أن ابن عباس جاء بالتحذير الذي حول عمار من داخل الساحة ولم يتحدث هو به. ربما لقربه من الإمام.

وشاء الله تعالى أن تكون البداية من داخل الساحة كي تقام الحجة بلا شبهة. لقد جاءت الرواية ليقف أمير المؤمنين منها موقف الذي يستفسر أولا ثم يقيم الحجة ثانيا. عن رياح بن الحرث قال: جاء رهط إلى علي بالرحبة (١). فقالوا: السلام عليك يا مولانا. قال: كيف أكون مولاكم وأنتم قوم عرب، فقالوا: سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدیر خم: "من كنت مولاه فإن هذا مولاه" قال رياح: فلما مضوا تبعتمهم فسألت من هؤلاء، قالوا: نفر من الأنصار فيهم أبو أيوب الأنصاري (٢).

(١) الرحبة / فضاء وفسحة ورحبة المسجد ساحتها.

(٢) أخرجه أحمد وقال الهيثمي رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات (الفتح الرباني ١٢٦ / ٢٣)، (مجمع الزوائد ١٠٤ / ٩) وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رجاله ثقات وأورده ابن كثير في البداية (البداية ٥١٢ / ٥).

ومن عالم الغربة الذي استفسر فيه الإمام علي عن شئ يعرفه انتقل الحديث عن هذا إلى مكان أوسع. فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: شهدت عليا في الرحبة ينشد الناس: أنشد الله من سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول يوم غدیر خم: من كنت مولاه لما قام فشهد. قال عبد الرحمن: فقام اثنا عشر بدریا كأني أنظر إلى أحدهم عليه سراويل. فقالوا: نشهد أنا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدیر خم: أأست أولى بالمؤمنين من أنفسهم. وأزواجي أمهاتهم (١). فقلنا: بلى يا رسول الله. قال: فمن كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه (٢)، وفي رواية عن زيد بن شبعة قال: أليس الله أولى بالمؤمنين. قالوا: بلى، قال: اللهم من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه (٣)، وعن أبي الطفيل قال: جمع علي الناس في الرحبة، ثم قال لهم: أنشد الله كل امرئ مسلم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدیر خم ما قال لما قام (٤)، فقام إليه ثلاثون من الناس. وقال أبو نعيم: فقام إليه ناس كثير فشهدوا حين أخذ بيده وقال: أتعلمون أنني أولى بالمؤمنين من أنفسهم. قالوا: بلى يا رسول الله. قال: من كنت مولاه فهذا مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. قال أبو نعيم: فخرجت كأن في نفسي شيئا. فلقيت زيد بن أرقم فقلت له: إني سمعت عليا يقول كذا وكذا. قال زيد: فما تنكر؟ قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ذلك (٥).

-
- (١) تحريم زوجات النبي في هذا المقام يعادل تحريم الولاية على غير أصحابها.
(٢) رواه أحمد وقال في الفتح أورده الهيثمي وقال: رواه أبو يعلى ورجاله وثقوا (الفتح الرباني ١٢٦ / ٢٣).
(٣) رواه عبد الله بن أحمد والبخاري وقال الهيثمي إسنادهما حسن (الفتح الرباني ١٢٧ / ٢٣) وأورده ابن كثير في البداية (٢١١ / ٥)، ورواه البخاري (كشف الأستار ٣ / ١٩٠) والطبراني (المعجم الكبير ٥ / ١٧٥).
(٤) يلاحظ أن الإمام لم يقل متن الحديث وإنما استشهدهم أن يقولوا بما سمعوا. إمعانا في الحجة.
(٥) قال الهيثمي رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير فطر بن خليفة وهو ثقة (الزوائد

وعن عمرو ذي مر وسعيد بن وهب وزيد بن يثبع قالوا: سمعنا عليا يقول: نشدت الله رجلا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدیر خم ما قال لما قام. فقام ثلاثة عشر رجلا. فشهدوا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: أأست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. فأخذ بيد علي وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وأحب من أحبه وأبغض من أبغضه وانصر من نصره وأخذل من أخذله " (١). وفي رواية عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: فقام بضعة عشر رجلا فشهدوا. وكنتم قوم فما فنوا من الدنيا إلا عموا وبرصوا " (٢)، وأحاديث الرحبة رواها غير واحد (٣)، وبعد أن أخذ علي من الناس شهادتهم قال: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حضر الشجرة بخم ثم خرج أخذنا بيدي فقال: " أيها الناس أأستم تشهدون أن الله ربكم؟ قالوا: بلى، قال: أأستم تشهدون أن الله ورسوله أولى بكم من أنفسكم وأن الله ورسوله مولاكم، قالوا: بلى، قال: فمن كان الله ورسوله مولاه فإن هذا مولاه. وقد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده، كتاب الله سببه بيده وسببه بأيديكم أهل بيتي " (٤).

وكان تعريف أهل البيت فيه التباس شديد فمن هم أهل البيت؟ وهل أزواج النبي منهم أم أنهم يساكنونهم ويعولهم ولهم احترامهم وإكرامهم؟ وهذا

-
- ١٠٤ / ٩) وقال ابن كثير رواه النسائي إسناده جيد (البداية ٢١٠ / ٥).
- (١) رواه البرار وابن جرير وقال الهيثمي رجال إسناده ثقات (كنز العمال ١٥٨ / ١٣) وقال الألباني إسناده جيد (الصحيحة ٣٤٣ / ٥).
- (٢) رواه الخطيب في الأفراد (كنز العمال ١٣١ / ١٣) وابن كثير في البداية (البداية ٢١١ / ٥).
- (٣) رماه البزار ورجاله رجال الصحيح وأبو يعلى ورجاله وثقوا و عبد الله بن أحمد (الزوائد ١٠٥ / ٩)، وقال ابن كثير في أحاديث الرحبة، روي من طرف متعددة عن علي بن أبي طالب وله طرق متعددة عن زيد بن أرقم وقال سعيد بن جبیر: وأنا سمعته من ابن عباس (البداية ٣٤٩ / ٧).
- (٤) رواه ابن جرير وابن أبي عاصم وابن راهويه والمحاملي بسند صحيح (كنز العمال ١٤٠ / ١٣).

الالتباس كان سببا في ذهاب بعض الناس إلى زيد بن أرقم للوقوف على حقيقة هذا الأمر. وقد يكون ذهابهم إلى زيد قبل خروج أم المؤمنين عائشة وقد يكون بعد ذلك، ولكن الأمر المؤكد أن خروج أم المؤمنين هو الذي أوجد السؤال. روى الإمام مسلم عن زيد بن حيان قال: انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد خيرا كثيرا. رأيت رسول الله وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت خلفه. لقد لقيت يا زيد خيرا كثيرا. حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال زيد: يا ابن أخي والله لقد كبر سني وقدم عهدي ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فما حدثتكم فأقبلوا. وما لا فلا تكلفوني. ثم قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا خطيبا بماء يدعى خميا بين مكة والمدينة. فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر. ثم قال: أما بعد ألا أيها الناس. فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول فأجيب. وأنا تارك فيكم الثقلين. أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور. فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحث على كتاب الله ورغب فيه. ثم قال: وأهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد. أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته!! ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس، قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم " (١)، نقول: وهذه الرواية توسعت في تحديد من هم أهل البيت. وقد روي أن " لكل شيء ذروة "، وآل علي في حديث مسلم في المقدمة. وفي رواية عند مسلم أيضا عندما سألوا زيدا: أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: لا. وأيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر. ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها. أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده " (٢)، فإذا كان أهل بيته أصله فإنه في حديث

(١) رواه مسلم في فضائل علي (الصحيح ١٧٩ / ١٥) وأحمد والحاكم (الفتح الرباني ١٠٤ / ٢٢).

(٢) رواه مسلم (الصحيح ١٨١ / ١٥) في فضائل علي.

صحيح يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " علي أصلي... " (١)، ويقول النووي في شرحه لحديث مسلم: والمعروف في معظم الروايات في غير مسلم أنه قال: نساؤه لسن من أهل بيته " (٢).

كانت هذه رواية مسلم وظهر فيها سؤال يبدو أنه شغل الجميع في وقته. ولقد رأينا إجابات زيد بن أرقم. وفي روايات أخرى لم ينقطع العديد من الناس عن سؤال زيد. ولقد سئل أن يحدثهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع فنزل غدير خم أمر بدوحات فقمن، ثم قام فقال: كأني قد دعيت فأجبت. إني قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء والأرض. وعترتي أهل بيتي. فانظروا كيف تخلفوني فيهما. فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض. ثم قال: إن الله مولاي وأنا مولى كل مؤمن. ثم أخذ بيد علي فقال: من كنت مولاه فعلي وليه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. فقيل لزيد: أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم!! فقال: ما كان في الدوحات أحد إلا قد رآه بعينه وسمعه بأذنه " (٣).

لقد شهد زيد على عهد عاد رجاله مع النبي صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع. وكما شهد زيد شهد أبو هريرة. روى أنه دخل المسجد فاجتمع إليه الناس فقام إليه شاب فقال: أنشدك بالله سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من كنت مولاه فعلي مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، فقال: إني أشهد أنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه " (٤). وإذا كان الصحابة قد

(١) رواه الطبراني في الكبير والضياء بسند صحيح (كنز العمال ٦٠٢ / ١٣).

(٢) مسلم شرح النووي ١٨١ / ١٥.

(٣) رواه ابن جرير عن زيد وعن أبي سعيد (كنز العمال ١٠٤ / ١٣١).

(٤) رواه أبو يعلى والبخاري والطبراني ورجال أبي يعلى والطبراني ثقات (الزوائد ١٠٦ / ٩).

وذكر ابن كثير في البداية (٢١٣ / ٥).

شهدوا أمام الأجيال بحديث الولاية. فإنهم أيضا شهدوا بحديث المنزلة. روى الإمام مسلم عن سعيد بن المسيب عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي. قال سعيد بن المسيب: فأحببت أن أشافه بها سعدا. فلقيت سعدا فحدثته بما حدثني عامر. فقال سعد: أنا سمعته فقلت: أنت سمعته! فوضع أصبعيه على أذنه وقال: نعم وإلا فأسكتنا (أي صمتا) " (١)، وإذا كان الصحابة قد شهدوا على حديث المنزلة. فإن أم المساور كانت لها شهادة أخرى. فعن المساور الحميري عن أمه قالت: دخلت على أم المؤمنين أم سلمة فسمعتها تقول: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: لا يحب عليا منافق ولا يبغضه مؤمن " (٢)، وهكذا اكتملت الدائرة وجاءت المناقب كالنجوم عندما تظهر من وراء السحاب ليلتقي ضوءها مع ضوء القمر. وكفى بالمناقب الثلاث لتقوم الحجة على أجيال الجمل وصفين والنهروان. وأجيال أخرى عاشت عصورا حق لها أن تبكي بلا احتجاز.

٦ - على هامش أصداء يوم خم:

لقد ذكرنا فيما سبق بعض الأحاديث الواردة في حق أمير المؤمنين. ولقد وجدت أن ذكر بعضها هنا مرة أخرى يلقي الضوء على الأحداث فيمكن فهمها بسهولة. فأمير المؤمنين بعد أن ضجت الساحة بالأحداث. وبعد أن واجه الصحابة بيوم خم. لم تقف المعارضة له موقف المستسلم. ولقد واجهت المعارضة جميع رسل الله عليهم السلام في وقت كانت الحجج الدامغة فوق رؤوسهم. وأمام صد المعارضة بدأ الإمام علي يكشف عن نفسه وفقا لما يقتضيه الموقف. ومن المعلوم أن أمير المؤمنين كان مخصوصا من دون الصحابة رضوان الله عليهم بخلوات كان يخلو بها مع رسول الله صلى الله عليه

(١) رواه مسلم (الصحيح ١٧٤ / ١٥) في فضائل علي.
(٢) رواه الترمذي وحسنه (الجامع ٦٣٥ / ٥) ورواه أحمد (الفتح الرباني ١٢١ / ٢٣).

وآله وسلم. لا يطلع أحد من الناس على ما يدور بينهما، وكان كثير السؤال للنبي صلى الله عليه وآله عن معاني القرآن وعن معاني كلامه صلى الله عليه وسلم. وإذا لم يسأل ابتدأه النبي صلى الله عليه وسلم بالتعليم والتثقيف. ولم يكن أحد من الصحابة كذلك. بل كانوا أقساما: فمنهم من يهابه أن يسأل، وهم الذين يحبون أن يجيء الأعرابي أو الطارق فيسأله وهم يسمعون. ومنهم من كان بعيد الفهم قليل الهمة في النظر والبحث. ومنهم من كان مشغولا عن طلب العلم وفهم المعاني. إما بعبادة أو دنيا. ومنهم المقلد الذي يرى أن فرضه هو السكوت وترك السؤال. ومنهم المبغض الشائئ الذي ليس للدين عنده من الموقع ما يضيع وقته وزمانه بالسؤال عن دقائقه وغوامضه. أما علي رضي الله عنه يضاف إلى الأمر الخاص به ذكاؤه وفطنته. وطهارة طينته. وإشراق نفسه وضوؤها... فلذلك كان علي كما قال الحسن البصري رباني هذه الأمة وذا فضلها " (١)، وقيل للحسن البصري: ما تقول في علي بن أبي طالب؟ فاحمرت وجنتا الحسن وقال: رحم الله عليا. إن عليا كان سهما صائبا في أعدائه. وكان في محلة العلم أشرقها وأقربها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله. وكان رهباني هذه الأمة. لم يكن لمال الله بالسروقة. ولا في أمر الله بالنومة. أعطى القرآن عزائمه وعمله وعلمه. فكان منه في رياض موقنة وأعلام بينة (٢). وعندما بدأ أمير المؤمنين يكشف عن نفسه في عالم الرواية بعد اندثار عالم اللارواية روي عنه أنه قال: " اللهم لا أعرف أن عبدا لك من هذه الأمة عبدك قبلي غير نبيك - قالها ثلاث مرات - لقد صليت قبل أن يصلي الناس سبعا " (٣)، وقال: " أنا أول من صلى مع رسول الله " (٤)، وقال: " كنت إذا سألت الله

(١) ابن أبي الحديد ٥٩٨ / ٣.

(٢) البداية والنهاية ٥ / ٨.

(٣) رواه أحمد وقال في الفتح: وقال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى والبخاري وإسناده حسن (الفتح الرباني ٣٦ / ٢٣)، (كنز العمال ١٢٦ / ١٣)، (تحفة الأحوازي ٢٣٤ / ١٠).

(٤) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ١٠٣ / ٩) ورواه الطبراني وابن أبي شيبة

صلى الله عليه وسلم أعطاني وإذا سكت ابتدأني " (١)، وقال: " كان لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم مدخلان. مدخل بالليل ومدخل بالنهار " (٢)، وقال: لما نزلت هذه الآية " (وأنذر عشيرتك الأقربين) جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل بيته وقال: من يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ووليكم من بعدي، فمددت. وقلت: أنا أبايعك وأنا يومئذ أصغر القوم فبايعني على ذلك " (٣)، وقال: " إنه دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وقد بسط شملة (كساء يتغطى ويتلفف به) فجلس عليها هو وعلي وفاطمة والحسن والحسين. ثم أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بمجامعه ف عقد عليهم ثم قال: اللهم ارض عنهم كما أنا عنهم راض (٤) - وفي رواية - ثم تلا هذه الآية: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)، وقال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: " إن الله يغضب لغضبك ويغضب لرضاك " (٥)، وقال: " والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي الأمي صلى الله عليه وآله إلي، أن لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق " (٦)، وقال: " جاء النبي صلى الله عليه وسلم أناس من قريش. فقالوا: يا محمد. إنا جيرانك وحلفاؤك. وإن ناسا من عبيدنا قد أتوك. ليس بهم رغبة في الدين ولا رغبة في الفقه. إنما فروا من ضياعنا وأموالنا. فأرددهم إلينا. فقال لأبي بكر: ما تقول. قال: صدقوا إنهم لجيرانك وأحلافك. فتغير وجه

وابن سعد (كنز العمال ١٢٤ / ١٣).

(١) رواه الترمذي وحسنه (الجامع ٦٣٧ / ٥)، (تحفة الأحوازي ٢٢٥ / ١٠) رواه النسائي وابن خزيمة في صحيحه، والحاكم وأبو نعيم وسعيد بن منصور (كنز العمال ١٢٠ / ١٣).

(٢) رواه النسائي ١٢ / ٢.

(٣) رواه أحمد وابن جرير والضياء بسند صحيح (كنز العمال ١٢٩، ١٣٣، ١٧٥ / ١٣)، (الفتح الرباني ١٢٢ / ٢٣).

(٤) رواه الطبراني في الأوسط وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ١٦٩ / ٩) وحديث الكساء روي عن عدد من الصحابة وقد خرجناه من قبل.

(٥) رواه الطبراني وقال الهيثمي إسناده حسن (الزوائد ٢٠٣ / ٩).

(٦) رواه مسلم (الصحيح ٢١٦٤)، حب علي من الإيمان.

رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لعمر: ما تقول، قال: صدقوا إنهم لجيرانك وحلفاءوك. فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا معشر قريش والله ليبعثن الله عليكم رجلا قد امتحن الله قلبه بالإيمان، فيضربكم على الدين!! أو يضرب بعضكم!! فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله، قال: لا، قال عمر: أنا يا رسول الله. قال: لا. ولكنه الذي يخصف النعل - وكان أعطى عليا نعلا يخصفها" (١)، وفي رواية قال راوي الحديث عن علي: ثم التفت إلينا علي فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار" (٢).

وقال علي: والله ما قوتل أهل هذه الآية منذ نزلت: (وإن نكثوا إيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم) (٣)، وقال: "عهد إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتال الناكثين والقاسطين والمارقين" (٤)، وقال: ولقد علم المستحفظون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أنني لم أرد على الله ولا على رسوله ساعة قط. ولقد واسيته بنفسي من المواطن التي تنكص فيها الأبطال وتتأخر الأقدام. نجدة أكرمني الله بها. ولقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإن رأسه لعلى صدري. ولقد سألت نفسه في كفي. فأمررتها على وجهي، ولقد وليت غسله صلى الله

(١) رواه أحمد وابن جرير وصححه وسعيد بن منصور والضياء بسند صحيح (كنز العمال ١٢٧، ١٧٣ / ١٣).

(٢) رواه الترمذي وحسنه (الجامع ٦٣٤ / ٥) والخطيب وابن جرير والضياء بسند صحيح (كنز العمال ١١٥، ١٩٣ / ١٣).

(٣) رواه ابن مردويه (كنز العمال ٤٢٥ / ٢)، (الدر المنثور ٢١٥ / ٣)، وروي أيضا عن ابن عباس وحذيفة وأخرجه ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن ابن عمر (كنز العمال ٤١٧، ٤٢٦ / ١)، وروي أن حذيفة قال: ما بقي من أصحاب هذه الآية إلا ثلاثة ولا من المنافقين إلا أربعة. وأخرجه ابن أبي شيبة والبخاري في تاريخه وابن مردويه (الدر المنثور ٢١٤ / ٣).

(٤) رواه ابن عساكر وابن عدي والطبراني (كنز العمال ٢٩٢ / ١١)، وقال ابن كثير روي من طرق عديدة (البداية ٣٣٤ / ٧).

عليه وسلم والملائكة أعواني. فضجت الدار والأفنية: ملا يهبط، وملاً يعرج. وما فارقت سمعي هينمة منهم. يصلون عليه، حتى واريناه في ضريحه. فمن ذا أحق به مني حيا وميتا. فانفذوا على بصائرهم. ولتصدق نياتكم في جهاد عدوكم. فوالذي لا إله إلا هو إني لعلی جادة الحق. وإنهم لعلی منزلة الباطل. أقول ما تسمعون وأستغفر الله لي ولكم " (١).

لقد أخبرهم أن العلماء والأمناء من الصحابة يعلمون أنه لم يرد على الله ورسوله ساعة قط. ويعلمون أنه ثبت معه يوم أحد وفر الناس. وثبت معه يوم حنين وفر الناس. وثبت تحت رايته يوم خيبر حتى فتحها. وكل ذلك نجدة من الله أكرمه بها. وأخبرهم بحقيقة الأمر يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم. والحقيقة أن النبي صلى الله عليه وسلم قبض و إن رأسه لعلی صدر علي وليست على صدر أحد غيره. وأخبرهم أن الملائكة النازلين في الدار ارتفع ضجيجهم. وأنه سمع ذلك ولم يسمعه غيره من أهل الدار، وقال ابن أبي الحديد: حديث سماع الصوت رواه خلق كثير عن علي. وروي أن عليا عصب عيني الفضل بن العباس حين صب عليه الماء. وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصاه بذلك. وقال: إنه لا يبصر عورتي أحد غيرك إلا عمي " (٢)، ثم قال الإمام بعد ذلك: أي شخص أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم حال حياته وحال وفاته مني. قال ابن أبي الحديد: ومراده من هذا الكلام. أنه أحق بالخلافة بعده. وأحق الناس بالمنزلة منه. حيث كان بتلك المنزلة منه في الدنيا (٣)، ثم أمرهم فقال: فانفذوا إلى بصائرهم. أي أسرعوا إلى الجهاد على عقائدكم التي أنتم عليها. ولا تدخلن الشك والريب في قلوبكم. ثم بشرهم فقال: إني لعلی جادة الحق. وإنهم لعلی منزلة الباطل، قال ابن أبي الحديد: كلام عجيب على قاعدة الصناعة المعنوية لأنه لا يحسن أن يقول: وإنهم لعلی

(١) ابن أبي الحديد ٤٩٣ / ٣.

(٢) المصدر السابق، ٤٩٧ / ٣.

(٣) المصدر السابق، ٤٩٨ / ٣.

جادة الباطل. لأن الباطل لا يوصف بالجادة " (١).
وهكذا دارت الأحداث بعد مقتل عثمان. فلقد بايع الناس الإمام عليا
وعقب المبايعة بدأت الإصلاحات العلوية التي بدأت بقرار عزل الأمراء ثم بدأت
حركة الإصلاح تتسع فقام الإمام بالتسوية بين الناس في الأموال وتعديل نظام
الخراج فأعاد الحقوق للمقاتلة ثم بدأت الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم
تتسع وبدأ القص والقصاصون في ركوب دوابهم للاتجاه نحو عالم النسيان،
وبينما كانت حركة الاصطلاح تسير قطع الناكثون الفارون من بني أمية والمرترقة
عليها الطريق. وكانت حركة المعارضة عليها تحذير من النبي صلى الله عليه
وسلم لعلهم يرجعون ولكن الكلاب نبحت وما رجعوا. وكانت حركة الإصلاح
عليها تبشير من النبي صلى الله عليه وسلم وفيها علامات واضحة. وكان حتما
أن يواجه الناكثون خاصف النعل في ميدان القتال. وكانت المعارك أيضا عليها
علامات من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(١) المصدر السابق ٤٩٨ / ٣.